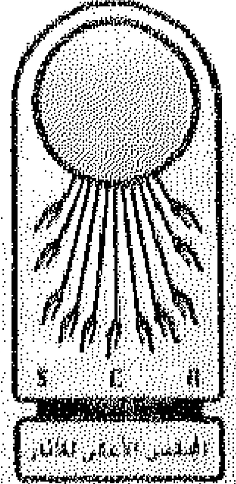


وزارة الثقافة
المجلس الأعلى للآثار

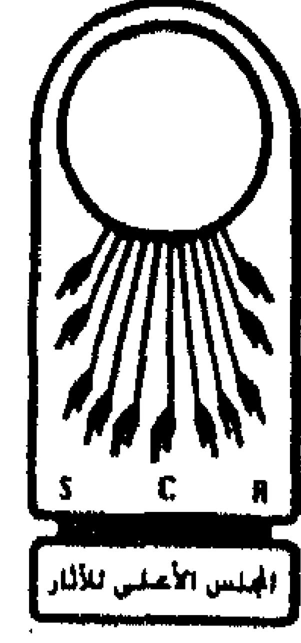
دراسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية

الجزء الأول

القاهرة ٢٠٠٠



الكتاب التقديرى للآثارى عبدالرحمن عبدالتواب



وزارة الثقافة
المجلس الأعلى للآثار

دراسات و بحوث
فى
الآثار و الحضارة الإسلامية

الجزء الأول - القاهرة ٢٠٠٠

الكتاب التقديرى
للآثارى
عبدالرحمن محمود عبدالتواب

تصميم وتنفيذ: آمال صفوت الألفى
مطابع المجلس الأعلى للآثار

الفهـــرس

مقدمة

يصدر المجلس الأعلى للآثار هذا الكتاب التذكارى الذى بين يدى القارئ تكريما لرائد من رواد العمل الأثرى الميدانى فى الآثار الإسلامية وهو الأستاذ عبد الرحمن محمود إبراهيم عبد التواب ، وينطوى تكريم العلماء الرواد فى أى مجال من المجالات العلمية على معان عدة من أهمها تسجيل الإنجازات لجيل الرواد وابراز القدرة المثالية فى العمل الجاد المخلص ، تحفيزا للأجيال اللاحقة على الصبر والمثابرة كما أن هذا التكريم دلالة على رد الجميل من الوطن ومن الذين تعلموا على يديه أو استفادوا من خبرته وآرائه . ويتجدد العطاء عندما يكون هذا التكريم على هيئة كتاب تذكارى يتضمن بين دفتيه أبحاثا علمية تضيف إلى المعرفة والعلم .

ومن الجدير بالذكر أن نعرف القارئ بصاحب هذا الكتاب التذكارى تعريفا خاصا يبرز جهوده وتوجيهاته العلمية والعملية والإدارية فى تطوير العمل الآثارى .

الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب من مواليد مونسة فى محافظة المنوفية بتاريخ ٦ نوفمبر سنة ١٩١٦م ، وتلقى العلم فى المرحلة الإبتدائية والثانوية بالقاهرة ، وتخرج فى قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليا) سنة ١٩٤١م ثم حصل على دبلوم الدراسات العليا فى الآثار الإسلامية من نفس الجامعة سنة ١٩٤٤م .

وبدأ حياته العملية بالعمل فى إدارة حفظ الآثار فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٤٧م ، حيث عين مفتشا للآثار وتدرج فى الوظائف الآثارية حتى أصبح مديرا عاما لقطاع الآثار الإسلامية ومديرا عاما لمركز التسجيل ومديرا عاما للشئون الأثرية بهيئة الآثار المصرية .

وبعد وصوله إلى سن المعاش فى ١٩٧٦م عمل مستشارا لرئيس هيئة الآثار المصرية .

وطوال هذه السنوات الممتدة من تاريخ حياته فى العمل الآثارى كان للأستاذ عبد الرحمن عبد التواب بصماته الواضحة فى كل أوجه العمل الآثارى العلمى والإدارى .

ففى المجال العلمى كانت له البحوث والمؤلفات ومن بينها منشآتنا المائية عبر العصور ، وكتاب عن السلطان قايتباى المحمودى ، وترجم كتاب الأستاذ الدكتور أحمد فخرى عن جبانة البجوات ، كما أعد كثيرا من التقارير العلمية التى نشرت فى كراسات لجنة حفظ الآثار العربية ومن أهمها تقاريره عن آثار الجيزة والمنيا وأسيوط ويتابع المعهد الفرنسى للآثار نشر سلسلة من المجلدات الخاصة لمكتشفاته ودراساته لشواهد القبور جبانة أسوان وقد صدر منها ثلاثة أجزاء حتى الآن ، كما ساهم مع البعثة الفرنسية فى تسجيل المنازل والقصور فى القاهرة .

ويتميز الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب بالخبرة الواسعة فى مجال التنقيبات الأثرية التى قضى نحو ستة عشر عاماً فى إنجازها فى مواقع أثرية متنوعة كجبانة أسوان ودير أبو حنس ودير أبو مقار، ومنقباد وباويط ، ورشيد ، والفسطاط .

كما انه شارك فى الإشراف على أعمال التنقيبات التى أجرتها بعض البعثات الأجنبية فى مصر ومنها تنقيبات البعثتين السويسرية والفرنسية فى منطقة القلايا ، والبعثة الأمريكية فى الفسطاط ، وبعثة المعهد الألمانى فى أبو مينا وسقارة .

ولا شك أن هذه الخبرة العلمية والعملية كان لها أثرها الكبير فى تكوين شخصيته العلمية التى أثرت البحث العلمى فى مجال الآثار إثراءا واضحاً ، حتى أنه أصبح صاحب مدرسة علمية متميزة فى مجال الآثار ويكفى أن نشير إلى أنه صاحب الفضل فى تحديد طبيعة نوعية أطلال المبانى الأثرية فى منطقة القلايا وأن نسيجها المعمارى يقوم على أساس مجموعات سكنية للرهبان تضم كل مجموعة منها كنيسة كبيرة للعبادة ، كما كشف أن الرهبنة فى أوروبا وبخاصة فى سويسرا واسكتلندا قامت على أكتاف رهبان منطقة القلايا كما حدد بوضوح أن المنطقة التى عرفت بالكفور الشاسعة هى منطقة القلايا التى تضم ما يقارب من خمسمائة تل أثرى .

كذلك كشف للباحثين فى مجال الآثار الإسلامية عن أهمية التفسير الاجتماعى للآثار فى تحديد وظائفها وبين أهمية المصادر غير التقليدية التى تساعد كثيراً فى الدراسات الأثرية الإسلامية كالمصادر الفقهية والوثائق .

وكان للأستاذ عبد الرحمن عبد التواب بصماته الواضحة فى مجال ترميم الآثار الإسلامية وتكفى الإشارة هنا إلى مشروع المعهد الألمانى لترميم «مدرسة الأمير مثقال» وهو مشروع يعكس أهمية الإعداد العلمى والمتابعة السليمة فى التنفيذ ، وقد حصل هذا المشروع على جائزة الأغاخان ، وكشف بجهوده الدائمة عن أهمية ما تحتويه مخازن مدينة الفسطاط من محتويات أثرية لم تنل اهتمام الآثاريين السابقين عليه ، لكنه أشرف على تصنيفها وتوثيقها تمهيدا لنشرها أن شاء الله عن طريق المجلس الأعلى للآثار فى سلسلة من المجلدات تصل إلى أربعة عشر مجلداً بالتعاون مع بعثة مركز ثقافة الشرق الأوسط باليابان .

وللأستاذ عبد الرحمن عبد التواب رؤيته الخاصة فى مجال تطوير المبانى الأثرية الإسلامية وتوظيفها ، وهى الرؤية التى تساعد على المحافظة على الأثر بحالته الأصلية وعدم إقحام نشاطات أخرى خارجة على وظيفته الأصلية . وكان له فضل المحافظة على بقايا مدينة الفسطاط من خلال دفاعه المستميت ورفضه مشروع بناء مدينة سكنية على أرض الفسطاط وفرت لها دولة الكويت مصادر للتمويل بلغت ٥٠ مليون دينار فى فترة السبعينات .

وقد كان له الفضل أيضا فى التنبيه إلى ما ورد فى كراسات لجنة حفظ الآثار من تقارير عن المراحل السابقة فى ترميم الآثار وأهمية دراسة ما ورد فى هذه التقارير عند إعداد مشروعات الترميم المختلفة للآثار الإسلامية .

ومن هذا المنطلق كانت جهوده المستمرة فى الإشراف على مشروع كراسات لجنة حفظ الآثار العربية والمتضمن ترجمة ما لم يتم ترجمته من الكراسات من ٢٧–٤٠ وكذلك عمل فهرس للكراسات المترجمة من ١–٤٠ .

ومن مجالات الريادة التى طرقها الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب هو اهتمامه بكشف ودراسة الآثار المسيحية فى العصر الإسلامي والتى تجسد التسامح الإسلامى وتبرز فى ذات الوقت تأثر المسيحية بطرز العمارة الإسلامية وفى إطار هذا التوجه كان نشاطه المكثف فى مواقع أثرية مسيحية فى سنة ١٩٧٦ . حيث أتم فى هذا العام إجراء تنقيبات أثرية فى كل من دير أبو مقار ودير أبو حنس وباويط ومنقباد وقد كشفت هذه التنقيبات عن آثار معمارية مسيحية مهمة فى تاريخ العمارة المصرية . وإدراكا من سيادته بأهمية الإدارة فى تطوير العمل الآثارى كان حرصه الشديد على إنشاء قطاع للآثار الإسلامية والقبطية بهيئة الآثار المصرية وأصبح لهذا القطاع نفس صلاحيات قطاع الآثار المصرية ، كما أنشأ مركز تسجيل الآثار الإسلامية على غرار مركز تسجيل الآثار المصرية وبذل جهود أخرى نحو إعداد مشاريع لإنشاء مراكز للحرف الأثرية والصناعات البيئية تخدم مشروعات الترميم وتحافظ على تراثنا الخالد فى هذا المجال .

واثر حدوث زلزال أكتوبر ١٩٩٢ صدر قرار رئيس هيئة الآثار المصرية بأن يتولى الإشراف على لجنة الطوارئ التى تابعت حالة الآثار الإسلامية وشكل اللجان العلمية من أساتذة الجامعات المصرية والآثاريين بهيئة الآثار المصرية لإعداد التقارير العلمية عن حالة الآثار بعد الزلزال وهى التقارير التى تسجل حالة هذه الآثار وتضع أمام إدارة الهيئة أولويات مشروعات الترميم والصيانة لها .

ولم يقتصر نشاطه فى مجال العمل الآثارى على مصر ولكن كانت له مشاركته فى المنتديات العلمية المتعلقة بالآثار وفى حدود هذا الإطار كانت مشاركاته ورحلاته العلمية فى كل من المغرب وأسبانيا واليابان ودولة الإمارات العربية المتحدة والنيجر وسوريا وتونس وتركيا والمملكة العربية السعودية .

وما زال عطاؤه حتى الآن مستمرا ومتابعا لنشاطات العمل الآثارى للمجلس الأعلى للآثار فهو عضو باللجنة الدائمة للآثار الإسلامية والقبطية .

وعلى المستوى الأكاديمي كان للأستاذ عبد الرحمن عبد التواب بصماته الواضحة فقد أسند إليه الإشراف على إنشاء قسم الآثار بكلية الآداب بسوهاج وهو القسم الذى نما وأصبح الآن قسمان أحدهما للآثار المصرية والآخر للآثار الإسلامية وقسم ثالث للترميم تحت الإنشاء .

وشارك الأستاذ عبد الرحمن فى التدريس لمرحلة البكالوريوس والدراسات العليا وله بصماته المميزة فى مجال التدريبات الميدانية وبخاصة مجال التنقيب عن الآثار باعتبار خبراته الواسعة ونشاطاته الكبيرة فى هذا المجال .

وإدراكا من الجامعات المصرية بما وصل إليه من تميز فى مجال العمل الأكاديمى فقد سعت إلى أن يشارك فى الاشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه كما شارك فى مناقشة العديد منها فى جامعات القاهرة والمنيا وأسيوط وعين شمس سواء فى أقسام الآثار أو التاريخ أو العمارة بكليات الهندسة .

كما شارك فى عضوية بعض المجالس العلمية فى الكليات الجامعية ومنها مجلس كلية الآثار حيث اختير عضوا فى إحدى دوراته .

وقد أتاحت هذه النشاطات للأستاذ عبد الرحمن عبد التواب أن يتعرف على كثير من علماء الآثار المصريين والأجانب فمنهم من عمل معه ومنهم من أشرف على عمله ومنهم من سعى طالبا علمه ، وعرفانا من هؤلاء جميعا بجميله فقد أبدى كل منهم رغبته ليكتب بحثا ليشارك به فى هذا الكتاب . وهكذا يتجدد العطاء بهذه البحوث التى تعكس تواصله وتأثره وتأثيره فيمن تعاون معه أو شاركه فى هذه الحياة العلمية الثرية وهذه البحوث تضيف جديدا فى مجال الدراسات الأثرية يفيد العاملين فى هذا المجال والباحثين فيه .

وباسم المجلس الأعلى للآثار أود أن أقدم الشكر لكل من ساهم ببحث فى هذا الكتاب ولكل من عمل على إخراجه بهذه الصورة وأخص بالذكر السيدة الفنانة آمال صفوت مدير عام المطبعة بالمجلس الأعلى للآثار وإلى السادة العاملين معها .

أ. د. جاب الله على جاب الله
أمين عام المجلس الأعلى للآثار

تنوعت اوانى المياه وزاد الاهتمام بها فى العصور الاسلامية المختلفة وكان ذلك مرده وقوع معظم البلدان الاسلامية فى نطاق المنطقة الصحراوية او شبه الصحراوية ولشدة القيظ صيفا فكان للعطشان ان يرتوى من ماء عذب رقراق ينساب من سلسبيل فيطفئ لهيب الحر هذا اذا كان عابر سبيل ، اما اذا كان ضيفا فامامه الجرار بانواعها وله ان يسال جارية قاهرية لتقدم له قلة لطيفة يعلوها عود النعناع او تفوح منها رائحة الليمون او ماء الورد[1] ، فما ان يرفعها ليشرب حتى يجد من يهمس اليه (إشرب هنيئاً) او من يبث اليه حكمة فحواها (من صبر قدر) اويذكره بالايكون ضيفا ثقيلاً فيهمس اليه (من خف طف) او (عف تعافا) وغيرها من الحكم والامثال التى تطفئ قيظ الفؤاد تماما كما يطفئ الماء العذب الرقراق قيظ البدن ، وكل ذلك مكتوب على شباك القلة تحيط به الزخرفة بانواعها من هندسية ونباتية او حيوانات وطيور بالاضافة لجمال الكتابة العربية نفسها التى ما ان يفرغ الانسان من الشرب منها حتى ترتقى احاسيسه كأنما رأت عيناه أجمل اللوحات الفنية أو شم أنفه أطيب أريج من حديقة غناء فتتداخل أحاسيسه فلا يدرى ماذا سمعت عيناه أو رأت أذناه ! تدل زخرفة شبابيك القلل بوصفها سلعة شعبية رخيصة على رقى حضارى كبير تفردت به الفنون الاسلامية ، ونزعم أن هذه الزخرفة فى بدايتها كانت بسيطة مجرد ثقوب غير منتظمة تسمح للماء بانتظام التدفق فى الخروج ولا تسمح للاشياء غير المرغوب فيها والتى يمكن ان تلوث المياه -كالحشرات مثلا – بالسقوط فى القلة او الابريق ، ولقد ساعد ازدهار صناعة الفخار بالفسطاط كثرة صناعه ووجود جو المنافسة بينهم ، وادى ذلك الى ظهور بدايات الزخرفة على استحياء متعثرة اولا ثم بالمران والوقت زاد تمكن الصانع من تجويد صنعته وزخرفته وسواء كان ذلك فى الماده الخام او التقنية او الزخرفة ولمساتها النهائية يجمل ان نعرض لها بعد أن نعرض للشباك النادر موضوع بحثنا.

شباك قلة نادر :-

أثناء قيامنا بعملية إعادة تنظيم المخازن بالفسطاط باشراف الاستاذ / عبد التواب والاستاذ محمد الهيتى وجدنا شباك قلة لفت الانظار لكونه مزدوج أى به شباكان على عنق القلة المهشم فى معظمه أما الشباك الاعلى فبه ثقوب وأما الاسفل فمصمت وهنا وقعت فى حيرة اذ كيف يمكن للشارب أن يتمكن من الماء بل كيف يمكن ادخال الماء سلفاً ؟ وهنا لا حظنا وجود ثقب فى بقية أذن القلة وهذا يَعنى ان الاذن كانت مجوفة وبدا لنا وكأنما حل اللغزأى ان الماء يمر من البدن عبر الاذن الى اعلى الشباك المصمت ليخرج من الشباك المثقب ، لكن ما زاد الأمر حيرة وجود ثقوب اسفل الشباك المصمت على بدن القلة من الخارج تحيط بهذه الثقوب حزوز ، وهذا يعنى أن الماء قبل ان يصل الى الاذن المجوفة يسقط على ثوب الشارب وهذا لا ينبغى ، وكان السؤال كيف التغلب على هذه الحيرة ؟ والحقيقة أنه للتغلب على هذه المشكلة ينبغى وجود شباك مصمت ثالث نفّذ الفنان ثقوباً على بدن القلة بين الشباكين المصمتين وأن أذن القلة المجوفة تبدأ أعلى الشباك المصمت العلوى وينتهى أسفل الشباك المصمت السفلى وبينهما ثقوب وكأن المضيف بهذا يمازح الضيف فيسقيه من قلة مثقوبة البدن ولكن الماء لا يتساقط عليه .

المادة ومكان الصناعة: –

يكاد يكون من المقطوع به أن مكان صناعة هذا الشباك هو مدينة الفسطاط وقرائن ذلك أن هذه القطعة وجدت بحفائر الفسطاط ، ولا يحتمل أنه نقل اليها من مركز صناعة آخر ، وذلك لما أثبتته الحفائر الاثرية العلمية وما اجمع عليه علماء الآثار من تبوء الفسطاط حتى نهاية العصر الفاطمى مكانة عظيمة سواء من حيث كونها مركزا للصناعة اوالانتاج بل والتصدير . أما مادة الشباك فلا تختلف عن مثيلاتها الموجودة بالفسطاط والمتخلفة عن الحفائر ، فالشباك من الفخار الابيض غير المطلى ذو عجينة صافية – والاحتمال قوى انها من عجينة محلية كانت تخلط بنسب متفاوتة بعجينة نيلية دقيقة الذرات [٢] ، وآخرى مجلوبة من «التبين » ومن أحد وديان الصحراوات المصرية والتى ارتفعت بها نسبة ذرات الحجر الجيرى الابيض والتى هى نتاج روافد نهرية كانت تجرى من الهضاب المصرية إلى النيل وقت أن كانت مصر تحت وطأة أمطار شديدة الغزارة أحالت صحراوات مصر الى غابات عبرالسنين السابقة على الدهر الحجرى القديم الاعلى والذى ظهرت به تباشير الجفاف الحالى [٣] والذى بدأ حوالى القرن الخامس عشر ق . م .

التقنيـة :

لا تختلف صناعة بدن القلة عن غيرها من الاوانى الفخارية ، فقد استمرت طريقة الصناعة التقليدية على دولاب الفخرانى منذ اختراع هذه الالة ، منذ بواكير فجر التاريخ المصرى فى عهود ما قبل الأسرات منذ اكثر من خمسمائة وخمسة آلاف عام [٤] وتنوعت اساليب صنع الشباك نفسه وتنفيذ الزخارف عليه فتاره يصنع البدن بدون رقبة ويسد من أعلى حيث تنفذ الزخارف داخل اطار البدن فإذا ما اكتملت الزخرفة وضعت الرقبة والصقت بالبدن وتارة اخرى كان يصنع الشباك ملاصقا للرقبة لا للبدن وتنفذ الزخرفة علية ثم يلصق بالبدن ، والبديل الأخير أن يصنع الشباك منفردا ثم تنفذ الزخرفة عليه ويلصق بالبدن ثم تلصق الرقبة عليه ، هذا ويوجد من الشبابيك ما هو محدب أو مقعر أو مستو ، وايضا تنوع موقعه فإبتعد عن البدن بوجوده أعلى الرقبة ودنا منه ملاصقا اياه واحيانا وضع الشباك فى موقع متوسط حسبما يتراءى للصانع .

التأريخ

نكاد نطمئن الى نسبة هذا الشباك الفريد الى العصر الفاطمى وانا لنرجو ان يجد لنا القارىء عذرا فى هذا التاريخ الفضفاض لاعتبارات عدة :–

١– وجد الشباك فى مخازن الفسطاط وفى هذا تفويت لفرصه العثور على القطعة الأثرية بموضعها وطبقتها التى يمكن على اثرها وبمقارنة المواد المتنوعة ومن اهمها المواد المحددة التاريخ أن نؤرخ القطعة .

٢– حتى لو فرض ان هذا الشباك لم تفتنا فرصة العثور عليه بموضعه لما استطعنا الجزم بتاريخه وذلك لان الفسطاط اصبحت بعد هجرها حرما مستباحا لأهل القاهرة يفعلون بها ما يشاءون من الاستفادة بمخلفاتها فى بناء دورهم الجديده ثم اصبحت منجما للسباخين فى العصور التالية ولذا دمرت طبقاتها الاثرية ولم تسلم من هذا الخراب الا منطقة اسطبل عنتر والقرافة الكبرى بمساحة

تربو على الف فدان غفل عنها الأجداد وياللحسرة فقد دمرها الاحفاد وكانت الى عقد مضى ارضا بكرا لتاريخنا الاسلامى المبكر .

٣- يبدو انه حتى الاساليب العلمية الحديثة للتاريخ ككربون ١٤ لاتجزم تارخا محددا فهى تذكر عشرات بل احيانا مئات السنين قبل او بعد تاريخ معين .

وحتى لا نفرط ولانفرّط فاننا نستطيع ان نطمئن الى ان هذا الشباك النادر هو نتاج النصف الثانى من العصر الفاطمى وذلك استنادا الى جمال صنعته وصفاء طينته وذوقه الفنى والطرافه والظرف فى صناعته حيث لاينبغى رده الى العصور المبكرة بل الى العصر الذى ارتقت فيه الصناعة وتبوأت مكانتها التى مافتئت عليها حتى ازاحها عنها حريق الفسطاط على يد شاور ابان الغزو الصليبى وهنا انتقلت مراكز الصدارة الى مواطن أخرى كعهد الزمن ولكن الفسطاط لازالت تطل علينا وتتحفنا من آن الى آخر بروائعها التى شهد لها القاصى والدانى وستظل كذلك ان شاء الله.

* * *

المراجع

(١) سعيد الصدر : مدينة الفخار ، طبعة ١٩٦٠ : دار المعارف بمصر .

(٢) عبد الرحمن عبد التواب ،، ابراهيم عبد الرحمن عبد الله :

شبابيك القلل ، يعد .

(٣) عبد الرؤوف على يوسف وآخرون ،

: القاهرة تاريخها فنونها ، آثارها ، مقال الفخار ،

مطابع الاهرام .

(٤) عبد العزيز صالح (دكتور)

: حضارة مصر القديمة وآثارها ،

جزء ١ طبعة ١٩٨٠ .

Olmer, : Les Fillres Gargoulettes IFAO .

Scanlon : G. T.,: Catalouge of Jug Filters .

* * *

الهوامش

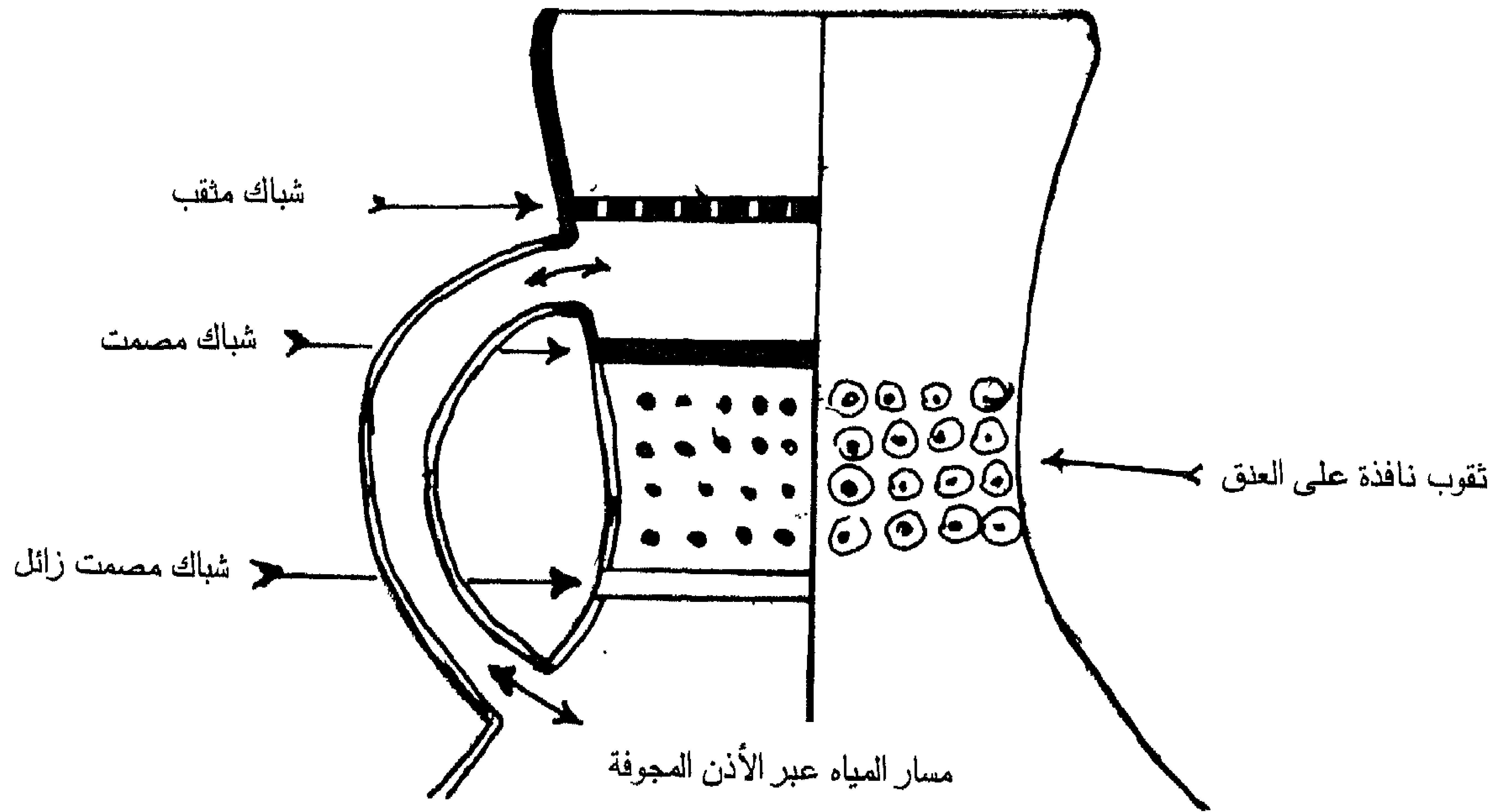
(١) عبد الرؤوف يوسف ، القاهرة : تاريخها ، فنونها ، آثارها : مقال عن الفخار ص ٧٢ ٣٠ ، ٣٢٨ .

(٢) سعيد الصدر : مدينة الفخار : دار المعارف ص ١٥ .

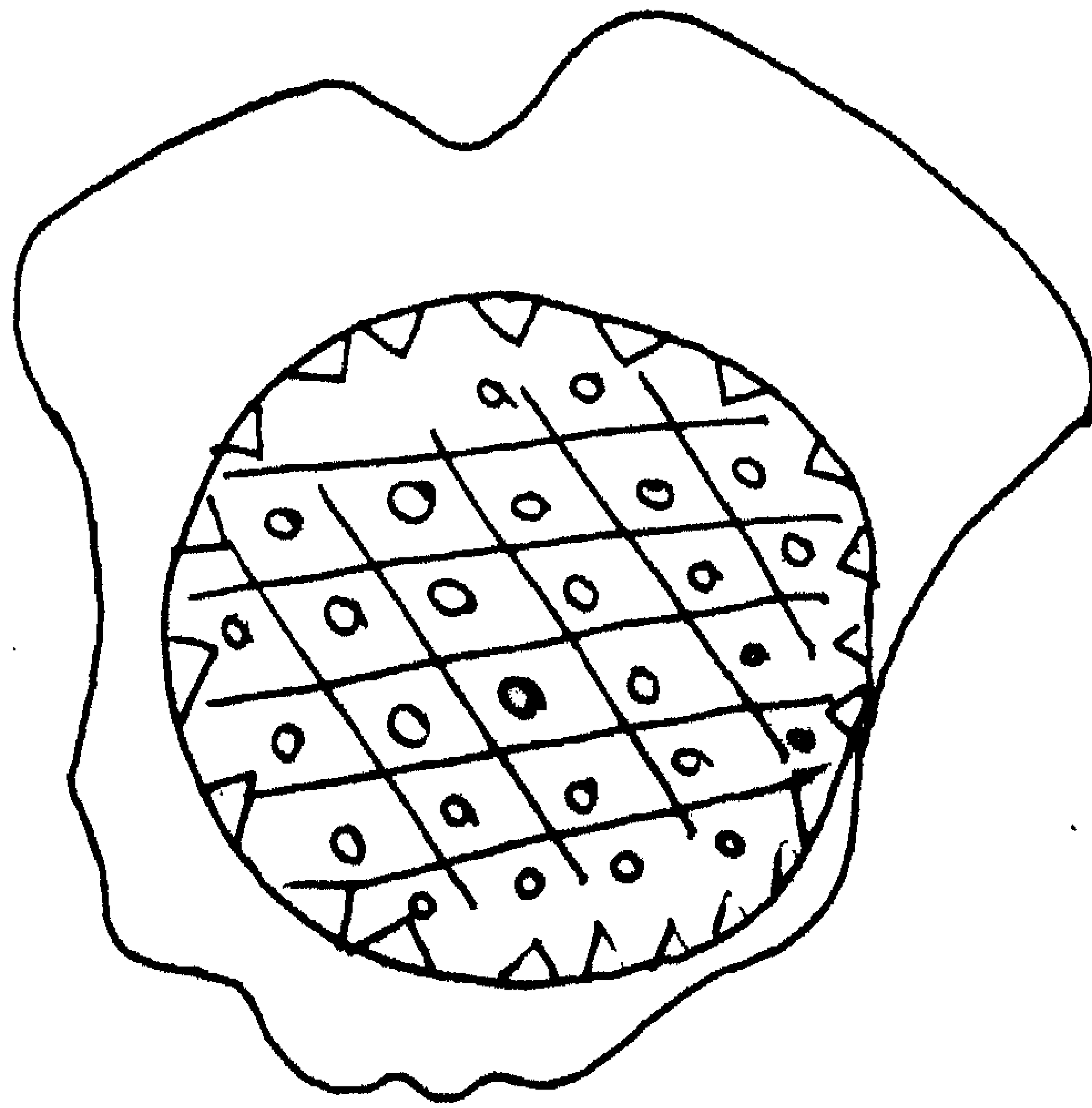
(٣) عبد العزيز صالح (دكتور) : حضارة مصر القديمة واثارها جزء ١ ص ٥٦ .

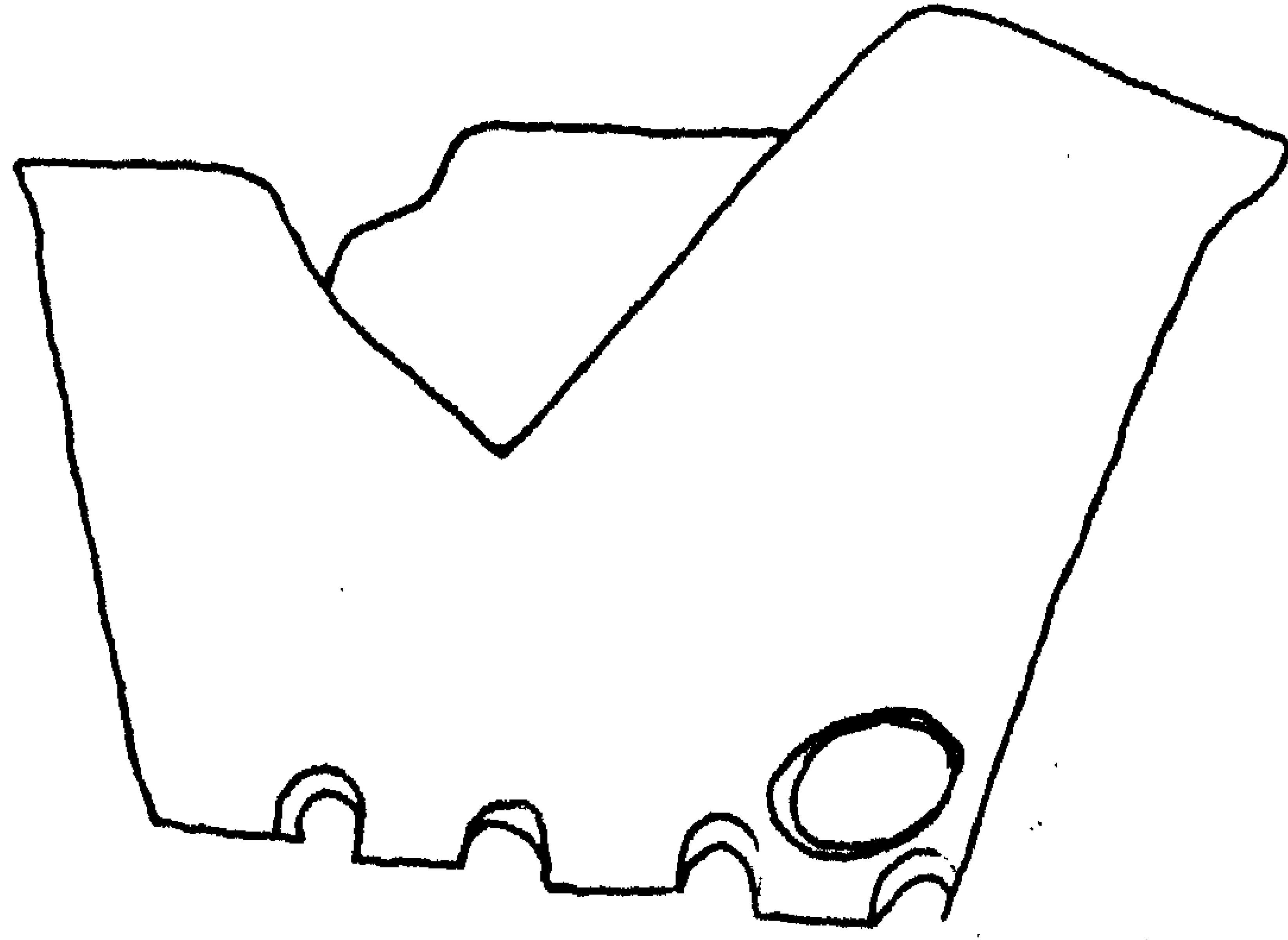
(٤) عبد العزيز صالح (دكتور) : حضارة مصر القديمة واثارها جزء ص ١١٣ .

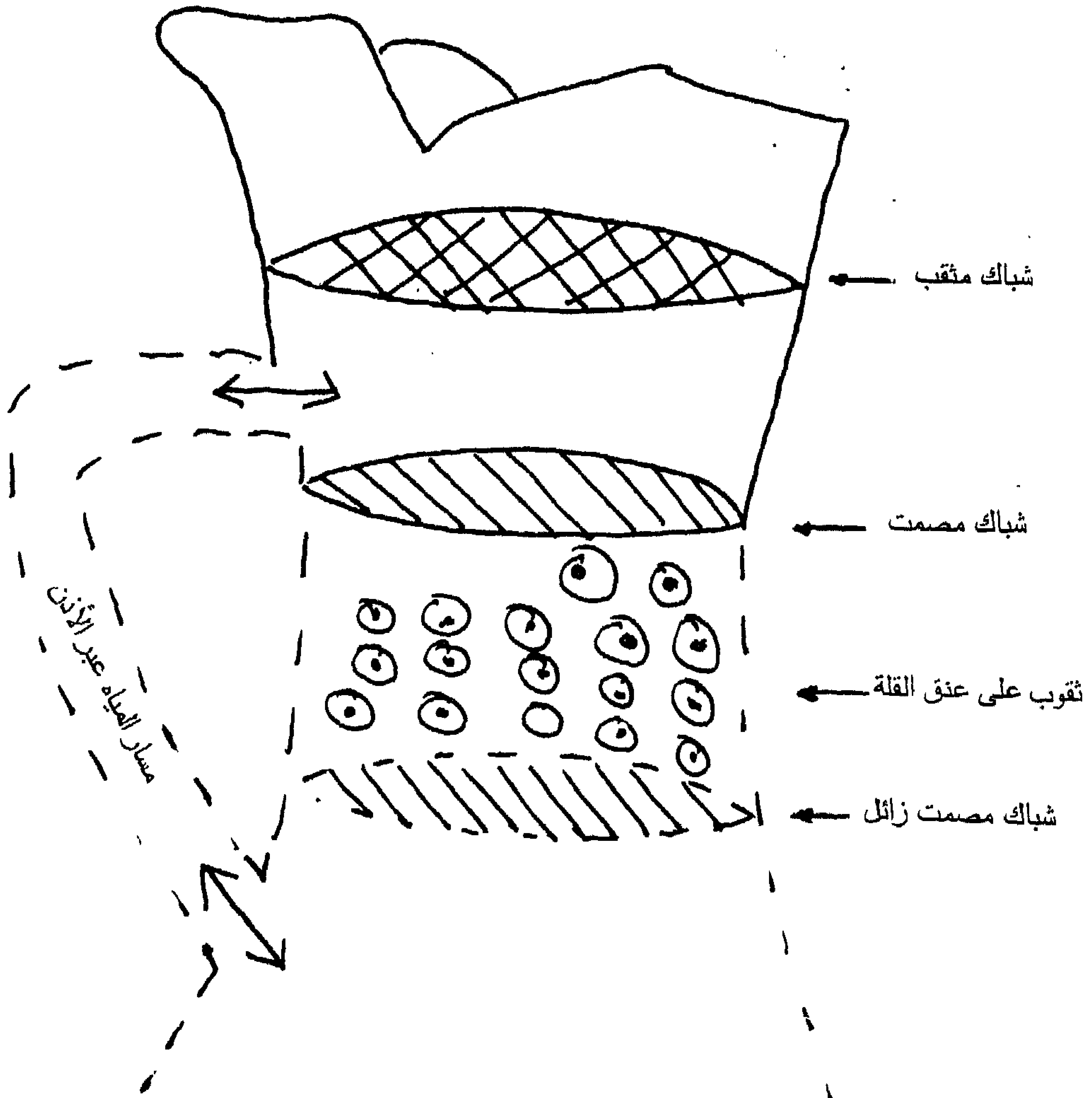
* * *



طريقة مرور المياه دون اعتبار للتناسب







شباك مثقب
شباك مصمت
ثقوب على عنق القلة
شباك مصمت زائل
مسار المياه عبر الأذن

أربعة أختام فخارية في مجموعة دار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطني

دكتور / أحمد عبد الرازق أحمد

أمدتنا حفائر مدينة الفسطاط وغيرها من مناطق الآثار الاسلامية بجمهورية مصر العربية بالعديد من التحف الفخارية الغفل من الطلاء من أهمها شبابيك أو مصافى القلل (١) والمسارج الفخارية (٢) وقوارير النفط (٣) بالاضافة الى مجموعة كبيرة من الأختام نجدها موزعة بين متحف الفن الاسلامى بالقاهرة (٤) وغيره من المتاحف العالمية والمجموعات الخاصة ، إذ تحتفظ دار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطنى بأربعة منها لم تعرف طريقها إلى النشر بعد (٥) تتميز بأشكالها المستديرة التى يتراوح قطرها فيما بين ٥ر٦سم ، ٩ر٩سم مصنوعة من طينات وردية أو صفراء ضارية الى الخضرة ، يزينها زخارف متنوعة قوامها اما كتابات عربية بالخط الكوفى ، أو رسوم هندسية ، أو عناصر نباتية ، أو أشكال حيوانية ، كما يعلو ظاهرها عروات أو مقابض يسهل استخدامها أو الامساك بها وفيما يلى وصفها وبيان كل منها (٦) :

اللوحة رقم (١) / أ

ختم من الفخار وردى اللون ، غفل من الطلاء ، مستدير الشكل ، غير كامل ، كان يعلو ظاهره مقبض للامساك به ، بيد أنه مفقود حاليا . يزين الوجه زخارف بارزة قوامها جامة مركزية تحتوى على ثلاثة أسطر بها كتابات كوفية بسيطة نصها «كل / هنيا / مريا» تقوم فوق أرضية من نتوءات بارزة ، يلتف حولها حلقتان بارزتان ، يتلوها الى الخارج شريط مزدوج به نتوءات بارزة مستديرة الشكل تبدو أشبه بحبات اللؤلؤ . الزخارف بارزة ومنفذة باسلوب كشط الأرضية حول العناصر الزخرفية خاصة وإن الكتابات تبدو هنا غير معكوسة .

رقم السجل LNS 42 C.

القطر ٩,٩سم

مصر حوالى القرنين ٣-٤هـ/ ٩-١٠م.

اللوحة رقم (١)/ب

ختم من الفخار الوردى اللون ، غفل من الطلاء ، مستدير الشكل غير كامل ، يعلو ظاهره عروة أو مقبض صغير للإمساك به ، ويزين الوجه زخارف بارزة وغائرة يغلب عليها الطابع الهندسى ، اذ نشاهد دائرة بداخلها شكل خماسى الأضلاع ، بداخله آخر أصغر منه يتوسطه دائرة مركزية صغيرة بالحفر الغائر .

الزخارف منفذة بواسطة القالب .

رقم السجل LNS 181 C.

القطر ٧سم

مصرحوالى القرن ٤هـ/ ١٠م .

اللوحة رقم (٢)/أ

ختم من الفخار الضارب الى الخضرة ، غفل من الطلاء مستدير الشكل ، غير كامل يعلو ظاهره مقبض صغير .يزين الوجه زخارف بارزة تمثل حيوان محور من ذوات الأربع له أذنان طويلتان

وذيل طويل ، ويتدلى من فمه ورقة نباتية مدببة الطرف ، يقوم فوق أرضية منثورة ببعض النتوءات البارزة المستديرة الشكل ، ويحده من الخارج ثلاث حلقات بارزة متداخلة .الزخارف منفذة بالحفر البارز عن طريق كشط الأرضية ولعلها ناتجة أيضا عن استعمال القالب .

رقم السجل .LNS 182 C

القطر ٦,٥ سم

مصر حوالى القرنين ٤-٥هـ/ ١٠-١١م .

اللوحة رقم (٢) /ب

ختم من الفخار الضارب الى الخضرة ، غفل من الطلاء ، مستدير الشكل كان يعلو ظاهره مقبض، بيد أنه مفقود حاليا . يزين الوجه زخارف بارزة قوامها نجمة سداسية الأطراف تتألف من مثلثين متشابكين ، يتوسطهما شكل سداسى الاضلاع به وريدة سباعية الأوراق ، كما يزين أطراف الشكل النجمى أوراق ثلاثية متشابكة الفصوص ، على حين يملأ المساحات الخارجية المحصورة بين أطراف الشكل النجمى فروع نباتية متماوجة تنتهى بأنصاف أوراق نباتية ثنائية وثلاثية الفصوص الزخارف منفذة بواسطة القالب .

رقم السجل . LNS 453 C

القطر ٨ سم .

مصر حوالى القرن ٧هـ/١٣م .

أما عن المواد الخام التى صنعت منها هذه الأختام المذكورة التى تتميز بفخارها ذى اللون الوردى المشوب بحمرة خفيفة أو بلونها الأصفر الضارب الى الخضرة ، فيذكر الفريد لوكاس أن سبب هذه الألوان فى الفخار المحروق يرجع عادة الى استخدام نوع خاص من الطينة تتميز بلونها الرمادى الضارب الى السمرة ، وتخلو تماما من المواد العضوية وان كانت تحتوى فى الوقت نفسه على مركبات الحديد ، كما تشتمل ايضا على نسبة عالية من كربونات الكالسيوم . وأشار ايضا الى أن هذه الطينة اذا مااحترقت فى درجة حرارة منخفضة فإنها تكتسب اللون الوردى أو البرتقالى ، فى حين انها اذا تعرضت لدرجة حرارة عالية فإنها تكتسب اللون الرمادى أو الأصفر الضارب الى الخضرة ، وذلك على النقيض من الطينات الأخرى التى كلما زدنا لها درجة الحرارة كلمازاد ميلها نحو الحمرة ، وذكر لوكاس كذلك ان هذه الصفات لا تتوافر عادة الا فى طينات قنا والبلاص (٧) ، كما تتوافر أيضا فى طينة تبين التى تشبه من الوجهة الكيميائية كل من طينات قنا والبلاص(٨) .

الى هذه الطينات يمكننا أن نضيف أيضا كل من طمى النيل ، وجير المقطم هما من الطينات التى كانت تستخدم مع طينة تبين لصناعة القلل الفخارية ذات اللون المماثل على أيام كل من على بهجت وفليكس ماسول (٩) . لذلك كان من المناسب أن نستعين هنا بالتحاليل الكميائية التى أجريت على هذه الطينات للتعرف على النسب المئوية لمكوناتها (جدول رقم١) ومقارنة هذه النسب بالنسب

التى حصلنا عليها من تحليل جزء صغير من ختم فخارى ينسب إلى حوالى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى عثر عليه فى مدينة الفسطاط [١٠] (جدول رقم٢) .

جدول رقم (١)

المكونات	طينة من قنا	طينة من البلاص	طينة من تبين	طمى النيل	جير المقطم
سليكا	٣٣	٣٤ر ٨	٣٦ر ٨٠	٤٣ر٩٨	٥٧ر٧٨
اكسيد الومنيوم	١٥	٢٠ر٦	١٣	١٤ر ٨٨	١٥ر١٠
اكسيد حديد	١ر٨	١ر٦	٩	١٥ر٧٠	١٠ر١٠
اكسيد كالسيوم	١٧ر٥	١٢ر٧	٢٦ر٤٨	٣ر٢٠	٠ر١٠
اكسيدماغنسيوم	٢	٠ر٤	٠ر ٨٠	٢ر٣١	١
صوديوم	١	١ر٣	٢ر١٢	١ر١١	١ر.١
بوتاسيوم	١	١	١ر٠١	٣ر٣٠	٢ر٧٠

جدول رقم (٢)

المكونات	النسبة المئوية
سليكا	٤١ر٢١
اكسيد الومنيوم	٢١ر٦٥
اكسيد حديد	١٠ر٣٢
اكسيد كالسيوم	٢٢ر١٠
ماغنسيوم	١ر٧٥
صوديوم	١ر٢
بوتاسيوم	١ر١

بمقارنة مكونات كل من طينات قنا والبلاص وتبين وطمى النيل وجير المقطم (جدول رقم ١) بمكونات الطينة المصنوع منها الختم الفخارى الذى عثر عليه فى الفسطاط (جدول رقم ٢) يتضح لنا تماثل المكونات فى جميع الطينات المذكورة وإن اختلفت النسب المئوية من طينة الى أخرى وهذا أمر طبيعى لان الصانع المسلم لابد أن يكون قد استخدم تركيبة تتألف من عدة طينات معا بنسب

مختلفة ، لعلها كانت تتألف أساسا من طينة تبين وطمى النيل وجير المقطم ، لأننا لو أخذنا متوسط النسب المئوية لكل من مكونات هذه الطينات الثلاث (جدول رقم ٣) .

لوجدنا بين أيدينا تركيبة تتفق في نسب مكوناتها مع نسب مكونات الختم الفخارى (جدول رقم ٢) وان زادت فيه نسبتى اكسيد الألمنيوم واكسيد الكالسيوم عنها فى الطينات الثلاث المذكورة ، وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى استخدام الصانع المسلم لنسب مختلفة من طينة تبين وطمى النيل وجير المقطم أثناء إعداده للتركيبة المستخدمة فى صناعة الأختام الفخارية . وحسبنا دليلا على ذلك أن هذه الطينات الثلاث كانت دائما ولازالت فى متناول يد صناع الفخار بمدينة الفسطاط وقريبة منهم وذلك على العكس من طينات قنا والبلاص ، التى كان نقلها واحضارها يتطلب مزيدا من الجهد والمال ، الأمر الذى كان يفضى فى النهاية إلى زيادة التكاليف التى حرص الصانع المسلم على تجنبها خاصة بالنسبة لهذا النوع من المصنوعات ذات الطابع الشعبى .

جدول رقم (٣)

المكونات	النسبة المئوية
سليكا	١٨ر٤٦
اكسيد المونيوم	٣٢ر١٤
اكسيد حديد	٦ر١١
اكسيد كالسيوم	٩٢ر٩
اكسيدماغنسيوم	٣٧ر١
صوديوم	٤١ر١
بوتاسيوم	٣٣ر٢

وبعد انتهاء الصانع من تحضير الطينة وإعدادها [١١] كان يقوم بإحضار كتل صغيرة مبللة منها ثم يشكلها بيده على هيئة أقراص مستديرة وينفذ فوقها ما يريد من عناصر زخرفية إما عن طريق الحفر الغائر ، إذا كان يريد الحصول على أختام ذات زخارف غائرة ، أو عن طريق كشط الأرضية حول العناصر الزخرفية فى حالة رغبته فى الحصول على أختام ذات زخارف بارزة .

وليس ببعيد أيضا أن يكون الصانع قد استخدم فى زخرفتها أختاما أخرى من الفخار بدليل أن يوجد ضمن مجموعة دار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطنى ختم من الفخار يزينه زخارف بارزة تشتمل على كتابات عربية بالخط الكوفى البسيط تبدو غير معكوسة (اللوحة رقم ١/أ) ، الأمر الذى يخرج هذا الختم من دائرة الأختام المستخدمة فى زخرفة الكعك موضوع هذا البحث ، التى تنفرد عادة بكتاباتها المنقوشة فى اتجاه عكسى (اللوحة رقم ٣) ، كما هو الحال بالنسبة لبعض الأختام المحفوظة فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة [١٢] ، ويضعه فى مصاف الأختام الأم التى كانت تستخدم فى صناعة وزخرفة هذه التحف الفخارية.

وعقب انتهاء الصانع من تطبيق الزخارف بإحدى الطرق المشار اليها عاليا كان يقوم بإضافة مقبض صغير مستدير الشكل فوق ظاهر الختم حتى يسهل الامساك به عند الاستعمال . وبعد الانتهاء

من عملية التشكيل والزخرفة كان يعمد إلى ترك هذه الأقراص فى الهواء لتجف تجفيفا طبيعيا ثم يقوم بعد ذلك بتسويتها أو حرقها فى أفران خاصة تكتسب الصلابة اللازمة التى تساعد على مرونة استخدامها . وجدير بالذكر أن هذه الأختام كانت تدهن بمادة دهنية قبل استعمالها حتى لاتلتصق بالمواد التى تستخدم فى زخرفتها (١٣) .

بقى أن نتناول بالبحث العناصر الزخرفية التى تزين مجموعة الأختام الفخارية المحفوظة ضمن مجموعة دار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطنى والتى يمكن تصنيفها حسب الأنواع التالية :

أولا الزخارف الكتابية :

ويمثلها ختم واحد من الفخار الوردى يتوسطه نص كتابى غير معكوس نصه «كل هنيا مريا» نقش بخط كوفى بسيط تخلو قوائم حروفه ونهاياتها من اية عناصر زخرفية باستثناء حرف الهاء فى كلمة هنيا الذى يبدأ بنصف ورقة نباتية ثنائية الفصوص . يلتف حوله إطار خارجى يتألف من صفين متداخلين من دوائر صغيرة بارزة تبدو أشبه بحبات اللؤلؤ (اللوحة رقم /٩) تذكرنا بتلك الزخارف التى تتوج الرسوم الجدارية الجصية المنسوبة الى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى والتى عثر عليها فى مدينة سامراء بالعراق (١٤) ، كما تذكرنا أيضا بعناصر مماثلة تزين الإطارات الخارجية للنقوش الجصية الملونة ، المنسوبة الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، التى عثر عليها بالحمام الفاطمى فى منطقة ابى السعود ، جنوبى منطقة القاهرة (١٥) .

لذلك يرجح نسبة هذا الختم الى الفترة الممتدة من نهاية القرن الثالث الى بداية القرن الرابع للهجرة / التاسع ـ العاشر للميلاد ، خاصة وأن كتاباته تبدو أكثر تطورا وإتقانا من كتابات ختم آخر مستدير الشكل محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ينسب إلى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، يزينه زخارف بارزة تشتمل على كتابات مركزية تسير فى اتجاه عكسى نقشت بخط كوفى بدائى يكشف لنا عن ضعف اليد التى نقشته ، نصه «كل هنيا واشكر مولاه» ، يحيط به إطار خارجى يتألف من فرع نباتى متموج يخرج منه عند كل انحناء ورقة تمثل نصف مروحة نخيلية بعضها مجوف من أسفل (اللوحة رقم ٣/أ) ، نجد نظيرا لها على الحافة العليا لأحد شواهد القبور المؤرخة فى سنة ٢١٨ هـ/٨٣٣م (١٦) ، وإن كانت كتابات الشاهد تبدو أكثر دقة وإتقانا من كتابات ختم دار الآثار الاسلامية . وهناك ختم آخر غير كامل مصنوع من فخار أصفر ضارب الى الخضرة محفوظ أيضا فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة يشبه إلى حد كبير ختم دار الآثار الاسلامية يزينه زخارف غائرة تتألف من كتابة كوفية معكوسة نصها «كل هنيا» تبدو أكثر اتقانا من كتابة ختم دار الآثار الاسلامية ، إذ تنتهى قوائم الحروف بمثلثات مدببة بالإضافة الى بعض العناصر النباتية البسيطة التى تزين كل من نهاية حرف اللام فى كلمة «كل» ونهاية حرف الألف فى كلمة «هنيا» ، الذى ينتهى بنصف ورقة نباتية ثلاثية الفصوص . هذا ويلاحظ أن النص منقوش داخل شكل هندسى قائم الزوايا يتصل بأضلاعه الاربعة من الخارج أربعة مثلثات صغيرة حادة الزوايا تجعله أشبه بشكل نجمى يحيط بأضلاعه الخارجية نقط ومثلثات صغيرة غائرة (اللوحة رقم ٣/ب) . وهو ينسب إلى نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، نظرا لوجود علاقة

وثيقة بين زخارفه الهندسية وتلك التى نشاهدها بكثرة على منتجات العصر الفاطمى من الخزف وشبابيك القلل (١٧) وذلك على الرغم من أن أشكال الحروف الكتابية تذكرنا بكتابات أحد شواهد القبور المحفوظة بنفس المتحف والمؤرخة فى سنة ٢٣٦هـ / ٨٥١م (١٨) .

ثانيا الزخارف الهندسية :

ونجدها ممثلة فى مجموعة دار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطنى من خلال ختم وحيد غير كامل مصنوع من فخار وردى اللون مشوب بحمرة خفيفة ، يزينه زخارف هندسية قليلة البروز، قوامها جامة دائرية يتوسطها شكل خماسى غير منتظم الاضلاع بداخله آخر أصغر منه ، بوسطه دائرة صغيرة نفذت بالحفر الغائر ، شأنها فى هذا شأن المثلثات الحادة الزوايا وقطاعات الدوائر التى تملأ المساحات الداخلية والخارجية من التصميم الزخرفى (اللوحة رقم ١/ب) ، وهو يؤرخ بحوالى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، نظرا لوجود شبه كبير بين هذا الشكل والاشكال الخماسية المماثلة التى تزين بعض شبابيك القلل الطولونية الطراز المحفوظة فى متحف الفن الاسلامى مع ملاحظة وجود بعض الاختلافات الثانوية من حيث التفاصيل الداخلية ، إذ تحتوى بعض زخارف هذه الشبابيك على كتابات كوفية غير مقروءة (١٩) ، كما يتفق أيضا من حيث التصميم العام مع الأشكال الخماسية الأضلاع التى تزين بعض الشبابيك التى تنسب إلى العصر الفاطمى والمحفوظة فى نفس المتحف ، وإن كانت زخارف هذه الشبابيك تبدو بصفة عامة أكثر دقة وإتقانا من حيث انتظام أضلاع الاشكال الخماسية ، كما أنها تختلف عن زخارف الختم المشار إليه من حيث التفاصيل الداخلية إذ نجدها منثورة إما بوريدات رباعية الفصوص أو بوريدات خماسية الفصوص تنم عن دقة التنفيذ (٢٠) . بقى أن نشير الى أن الرسوم الهندسية على الأختام الفخارية كثيرا ماترد مصاحبة لعناصر أخرى مثل الكتابات والرسوم الحيوانية والزخارف النباتية.

ثالثا الزخارف الحيوانية :

وهى ممثلة أيضا فى مجموعة دار الآثار الاسلامية من خلال ختم صغير من الفخار الأصفر الضارب إلى الخضرة ، تآكلت بعض أطرافه السفلية ، قوام زخرفته ثلاث حلقات بارزة متداخلة تضم بداخلها رسم لحيوان من ذوات الأربع نفذ باسلوب الكشط له أذنان طويلتان وقوائم مرتفعة وذيل قصير منحنى إلى أسفل ، يتدلى من فمه ورقة نباتية مدببة الطرف (اللوحة رقم ٢/أ) ، يرجح نسبته إلى الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والحادى عشر للميلاد ، لأنه يذكرنا برسوم الحيوانات المنقوشة على الخزف الفاطمى ذى البريق المعدنى المنسوب إلى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، من ذلك صحن محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة قوام زخرفته رسوم بيضاء فوق مهاد ملونة بالبريق المعدنى ذى اللون الذهبى المائل إلى الخضرة تمثل حيوانا من ذوات الأربع لعله أرنبا يتدلى من فمه فرع نباتى ينتهى بورقة خماسية الفصوص (٢١) ، كما يشبه أيضا رسوم الحيوانات المنقوشة على بعض الأخشاب الفاطمية الطراز المنسوبة إلى نفس الفترة ، من بينها حشوة محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة (٢٢) وأخرى بمتحف كلية الآثار - جامعة القاهرة تنسب بدورها إلى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (٢٣) .

بيد أن الرسوم الحيوانية على كل من الخزف والخشب الفاطمى تبدو أكثر دقة واتقانا وعناية بالتفاصيل وتمثيل العضلات عن رسم الحيوان الذى يزين ختم دار الآثار الاسلامية الذى يكاد يشبه من حيث الشكل العام رسم حيوان يزين أحد شبابيك القلل المحفوظة بمتحف كلية الآثار ـ جامعة القاهرة (٢٤)، كما يذكرنا أيضا بحيوان آخر منقوش على بقايا إناء من الفخار الغفل من الطلاء ينسب إلى العراق أو إيران فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى (٢٥)، وإن كان الآخير قد مثل متجها إلى اليمين ، كما بدت اذناه أكثر زخرفة ، واستبدلت الورقة النباتية المتدلية من فمه بواحدة من سعف النخيل على العكس من الحيوان الذى يزين ختم دار الآثار الاسلامية الذى يبدو متجها نحو اليسار ويغلب عليه طابع البساطة والبعد عن الواقع .

وجدير بالذكر أن مجموعة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة من الأختام الفخارية ، تشتمل أيضا على بعض الأختام ذات الرسوم الحيوانية والطيور (٢٦) من أهمها ختم من الفخار الوردى ، قوام زخرفته رسم لطائر لعله طاووس يبدو ناشرا ذيله وفاتحا منقاره ، يحيط به أوراق نباتية جناحية الشكل وذلك داخل إطار يتألف من مثلثات حادة الزوايا صفت على التبادل فى شكل دائرى (شكل ١) ، ينسب إلى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (٢٧).

وهناك ختم آخر من الفخار الوردى المشوب بحمرة خفيفة تزينه زخارف بارزة تمثل طائرين متواجهين ، مثلا فى وضعة جانبية ، يتوسطها من أسفل رسم لحيوان صغير من ذوات الأربع ، لعله كلب أو ثعلب (شكل ٢) . وهذا التصميم يذكرنا فى الواقع بتصميم مماثل يزين أحد الألواح الرخامية التى عثر عليها مطمورة فى أرضية خانقاه بيبرس الجاشنكير (٢٨) التى شيدت مكان الوزارة الفاطمية التى أقامها الوزير بدر الجمالى فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (٢٩) لذا يرجح نسبته إلى هذه الفترة .

وبالمجموعة المذكورة ختم ثالث من الفخار الوردى أيضا تزينه زخارف بارزة قوامها مثلث حاد الزوايا بداخله رسم مجسم لسمكة غريبة المظهر ، فضلا عن أنصاف ثلاث سمكات تحف بأضلاع المثلث من الخارج (شكل ٣) ، من الصعب تحديد العصر الذى ينتمى اليه بسهولة خاصة ونحن نعلم أن رسوم الاسماك قد شاع استخدامها على مواد عديدة منذ بداية العصر الاسلامى (٣٠) واستمرت حتى نهاية العصر المملوكى (٣١).

بيد أن وجود الشكل الهندسى المتمثل فى المثلث يجعلنا نرجح نسبته إلى العصر الفاطمى اذ من المعروف أن الزخارف الهندسية قد شاعت على منتجات هذا العصر خاصة الفخارية منها (٣٢) .

رابعا الزخارف النباتية :

لعبت الزخرفة النباتية دورا مزدوجا فى زخرفة الأختام الفخارية ، فهى إما ثانوية تصاحب عناصر أخرى قد تكون كتابات عربية كما هو الحال بالنسبة لختم متحف الفن الاسلامى بالقاهرة (اللوحة رقم ٣/أ) ، وقد تكون هندسية كما هو الحال بالنسبة للختم الرابع المحفوظ ضمن مجموعة دار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطنى الذى يعلوه زخارف هندسية ونباتية بالحفر البارز ،

قوامها نجمة سداسية الأطراف ، تتالف من مثلثين متشابكين ، يتوسطهما وريدة سباعية الأوراق ، بالاضافة الى أوراق نباتية ثلاثية الفصوص تملأ أطراف الشكل النجمى ، وأخرى عبارة عن فروع نباتية متماوجة ينتهى كل منها إما بانصاف أوراق نباتية ثنائية أو ثلاثية الفصوص ، نثرت داخل المساحات المحصورة بين أطراف الشكل النجمى (اللوحة رقم ٢/ب) .

والفاحص لهذا الختم يجد نوعا من الصعوبة فى نسبته إلى عصر بعينه اعتمادا على الزخرفة النباتية وحدها أو على الشكل الهندسي بمفرده ، خاصة ونحن نعلم علم اليقين بأن الأشكال النجمية السداسية الأطراف ، ذات الرسوم النباتية قد وجدت منذ عصر مبكر على بعض منتجات الفن الاسلامى ، إذ نراها تزين بعض الحشوات الخشبية التى تنسب إلى الطراز الأموى [٣٣] كما نشاهدها أيضا على بعض شبابيك القلل التى ترجع الى العصرين الفاطمى [٣٤] والايوبى [٣٥] حيث تبدو الأخيرة وثيقة الصلة بالتصميم الزخرفى على ختم دار الآثار ، لأنها تشتمل على وريدات مركزية وإن كانت سداسية وليست سباعية كما هو الحال بالنسبة للختم موضوع البحث . هذا ومن المعروف أن الوريدات قد شاعت بكثرة فى زخرفة التحف الاسلامية أثناء العصرين الأيوبى والمملوكى ، بل كانت تعد أيضا من بين الرنوك الشخصية [٣٦] . وهى غالبا ماترد خماسية [٣٧] أو سداسية [٣٨] وأحيانا ثمانية الأوراق [٣٩] . أما النجمة السباعية فهى فى الواقع قليلة نادرة ولم نصادفها على أى من التحف المعروفة لنا باستثناء ختم دار الآثار المشار اليه .

أما فيما يتعلق بالأوراق الثلاثية الفصوص والزخارف النباتية المتماوجة التى تملأ القطاعات الخارجية المحيطة بالشكل النجمى فهى تبدو قريبة الشبه بتلك التى تزين منتجات القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى [٤٠] الأمر الذى يدفع إلى نسبة هذا الختم إلى الفترة المذكورة .

وأمدتنا الحفائر الأثرية أيضا ببعض الأختام الفخارية المزينة بزخارف نباتية صرفة ، من ذلك ختم محفوظ فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة مزين بثلاث أوراق نباتية بارزة تنبت من قاعدة مشتركة شبه مثلثة ، ينسب إلى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن للهجرة / الثالث عشر- الرابع عشر للميلاد [٤١].

بقى أن نشير بعد هذا العرض إلى أن هذه الأختام الفخارية كانت شائعة الاستعمال فى كل من إيران والعراق فى العصر الساسانى [٤٢] كما عرفتها مصر أيضا منذ قدم العصور [٤٣] خاصة تحت الحكم الرومانى ، إذ أمدتنا الحفائر الأثرية ببعض أمثلتها التى تتألف من أشكال مستديرة مصنوعة من فخار محروق ، يزينها زخارف متنوعة بارزة وغائرة قوامها إما رسوم حيوانية أو أشكال لطيور أو عناصر نباتية [٤٤] . ومن الملاحظ أنها استمرت أيضا أثناء تبعية مصر للدولة البيزنطية أى فى العصر المسيحى حيث عثرنا على بعضها يمتاز بزخارفه المزدوجة التى تعطى الوجه والظهر فى آن واحد [٤٥] والتى يبدو أنها كانت تستخدم إما للحصول على وحدات زخرفية بارزة فوق سدادات الأوانى أو للحصول على وحدات زخرفية فوق خبز القربان خاصة وأن دير البراموس بوادى النطرون يحتفظ بواحد من هذه الأختام له شكل مستدير ، مزين على الوجه بصلبان غائرة متكررة من النوع المعروف باسم صليب أندروس [٤٦] نقشت داخل مناطق مربعة يحيط بها من الخارج

شريط به كتابات دعائية باللغة القبطية (٤٧) .ومن الواضح أيضا أن صناعة هذه الأختام الفخارية قد استمرت فى ظل الاسلام بدليل العثور على كميات كبيرة منها ، وإن كانت قد تميزت فى هذا العصر بتحررها من المغزى الدينى القديم الذى كان يسيطر على استعمالها واتخذت اتجاها جديدا يغلب عليه الطابع والهدف الزخرفى البحت الأمر الذى يجعلنا نتساءل هنا عن الأهداف التى تم من أجلها صناعة هذه الأختام الفخارية ، بمعنى الاستعمالات التى كانت مخصصة لها ؟

الواقع أن الشبه الشديد بين زخارف بعض هذه الأختام خاصة تلك المحفوظة ضمن مجموعات متحف الفن الاسلامى بالقاهرة وبين زخارف بعض شبابيك القلل المحفوظة فى نفس المتحف قد يدفع إلى الاعتقاد بأنها كانت تستخدم لطبع وحدات زخرفية فوق الطينات المعدة لصناعة شبابيك القلل المذكورة وهى لاتزال رطبة لينة ثم يعمد الصانع بعد ذلك إلى تفريغ حدود الرسم المطبوع وثقبه لتحقق صفة الشباك المطلوب ، بيد أن التجربة العملية التى قمنا بها فى محاولة للحصول على شباك قلة عن طريق استعمال احد هذه الأختام اثبت بما لايقبل الجدل خطأ هذا الافتراض لأن العناصر الزخرفية التى نتجت عن استعمال هذا الختم كانت بارزة وغائرة الأمر الذى حال دون تفريغها وعمل الثقوب المألوفة بالنسبة لشبابيك القلل التى وصلتنا . يضاف إلى هذا أن بعض هذه الأختام تحمل كتابات عربية معكوسة تتعلق بالأكل والطعام (٤٨) كما أشرنا من قبل ولا علاقة لها بالكتابات التى تزين بعض شابيك القلل ذات الزخارف الكتابية ، التى تشتمل على بعض العبارات الدعائية أو على بعض الأمثال الشعبية السائدة مثل «من صبر قدر» أو فاز من اتقا» و «دمت سعيدا» و «عف تعافى» و «اقنع تعز» و «من خف طف» و «يانايم فق» و «العز الدائم» ، الى غير ذلك من العبارات والحكم المأثورة (٤٩) .

كذلك من الصعب القول بأن هذه التحف كانت تستعمل بمثابة أغطية لهذا النوع من الأوانى المعدة للشرب أو حتى لغيرها من الأوانى الفخارية ذات الفوهات الضيقة لسبب بسيط هو أن الزخارف تعلو وجهها وليس ظاهرها الذى يتميز بمظهره الخشن الغفل من الزخرفة وبالمقبض المثبت فى مركزه للامساك به . حقيقة أنه عثر فى نيسابور بإيران على بعض التحف الفخارية المماثلة كانت تستخدم كأغطية لبعض الأوانى ، إلا أن هذه الأخيرة تبدو مزينة من الظاهر حول المقبض (٥٠) وذلك على النقيض من تحف مجموعتى دار الآثار الاسلامية ومتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، الأمر الذى يدفعنا إلى الترجيح بأنها كانت مخصصة بالفعل لطبع وحدات زخرفية على الكعك فى الأعياد والمواسم (٥١) الذى شهد المجتمع الاسلامى العديد منها لاسيما زمن الدولة الفاطمية التى اشتهرت بالمآدب الفخمة خاصة فى العيدين وفى شهر رمضان التى كانت تذخر بشتى أنواع الحلوى المشكلة على هيئة الصور والتماثيل (٥٢) بالاضافة إلى ما كان يحمل إلى الناس فى عيد الفطر من الخشكنانج والبسندود وأصناف الفانيذ الذى يقال له كعب الغزال والبرماورد والفستق وهوشوابير مثل الصنج وغير ذلك مما صنع فى دار الفطرة التى شيدها الخليفة العزيز بالله (٥٣) ، إذ كانت تنقل الى القصر يوم العيد فى طيافير أى صوان كبيرة مغطاة بطرح نفيسة وتنشر كالجبل الشاهق على مائدة طويلة بإحدى القاعات الكبرى ، حيث يجلس الخليفة فى شباك

ومعه الوزير ليشاهد العامة وهى تأكل الفطرة وتأخذ منها على سبيل البركة إلى دورهم دون منع أو حرج (٥٤) .

ولعله من الطريف أن نشير فى ختام هذا البحث إلى أن أحد الحكام المصريين لم يكتف بنقش الكعك الذى كان يقدم على مائدته فى عيد الفطر بالاختام ، بل كان يأمر أيضا بأن يحشى بالدنانير ويطلق عليه اسم «أفطن له» أى تنبه الى ما بداخله من القطع الذهبية (٥٥) .

والحق أن عادة نقش الكعك وزخرفته قد استمرت باقية على مر العصور بدليل العثور على بعض الأختام التى تنسب إلى العصرين الأيوبى والمملوكى ، وبدليل انها لازالت باقية حتى يومنا هذا ، بل يكفى أن نشير إلى أن احدى العبارات الواردة على هذا النوع من الأختام الفخارية ونعنى بها «كل واشكر» (٥٦) لازالت تطلق حتى الآن على نوع معروف من الحلوى .

* * *

الهوامش

١ - عنها أنظر ما كتبه كل من: P. Olmer, Les filtres de gargoulettes, Catalogue Générale du Musée Arabe du Caire, Le Caire, 1932; Le décor des filtres de gargoulettes de l'Egypte, Mélanges Maspéro, III, 1940, pp. 33-39;
زكى محمد حسن ، شبابيك القلل ، مجلة الثقافة المجلد الثالث العدد ١١٢ ، القاهرة ١٩٤١ ، ص ١٣ - ١٧ ، العدد ١١٥ ، ١٩٤١ ، ص ٢٨ - ٣٢.
M. Mostafa, Water. Jug Filters, Egypt Travel Magazine, No. 12, July 1955, pp. 20-25; G. Scanlon, Fatimid Filters, Archaeology and Olmer's Typology, Annales Islamologiques, IX, Le Caire, 1970, pp. 37-51.

٢ - عنها انظر ماكتبه كل من: J. Lacam, Etude et classement des lampes à huile musulmanes, Collections des Musées Francais, Cahiers de Berytus, III, 1953, pp. 197-203; W.Kubiak, Medieval Ceramic Oil Lamps from Fustat, Ars Orientalis, 8, 1970, pp. 1-18.

٣ - انظر بعض ما كتب عن هذا الموضوع في: J. Sauvaget, Flacons à vin ou grenades à feu grégeois, Mélange Grégoire Annuaire, de l'Institut, IX, Bruxelles, 1949;
أبو الفرج العش ، الفخار غير المطلى ، الحوليات السورية المجلد العاشر ١٩٦٠ ، ص ١٥٠ - ١٥٤ .

٤ - احمد عبد الرازق ، الفخار المصرى المطلى فى العصر المملوكى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٢٤ - ١٣٢ ، اللوحات ٣٤ - ٣٨.

٥ - افتتحت دار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطنى فى الخامس والعشرين من فبراير عام ١٩٨٣ ، وهى تقوم أساسا على مجموعة التحف الاسلامية الخاصة بالشيخ ناصر صباح الأحمد الصباح التى تزيد حاليا على ٢٠٫٠٠٠ تحفة متنوعة .

٦ - انتهز هذه الفرصة لاسجل شكرى للشيخة حصة سالم الصباح مديرة دار الآثار الاسلامية لتفضلها بالموافقة على نشر هذه المجموعة وعلى امدادها لى بالصور اللازمة . كما أتوجه بخالص الشكر أيضا الى الفنان عبد الكريم سليمان الغضبان الباحث بدار الآثار الاسلامية لقيامه بعمل الاشكال التوضيحية .

٧ - الفريد لوكاس ، المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمة زكى اسكندر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦١٦ .

٨ - يوسف بكر ، صناعة الفخار والخرف ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٣ .

٩ - أشار كل من على بهجت وفليكس ماسول الى تركيبة الطينة المستخدمة فى أيامهما لصناعة القلل الفخارية وهى على النحو التالى :
طينة من تبين (بالقرب من الجيزة) ٨٠
طمى النيل ٣٠
جير من المقطم ١٠

أنظر Aly Bahgat et Felix Massoul, La céramique musulmane de l'Egypte, Le Caire, 1930, p. 14; L. Golvin, J. Thiriot, et M.Zakariya, Les potiers actuels de Fustat, Le Caire, 1982, p.9.

١٠ - سبق ان قام مشكورا بعمل جميع هذه التحاليل وغيرها الزميل الاستاذ الدكتور صالح أحمد صالح رئيس قسم الترميم بكلية الآثار - جامعة القاهرة فى المعمل الكيماوى التابع لمصلحة الآثار المصرية وذلك فى أوائل الستينات.

١١ ـ عن هذه الخطوات بالتفصيل انظر L.Golvin ..., Les potiers, pp. 5-14.

١٢ ـ أحمد عبد الرازق ، الفخار المطلى ، رسالة ماجستير ، ص ١٢٨ ، الأختام رقم ٢٦١٦ ، ٢٤٦٧ ، ٣٨٥٧ / ٢٢ .

١٣ ـ تشبه هذه الأختام الفخارية مجموعة اخرى محفورة فى قوالب من الحجر النارى الصلب يرجح انها كانت تستعمل فى تشكيل المعادن والحلى المنصهرة ، يؤيد ذلك وجود آثار للنار على بعضها . أنظر عبد الرؤوف يوسف ، الفخار ، كتاب القاهرة ، تاريخها ، فنونها ، وآثارها ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٣٢٩ .

١٤ ـ زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧ .

١٥ ـ زكى حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، لوحة ٤ ، ٥ .

16 - H.Hawary et H.Rached, Stèles funéraires, Le Caire, 1932, I, pl. XXX, fig. 3.

١٧ ـ أحمد عبد الرازق ، الفخار المطلى ، رسالة ماجستير ، ص ١٣٠ p. Olmer, Les filtres de gargoulettes, pl. XXIII, fig. D.

18 - H.Hawary et H.Rached, Stèles funéraires, I, pl. LVII, fig. 3.

19 - p. Olmer, Les filtres pl. LXXVIII, fig. C.

20 - p. Olmer, Les filtres pl.IX, figs A, C.

٢١ ـ زكى حسن ، فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٣١٥ ، شكل ٢٤٤ ؛ أطلس الفنون الزخرفية ، ص ١٦ ، ٤٠٩ ، شكل ٥٥ .

٢٢ ـ فريد شافعى ، مميزات الأخشاب المزخرفة فى الطرازين العباسى والفاطمى فى مصر ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، المجلد ١٦/ ١ ، مايو ١٩٥٤ ، ص ٧٥ ، زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، ص ١٠٩ ، ٤٤١ ، شكل ٤٤١ .

٢٣ ـ زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، ص ١١٠ ، ٤٤١ ، شكل ٣٤٠ .

٢٤ ـ زكى حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، ص ٦٦ ، ٤٢٧ شكل ٢٠٢ ، كنوز الفاطميين ، لوحة ٣٦ .

25 - E. J. Grube, Islamic pottery of the Eighth to Fifteenth Century in the keir Collection, London, 1976, p. 107, no. 66.

٢٦ ـ عبد الرؤوف يوسف ، الفخار ، كتاب القاهرة ، ص ٣٢٩ .

٢٧ ـ احمد عبد الرازق ، الفخار المطلى ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ ، لوحة ٣٥/٢ .

28 - G. Wiet, Album du Musee Arabe du Caire, Le Caire, 1930, p.6.

٢٩ ـ المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، جـ ١ ، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

٣٠ ـ حسن الباشا ، فن التصوير فى مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٣٥ .

31- A. Abel, Gaibi et les grands faïenciers Egyptiens d'époque mamlouke Le Caire, 1930, pl. VXI, figs 85, 87; Aly Bahgat et F. Massoul, La céramique musulmane, pl. J, figs 72, 74; E. Baher, Fish - Pond Ornament on Persian and Mamlouk Vessels, BSOAS, XXXI, 1968; E. Atil, Art of the Mamluks, Washington, 1981, pp. 79, 91.

٣٢ ـ أحمد عبد الرازق ، الفخار المطلى ، ص ١٣٢ .

33 - M. Dimand, Studies in Islamic Ornament, Ars Islamica, IV, 1937; pp. 294 - 299

فريد شافعى ، الاخشاب المزخرفة فى الطراز الأموى ، مجلة كلية الآداب ، المجلد الرابع عشر ، جـ ٢ ، ١٩٥٢ ، لوحة ٣ .

34- p.Olmer, Les filtres de gargoulettes, pl. XXVI, fig. A.

35- p.Olmer, Les filtres, pl.VIII, fig. D.

36- L. A. Mayer, Saracenic Heraldry, Oxford, 1933, pp. 24 - 25.

37- E. Atil, Art of the Mamluks, p. 131, no. 50.

38- L. A. Mayer, Saracenic, pl. XIII; J. W. Allan, Mamluk Sultanic heraldry and the numismatic evidence, JRAS, 1970, p. 107, fig. I; E. Atil, Art of the Mamluks, p. 165, No. 75, p. 185, no. 93.

39- L. A. Mayer, Saracenic, pl. XXXIV; E. Atil, Art of the Mamluks, p. 230, no 114, p. 240, no. 123.

40- E. Atil, Art of the Mamluks, p. 59, No. 11, p. 129, No. 48.

٤١ ـ أحمد عبد الرازق ، الفخار المطلى ، ص ١٣٢ ، لوحة رقم ٣٨ .

٤٢ ـ م.س . ديماند ، الاسلامية ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٨٠ .

43- F. Petrie, Arts and Crafts of Ancient Egypt, p. 128.

٤٤ ـ أحمد عبد الرازق ، الفخار المطلى ، ص ٤٣ .

45- Gayet, L'Art Copte, Paris, 1902, figs 88-99.

كما عثرت بعثة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة فى منطقة القلايا بمحافظة البحيرة على ختم من هذا النوع فى سنة ١٩٦٥ يزين وجهه رسم غائر لغزال ، أما الظهر فيعلوه نقش لجديلة ثنائية الفروع .

٤٦ ـ جورج فيرجسون ، الرموز المسيحية ودلالتها ، ترجمة يعقوب جرجس نجيب ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧١ .

٤٧ ـ احمد عبد الرازق ، الفخار المطلى ، ص ١٢٥ ، لوحة رقم ٣٣ .

٤٨ ـ عبد الرؤوف يوسف ، الفخار ، ص ٣٢٩ .

49- p. Olmer, Les filtres de gargoulettes, pl. LXXIV.

50- Charles K. Wilkinson, Nishapure, Pottery of the Early Islamic Period, New York (S.D), p. 348, No. 69-70.

٥١ ـ ارنست كونل ، الفن الاسلامى ، ترجمة أحمد موسى ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٥٤ ؛ عبد الرؤوف يوسف ، الفخار ، ص ٣٢٨ .

٥٢ ـ عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، القاهرة ١٩٥٥ ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ -١٠٢ ؛ ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، ص ٣١٤.

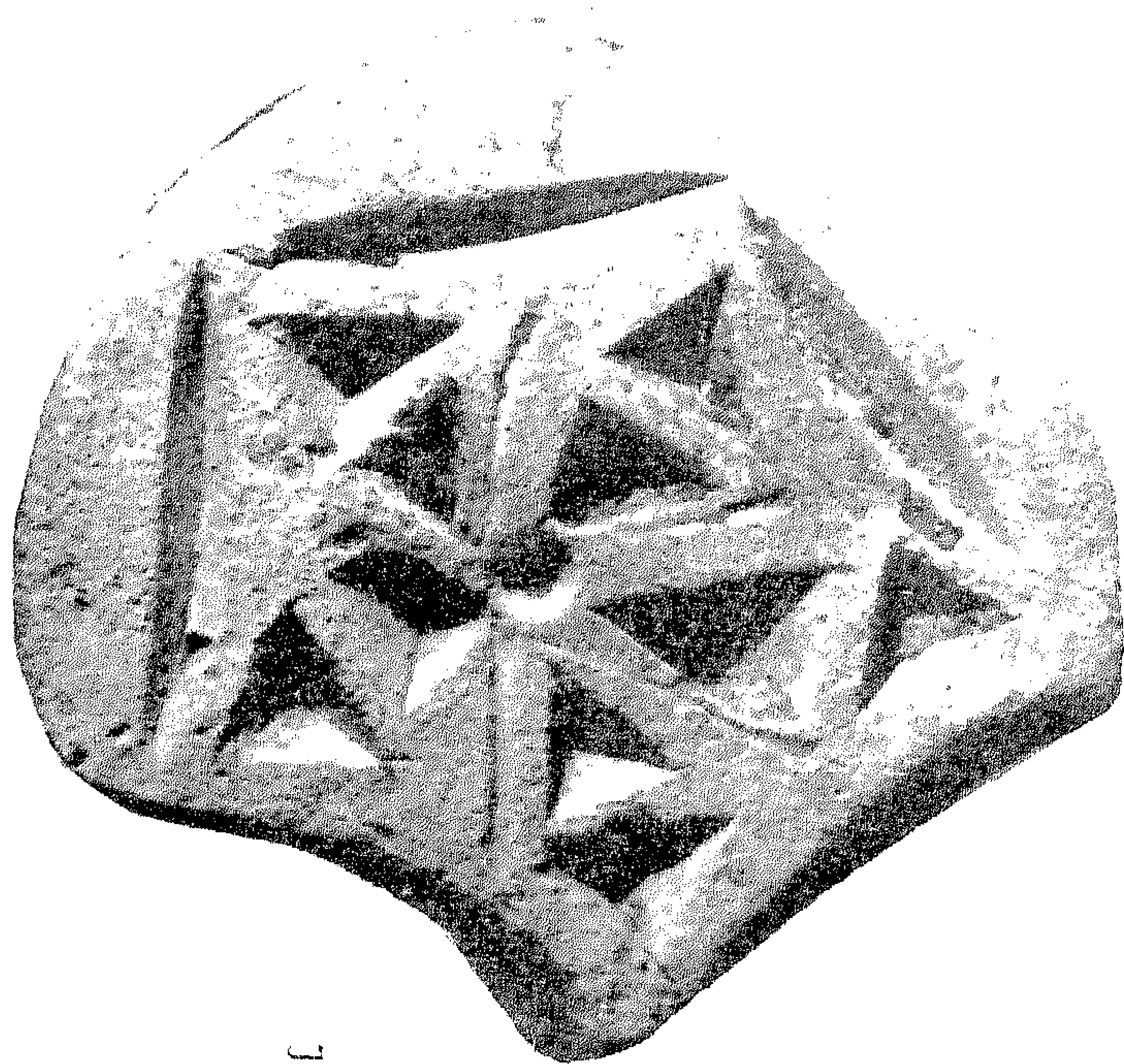
٥٣ ـ المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٧ .

٥٤ ـ المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٥٤ .

٥٥ ـ عبد الرؤوف يوسف ، الفخار ، ص ٣٢٩ .

٥٦ ـ المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ٢ ص ٣٣٢ .

لوحة رقم (١)



ب



لوحة رقم (٢)



ب



لوحة رقم (٣)



ب



شكل رقم (١)



شكل رقم (٢)



شكل رقم (٣)

التأثيرات المعمارية بين مصر والعراق في العصر الاسلامي

دكتور / أحمد قاسم الجمعة
كلية الآداب / جامعة الموصل

يعد العراق ومصر من أقدم المواطن التى نشأت فيهما الحضارة البشرية ، كما حدثت بينهما علاقات وتبادل حضارى منذ أقدم العصور . والرسائل المكتشفة فى تل العمارنة خير دليل على ذلك ، وأمتد تأثيرها الى الحضارات القديمة الأخرى ولا سيما الحضارة الأخمينية والحضارات الوارثة لها فى بلاد فارس شرقا ، والحضارة الأفريقية وما تفرغ عنها من حضارات غربا .

والبحث سيتناول التأثير المعمارى المتبادل بين العراق ومصر فى العصر الاسلامى ، حيث ازداد ذلك التأثير بفعل الوحدة السياسية والحضارية بين أقطار الوطن العربى لفترة طويلة بعد ظهور الاسلام والتى تمخضت عنها الوحدة التعبيرية للعمارة والفنون (١) .

وسيكون الاعتماد فى ذلك على مدى التشابة بين الظواهر والعناصر المعمارية فى كلا القطرين على الرغم من كون التشابه لا يشير فى كل الأحيان الى التبادل ، وانما تكون نشأته محليه بفعل الحاجة اليه .

وتبادل الولاة والحكام وهجرة وتنقل الصناع وأرباب الحرف من قطر لآخر له الدور الكبير فى ذلك التبادل . وخير دليل على ذلك احمد بن طولون الذى ترعرع فى سامراء في العراق وعاش فى عصرى المعتصم والمتوكل اللذين اهتما بالعمارة والبناء وعليه فمن البديهى أن ينقل بعض تلك الظواهر المعمارية الى مبانيه فى مصر بعد أن ولى أمرها (٢)

ثم قدوم بعض الصناع واهل الحرف من مصر الى الموصل فى أواخر القرن (٦هـ / ١٢م)(٣) وهجرة الصناع من الموصل الى ربوع الشام ومصر بعد استيلاء المغول عليها سنة (٦٠٠هـ / ١٢٦٢م)(٤)

ومن تلك التأثيرات تخطيط مدينة القطائع التى بناها ابن طولون عام (٢٥٦هـ/٨٦٩م) حيث كان يخترقها شارع واسع يصل بين قصره وجامعه سمى بالشارع الأعظم على غرار الشارع الأعظم الذى كان يخترق مدينة سامراء ويمتد لعدة كيلو مترات واصلا قصر بلكوار ا وجامع ابى دلف شمال سامراء (٥) ، كما أن جامع ابن طولون كان قد استوحى تخطيطه مباشرة من العمارة العباسية فى سامراء، (٦) ، ولاسيما الزيادات التى تكتنف جدرانه الخارجية (رسم١)التى تمثلت قبل ذلك فى مسجد سامراء (٧) وأبى دلف .كما وجدت فى الجامع الأعظم بسوسةفي تونس ، وهى عبارة عن افنية طوليةتشكل على جبهة الجامع وجانبيه بما يشبه السور (٨) ، علما بأن المآذن فى هذه الجوامع تقع خارجها فى تلك الزيادات (٩) .

وتصميم المئذنة الملوية فى الجامع الكبير في سامراء ذات القاعدة المكعبة والسلم الصاعد حولها من الخارج (رسم ٢، ٣) هو الآخر يبين مدى تأثير العمارة العراقية على مصر ، فقد تمثل فى مئذنة الجامع الطولونى (١٠) ، (رسم٤، ٥) على الرغم من تشييدها بعد اربعة قرون فى عام (٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) ، كما تمثل بعد ذلك فى مئذنة جامع أبى دلف المشيد حوالى عام (٢٤٧هـ /٨٦١م) (١١) .

وهناك تأثيرمعمارى آخر تناول المآذن فقد اشتملت مئذنة خانقاه الأمير قوصون بصحراء السيوطى (٧٣٦هـ/١٣٣٦م) من عهد المماليك البحرية على سلمين فيما بين الدورة الاولى والثانية لايرى الصاعد النازل منها (١٢) ، ومثل هذه الظاهرة وجدت من قبل فى العراق بمدينة الموصل فى

مئذنة الجامع النورى من العهد الاتابكى (٥٦٦-٥٦٨هـ/ ١١٧٠-١١٧٢م) ، فقد اشتملت هى الأخرى على سلمين أحدهما يبدأ من أسفل قاعدتها المنشورية ،والآخر من أسفل بدنها الاسطوانى ولا يلتقيان إلاّ فى الأعلى[١٣] (رسم٦)وانتقلت الميزة المذكورة الى المئذنة المظفرية فى اربيل بالعراق (٥٨٦-٦٣٠هـ/ ١١٩٠-١٢٣٢م) [١٤] .

وحقق المعمار بوجود السلمين تخفيف الثقل وزيادة تماسك وشدة المواد البنائية للبدن بالمحور الوسطى وعدم اندفاعها نحو الخارج[١٥] .

ومن الظواهر المعمارية الأخرى المبتكرة فى سامراء ذات العلاقة بتطور العمارة فى مصر هى البدنات ، فقد وجدت فى الجامع الكبير بسامراء على هيئة اكتاف مربعة لحمل السقف فى ظلات المسجد مباشرة بغير عقود [١٦] ، وتحف بأركانها اعمدة اسطوانية رشيقة [١٧] . وفى جامع ابى دلف وجدت الأكتاف بهيئة مستطيلة لتحمل عقودا تتكون منها بائكات يوضع فوقها السقف . وإنتقلت هذه الظاهرة الى الجامع الطولونى بمصر [١٨] (رسم) ، وامتدت الى العصر الإخشيدى فى مشهد آل طباطبا بالقرافة الصغرى بالقاهرة [١٩] ، وتعدتها الى العهد الفاطمى عندما تمثلت فى جامع الحاكم [٢٠] . وطالعتنا بعد ذلك فى جامع قرطبة من عهد الخليفة المستنصر[٢١] .

أما ظاهرة عمود الناصية المعلق التى وجدت فى نواحى دعامات جامع سامراء الكبير ، طالعتنا هى الاخرى بعد ذلك فى الحنايا الزخرفية لواجهات جامع عمرو بن العاص يرجع الى عهد توسيعه من قبل الوالى عبد الله بن طاهر (٢١٢هـ/ ٨٢٧م)[٢٢] .

ولابد لنا من الإشارة ونحن فى مجال التطرق الى الاعمدة الى تيجان الاعمدة الكأسية التى ظهرت بصورتها الواضحة فى قصر الجوسق الخاقانى للخليفة المعتصم فى سامراء (٢٢١هـ/٨٣٥م) (رسم٨) ، ثم ظهرت أمثلته بعد ذلك فى شاهد قبر مؤرخ فى سنة (٢٤٥هـ/٨٥٩م) وبعد سنتين وجد فى قواعد بعض الاعمدة بمقياس الروضة ثم تمثل بجميع تيجان الجامع الطولونى وكذلك كنيسة العذراء ذات الطراز الطولونى بدير السريان بحدودعام (٣٠٢هـ/ ٩١٤م)[٢٣] .وعلى الرغم من الاستخدام النادر للتيجان الكأسية فى المغرب العربى غير أنه وجد فى أعمدة طاقات جامع القيروان[٢٤] .

وشمل التأثير المعمارى المتبادل بين العراق ومصر تصميم القصور والمساكن .فعلى الرغم من اندثار قصر ابن طولون فى أسفل هضبة المقطم إلاّ أن من المحتمل تأثر تصميمه بالاساليب المعمارية التى اتبعت فى قصر االجوسق الخاقانى وقصر بلكوار شمالها [٢٥] ، وفى العصر الفاطمى كلن فى قصرالخليفة نفق يصل بين غرف الخليفة وجناح الحريم على غرار النفق الذى سبق وجوده بقصر الخليفة المعتصم بسامراء [٢٦] .

وأقدم الدور السكنية المكتشفة فى حفريات الفسطاط تعود الى العصر الطولونى ، وتوضح مدى تاثير العمارة العراقية فى العصر العباسى على العمارة بمصر حيث يتألف الدار من صحن يحيط به اربعة ايونات احدهما وهو الرئيسى يتخذ شكل حرف T ومثل هذا التصميم وجد فى قصر الأخيضر[٢٧] المنسوب الى سنة (١٦٠هـ/٧٧٦م) . هذا وان أقدم تلك المرافق المكتشفة تمثل جناح

لدار فى منطقة العسكر ينسب الى العصر الطولونى أو حوالى(٢٨٥هـ/٩٠٠م)ويتكون من ايوان أوسط وحجرتين على جانبيه ، وتتقدم كل ذلك سقيفه مستعرضة تفتح على فناءمكشوف من خلال ثلاث فتحات . وهذا التصميم تمثل قبل ذلك فى دارين من دور قصر الإخيضر ، وكذلك دور سامراء التى تنسب للفترة (٢٢١-٢٢٨هـ/٨٣٧-٨٩١م)[٢٨].

والملاحظ على احد الدور المكتشفة من قبل الدكتور عباس حلمى انها تحتوى على ايوانين فقط فى الجهتين الشمالية والجنوبية وهو التقليد الذى ساد جميع الدور المتكاملة المساقط المكتشفة فى الفسطاط[٢٩].

وتتجلى أهمية هذه الدار ايضا باحتوائها على المدخل المنكسر لكونه أقدم مثل قائم ثابت للتاريخ من نوعه ليس بمصر فقط ، وانما فى بقية العالم العربى الاسلامى ، على الرغم من انتشار المداخل المنكسرة فى دور الفسطاط وظهورها فى العصر الفاطمى فى القصر الغربى الذى بناه العزيز بالله[٣٠]، كما أن مداخل بغداد المنكسرة من اولى الامثلة الصريحة لتلك المداخل فى العصر الإسلامى[٣١].

وظهرت المداخل المنكسرة بعد ذلك بالشام فى العصر الاتابكى ابان الحروب الصليبية ، واستعملها صلاح الدين فى أحد أبواب حصن القاهرة للفترة بين(٥٦٤-٥٦٧هـ/١١٦٩-١١٧١م)ايام وزارته للعاضد الفاطمى ، ثم استخدمها بعد أن ولى الحكم فى مصر فى مداخل أسوار العاصمة مصر ، ومداخل قلعة الجبل التى بناها سنة (٥٧٢هـ/١١٧٦م)[٣٢]، ثم ظهرت فى بعض مبانى المغرب العربى كمدخل الرواح فى الرباط من فترة مقاربة [٣٣] وامتد تأثيرها الى الحصون والقلاع الأوربية [٣٤]

ويؤدى المدخل المنكسر فى المساكن غرضين أحدهما اجتماعى يحجب انظار المارة فى الخارج والآخر أمنى يزيد من فرص الدفاع ايام الاضطرابات[٣٥]، فى حين تؤدى فى المدن والقلاع والحصون غرضا عسكريا ، وذلك لاضطرار الغزاة لدى اقتحامها الى الانحراف نحو اليسار فتتعرض جوانبهم لسهام المدافعين من شرفات المبنى المقابل للمدخل[٣٦].

وهناك نوع آخر من المداخل شمله التأثير المتبادل بين العراق ومصر هو المداخل البارزة عن مستوى الجدران . فقد ظهرت امثلتها الاولى فى العراق فى خان عطشان (١٦١هـ/٧٧٧م)[٣٧] وتمثلت هذه الظاهرة فى المدخل الرئيسى لجامع الحاكم بالقاهرة (٣٨٠-٤٠٣هـ/٩٩٠-١٠١٢م) فى العهد الفاطمى [٣٨].

وعلى الرغم من ظهور المداخل البارزة فى العراق قبل مصر ، الاّ ان الحسم لا يمكن فيما اذا انتقالها الى مصر كان بصورة مباشرة من العراق او بصورة غير مباشرة من المغرب العربى لأنها تمثلت فى تونس (٣٠٣-٣٠٨هـ/٩١٥-٩٢٠م)[٣٩] لأن شمال افريقيا كان خاضعا للحكم الفاطمى فى هذه الفترة[٤٠] .

واذا تناولنا التصميم والظواهر المعمارية فى بيوت الفسطاط الآنفة الذكر بشىءمن التفصيل لوجدنا أن ترتيب الاواوين التى تحف بالفناء وتقع على ميمنتها وميسرتها الاجنحة المتناظرة يمثل

الطراز المعروف بالحيرى نظرا لتطوره وانتشاره فى قصور الحيرة بالعراق (٤١)، وامتد الى المبانى العربية الاسلامية فى العصر الأموى فى بعض مساكن الكوفة وواسط واسكاف بنى جديد (٤٢)، ثم العصر العباسى من بعده بشىء من التطور كما فى بيوت قصر الأخيضر(٤٣).

وربما يكون الطراز الحيرى مشتقا من هيئة مضيف بيت الشعر،حيث يتوسط

المضيف الواسع المفتوح من الامام بيت الشعر وعلى جانبيه مساكن العائلةمن القصب (٤٤). وقد وجدت بوادر هذا الطراز فى العراق منذ عصر آيسن لارسا البابلى القديم (٢١٧٠ - ١٦٥٠ ق.م) (٤٥) كما ظهر ما يماثل ذلك بعض الشىء فى اللاهون من عهد الدولة الوسطى بعصر القديمة ، فقد كانت بيوتها القديمة تتألف من قسم اوسط وجناحين (٤٦).

أما تصميم المنازل الذى يتخذ شكل حرف T الذى يمثل الممرات الرئيسية لمرافقها فقد تمثلت نماذجه فى الطبقة الرابعة لمعبد اننا فى الوركاء (٢٨٠٠-٢٥٠٠ ق.م) ، والذى اصطلح على تسميته بالطراز الحيرى الناقص (٤٧).

ولقد كان للمناخ الأثر الرئيسى فى اعتماد ذلك التصميم ، فالفناء يساعد على تخفيف حدة الضوء والحرارة صيفا ويساعد على الدفء شتاء عند غلق الفتحات ، كما يرشح الهواء من الغبار ويخفف ضوضاء الطرقات ويحجب سكان الدار عن أنظار المارة بها (٤٨) .

أما الايوان فيعد بمثابة فناء مسقف يستخدم فى كثير من المناسبات العائلية ، وسطحه المقبب يساعد على تلطيف الحرارة والتهوية صيفا (٤٩)، كما تكون السطوح المقببة أكثر تماسكا من السطوح المستوية وتساعد على تخفيف القوى الضاغطة على الجدران والأسس(٥٠).

وابتكر التقويس فى البناء منذ العصر السومرى فى العراق متمثلا فى العقد الكامل فى مدينة أريدوا (٥١)، واقتبسته العمارة الفارسية (٥٢) ، ويغلب على الظن أنه انتقل الى الطراز الرومانى (٥٣).

وبخصوص السقيفة المستعرضة التى تتقدم الأواوين وملحقاتها فى أجنحة المساكن فكانت بمثابة الأروقة التى تقى الابنية التى تتقدمها من الحرالشديد صيفا والبرد والأمطار شتاءا . بينما اقتصرت الأجنحة على الجبهتين الشمالية والجنوبية لمعالجة مشاكل المناخ ايضا . فالأجنحة الشمالية تكون شتوية لأنها تتعرض لأشعة الشمس فى حين توافق الأجنحة الجنوبية المتطلبات الصيفية لأنها تتفادى شمس العصر ذات الضغط الحرارى العالى .

وهناك تأثيرات معمارية اخرى بين العراق ومصر شملت العقود .فالعقد المدبب العادى وجد فى العراق قبيل الاسلام لضرورة معمارية وفى العصر الاسلامى وجدت نماذجه الاولى فى المسجد الأموى بدمشق (٩٦هـ/٧١٤م)(٥٤) واستخدم بعد ذلك فى قصر الأخيضر وقصر الجوسق الخاقانى ، ثم طالعنا فى المسجد الجامع بالقيروان من عهد زيادة الله الأغلبى (٢٢١هـ/٨٣٧م)، وبعده فى مقياس الروضة بمصر (٢٤٧هـ/٨٦١م) ثم انتشر بصورة واسعة فى مشرق العالم الاسلامى ومغربه ، علاوة على ظهوره فى العمارة المسيحية الرومانسية فى اوربا (٥٥).

اما العقد المدبب ذو المراكز الأربعة فيعد من الابتكارات العربية الاسلامية المهمة حيث تمثلت أمثلته الاولى فى باب بغداد فى الرقة(حوالى ١٥٥هـ/٧٧١م)، وبعدها وجد فى باب العامة فى قصر

الجوسق الخاقانى وجامع أبى دلف ، ثم انتقل إلى عمائر المغرب العربى .ولم يظهر فى مصر إلاّ بالعصر الفاطمى مما يوحى بأ نه لم ينقل من العراق بصورة مباشرة بل عن طريق المغرب العربى (٥٦).

والعقود المفصصة التى تعتمدعلى التدوير والإنكسار تعد هى الاخرى من العقود المبتكرة من قبل العرب المسلمين .فقد وجدت امثلتها الصريحة الاولى فى مئذنة مسجد الحاكم بالقاهرة(٣٨٠-٤٠٣هـ/ ٩٩٠-١٠١٢م) وأحد محاريب الجامع الطولونى من نهاية العهد الفاطمى (٥٧) ، ومنذ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى انتشر هذا العقد فى مشرق العالم الاسلامى ومغربه (٥٨) ، ففى العراق تمثل فى عقود ضريح محمد الدورى (القرن ٥هـ/ ١١م)(٥٩) وعقد محارب عمارة الأربعين فى تكريت (نهاية القرن ٥هـ/ ١١م)(٦٠) ، وقلعة بن حماد فى الجزائر (القرن ٥هـ/ ١١م)(٦١)، والبيمارستان النورى فى سوريا (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م)(٦٢) .

ولابد فى ختام البحث من التنوية أنه قد تناول أبرز التأثيرات المعمارية بين مصر والعراق فى العصر الاسلامى، ولم يتطرق الى التأثيرات الأخرى التى شملت الفنون التشكيلية والصناعات التطبيقية المستخدمة فى المبانى لأغراض جمالية وتوثيقية خشية الاتساع، ومنها أعمال الجص والتكسية بالرخام وتلبيسه والاجر المزجج والزخرف والخط العربى .

* * *

الهوامش

(١) الدكتور احمد قاسم الجمعة: أهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العزاق والمغرب العربى فى العصر الاسلامى ، مجلة آداب الرافدين ، العدد التاسع ، أيلول ١٩٧٨ ، ١٩٠ .

(٢) الدكتور فريد شافعي :العمارة العربية فى مصر الاسلامية ، المجلد الأول ، القاهرة ١٩٧٠م ، ص ٤٢١؛ الدكتور مظفر طاهر العميد : العمارة العباسية فى سامراء ، بغداد ١٩٧٦م ، ص٢٣٨ .

(٣) سعيد الديوه جى : الموصل فى العهد الاتابكى ، بغداد ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م،ص٤٥ .

(٤) الدكتور صلاح الحبيدى : التحف المعدنية الموصلة فى العصر العباسى ، بغداد ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م،ص٢٥ .

(٥) شافعى :المرجع السابق ،ص٤٢٣ .

(٦) جورج مارسيه :الفن الاسلامى ، ترجمة الدكتور عفيف بهنسى ، ومراجعة عدنان بنى ، دمشق ١٩٦٨م، ص٧١ .

(٧) محمود عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولونى ، القاهرة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م ،ص٣٠،٣١ .

(٨) مارسيه : المرجع السابق ،ص ٧٢ .

(٩) العميد :المرجع السابق ،ص٢٣٨ .

(١٠) شافعى : المرجع السابق ، ص٤١١ ؛ العميد : المرجع السلبق ،ص٢٣٨ ؛ ثروت عكاشة : القيم الجمالية فى العمارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٨١م ، ص ١٥٩ .

(١١) شافعى :المرجع السابق ،ص ٤١١ .

(١٢) حسن عبد الوهاب : من روائع العمارة الاسلامية فى مصر ، المؤتمر الرابع للآثار فى البلاد العربية ، القاهرة ١٩٦٥م ، ص ٣٠٩.

(١٣) الدكتور احمد قاسم جمعة : من نفائس الفن المعمارى فى الموصل ، مجلة الشعب ، العدد الأول ، حزيران ١٩٧٨م ، ص٥٦.

(١٤) الدكتور احمد قاسم جمعة : المئذنة المظفرية فى أربيل ،مجلة الشعب ، العدد الرابع ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ص١٦٨.

(١٥) من نفائس الفن المعمارى فى الموصل ،ص٥٦ .

(١٦) شافعى : المرجع السابق ،ص٤٠٣ .

(١٧) ربيع القيسى : جامع الجمعة فى سامراء تخطيطيه وصيانته ،مجلة سومر ، م ٢٥، لسنة ١٩٦٩م ، ص ١٤٨ ، مخطط رقم ٣ .

(١٨) شافعى : المرجع السابق ، ص ٤٠٣ .

(١٩) الجمعة : أهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العراق والمغرب العربى فى العصر الاسلامى ، ص٢١٢ .

(٢٠) حسن عبد الوهاب :تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ١٩٤٦م ، ج١ ، ص ٣٥ .

(٢١) مانويل جوميث : الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ترجمة الدكتور لطفى عبد البديع والدكتور جمال محمد محرز ، مصر ١٩٦٨م ، ص١٠٩.

(٢٢) شافعى : المرجع السابق ، ص ٤١٧.

(٢٣) شافعى : المرجع السابق ، ص٤١١.

(٢٤) Creswell , The Muslim Architecture of Egypt , Oxford 1959, Vol .11, Fig.237.

(٢٥) شافعى :المرجع السابق ، ص٤٢٥.

(٢٦) الدكتور صالح لمعى مصطفى : التراث المعمارى فى مصر ، بيروت ١٩٧٥م ، ص٨٠.

(٢٧) الدكتور صالح لمعى مصطفى :التراث المعمارى فى مصر ، بيروت ١٩٧٥م ،ص٨٠،٨١.

(٢٨) شافعى : المرجع نفسه ، ص٤٢٣.

(٢٩) شافعى : المرجع السابق ، ص٤٢٣.

(٣٠) المرجع نفسه ، ص٤٣٥

(٣١) الدكتور احمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ،المذخل ، القاهرة ١٩٦١م ، ص٣٤، حاشية ٢، طاهر مظفر العميد : بغدادمدينة المنصورة المدورة ، النجف ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ص٢٢٠،٢٢١.

(٣٢) شافعى : المرجع السابق ،ص٢٧٣،٢٧٤.

(٣٣) صبحى زعشى : نماذج من الفن المعمارى الموحدى بالمغرب ، المحمدية ١٩٧٧م ، ص٥٠ ، شكل٦.

(٣٤) شافعى : المرجع السابق ، ص ٢٧٢.

(٣٥) المرجع نفسه ، ص٤٣٥.

(٣٦) الدكتور احمد فكرى : المرجع السابق ، ص ٣٤، حاشية ٢؛ الدكتور مظفر طاهر العميد : بغداد مدينة المنصورة المدورة ، النجف ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ص٢٢٠-٢٢١.

(٣٧) الدكتور احمد فكرى : العمارة الاسلامية فى مصر ، القاهرة ، ص٨٢.

(٣٨) الدكتور عبد الرحمن زكى : القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر الصقلى الى الجبرتى المؤرخ ، القاخرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص٥٤.

(٣٩) فكرى : المرجع السابق ، ص٨٢.

(٤٠) الجمعة : المرجع السابق ، ص١٩٣.

(٤١) الدكتور عفيف بهنسى : تكوين الفن العربى الاسلامى فى ديار الشام ، الحوليات السورية ، م٢ لسنة ١٩٧٢ ، ص١٩ .

(٤٢) فريال مصطفى : البيت العربى فى العراق فى العصر الاسلامى ، بغداد ١٩٨٣م ،ص ٢١.

(٤٣) الدكتور عيسى سلطان وآخرون : العمارات العربية الاسلامية ، ج ١ (قصور ومشاهد) ، بغداد ١٩٨٢م، ص٣١.

(٤٤) الدكتور مصطفى جواد : الديوان والكنيسة فى العمارة الاسلامية ، مجلة سومر ، ٢٥ لسنة ١٩٦٩م ، ص١٦٦.

(٤٥) فريال : المرجع السابق ، ص ١٦٠ ، شكل٦.

(٤٦) الدكتور محمد أنور شكرى : العمارة فى مصر القديمة ، القاهرة ١٩٧٠م ، ص ١٠٥ .

(٤٧) فريال : المرجع السابق ،ص ١٦٠ ، شكل ٥ .

(٤٨) شافعى : المرجع السابق ، ص٢٨٧ .

(٤٩) محمد بدر الدين الخولى : المؤثرات المناخية والعمارة العربية ، جامعة بيروت العربية ١٩٧٥م ، ص ٣٤ .

(٥٠) الدكتور احمد قاسم الجمعة : العناصر المعمارية والفنية المميزة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى ، مجلة آداب الرافدين ، العدد الخامس عشر ، ايلول ١٩٨٢م ، ص٢٣٧ .

(٥١) طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ، ج ١ ، بيروت ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ،ص٢٧٥ . (٥٢) جواد : المرجع السابق ، ص١٦٤ .

(٥٢) جواد : المرجع ، ص١٦٦ .

(٥٤) المرجع نفسه ، ص١٧٣ ،٢٠٧ .

(٥٥) الدكتوراحمد فكرى : التأثيرات الاسلامية العربية على الفنون الاوربية ، مجلة سومر ، م ٢٣ لسنة ٦٧ ، ١م ، ص ٧٥.

(٥٦) شافعى : المرجع السابق ، ص ٤١٣ ، ٤١٥.

(٥٧) Shafiei (F.) An Eary Fatimit Mihrab In the Mosque of Ibn- Tu1un , Bulletin of the Faculty of Arts , Vol , xv, Part 1, May 1953, PP . 7581 , fig . 16

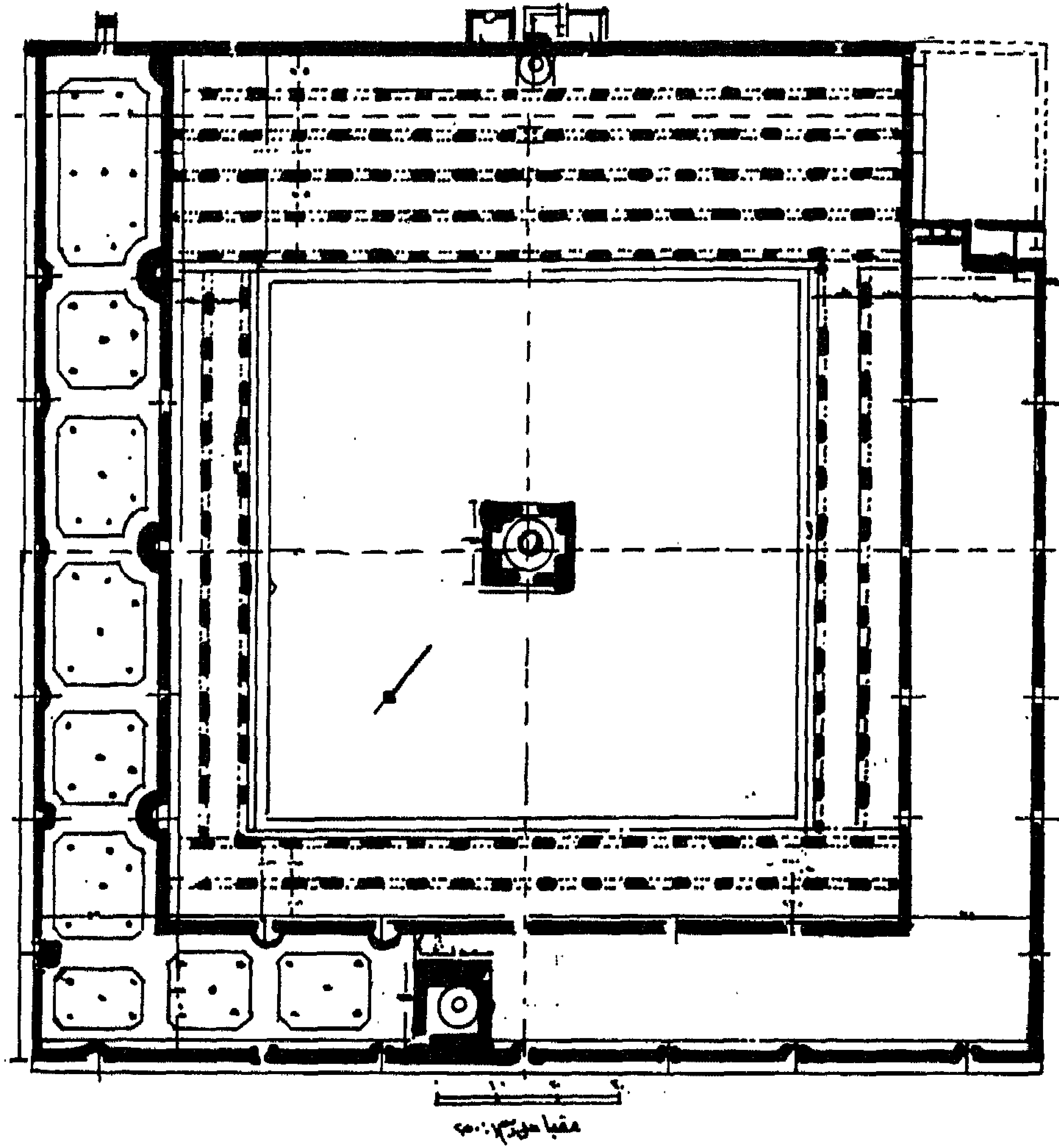
(٥٨) احمد قاسم الجمعة : محاريب مساجد الموصل الى نهاية حكم الاتابكة الرسالة ماجيستير (غير منشورة) قدمت لجامعة القاهرة ١٩٧١ ،ج١ ،ص ٢٢٣ .

(٥٩) Shafiei , Op.cit. ,P.73, Fig.8.9 .

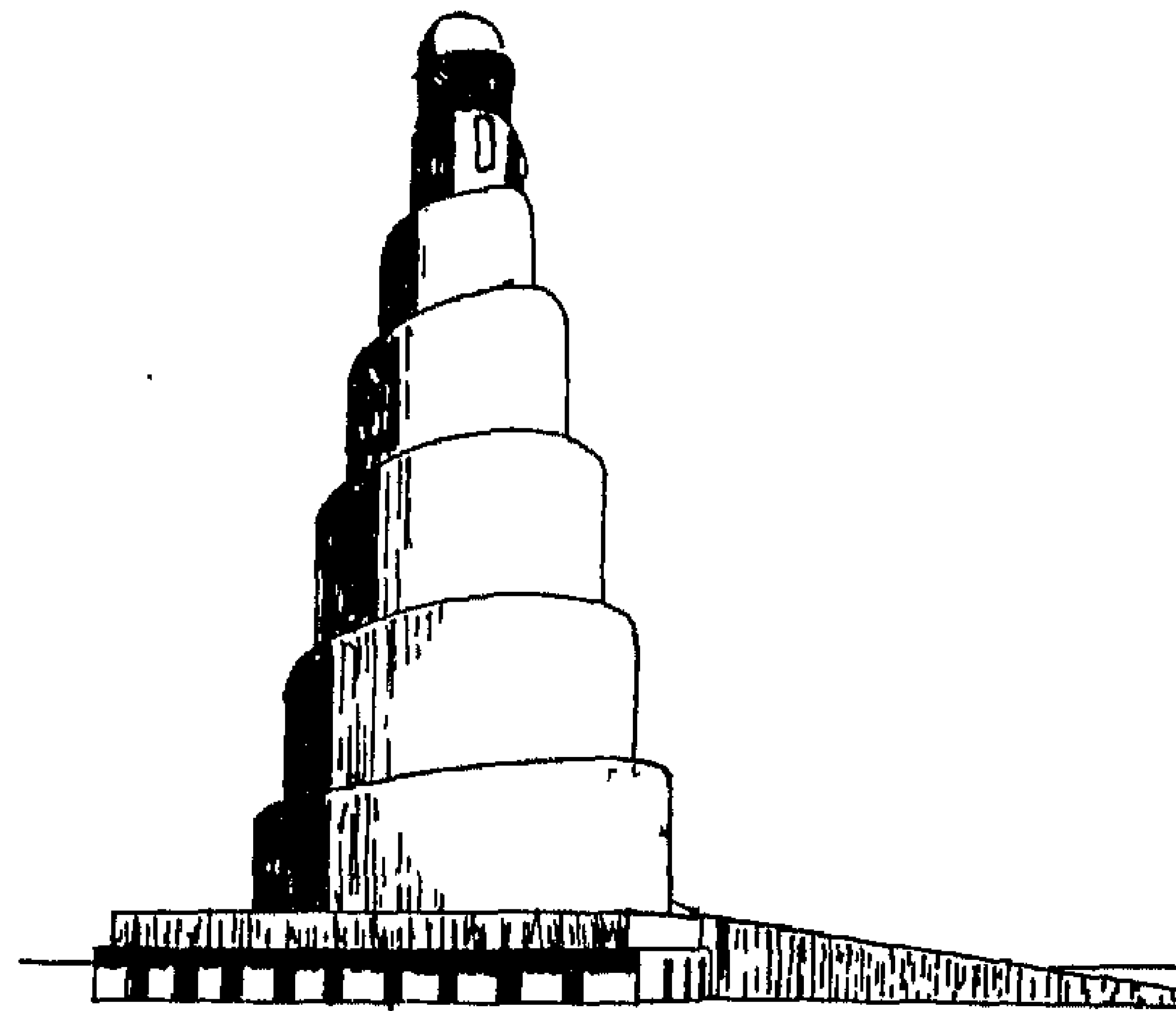
(٦٠) الدكتور عبد العزيز حميد : عمارة الاربعين فى تكريت ، مجلة سومر ، م ٢١ لسنة ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٦١) Marcais, Manuel D'Art Muslman E ' Architecture , PP 155 ' Figs , 80,368,199B .

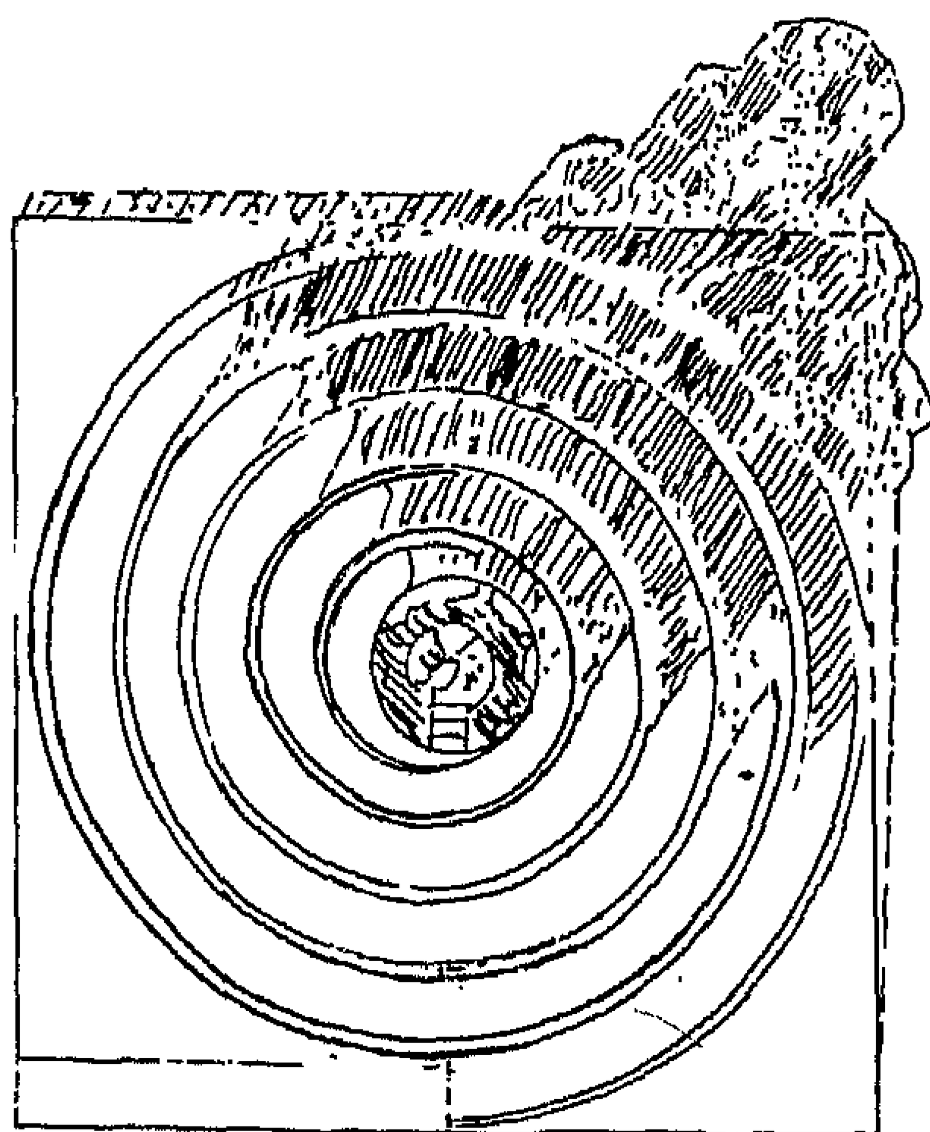
(٦٢) Shafiei , Op . Cit ,P,74,Fig.12 .



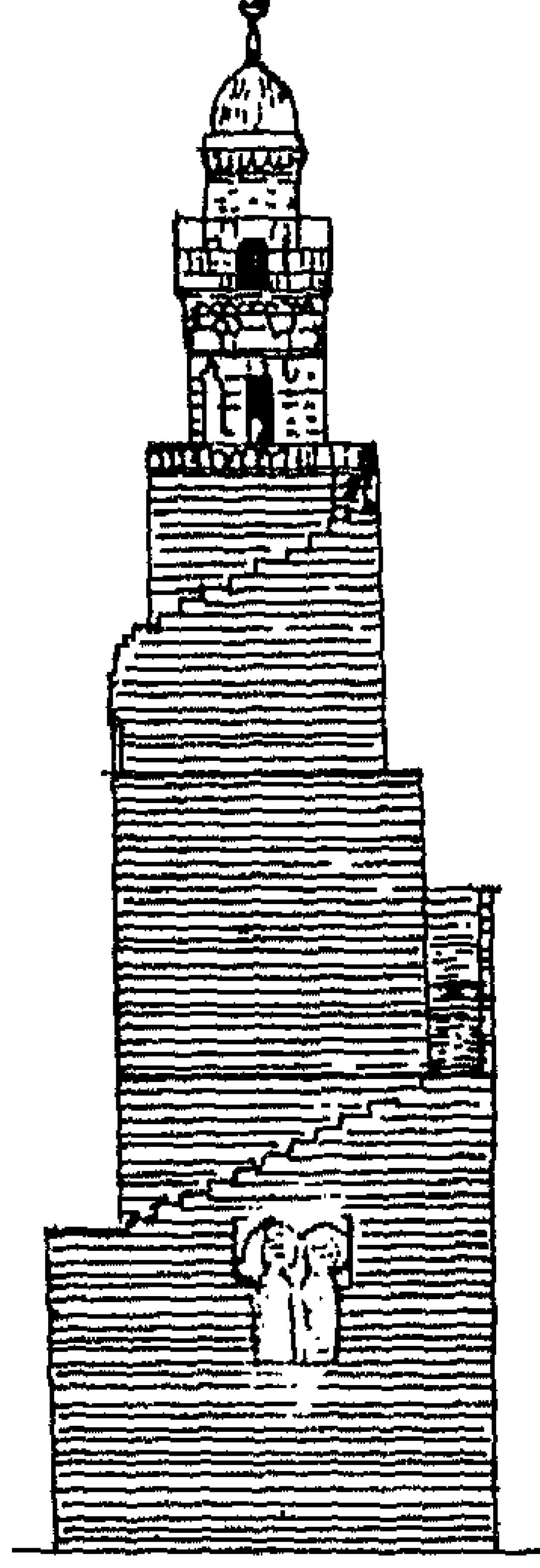
رسم (١) مسقط أفقى لجامع ابن طولون بالقاهرة (د. عكاشة)

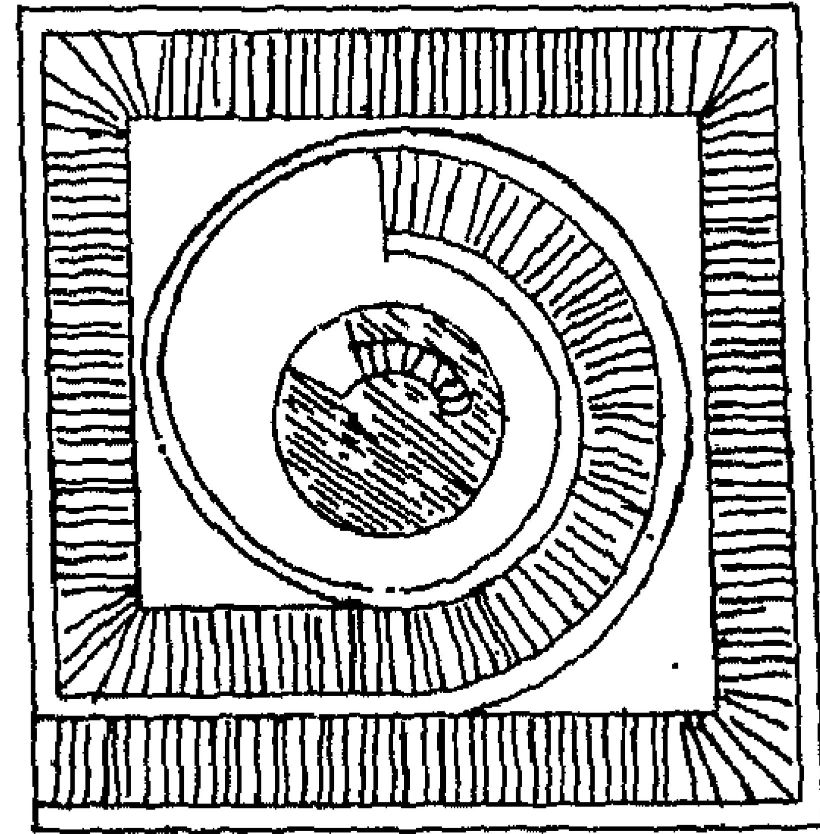


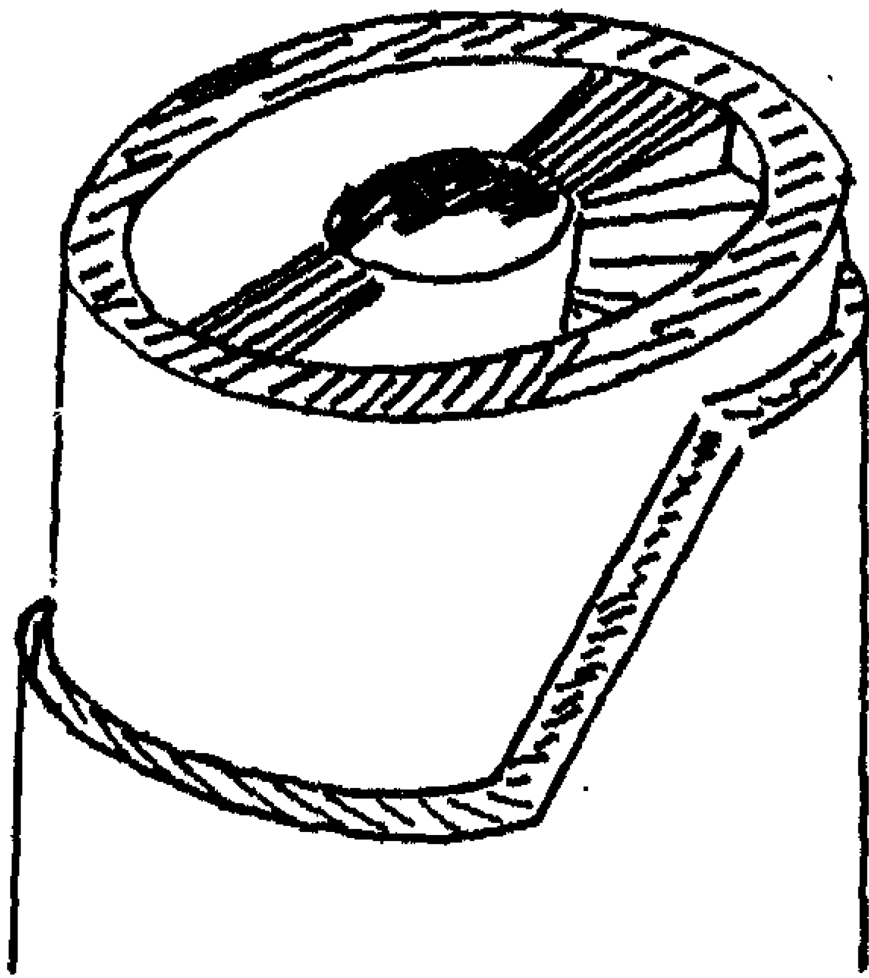
رسم (٢)تخطيط طولى لملوية سامراء (الدلفى)

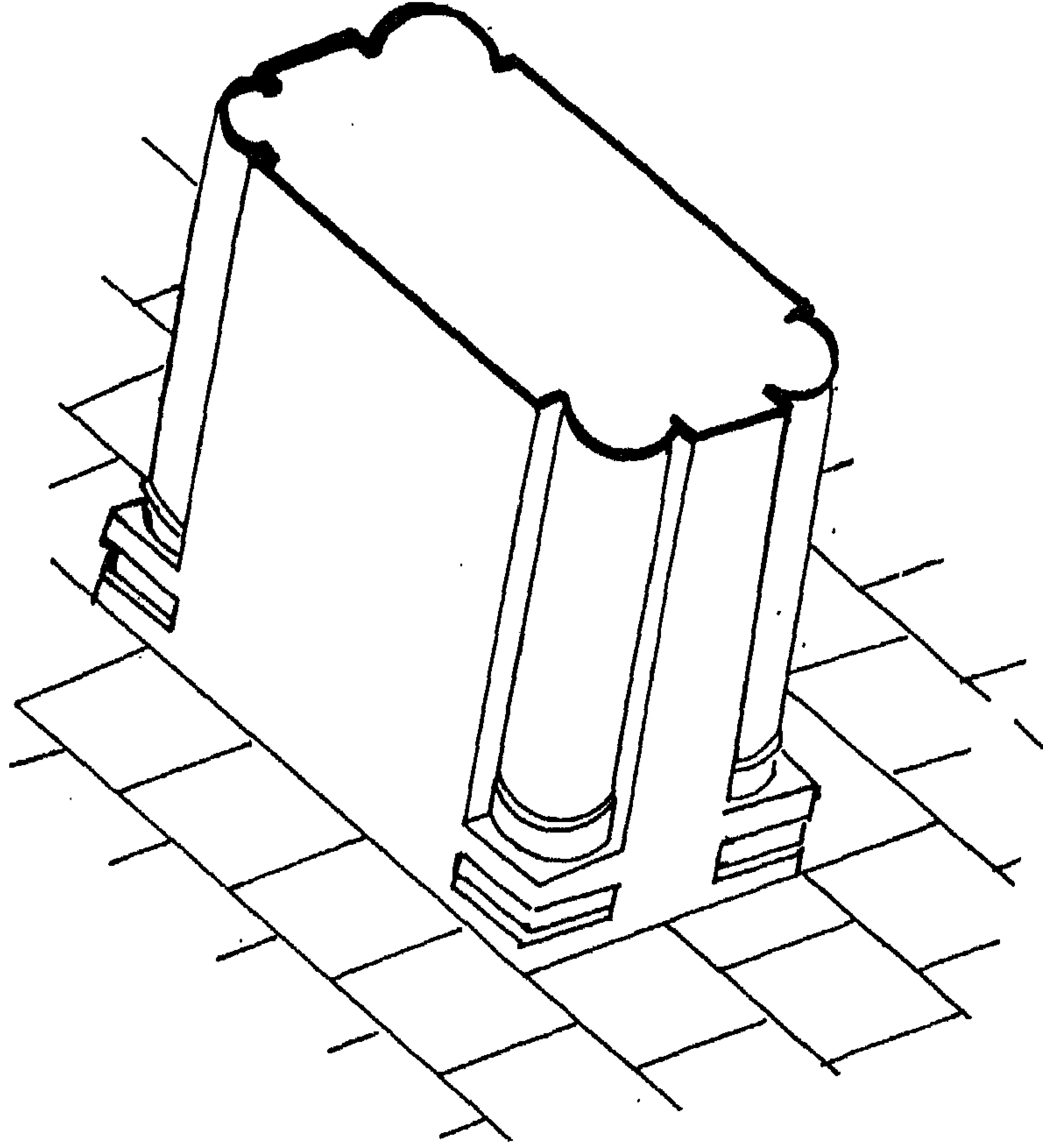


رسم (٣) مسقط أفقى لملوية سامراء (هرزفيلد)

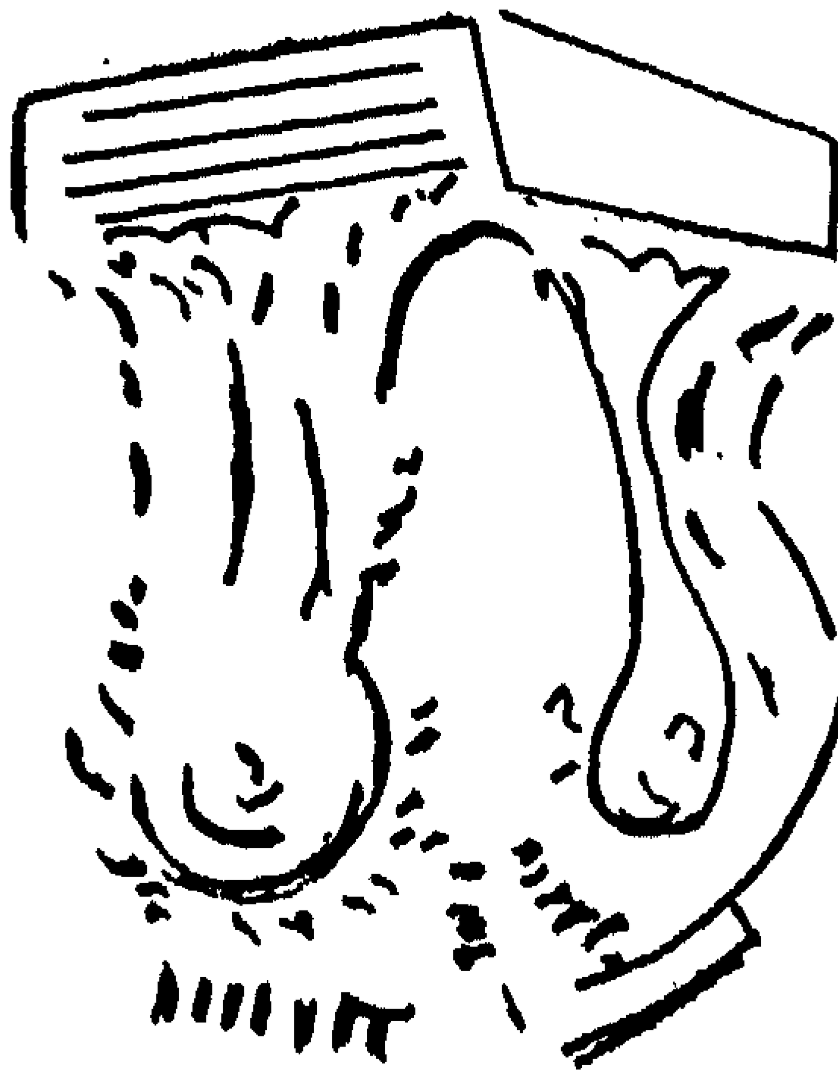

رسم (٤) تخطيط طولى لمئذنة جامع ابن طولون بالقاهرة (دافن)


رسم (٥) مسقط أفقى لمئذنة ابن طولون (ديولافوا)


رسم (٦) مقطع لمئذنة الجامع النورى بالموصل (باكليرو)



رسم (٧) بدنةمن جامع ابن طولون بالقاهرة وجامع ابى دلف بسامراء (د. شافعى)



رسم (٨) تاج عمود بقصر الجوسق الخاقانى فى سامراء (كرسويل)

أحواض سقي الدواب بالقاهرة

في العصرين المملوكي والعثماني

دكتورة / آمال العمري

المقدمـة

تنتشر فى شتى أنحاء المعمورة جمعيات الرفق بالحيوان التى يخيل للبعض أنها من مبتكرات العصر الحديث – عصر التقدم والتكنولوجيا – والواقع أن هذا القول قد يبدو صحيحا ومنطقيا لأول وهلة ، الا أنه بالرجوع الى تراثنا العربى الأسلامى سواء المخطوط أو المطبوع لوجدناه يزخر بأمثلة تثبت أن المسلمين كانوا يعنون بأمر الحيوان فى جميع أحواله ، وقد جاءت عنايتهم هذه نتيجة طبيعية مباشرة لتعاليم الدين الاسلامى الحنيف ، فأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تدعو الى الشفقة بالحيوان والرفق به ومساعدته فى مطعمه ومشربه فى صحته ومرضه ، بل وأثناء ذبحه كما بين القرآن الكريم ، ومن يفعل ذلك كان له الأجر الجزيل والثواب العظيم ، أما من يفعل غير ذلك فعقابه عند ربه نارا وسعيرا وعذابا أليما . (١)

ومن هذه الأحاديث ما رواه البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش ، فنزل بئرا فشرب منها ، ثم خرج فاذا هو بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ، ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له ، فغفر له ، قالوا يا رسول الله : « وان لنا فى البهائم أجرا ؟ » قال : فى كل كبد رطبة أجر (٢) » .

وجاء هذا المعنى فى رواية أخرى لمحمد بن أسحاق عن الزهرى بسنده المتصل الى سراقة بن مالك قال : « سألت عن الضالة من الأبل تغشى حياضى قد لطتها لإبلى ، فهل لى من أجر سقيتها ؟ فقال : نعم – فى كل ذات كبد حرى أجر » . (٣)

ويتناول هذا البحث جانبا من جوانب الرفق بالحيوان يتجلى فى بناء العديد من الأحواض (٤) التى ينتفع بها فى سقى الدواب (٥) ، وايقاف الأوقاف الكثيرة عليها كى تستمر فى أداء مهمتها على خير وجه ، مثلها فى ذلك مثل غيرها من المنشآت الأخرى التى أوقفت عليها أوقاف كثيرة .

وعلى الرغم من أن أحواض سقى الدواب التى لا تزال باقية بمدينة القاهرة ترجع الى العصرين المملوكى والعثمانى ، إلا أنه يستدل من المصادر التاريخية على أن بناء مثل هذه الأحواض لم يقتصر على العصرين سالفى الذكر ، فيذكر المقريزى أنه كانت توجد بالقرافة أحواض لشرب الدواب (٦) ، كما كان يوجد فى ظهر الجامع الأقمر تجاه الركن (٧) المخلق حوض للدواب جدده الأمير يلبغا السالمى عندما قام بأجراء مرمة شاملة للجامع الأقمر فى رجب ٧٩٩ هـ/ ١٣٩٦م(٨).

ومما لا شك فيه أن البحث فى بطون المصادر التاريخية والوثائق المختلفة سوف يكشف عن أمثلة أخرى عديدة ، الا أنها لسوء الحظ قد أندثرت وأصبحت أثرا بعد عين ، كما سيتبين لنا فى سياق البحث .

أولا : أحواض الدواب المملوكية :

شهدت مدينة القاهرة خلال العصر المملوكى – بشقيه البحرى والجركسى أزهى أيامها ، حيث حرص سلاطين وأمراء المماليك على تزيينها بالمنشآت كأحسن ما تكون الزينة ، حتى غدت كعروس فى ليلة عرسها .

وتمثلت هذه المنشآت فى بناء العديد من الوحدات المعمارية المتنوعة الوظائف والمتعددة الغايات، كالمساجد ، والمدارس ، والخانقاوات ، والأسبلة والكتاتيب ، والبيمارستانات ، والحمامات ، وأحواض سقى الدواب – موضوع بحثنا – وغير ذلك من المنشآت المدنية والحربية والتجارية .

واذا كانت أحواض الدواب الباقية من هذا العصر والمسجلة فى عداد الآثار الأسلامية قليلة ، الا أنه يستدل مما ورد فى المصادر التاريخية وحجج الوقف على انها – اى الاحواض – أكثر من ذلك بكثير ، ومن أمثلة ذلك حوض دواب كان يوجد على يسار الواقف أمام مدخل مجموعة قلاوون حيث توجد الآن بائكة من أربعة عقود مدببة (لوحة ١) ، وقد ذكرت الوثيقة أن هذا الحوض كان من الحجر (الصوان الأسود الكبير) (٩) ، الا أن الامير جمال الدين أقوش نائب الكرك قام بنقل هذا الحوض وابطله (لتأذى الناس بنتن رائحة ما يجتمع قدامه من الاوساخ وانشأ سبيل ماء يشرب منه الناس عوضا عن الحوض المذكور) (١٠) .

ومن أمثلة هذه الأحواض المندثرة ايضا حوض كان بجانب خانقاه الجيبغا المظفرى ، وآخر كان بجانب حمام خانقاه طغاى تمر النجمى ، وثالث عمره الامير قراسنقر وقد جعل فوقه مسجدا ، ورابع عمره الامير نظام الدين آدم أخو الأمير سيف الدين سلار (١١) .

وعمر الأمير سيف الدين أسنبغا بن الأمير سيف الدين بكتمر البويكرى الناصرى بجانب مدرسته حوض ماء للسبيل وسقاية ومكتبة للآيتام وذلك فى سنة ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م (١٢) .

وعمر الأمير جانى بك نائب جدة حوضا للدواب بجوار تربته خارج باب القرافة ، الا أنه أندثرت معالمه (١٣) .

وأمر السلطان قايتباى ببناء عدة أحواض ورد ذكرها بحجة الوقف الا أنه لم يتبق منها سوى ثلاث أحواض فقط (١٤) .

وقد عمر أمير قرقماس بظاهر الميضأة التى كانت توجد خارج مدرسته التى لا تزال باقية بقرافة صحراء المماليك حوضا للدواب ذكرت حجة الوقف أنه كان « مسقف نقيا على اكتاف مبنية بالحجر الفص النحيت برفرف (١٥) ، اى أنه كان يشبه بعض الاحواض التى لا تزال باقية مثل حوض قايتباى بقرافة صحراء المماليك ، وحوض كل من قجماس الاسحاقى وأزبك اليوسفى (١٦) .

وفيما يلى سرد للأحواض المملوكية الباقية بمدينة القاهرة مرتبة حسب تاريخ أنشائها :

١ – حوض مدرسة أم السلطان شعبان (خوند بركة) بالتبانة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م (شكل ١) (لوحة ٢):

يذكر المقريزى انه يوجد على باب هذه المدرسة « حوض ماء للسبيل (١٧) وينطبق ما ذكره المقريزى على الحوض الكائن بالركن الشرقى من الواجهة الجنوبية الشرقية للمدرسة ، وذلك على يمين الواقف أمام المدخل ، وهو عبارة عن دخلة ذات ثلاث جدران واحد فى الصدر واثنان جانبيان ويتوسط هذه الجدران منطقة غائرة تحتوى على طراز كتابى بالخط الثلث المملوكى البارز يتخلله رنوك كتابية ، ويبدأ هذا الطراز من الضلع الشمالى الشرقى ويستمر فى الضلع الشمالى الغربى وينتهى بالضلع الجنوبى الغربى ، يقرأ منه فى الصدر « الأعظم السلطان

الملك الأشرف شعبان بن المقر ..... الشريف الجمالى سيدى حسين بن السلطان الملك الناصر محمد » .

ويسقف دخلة الحوض سقف خشبى زين بعدد من الاطباق النجمية وأجزائها ، ومن الطبيعى أنه كان يوجد بأرضية هذه الدخلة حوض كبير لا أثر له الآن ، ويعلو الدخلة الكتاب الذى يشرف على الشارع بواجهة تتكون من بائكة ثلاثية العقد ترتكز على عمودين فى الوسط [١٨] . ويلاحظ هنا أن المعمار جعل الكتاب يعلو حوض للدواب وليس سبيل كما هى العادة ، ومن هنا فصل المعمار بين قرينين ، وهما السبيل والكتاب وقد تكررت هذه الظاهرة بعد ذلك فى كل من كتاب مدرسة أسنبغا ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠ م [١٩] ، وكتاب قجماس الأسحاقى ٨٨٥ – ٨٨٦هـ / ١٤٨٠ – ١٤٨١م اذ جعل المعمار كلا منهما يعلو حوضا للدواب كما سيتبين لنا فى سياق البحث .

٢ – حوض مدرسة أيتمش البجاسى ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣ م (لوحة ٣) :

يذكر المقريزى [٢٠] أن الأمير أيتمش البجاسى انشأ مدرسته داخل باب الوزير «وبنى بجانبها فندقا كبيرا يعلوه ربع ومن ورائها خارج باب الوزير حوض ماء للسبيل وربعا » ، وقد أندثرت الربع الذى كان خارج باب الوزير ، ولم يتبق سوى جزء بسيط من حوض الدواب يتمثل فى مساحة مستطيلة لم يتبق منها سوى جدارين متعامدين بكل من الجهة الجنوبية الغربية والشمالية الغربية ، وهما يحتويان على منطقة غائرة بها بقايا نص كتابى متآكل ، وقد بنى فوق هذين الجدارين منزل حديث .

٣ – الحوض أسفل ساقية مدرسة السلطان حسن :

يوجد بالجهة الشمالية الغربية من مدرسة السلطان حسن اسفل الساقية دخلة معقودة بعقد مدبب بارضيتها حوض يمتد بعرض الدخلة نفسها وبالجهة الجنوبية الغربية من الدخلة ، ماسورة فخارية توصل المياه من حوض الساقية الرئيسى الى حوض الدواب بارضية الدخلة السابقة .

٤ – أحواض السلطان قايتباى الباقية :

سبق القول أن السلطان قايتباى عمر عدة أحواض لم يتبق منها سوى ثلاثة احواض فقط نتناول فيما يلى دراسة كل حوض منها على حدة :

أ – حوض قايتباى بقرافة صحراء المماليك ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م (لوحة ٤ ، ٤ مكرر) يقع هذا الحوض بالجهة الشمالية الشرقية من مدرسة السلطان قايتباى الكائنه بقرافة صحراء المماليك ، وقد وصفته الوثيقة بأنه « حوض سبيل كبير بجواره فسقية بصدر الحوض ثلاث مجارى حجرا يعلوها رنوك مذهبة يعلوها تاريخ سقف الحوض المذكور وهو نقى معرق بالذهب واللازورد معلق على ثلاثة اعمدة حجرا مشهرا يعلوها رفرف مدهون كافوريا ملمع بالذهب واللازورد وأسفل هذا السقف زلاقة حجرا تجاه الحوض المذكور ببالوعة فى تخوم الارض كامل المنافع والمرافق والحقوق » . [٢١]

أما الوصف المعمارى الحالى للحوض فهو عبارة عن مساحة مستطيلة يوجد بصدرها أى بالضلع الجنوبى الغربى منها خمس دخلات توجت ثلاث منها بصفوف من المقرنصات ، وعلى جانبى

كل دخلة منهما عمودان مدمجان ، اما الدخلتان الآخريان فيتوج كل واحدة منهما عقد منكسر شغل داخله بصفوف من المقرنصات تاخذ هيئة العقد المنكسر أيضا ، وأكبر هذه الدخلات الخمسة الدخلة الأولى والثالثة والخامسة ، وأسفل كل واحدة منها حوض صغيرة ولعل هذه الأحواض الصغيرة أسفل كل دخلة هى التى عبرت عنها الوثيقة بأنها « ثلاثة مجارى حجرا » (٢٢) .

ويوجد بالجهة الجنوبية الشرقية دخلة معقودة بعقد منكسر يرتكز على عمودين مدمجين ، ويتوسط الدخلة فتحة معقودة بعقد ثلاثى الفصوص ، أما الجهة الشمالية الغربية فيوجد بها ايضا دخلة تشبة الدخلة المقابلة لها السابق وصفها ، الا ان الفتحة ذات العقد الثلاثى التى تتوسطها مسدودة .

ويسقف الحوض حاليا سقف خشبى من براطيم بحالة سيئة من الحفظ ، يرتكز هذا السقف على دعامة مستطيلة مبنية ، اما قديما فكان يرتكز على ثلاثة اعمدة حجرا مشهرا يعلوها رفرف كما ذكرت الوثيقة . هذا ويجرى أعلى الدخلات السالفة الذكر شريط كتابى بالخط الثلث المملوكى يتخلله رنك كتابى يحوى اسم السلطان قايتباى ولم يتبق من الشريط الكتابى سوى « السلطان الملك الاشرف أبو النصر قايتباى سلطان الاسلام والمسلمين» .

هذا وقد وقف هذا الحوض والفسقية المجاورة « لاستقرار الماء الذى يجرى اليهما من بئر الساقية لينتفع به فى سقى الدواب المارين على ذلك والمترددين اليه وفى غير ذلك من الانتفاعات الشرعية على العادة فى ذلك وجعله سبيلا لله (٢٣) ، وقد خصص الواقف مبلغ ستمائة درهم شهريا نصفها ثلاثمائة درهم أو ما يقوم مقام ذلك من النقود وثلاثة أرغفة من الخبز فى كل يوم تصرف لرجل يكون سواقا بالساقية يتولى ادارتها وسوق الماء من بئرها الى حاصل مائه ومنه الى حوض الدواب والفسقية المجاورة له لينتفع بذلك فى سقى دواب المارين والمترددين فى كل يوم من أول النهار الى آخره . (٢٤) .

ب – حوض قايتباى بقلعة الكبش : ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٥ م (شكل ٢)

لم يتبق من هذا الحوض سوى الجدار الشمالى الغربى الذى يحتوى على ثلاث دخلات أوسطها أوسعها ، وهى عبارة عن دخلة قليلة العمق متوجة بثلاثة صفوف من الحنايا المقرنصة المعقودة بعقد منكسر ، بينما يتوج كل دخلة من الدخلتين الجانبيتين عقد منكسر يعلو قمته ميمة .

هذا ويجرى أعلى الدخلات الثلاث منطقة غائرة تحوى نصا كتابيا بخط الثلث المملوكى يتضمن من اليمين « المالك الملك الاشرف أبو النصر قايتباى سلطان الأسلام والمسلمين قامع الكفرة والمتمردين (ربماكهف) الفقراء والمحتاجين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين .... (٢٥) .

جـ – حوض قايتباى بالأزهر : (شكل ٣) (لوحات ٥ – ٧)

يقع هذا الحوض بحى الباطلية بالجهة الجنوبية الغربية من الجامع الأزهر الشريف أمام باب الصعايدة ، ويتكون من مساحة مستطيلة بالضلع الجنوبى الغربى منها خمس دخلات بعضها معقودة بعقود منكسرة ، وبعضها الآخر يتوجه مجموعه من حطات المقرنصات ، وبعضها

ينتهى بهيئة مشطوفة ، وعلى جانبى كل دخلة من هذه الدخلات عمودان مدمجان ، وتنتهى جميع الدخلات من أسفل بهيئة مشطوفة ، ويوجد بالدخلة الأولى (الغربية) رنك كتابى لم يبق منه سوى الشطب والقسم الأسفل والدخلة الثالثة تشبه الدخلة الأولى ولم يبق من رنكها سوى الشطب والقسم الأسفل أيضا .

ويوجد بالركن الغربى دخلة متوجة بعقد مفصص يرتكز على عمودين مدمجين ، وعلى جانبى العقد رنكان باسم السلطان قايتباى ، ويتوسط الدخلة دخلة أخرى تؤدى الى ممر مقبى كان يوصل الى بئر الماء المعين والساقية الخاصة بالحوض ، وتوجد بالركن الجنوبى دخلة أخرى تشبه الدخلة السابقة المقابلة لها الا أنها مسدودة ، هذا ويجرى أعلى الدخلات شريط كتابى بخط الثلث المملوكى البارز يتضمن اسم السلطان قايتباى وألقابه المتعددة .

أما الركن الشرقى فتوجد به دخلة تنتهى بهيئة مسطحة وهى مسدودة حاليا يقابلها مثلها فى الركن الشمالى ولكن يغلق عليها حجاب خشبى .

أما الجانب الشمالى فيوجد به دخلتان تنتهى كل منهما بهيئة مسطحة ، وبينهما دعامة وسطى تنتهى من أعلى بصفين من المقرنصات ، ويغشى واجهة كل دخلة حجاب خشبى .

السقف :

يسقف الحوض سقف خشبى من براطيم خشبية تحصر بينها مناطق مربعة ومستطيلة ويرتكز هذا السقف على أزار لا توجد به الحنايا الركنية ذات الذيل الهابط ولا الحنايا الوسطية التى تنتهى بنهاية الازار كما هى العادة فى معظم الأسقف من هذا النوع فى أغلب الأحيان .

الواجهات :

يتوج واجهات الحوض الشمالية الشرقية والشمالية الغربية رفرف خشبى مائل الى أسفل ، هذا ويبرز عن الواجهة الشمالية الغربية حجرة صغيرة بجانبها الشمالى الشرقى دخلة معقودة بعقد منكسر ذى زخارف مشعة تنطلق من عقد منكسر مسدود ينتهى بصف من المقرنصات تشكل الهيئة الكلية للعقد ، ويرتكز العقد على عمودين مدمجين ، ويتوسط الدخلة دخلة أخرى معقودة بعقد مفصص شغلت كوشتيه بزخارف الأرابسك ، ويتوسط الدخلة شباك ، هذا ويحدد الهيئة الكلية للدخلة جفت لاعب ذو ميمات مستديرة .

ويوجد بالجانب الشمالى الغربى دخلة أخرى تشبه الدخلة السابقة فى كل شئ وبالناحية الشمالية يوجد عمود مدمج ذو تاج وقاعدة كأسية ويعلو هذه الحجرة حجرة أخرى بكل من جانبيها الشمالى الشرقى والشمالى الغربى دخلة متوجة بصدر مقرنص ، ويتوسط الدخلة شباك يشرف على داخل الحجرة .

هذا وقد كان لهذا الحوض زلاقة حجرا وساقية وبئر ماء معين [٢٦] مثل الحوض الكائن بقرافة صحراء المماليك ، الا أنه لم يبق من كل هذا شئ بالمرة بالنسبة لحوض الأزهر ، وقد أعده الواقف (أى الحوض) للأنتفاع به فى أستقرار الماء الذى ينقل اليه من البئر بحيث يكون مملوء بالماء من

أول النهار الى آخره ، وذلك لشرب دواب المارين على ذلك والمترددين اليه ، وغير ذلك من ساير الأنتفاعات الشرعية إنتفاعا عاما على العادة فى ذلك (٢٧).

٥ - حوض قجماس الأسحاقى بالدرب الأحمر: ٨٨٥-٨٨٦ هـ/ ١٤٨٠- ١٤٨١ (شكل ٤ -٥) (لوحات٨ -١٠) :

يقع هذا الحوض بالجهة الشمالية الشرقية من مدرسة هذا الأمير التى أنشأها (٨٨٥ - ٨٨٦ هـ / ١٤٨٠ - ١٤٨١ م) ، وهو عبارة عن مساحة مستطيلة بالجهة الشمالية الشرقية منها ثلاث دخلات أوسطها أوسعها ، والدخلة الوسطى متوجة بثلاثة صفوف من المقرنصات المزخرفة بالزخارف النباتية وبالأشعاعات ، وعلى جانبى هذه الدخلات عمودان مدمجان .

أما الدخلتان الجانبيتان فيتوج كل منهما عقد منكسر يزخرفه أشعاعات تنتهى بصف من العقود المنكسرة أيضا ، ويرتكز هذا العقد على عمودين مدمجين ذوى تيجان وقواعد ناقوسية ، ويتوج قمة العقد ميمة ، وفى كوشتى هذين العقدين زخارف الأرابسك .

وفى الجدار الجنوبى الشرقى لا يوجد سوى دخلة فى الطرف الشرقى يتوجها عقد ثلاثى الفصوص ، زخرفت طاقيته وريشتاه بزخارف الأرابسك أيضا ، ويرتكز هذا العقد على عمودين مدمجين ذوى قاعدة وتاج ناقوسية الشكل ، وفى كوشتى العقد زخارف الأرابسك ، ويتوج العقد ميمة كبيرة .

هذا ويوجد طراز كتابى (٢٨) يبدأ من الجهة الجنوبية ويستمر على الواجهة الشمالية الشرقية بأعلى الدخلات الثلاث .

والسقف من براطيم خشبية تحصر فيما بينها مربعات ومستطيلات كانت مجلدة بالطبع ، ويرتكز السقف على أزار خشبى لا يحتوى على حنايا ركنية ووسطية ، ويوجد طراز كتابى يتوسطه زنك بالأزار الشمالى الشرقى .

أما الجدار الشمالى الغربى فقد جدد ، وكان من الطبيعى أن يحتوى على دخلات تشبه الدخلة الشرقية ، هذا ولا توجد الميازيب أسفل الدخلات بالجهة الشمالية الشرقية .

أما دخلة الحوض فهى عبارة عن دخلة متسعة بالجهة الجنوبية الغربية ، يغشى واجهتها باب خشبى ذو حشوات مربعة ومستطيلة يعلوه حجاب من خشب الخرط فقد معظمه ، ويعلو الحوض الكتاب الذى يشرف على الخارج بواجهة عبارة عن بائكة ثنائية العقد (وهو عبارة عن عقد حدوة الفرس) ترتكز على عمود أوسط ، ويغشى الجزء السفلى من البائكة حجاب من خشب الخرط ، ويعلو واجهة الكتاب رفرف خشبى مائل لأسفل وبجوار دخلة الحوض باب يؤدى الى سلم الصعود للكتاب يجاوره باب آخر يؤدى الى ممر معقود بأقبية متقاطعة بنهايته دورة المياه الحديثة .

٦ - الحوض الملحق بمدرسة أزبك اليوسفى : ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ - ١٤٩٥ م :

يقع هذا الحوض بالركن الشمالى من الواجهة الشمالية الشرقية لهذة المدرسة وقد سدت واجهة هذا الحوض حاليا (وهى بالجانب الشمالى الشرقى) بمداميك حجرية مما جعل هذا الحوض معرضا لألقاء القاذورات وغير ذلك من المخلفات .

ويتكون هذا الحوض من مساحة مستطيلة (أشبه بأيوان) ذات ثلاثة جدران واحد بالصدر وأثنان جـانبيـان ، وبكل من الركن الجنوبى من الضلع الجنوبى الشـرقى والركن الغـربى من الضلع الشمالى الغربى دخلة معقودة بعقد منكسر ترتكز على عمودين مدمجين بالجدار ، أما الضلع الجنوبى الغربى فيحتوى على ثلاث دخلات أوسطها أوسعها وهى متوجة بثلاث حطات من المقرنصات المعقودة بعقد منكسر ، وعلى جانبى الدخلة من أسفل عمودان مدمجان بالجدار ، أما الدخلتان الجانبيتلن فيتوج كل منهما عقد منكسر يتوسطه عقد منكسر آخر أصغر منه تنطلق منه أشعاعات تنتهى بصف من العقود المنكسرة الصغيرة تشكل الهيئة الكلية للعقد المنكسر الأكبر ، ويتوج أعلى هذين العقدين الجانبيين ميمة كبيرة .

هذا وتوجد فى أعلى الدخلات السابقة منطقة غائرة تنتهى من جانبيها بهيئة مفصصة ربما كانت تحوى نصا كتابيا زال أثره ، ويلى تلك المنطقة جفت لاعب ذو ميمات مستديرة .

ويوجد على يسار الدخلة التى بالركن الجنوبى من الضلع الجنوبى الشرقى دخلة أخرى معقودة بعقد منكسر ، الا أن جزءها السفلى مطمور حاليا ، أما سقف الحوض فهو سقف خشبى من براطيم تحصر فيما بينها مناطق مستطيلة ومربعة ذات زخارف ملونة تحتاج الى تنظيف لاستجلاء روعتها .

ويحدد جانبى دخلة الحوض من الجهة الشمالية الشرقية حيث الواجهة المسدودة حاليا جفت لاعب ذو ميمات مستديرة .

ويعلو الحوض قاعة سكنية بحالة متهدمة بواجهاتها الشمالية الشرقية مشربية .

ثانيا : أحواض الدواب العثمانية :

لم يكن اهتمام العثمانيين برعاية الحيوان وبناء الأحواض الخاصة بسقيها باقل من أهتمام سلاطين وأمراء المماليك ، ومن ثم أمروا بأنشاء العديد منها فى شتى أنحاء مدينة القاهرة وحواضرها ، الا انه لسوء الحظ لم يتبق منها سوى أمثلة قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة .

١ – الأحواض المندثرة :.

أمدتنا حجج الوقف المختلفة التى ترجع الى هذا العصر بأمثلة عديدة منها ، أوقفت عليها الاوقاف المغلة ، حتى تستمر فى أداء مهمتها على خير وجه ، وفيما يلى نعرض لهذه الأمثلة مرتبة ترتيبا تاريخيا :

أ – حوض أسكندر باشا بخط قنطرة باب الخرق وكان مبنيا بالحجر الملون (٢٩) .

ب – حوض زين الدين عبد المعطى محمد ، أنشأه خارج قنطرة الموسكى (٣٠) .

جـ – حوض على كتخدا قريبا من الزاوية الحمراء لضواحى مصر المحروسة البحرية على الدرب السلطانى ، وكان مبنيا بالحجر الفص النحيت (٣١) .

د – حوض على أغا دار السعادة بخط الصليبة بطولون ، وقد وقفه لله سبحانه وتعالى لسقى الدواب فى الغادى والهادى (٣٢) .

هـ – حوض أحمد أغا بسويقة العزى (٣٣) .

و – حوض مصطفى أغا بن حسين بخط قناطر السباع (٣٤) .

ز – حوض حسن بن حسين بخط الجمالية (٣٥) .

ح – حوض على كتخدا بخط الرميلة (٣٦) .

ط – حوض أسماعيل كتخدا بخط المدابغ القديمة (٣٧) .

ى – حوض على أغا بدرب الجميزة (٣٨) .

ك – حوض أحمد باشا طاهر بجزيرة بدران (٣٩) .

أحواض عبد الرحمن كتخدا المندثرة :

كان الأمير عبد الرحمن كتخدا مغرما بالتشييد والبناء فأمر بأقامة الكثير من أنواع العمائر المتعددة الأغراض .

كما قام بتجديد الجامع الأزهر وأضافة الكثير من الوحدات المعمارية اليه ، ونالت مشاهد أهل البيت بالقاهرة من عنايته الكثير ، فأمر بتجديد معظم هذه المشاهد (٤٠) ، الا أن ما يهمنا هنا هو أنه أمر بأقامة العديد من أحواض سقى الدواب ، ذكر بعضها الجبرتى فى تاريخه ، ومنها حوض يعلوه كتاب بالقرب من تربة الأزبكية (أندثرت معالمه) ، وحوض بالحطابة (لا يزال باقيا) ، وحوض ثالث عند جامع الدشطوطى (أندثرت معالمه) ، وحوض رابع خارج باب القرافة (٤١) ، وأضاف أندريه ريمون حوضا خامسا له بعرب آل يسار (٤٢) .

هذا وقد أضافت لنا وثائق عبد الرحمن كتخدا عدة أحواض أخرى منها حوض كبير على يمنه السالك طالبا مقام الأمام الشافعى بالقرافة الصغرى (٤٣) وحوض بحوش السيدة نفسية (٤٤) ، وحوض بالموسكى تجاه درب الشيخ سلامة (٤٥) ، وحوض خارج باب الفتوح بخط سويقة اللبن (٤٦) ، وحوض بجزيرة أروى (٤٧) ، وحوض بخط قنطرة الأمير حسين (٤٨) ، وحوض بالقرب من شون الحطب ببولاق (٤٩) .

ولسوء الحظ أندثرت معظم هذه الأحواض ، ولم يعد باقيا منها سوى حوض الحطابة . وفيما يلى نتناول وصف هذه الأحواض المندثرة وأوجه الصرف طبقا لما ورد بشأنها فى وثائق وقف الأمير عبد الرحمن كتخدا .

١ – الحوض الكبير على يمنة السالك طالبا لمقام الأمام الشافعى بالقرافة الصغرى :

جاء وصفه بالوثيقة على النحو التالى « وجميع الحوض الكبيرة المجاورة للساقية وما به من التبليطة والمساطب يعلو ذلك قبب معقودة مقالى مركبة على عمود من الحجر الصوان الأزرق ولذلك شهرة فى محله تدل عليه وتغنى عن زيادة وصفه » (٥٠) .

بدلنا هذا الوصف على أن هذا الحوض كان مغطى بقباب ضحلة مقامة على مثلثات كروية ، وهذا النوع من القباب غالبا ما يرد ذكره فى الوثائق المملوكية والعثمانية باسم العقود المقالية .

وقد أوردت لنا الوثيقة أوجة الأنفاق المختلفة على الحوض والساقية وذلك على النحو التالى « يصرف لرجل يكون خادما بالحوض المرقوم ويتقيد بكنسه وتنظيفه بالرش تجاهه فى كل سنة ثلاثمائة نصف وستون نصفا فضية وما يصرف لكل من يتعاطى غفر الساقية والحوض وحفظ ذلك حكم المعتاد من معلومة فى كل سنة ثلاثمائة نصف وستون نصفا فضة من ذلك وما يصرف لرجل يكون شادا بالساقية والحوض ويتقيد بالخدمة والشادية حكم المعتاد ذلك عن معلومة كل سنة ثلاثمائة نصفا وستون نصفا فضة » (٥١) .

٢ – الحوض بحوش السيدة نفيسة :

جاء وصفة بالوثيقة على النحو التالى «وجميع الحوض المعد لسقى الدواب المستجد الانشاء والعمارة الكائن بحوش السيدة نفيسة المذكورة وما به من التبليطة والقبب على عمود من الحجر الصوان الأزرق والبزابيز المعدة لتناول الماء» (٥٢) .

يدلنا هذا الوصف على ان هذا الحوض كان مثل الحوض من حيث تغطيته بقباب ، وقد اوردت لنا الوثيقة اوجه الانفاق على الحوض فذكرت أنه يصرف « لخادم الحوض المتعاطى كنسه وتنظيفه والرش تجاهه وادارة الماء اليه فى كل سنة ثلاثمائة نصف وستون نصفا فضة من ذلك وما هو لكل من يكون خفيرا لحفظ البزابيز التى بالحوض المرقوم فى كل سنة ثلاثمائة نصف وستون نصفا فضة من ذلك » (٥٣) .

٣ – الحوض بالموسكى تجاه درب الشيخ سلامة :

ورد بالوثيقة أوجة الصرف على هذا الحوض فذكرت أنه « يصرف لرجل يكون خادما للحوض يتعاطى كنسه وتنظيفه ومساعدة السواقى المرقومة فى ادارة الماء على ذلك عن معلومة فى كل سنة سبعمائة نصفا وعشرون نصفا فضة» (٥٤).

٤ – الحوض خارج باب الفتوح بخط سويقة اللبن :

تذكر الوثيقة أن هذا الحوض كان بجوار مسجد وضريح الست مايسة السطوحية (٥٥)

٥ – حوض أخر بباب الفتوح :

جاء وصفه بالوثيقة على النحو التالى « حوض كبير معد لسقى الدواب بثلاثة بزابيز من النحاس معدة لنقل الماء للجرار وغيرها للمحتاجين والطالبين من خلق الله أجمعين المشتمل الحوض المذكور بالدلالة المذكورة على واجهة من الحجر الفص النحيت الأحمر بقنطرتين مركب ذلك على عمود من الرخام الأبيض بقاعدة تبليطية وبالوعة مسقف ذلك مدهون حريريا » (٥٦) .

يتضح من هذا الوصف أن هذا الحوض قد استخدم الى جانب سقى الدواب فى نقل الماء بالجرار وغيرها للمحتاجين والطالبين من الناس ، وذلك عن طريق ثلاثة بزابيز من النحاس أعدت لهذا الغرض بواجهة الحوض .

وقد أوردت لنا الوثيقة أوجة الصرف على الحوض فذكرت أنه « يصرف لرجل يكون خادما للحوض يتعاطى تنظيفه وكنسه وأدارة الماء اليه فى كل سنه من معلومة (٥٧) ، ثلاثمائة نصفا وستون فضة من ذلك حسابا عن كل شهر ثلاثون نصفا فضة » .

٦ – الحوض بجزيرة أروى الكائنة بطريق بولاق بالقرب من شون الحطب الصعيدى :

تذكر الوثيقة أنه كان يجاور هذا الحوض مصلى تحتوى على باب يتوصل منه الى الصهريج» (٥٨) .

٧ – الحوض بالقرب من شون الحطب ببولاق :

تذكر الوثيقة أنه كان يجاور هذا الحوض مصلى تحتوى على باب يتوصل منه الى الصهريج ، كما أوردت كذلك أوجه الصرف عليه فذكرت أنه « يصرف لرجل يكون خادما للحوض يتعاطى تنظيف ذلك والرش تجاه ذلك من معلومة فى كل سنة ثلاثمائة نصف وستون نصفا فضة » (٥٩) .

٨ – الحوض بخط قنطرة الأمير حسين :

تذكر الوثيقة أن هذا الحوض كان يشمل على « واجهة شرقية معقودة ببائكة كبيرة من الحجر الفص النحيت الأحمر سفل الحجارة بكتفيها يمنه ويسرة أربعة عمد قواعد من الحجر الفص النحيت الأحمر سفل الحجارة أيضا حاملين للبائكة المرقومة يعلوها مكتب يدخل من البائكة المذكورة الى تبليطة مفروش أرضها بالحجر بها بالوعة تحت تخوم الأرض بصدرها الحوض المذكور مستطيل به يمنة ويسره سلمان كل سلم منهما ثلاثة درج وبسطه من الحجر الفص النحيت يتوصل من كل منهما الى فسحة مقعودة عقد كمر بالحجر الفص النحيت بصدرها أربع(Sic) بزابير من النحاس الأحمر معدين لملء الجرار والقرب للطالبين من خلق الله أجمعين سفل أحدهم حوض صغير بمصبة من النحاس الأحمر معدة لتصريف الماء الى الحوض المذكور ، بالفسحة المذكورة تجاة البزابير حاجز من الحجر الفص النحيت بأربع رمامين بينهم شبابيك من الحجر سفل الحجارة ، سقف الحوض المذكور خشبا نقيا مدهون حريريا مسبل جدره من الجهات الثلاث من الحجر الفص النحيت الأحمر من السفل الى العلو ، بواجهة الحوض المذكور فى العلو شباك شغل الخراط سفله أربعة ألواح من الرخام مكتتب بهم تاريخ محلى مذهب» (٦٠) .

أما بالنسبة لأوجه الصرف على هذا الحوض فقد ذكرت الوثيقة أنه « يصرف لرجل يتعاطى خدمة الحوض وكنسه وتنظيفة وادارة الماء اليه فى كل سنة عن معلومة ثلثمائة نصف وستون نصفا» (٦١) .

٩ – الحوض بعرب آل يسار :

جاء وصفه بالوثيقة على النحو التالى « وجميع الحوض الكبيرة المجاورة للساقية وما به من التبليطة والمساطب والبزابيز التى من النحاس الأصفر المعدة لتناول المياه يعلو الحوض المرقوم قبب معقودة مقالى مركبة على عمود من الحجر الصوان الأزرق » (٦٢) .

وقد ورد بالوثيقة أيضا أوجه الأنفاق على الحوض والساقية فذكرت أنه « يصرف لرجل يكون خادما بحوض عرب آل يسار ويتقيد بكنسه وتنظيفه والرش تجاهه عن معلومة فى كل سنة ثلثمائة نصف وستون نصفا فضة ، وما يصرف لكل من يتعاطى غفر الساقية والحوض عن معلومة فى كل سنة ثلثمائة نصف وستون نصفا فضة ، وما يصرف لرجل يكون شادا بالساقية والحوض يتقيد

بالخدمة والشادية حكم المعتاد فى ذلك عن معلومة فى كل سنة ثلثمائة نصف وستون نصفا فضة» (٦٣) .

١٠ – الحوض بالقرب من تربة الأزبكية :

أندثرت معالم هذا الحوض كما سبق القول ، ولم يرد أى وصف له بالوثيقة ، الا أنه لحسن الحظ توجد له لوحة عظيمة اوردها لنا أندرية ريمون فى بحثه عن منشآت الأمير عبد الرحمن كتخدا بالقاهرة (٦٤) ، ويتضح منها أنه كان حوضا عظيم الهيئة فخم البنيان ، يتكون من دخلة متسعة تحتوى على عقدين مدببين متتاليين يرتكز كل عقد منهما على عمودين ، ويوجد بصدر الدخلة ثلاث دخلات معقودة بتقدمها سياج رخامى (درابزين) شغلت اضلاعه بقوائم مستطيلة تنتهى ببابات ولم يقتصر الامر على ذلك بل باعلى الحوض كتاب يتوجه رفرف خشبى منحدر لاسفل شغل باطنه بزخارف غاية فى الحسن والبهاء أما سقف الكتاب فكان عبارة عن سقف خشبى ذى براطيم مجلدة بشتى الزخارف كما هى العادة فى مثل هذا النوع من الأسقف سواء فى العصر المملوكى أو العصر العثمانى .

يتضح مما تقدم أن أحواض الأمير عبد الرحمن كتخدا المندثرة قد تعددت أنماطها وتنوعت وظائفها ، فبعضها كان مغطى بقباب ضحلة مقامة على مثلثات كروية ، وبعضها الآخر كان مغطى بأسقف خشبية وهذا النوع الأخير تميز بوجود كتاب بأعلاه ، أما من الناحية الوظيفية فنجد أن بعض هذه الأحواض أستخدمت الى جانب وظيفتها الأساسية المتمثلة فى سقى الدواب – فى أمداد المحتاجين والطالبين من الناس بالمياه عن طريق البزابيز النحاسية الموجودة بالواجهة .

(٢) الأحواض الباقية :

أ – حوض ابراهيم أغا مستحفظان بباب الوزير
(١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩م) (شكل ٦ – ٧) (لوحة ١١) :

يقع هذا الحوض فى الركن الغربى من قصر ألين آق ويستفاد من حجة وقف ابراهيم أغا مستحفظان أنه كان من جملة أوقاف خايربك (٦٥) صاحب المدرسة المجاورة أيضا للقصر ، وقد قام بتجديده إبراهيم أغا ، يؤكد ذلك اللوحة التأسيسية التى ورد بها « جدد هذا الحوض المبارك من فضل الله تعالى وعونه الأمير ابراهيم أغا مستحفظان حالا بمصر سنة سبعين وألف » (٦٦) ويتكون هذا الحوض من دخلة متسعة تشرف على الشارع من خلال عقد مدبب يحدده أطار بارز ينتهى بميمة أعلى قمة العقد ، وقد هدم الجدار الجنوبى الشرقى من الدخلة ولم يتبق سوى الجدارين الجنوبى الغربى والشمالى الشرقى ، وبكل جدار منهما دخلة تنتهى بهيئة مسطحة .

ب – حوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة : (لوحة ١٢)

لم يتبق من أحواض هذا الأمير المتعددة السالف ذكرها سوى هذا الحوض وقد جاء وصفه بالوثيقة على النحو التالى :

«وجميع الحوض المعد لسقى الدواب المستجد الأنشاء والعمارة المجاورة للصهريج المرقوم وما به من الواجهة والبزابيز النحاس والقناطر والتبليطة والقبب المحمول ذلك على عمودين وما به أيضا من المنافع والحقوق » (٦٧) .

وفيما يلى الوصف المعمارى الحالى للحوض ومقارنته بما ورد بالوثيقة اذ أنه لم يبق من هذا الحوض بحالة جيدة سوى الواجهة ، وهى عبارة عن بائكة ثنائية العقد (وهو عبارة عن عقد مدبب) ترتكز على عمود أوسط من الجرانيت ، ويحدد العقدين جفت لاعب ذو ميمات سداسية ، وعلى جانبى العقدين دخلتان معقودتان يحدد كل منهما جفت لاعب ذو ميمات سداسية ينتهى من أعلى بدائرة مكونة من أربع ميمات ، وبأعلىٰ الدخلتين مجموعة من الجفوت ذات الميمات تتداخل مع بعضها مكونة هيئة أطارين السفلى منهما مستطيل والعلوى مربع تتوسطه دائرة تحدد هيئة قصعة دائرية بوسطها نتوء بارز على هيئة النهر ، وأمام هذه البائكة توجد بائكة أخرى من عقدين أيضا بأركانها مثلثات كروية مما يدل على أن هذا الحوض كان مغطى بقباب ضحلة مقامة على مثلثات كروية ، يؤكد ذلك أيضا ما ،ورد بالوثيقة من أن هذا الحوض كان مغطى بقباب .

أما بالنسبة لأوجة الأنفاق على هذا الحوض فقد ذكرت الوثيقة أنه « يصرف لمن يكون خادما للحوض يتعاطى كنسه وتنظيفه وادارة الماء اليه ورشه تجاه ذلك عن معلومة سويا فى كل سنة أربعة آلاف نصف وثلثمائة نصف وعشرون نصفا فضة » (٦٨).

جـ – حوض محمد بك أبو الدهب : (١١٨٨ هـ/ ١٧٧٤م) : (شكل ٩،٨) (لوحة ١٣ –١٤):

يقع هذا الحوض فى الركن الغربى من الواجهة الجنوبية الغربية لمجموعة الأمير محمد بك أبو الدهب ، وقد وصفته الوثيقة بأنه : « حوض دواب كبير مسقف نقيا محمول سقفه على عمود كبير بقاعدتين من الرخام الأبيض به قنطرتين معقودتين (Sic) بالحجر ، مبنى جهات الحوض المذكورة منقوش مقرنص ، وخونقات بجوانبه عمدان صغار برمة من الحجر » (٦٩) .

ولتوضيح هذا الوصف نذكر أن هذا الحوض يبرز عن جدار الواجهة الجنوبية الغربية ، وهو عبارة عن دخلة مستطيلة تشرف على الشارع من الجهة الجنوبية الغربية بواجهة عبارة عن بائكة ثنائية من عقدين مدببين يرتكزان على عمود أوسط مستدير من الرخام ، ويحدد صنج كل عقد وكوشتيه أطار حجرى بارز ينتهى بميمة أعلى قمة كل عقد ، وايضا عند رجلى كل عقد ، ويغشى أسفل هذه الواجهة حجاب من خشب الخرط يحتوى فى الطرف الجنوبى منه على باب من خشب الخرط أيضا يؤدى الى داخل الحوض .

ويحتوى الجدار الشمالى الغربى فى الركن الشمالى منه على دخلة تشبه الدخلة السابقة فى كل شئ ، الا أنه يوجد على يسار هذه الدخلة شباك مستطيل ذو مصبعات من ارماح ومخرزات من الخشب .

أما الجدار الشمالى الشرقى فيتوسطه دخلة بنهايتها باب يغلق عليه مصراعان من الخشب ، ويتوج الدخلة صفان من المقرنصات المنكسرة العقد أسفلها ذيل هابط ، وترتكز هذه المقرنصات على عمودين مخلقين بالجدار .

وعلى جانبى هذه الدخلة توجد ٤ دخلات بواقع دخلتين لكل جانب ، وكل دخلتين منهما متشابهتان ، فالدخلتان الأوليتان يتوج (Sic) كل منهما عقد مدائنى يرتكز على عمودين مخلقين بالجدار ، أما الدخلتان الثانيتان فيتوج كل منهما صفوف من المقرنصات المنكسرة العقد ترتكز على

عمودين مخلقين بالجدار ويحدد هذه الدخلات الخمس (سواء المعقودة أو المتوجة بالمقرنصات) أطار حجرى بارز .

ويسقف الحوض سقف خشبى من براطيم خالية من الزخارف هذا ويتقدم الدخلة الوسطى التى تحتوى على باب سلم من درجتين ينتهيان ببسطة مربعة تتقدم الباب ، ويغشى جوانب السلم والبسطة درابزين من الخشب يحتوى على ٤ قوائم تنتهى ببابات خشبية ، هذا ويعلو الواجهة الجنوبية الغربية من الحوض ٤ نوافذ بواقع نافذتين بأعلى كل عقد يعلو بعضها البعض ، وكذلك يعلو جدار الواجهة الجنوبية الشرقية نافذتان أيضا تعلو أحداهما الأخرى .

أما بالنسبة لأوجة الصرف على هذا الحوض ، فقد ذكرت الوثيقة أنه يصرف «لرجل قادر يكون خادما بحوض الدواب المذكور يتعاطى كنسة وتنظيفه ورش المياه حوله المسجد المذكور من غير خلال فى كل يوم عشرة أنصاف فضة » (٧٠) .

ثالثا : الدراسة التحليلة :

أ - التخطيط :

يتضح مما تقدم أن التكوين المعمارى لأحواض سقى الدواب الباقية من العصرين المملوكى والعثمانى لم يخرج عن مجرد دخلة (أشبه بأيوان) عبارة عن مساحة مستطيلة ذات ثلاثة جدران ، واحد بالصدر وأثنان جانبيان ، أما الجدار الرابع فيشرف على الشارع ، إما بهيئة مسطحة كما هو الحال فى أحواض كل من أم السلطان شعبان وقايتباى بالصحراء وبالأزهر ، وقجماس الأسحاقى ، وأزبك اليوسفى وإما يشرف على الشارع من خلال عقد واحد كما هو الحال فى حوض ابراهيم أغا مستحفظان ، أو من بائكة ثنائية العقد كما هو الحال فى حوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة ، وحوض محمد بك أبو الدهب وتحتوى غالبية هذه الأحواض على دخلات يختلف عددها من حوض لآخر وتتوج أما بعقود منكسرة ذات صنجات مسلوبة ، أو عقود منكسرة ذات زخارف مشعة تنتهى بصف من العقود المنكسرة الصغيرة تشكل فى النهاية الهيئة الكلية للعقد المنكسر الأكبر ، وأما تتوج هذه الدخلات بحطات من المقرنصات ، وأحيانا تكون ذات هيئة مسطحة . وكان يوجد أسفل هذه الدخلات أحواض صغيرة هى التى خصصت لسقى الدواب وقد عبرت عنها الوثائق بأنها مجارى حجرا ، الا أنه لسوء الحظ أندثرت معظم هذه الأحواض الصغيرة .

مما سبق نرى شيوع هذا التخطيط وأنتشاره خلال العصرين موضوع الدراسة ، ومن ثم فلا صحة لما ذكره بعض الباحثين من أنه يوجد نوع آخر من أحواض الدواب أطلقوا عليه اسم حوض دواب بسيط (٧١) ، وذكروا أنه يوجد عادة بجوار شبابيك الأسبلة ، والواقع أن الدخلات الصغيرة المعقودة التى توجد بجوار شبابيك الأسبلة وتحتوى على أحواض صغيرة بداخلها ليست أحواض للدواب كما ذكر هؤلاء الباحثين ، وأنما هى مجرد فتحات لتزويد الصهريج أسفل حجرة التسبيل بالماء بواسطة القرب أو الروايا ، وقد أطلقت عليها الوثائق عدة مسميات منها مصب معد لنزول الماء للصهريج ، أو مصب معد لتزويد الماء العذب الى بيارة الصهريج أو مغير للصهريج .

ومما لا شك فيه أن وجود هذه الدخلة يسهل تفريغ القرب والروايا الخاصة بالماء دون أقصى مجهود فى العبور الى داخل السبيل وعقب الأنتهاء من تزويد الصهريج بالماء كانت تغلق هذه الفتحة بأحكام منعا من تسرب الأتربة والقاذورات ، ومن ناحية أخرى ليس من المعقول أن تشرب الدواب من المياه العذبة الخاصة لشرب المارة من السبيل ، والتى كان يحرص الواقفون على توافرها بأنتظام فى الصهريج الكائن أسفل حجرة السبيل ، نظرا لما كانوا يلاقونه من مشقة فى سبيل الحصول على هذه المياه العذبة (٧٢) .

ب – الأسقف :

يسقف هذه الأحواض أما أسقف خشبية من براطيم ، وفى هذه الحالة كان يعلو معظم الأحواض من هذا النوع كتاتيب كما هو الحال فى أم السلطان شعبان وأسنبغا ، وقجماس الأسحاقى ، وحوض عبد الرحمن كتخدا المندثر الذى كان بالأزبكية ، وإما يعلوها قاعات سكنية كما هو الحال فى أزبك اليوسفى ، ومحمد بك أبو الدهب وأحيانا تترك كما هى لا يعلوها أى بناء مثل حوض قايتباى بالصحراء وبالأزهر .

وهناك نوع آخر من الأحواض غطيت بقباب ضحلة مقامة على مثلثات كروية ومن أمثلتها الباقية حوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة ، وفى هذه الحالة لا توجد كتاتيب بأعلى هذه الأحواض.

جـ – تزويد الأحواض بالماء :

كانت هذه الأحواض تزود بالماء عن طريق أقصاب مغيبة تنقل الماء من الساقية الى هذه الأحواض ، وقد نصت معظم الوثائق على ذلك ، ومن أمثلة السواقى الباقية ساقية منشأة السلطان قايتباى بقرافة صحراء المماليك التى توجد بالضلع الجنوبى الغربى من الحوض .

هذا ولا تزال توجد بحوش أيوب بك بالسيدة زينب ساقية كانت تمد منطقة الكبش بالمياه من بركه قارون التى أطلق عليها بركة قراجا ثم عرفت بعد ذلك ببركة الحمصانى (٧٣) .

* * *

الهوامش

(١) أحمد مصطفى المراغى : الأسلام والرفق بالحيوان (مجلة الموظف ، جـ ٥ ، مايو ١٩٣٨ ، السنة السادسة – المجلد السادس) ص ٣٩٥ .

(٢) البخارى : (أبى عبد الله بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة) ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩م .
صحيح البخارى : الجزء الخامس

(٣) أحمد مصطفى المراغى : المرجع السابق ص ٣٨٩

(٤) حاض الماء وغيره حوضا وحوضه حاطه وجمعه وحضت أحوض أتخذت حوضا وأستحوض الماء أجتمع ، والحوض مجتمع الماء والجمع أحواض وحياض والتحويض عمل الحوض والأحتياطى أتخاذه وأستحوض الماء أتخذ لنفسه حوضا .
أبن سيدة : المخصص السفر العاشر جـ ٣ تحقيق لجنة أحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة بيروت ص ٤٩ .
أبن منظور : لسان العرب – طبعة مصورة عن طبعة بولاق سلمة تراثنا جـ ٨ ص ٤١٠ – ٤١١
الفيروز آبادى : القاموس المحيط جـ ٢ ط ٣ بولاق ١٣٠١ هـ ص ٣٢٦ .
الرازى : مختار الصحاح ، عنى بترتيبه محمود خاطر القاهرة ١٩٧٦ ص ١٦٢ .

(٥) مفردها دابة ، وهى مادب من الحيوان وغلب على ما يركب ويقع على المذكر ودابة الأرض من أشراط الساعة .
الفيروز آبادى : المصدر السابق جـ ١ ص ٦٤ .

(٦) المقريزى : الخطط جـ ١ : ص ٤٨٦ جـ ٢ : ص ٤٥٣ .

(٧) الركن المخلق كان موضعه فى زمن المقريزى تجاه الجامع الأقمر على يمنة من أراد الدخول الى المسجد المعروف فى زمن المقريزى أيضا بمعبد موسى وقيل له الركن المخلق لأنه ظهر فى سنة ٦٦٠ هـ فى هذا الموضوع حجر مكتوب عليه هذا مسجد موسى عليه السلام ، وخلق بالزعفران وسمى من ذلك اليوم بالركن المخلق .
المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ص ٤٠٥ .

(٨) المقريزى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٩٠

(٩) محمد سيف النصر أبو الفتوح : مدرسة السلطان المنصور قلاوون بالنحاسين بالقاهرة دراسة أثرية فى ضوء وثيقة جديدة (مجلة كلية الآداب – جامعة صنعاد ١٩٨٤) ص ١١٦ سطر ١٠٦ .

(١٠) المقريزى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٠٧
ومما هو جدير بالذكر ان هذا السبيل لا يزال باقيا الى اليوم ويعد أقدم الأمثلة الباقية للأسبلة فى العمارة الإسلامية فى مصر حتى الآن .

(١١) المقريزى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٦٤

(١٢) المقريزى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٩٠ – ٣٩١
ومما هو جدير بالذكر أنه لايزال يوجد بجوار سبيل هذه المدرسة الموجودة بالركن الغربى منها فيما بينه وبين المدخل المؤدى الى المدرسة حجرة عبارة عن مساحة مستطيلة مغطاة بسقف خشبى ولا تحتوى حاليا على أى

نوع من الدخلات أو الفتحات ، ومستغلة كمحل لبيع الخشب ، ويعلو هذه الحجرة كتاب يشرف على الشارع بواجهة من بائكة ثنائية ذات عقدين حدوة فرس يرتكزان على ثلاثة أعمدة من الرخام .
وفي ضوء ذلك يمكن القول أن هذه الحجرة كانت تمثل حوض الدواب والكتاب الذى يعلوه ، أى أنه كان يشبه الى حد كبير حوض دواب وكتاب مدرسة أم السلطان شعبان ، هذا وقد حدث التباس بين علماء لجنة حفظ الآثار فاعتبروا السبيل هو حوض الدواب ، بينما أعتبروا الحجرة المجاورة له (التى كانت تمثل الحوض كما سبق القول) مجرد حنفية ، وقد ثبت الآن عكس ما ذهب اليه علماء لجنة حفظ الآثار ، فماأعتبروه حوضا ما هو الا سبيل يغشى واجهته حجاب من خشب الخرط ، وما أعتبروه حنفية ما هى الا حوض دواب كتاب كما سبق ان بينا .

(١٣) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٥٨ .

(١٤) من هذه الأحواض التى ورد ذكرها بالوثيقة الحوض بمقطع الحجارين بسفح الجبل المقطم ، والحوض بقرافة صحراء المماليك ، والحوض بالأزهر . حجة وقف السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ٣٦ ، ٤٠ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٤٤ - ٢٤٥ .
ومما هو جدير بالذكر أنه لم يتبق من هذه الأحواض التى ورد ذكرها بالوثيقة سوى حوض صحراء المماليك وحوض الأزهر ، بالأضافة الى حوض ثالث بقلعة الكبش لم يرد له ذكر بالوثيقة .

(١٥) محمد مصطفى نجيب : مدرسة الأمير الكبير قرقماس وملحقاتها (رسالة دكتوراه غير منشورة - جامعة القاهرة ١٩٧٥) الملحق الوثائقى ص ٣١.

(١٦) محمد مصطفى نجيب : مدرسة الأمير كبير قرقماس - الجزء الأول ص ٦٠٢ - ٦٠٣ حاشية ٥ .

(١٧) المقريزى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٠٠

(١٨) ميرفت عيسى : مدرسة خوند بركة (أم السلطان شعبان) (رسالة ماجستير غير منشورة جامعة القاهرة ١٩٧٧) ص ٧٨ .

(١٩) سبق أن تحدثنا عن حوض وكتاب هذه المدرسة هامش رقم ١٢ .

(٢٠) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ٢ : ص ٤٠٠ .

(٢١) حجة وقف السلطان قايتباى ، ٨٨٦ أوقاف ، ص ٣٦ سطر ٨ - ١٣ .

(٢٢) حجة وقف السلطان قايتباى ، ٨٨٦ أوقاف ، ص ٣٦ ، سطر ٩ .

(٢٣) حجة وقف السلطان قايتباى ، ٨٨٦ أوقاف ، ص ١١٧ ، سطر ٢ - ٥ .

(٢٤) حجة وقف السلطان قايتباى ، ٨٨٦ أوقاف ، ص ١٤٠ ، سطر ١ -٧ .

(٢٥) عن تحليل هذه الألقاب ومدلولها فى مصطلح ديوان الأنشاء خلال العصر المملوكى أنظر : ما كتبه أستاذنا الدكتور / حسن الباشا فى كتابه الألقاب الأسلامية فى التاريخ والوثائق والاثار - القاهرة ١٩٥٩ .

(٢٦) حجة وقف السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ٢٠٠ سطر ١١ ، ص ٢٠١ سطر ٢ .

(٢٧) حجة وقف السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ٢٣٥ سطر ١٠ - ١٣ .

(٢٨) يتضمن هذا الطراز النص التأسيسى لهذا الحوض وبعض ألقاب ووظائف الأمير قجماس الأسحاقى ، ويتوسط هذا الطراز رنك الأمير قجماس الأسحاقى وهو يضم بقجة وكأسا داخلها محبرة ، وبجوارها قرنا بارود .
أنظر : سوسن سليمان : منشأة الأمير قجماس الأسحاقى فى (رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة القاهرة ١٩٨٤) ص ٦٣ ، ١٦٣ أشكال ١١٨ ، ١٢١ .

(٢٩) حجة وقف أسكندر باشا رقم ٩١٩ أوقاف محكمة مصر ١٥ جمادى الأول ٩٦٥ هـ .

(٣٠) حجة وقف زين الدين عبد المعطى محمد رقم ٢٨٥ مؤرخة ٢٢ جمادى الآخر ١٠١٩ صادرة من الباب العالى .

(٣١) حجة وقف على كتخدا رقم ٢٤٧ مؤرخة ١٣ ذى الحجة ١٠٣٨ هـ صادرة من محكمة الباب العالى .

(٣٢) حجة وقف على أغا دار السعادة رقم ١٢٩ مؤرخة غرة الأول ١٠٩٠ هـ صادرة من الباب العالى .

(٣٣) حجة وقف أحمد أغا رقم ٩٣٧ مؤرخة ١٠ شوال ١٠٩٢ صادرة من الجامع القوصرنى .

(٣٤) حجة وقف مصطفى أغا بن حسين رقم ٩٧٤ مؤرخة ٨ ذى الحجة ١١٠١ هـ صادرة من الباب العالى .

(٣٥) حجة وقف حسن بن حسين رقم ٢٧٦ مؤرخة ١٢ ذى الحجة ١١٥٨ هـ صادرة من الباب العالى .

(٣٦) حجة وقف على كتخدا رقم ٢٤٠٤ مؤرخة غرة ١١٧٨ هـ صادرة من محكمة مصر .

(٣٧) حجة وقف أسماعيل كتخدا رقم ٩٢٩ مؤرخة ٢٥ ربيع الآخر ١١٧٩ هـ صادرة من الباب العالى.

(٣٨) حجة وقف على أغا رقم ٤١٤ مؤرخة غرة ذى الحجة ١٢١١ هـ صادرة من الباب العالى.

(٣٩) حجة وقف أحمد باشا طاهر رقم ٩١٦ مؤرخة ٢١ ذى الحجة ١٢٤٩ هـ.

(٤٠) عن هذه الأعمال أنظر : الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار – المجلد الأول دار الفارس – بيروت ص ٤٩١ – ٤٩٤ .

(٤١) الجبرتى : المصدر السابق ص ٤٩١ .

(٤٢) Andre Raymond : Les Constructions de L' Emir 'Abd Al-Rahman Kathuda Au CAIBE, (Annales Islamologiques)
Tome XI, Institut Français D' Archéologie Orientale Du Caire, I 972, p. 25I.

(٤٣) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف .

(٤٤) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف .

(٤٥) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤١ أوقاف .

(٤٦) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف .

(٤٧) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤١ أوقاف .

(٤٨) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٢ أوقاف .

(٤٩) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف .

(٥٠) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف سطر ٢٥٦ .

(٥١) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف سطر ٧٢٥ ، ٧٣٠ .

(٥٢) حجة وقف عبد الرحمن كتخدارقم ٩٤٠ أوقاف سطر١٩٥٢ .

(٥٣) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف سطر ١٩٨٤ .

(٥٤) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف سطر ١٩٨٦ .

(٥٥) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف سطر ٩٦٢ .
ومن المعروف أن الأمير عبد الرحمن كتخدا قد بنى تجاه باب الفتوح مسجدا ظريفا بمنارة وصهريج وكتاب ومدفن السيدة السطوحية .
الجبرتى : المصدر السابق ص ٤٩١ .

(٥٦) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف سطر ٢٤٥ .

(٥٧) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف سطر ٦٤٠ .

(٥٨) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤١ أوقاف سطر ٩٧١ .

(٥٩) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف سطر ٨٨٦ ، ١٣٢٢ .

(٦٠) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٢ أوقاف سطر ٣٠٣ .

(٦١) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٢ أوقاف ص ٨١٩ .

(٦٢) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف ص ٢٤٩ .

(٦٣) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف ص ٧١٧ ، ٧٢١ .

(٦٤) André Raymond : Les Construction de L' Émir 'Abd Al - Rahman Kathuda Au Caire, PL. XI .

(٦٥) حجة وقف ابراهيم أغا مستحفظان ٩٥٢ أوقاف ص ١١٧ .

(٦٦) BERCHEM (M. V.) :
Carpus Inscriptionum Arabicarum, Vol , III , p. 610

(٦٧) حجة وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف ص ١٠٠٠

(٦٨) الحجة السابقة رقم ٩٤٠ أوقاف ص ١٥٥١ .

(٦٩) حجة وقف محمد بك أبو الذهب رقم ٩٠١ أوقاف ص ٣١ .

(٧٠) حجة وقف محمد بك أبو الذهب رقم ٩٠١ أوقاف ص ٨٦ .

(٧١) محمد مصطفى نجيب : المرجع السابق ص ٦٠٢ - ٦٠٣ .
حسنى نويصر : منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة (رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة القاهرة ١٩٧٥) ص ١٤٨ .

(٧٢) محمود الحسينى : الأسبلة العثمانية الباقية بمدينة القاهرة (رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة القاهرة ١٩٨٢) ص ٤١ - ٤٣ ، ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٧٣) المقريزى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٦١ .
حجة وقف السلطان الغورى رقم ٤٥٢ جديد أوقاف الى جانب الوثيقة الجامعة لهذا السلطان .

المصادر والمراجع

إبراهيم جمعة :

دراسة فى تطور الكتابات الكوفية على الأحجار فى مصر فى القرون الخمسة الأولى للهجرة ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٦٩م .

محمد عبد العزيز مرزوق :

الفنون الزخرفية الإسلامية فى مصر قبل الفاطميين ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٧٤م.

هزتز باشا :

الدليل الموجز لدار الأثار العربية ، المطبعة الأميرية ١٣٢٧ هـ .

Hawary , (H.) : The Most Ancient Islamic Manument Known, (J.R. A. S.), 1930 - 1932.

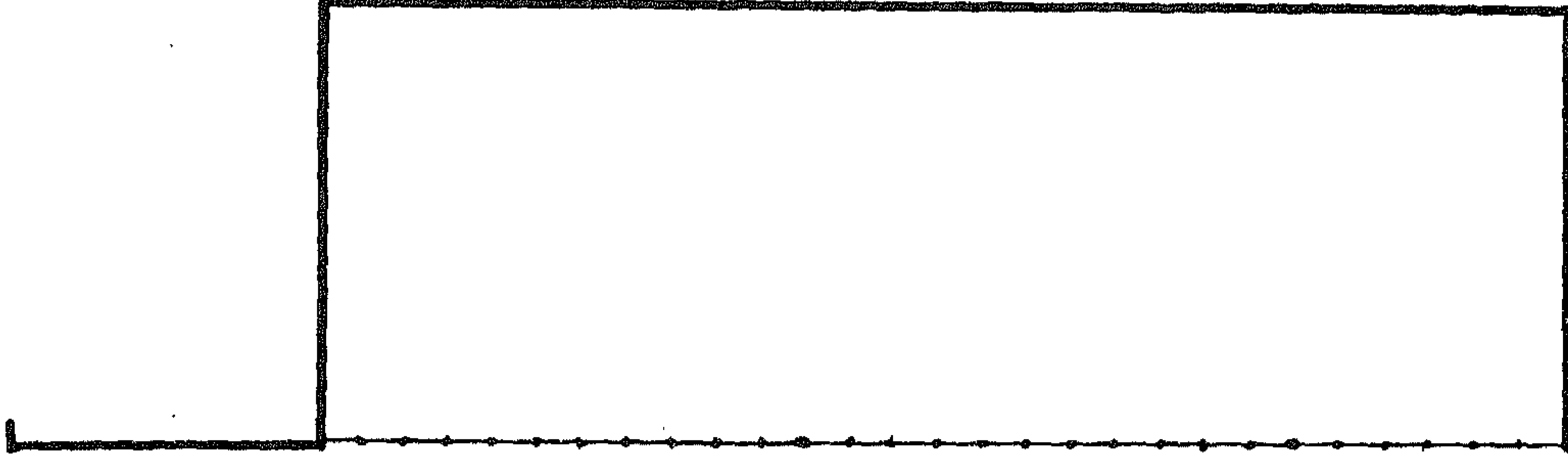
Stéles Funéraies, c cat. Gén. du Musée Arab du Caire). 1932 - 1942

Strzygauwski, (J.) Ornamente Aftarabischer Grabsteine in Kairo, Der Islem, strassburg, 1911 Berchem, (M. V.) :

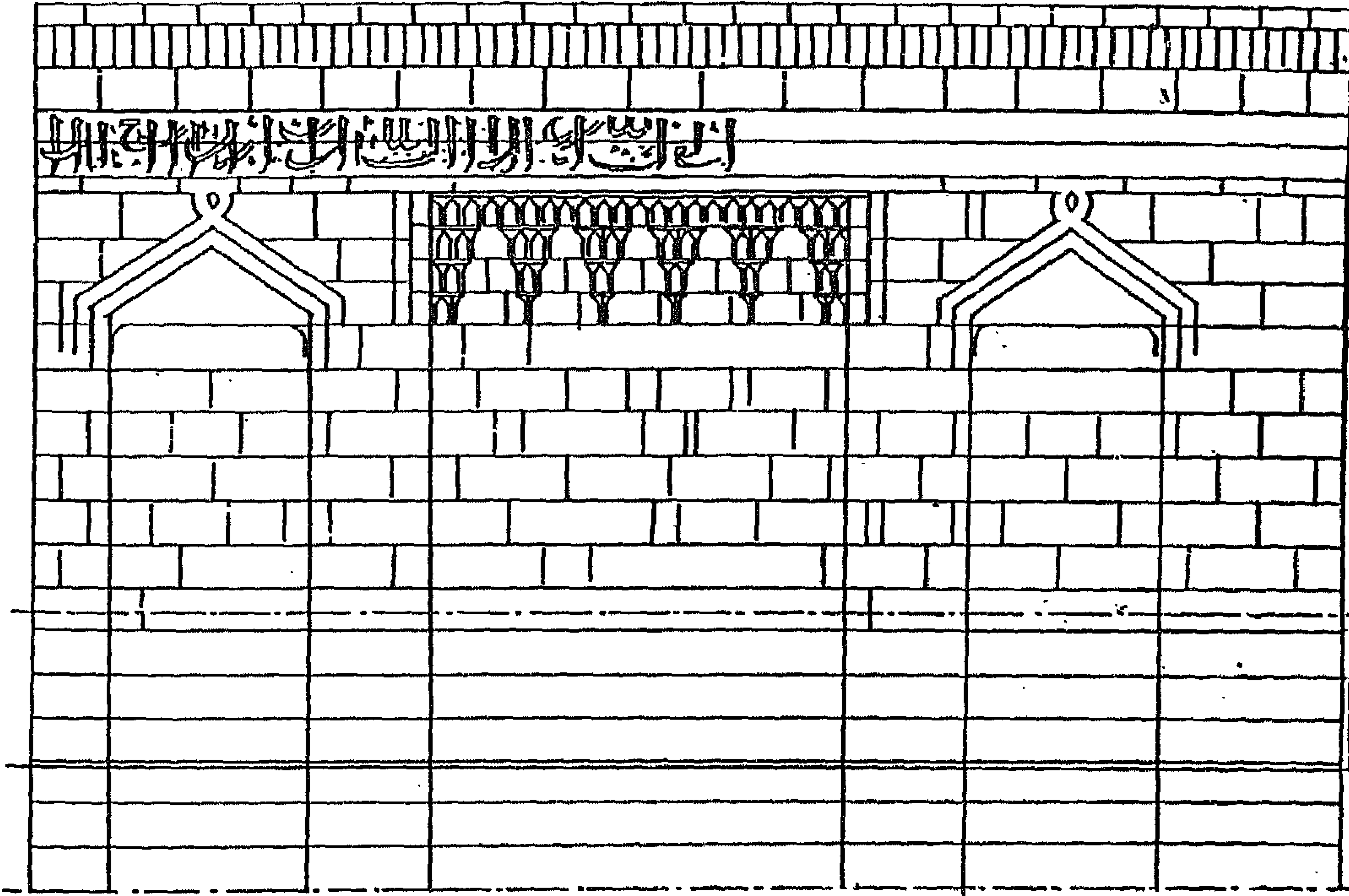
Materiaux pour un corpus in scriptionum arabicarum, Egypt, I, 1903.

Raymond, (A.) :

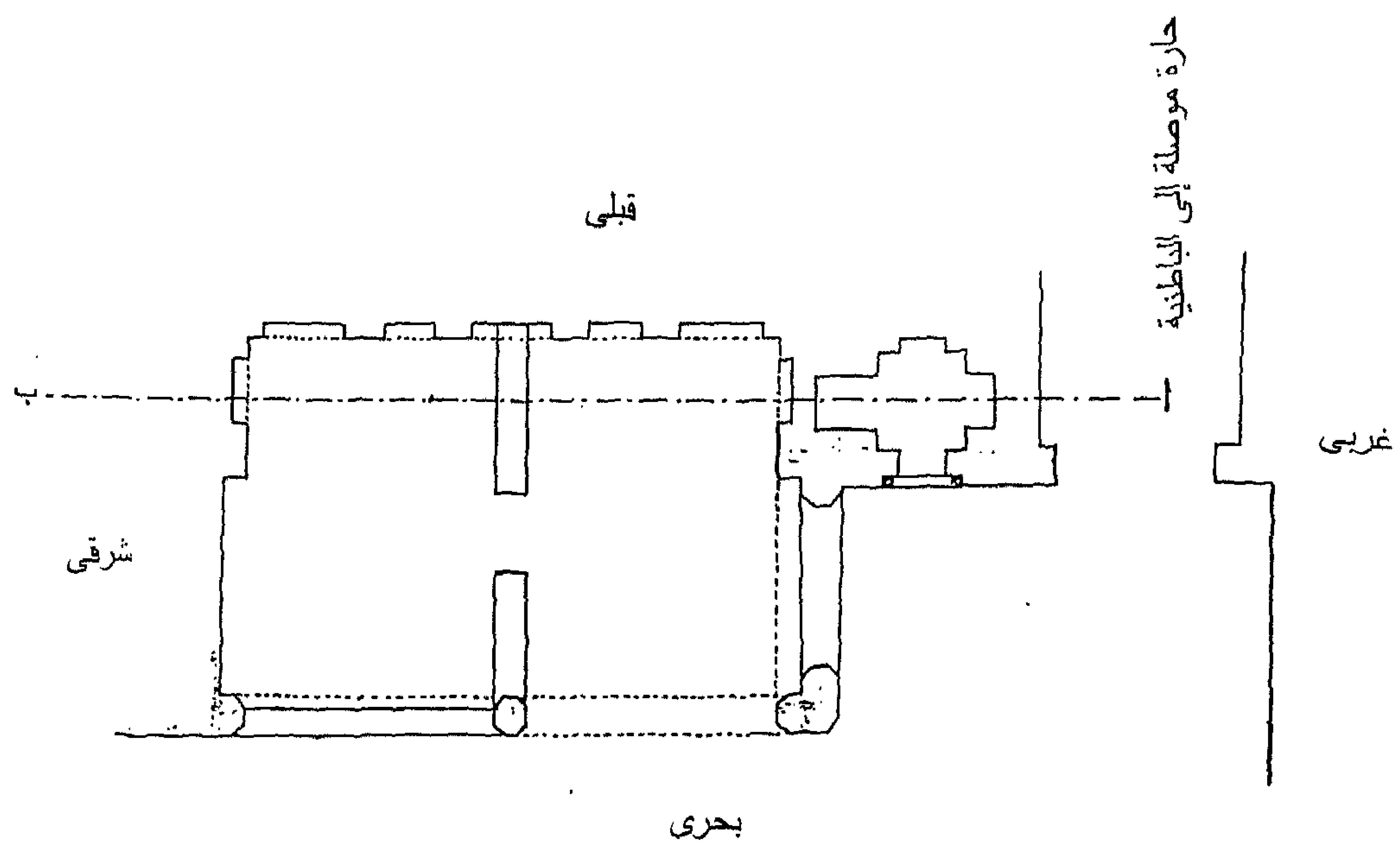
Les constructions de L' Amir 'Abd Al - Rahman Kathuda au caire (Anales Islamologi ques) . Tomexi, Institut Français d' Archéologie orientale du caire, 1972.



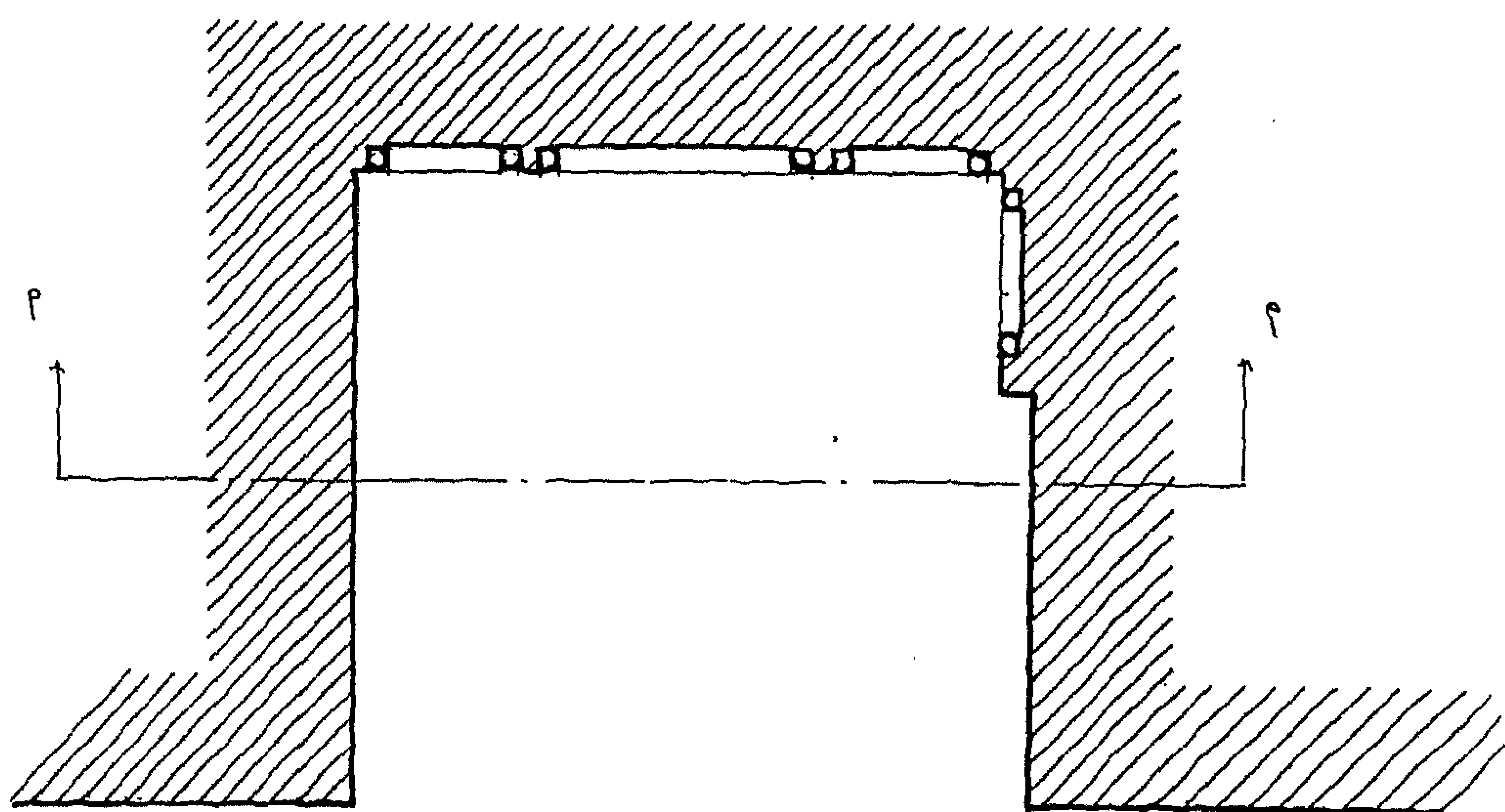
(شكل١) مسقط أفقى لحوض مدرسة أم السلطان شعبان



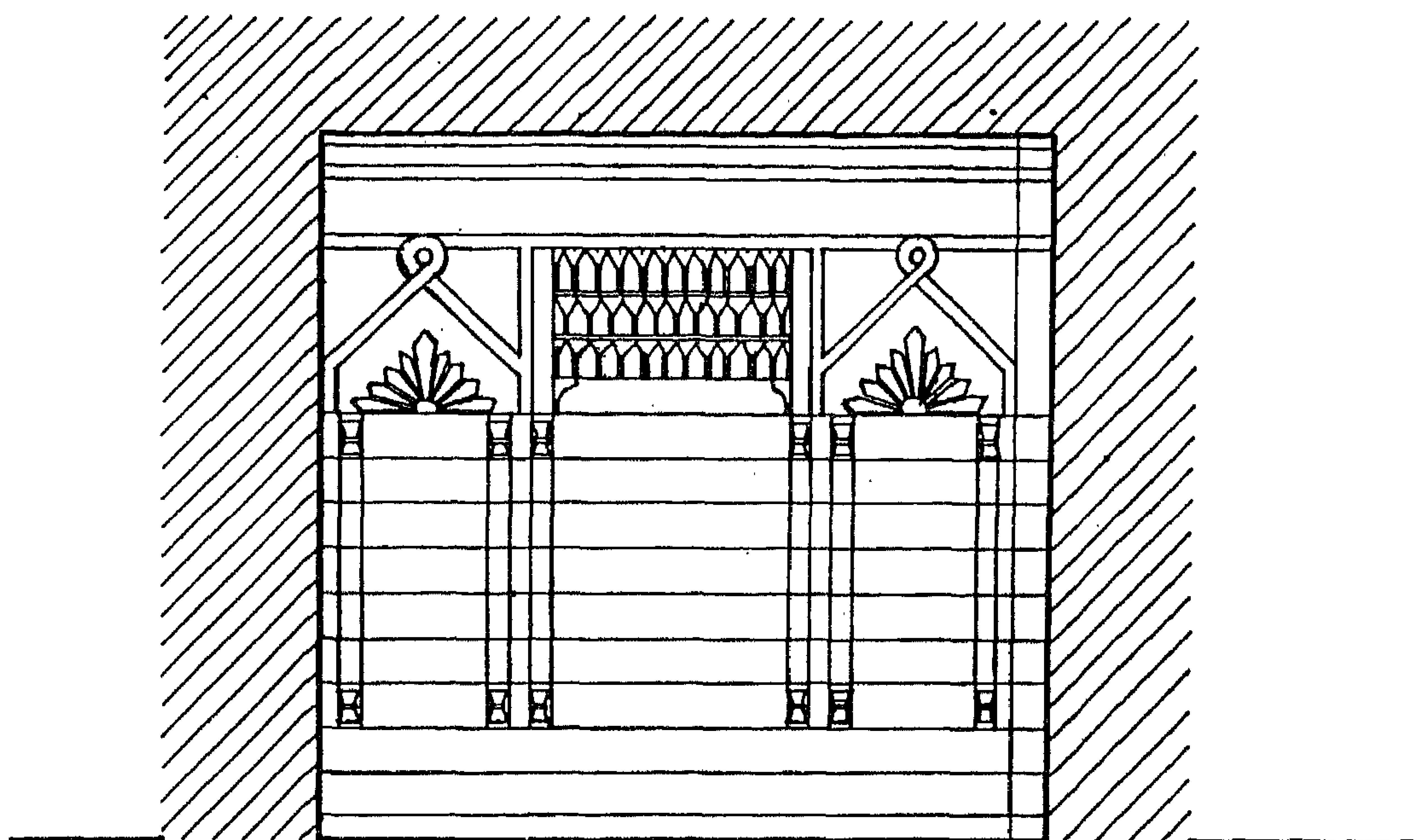
(شكل٢) واجهة حوض قايتباى بقلعة الكبش



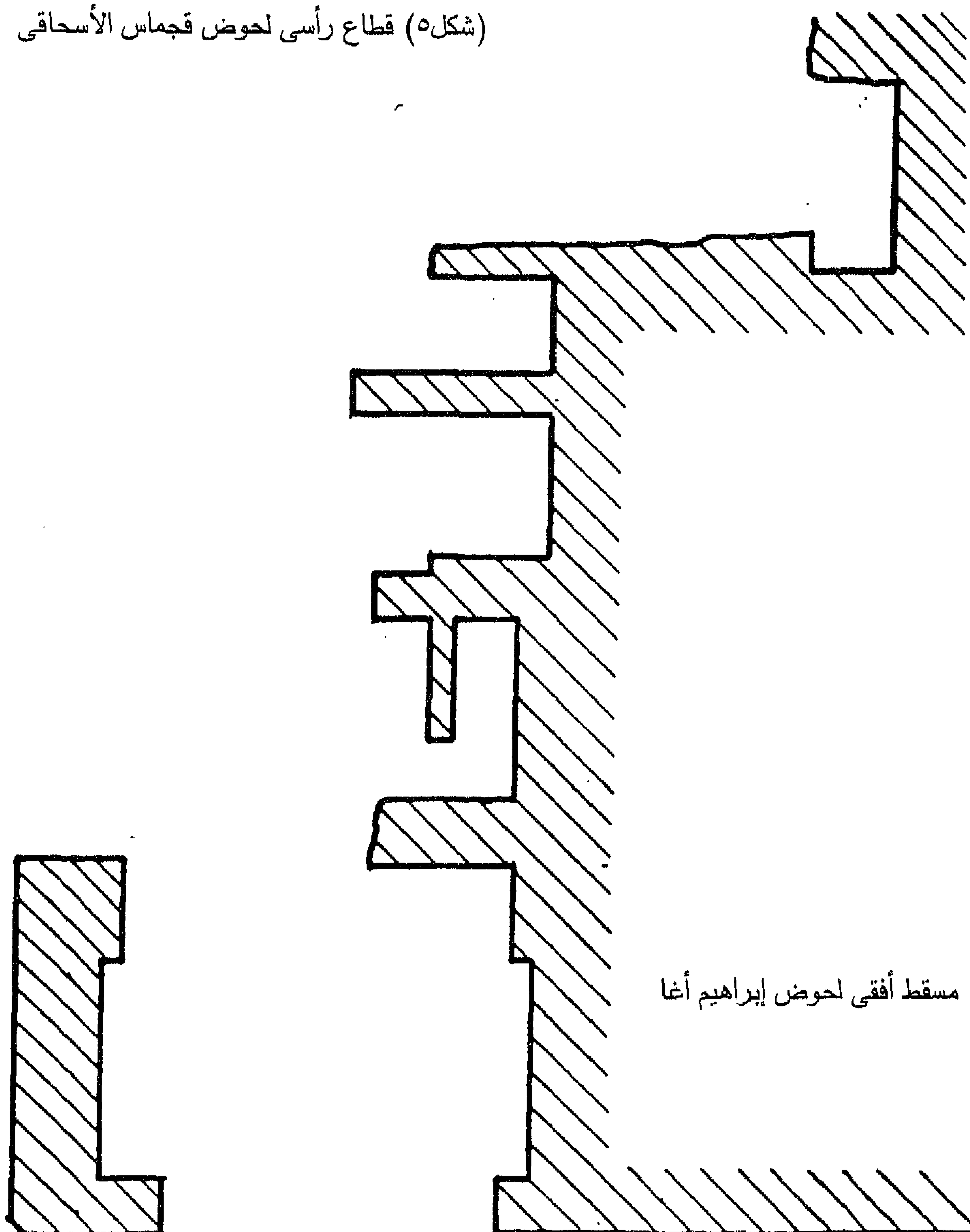
(شكل٣) مسقط أفقى لحوض قايتباى بالأزهر



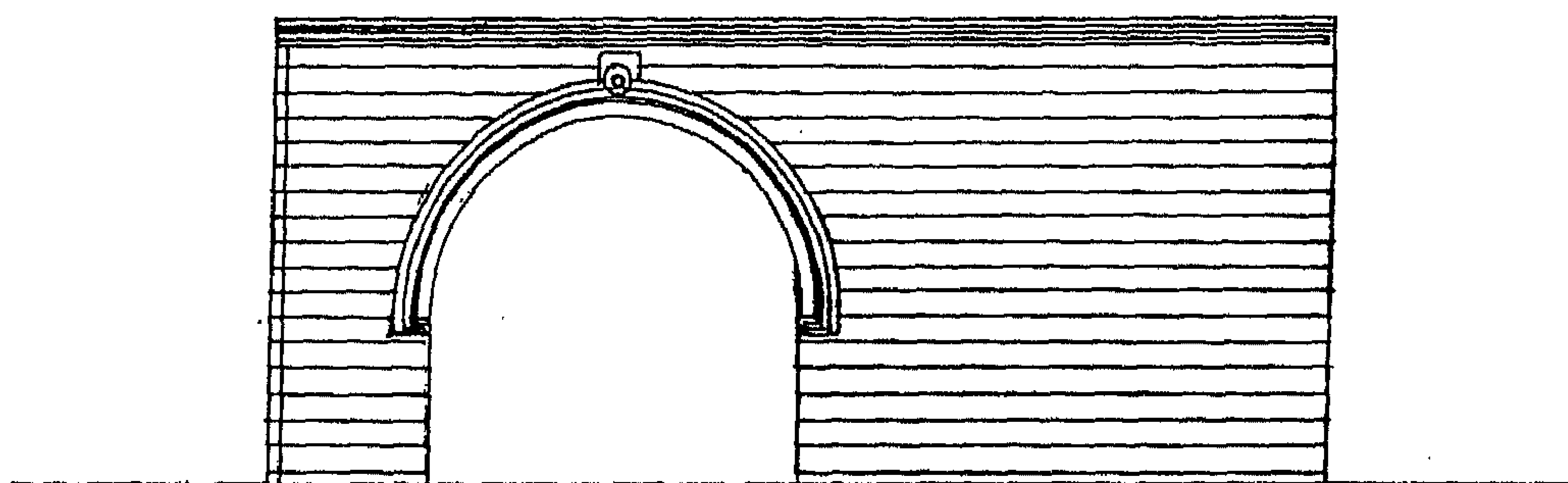
(شكل٤) مسقط أفقى لحوض قجماس الأسحاقى



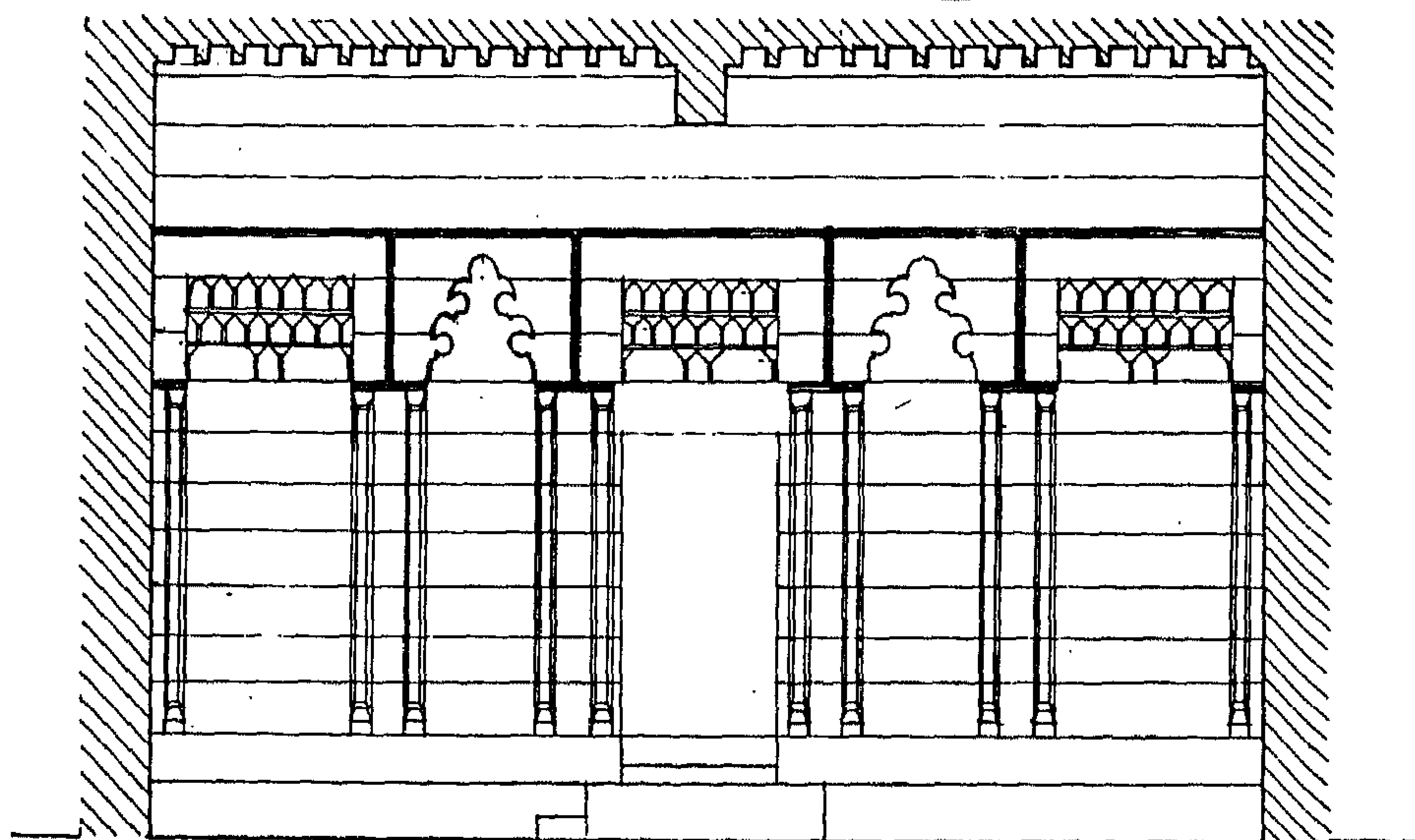
(شكل٥) قطاع رأسى لحوض قجماس الأسحاقى



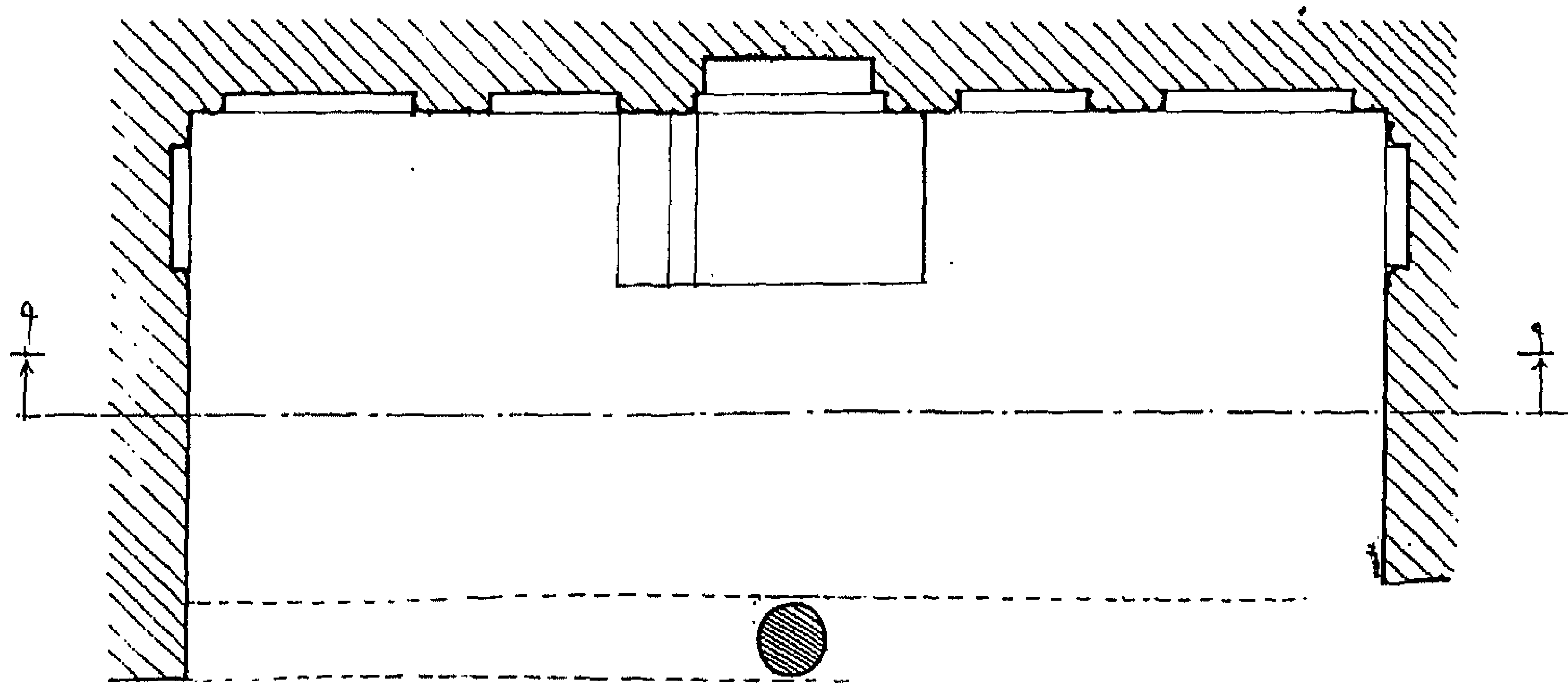
(شكل٦) مسقط أفقى لحوض إبراهيم أغا



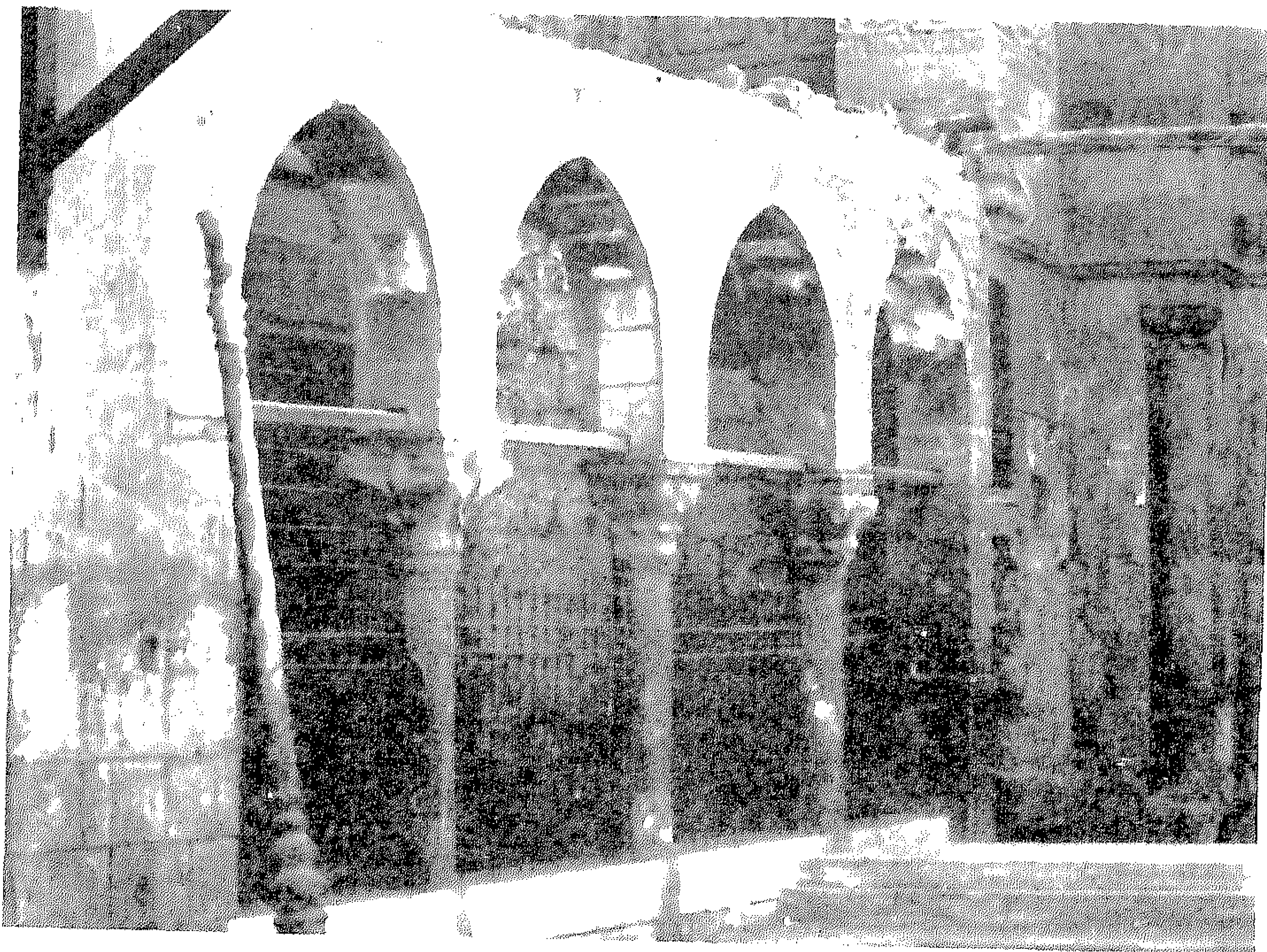
(شكل٧) واجهة حوض إبراهيم أغا



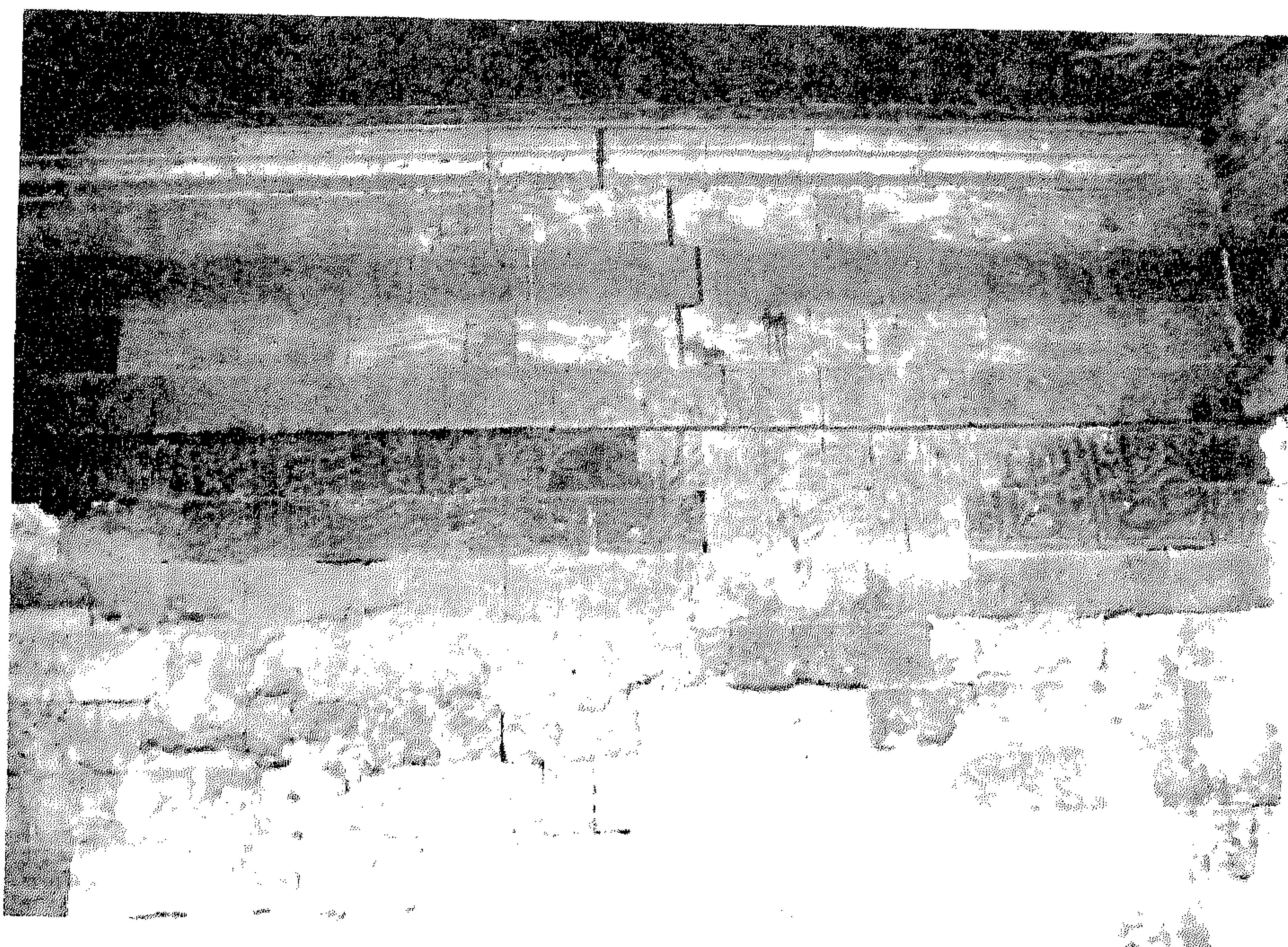
(شكل٨) قطاع رأسى لحوض محمد أبو الدهب



(شكل٩) مسقط أفقى لحوض محمد أبو الدهب



(لوحة ١) حوض قلاوون



(لوحة ٢) أم السلطان شعبان



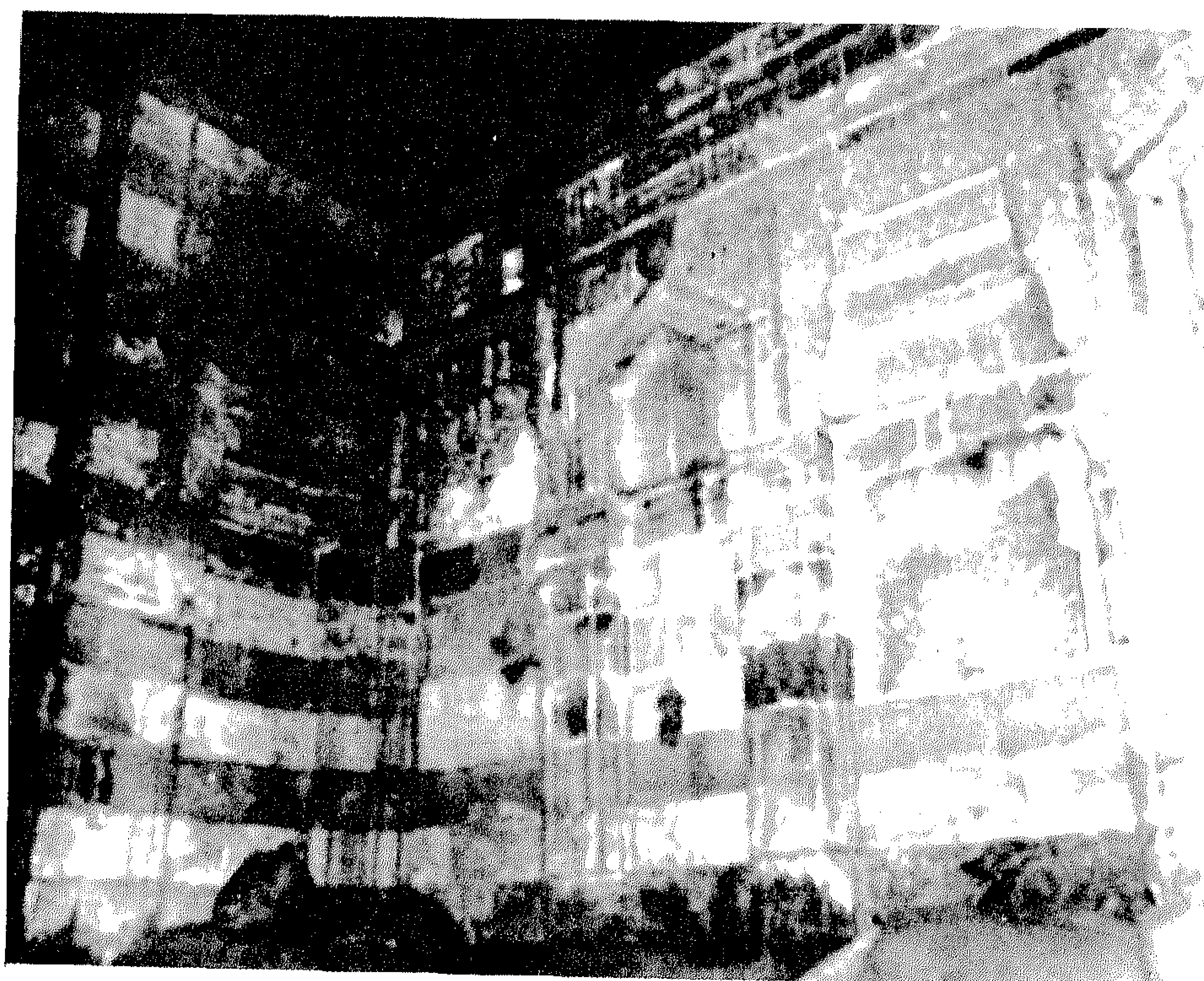
(لوحة ٣) لابمش



(لوحة ٤) قايتباى بالصحراء



(لوحة ٤مكرر) قايتباى بالصحراء



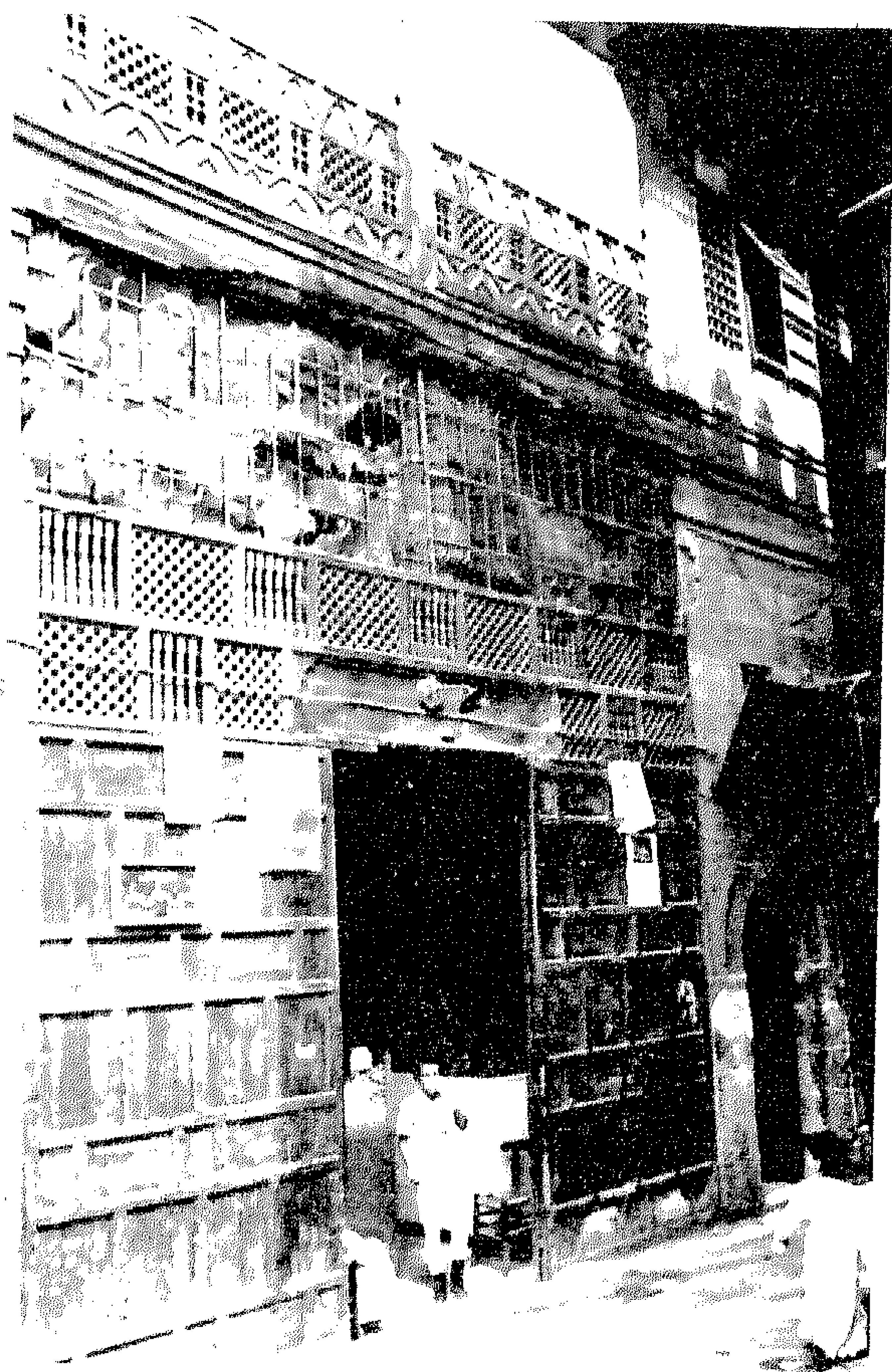
(لوحة ٥) حوض قايتباى بالأزهر



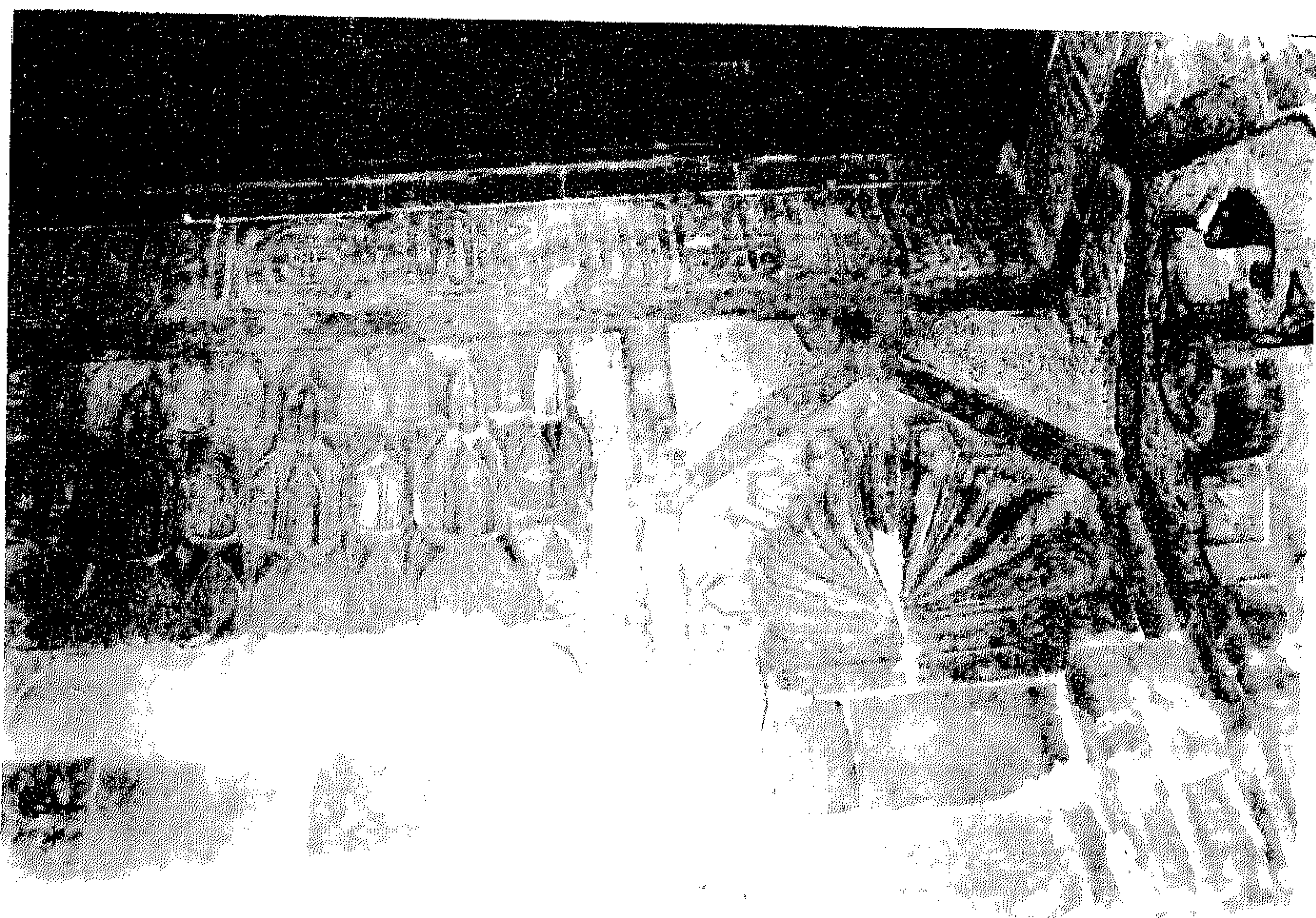
(لوحة ٦) حوض قايتباى بالأزهر



(لوحة ٧) قايتباى بالأزهر



(لوحة ٨) قجماس



(لوحة ٩) قجماس



(لوحة ١٠) قجماس



(لوحة ١١) إبراهيم أغا بباب الوزير



(لوحة ١٢) عبد الرحمن كتخدا بالحطابة



(لوحة١٣) أبو الدهب



(لوحة١٤) أبو الدهب

مسجد الأمير محمد بأخميم

من خلال حجة وقفه ١٠٩٨ هـ/ ١٦٨٣م

جمال عبد الرؤف عبد العزيز
مدرس الاثار الإسلامية المساعد بكلية الآداب جامعة المنيا

تعتبر الوثائق من أهم المصادر المادية التى يعتمد عليها فى دراسة التاريخ والآثار الاسلامية ، اذ أنها تحوى وصفاً معمارياً للعمائر سواء دينية أو مدنية أو اجتماعية أو خيرية ، بعض هذه العمائر أزيل من الوجود وبعضها قائم وبعضها الآخر قد يكون ازيل جزء منه أو حدثت بعض الاعتداءات عليه فأصبحت على شفا الزوال وبعضها الثالث أفقدته الترميمات العشوائية المعالم الأصلية لطابعة الأثرى لذا يتحتم على القائم بدراسة الآثار الرجوع الى الوثائق كى يمكنه الوقوف على ما تحويه فى بطونها من كم هائل من المعلومات .

ويحتفظ « ارشيف وزارة الاوقاف بالقاهرة » بحجة وقف صادرة من محكمة مصر فى ١٧ رجب سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٣ م تحت رقم ١٣٢٥ وهى حجة وقف على جانب كبير من الأهمية لم تر النور حتى نشرها فى هذا البحث ، وترجع أهمية هذه الحجة إلى أنها تزيح الستار عن عدة حقائق ظلت لفترة طويلة فى عالم النسيان .

وهى « وقفية من ورق كراريس داخل مظروف من الجلد بإسم « الامير محمد والأمير أحمد » ولدا الأمير حسن » موقوف بها مسجد بمدينة أخميم وثلاث قطع أرض بولاية الأخميمية ، وقد فقدت الصفحات الأولى من هذه الوقفية ، والتى تتضمن الإفتتاحية . وأتولى فى هذه الصفحات نشر هذه الوقفية ذات الأهمية الكبيرة فيما يخص – الجانب المعمارى فى عمارة هذا المسجد.

صـ ٥ . . . . وأشـــــــهـــــــــدا
على نفـــســهـــمــا الذكـــيــــة حــرســهـــمــا الله من كل آفـــه
ويليـــه هـمــا الجـنـابــان المكرمــان العظيـــمـــان
الأمجد أن الأمير محمد والأمير أحمد ولدا المرحوم الأمير حسن بن
المرحــــوم الأمـــــيــــر حــــمــــد بـن.

صـ ٦ المرحـــوم الأمـــيـــر يونس من أولاد الأمـــيـــر عـــمـــر
عين أعـــيـــان الأمـــراء بولاية الصـــعـــيـــد الأعلى
ســـابقـــا تغـــمـــدة الله برحـــمـــتـــه ورضـــوانه وأسكنه
بحــــبـــــوحـــــة جـنـاتـه .. ..

صـ ٧ .. .. أنهـــمـــا وقـــفـــا وحـــبـــســا
وأبدا وتـصـــدقـــا بما هو جـــاريـــدهمـــا
وفى ملكهـــمـــا وانشـــائهـــمـــا وعـــمـــارهمـــا من
مـــال روكـــيـــتـــهـــمـــا وفى تصـــرفـــهـــمـــا إلى يوم
تـاريخـــه على الحكم الآتى بيـــانة فـــيـــه وذلك
جـــمـــيع بنـآ المســـجـــد المســـتـــجـــد .

صـ ٨ الانشـــا والعـــمـــارة المعـــمـــور بذكـــر الله
تعـــالى الكائن بناحـــيـــة أخـــمـــيم من جـــهـــتـــهـــا

الشرقية المجاور إلى سوق الناحية
مستجدا تقام فيه الصلوات الخمس
والنوافل ويعتكف فيه وتنشا فيه
العبادات وتقام فيه الجمعه والجماعات
والذكر والقران مشتملا على ثلاثة أبواب
أحدها يجرى عتبته حجر عدسى.
وواجهته كذلك حجر عدسى وعليه
باب بدرفتين من الخشب النقى يصعد صـ ٩
له بدرفتين من الخشب النقى يصعد
له باربع درجات سلم من الحجر المنحوت المدور
والباب الثانى شرقى عتبه حجر عدسى
وواجهته كذلك حجر عدسى عليه باب بدرفتين
من الخشب النقى يصعد له بأربع درجات
سلم من الحجر المنحوت المدور والباب
الثالث غربى عتبته وواجهته .
من الحجر الكدان يصعد له بثلاث درجات
سلم يدخل من الأبواب المذكوره الى مسجد
جامع مبنى من جهاته الأربع بالحجر صـ ١٠
النحيت من أعلاه الى أسفله مشتمل
على ثلاثه محاريب أحدها كبير على
يمينه ويساره عامودان حجر نحيت
من الحجر الكدان وبالمسجد المذكور
منبر من خشب نقى يقابله دكه من
خشب نقى كذلك وبه اربعه وعشرون
عامودا حجرا البعض منها من الحجر
المرمر والبعض منها من الحجر العدسى
والبعض من الحجر البجمر والبعض صـ ١١
من الحجر الهيصم والبعض من الحجر الكدان
مقام عليها سقف الجامع المذكور

الذى هو من الخشب النقى مدهون
بالدهان الاخضر والاحمر مشتعل
الجامع المذكور على شبابيك حديد من
جهته البحرية والشرقية والغربية
ومشتمل ايضا على تسعة
عشر طاقه
مركب بها القمريات الزجاج المنوع
مختلفة الالوان ومشتمل على المنارة صـ ١٢
المعدة للإعلام بدخول وقت الصلاوات
بالاذان عليها المتوصل اليها من داخل
المسجد المذكور من جهته الغربية
من الجانب البحرى وفى جانب المنارة
من الجهة الغربية المطهرة المعدة للوضوء
والتطهير بها حنفيه معده لوضوء
السادة المقلدين للامام ابى حنيفه النعمان
نفعنا الله به مركب بها ثلاثه لوالب
نحاس وبها ثمانيه بيوت اخليه معده صـ ١٣
لقضاء حاجة الانسان وفى كل بيت منها
حوض من الحجر معد للاستنجاوبها
فسقيه معدة لوضوء الشافعية
والمالكيه تشمل المطهره المذكوره على
اربعة اعمدة من الحجر مقام عليها سقفها
وعلى البير الماء المعين المركب على فوهتها
ساقية من خشب كاملة العدة والادارة.
المعدة الى ملء الفسقية والحنفية
وحياض بيوت الاخلية ومما اشتملت صـ ١٤
عليه الساقية حوش معد لربط
الاتوار وخزين التبن وما هو معد
لها وداخل بها ومنسوب اليها يتوصل

للمطهره المذكورة من باب المسجد من الجهة الغربية وجميع ثلاث
قطع ارض طين يسواد صالحة للزرع
والزراعةملكا مجاورة لبعضها
احباسيه محدده محجرة كاينه ذلك
صـ ١٥ الرزق بولاية الاخميمية ٠٠٠٠٠٠٠
٠٠
٠٠

صـ ١٦ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٠ ٠ ٠ وقدر ذلك
الطين ثلاثة قطع متجاورات بالناحية
والملك والطينة ولذلك الطين المذكور
صـ ١٧ حدود أربع الحد القبلي ينتهي الى الحميديه
وقف الأثر النبوي وبعضه الى
الساحل والحد البحرى الى اراضى ناحية
البيار والحد الشرقى ينتهي الى الجبل
والحد الغربي الى البحر الأعظم ٠٠
٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
صـ ١٨ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
صـ ١٩ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
انشا الواقفان المذكوران ضاعف
الله لهما الأجور والرضوان وقفهما
هذا مسجداً جامعاً لاقامة الصلوات
الخمس والجمعة والجماعة والنوافل
والاعتكاف والتعبد وقراءة القرآن
صـ ٢٠ والحديث والعلم الشريف والذكر
والعبادة وما يتعلق بالمسجد المذكور

من منبر ودكه خشب وغير ذلك
من اعمال البر كربعة وقراءة كرسى
وما سيذكر • • • •
صـ ٢٢ • • • • • •
• • • • • •
• • • • • •
واما الثلاث قطع الرزق
صـ ٢٣ المتقدم ذكرها وقفاها ليصرف
من ربعها ومحصول غلتها بعد العمارة
والترميم لعين الوقف المذكور واصلاح
جسوره وما فيه من ابقاء عينه والزام
لذاته فمن ذلك ما يصرف
صـ ٤٧ • • • • • •
• • • • • •
• • • • • •
ثم عنّ للواقفين المذكورين الرجوع عن
هذا الوقف ورده الى التصرف كما كان
صـ ٤٩ • • • • وتنازعا
فى ذلك وترافعا لدى مولانا الحاكم المشار
اليه أعلاه فنظر بينهما نظراً دقيقاً
وتأمله تأملاً شافياً حقيقياً فعاين
فى جانب الوقف رجحانا قوياً وبرهاناً
واضحاً جليا فاستخار الله تعالى
وحكم بصحة الوقف ولزومه
فى خصومه وعمومه عالماً بالخلاف
الواقع بين الأيمه الاسلاف فى شأن
صـ ٥٠ الاوقاف • • • • •
صـ ٥٢ • • • • • •
١٧ رجب سنة ١٠٩٥ هـ

جهات صرف ريع الوقف
ص ٢٣ الى صـ ٣٤

م	البيـــــــــان	النصيب من الريع سنويا
١	رجل من أهل الدين خطيباً للجامع .	١٠ أرداب قمح فى السنه
٢	مرقياً عند صعود الخطيب الى المنبر	٤ ،، ،، ،،
٣	رئيس المؤذنين في يوم الجمعة	٥ ،، ،، ،،
٤	ثلاثة أنفار مؤذنين	١٥ ،، ،، لكل واحد ٥ أرادب
٥	قارئ الحديث الشريف بالجامع فى رجب وشعبان ورمضان	٨ أرادب قمح فى السنه
٦	قارئ العلم الشريف والفقه على مذهب الامام مالك	١٠ ،، ،، ،،
٧	قارئ عشر قرآن قبل صلاة العصر	٥ ،، ،، ،،
٨	رجل متقيداً بخدمة الربعة وتفرقتها على القراء	٥ ،، ،، ،،
٩	رجل يبخر بالجامع فى كل يوم جمعة بما فيه من ثمن البخور	٦ ،، ،، ،،
١٠	بواب الجامع	٥ ،، ،، ،،
١١	رجل متقيداً بالفراشة والوقادة بالجامع والمطهرة وبيوت الأخلية	١٠ ،، ،، ،،
١٢	رجل فى وظيفة الصلاة على النبى «ص» بعد صلاة المغرب الى صلاة العشاء .	١٠ ،، ،،
١٣	سواق الساقية	١٠ ،، ،،
١٤	ملاء السبيل	١٥ أردب ،، ،،
١٥	رجل لقراة سورة يس فى كل صباح «وقرر فى قراءة ذلك الشيخ العالم الفاضل الشيخ محمد بن المرحوم الشيخ عمار مدة حياته ثم اولاده من بعده ثم اولادهم كذلك »	١٠ ،، ،، ،،
١٦	قارئ سورة الكهف فى كل يوم جمعة « وقرر فى ذلك الشيخ محمد النفراوى	١٠ ،، ،، ،،
١٧	قارئ سورة تبارك الذى بيده الملك « وقرر فى ذلك الشيخ محمد حمودة»	٥ ،، ،، ،،
١٨	شاد فى الجامع على مصالح الجامع	١٠ ،، ،، ،،
١٩	الناظر وقرر الواقفان فى ذلك كل من يكون باش جاويش مستحفظان حالاً بمصر المحروسة.	٤٠ أردب قمح فى السنه

يدل السطر الثالث وأول الرابع بالصفحة الخامسة على احتفاظ ولدى الأمير حسن بألقاب أبيهما « الجنابان (١) المكرمان العظيمان الأمجدان » .، فى حين يشير السطر الرابع من الصفحة الخامسة إلى أن كل من « الأمير محمد وأخيه الأمير أحمد » إشتركا سويا فى الأمر ببناء هذا المسجد ، ولكن لابد من أن « الأمير محمد » كان أكبر سناً من أخيه « الأمير أحمد» لذا فقد سبق إسمه اسم أخيه . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فإنه نظراً لكبر « الأمير محمد» سناً عن أخيه « الأمير أحمد » فقد غلب إسمه على الجامع ،الذى أطلق عليه إسم « جامع الأمير محمد» ولم ترد أية سيرة مطلقاً عن « الأمير أحمد» .

ونستطيع من خلال هذه العبارة إستكمال الكتابات النسخية المنقوشة فى الحجر والتى تمتد لتشغل الركن الشرقى لقبوة المحراب الرئيسى فى خمسة سطور وقد أصبحت هذه الكتابات فى حالة يصعب قراءتها نتيجة العبث بها ولم يتضح منها سوى بعض كلمات متناثرة ، ومن خلال الوثيقة نستطيع بيانها كالتالى (٢) :

١) (أنشأ هذا المسجد المبارك الجناب) الكبير

٢) العالى الأمير

٣) محمد (والأمير أحمد ولدا)

٤) الأمير حسن (بن المرحوم الأمير)

٥) (حمد بن المرحوم الأمير يونس)

وقد وردت بآخر السطر الرابع بنفس « الصفحة الخامسة» لفظة « المرحوم » مشيرة إلى « الأمير حسن» وبذلك تدل الوثيقة على أن وفاة « الأمير حسن» كانت سابقة على تحريرها فى ١٧ رجب سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٣م ، فى حين تدلنا كتابات جامع الأمير حسن « بأخميم على أن هذا الأمير كان حياً فى سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤م (٣) حيث شيد مسجده بنفس المدينة وأتم بنيانه سنه ١١٢٢هـ / ١٧٠٩م (٤) ، كما يدلنا شاهدا قبر « الأمير حسن» بمسجده على أن وفاته كانت فى ٢٧ شهر جماد أول سنة ١١٣٢هـ / ١٧١٩م (٥) إذن لابد وان هذه اللفظة كتبت بطريق الخطأ ، ولا تحتمل تفسيراً آخراً .

ويدلنا السطر الأخير من الصفحة الخامسة والسطر الأول من الصفحة السادسة على نسب « الأمير حسن» ، حيث تعتبر إشارة هذه الوثيقة إلى نسب هذا الأمير على درجة كبيرة من الأهمية ، خاصة وأن كل ما ورد عن هذا الأمير من حيث التسمية هو « الأمير حسن بن المرحوم الأمير محمد » ، وقد وردت هذه التسمية ضمن كتابات نص تأسيس مسجده على إفريز حجرى أعلى المحراب بالقرب من سقف المسجد ، كما وردت هذه التسمية بنفس الصيغة أيضاً مرتين آخريين ضمن كتابات سقف نفس المسجد – الأولى ضمن كتابات سقف البلاطة الرابعة يمين الصحن ، والمرة الثانية ضمن كتابات سقف نفس البلاطة يسار الصحن .

كما تقدم الوثيقة تصحيحاً لاسم « الأمير حسن بن المرحوم الأمير حمد » بدلاً من الأمير حسن بن المرحوم الأمير محمد » .

ويدل السطران الثانى والثالث بالصفحة الثامنة على تحديد موقع هذا الجامع (خريطة ١) مجاوراً لسوق المدينة ، وهذا ما جعل العامة من أهالى أخميم يطلقون على هذا المسجد إسم « جامع السوق » حيث يطل بواجهته الشرقية على « شارع القيسارية» .

وبدءاً من السطر السابع بالصفحة الثامنة وحتى نهاية الصفحة التاسعة تقدم الوثيقة وصفاً لأبواب المسجد ، وتذكر عددها بأنها ثلاثة أبواب (مسقط ١) ولكن الواقع غير ذلك فالمسجد له بابان رئيسيان فقط هما الباب البحرى جهة شارع الأشراف والمشنب) والباب الشرقى (جهة شارع القيسارية (خريطة ٩١ وكلاهما عبارة عن فتحة باب إتساعها ١,٦٠ متراً وارتفاعها ٢,١٥ متراً (مسقط ٢) يتوج كتفيها من أعلى صفان من المقرنصات تتدلى منهما ذيول هابطة ، ويغلق على فتحة الباب مصراعان من الخشب .

أما الباب الثالث وهو الغربى (جهة مطهرة المسجد) طبقاً لما جاء بالوثيقة (مسقط ١) ليس له وجود حالياً بهذه الواجهة والتى أرجح أنها هدمت تماماً وحلت محلها واجهة أخرى وذلك أثناء إحدى الترميمات العشوائية التى حلت بهذا المسجد

وتبدأ الصفحة العاشرة بالحديث عن مادة بناء المسجد ، فتذكر ان جهاته الأربع بنيت بالحجر النحيت من أعلاه إلى أسفله ، إلا أنها فى الواقع بنيت بالحجر من الخارج وبالطوب المحروق من الداخل .

ومن المعروف أنه قد توفر الحجر الجيرى بكثرة فى مصر بصفة عامة حيث تتكون منه التلال التى تحد وادى النيل ما بين القاهرة واسنا ، كما أنه يوجد فى أماكن متفرقة فى الصعيد فيما بين إسنا وأسوان بصفة خاصة (٦) .

وأرجح أن يكون الحجر الذى أستعمل فى بناء جدران هذا المسجد قد أستجلب من محجرى « العساوية والأحايوه » شرق أخميم (خريطة ٢) .

وتناول السطر السادس من الصفحة العاشرة الحديث عن منبر المسجد محدداً نوع الخشب الذى صنع منه هذا المنبر بالخشب النقى . (٧)

وقد ورد بنفس السطر أيضاً أن المسجد يحوى دكة خشبية ، إلا أنه فى الواقع لا يوجد بالمسجد دكه وربما كانت وأزيلت .

وتتناول السطور الثلاثة الأخيرة من الصفحة العاشرة والسطران الأوليان من الصفحة الحادية عشرة الحديث عن أعمدة المسجد وعددها أربعة وعشرون عاموداً من الحجر (مسقط ١) ذات خمسة أنواع وهى المرمر (٨) والحجر العدسى (٩) والحجر البجمر (١٠) والحجر الهيصم (١١) والحجر الكدان (١٢) . وأرجح أن إستعمال هذه الأنواع الخمسة من الحجر فى أعمدة هذا المسجد يرجع إلى قرب مدينة أخميم من محجرى « العساوية والأحاويه» (خريطة ٢) إذ يمتاز حجر « العساوية» بأنه حجر جيرى صلب صعب المراس لونه رمادى وذو مسام (١٣) وهو من أجود أحجار البناء فى القطر المصرى (١٤) ، فى حين يمتاز حجر « الأحايوة» بأنه حجر جيرى أبيض (١٥) .

ولكن نظراً لتعرض هذا المسجد لكثير من أعمال الترميمات العشوائية ، فقد غلقت هذه الأعمدة بدعامات مبنيه بالطوب تبدأ بقواعد هذه الأعمدة وتنتهى – بالوسائد الخشبية الحاملة لأرجل عقود

بائكات المسجد ، ولكن لحسن الحظ فقد تبقى من أعمدة المسجد الأصلية أعمدة الصحن فقط (لوحة ١) ، ولابد أن عملية تغليف أعمدة المسجد بدعامات بنائية حدثت فى فترة ما بعد سنة ١٩٣٦م وهذا ما يتضح لنا من اللوحة المأخوذة عن « قسم التصوير بهيئة الآثار» والتى تم إلتقاطها سنة ١٩٣٦م .

ويتحدث السطر الثالث والرابع والخامس بالصفحة الحادية عشرة عن سقف هذا المسجد وتصفه بأنه من الخشب النقى المدهون باللون الاخضر والأحمر ، إلا أن سقف هذا المسجد حالياً عبارة عن عروق خشبية تسير من الشمال إلى الجنوب تعلوها ألواح خشبية تسير من الشرق إلى الغرب ويخلو هذا السقف من الألوان .

هذا وقد ورد بالسطرين السادس والسابع بنفس الصفحة إحتواء واجهات المسجد على شبابيك حديد من جهات ثلاث البحرية والشرقية والغربية (مسقط ١) إلا أنه حالياً لا توجد بالواجهة الغربية أية شبابيك (مسقط ٢) ، ومن المرجح أن هذه الواجهة – استبدلت تماماً أثناء إحدى الترميمات التى تمت بالمسجد .

وكل من شبابيك الواجهتين البحرية والشرقية عبارة عن فتحة مستطيلة إرتفاعها ٢,٠٠ متر واتساعها ١,٦٠ متراً تغشيها من الخارج مصبعات حديدية ، ويغلق عليها من الداخل مصراعان من الخشب (مسقط ١ « قطاع أأ»)

ويذكر السطر الثامن بهذه الصفحة أيضاً أن المسجد يحتوى على تسعة عشر طاقة وهو وصف مطابق للواقع الحالى تماماً ، وبيان توزيعها كالتالى :

الواجهة	عدد الطاقات
الواجهة الشرقية	٤ طاقات
الواجهة الشمالية	٤ طاقات
الواجهة الجنوبية	٥ طاقات
الواجهة الغربية	٦ طاقات

وكل هذه الطاقات عبارة عن فتحة مستطيلة إتساعها ٥٠، – مترا وإتفاعها ٠,٩٠ متراً (مسقط قطاع أ– أ) تنتهى من أعلاها بعقد مدبب ، وقد سدت إحدى طاقات الواجهة الشمالية .

كما تذكر الوثيقة أن هذه الطاقات كانت مغشاة بالزجاج الملون ، وقد خلت منه الآن ، ولكن على ضوء بقاء إحدى طاقات « جامع الأمير حسن بأخميم ١١١٦هـ / ١٧٠٤ م» بشكل مكتمل ، وإذا ما إفترضنا أن طاقات هذا الجامع الأخير شيدت على نسق طاقات « جامع الأمير محمد ١٠٩٥ هـ/ ١٦٨٣» نظراً للتشابه الكبير بين جدران كلا المسجدين فإننى أستطيع وضع نموذج لشكل طاقات « جامع الأمير محمد » وذلك كما هو موضح (شكل ١)

ويحدثنا السطر الثالث حتى الخامس بالصفحة الثانية عشرة عن كيفية التوصل إلى مئذنة المسجد (مسقط ٣ – لوحة ٢) والتى تقع بالركن الشمالى الغربى ، حيث نصل اليها عبر فتحة باب بهذه الجهة من داخل المسجد (مسقط ١) .

ثم تصل بنا الوثيقة إلى وصف المطهرة ، محددة موقعها بالجهة الغربية من المنارة (مسقط ١) فتذكر السطور من السادس إلى التاسع بالصفحة الثانية عشر والسطور الأربعة الأولى من الصفحة الثالثة عشر وصف لمحتويات هذه المطهرة ، فورد – بالسطرين السابع والثامن بالصفحة الثانية عشرة والسطر الرابع بالصفحة الثالثة عشرة أن هذه المطهرة تحتوى على حنفيه (١٦) معدة لوضوء السادة المقلدين « للإمام أبى حنيفة النعمان » مركب بها ثلاثة لوالب نحاس (١٧) ، وأن هذه المطهرة نفسها تحتوى كذلك على فسقية (١٨) معدة لوضوء الشافعية والمالكية ، وبذلك توضح الوثيقة أن هناك فارقاً بين كل من الحنفيه والفسقية وإن كانتا تؤديان وظيفة واحدة وهى الوضوء ومما يؤكد هذا الفارق ورود كلمتى الفسقية والحنفية بالسطر الأخير من الصفحة الثالثة عشرة .

وتستمر سطور الصفحتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة فى وصف باقى محتويات المطهرة وأنها كانت مسقوفة بسقف يرتكز على أربعة أعمدة حجرية (مسقط ١) ، كما أنها كانت تحتوى على ثمانية بيوت أخلية (١٩) بكل منها حوض من الحجر للإستنجاء (مسقط ١) بالإضافة إلى بئر ماء تعلوها ساقية من الخشب .

ويفيدنا السطرين الثانى والثالث بالصفحة الرابعة عشرة أن الساقية كانت تشتمل على حوش لربط الثيران وخزين التبن (مسقط ١) ويشير السطر الخامس بنفس الصفحة إلى كيفية الوصول إلى المطهرة حيث تصل إليها عبر باب المسجد بالواجهة الغربية (مسقط ١)

وبدءاً من السطور الثلاثة الأخيرة من الصفحة الرابعة عشرة وحتى السطر الخامس من الصفحة السابعة عشر – تتناول الوثيقة ذكر ثلاث قطع أرض طين صالحة للزرع والزراعة مجاورة لبعضها بولاية الأخميمية موضحة حدودها الأربع.

وان كانت الوثيقة لم تحدد مساحات هذه القطع الثلاث ، إلا أنها أشارت إلى بيان توزيع ريعها والذى يبلغ ١٩٣ أردب قمح سنويا .

ومن خلال إجمالى ريع هذه القطع الثلاث من الأرض نستطيع تحديد مساحتها وذلك أنه إذا إفترضنا أن إنتاج الفدان ثمانية أرادب من القمح فتبلغ مساحات هذه القطع الثلاث ٨س ١٢ط ٢٤ف .

وإذا إفترضنا أيضاً أن هذه القطع الثلاث متساوية المساحات فإن مساحة كل منها تكون ١٣س ١ط ٨ف .

هذا وقد قصرت الوثيقة ريع هذا الوقف على محصول القمح سنوياً .

ثم تبدأ الوثيقة من الصفحة الثالثة والعشرين حتى الصفحة الرابعة والثلاثين فى بيان توزيع هذا الوقف وذلك كما هو موضح بالجدول المرفق بنهاية الوثيقة .

ونلاحظ فى الفقرة رقم ١٤ بهذا الجدول وظيفة « ملاء السبيل» على الرغم من أن الوثيقة لم تذكر شيئاً عن هذا السبيل ، ولكنى أرجح أنه كان يشغل الركن الشمالى الشرقى من المطهرة ، وبالتالى يقع هذا السبيل مجاوراً للمئذنة من الجهة الغربية مرتداً عنها بقدر بروز قاعدة المئذنة ، لذا فمن المرجح أن هذا السبيل كان يحوى – شباكين لتسبيل الماء وكلاهما يطل على « شارع الأشراف»

والمشنب » وذلك بحكم طبيعة موقعه بهذه الجهة (مسقط ١) بالإضافة إلى شباك ثالث جهة المطهرة لشرب المصلين أثناء تواجدهم بها .

ومن صفحة أربعة وثلاثين حتى صفحة أربعة واربعين تتحدث الوثيقة عن شروط نظر الوقف .

ومن صفحة أربعة وأربعين حتى صفحة سبعة وأربعين خاتمة الوثيقة .

ومن صفحة سبعة وأربعين حتى صفحة إثنتين وخمسين ، تتناول الوثيقة رجوع الواقفين عن الوقف والتنازع بشأنه والحكم بثبوته .

ثم تزيل الوثيقة بتاريخ صدورها فى ١٧ رجب سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٣ م.

هكذا – لعبت هذه الوثيقة دوراً بارزاً فى كشف حقيقة هذا المسجد وذلك على النحو التالى :

أولاً : حددت تاريخ بناء المسجد بسنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٣م ، بعد أن كان هذا التاريخ مجهولاً تماماً إلى حين نشر هذه الوثيقة .

ثانياً : أوضحت التصميم المعمارى الذى كان عليه المسجد قبل أن تحل به الترميمات العشوائية التى أفقدته معالمه الأصلية ، وعلى أساسها نستطيع إرجاع المسجد إلى حالته الأصلية وخاصة الجدار الغربى (جهة المطهرة) والذى أصبح حالياً يمثل بناءاً متنافراً بالنسبة لشكل الواجهات الأخرى للمسجد .

ثالثاً : أفادتنا الوثيقة فى الوقوف على الكتل المعمارية الملحقة بهذا المسجد كالسبيل والساقية وحوش ربط الأنوار وخزين التبن .

رابعاً : حددت النسب الصحيح « للأمير حسن الأخميمى» ، والذى من خلاله نستطيع تصور الكتابات المتآكلة بالركن الشرقى لقبوة المحراب الرئيسى بالمسجد .

* * *

« حواشى البحث »

١) الجناب : من الألقاب الأصول التى بدأ إستعمالها فى المكاتبات ، إذ أنه كان يعبر عن الرجل بغنائه وما قرب من محتله من باب التعظيم (حسن الباشا : الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ومكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨م – ص ٢٤١) .

٢) ما بين القوسين مستنتج من الوثيقة .

٣) ورد هذا التاريخ ضمن كتابات سقف جامع « الأمير حسن بأخميم بالبلاطة الرابعة إلى اليمين من صحن المسجد، كما أنه فى هذا التاريخ أيضاً ظهر إسم « الأمير حسن الأخميمى » بدفاتر عزبان وتذاكرهم (صلاح هريدى : دور الصعيد فى مصر العثمانية – دار المعارف سنة ١٩٨٤ – ص ٢٠٤) .

٤) ورد هذا التاريخ ضمن كتابات نص تأسيس مسجد « الأمير حسن » بأخميم وذلك على – إفريز من الحجر بأعلى المحراب بالقرب من سقف المسجد .

٥) ورد هذا التاريخ على لوح مستطيل من الحجر طوله ١,٥٠ متراً وعرضه ٠,١٥ متراً ، كما ورد أيضاً على شاهد قبر من الرخام ثمانى الأضلاع طوله ١,٢١ متراً ، وكلاهما ضمن النصوص الكتابية على الحجر والمحفوظة ضمن « عهدة مسجد الأمير حسن بأخميم » وقد قمت بنشرها فى رسالتي للماجستير وموضوعها « مساجد مصر العليا الباقية من الفتح العربى حتى نهاية العصر العثمانى – دراسة أثرية معمارية » بكلية الاثار – جامعة القاهرة سنة ١٩٨٦ – المجلد الأول صـ ١٦٥ ، والمجلد الثالث لوحة ٢٠٤ .
وهذا ينفى تماماً ما ذكره « أحمد كتخذا عزبان » من أن وفاة « الأمير حسن الأخميمى» كانت سنة ١١٢٨هـ / ١٧١٥م (احمد كتخذا عزبان : كتاب الدرة المصانه فى أخبار الكنانه – نسخة مصورة عن المتحف البريطانى بلندن – مكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٦٣٨٨ – حـ ١ – ورقة ٤٠٢١٧ .

٦) الأدفوى : الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد – تحقيق سعد محمد حسن – الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٩٦ م – ص ٣٢ ، ألفريد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين – ترجمة دكتور زكى إسكندر ، القاهرة ١٩٤٥م – ص ٩٢ .

٧) الخشب النق : من أخشاب أشجار الصنوبر ، ومن خشب الموسكى ، وقد وجدت زراعة الغابات بالوجه القبلى فى البهنسا والأشمونين وأخميم وقوص ، وذلك منذ العهد الأيوبى حيث كانت الدولة تفرض رسوماً على تجارة الأخشاب المأخوذة من هذه الغابات لغرض البناء (ابن مماتى : قوانين الدواوين – القاهرة ١٩٤٣ ص ١٧ – ١٨) حسنين ربيع : النظم المالية فى مصر فى زمن الأيوبيين – القاهرة ١٩٦٥ – ص ٨ – ٢٠ .

٨) المرمر : يتألف من كوبونات الكالسيوم المتبلورة ، واستخدم منذ عصور الأسرات الأولى حتى عهد الأسرة التاسعة عشرة على الأقل كمادة بناء مساعدة ومنه نوع أبيض نصف شفاف يوجد بكميات قليلة فى محجر يقع على مسافة قدرها نحو ثلاثة أميال خلف « الواديين » وهو واد متفرع من وادى الملوك على الشاطئ الغربى للنيل تجاه الأقصر (لوكاس : المرجع السابق – صـ ١٠٢ – ١٠٤) .

٩) الحجر العدسى : ربما يقصد به « الجرانيت الوردى الأشهب القاتم جداً » والذى يوجد بأسوان وأستعمل قديماً فى جميع الأغراض وفى معظم الحالات .
(لوكاس : المرجع السابق – ص ١٠٠) .

١٠) الحجر البجمر : لم أستدل على تسمية هذا النوع من الحجر ، ومن المرجح أنها تسمية غير علمية لأحد أنواع الجرانيت .

١١) الحجر الهيصم : لم أستدل أيضاً على تسمية هذا النوع من الحجر .

١٢) الحجر الكدان : أحد أنواع الأحجار الجيرية ويختلف لونه ما بين الأبيض الناصع والأصفر والرمادى ، وقد وردت هذه التسمية كثيراً فى وثائق العصر المملوكى .

١٣) هيوم : أحجار البناء الموجودة فيما جاور القاهرة وفى الوجه القبلى تعريب على فهمى الألفى – مصر ١٩١٠ م – ص ٨١ – ٨٦ .

١٤) هيوم : المرجع نفسه صـ ٨٨

١٥) هيوم : المرجع نفسه صـ ٨٢ – ٨٣

١٦) حنفية : من المرجح أنه يقصد بها جدار مرتفع عن الأرض قليلا يتوسط حوض ، ومركب بهذا الجدار صنابير الماء للوضوء .

١٧) لوالب نحاس : ربما يقصد بها أحد أنواع الصنابير التى تستعمل فى الميضات للوضوء ولكن يحصل منها على الماء عن طريق الضغط عليها إلى أسفل وصنعت هذه اللوالب من النحاس لأن مادته شديدة التحمل .

١٨) الفسقية : حوض معد لماء الوضوء والإغتسال ، وله أشكال متعددة منها المربع والمستطيل والمثمن .

١٩) بيوت أخلية : بيت الخلاء أو بيت الراحة أو الكنيف – جميعها تدل على الحمام الصغير بدورات المياه .

* * *

مراجع البحث

١) إبن مماتى (أبو المكارم أسعد بن مهذب بن مينا – ت ٦٠٦ هـ) :
قوانين الدواووين – القاهرة ١٩٤٣ م.

٢) أحمد كتخذا عزبان : كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة – مخطوط نسخة مصورة عن المتحف البريطانى بلندن – مكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٦٣٨٨

٣) الأدفوى (كمال الدين جعفر بن ثعلب – ت ٧٤٨هـ) :
الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد – تحقيق سعد محمد – حسن مراجعة الدكتور طه الحاجرى – الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م .

٤) ألفريد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين – ترجمة الدكتور زكى إسكندر القاهرة ١٩٤٥م.

٥) جمال عبد الرءوف عبد العزيز : مساجد مصر العليا الباقية من الفتح العربى حتى نهاية العصر العثمانى – دراسة أثرية معمارية – رسالة ماجستير بكلية الاثار جامعة القاهرة – عام ١٩٨٦م .

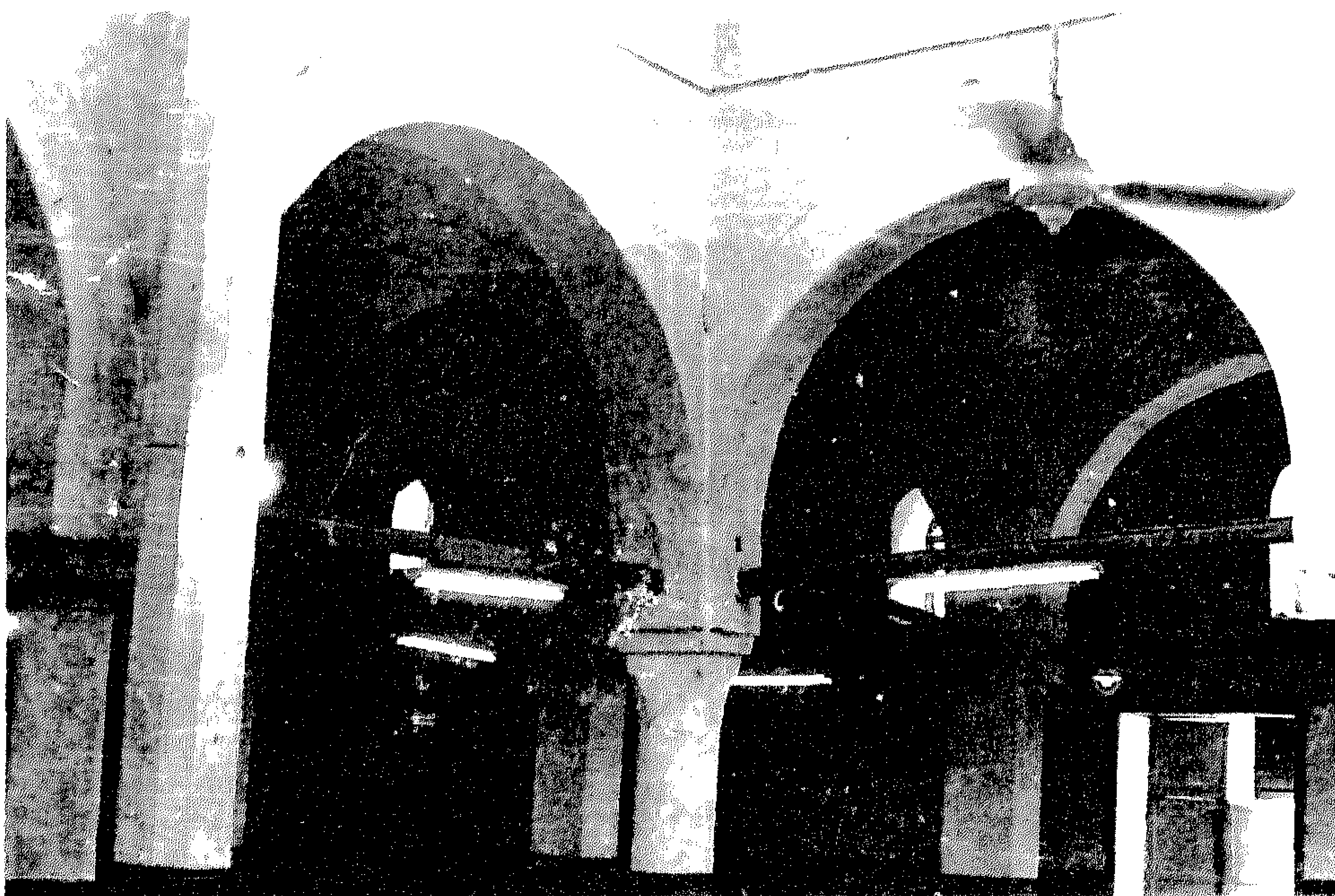
٦) حسن الباشا (أستاذ دكتور) : الألقاب الرسلامية فى التاريخ والوثائق والاثار – مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨م .

٧) حسنين ربيع (أستاذ دكتور) : النظم المالية فى مصر فى زمن الأيوبين ، القاهرة ١٩٦٥م

٨) صلاح هريدى (دكتور) : دور الصعيد فى مصر العثمانية – دار المعارف ١٩٨٤م .

٩) و. ف هيوم : أحجار البناء الموجودة فيما جاور القاهرة وفى الوجه القبلى – تعريب على فهى الآلفى – مص ١٩١٠م .

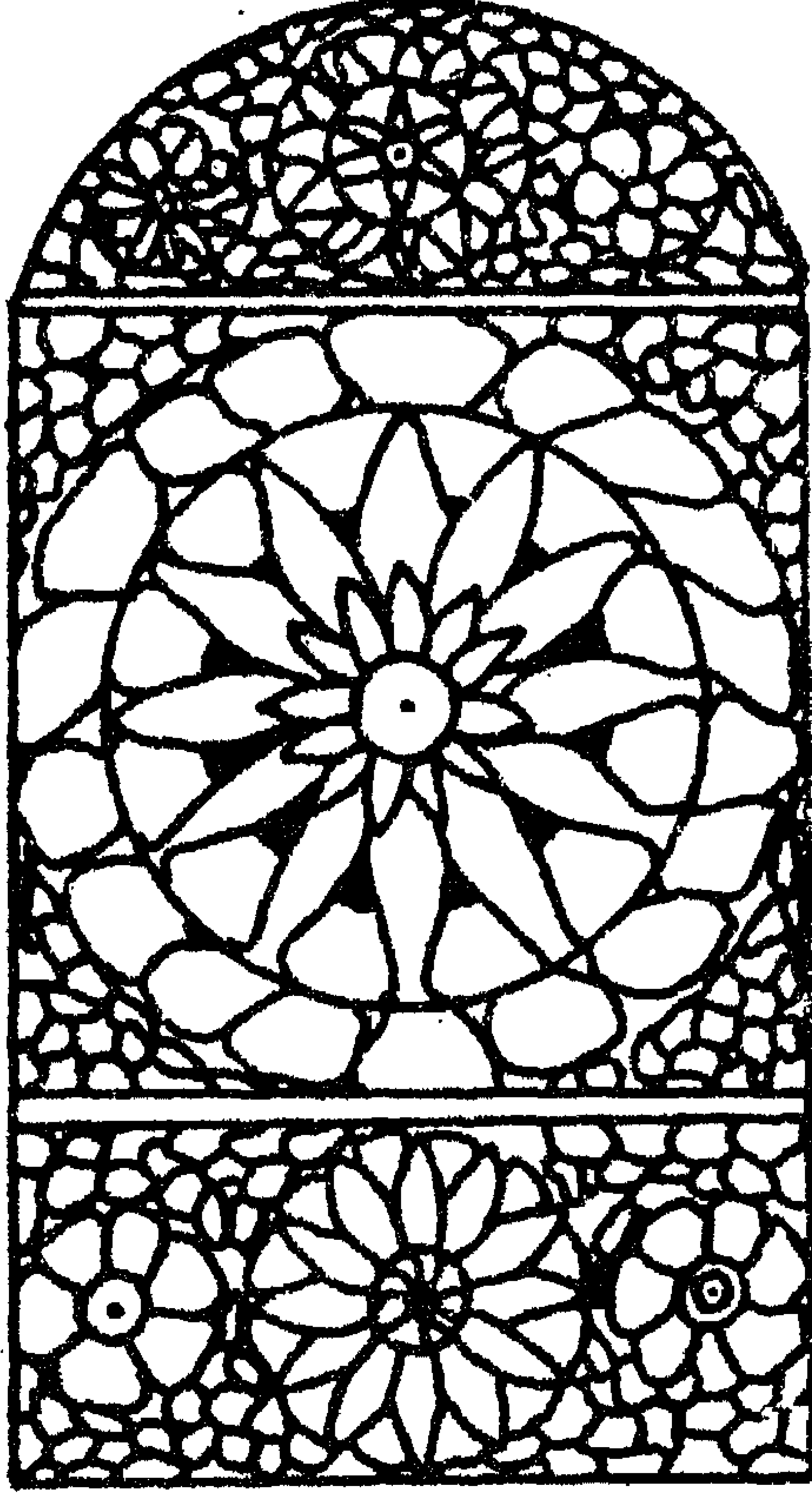
* * *



لوحة رقم (١) أخميم :- جامع الأمير محمد « السوق » ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٣ م « منظر داخلى »



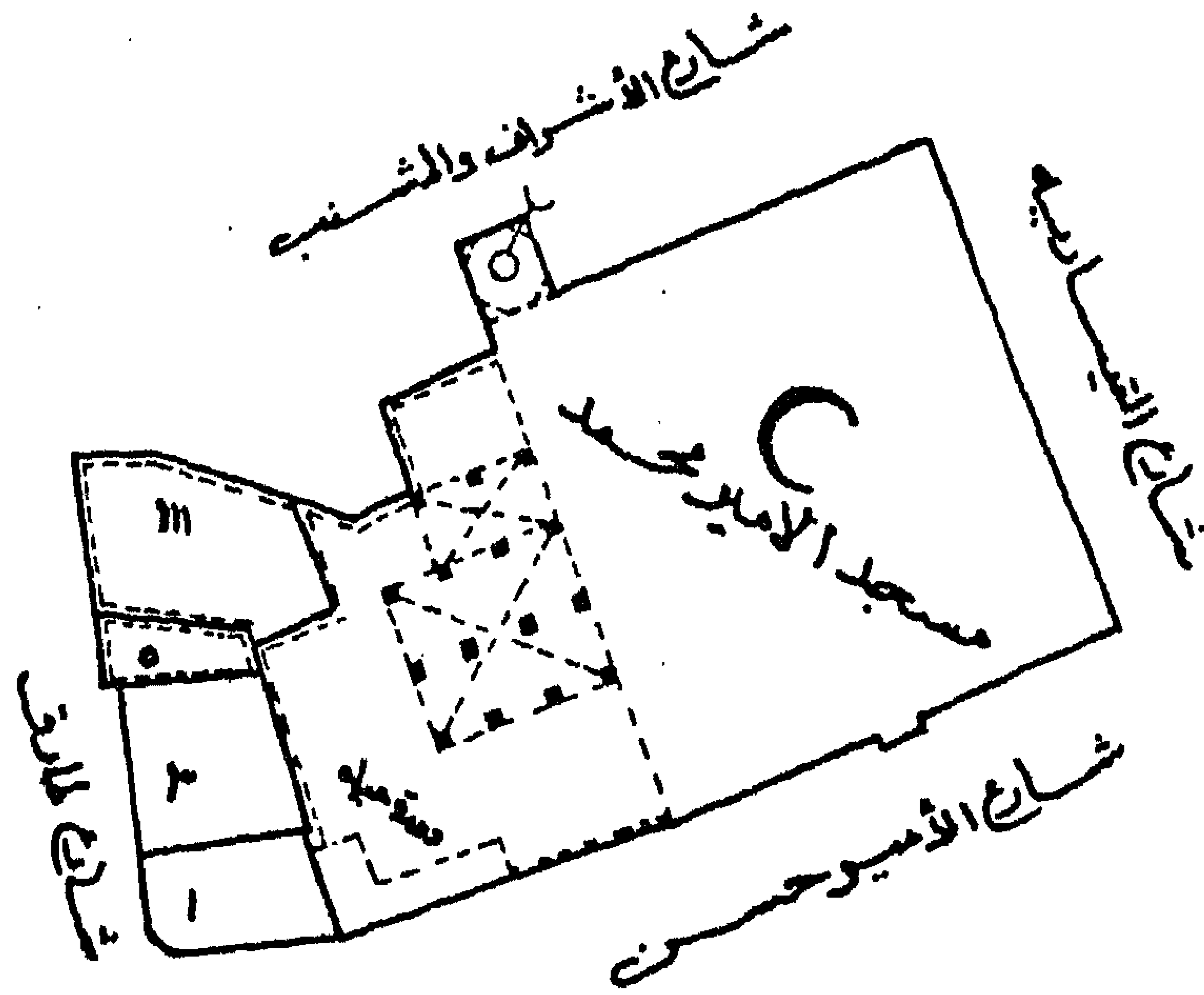
لوحة رقم(٢) أخميم: - جامع الأمير محمد « السوق » ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٣ م «المئذنة»

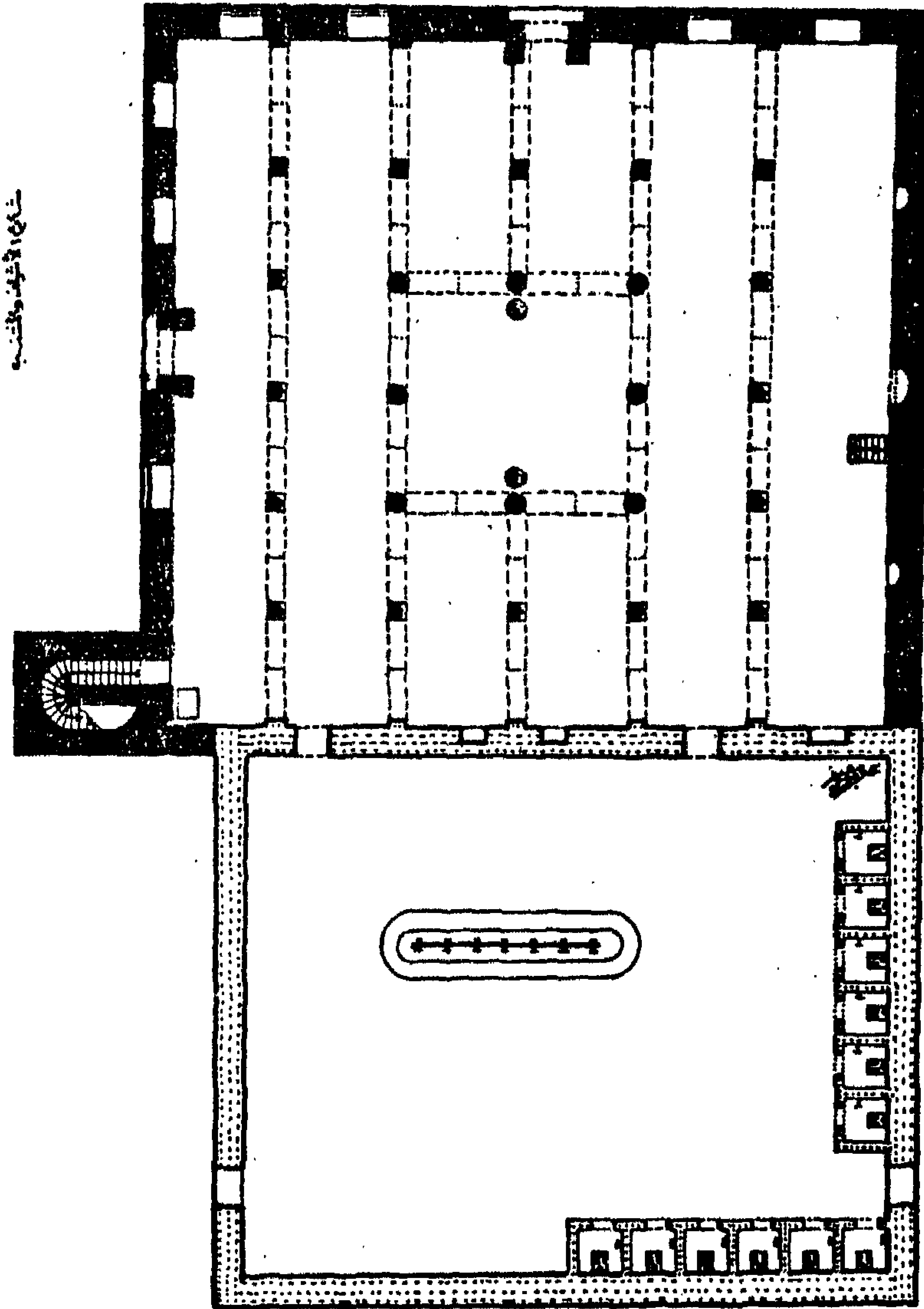


شكل رقم (١)
أخميم:– نافذة جصية بجامع الأمير حسن
١١١٦ هـ/١٧٠٤م

-١-

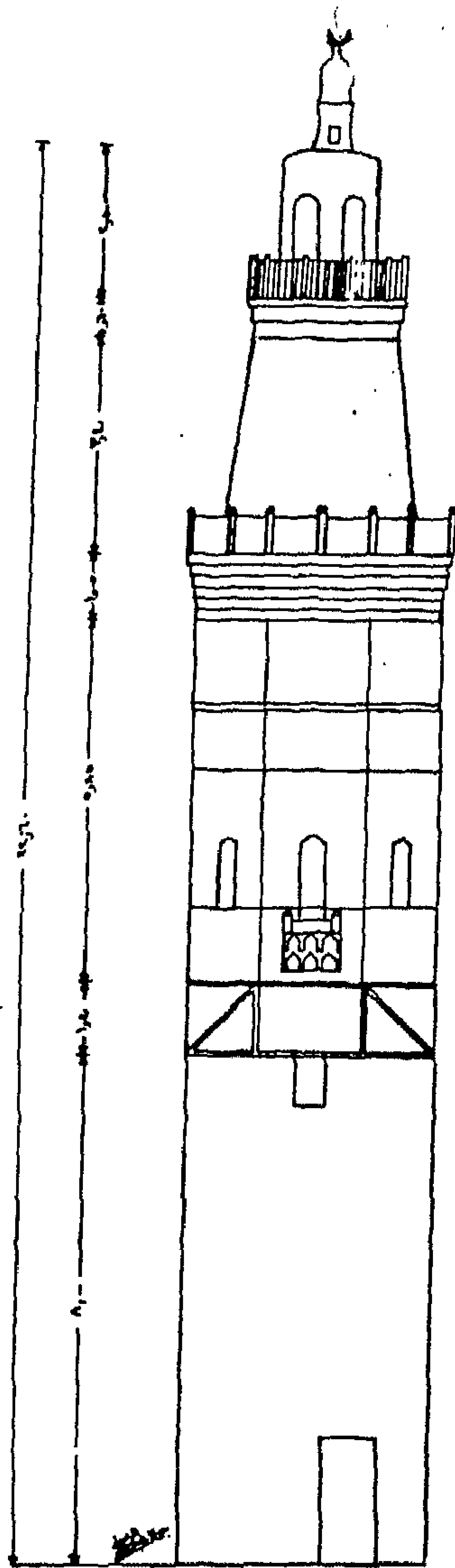
١-الهيئة المصرية العامة للمساحة
مصر - سلسلة المدن
أخميم : - محافظة سوهاج - مسجد الأمير محمد
منطقة رقم ١١ (مسحت عام ١٩٧٠)
مقياس الرسم : ١ : ٥٠٠

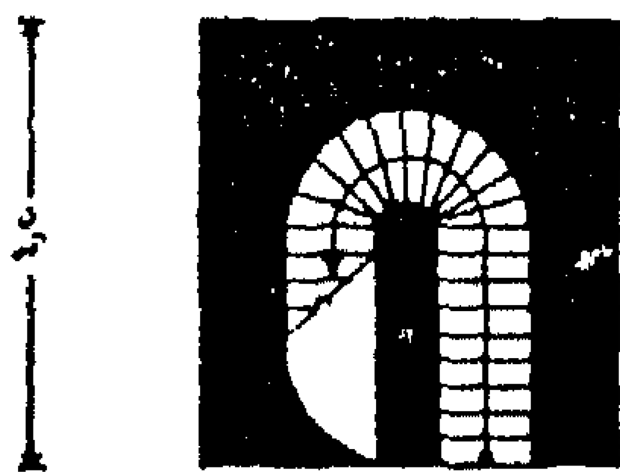




٢- آخميم : - جامع الأمير محمد «جامع السوق» ١٠٩٥هـ/١٦٨٣م
مسقط أفقى من الطبيعة

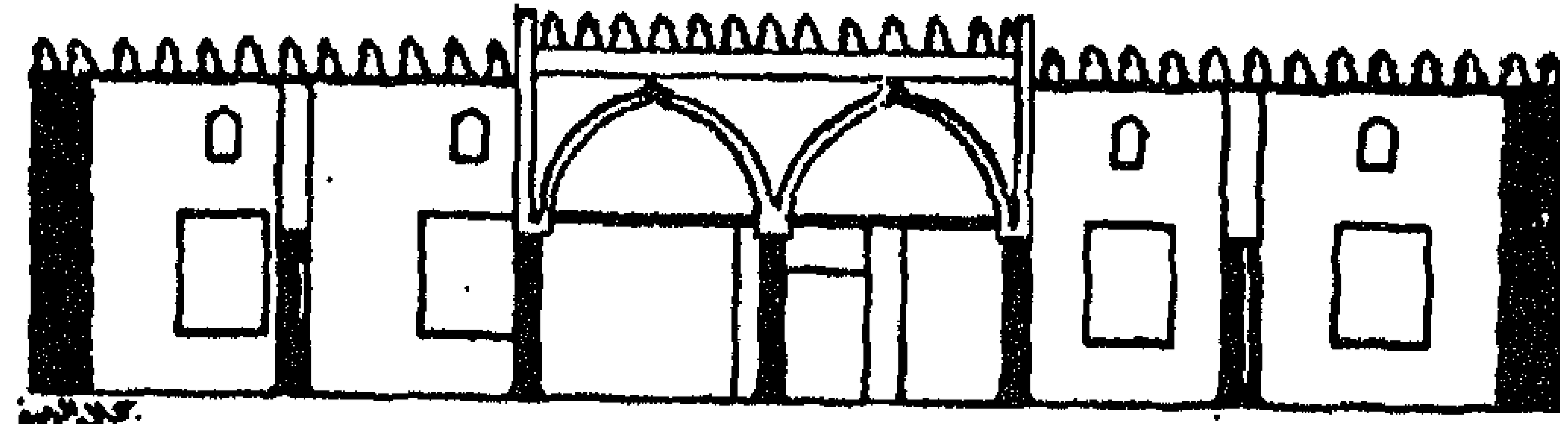
جدران أصلية
تجديدات حديثة

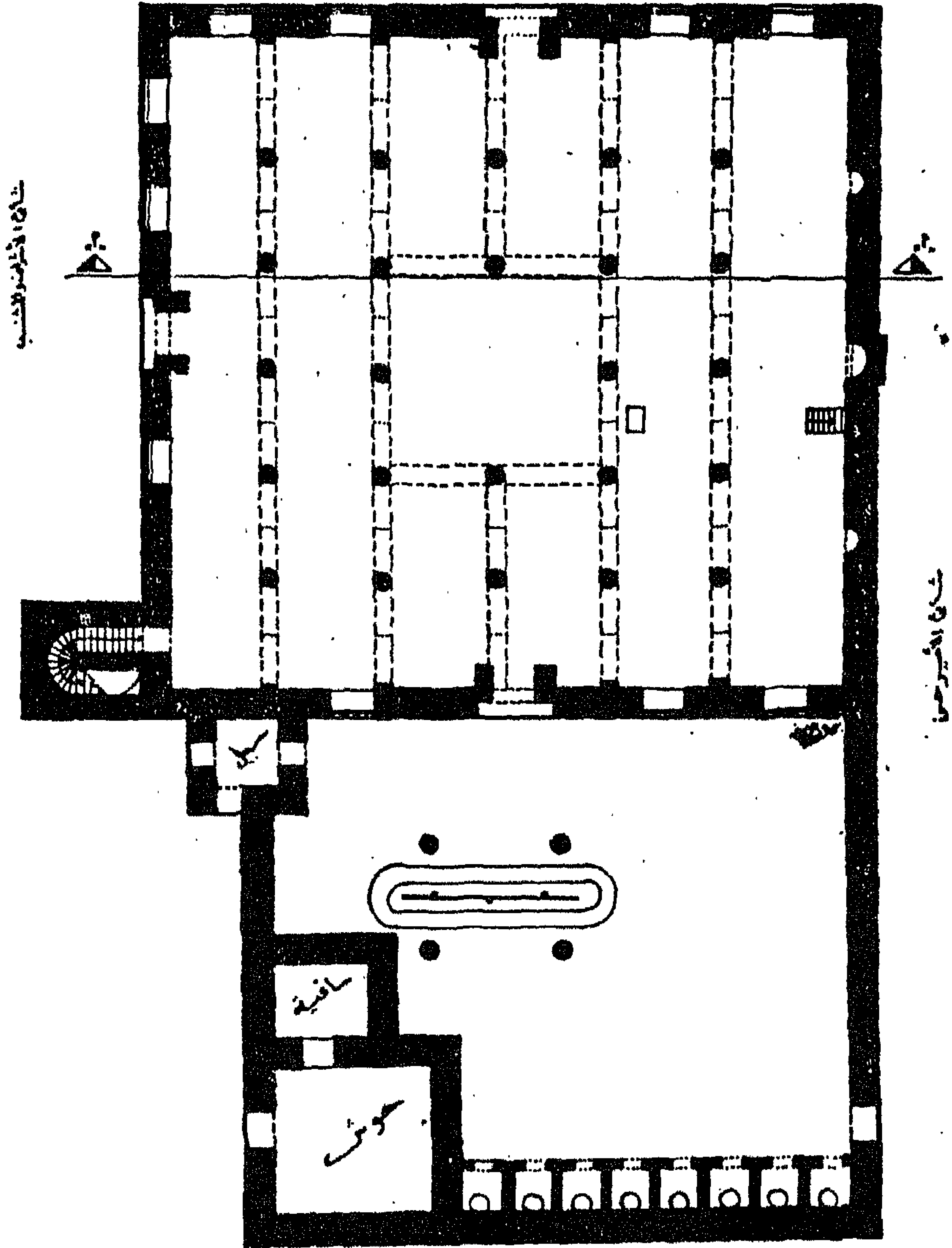




٣- أخميم : - مئذنة جامع الأمير محمد ١٠٩٥ هـ /١٦٨٣م
مسقط أفقى ومسقط رأسى
من الطبيعة

-١-





أخميم :- جامع الأمير محمد «جامع السوق» ١٠٩٥ / ١٦٨٣م
مسقط أفقى وقطاع «أ» «أ» طبقاً لحجة وقف المسجد رقم ١٣٢٥ «أرشيف وزارة الأوقاف»

أبنوب
أسيوط
أبوتيج
الغنايم
البداري
طهطا
الخزندارية
جبل الهريدي
سوهاج
أخميم
العساوية
جرجا
البلينا
نجع حمادي
دشنا
المراشدة
قنا

مسطحات المحاجر بالوجه القبلي
عن
د. ف. هيوم: أحجار البناء.

حول العنصر الثالث لجريمة تهريب الآثار

عميد / حسين يوسف صديق

مقدمـــة

لاشك أن موضوع سرقات الآثار من الموضوعات التى تشغل بال الدول ذات الحضارات خاصة الدول النامية منها .

وترجع أهمية هذا الموضوع لعدة أسباب أهمها :

- إن سرقات الآثار لاتقتصر على مجرد كونها سرقة محلية أى يظل فعل السرقة ونتائجه داخل الاطار المحلى للدولة ، بل إن الامر يتجاوز ذلك فالسرقة فى هذه الدول فعل تمهيدى لتهريب الآثار الى خارج الدولة حيث يتم عرضها وتداولها فى الاسواق العالمية خاصة بالدول الغنية فى أوروبا وأمريكا .

- يخطط لسرقة الآثار عصابات دولية تتمتع بإمكانيات مادية وعلمية ضخمة وينتمى أفرادها لدول توفر لها أسباب العلم والتقدم والنفوذ بلا حدود .

- الدول ذات الحضارات معظمها دول فقيرة عاشت تحت ظل الاستعمار زمنا طويلا وأستقلت حديثاً، وما زالت تعانى من مشاكل اقتصادية واجتماعية وثقافية كبيرة ، ولم تتمكن بعد من اللحاق بركب التقدم العلمى الحديث .

لذلك سعت هذه الدول الى تعزيز حراستها على آثارها وتشديد العقوبات فى قوانينها على جرائم سرقات الآثار وتهريبها الا أنه يبدو رغم ذلك أن هذه الاجراءات لم تكن نتائجها مرضية تماما بدليل أن الاسواق العالمية مازالت تستقبل آثارا مسروقة من هذه الدول ، وكذلك تزايد عدد المتاحف الخاصة بها ، بل أن كثيرا من أثرياء أوروبا وأمريكا أصبحوا يفضلون الاحتفاظ بأجزاء كبيرة من ثرواتهم فى صورة مقتنيات أثرية تزيد قيمتها يوما بعد يوم مما يجعلها استثمارا جيدا لهذه الاموال تفوق الارباح التى تعطيها البنوك على توظيف هذه الاموال .

وإذا أمعنا النظر فى جريمة سرقة الآثار بقصد التهريب نجد أن عناصرها ثلاثة : السارق ، والشئ المسروق ، والمشترى فى السوق الخارجى ، فاذا أستطعنا التحكم فى أى عنصر من هذه العناصر الثلاثة أمكن السيطرة على جريمة السرقة بقصد التهريب ، من هنا كان اهتمام الدولة بتعزيز الحراسة على الآثار فى محاولة للسيطرة على الشئ موضوع السرقة ، وكذلك تشديد العقوبات على جرائم سرقات الآثار محاولة للسيطرة على السارق بارهابه بالعقوبة حتى لايقدم على السرقة ، ثم معاقبته بالفعل إذا أقدم عليها حتى يكون فى العقوبة ردعا له ودرسا لغيره يمنعه من هذا السلوك .

أما العنصر الثالث وهو المشترى بالسوق الخارجى ، فلم توليه الدولة اهتماما لكونه من غير رعاياها ونشاطه خارج سيطرة الدولة وسيادتها .

لذلك سنحاول فى موضوعنا هذا القاء الضوء على هذا العنصر الثالث الذى تقوم عليه جريمة سرقة الآثار بقصد تهريبها وهو المشترى بالسوق الخارجى محاولة للكشف عن وسائل تستطيع بها الدولة التأثير فى هذا العنصر مما يساعد الاجراءات الداخلية من حراسة وقانون فى مكافحة جرائم سرقات الأثار وتهريبها الى الخارج .

وسوف نتناول موضوعنا هذا فى فصلين :

الفصل الأول : نتناول فيه جريمة سرقة الآثار وتهريبها لنتبين مدى ارتباطها بالسوق الخارجى ، ومدى انغماس العنصر الاجنبى فيها .

الفصل الثانى : نطرح فيه تصورنا لكيفية التأثير فى السوق الخارجى أو المشترى الاجنبى ، مما يساعد الاجراءات الداخلية للدولة فى سيطرتها على هذه الجريمة .

* * *

الفصل الأول

مدى ارتباط جريمة سرقة الآثار وتهريبها
بالسوق الخارجى «المشترى الاجنبى»

أولا نبذة عن سرقات الآثار وتهريبها :

سرقات الآثار لم تتوقف فى أى وقت من الاوقات ، بل أنها كانت دائما هدف للصوص الآثار . «وتوضح دراسة قام بها الجهاز المركزى للمحاسبات ونشرتها جريدة الاهرام فى ١٩٨٥/٩/٢ أن عدد السرقات التى تعرضت لها الآثار منذ عام ١٩٦٠ تبلغ ٦٨٦ سرقة ويتركز معظمها فى منطقة آثار مصر الوسطى إذ بلغت نسبة حوادث السرقة بها ٤٩٫٥ ٪ من اجمالى عدد السرقات ، أى ما يقرب من نصف السرقات التى تمت تليها مناطق آثار القاهرة والجيزة وسقارة ٣٣ ٪» .

ولم يتورع الاجانب عن استخدام كافة الاساليب للحصول عليها ونقلها الى بلادهم ، وكانت معظم هذه الاساليب غير شريفة وغير مشروعة . فمثلا قام «درفينى» قنصل ايطاليا لدى مصر فى القرن الماضى بالعمل على سرقة تمثال رمسيس الثانى من الاقصر حيث يوجد الآن بمتحف «تورين» بايطاليا و«درفينى» أيضا هو الذى باع لنفس المتحف أكبر مجموعة أثرية خرجت من مصر .

وهناك أيضا فى الخارج مئات المجموعات الأثرية التى سرقت من مصر وخرجت بطرق غير مشروعه وموجودة الان بمتحف المتروبوليتان ، وبروكلين بالولايات المتحدة ، ومتحف البرينسن بانجلترا ، ومتحف برلين الشرقية . ولم تسلم الآثار بأنواعها من السرقة فمثلا :

١ ـ الآثار الثابتة (المعابد والمقابر) :

لقد تعرض معبد «دندره» بقنا الى العديد من السرقات حتى وصلت عدد القطع المسروقة الى ستين قطعة يبلغ سمك بعض القطع عند استخراجها من الجدران أكثر من متر . وقد ظهرت احدى هذه القطع بمتحف فى اليابان مؤخرا .

كما قام الألمان بسرقة أجزاء من جدران معبد سيتى الأول فى الرديسية «معبد الكنائس» . كما سرقت أجزاء من معبد أمنحتب الثالث فى الكاب ، كما تعرض معبد «حورمحب» فى السلسلة للسرقة حيث قام اللصوص بسرقة ست أمتار مربعة من الجدران .

كما تعرض عدد كبير من المقابر للسرقة فقد سطا اللصوص على مر ست سنوات متتالية على مقبرة طيبه حيث قطعوا أجمل مناظر المقبرة .

وقد دلت التحقيقات على أنه لايقل عن تسعة وثلاثين مقبرة قد تعرضت للسرقة ، كما تعرضت أجزاء عديدة من مقبرة «ون أمون» من عهد أمنحتب الثالث للسرقة .

كما سرقت عدة لوحات من المقبرة «٨٧» بالبر الغربى بالاقصر .

كما اعتدى اللصوص على احدى مقابر دير المدينة وعلى معبد تحتمس الثالث . كما لم تنجو منطقتى ممفيس والجيزة من السرقات فسرقت لوحتان من مقبرة «حتبكا» بسقارة حيث ظهرت إحدى اللوحتين بعد ذلك بمتحف سان فرنسيسكو بالولايات المتحدة .

كما سرقت مقابر تل العمارنة حيث استولى اللصوص على مائة وخمس وأربعين تمثالا نادرا لأخناتون وزوجته نفرتيتى وبناته حيث هربت بعد ذلك الى الولايات المتحدة الامريكية .كما سرقت لوحتان من «دير الجبراوى» بأسيوط ، حيث ظهرت بعد ذلك فى متحف بوسطن للفنون الجميلة بالولايات المتحدة الامريكية .

٢ ـ الآثار المنقولة (بالمتاحف والمخازن) :

لقد سرقت عدة قطع من مجموعة يونيس من المتحف المصرى منذ ثلاثين عاما ، كما سرقت عصا «توت عنخ آمون» من المتحف المصرى حيث عثر عليها بعد ذلك بسنوات ولكن دون الطبقة الذهبية التى كانت تغطيها .

أما متحف أسوان فقد سرق مرتين ، المرة الاولى سرق منه عقد ثمين عثر عليه بعد ذلك فى النوبة والمرة الثانية سرق منه حوالى ١٧ قطعة .

كما سرق خمس قطع من متحف الفن الاسلامى .

كما قام اللصوص بسرقة مخازن سقارة عدة مرات وسرقة مخازن منطقة الاهرام مرتين .

كما سرق رأس تمثال للاله آمون من أمام مقر البعثة الفرنسية بصان الحجر بالشرقية ، حيث ظهر بعد ذلك فى احدى محلات تجارة الآثار بباريس .

كما سرق تمثال للوزير «باسر» من منطقة سقارة حيث ظهر بعد ذلك بمتحف هلدسهايم بألمانيا الغربية .

٣ ـ الأراضى الأثرية

والسرقة من الاراضى الاثرية تتم عن طريق عمل حفريات بحثا عن الآثار ، وهذه الحفريات تتم خلسة بعيدا عن أعين السلطات .

ولقد تعرضت المنطقة الأثرية بالمطرية (القاهرة) لمثل هذه الحفريات وقد ضبط مقاول بعد إستخراجه سبعة وتسعين تمثالا .

كما تعرضت منطقة المنيا لسطو عصابات مسلحة كانت تبحث عن الآثار ، كما تعرضت المنطقة الأثرية باللاهون «الفيوم» وأبوصير الملق (بنى سويف) وياقوت وبويط ، والحسينية لمثل هذه العمليات . هذا عن المناطق الأثرية المعلومة لهيئة الآثار والمحددة على الخرائط المساحية ، أما عن الاراضى الاثرية التى خارج الزمام فلو بحثت حالتها فقد يتبين أنها تعرضت لكثير من السرقات .

ثانيا الصلة بين الاجانب وسرقات الآثار :

١ ـ بمراجعة قضايا تهريب الآثار التى تم ضبطها بمعرفة سلطات الجمارك بالموانى والمطارات

تلاحظ الاتى :

- في عام ١٩٧٢ تم ضبط سائح لبنانى الجنسية بمعرفة جمرك ميناء القاهرة الجوى ومعه كميات من الآثار النادرة يقوم بتهريبها الى الخارج .

- وفى عام ١٩٧٦ تم ضبط سائح أمريكى الجنسية بمعرفة جمرك ميناء القاهرة الجوى ومعه كميات من الآثار النادرة يحاول تهريبها الى الخارج .

- فى عام ١٩٧٧ تم ضبط سائح يونانى الجنسية بمعرفة جمرك ميناء الاسكندرية البحرى ومعه كمية كبيرة من الآثار يحاول تهريبها الى الخارج .

- كما تم فى عام ١٩٧٧ ضبط سائح المانى الجنسية بمعرفة جمرك ميناء القاهرة الجوى وهو يحاول تهريب كميات من الآثار النادرة الى الخارج .

- كما تم فى عام ١٩٧٧ ضبط سائح ايرانى الجنسية بمعرفة جمرك ميناء القاهرة الجوى وهو يحاول تهريب بعض الآثار الاسلامية الى الخارج .

- وفى عام ١٩٧٨ تم ضبط سائح المانى الجنسية بمعرفة جمرك ميناء القاهرة الجوى وهو يحاول تهريب كمية كبيرة من الآثار داخل أربع حقائب سفر كبيرة الى الخارج .

- وبتاريخ ١٩٨٥/٣/٨ أحبط رجال جمرك مطار القاهرة محاولة لتهريب ٧١ قطعة أثرية يرجع تاريخها الى العصور الفرعونية واليونانية والقبطية قام بها رئيس طاقم الضيافة بالطائرة الهولندية المتجهة الى أمستردام . حيث كان يضعها فى أربع حقائب كبيرة الحجم وصندوق من الكرتون .

ويلاحظ من الامثلة السابقة الاتى :

- أن هذه أمثلة متفرقة مرجعها أخبار الصحافة ، حيث أنه لايوجد أرشيف منظم لمصلحة الجمارك لاثبات هذا النوع من القضايا . وعلى هذا فهذه الحالات مجرد أمثلة وليست بيانا أحصائيا وافيا .

- إن المضبوطين جميعا أجانب قدموا الى البلاد على سبيل السياحة .

- اجراءات فحص حقائب السائحين سواء القادمين أو المسافرين فى جمارك الموانى والمطارات تتمتع بتسهيلات خاصة تشجيعا للسياحة ، بحيث أن ما يتم فحصه من حقائب المجموعات السياحية بمعرفة سلطات الجمرك لايزيد عن ١٠ ٪ من مجموع حقائبهم .

من هذا يتبين أن الحالات المضبوطة هى نتيجة لفحص حقائب مالا يزيد عن ١٠ ٪ من مجموع الحقائب أو بمعنى آخر أن هناك مالا يقل عن ٩٠ ٪ من حقائب المجموعات السياحية لم تفحص وسافرت الى الخارج دون تفتيش .

- واذا أضفنا الى ماتقدم عدم المام رجال الجمارك بآثارنا وعدم استطاعتهم التفرقة بينها وبين التحف الفنية المقلدة للآثار والمنتشرة فى الكثير من أسواقنا كسوق خان الخليلى خاصة اذا كان السائح يحمل مبايعة من محل تجارى تفيد أن ما يحمله تحف مقلدة مع عدم دراية كثير من رجال الجمارك لتعليمات هيئة الآثار التى تقضى بأن يحمل هذا السائح خطاب معتمد من هيئة الآثار يفيد بأن مامعه تحف مقلدة وليست أثرية .

- وهكذا نجد أنه من اليسير تهريب أثارنا الى الخارج ضمن المجموعات السياحية الاجنبية دون محاولات الخداع التى يلجأ اليها البعض من صناعة تحف مقلدة من الجبس والواضح عليها التقليد تماما بالعين المجردة وتكون مفرغة من الداخل بحيث يخبأ داخلها القطعة الأثرية المراد تهريبها الى الخارج .

٢ ـ الحقائب الدبلوماسية :

وهنا التهريب يكون أكثر خطورة حيث أن السفارات الاجنبية تتمتع حقائبها بحصانة تمنع فتحها وبواسطة هذه الحقائب يتم تهريب الآثار دون خوف من تعرض رجال الجمارك أو رجال الشرطة لها. وقد رأينا كيف استطاع قنصل ايطاليا «درفينى» تهريب كميات نادرة من آثارنا الى الخارج ، حيث ظهرت بعد ذلك بمتحف «تورين» بايطاليا .

٣ ـ البعثات الأجنبية :

يعمل بمصر سنويا حوالى ستين بعثة أجنبية تقوم بالبحث والتنقيب عن الآثار بمناطق أثرية عديدة بمختلف أنحاء الجمهورية حسب مايتم الاتفاق عليه مع هيئة الآثار المصرية .

والرقابة الاساسية الوحيدة على أعمال البعثة تنحصر فى مفتش أثار تعينه هيئة الآثار لمرافقة البعثة خلال فترة عملها .

والبعثة الاجنبية يصل عددها الى حوالى عشرة أشخاص ويقع على عاتق مفتش الآثار المرافق أن يراقب بمفرده أعضاء البعثة طوال اليوم ويسجل ما يستخرجونه من الحفريات ، فى الوقت الذى هو فيه مشغول بتدبير أمور معيشته من مأكل وملبس ومسكن خاصة وأن الحفريات تتم عادة فى مناطق بعيدة عن العمران مما يزيد من مشقته فى تدبير أمور معيشته الا اذا تكفلت البعثة بتدبير هذه الأمور له ضمن أعضائها ويخشى فى هذه الحالة من أن يقع مفتش الاثار ـ وهو عادة صغير السن قليل الخبرة ـ أسير هذا الكرم فتكون العاقبة وخيمة على الآثار المكتشفة .

كما إن وجود مفتش آثار بمفرده مع البعثة يحمل محاذير مختلفة فماذا لو مرض هذا المفتش ولازم الفراش . من فى هذه الحالة سيراقب أعمال البعثة ؟ طبعا ستكون دون رقابة وتصبح آثارنا بين أيديهم يظهرون منها ما يشاؤن ويخفون ما يشاؤن ، ثم نرى أثارنا بعد ذلك فى متاحف بلادهم.

مما تقدم يتبين أن وراء معظم السرقات العنصر الاجنبى سواء فى صورة التخطيط لهذه السرقات، أو تمويل اللصوص بالاموال اللازمة لتنفيذ السرقات أو عمل حفريات خاصة فى الاراضى الاثرية ، أو الاتفاق على شراء المسروقات والتعهد بتكفل تهريبها الى الخارج بوسائلهم الخاصة . أو باستخدام الاموال أؤ النساء أو الزيارات السياحية لبلادهم فى افساد الذمم والضمائر .

فلو ألقينا نظرة على احصائية لقسم مباحث الآثار عن القضايا المضبوطة خلال الفترة من ديسمبر ١٩٧٦ حتى ديسمبر سنة ١٩٧٧ فسنلاحظ أن عدد القضايا المضبوطة ٢١ قضية ١١ قضية منها المتهمون فيها أجانب أو من أصل أجنبى ، والعشر قضايا الاخرى المتهمون فيها مصريون أصحاب محلات تجارية ضبطت لديهم الآثار قبل أن يتصرفوا فيها بالبيع .

ويحاول الاجانب دائما تبرير سلوكهم بمقولة إن الآثار تراث انسانى ملك للعالم أجمع ومن ثم لايجب أن تدعى دولة ملكيتها لتراث بعينه .

ثم سرعان ماينسون ادعاءاتهم عندما يتعرض تراثهم للسرقة فتتحرك كافة أجهزتهم لاستعادة ماسرق . وليس ببعيد عن الاذهان ما تعرض له الاستاذ الدكتور/ محمد عبد القادر رحمه الله عندما كان رئيسا لهيئة الآثار المصرية عندما طلب من المستشاره الثقافية الالمانية أن تعرض رأس نفرتيتي في مصر كي يشاهدها الشعب المصرى ، اسوة بالآثار المصرية التي تعرض في الخارج كي يشاهدها شعوب هذه الدول .

فقد تعرض نتيجة طلبه هذا لحملة ظالمة وادعاءات كاذبة من المستشارة الثقافية الالمانية أدت الى أن قدم الرجل استقالته من هيئة الآثار ، حيث عمل بالجامعة الى أن توفاه الله .

ثالثا : الصلة بين المسروقات والسوق الخارجي :

لعلنا لمسنا من العرض السابق مدى انغماس العنصر الاجنبى فى عمليات سرقة الآثار وتهريبها سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة خاصة وأن لصوص الآثار من المصريين غير متعلمين ويقدمون على هذه السرقات بغرض الكسب المادى فقط دون إدراك كاف بالقيمة العلمية والتاريخية لهذه المسروقات ، فهذه السرقات بالنسبة لهم كأى نوع آخر من السرقات مثل الاموال أو المواشى أو غيرها اللهم إلا أنها قد تكون فى كثير من الاحيان أسهل من غيرها لضعف الحراسة المتوفرة لها بالاضافة الى العائد المادى المجزى الذى يدفعه المحرضون على هذه السرقات .

ثم تؤول هذه المسروقات بعد سرقتها الى الوسيط المصرى أو الاجنبى فى الداخل ثم الى الوسيط الاجنبى في السوق الخارجي حتى تنتهى الى المشترى الاجنبى .

فالاهتمام باقتناء الآثار يتطلب مستوى ثقافي مرتفع ، وهذا غير متوفر فى بلاد مثل بلادنا حيث تصل نسبة الامية فيها حوالى ٧٠٪ وعلى هذا فلو سألنا أنفسنا عن المستفيد من سرقات الآثار ، فالاجابة لن تكون عسيرة ، خاصة عندما يكون واضحا أمامنا أنها تؤول الى البلاد الاجنبية خاصة دول أوروبا وأمريكا .

فالمضبوطات الأثرية التى أحبطت محاولة تهريبها الى الخارج بمعرفة جمرك ميناء القاهرة الجوى كانت متجهة الى أمريكا وانجلترا وسويسرا وألمانيا وفرنسا وايطاليا .

والمسروقات التى لم تضبط قبل تهريبها ظهرت بعد ذلك فى الخارج . فرأس تمثال الآله آمون الذى سرق حوالى سنة ١٩٦٩ من منطقة صان الحجر بالشرقية ظهر بعد ذلك فى باريس . واللوحتان المسروقتان من دير الجبراوى بأسيوط ظهرتا بعد ذلك فى متحف بوسطن للفنون الجميلة بالولايات المتحدة الامريكية . ولوحات معبد دندرة التى سرقت حوالى سنة ١٩٧٣ ظهرت احداها بمتحف فى اليابان وتبين من التحقيقات أنها هربت أولا الى لندن حيث اشتراها أحد الاشخاص ، ثم باعها بعد ذلك الى هذا المتحف .

وتمثال الوزير باسر الذى سرق من أحد مخازن سقارة ظهر بعد ذلك فى متحف هلدسهايم بألمانيا الغربية .

الآثار التى سرقها «درفينى» قنصل ايطاليا فى القرن الماضى ظهرت كلها بعد ذلك بمتحف

«تورين» بايطاليا . ونظرة على متاحف اوروبا وأمريكا سواء المتاحف العامة أو الخاصة نجدها مكتظة بالآثار المصرية فى فترات زمنية مختلفة .

كما أن جولة بمحلات تجارة الآثار فى أى من هذه الدول نجد الآثار المصرية المسروقة تمثل جانبا كبيرا وهاما من معروضات هذه المحلات .

بل أن المزادات التى تقام فى هذه الدول لبيع التحف يندر أن تخلو من آثارنا المنهوبة ، والتى تباع بأسعار خيالية .

* * *

الفصل الثانى

التأثير فى السوق الخارجى (المشترى الاجنبى)

أولا رأس تمثال الاله آمون :

خلال عام ١٩٧٦ أكتشف سرقة رأس تمثال للاله أمون كان موجودا أمام مقر البعثة الفرنسية بمنطقة صان الحجر بالشرقية .

وقد تبين من التحريات التى أجرتها مباحث الآثار أن رأس التمثال سرقت من حوالى سنة ١٩٦٩ بعد أن تركت البعثة الفرنسية منطقة عملها على أثر قيام حرب الاستنزاف . وقد ظهر رأس التمثال بعد ذلك سنة ١٩٧٨ فى أحد محلات تجارة الآثار بباريس الذى تملكه احدى اليونانيات .

وقد تم اخطار الشرطة الجنائية الدولية وتبادل مكاتبات وبرقيات كثيرة لم تسفر سوى عن استصدار أمر قضائى بالتحفظ على رأس التمثال لحين رفع دعوى قضائية من الحكومة المصرية وعلى ضوء نتيجة الحكم فى الدعوى يتحدد المالك الحقيقى لرأس التمثال . وظلت الدعوى القضائية مستمرة منذ عام ١٩٧٨ حتى سنة ١٩٨٠ دون أن يفصل فيها .

وفى خلال عام ١٩٨١ تمكن ضباط قسم مباحث الآثار من ضبط اليونانية حائزة التمثال أثناء زيارتها لمصر . وعلى أثر ذلك تعهدت اليونانية بتسليم رأس التمثال لمن يسافر معها من الضباط . وفعلا سافر معها ضابطا مباحث رغم علمهما بأنها تستطيع التحلل من هذا التعهد بمجرد وصولها الى الاراضى الفرنسية .

ونقلت الصحف ووكالات الانباء خبر وصول ضابطين مصريين للعاصمة الفرنسية للعمل على استعادة الآثار المصرية المسروقة الموجودة بفرنسا . ولقد كان لهذا الخبر تأثير كبير على تجار الآثار بالعاصمة الفرنسية وعلى أن تفى اليونانية بتعهدها حتى يغادر الضابطين باريس فى أسرع وقت ممكن وحتى يعود سوق تجارة الآثار الى ممارسة حياته الطبيعية دون الدخول فى مشاكل قانونية مع الحكومة المصرية .

وفعلا عاد الضابطان ومعهما رأس التمثال المسروق ، وكانت هذه المرة الاولى التى تعود فيها قطعة أثرية مسروقة بعد تهريبها الى الخارج .

ثانيا تمثال الوزير باسر :

فى غضون عام ١٩٨٠ أكتشف سرقة تمثال للوزير «باسر» من منطقة آثار سقارة . وقد أثبتت التحريات التى قامت بها مباحث شرطة الآثار أن التمثال المسروق موجود بمتحف «هلدسهايم» بألمانيا الغربية كما تبين أن السيد / ايرنى ايجبرشت مدير المتحف على علم بأن هذا التمثال مسروق من مصر ورغم هذا وافق على شراء المتحف له واقتنائه بدلا من الإبلاغ عن السارق والمسروقات .

قامت مباحث شرطة الآثار بتحرير محضر بما أثبتته التحريات وتم ادراج السيد/ ايرنى ايجبرشت على قوائم ترقب القادمين الى البلاد تمهيدا لضبطه عند حضوره الى البلاد .

كما تم ابلاغ السيد / ايرني ايجبرشت بوسائل غير رسمية بأن عدم عودة التمثال الى مالكه الحقيقى جمهورية مصر العربية سيؤدى الى عدم استطاعته دخول البلاد ، كما أنه سيترتب عليه بالضرورة عدم السماح لأى بعثة تابعة للمتحف بعمل حفريات بجمهورية مصر العربية .

وما أن وصلت هذه الرسالة الشفوية غير الرسمية الى السيد مدير متحف هلدسهايم حتى أدرك هو وقيادات المتحف أنهم سيخسرون علميا بما يفوق قيمة التمثال بكثير ، فكان قرارهم باعادة التمثال الى مصر وفعلا عاد التمثال الى البلاد فى غضون عام ١٩٨١ ، ليكون القطعة الثانية التى تعود الى البلاد بعد سرقتها وتهريبها الى الخارج .

ثالثا لوحتا دير الجبراوى بأسيوط :

فى حوالى عام ١٩٧٩ أكتشف وجود لوحتين أثريتين مصريتين بمتحف بوسطن للفنون الجميلة بالولايات المتحدة وبفحص صور اللوحتين تبين أنهما مسروقتان من دير الجبراوى بأسيوط .

وبدأت اتصالات بين هيئة الآثار المصرية ومتحف بوسطن للعمل على اعادة اللوحتين . وبدراسة متحف بوسطن لطلب هيئة الآثار أنتهوا الى أن مصلحتهم تقضى بالحفاظ على العلاقات الطيبة مع هيئة الآثار المصرية ومصلحتهم هذه تتمثل فى استمرار عمل بعثات الحفائر بجمهورية مصر العربية بالاضافة الى استمرار اقامة معرض للآثار المصرية بالولايات المتحدة .

وتم بالفعل فى حوالى سنة ١٩٨٢ اعادة اللوحتين المسروقتين الى جمهورية مصر العربية . لتكون المرة الثالثة التى تتمكن فيها مصر من استعادة قطع أثرية مسروقة .

رابعا كيفية التأثير فى السوق الخارجى :

لعلنا لاحظنا من استعراض الامثلة السابقة أن هناك آثار مصرية سرقت وتم تهريبها الى الخارج ورغم ذلك تمكنت السلطات المصرية من التأثير على المشترى الاجنبى واستعادة الآثار المسروقة .

ومن البديهى أن استجابة المشترى الاجنبى لطلب السلطات المصرية واعادة الآثار المسروقة ، لم يكن مرجعه الى احترام قيمة أخلاقية معينة أو انطلاقا من موقف عاطفى ، بل هو قرار عملى درس بدقة لاحتمالات المكسب والخسارة فى كل حالة .

فاعادة رأس تمثال الاله أمون كان قرار عملى مدروس أنتهى الى أن اعادة رأس التمثال يمثل أقل الخسائر ، فوجود الضباط المصريين فى باريس بالقرب من سوق رائجة لتجارة الآثار فى باريس وسويسرا يمثل خطرا شديدا لأنه قد يؤدى الى اكتشاف آثار أخرى مسروقة تطالب بها السلطات المصرية وترفع بشأنها دعاوى قضائية أخرى مما يعنى مزيدا من المشاكل ومزيدا من احتمالات لخسائر أخرى . لذلك كان القرار باعادة رأس تمثال أمون ، ففى اعادته تحجيم للخسائر وأنهاء لمنازعات قضائية من الافضل عدم الدخول فيها .

كما أن اعادة تمثال الوزير باسر كان قرار عملى مدروس أنتهى الى أن مصلحتهم تقضى بالمحافظة على العلاقات الطيبة مع هيئة الآثار المصرية ، حتى تستمر بعثات حفائرهم فى العمل بالاراضى المصرية لما تمثله الحضارة المصرية القديمة من أهمية علمية كبيرة لاى عالم آثار فى

العالمْ . هذا بالاضافة الى حرصهم على استمرار سياسة عرض الآثار المصرية وأن تكون لبلدهم نصيبا فى استضافة مثل هذه المعارض التى تحقق لهم أرباحا طائلة بالاضافة الى تكالب شعوب هذه البلاد على مشاهدة معارض الآثار المصرية .

نفس الامر بالنسبة لقرار اعادة اللوحتين المسروقتين من دير الجبراوى بأسيوط، فكان قراراً تحتمه مصلحة متحف بوسطن للفنون الجميلة حرصا على العلاقات مع هيئة الآثار المصرية مما يزيل أى عقبات يمكن أن توضع أمام عمل بعثات الحفائر التابعة للمتحف فى جمهورية مصر العربية ، أو توضع أمام اقامة معارض للآثار المصرية بالمتحف .

مما سبق يتبين أن قرار السوق الخارجي (المشترى الاجنبى) باعادة الآثار المصرية المسروقة كان قرار أملته عليهم مصلحتهم فى المحافظة على علاقات طيبة مع هيئة الآثار المصرية ، وحرصهم على هذه العلاقات الطيبة يرجع الى سببين :

الاول : أهتمامهم بالحضارة المصرية القديمة التى هى قبلة كل باحث للآثار أو التاريخ القديم أو تاريخ الفن وغلق هذا الباب فى وجه أى باحث يعنى الحكم عليه بالاعدام العلمى .

الثانى : عرض آثارنا بالخارج أكتسب أهمية كبيرة لدى شعوب هذه الدول نظرا لاهمية الحضارة المصرية القديمة والتى يدرسها طلاب المدارس بهذه الدول فى سن مبكرة من حياتهم بالاضافة الى امكانية مشاهدتها دون تكبد التكاليف الباهظة التى تتطلبها الرحلات السياحية . علاوة على ما تحققه من أرباح طائلة للمتاحف التى تعرض فيها وما يصاحب ذلك من رواج لكافة الانشطة التجارية الاخرى التى تعرف كيف تستفيد من الدعاية الكبيرة لهذه المعارض فتصنع العديد من المنتجات التى عليها رسومات مختلفة لقطع من آثارنا المعروضة .

واذا كنا أدركنا مما تقدم أن العلاقات الدولية وشبه الدولية قائمة على المصلحة ، واذ كنا قد وضعنا ايدينا على موطن مصلحتهم التى يحرصون عليها ، واذا كان مفتاح هذه المصلحة فى أيدينا، لايبقى اذن أمامنا الا أن نسعى الى تحقيق نوع من التوازن بين مصالحنا ومصالحهم . فاذا كانت لنا مصلحة محققة فى عدم سرقة آثارنا وتهريبها الى الخارج أو بمعنى آخر اذا كانت مصلحتنا تقتضى استعادة آثارنا التى تسرق وتهرب الى الخارج ، فانه يجب أن توضع مصلحتنا هذه فى كفة الميزان ومصلحتهم فى استمرار عمل بعثاتهم تنقيبا فى حضارتنا وعرض آثارنا لديهم فى كفة الميزان الاخرى .

فاذا أردنا أن نحقق هذا الكلام ونضعه فى صورة وأسلوب يتفق مع العلاقات الدولية وشبه الدولية فأننا نقول أنه خلال النصف الثانى من القرن العشرين خاصة بعد الحرب العالمية الثانية واضطراب أسعار الاوراق المالية ظهرت طبقة من أثرياء أوروبا وأمريكا يسعون الى الاحتفاظ بأموالهم فى صورة تحف وآثار خاصة آثار الدول النامية ذات الحضارات القديمة كمصر حيث أن ثمنها فى أرتفاع مستمر ساعد على ذلك عرض آثارنا بالخارج وما صاحبه من حملات اعلامية كبيرة أدت الى تكالب الاجانب على اقتناء الآثار والتحف مما زاد الطلب على الآثار وتبع ذلك قيام عصابات دولية لتخطيط وتمويل عمليات سرقة الآثار وتهريبها الى الخارج ساعد على ذلك التطور الكبير فى وسائل الاتصال والانتقال بين الدول .

بناء على ذلك فأنه أصبح من الضرورى مواجهة هذه العصابات الدولية بتعاون دولى متزايد بين الاجهزة المعنية التابعة للدولة التى تنهب ثرواتها وأجهزة الدول التى أصبحت سوقا رائجاً لتجارة الآثار المسروقة مثل سويسرا ، فرنسا ، المانيا ، انجلترا ، الولايات المتحدة الامريكية ، ايطاليا .

لذلك قد يكون من المفيد الدعوة لعقد مؤتمر بالقاهرة يحضره على سبيل المثال وزراء ثقافة كل من انجلترا وسويسرا وفرنسا ، والمانيا الغربية والولايات المتحدة الامريكية ، لدراسة هذه الظاهرة الاجرامية والوقوف على أفضل الوسائل لمكافحتها والوصول الى اتفاقيات بين دول المؤتمر تضمن تعاون دولى فعال يساهم فى إعادة الآثار التى تسرق وتهرب الى أى من الدول الموقعة على الاتفاقية الى الدولة مالكة الأثر المسروق .

وتشجيعا لهذه الدول على توقيع الاتفاقية فان مصر تمنح الدول الموقعة على الاتفاقية حق الدولة الاولى بالرعاية فى مجال التنقيب عن الآثار المصرية وفى مجال اقامة معارض لآثارنا لديها .

وهذا ما يعنى ضمنا أن الدول التى لن توقع على الاتفاقية ستكون الاستجابة لطلباتها فى هذا المجال محل شك ، فهناك الدول التى لها حق الدولة الاولى بالرعاية وهى الدول التى وقعت على اتفاقية تضمن اعادة آثارنا المسروقة اذا هربت الى أسواقها .

وبتوقيع هذه الاتفاقية سيجد لصوص الآثار ومهربيها صعوبة فى وجود سوق لهذه الآثار ، طالما أن وجودها على أرض هذه الدولة الموقعة على الاتفاقية يلزمها باعادتها الى الدولة مالكة الآثار ، وبالتالى سيحجم المشترى الاجنبى عن شراء مثل هذه الآثار المسروقة حرصا على أمواله من الضياع .

وبذلك نكون قد استطعنا أن نؤثر على السوق الخارجى (المشترى الاجنبى) مما يساعد الاجراءات الداخلية من حراسة وقانون فى حماية آثارنا من النهب والسرقة.

وقد يرى البعض أن من حسن التخطيط والتدبير الوصول الى هذا الهدف من خلال اتفاقيات ثنائية بدلا من عرض الموضوع خلال مؤتمر قد يساعد على توحيد مواقف الدول الاخرى بما يفسد ما هدفنا اليه . ولا مانع من ذلك طالما أصبح هدفنا واضح ومادمنا قد أقتنعنا بضرورة استخدام مالدينا من وسائل للوصول الى هذا الهدف .

أما بالنسبة للدول التى سترفض التوقيع على هذه الاتفاقية فاننا لن نترك سوقها بلا تأثير ، بل علينا فى حالة ظهور آثار مسروقة منا بأسواقها أو علمنا بذلك أن نطالب باعادة آثارنا بكافة الوسائل سواء عن طريق اخطار الشرطة الجنائية الدولية أو عن طريق رفع دعاوى قضائية أو عن طريق اتصال هيئة الآثار بالمسئولين عن الآثار والمتاحف بهذه الدولة أو عن الطريق الدبلوماسى بواسطة اتصال سفارتنا بالخارج بالمسئولين بهذه الدولة .ولانكف عن المطالبة فى كل مناسبة متاحة مع ادراج اسماء الحائزين على القطع المسروقة وكل من توسط فى تداولها على قوائم ترقب الوصول وضبطه بمصلحة الجوازات ، بحيث يمكن تقديمه للقضاء المصرى فى حالة قدومه للبلاد .

المهم أن نجعل من وجود الأثر المسروق لديهم مصدر ازعاج مستمر لهم يجعلهم يفكرون كثيرا قبل السماح بدخول أثارنا المسروقة الى بلادهم .

واذا كان من المهم التأثير فى السوق الخارجى وتقليل المساحة التى يتحرك فيها لصوص الآثار ومهربيها ، الا أنه يظل حجر الزاوية فى حماية تراثنا وجود حراسة منظمة قادرة على حماية آثارنا من وصول أيدى اللصوص اليه ، وقانون فعال قادر على ردع كل من تسول له نفسه العبث بتراثنا الخالد .

* * *

ابريقان من الزجاج الاسلامي المبكر

حصة صباح السالم الصباح
مديرة دار الآثار الاسلامية متحف الكويت الوطني

تحتوى دار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطنى على ابريقين متشابهين من الزجاج الاسلامى المبكر ، يزين كل منهما شريطان من الكتابات الكوفية البسيطة البارزة .

الأول مسجل تحت رقم 44K وله بدن كمثرى الشكل ينتهى بقاعدة مقعرة ، ومزود برقبة قصيرة اسطوانية ذات فوهة ضيقة ينتهى طرفها بجزء صغير غائر يكون المصب ، يقابله مقبض يتألف من شريط زجاجى ضيق من أعلى وعريض من اسفل ، يمتد من الفوهة الى منتصف البدن حيث ينثنى فى أعلاه ليكون نتوءا بارزا يرتكز عليه ابهام اليد عند الاستعمال (١) ، يبلغ ارتفاعه ١٠سم . وهو مصنوع من زجاج سميك ضارب قليلا الى الخضرة ، من عجينة غير شفافة مليئة بالشوائب ، كما يعلوه آثار كمخ ، شكل عن طريق النفخ فى القالب الذى تظهر آثاره على امتداد جانبى الابريق (اللوحة رقم ١) .

يزين البدن زخارف بارزة تتألف من شريطين من الكتابات الكوفية البسيطة يفصل بينها شريط من نقاط بارزة تبدو أشبه بحبات اللؤلؤ التى نصادفها بكثرة على بعض منتجات الفن الاسلامى المنسوبة الى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى خاصة الزخارف الجصية (٢) ، كما يحد الكتابة من أسفل شريط مماثل يعقبه خط بارز ، يليه صف ثالث من النقط البارزة تأكل معظمها ، تضع حدا لنهاية العناصر الزخرفية على بدن الابريق .

هذا الابريق كان أصلا ضمن مجموعة أسرة أ. تشرشل بلندن (٣) ثم اشتراه بعد ذلك أرنست كوفلر وضمه الى زميله (٤) الذى يمثل الابريق الثانى ضمن مجموعة دار الآثار الاسلامية التى اقتنت مؤخرا مجموعة كوفلر الزجاجية . وهو يشبه ابريق آخر محفوظ ضمن مجموعة متحف الفن بمدينة توليدو بولاية أوهايو الأمريكية من حيث الشكل والعناصر الزخرفية والكتابات لدرجة أن رايس ذهب الى التأكيد بأن كليهما لابد وأن يكون قد نفخا فى قالب واحد (٥).

أما الابريق الثانى فى مجموعة دار الآثار الاسلامية (٦). فهو مسجل تحت رقم 49k ويشبه الى حد ما الابريق الأول وان كان يبدو أكثر رشاقة منه ، اذ ينتهى بدنه الكمثرى الشكل برقبة لطيفة رغم ما بها من اعوجاج وتشويه ظاهر ، لها فوهة بيضاوية الشكل ينتهى طرفها بجزء صغير مسحوب يكون المصب ، يقابله على الجانب الآخر مقبض منتظم يتألف من شريط زجاجى شفاف يشوبه من الداخل خطوط سوداء . يمتد من أعلى البدن الى بداية الفوهة حيث ينثنى بدوره فى طرفه العلوى مشكلا نتوءا بارزا ليرتكز عليه ابهام اليد عند الاستعمال ، يبلغ ارتفاعه ١١سم بزيادة واحد سنتيمتر عن الإبريق الأول . كما يلاحظ أنه شكل بدوره عن طريق النفخ فى القالب اذ تظهر آثاره على امتداد جانبى البدن المصنوع من عجينة رقيقة شبه شفافة تميل قليلا الى البياض على النقيض من الابريق الأول ، رغم أنه مزين بنفس الكتابات والعناصر الزخرفية التى نشاهدها على كل من ابريق دار الآثار الاسلامية وابريق متحف الفن بمدينة توليدو ، التى تبدو على الابريق موضوع البحث أقل بروزاً (اللوحة رقم ٢) ربما لكثرة استخدام القالب فى عمل نماذج أخرى (٧) خاصة وان رايس قد أشار الى ابريق رابع محفوظ فى متحف المتربوليتان فى نيويورك سبق لديماند

أن أشار اليه فى كتابه عن الفنون الاسلامية (٨) ، يشبه الى حد كبير ابريق دار الآثار الاسلامية موضوع البحث ليس فقط من حيث الشكل ، وانما من حيث العناصر الزخرفية وطريقة توزيعها مما دفعه الى التأكيد بأنهما نفخا فى قالب مشابه آخر أقل حجما من القالب الذى نفخ فيه الابريق الاول وابريق توليدو (٩) .

ومن المرجح أيضا أن نفس القالب قد استخدم كذلك فى نفخ إبريقى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة اللذين يشبهان الى حد كبير ، من حيث الشكل وتماثل الكتابات والعناصر الزخرفية ، إبريقى دار الآثار الاسلامية ومتحف المتروبوليتان فى نيويورك ، كما يشكلان جزءا من هذه المجموعة من الاباريق التى يصل عددها المعروف حتى الآن ستة نماذج (١٠) .

والحق ان شكل الابريق الثانى فى مجموعة دار الآثار الاسلامية يذكرنا أيضا ببعض التحف الزجاجية المماثلة من بينها ابريق مصنوع من زجاج غير شفاف مائل الى الخضرة غفل من الزخارف والكتابات محفوظ ضمن مجموعة المتحف الاسلامى ببرلين ينسب الى مصرفى القرنين ٢-٤ هـ /٨ - ١٠م (١١) . وآخر له بدن كمثرى الشكل يزينه زخارف نباتية بارزة عثر عليه ضمن الكنوز الزجاجية داخل احدى السفن الغارقة بالقرب من بحر ايجة (١٢) ، كما يشبه الى حد ما ابريق ثالث مشكل بالنفخ الحر وباليد من زجاج شفاف له بدن كمثرى الشكل مضلع محفوظ فى دار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطنى تحت رقم LNS117G يرجح نسبته الى ايران فى القرنين ٣-٤ هـ /٩ - ١٠م (١٣) .

والمتأمل لهذا الشكل سوف يلاحظ بوضوح أنه لم يقتصر على الأوانى الزجاجية ، بل امتد أيضا الى الأوانى الخزفية ، اذ تحتفظ مجموعة كير فى لندن بابريق خزفى له شكل مماثل ، تزينه زخارف بارزة تتألف من رسوم هندسية وعناصر نباتية ، شكلت بواسطة القالب ، يعلوها طلاء زجاجى عسلى اللون ، ينسب الى ايران فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى (١٤).

ولاعجب فى هذا اذ من المعروف أن ايران قد أتقنت صناعة هذه الأشكال منذ العصر الساسانى ، اذ يوجد ضمن مجموعة متحف الآثار فى طهران ابريق عطل من الزخارف يشبه الى حد كبير الابريق الثانى فى دار الآثار الاسلامية صنع من زجاج غير شفاف مائل الى البياض ، عثر عليه فى قزوين وينسب الى العصر الساسانى (١٥) . ومن الواضح أن هذه الأشكال قد شاعت فى أوائل العصر الاسلامى (١٦) واستمرت فيما يبدو الى منتصف القرن ٤ هـ/١٠م حيث انتشرت فى بعض البلاد الاسلامية مثل مصر والعراق ، بدليل تلك الأباريق المصنوعة من البلور الصخرى على هذا النمط (١٧)، الأمر الذى يزيد من صعوبة نسبة هذه المجموعة من الأباريق الزجاجية الستة الى بلد بعينه ، لذلك لم يعد أمامنا سوى الاعتماد على النصوص الكتابية المنقوشة على ابريق دار الآثار الاسلامية والتى تتفق تماما مع النصوص المنقوشة على الأباريق الأربعة الموزعة بين متحف توليدو ومتحف المتروبوليتان ومتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، وذلك فى محاولة للتعرف على الموطن الأصلى لصناعة هذه الأباريق الزجاجية التى لاشك انها صنعت لشخص واحد وعلى يد صانع واحد كما يفهم من الكتابات المسجلة عليها .

بيد أن هذه النصوص الأثرية كانت أيضا موضوع خلاف بين علماء الفنون والآثار الاسلامية فقد قرأها رايس على النحو التالى :

السطر الأول : مما عمل [م] ير ببغدا [د]

السطر الثانى : عمل طيب (طلب) بن أحمد بن مسى (شكل ١) .

وذلك فى محاولة منه لجعل بغداد عاصمة الخلافة العباسية مركزا لصناعة هذه الأباريق الزجاجية ، كما أشار أيضا الى أن الصانع ربما كان أحد أحفاد الشاعر أبى الطيب المتنبى (١٨) .

على حين ذكر عبد الرؤوف على يوسف بصدد ابريقى متحف الفن الاسلامى ان قراءة هذين السطرين يجب أن تكون على النحو التالى :

السطر الأول : مما عمل للامير [ر] بيعة

السطر الثانى : عمل نصير بن أحمد بن هيثم (شكل ٢)

معتقدا ان هذه المجموعة من دوارق الشراب على حد تعبيره ، تحمل اسم أحد امراء الدولة الطولونية فى مصر هو الأمير ربيعة بن أحمد بن طولون الذى كان يحيا حياة الترف والتنعم حتى كانت ثورته على ابن أخيه هارون بن خمارويه ومقتله فى سنة ٨٩٦م (١٩).

وأشار أيضا الى أن متحف الفن الاسلامى بالقاهرة يضم بعض قطع من الزجاج الفاطمى تحمل اسم صانعها عباس بن نصير (٢٠) وتساءل عن مدى صلة القرابة بين هذا الزجاج وبين نصير بن أحمد بن هيثم صانع هذه المجموعة من الأباريق (٢١) . وقد وافقه على هذه القراءة عالم الآثار الاسلامية محمد عبد العزيز مرزوق ، الذى كتب بصدد نصير هذا ، اننا لانعرف شيئا أكثر من هذا الاسم المسجل على هذه القطع لأن المراجع التاريخية قد ضنت علينا بشئ عن هذا الصانع أو غيره من الصناع ممن تصادفنا أسماؤهم على التحف المختلفة (٢٢) .

لذلك كان علينا أن نحاول قراءة هذه النصوص من جديد من خلال ابريقى دار الآثار الاسلامية، لعلنا نخرج بقراءة جديدة تخرجنا من هذا اليم .

فيما يتعلق بالسطر الأول فانه لاخلاف بالنسبة للكلمتين «مما عمل» اذ نجدهما واضحتين على ابريقى دار الآثار الاسلامية ، يليهما كلمة «للأمير» وهى تبدو بدورها واضحة جلية ، وان كان حرف الميم يختفى تحت مقبض الاناء بيد أن الخلاف ينحصر فى الكلمة الأخيرة التى نجدها تتألف من خمسة حروف على الابريق الأول رقم 44k أخرها حرف ألف لاوجود له ، ليس على الابريق الثانى بدار الآثار الاسلامية رقم 49k بل أيضا على أباريق متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ومتحف المتروبوليتان بنيويورك (٢٣)، الأمر الذى يجعلنا نرجح أن هذه الكلمة الأخيرة تتألف من أربعة حروف فقط ، آخرها حرف هاء وليس دال كما افترض رايس الذى قرأها «ببغداد» بعد أن رجح وجود حرف دال ثانية بعد حرف الألف لكنها فقدت بين نصفى القالب (٢٤).

وهذا يعنى ببساطة اننا نميل الى الأخذ بالقراءة التى اقترحها عبد الرؤوف يوسف لهذه الكلمة وهى «ربيعة» وذلك بعد اضافة حرف راء الى بداية الكلمة التى لعلها سقطت سهوا ممن قام بحفر

القالب الذى نفخت فيه هذه الأباريق بسبب صعوبة أعمال الحفر فى القالب الأصلى اذ كانت تنقش عليه صور الكلمات مقلوبة ومكتوبة من اليسار الى اليمين ، ويجب الا ننسى أيضا أن مثل هذه الأخطاء تبدو شائعة على التحف الاسلامية بصفة عامة وعلى التحف الزجاجية التى وصلتنا من فجر الاسلام بصفة خاصة ، ربما لأن الخطاط والحفار كانا حديثى عهد بتعلم اللغة العربية وكتابتها (٢٥) .

يضاف الى ذلك ان عبارة «مما عمل للأمير» يجب أن يعقبها اسم الأمير المشار اليه كما جرت العادة بذلك على صنج السكة الزجاجية التى وصلتنا من فجر الاسلام (٢٦) وليس اسم مدينة كما افترض رايس .

أما فيما يتعلق بالسطر الثانى الذى يتضمن اسم الزجاج الذى قام بصناعة هذه المجموعة من الأباريق ، فنحن نميل الى الأخذ بقراءة رايس مع بعض التحفظات وهى أن يكون الاسم الأول «طالب» بدلا من «طيب» لأن «طالب» يعد من الاسماء المألوفة بالنسبة لهذه الفترة المبكرة ، حيث جرت العادة أن يكتب مثل «صالح» (٢٧) و«سليمان» (٢٨) بدون ألف مد ، وهذا يعنى ببساطة ان عبد الرؤوف على يوسف قد جانبه الصواب فى قراءته لهذا الاسم «نصير» ، خاصة وأن يبدأ بطاء تبدو تامة الوضوح على تحفتى دار الآثار الاسلامية ولا يسبقها آية حروف أخرى على الاطلاق (٢٩) .

كما أنه ذهب بعيدا فى قراءته للكلمة الأخيرة فى هذا السطر «هيثم» اذ لاوجود لحرفى الهاء والميم، بل من الواضح أن الكلمة تبدأ بحرف ميم نجد نظيرا له فى كلمة «مما» فى السطر الأول ، وتنتهى بياء راجعة الى جهة اليمين تمتد أسفل الكلمة ، مما يجعل قراءة رايس لها تبدو أقرب الى الواقع «مسى ، مشى ، متنبى» رغم أنها غير قاطعة وفى حاجة الى مزيد من التحقيق ، الأمر الذى يفتح المجال أمام قراءات جديدة مثل «منينى» (٣٠) نسبة الى منين احدى قرى جبل سنير من أعمال الشام أو دمشق (٣١) ، وذلك بطبيعة الحال بعد حذف حرفى الألف واللام كما رجح رايس بالنسبة لاسم متنبى (٣٢) .

ومن المحتمل قراءتها أيضا «مثنى» خاصة وأن عدد الاسنان المحصورة بين حرفى الميم والياء ثلاث فقط ، مما يعنى وجود حرفين لا ثلاثة ، لأن السنة الأخيرة تختص بحرف الياء كما جرت العادة بذلك على بعض الصنج الزجاجية المبكرة (٣٣) وبذا تكون القراءة المقترحة للسطر الثانى على النحو التالى : «عمل ط[ا]لب بن أحمد بن مثنى» (شكل ٣) ، مع مراعاة أن الاسم الأخير لايزال فى حاجة الى مزيد من التحقيق ، الأمر الذى يجعلنا نمسك فى الوقت الحالى عن نسبة هذه الأباريق الى أحد المراكز الصناعية دون غيرها انتظارا لما سوف تكشف عنه الأبحاث والتنقيبات الأثرية القادمة من أباريق زجاجية تشبه هذه المجموعة (٣٤) .

ومع ذلك فقد رأينا من المفيد أن نقوم بعمل تحليل كيميائى للتعرف على المكونات الطبيعية للعجينة الزجاجية التى صنع منها كل من ابريقى دار الآثار الاسلامية (٣٥) لعلها تساعدنا فى تحديد المركز الصناعى لهذه الأباريق الزجاجية . تكشف نتائج التحاليل عن أن المواد الخام التى صنع منها الابريقان المذكوران كانت تتألف أساسا من :

١ ـ السيلكا ٢ ـ اكسيد الكالسيوم

٣ ـ اكسيد الصوديوم | ٤ ـ اكسيد البوتاسيوم
٥ ـ اكسيد المغنسيوم | ٦ ـ اكسيد الألمنيوم
٧ ـ كلوريـد | ٨ ـ اكسيد المنجنيز

وتكشف أيضا عن ارتفاع نسبة مادة السيلكا بالنسبة لغيرها من المواد الأخرى يليها اكسيد الصوديوم واكسيد الكالسيوم . ويلاحظ أيضا اختلاف نسب هذه المواد فى الابريق الأول رقم 44k(شكل ٤) عنها فى الابريق الثانى رقم 49k (شكل ٥) ، اذ تقل نسبة السلكا فى الأول عنها فى الثانى ، فى الوقت الذى تزيد فيه نسبة أكاسيد الصوديوم والكالسيوم والبوتاسيوم والمغنسيوم والملوريد فى الابريق الأول عنها فى الابريق الثانى ، الأمر الذى يكشف ببساطة عن اختلاف نسب المواد الخام المستخدمة فى صناعة ابريقى دار الآثار الاسلامية رغم تماثل النصوص الكتابية عليهما .

بيد أن الملفت للنظر حقا هو أن مكونات هذه النتائج تشبه الى حد كبير مكونات التحاليل التى أجريت على بعض عينات من الزجاج وصنج السكة المصرية التى تنسب الى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى (٣٦) ، مع ملاحظة أن نتائج التحاليل الحديثة تحتوى على نسبة صغيرة من أكسيد المنجنيز نفتقدها فى التحاليل المبكرة التى أجريت على نماذج من الزجاج المصرى الاسلامى ، مما يحتم علينا فى الوقت الحاضر أن نتوخى الحذر فى نسبة هذه المجموعة من الأباريق الى مصر دون غيرها من المراكز الصناعية ، فى الشام أو العراق ، حتى ولو كانت تحمل اسم أحد أمراء الدولة الطولونية ، لاسيما وأن التحاليل الكيميائية التى أجريت على الزجاج المصرى الاسلامى المبكر للتعرف على طبيعة المواد الخام المستخدمة فى صناعة التحف الزجاجية ، لازالت قليلة (٣٧) بدرجة لاتسمح لنا بعقد مزيد من المقارنات رغم يقيننا بأن مصر كانت ذات شهرة ذائعة الصيت فى انتاج المصنوعات الزجاجية منذ العصور القديمة (٣٨) .

* * *

الهوامش

١ - تبدو هذه الظاهرة بجلاء على بعض التحف الزجاجية المنسوبة الى القرنين الأول والثانى للميلاد . أنظر

Annie Kevarkian et G. Loudmer, Verres Antiques et de l'Islam, Paris, 1985, p. 98, no 251.

٢ - أنظر زكى محمد حسن ، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٧٤ ، شكل ٨٠٩ ، ص ٢٧٥ ، شكل ٨١٣ ، ص ٢٧٦ ، شكل ٨١٦ .

3 - Barrington Haynes, Glass, London, 1948, pl. 8b

٤ - عبد الرؤوف على يوسف ، دراسة فى الزجاج المصرى ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس - ابريل ١٩٦٩ ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٥ .

5 - D. S. Rice, Early Signed Islamic Glass, JRAS, April, 1958, p. 15, pl. IV.

6 - Rice, Ibid, pl. V/B; 3000 Jahre Glaskunst, kunst museum, Luzern, 1981, p. 130, no 557.

٧ - أشار محمد عبد العزيز مرزوق الى أن القوالب التى تستخدم فى تشكيل الزجاج تصنع عادة من الخشب وتتكون من قطعتين ليسهل اخراج التحفة بعد التشكيل والجفاف ، وقد تكون من قطعة واحدة إذا كانت الفوهة تسمح بعملية الاخراج ، انظر الفنون الزخرفية الاسلامية فى مصر قبل الفاطميين القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١١٨ .

٨ - م . س ديماند ، الفنون الاسلامية ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٢٣١ ،

G. A. Eisen and F. Kouchakji, Galss New York, 1927, I, pl. 55 d; II, p. 609.

9 - Rice, Early Signed Islamic Glass, p. 15.

١٠ - عبد الرؤوف على يوسف ، الزجاج ، القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٣٣٨ ، دراسة فى الزجاج المصرى ، ص ٤ .

11 - K. Brisch, Islamische Kunst, Band 1, Glas, Mainz / Rhein, 1984, pp. 81 - 82, no 70.

12 - George F. Bass, Glass treasure from the Aegean, National Geographic, vol. 153, no 6 June 1978, pp. 784 - 785.

١٣ - مانويل كين ، مقتنيات جديدة مختارة ، الكويت ١٩٨٥ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

14 - E. J. Grube, Islamic Pottery of the Eighth to the Fifteenth century in the Keir Collection, London, 1976, no 5, p. 40.

15 - Shinji Fukai, Persian Glass, Translated by Eda B. Crawford, New York, 1977, p. 52, no 56.

16 - K. Brisch, Islamische Kunst, Glas, p.8.

١٧ - أنظر الابريق الذى يحمل اسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، المحفوظ فى كاتدرائية سان مارك فى مدينة البندقية وكذا ابريق فكتوريا وألبرت فى لندن . زكى محمد حسن ، أطلس الفنون الزخرفية ، ص ٢٥٢ ، شكل ٧٤٣ ، ٧٤٥ ،

The treasury of San Marco Venice, Milan, 1984, pp. 217 - 219

18 - Rice, Early Signed Islamic Glass, pp. 13, 16.

١٩ - أجمعت المصادر التاريخية على أن هذا الأمير قتل فى شعبان سنة ٢٨٤ هـ / سبتمبر ٨٩٧م وليس كما ذكر عبد الرؤوف ، أنظر الكندى ، كتاب الولاة والقضاة ، تحقيق رفن جست ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٢٤٣ ؛ المقريزى

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ، جـ ١ ، ص ٣٢٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٠ - ١٩٧٢ ، جـ ٣ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

٢٠ - زكى محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٨٣ ، أنظر أيضا أرقام السجل ٨١٦٧ ، ١٢٦٣٨ ، ١٥٥٧٩ بمحتف الفن الاسلامى بالقاهرة .

٢١ - عبد الرؤوف على يوسف ، الزجاج ، كتاب القاهرة ، ص ٣٣٨ ، دراسة فن الزجاج المصرى ، ص ٥ - ٧ .

٢٢ - محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الاسلامية ، ٢٢٨ - ٢٢٩ .

٢٣ - عبد الرؤوف على يوسف ، دراسة فى الزجاج المصرى ، ص ٦ .

24 - Rice, Early Signed Islamic Glass, p. 13.

٢٥ - عبد الرحمن فهمى ، صنج السكة فى فجر الاسلام القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٩ - ٢٠ .

٢٦ - أنظر بعض الأمثلة الطولونية فى :

A. H. Morton, A catalogue of Early Islamic Glass Stamps in the British Museum, London, 1985, p. 130, nos 370 - 372.

٢٧ - عبد الرحمن فهمى ، صنج السكة ، ص ١٤٢ - ١٤٤ ، أرقام ٢٠٩ - ٢١٣ .

28 - A. H. Morton, A Catalogue of Early Islamic Glass Stamps, p. 112, nos 307 - 308.

٢٩ - عبد الرؤوف على يوسف ، دراسة فن الزجاج المصرى ، ص ٧ .

٣٠ - ننتهز الفرصة لنتقدم بالشكر الى الدكتور رمزى بخفازى ، أمين قسم العملة بدار الآثار الاسلامية ، الذى لفت نظرنا الى هذه القراءة .

٣١ - ياقوت معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٢١٨ .

Rice, Early Signed Islamic Glass, p. 13.

٣٣ - أنظر واحدة باسم عيسى بن جنادة فى كتاب عبد الرحمن فهمى ، صنج السكة ص ١٧٥ ، لوحة ٣٢ ، رقم ٢٩٦ .

٣٤ - أخبرتنى الدكتورة مارلين جنكيز الأمينة المساعدة بالقسم الاسلامى بمتحف المتربوليتان فى نيويورك بوجود مجموعة أخرى من هذه الأباريق ذات الكتابات الكوفية ، بيد أنه لم تسمح لى الفرصة بمشاهدتها والاطلاع عليها فى الوقت الحاضر .

٣٥ - قام بعمل هذه التحاليل الدكتور راتب أبو عيد الباحث بمعهد الكويت للأبحاث العلمية فله منا جزيل الشكر .

36 - F. R. Matson, the manufacture of Eighth - Century Egyptian Glass Weights and Stamps. In the Cat. of Early Arabic Glass Weights by G. C. Miles, New York, 1948, pp. 31 - 69 ; Harden, Glass and Glazes, History of Technology, 1956, II, p. 312.

٣٧ - هناء عبد الخالق ، الزجاج الاسلامى ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٣٧ .

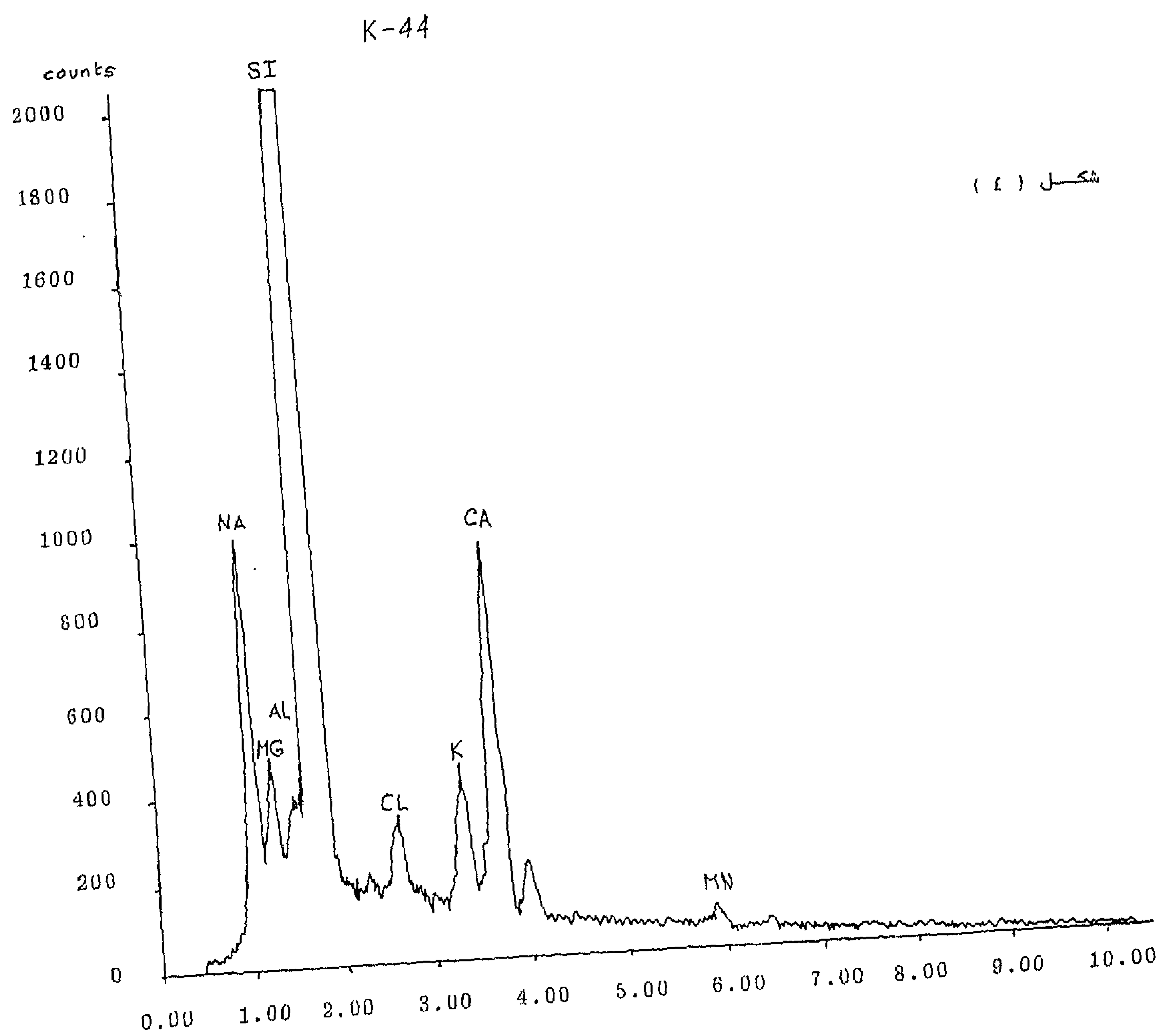
38 - F. Petrie, The Arts and Crafts of Ancient Egyptians, London, 1910, p. 124.



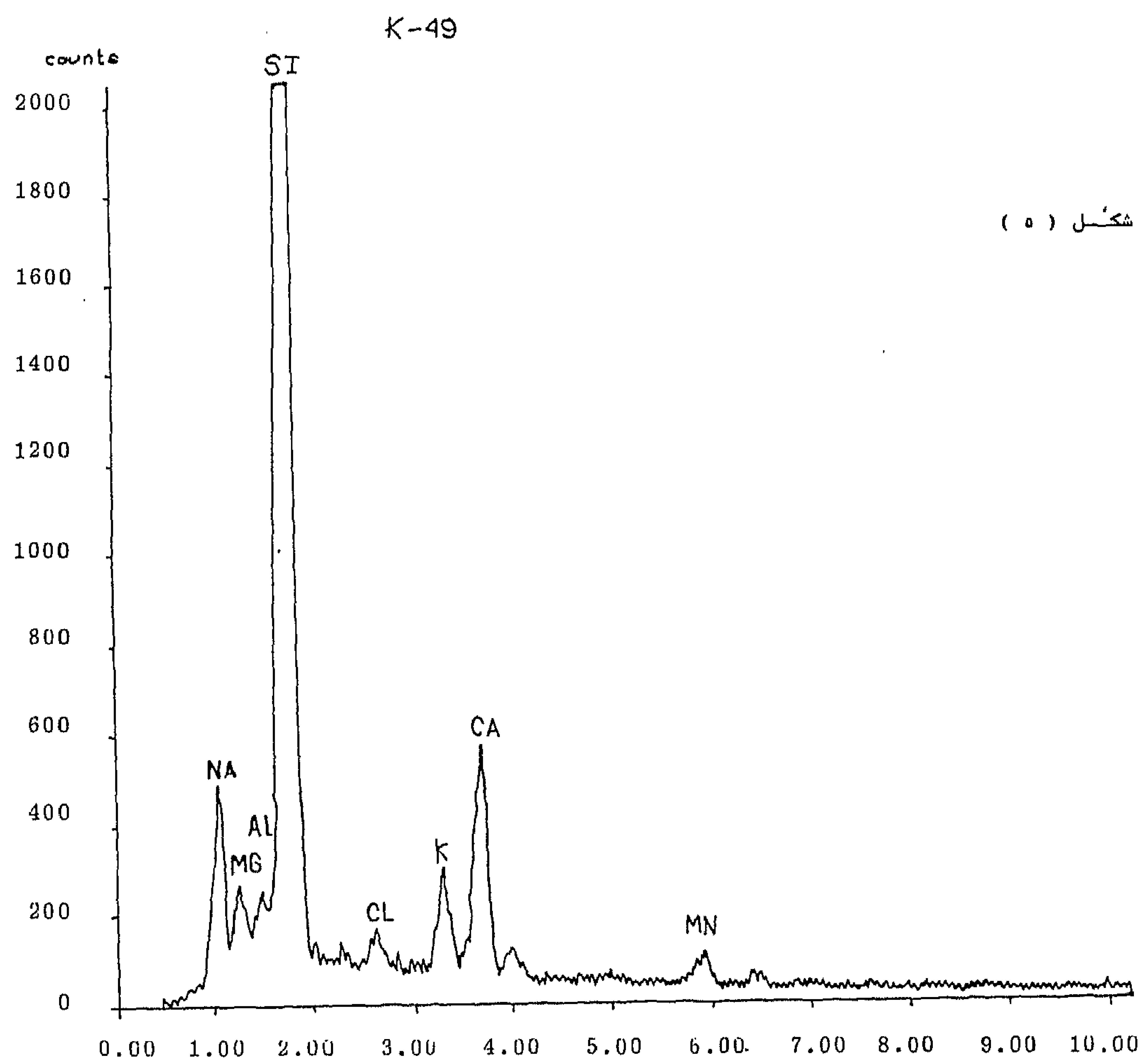
شكل (١) نقلاً عن رايس

شكل (٢) نقلاً عن عبد الرؤوف يوسف

شكل (٣)


K-44
counts
SI
2000
1800
1600
1400
1200
1000
800
600
400
200
0
NA
AL
MG
CL
K
CA
MN
0.00
1.00
2.00
3.00
4.00
5.00
6.00
7.00
8.00
9.00
10.00

شكــل (٤)


K-49
counts
2000
1800
1600
1400
1200
1000
800
600
400
200
0
SI
NA
AL
MG
CL
K
CA
MN
0.00
1.00
2.00
3.00
4.00
5.00
6.00
7.00
8.00
9.00
10.00

شكل (٥)

اللوحة رقم (١)





اللوحة رقم (٢)

بني عدي مدينة العلم والتجارة

حمزة عبد العزيز بدر
مدرس مساعد بآداب سوهاج جامعة اسيوط

لا يزال ريفنا المصرى معينا لا ينضب للدراسات التاريخية والفنية والاثارية وغيرها من مناحى الدراسات الانسانية المختلفة ، وقد كان لكثير من ريف هذا البلد دورة الرائد والمتميز فى كتابة تاريخ مصر لما تعرض له من احداث هامة ، أو لميزة موضعه الجغرافى او لصناعة اشتهر بها وغير ذلك الكثير ، وقرية بنى عدى كما وصفها على باشا مبارك فى الجزء السابع من خططه تقع بحافة بساط الجبل غربى منفلوط ، وهى كما وصفها دافوز من الحملة الفرنسية « من اكثر بلاد الوجه القبلى سكانا واغناها واعظمها مكانة » بينما وصفها أحد الفرنسيين قبيل الأحداث الهامة التى شهدتها بأنها « قرية غنية يبلغ طولها نصف فرسخ تقريبا ، ذات موقع موات لتجارة دارفور التى تحملها القوافل .

وقد كانت بنى عدى مصبا لتجارة افريقيا السوداء القادمة عبر درب الأربعين ، ومن المعروف أن تلك التجارة كانت تتخذ ثلاثة طرق رئيسية يصب احدها فى جرجا والآخر فى واحة سيوة والثالث فى بنى عدى وهكذا نجد أن الطريقين الرئيسيين لتلك التجارة كانا يصبان فى الصعيد وبالتحديد فى جرجا وبنى عدى ،مما أوجد علاقة خاصة وارتباطات قوية بين الكثير من ابناء الصعيد وبين ممالك افريقيا السوداء سواء عن طريق مشاركتهم فى تلك التجارة أو مصاحبتهم للقوافل ذهابا وإيابا ، بل إننا نجد أن رئاسة أو مشيخة الوكالات القائمة على تلك التجارة قد آلت إلى أبناء هذه المنطقة وبالتحديد ابناء قرية بنى عدى الذين خلفوا ابناء « التتالية» وهى احدى القرى المجاورة لبنى عدى فى رئاسة وكالة الجلابة فمنذ أن تولى الحاج سلطان اسماعيل مشيخة الجلابة لمدة تزيد على العشرين عاما منذ قبيل الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م وحتى وافته المنية سنة ١٨٢٠م حرص على ان يجمع حوله أبناء بلدته فازداد نفوذ العدويين فى تجارة بلاد السودان وانحسر نفوذ التتلاويين ، أوأبناء التتالية بعد أن وصلوا الى مكانة لا بأس بها وازدادت اعدادهم بشكل كبير وقت تولى أحد أبناء بلدتهم وهو عبد الرحمن البناوى مشيخة تلك الوكالة .

نشأت اهمية بنى عدى واثرى أهلها لكونها نهاية المطاف لدرب الأربعين الذى يبدأ من كوبية عاصمة دارفور التجارية ويتجة شمالا عبر الصحراء الليبية الى واحة الخارجة ومن هناك يتحول الطريق شرقا عبر سهل واسع مرتفع وينحدر قرب قرية بنى عدى ، وكان طبيعيا ان تحدث تلك التجارة رواجا وثراء فى بنى عدى والمدن المجاورة لها –منفلوط وأسيوط – فقد كان على التجار ان يبيعوا جزءا من تجارتهم حال وصولهم بنى عدى لسداد ماقرر عليهم من ضرائب والحصول على الايصالات الدالة على ذلك . صحيح ان الاجراءات الجمركية تبدأ قبل وصول القافلة بنى عدى حيث يلاقيها الكاشف ورجاله بالواحات ويقومون بتدقيق ما يحملونه من بضائع وتسجيلها وتقدير الرسوم الجمركية عليها إلا أن التجار لا يبدؤ ن فى السداد الى حين وصولهم بنى عدى حيث تسنح لهم الفرصة فى التصرف فى بعض مايحملونه فى بنى عدى نفسها او الاتجاه بها الى منفلوط واسيوط .

وهكذا أصبحت بنى عدى ايضا محطة للراغبين فى السفر الى السودان ولتجارة القوافل فى نفس الوقت فقد كان لأبناء الصعيد كما ذكرنا آنفا دور بارز فى تنظيم وتشكيل تلك التجارة ، وخاصة ابناء بنى عدى وبعض القرى المجاورة كأبناء التتالية وبنى حسين التى ذاع صيت بعض ابنائها فى الرقيق جلبا وتسويقا فى الأسواق المخصصة لذلك بالقاهرة «وكالات الجلابة» كما تشير إلى ذلك بعض وثائق محكمة القسمة العسكرية .

تتجمع وتتشكل القافلة ويتم تموينها في بني عدى ثم تنطلق في رحلتها الشاقة عبر درب الأربغين قاطعة ما يناهز الألف ومائتى ميل فى مدة تتباين من مسافر الى أن آخر ومن قافلة الى أخرى قد تصل الى تسعين يوما فى حالات القوافل الضخمة المكونة من مئات الإبل والمثقلة بأطنان البضائع والآف العبيد . على أن تجارة درب الأربعين لم تكن هى المصدر الوحيد لثروة بنى عدى فقد اتجروا ايضا فى محصولات الواحات مثل التمر والنيلة وكان منهم بالقاهرةتجار للدخان والنشوق وغير ذلك ، بل ان مشيخة ساحل بولاق كانت كما يذكر على باشا مبارك تؤول فى أحيان كثيرة لأحد أبناء هذه القرية . واشتهر أبناء بنى عدى وذاع صيتهم فى صناعة المنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها ، يضربون في القرى المجاورةلجمع أصواف الأغنام ثم يدفعون بها الى النساء ليقمن بغزلها وينسجون منها « أحرمة الصوف الأسود فتشبه فى الجودة أحرمة بلاد المغرب كما تنسج بها ثياب الصوف الجيدة ذات المتانة مع الرقة» ومازالت بنى عدى على عهدها حتى الآن فى الصناعة تنسج بنفس الأساليب البدائية بل وبنفس الأنماط الزخرفية التى توارثوها جيلا بعد جيل ، ولا تخرج فى اشكالها الزخرفية عن زخارف هندسية بسيطة من مثلثات ومعينات وغيرها .

وكما ذاع صيت بنى عدى باعتبارها محطة لتجارة القوافل Caravans terminal ابتداءوانتهاء فقد ذاع صيتها تماما كبلد للعديد من علماء الدين المشهورين خاصةفى العصر العثمانى وعصر محمد على، بل ولا نبالغ اذا قلنا انها اكثر قرى مصر انجابا لهؤلاء العلماء ،ومن المؤكد ان ذلك لم ينشأ من فراغ ولم يكن ضربا من ضروب المصادفة البحتة فقد كان من وراء ذلك اسباب عديدة منها ما يتعلق بتاريخ الاقليم نفسه واستقرار طوائف معينة فيه رعاية بعض حكامة للحركة التعليمية فى اقليمهم وتتبلور هذه الرعاية فى اشكال عديدة تبدأ من المساجد والمدارس والكتاتيب وتنتهى بتعيين المدرسين لها وتحديد المناهج التى ينبغى عليهم تدريسها ووضع الأسس التنظيمية لها واجراء الأرزاق عليهم وعلى الطلاب على حد سواء فضلا عن تزويد تلك المساجد والمدارس بمختلف المخطوطات والنص على أنه لا ينبغى أن تنقل هذه الكتب من مكانها أبدا « وقف وحبس وأكد ....ولا ينقل من محلة أبدا » كما سنرى عند الحديث عن مسجد العياط ببنى عدى والمكتبة الملحقة به . وفى الحقيقة ان منطقة بنى عدى قد ساهم فى رعاية الحركة التعليمية بها الأمراء والأعيان من ابناء المنطقة على حد سواء ، فبينما نجد الأمير على كاشف جمال الدين كاشف ولاية المنفلوطية فى أواخر القرن ١٢هـ/١٨م ينشىء العديد من المساجد بمنفلوط ومسجد العياط ببنى عدى ويوقف عليها جميعا – حتى ان النسخة الوحيدة من مخطوط قوانين الدواوين للأسعد بن مماتى كانت بحوزة الدكتور مايرهوف ولا تمتلك دار الكتب المصرية سوى صورة شمسية منها كانت من وقف ذلك الأمير على طلبة العلم بتلك المنطقة – ونجد أيضا أن كثيرا من أعيان تلك المنطة وأثريائها حرصوا على أ ن يلعبوا نفس الدور نجد أن بعض عرب بنى وافى وهم من العرب المغاربة الذين حلوا بتلك المنطقة شيدوا مساجدهم ومدارسهم ومايلحقها من كتاتيب وأسبلة بجوار ضريح الشيخ العياط وهو احد أبناء تلك المنطقة عاش فى العصر المملوكى ودفن هناك وجدد ضريحه حديثا . على أى حال فقد عمرت منطقة مسجد العياط بالمدارس والكتاتيب زال بعضها وبقى البعض الآخر شاهدا على عصره ومن بين تلك الآثار التى إندرست ببنى عدى المدرسة التى بناها شيخ العرب محمد بن حسين وافى وأوقف عليها ولم يبق من آثارها سوى بعض المخطوطات التى تشير أنها أوقفت على تلك المدرسة بجوار الرابية بساحة مسجد العياط .

وأصبحت منطقة مسجد العياط مركز تعليميا منذ العصر العثمانى وأصبحت تعرف بساحة العياطين بها المساجد والمدارس والآسبلة والكتاتيب وأماكن ايواء الدارسين ، منهم من أتم تعليمه بها وبقى بتلك المنطقة يؤدى رسالته فى تعليم الآخرين ومنهم من لم يجد فيها ما يشفى غليله فانتقل منها الى الأزهر فكان له شأن آخر .

لقد كانت بنى عدى طوال عهدها وتلك الساحة آنفة الذكر مركزا لا نجد مثيلا آخر له ، فقد كانت كل مساجدها ومدارسها مخصصة لتدريس مذهب واحد أخذوا على عاتقهم نشره فى تلك المنطقة وهو مذهب الامام مالك وربما كان السبب فى ذلك استقرار بعض العرب المغاربة من بنى وافى وغيرهم حيث انه من المعروف أن مذهب المالكية كان أكثر انتشارا فى بلاد المغرب منه فى مصر حيث مذهبى الشافعية والأحناف اكثر ذيوعا.

ونجد أن أبناء بنى عدى الذين أتموا تعليمهم فى الأزهر من أبرز علماء المالكية وكان لهم السبق فى كثير مما يتعلق بهذا المذهب الحنيف ومنها أنهم اول من وضعوا الحواشى على المتون فى كتب فقه المالكية كما سنجد دلك عند الاشارة الى بعض المخطوطات بالمكتبة الملحقة بمسجد العياط ببنى عدى.

مسجد العياط ببنى عدى:

انشأ مسجد العياط الأمير على كاشف جمال الدين كاشف ولاية المنفلوطية والمتوفى سنة ١١٩٧هـ ، وقد أحرق الفرنسيون هذا المسجد اثناء تصدى اهالى بنى عدى للجيش الفرنسى سنة ١٢١٣هـ وأعاد بنائه احمد كاشف جمال الدين ، وهو الابن الأصغر للأمير على كاشف جمال الدين وأوقف عليه بعض المخطوطات لا يزال بعضها محفوظا بمكتبة المسجد حق الآن ، وقد عاش محمد أحمد كاشف جمال الدين هذا الى سنة ١٢٥١هـ كما يذكر على باشا مبارك ، وبصفة عامة فأن عناصر هذا المسجد المعمارية تتفق مع مساجد منفلوط سواء تلك التى شيدها الأمير على كاشف جمال الدين أو غيرها من المساجد المعاصرة لها وترجع معظم هذه المساجد الى القرن ١٢هـ/١٨م، وقد اتسمت تلك المساجد ومن بينها مسجد العياط ببنى عدى ببعض العناصر المعمارية والزخرفية تكاد تكون طرازا معماريا ريفيا خاص بتلك المنطقة سواء من ناحية مواد البناء المستخدمة أو العناصر الزخرفية .فقد شاع استخدام الآجر فى البناء والزخرفة فى نفس الوقت فيما يمكن تسميته بالطراز الاجرى واستخدم فى منطقة منفلوط ومنها بنى عدى اسلوب واحد للحصرل على تلك الزخرفة ينتج من اختلاف اوضاع قطع الاجر وطريقة تصفيفها أو تقطيع الاجر الى قطع صغيرة بأحجام مختلفة تصف وفق طريقة هندسية تنتج زخارف دقيقة حسب الاحجام التى قطع اليها الاجر، واستخدمت الزخارف الآجرية فى مسجد العياط وبعض الأضرحة المجاورة ومدخل السبيل والكتاب كلها نصف دائرية فيما عدا الواجهة للمسجد فان مدخلها يتوجه عقد ثلاثى النصوص .

الوصف المعمارى للمسجد :

يقع مسجد العياط بالجهة الغربية من بنى عدى البحرية على سطح الجبل غربى منفلوط . وهو مسجد مربع الشكل تقريبا طول كل ضلع من أضلاعه حوالى ١٧,٥٠ ويقع مدخله بالجدار الشرقى ويصعد الى باب المسجد بسلم دائرى من ثلاث درجات ، والمدخل مستطيل الشكل مغطى بالطوب الأسود ويرتد هذا المدخل الى الداخل بمقدار ٥٣سم ويبلغ عرض المدخل المغطى بالطوب المنجور

٤,٨٠م ويرتد على الجانبين بمسافة ٦٥سم والى الداخل بعمق ٥٣سم مما اوجد مكسلتين على الجانبين بتلك القياسات تقريبا.

وبين كل ستة مداميك أو سبعة دعامة من الخشب بينما عتب المدخل نفسه من الخشب المزخرف يبلغ عرضه ٣٣سم ومزخرف باشكال هندسية، ويمتد هذا العتب الخشبى ذو الزخارف الهندسية بطول المدخل .

ويعلو الباب نافذة من الخشب الخرط تبلغ مساحتها ٨٠×٧٠سم ، ويتوج هذا المدخل عقد ثلاثى الفصوص ، ويعلو النافذة المذكورة المقرنصات الناتجة عن ارتداد المدخل الى الداخل وهى عبارة عن حنية فى كل جانب من العقد الثلاثى وحنيتين متداخلتين او حطتين من المقرنصات فى الأمام

ومن الداخل يكتنف المدخل دعامتان ترتفعان حتى سقف المسجد ثم يعقدهما عقد ثلاثى الفصوص محلى باطار من الأجر المنجور الأسود وقد غطى الفراغ بين الدعامتين والعقد من الجانبين بحنيتين ومن الامام بمجموعة من الحنيات المتداخلة . وبالجدار الشرقى للمسجد أيضا نافذتان على يمين ويسار المدخل يبلغ ارتفاع كل منهما عن أرض المسجد ٦٥سم بينما يبلغ ارتفاع كل منهما ١,٧٥م وعرضها ١,١٠م ويعلو كل شباك منهما نافذتان صغيرتان تحت السقف بمقدار ٢٠سم وتبلغ مساحة كل منهما ٧٠×٨٠سم من الخشب المخروط بشكل معينات الضلع الجنوبى للمسجد وهو جدار القبلة ويتوسط المحراب وتبلغ اتساع فتحته ١,٨٥م بينما يبلغ عمق هذا المحراب ١,٤٥م ، ويحيط بعقد المحراب مجموعة اطارات من الطوب المنجور الأسود على هيئة شرائط زخرفية يحيط بها جميعها شريط اكثر عرضا يكون مستطيلا من الأجر الاسود المصفوف بشكل يبدو وكأنه جدائل مضفورة .

وبجوار القبلة نافذتان مربعتا الشكل على يمين ويسار المحراب على ارتفاع ٩٠سم من ارض المسجد ويبلغ ار تفاع كل منهما ١٧٥سم.

وبالمسجد منبر خشبى حديث بسيط الزخرفة ، ويتوسط الجدار الغربى للمسجد باب يؤدى الى الميضاة ودورة المياه وعلى يمين ويسار هذا الباب نافذتان مربعتان تقريبا ١٠٧٥×١,٧٥م على نفس الإرتفاع السابق من أرضية المسجد أما المضلع الشمالى للمسجد فيوجد بركنه الشرقى باب ذ و إرتفاع منخفض تبلغ اتساع فتحته ٨٠سم يؤدى الى المئذنة الخارجة عن سمت المسجد وقد سقطت المئذنه الأصلية لهذا المسجد وبنيت مكانها مئذنة حديثة على نفس مساحة المئذنة القديمة.

ويلى باب المئذنة هذا باب اخر تبلغ فتحته ١,٢٥م ويؤدى الى حجرة مسقوفة بقبة منخفضة مفلطحة وتبلغ مساحة هذه الحجرة ٣,٣٠×٣,٨٣ وفى منتصف جدار هذه الحجرة الغربى باب منخفض الارتفاع تبلغ اتساع فتحته ٧٣سم وهذا الباب يؤدى الى ثلاث حجرات متتالية . الأولى مسقفة بقبو يرتفع الى أعلى باتجاه الغرب ، والثانية مسقفة بقبو TunnelVaultينخفض الى أسفل باتجاه الغرب ، والثالثة مسقفة بقبة منخفضة ، ومساحات هذه الحجرات الثلاث على التوالى الأولى ٣,٣٠×٢,٨٠م والثانية ٣,٣٠×٢,٨٠م والثالثة ٤,٠٠×٢,٨٠م وبها الباب المؤدى الى خلف المسجد حيث مكان الميضاة القديمة والساقية وبعض الأشجار والنخيل . وتبلغ اتساع فتحة هذا الباب ١,١٠م

وارتفاعه ١,٦٥م، وهو معقود بعقد نصف دائرى يحيط به اطار من الطوب المنجور الأسود وسمك جدران هذه الغرف ٩٥سم ، وهذه الحجرات الأربعة خارجة عن سمت المسجد وتمتد المئذنة وقد اقيمت عليها المكتبة الملحقة بالمسجد وبالجدار الشمالى للمسجد من الداخل دخلات مستطيلة الشكل ، وهى ثلاث دخلات اتساع فتحة كل منهما ١,٤٥م ركب على اثنين منها دواليب خشبية .وبأعلى الدخلات الثلاث هذه ثلاث نوافذ تفتح من الكتبة الملحقة بالمسجد .

ويقوم سقف المسجد على أربعة أعمدة بنائية « تعلوها اكتاف بنائية ،ويبلغ قطر كل من هذه الأعمدة ٢,٥٩م وهذه الأعمدة الأربعة تحمل كمرتين من الخشب تمتدان بعرض المسجد وتحمل السقف المكون من عروق خشبية متقاربة ،ويبلغ ارتفاع المسجد ٦,٤٥م تعلو شرفات ذات شكل ثلاثى النصوص تتوسط كل منها فتحة صغيرة مستطيلة الشكل .

ملحقات المسجد :

يلحق بمسجد العياط هذا مجموعة منشآت من أسبلة وكتاتيب ومكتبة وأضرحة وتعرف ساحة المسجد بساحة العياطين حيث توجد بها مجموعة من الأضرحة من بينها ضريح الشيخ العياط ضريح أحد أبنائه .

وعلى يسار الداخل الى المسجد يوجد جدار يمتد شرقا بامتداد جدار القبلة للمسجد ويطول ١١,١٥م ويؤدى الى قبوة وحجرتين ويعلو ذلك ثلاث حجرات تستخدم كمكاتب لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ، وكل هذا مبنى باللبن . ويبلغ عمق كل من الحجرات والقبوة ٣,٥٠م ، والقبوة مفتوحة بعقد مرتفع يقارب السقف وتبلغ اتساع فتحته ٢,٥٥م وهذا العقد مكسوبالطوب المنجور الأسود رغم ان الجدران من اللبن ويدخل منه الى الحجرتين المجاورتين وكل منهما مسقوفة بقبة منخفضة من الآخر.

والجدار العمودى على هذا القبواى الجدار الشرقى عبارة عن باب متوج بعقد نصف دائرى يؤدى الى غرفة مسقوفة بالاجر تقوم على اربعة حنايا ركنية قبتها المنخفضة . وبالجدار الجنوبى لهذه الغرفة باب يتوجه عقد نصف دائرى ايضا من الاجر يؤدى الى درج يصعد منه للمكتب الذى يعلو الحجرات والقبو السابق بينما فى جدارها الشمالى باب صغير منخفض الارتفاع يتوجه عقد نصف دائرى ، وقد كان هذا الباب يؤدى الى ضريح الشيخ العياط ثم سد بالاجر حديثا بعد أن بنى ضريح جديد للشيخ العياط .

المكتب :

يؤدى السلم الى باب اتساع فتحته ١,٤٣م يؤدى الى حجرة مساحتها ٣,٧٠×٣,٧٥م تقريبا فى الجدار الشمالى لتلك الحجرة نافذة تطل على الفناء امام المسجد قياسها ١,١٠×١,٩٥م .

وبجدارى هذه الحجرة الشرقى والغربى بابان الأول تبلغ اتساع فتحته ١,١٠م ويؤدى الى حجرة غير منتظمة الاضلاع تقوم على المدخل المؤدى الى هذا الكتاب . وبكل من ضلعيها الشمالى والجنوبى نافذة بالاضافة الى بعض الطاقات بجداريها الشرقى والغربى .

بينما الحجرة الغربية من تلك المجموعة تبلغ مساحتها ٣,٧٠×٧,٤٠م طولا وبجداريها الشمالى والجنوبى نافذتان متقابلتان اتساع كل منهما ١,٥٠×,٨٠م ارتفاع ومثلهما نافذة اخرى فى الجدار

الغربى المواجه للمسجد وبجدران هذه الحجرة طاقات تستخدم لوضع القناديل وباعلى الجدار الجنوبى اربع فتحات صغيرة للاضاءة والتهوية . وسقف هذه الحجرات مجدد حديثا من العروق الخشبية والألواح ، وجميع هذه الحجرات مبنيه من اللبن ومازالت تستخدم حتى الآن لنفس الغرض الذى انشأت من اجله كمكاتب لتحفيظ القرآن الكريم .

المكتبة :

يلحق بمسجد العياط ببنى عدى مكتبة ملتصقة به تقوم على الحجرات المقببة الملحقة بالجدار الشمالى للمسجد ومساحة هذه المكتبة مستطيلة يبلغ طولها ١٢,١٠م وعرضها ٣,٦٠ ونوافذها هى نوافذ جدار المسجد الشمالى فيما عدا نافذتها الغربية المطلة على الجبل الغربى والبالغ اتساع فتحتها ١,١٠م. ويصعد الى هذه المكتبه بدرج خشبى له درابزين من الخشب ايضا وقد استبدل هذا الدرج الخشبى حديثا بدرج من الآ جر . وبينما يبلغ سمك الجدران فى الحجرات التى تقوم عليها هذه المكتبة ٩٥سم فان جدران المكتبة نفسها يبلغ سمكها ٦٢سم .

وبهذه المكتبة دواليب خشبية تمتد بطولها ، ومازالت تحتوى على الكثير من المخطوطات فى الفقه والشريعة والنحو والادب ، تشير الى المستوى العلمى المرتفع لطلبة العلم بمسجد العياط ببنى عدى ومما هو جدير بالذكر ان هذه المكتبة تحتوى ايضا على بعض الاناجيل المخطوطة التى ترجع الى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى .وللاسف فان مخطوطات تلك المكتبة تتبدد سريعا نتيجة لتعرضها للضياع او التلف ، واشير فيما يلى الى بعض هذه المخطوطات مع ذكر تاريخ نسخها ان وجد .

(١) الجزء الرابع من مخطوط فتح الجليل فى تحرير ما حواه مختصر خليل للعلامه الشيخ على الأجهورى رحمه الله فى البيوع وغيرها وهو مخطوط ضخم فى الفقه المالكى يقع فى ستة عشر فصلا ، وقد تم الفراغ من نسخة فى شهر صفر سنة ١٢٦٧هـ . وهو مكتوب بحبر الساج الأسود وفواصل حمراء ، وله غلاف متهرىء من الجلد البنى اللون . ومقاس أوراق هذا المخطوط ١٦×٢٠سم.

(٢) الجزء الخامس من المخطوط السابق ، ويقع فى اكثر من ١٥٠٠ ورقة متهرىء الأطراف وان كان نص كتابته مايزال واضحا . وله غلاف من الجلد البنى اللون ، وحجم أوراقه ١٦×٢٠سم ايضا وقد تم الفراغ من نسخه فى ٢٥صفر سنة ١١٦٦هـ.

(٣) الجزء الرابع من مخطوط الخرشى على العدوى ، وهو مخطوط فى الفقه المالكى ايضا ، داخل غلاف متهرىء من الجلد البنى اللون مكتوب بالخط الرقعة بالحبر الأسود وفواصله باللون الأحمر ومقاس أوراقه ١٦ × ٢٠ سم وكتب على الورقة الأولى منه أوقف هذا الكتاب الجليل الشيخ على احمد العياط بمسجد جده الأستاذ العياط.

(٤) مخطوط « شرح خطبةالشيخ خليل للامام الشيخ على الأجهورى »وكتب على الورقة الأولى من هذا المخطوط « اوقف هذا الشرح المبارك شيخ العرب الحاج محمد حسين وافى بالمدرسة الكاينة بجوار العياط ، وهو مخطوط فى الفقه المالكى كتب على الورقة الأخيرة منه تاريخ الانتهاء من نسخه فى الخامس من شهر ربيع الثانى سنة ١١٩٣هـ على يد محمد بن الحاج

عبد الرازق العدوى بلدا المالكى مذهبا . ومقاس اوراقه ١٦×٢٠سم وله غلاف متاكل من الجلد البنى اللون له اطار من الزخرفه على شكل صغيرة . وقد كتب بخط النسخ الواضح وفواصله باللون الأحمر .

(٥) مخطوط فى الفقه المالكى عبارة عن الجزء الأول من شرح الشيخ احمد الدردير على الشيخ خليل [١] ، ويعرف هذا الشرح بالشرح الكبير [٢] ، ويقع هذا الجزء من المخطوط فى حوالى ٥٠٠ ورقة . وقد كتب على الورقة الاولى « اوقف وحبس هذا الكتاب الشيخ الحاج على احمد العياط على طلبة العلم بمسجد جده لا ينقل منه بينما كتب على الورقة الاخيرة تاريخ النسخ فى ١٢١٥هـ وقد كتبت البسملة والبدايات والفواصل بالحبر الأحمر ومقاس أوراق هذا المخطوط ايضا ١٦×٢٠سم.

(٦) «الجزء الرابع من حاشية المحقق المدقق السيد أحمد الطحطاوى على الدر المختار بشرح تنوير الأبصار »ويقع هذا المخطوط فى ٤٤٤ ورقة وكان الفراغ من نسخه سنة ١٢٣٥هـ ، واوراقه مرقمة وله فهرس حسب الأبواب والفصول وأرقام الأوراق ويبلغ مقاس أوراقه ١٦×٢٠سم وهو داخل غلاف من الجلد البنى اللون وفى حالة جيدة .

(٧) الجزء الثالث من حاشية الشيخ البنانى على الزرقانى ، ويقع هذا المخطوط فى حوالى ٦٠٠ ورقة، كتب على الورقة الأولى « وقف الشيخ على العياط بمحل جده » وكتب على الورقه الأخيرة تاريخ النسخ فى سنة ١١٧٣هـ .

(٨) مخطوط عبارة عن الجزء الرابع من شرح الشيخ عبد الباقى الزرقانى على مختصر خليل بن اسحاق ، وهو مخطوط فى الفقه المالكى مكتوب بالحبر الأسود وفواصل حمراء على ورق قطع ٢٢×٣٢سم وعلى الورقة الأولى كتب « وقف وحبس هذا الجزء المبارك الحاج محمد حسين وافى على طلبة العلم بمدرسته بجوار رابية بساحة اولياء الله الاكابر العياطين نفعنا الله بهم وتقبل واثابه امين ولا ينقل من محله ابدا » ولا يوجد تاريخ النسخ على هذا الجزء وهو بحال جيدة وان تهرات الورقة الأولى والأخيرة وأيضا الغلاف الجلدى.

(٩) مخطوط الجزء الثانى من حاشية الخرشى للعمدة الفاضل الشيخ على الصعيدى العدوى (هو شيخ الشيخ الدردير) ، ومقاس اوراق هذا المخطوط ٢٢×١٦سم وهى داخل غلاف من الجلد الصغر ، وهو مخطوط فى الفقه المالكى كتب على العياط ، ولا يوجد به تاريخ النسخ نظرا لفقد الورقة الأخيرة منه

(١٠) حاشية الزرقانى على العزيز للشيخ العلامة الشيخ على المنسفيسى وقد كتب على الورقة الأولى من هذا المخطوط «وقف وحبس هذه الحاشية المباركة الحاج محمد حسنى وافى على طلبة العلم بمدرسته التى بجوار رابية برحاب الأولياء الأكابر العياطين لا تباع ولا توهب . وقد كتب المخطوط بالخط الرقعة بالحبر الأسود وفواصل حمراء على ورق مقاس ١٦×٢٠سم . ولم يدون تارخ نسخه مع وجود الورقة الاخيرة به .

(١١) «الربع الرابع من حاشية شيخنا العلامة سيدى محمد الدسوقى على شرح شيخنا الدردير على فن العلامة خليل وهو مخطوط ضخم الحجم يقع فى حوالى ٧٠٠ ورقة دون على الأخيرة

منها تاريخ النسخ فى سنة ١٢٣٣هـ . وكتاباته بالحبر الاسود وفواصل حمراء . وهو داخل غلاف من الجلد الأصفر اللون ومقاس أوراقه ١٦×٢٠سم.

(١٢) مخطوط داخل غلاف من الجلد الأصفر اللون قياس ١٦×٢٢سم وهو عبارة عن الجزء الثالث من كتاب سيدى محمد الخرشى « أوقفه محمد أحمد كاشف جمال الدين بجامع العياط ببنى عدى لا ينقل منه ، وهو مخطوط كامل وبحاله جيده ، غير أنه لم يدون به تاريخ نسخه وان كان الواقف قد توفى فى منتصف القرن ١٣هـ.

(١٣) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى » تأليف القاضى عياض (ابو الفضل عياض بن موسى عياض) وتاريخ نسخ هذا المخطوط سنة ١٠١٣هـ٥).

(١٤) شرح الجوهرة « تأليف الشيخ عبد السلام ويرجع تاريخ نسخه الى سنة ١١٨١هـ .

(١٥) «مصحف شريف » نسخ افقر العباد محمود عمورى بن محمد بن الشيخ موسى العمورى بلدا المالكى مذهبا سنة ١١٦٨هـ .

(١٦) « حاشية جامع الجوامع » وتاريخ نسخه ستة ١١٢٩هـ

(١٧) «الخازن » تأليف على بن محمد بن ابراهيم الشهير بالخازن وهو كتاب فى التفسير، تاريخ المخطوط ١١٨٣هـ .

(١٨) «عمدة أهل التوفيق » والتسديد فى شرح عقيدة أهل التوحيد « للعلامة السيد محمد السنوسى – تارخ المخطوط أربعة جمادى الأولى سنة١١٥٢ .

(١٩) شرح الامام الفاضل العلم العلامة ابن عمر المدعو بسعد التفتزانى لتخليص المفتاح للشيخ يوسف السكاكى سنة ١١٩٠هـ فى ١٧ جمادى الأولى .

(٢٠) « شرح العزية » للشيخ يوسف الزرقانى – تاريخ المخطوط ١٠٨٢هـ.

(٢١) جزء من القرآن الكريم بخط نسخى رائع وفواصل مذهبة بدون تاريخ .

(٢٢) الكوكبين النيرين على تفسير الجلالين – مخطوط دون تاريخ .

(٢٣) «حواشى نفيسه على مختصر السعد » للامام العلم العلامة يوسف الحفناوى وتاريخ نسخه ١١٢٣هـ.

(٢٤) مختصر شرح السرقندية فى الاستعارات ، وهو مخطوط فى البلاغة يرجع الى سنة ١١٩٨هـ

هذا بالاضافة الى عشرات المخطوطات الأخرى التى تدور حول نفس الموضوعات السابقة والتى يمكن للمتخصصين فى ذلك المجال من الدراسات ان يفيدوا منها فائدة عظيمة .

لقد كان طبيعيا ان تفرز ساحة مسجد العياط ببنى عدى العشرات من كبار علماء الدين على مدى أجيال متعاقبة بعد أن هيأت لها الظروف جميع الامكانات لتؤدى دور الأزهر الشريف فى تلك المنطقة النائية وقد ساعد على ذلك ما جبل عليه أبناء تلك المنطقة من تعلق بالدراسات الدينية ورجال الدين ، ومن المؤكد أن قرية بنى عدى كان لها دور الريادة فى هذا المجال فى فترة سابقة على العصر العثمانى فها نحن نجدعرب منفلوط يثورون على واليهم الأمير سيباى العلائى الاينالى

(والى منفلوط وبنى عدى تابعة لها فى ذلك الوقت زمن سلطنة الأشرف اينال ٨٥٨-٨٦٥هـ) بسبب قبضه على الشيخ محمود شيخ بنى عدى ويطردون هذا الوالى الذى يلجأ الى اسيوط ، وعندما يرفض الافراج عن الشيخ يتعقبونه هناك ويقتلونه .

ويذكر على باشا مبارك « ان بنى عدى مشهورة بالعلماء من قديم الزمان ، والجامع الأزهر لا يخلو منهم ولا ينقص المجاورون منهم به عن نحو الثلاثين ، ومنهم شيخ رواق الصعائدة غالبا ومنهم المدرسون والمؤلفون قديما وحديثا »

ومن اهم علماء بنى عدى واشهرهم الشيخ على بن أحمد بن مكرم الله الصعيدى العدوى ، ولد ببنى عدى سنة ١١١٢هـ وبعد ان نزح الى القاهرة حضر درس كبار مشايخ عصره ثم درس بالأزهر وذاع صيته وكان على علاقة طيبة بعلى بك الكبير ثم محمد بك ابو الدهب الذى عينه مدرسا للحديث بمسجد تجاه الازهر الشريف فى نفس الوقت لم يتخل عن درسه بالأزهر ولا عن قراءته للحديث فى مسجد الغريب عند باب البرقية فى وظيفة سبق ان خصصها له عبد الرحمن كتخذا هذا بالاضافة الى قيامه بدرس الجمعة بجامع مرزة جوريجى ببولاق.

لقد كان علماء المالكية قبل الشيخ على بن مكرم الله يقومون بتدريس مؤلفات (متون) السلف الصالح فأدخل الشروح (الحواشى) على هذه المتون ، اذ لم يكن التصدى لتدريس مؤلفات خاصة بالقائم بالدرس أو معاصرية أو حتى القيام بتأليف مولفات تعكس آراء صاحبها بالشيء المستساغ حسب الأعراف التعليمية فى ذلك الوقت الذى انتشرت فيه شروح المتون بل وشروح الشروح ، وللشيخ مكرم الله اكثر من تسع حواشى أو شروح ضخمة على متون سابقة فى فقه المالكية والتوحيد واللغة.

ومن علماء بنى عدى أيضا محمد بن عبادة بن برى المالكى قدم فى منتصف القرن ١٢هـ وبعد ان اجيز للتدريس بالأزهر تصدى للتأليف فألف عدة شروح منها حاشية على شرح ابن جماعة فى مصطلح الحديث وحاشية على جمع الجوامع فى الأصول وحاشية على شرح ابن الحسن فى الفقه وغيرها .

ومن أبرز علماء بنى عدى الشيخ حمد الدردير ولد بقرية بنى عدى سنة ١١٢٧هـ وله مؤلفات عديدة بعضها شروح وبعضها متون لعل اهمها «اقرب المسالك لمذهب الامام مالك » وهو فى فقه ذلك المذهب ومن مؤلفاته ايضا « تحفة الاخوان فى آداب أهل العرفان » فى التصوف وله رسالة فى متشابهات القرآن . وقد توفى هذا العالم الجليل سنة ١٢٠١هـ ودفن بزاويته بخط الكعكيين بجوار ضريح سيدى يحيى بن عقبب .

ومن ابنائها ايضا الشيخ عبد الله القاضى ولد بها سنة ١١٨١هـ تولى مشيخة رواق الصعائدة بالازهر الشريف ثم مشيخة المالكية وجمع بين الوظيفتين حتى وفاته ١٢٥٧هـ . ومنهم ايضا الشيخ أحمد كابوه شيخ رواق الصعائدة من سنة ١٢٦٦هـ حتى سنة ١٢٨٤هـ ، ومحمد الحداد المالكى العدوى والشيخ محمد بن عبد الرحيم قطه المالكى العدوى والشيخ منصور كساب صاحب المؤلفات والحواشى العديدة وغيرهم وغيرهم كثيرين .

وكما لبنى عدى دورها الرائد فى نشر التعليم فى تلك المنطقة ، فقد كان لها ايضا دورها الرائد والمتميز فى قيادة حركة المقاومة الشعبية التى تصدت للحملة الفرنسية فى منطقة اسيوط ، وبنى عدى قرية ارخت لمدينة واصبح لها مكانتها فى تاريخ مصر الحديث ، واتخذ من ذكرى تصديها للحملة الفرنسية فى ١٨ ابريل سنة ١٧٩٩ عيدا قوميا لمحافظة اسيوط . والواقع ان بنى عدى بما اوتيت من موقع خصيب وتعداد سكانى لا بأس به وما جلب عليه أهلها من شيم العرب واخلاقهم كانت دائما ومن قبل الحملة الفرنسية بكثير تجبر المماليك على ان يدخلوا فى نوع التسوية الخاصة بسداد الضرائب المفروض عليهم ولا يسمحوا للمماليك بأن يأخذوها سلبا ونهبا مما جعل بنى عدى مشهورة بحفظ ودائع اعيان البلاد المجاورة من الذهب والمال وخلافه ، وربما كانوا يأخذون أجرا على ذلك .

والواقع ان اهالى بنى عدى لم يكونوا راغبين فى الصدام مع جنود الحملة الفرنسية فعندما وصل جنود الحملة الفرنسية الى بنى عدى لأول مرة وجدوا اهلها حذرين فى مسايرة المماليك فى هجماتهم المتكررة على الحاميات الفرنسية فى المدن القريبة والسفن التى تحمل الجنود والمؤن ، وقابلوا جنود الحملة بشكل سلمى وشعور ودى وقدموا لهم الخدمات الضرورية دون خوف أو وجل على حد تعبير أحد المرافقين للحملة ، واستقبل أهالى بنى عدى رجال الحملة الفرنسية ورفضوا دخولهم قريتهم ووافق الفرنسيون على ذلك وقضوا ليلتهم فى قرية «بنى سند» وهى احدى القرى المجاورة لبنى عدى ، غير أن لجؤ رجال مراد بك الى بنى عدى بعد ذلك واشتراك الأهالى معهم فى مهاجمة سفن الحملة بمنفلوط واتخاذ هم بنى عدى مركزا للثورة والثوار ، واجتمع بها ما يقرب من ٤٠٠٠ من الأهالى والمماليك والبدو المسلحين ، ثم امتناع أهالى بنى عدى عن دفع المال الميرى ، كل ذلك جعل الجنرال دافوا يتجه اليها بجنوده حيث تصدى لهم الأهالى الذين كانوا قد حولوا منازلهم الى مايشبه القلاع الحصينة ، ودارت المعارك فى طرقات بنى عدى بين الأهالى وجنود الحملة الفرنسية بعد انسحاب مماليك مراد بك الى الواحة التى قدموا منها ، وقتل فى هذه المعركة الكولونيل بينون قائد القوات المهاجمة ، ولقى الفرنسيون مقاومة شديدة اضطرتهم الى اضرام النار فى القرية كلها فأصبحت بنى عدى على حد قول الجنرال برتييه رئيس اركان حرب الحملة الفرنسية «اكواما من الخرائب وتكدست القتلى فى شوارعها ، ولم تقع مجزرة أشد هولا مما حل ببنى عدى » وحرق فيما حرق مسجد العياط السابق ذكره .

وذهب الفرنسيون من حيث اتوا وبقيت بنى عدى قرية فى جنوب مصر وعلامة مضيئة فى تاريخ مصر الحديث .

* * *

الهوامش

١ – هو خليل بن اسحق بن موسى المالكى من علماء القرن التاسع .

٢ – للشيخ الدردير كتابان أحدهما يسمى الشرح الصغير والآخر يسمى الشرح الكبير وهو شرح كتاب خليل ويعتبر الشيخ الدردير من أكبر من خدموا مذهب مالك .

* * *

المصادر

(١) الجبرتى ، عبد الرحمن : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، طبعه دار الجيل – بيروت .

(٢) الرافعى ، عبد الرحمن : تاريخ الحركة القومية ، دار المعارف ١٩٨١ ..

(٣) على باشا مباك ك الخطط التوفيقية الجديدة لمصر – القاهرة ط . بولاق ١٣٠٥هـ .

(٤) عبد العزيز ، حمزة : الآثار الاسلامية بمنفلوط . رسالة ماجيستير غير منشورة – كلية الآداب – جامعة اسيوط ١٩٨٤ .

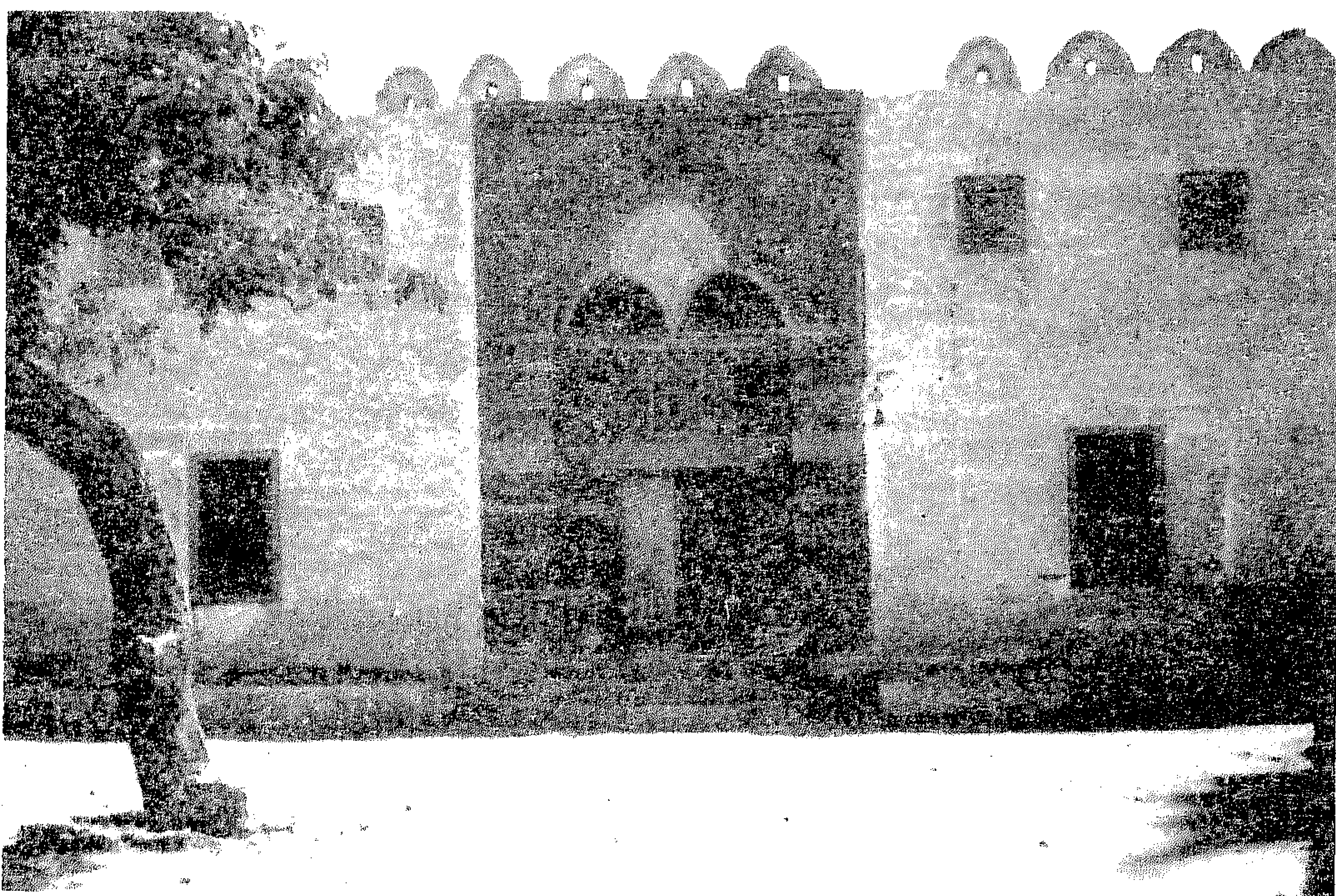
(٥) د . عليه فرج : التعليم فى مصر بين الجهود الأهلية والحكومية . الاسكندرية – ١٩٧٦ .

(٦) Barker , Edward B , Bied : Syria and Egypt . under the last five sultans of turkey london 1876.

(٧) Denon, Vivant : Travels in upper and lower Egypt, translated byArther Aikin London 1803.

(٨) Terance Wal 3 : Trade between Egypt and bilad As- Sudan 1700 - 1820 - Le Caire 1978 .

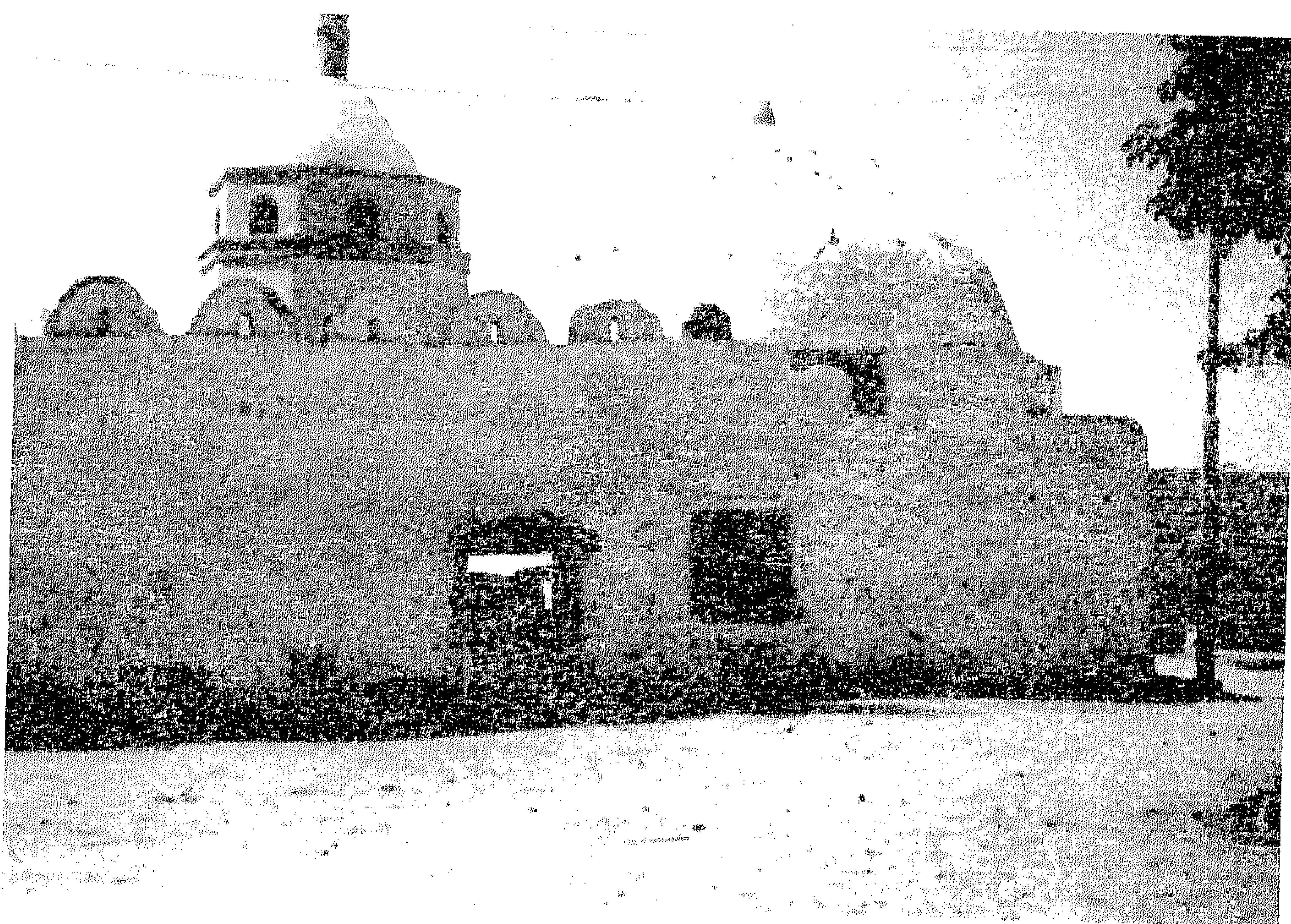
* * *



اللوحة (١) مسجد العياط ببنى عدى



اللوحة (٢) محراب مسجد العياط ببنى عدى



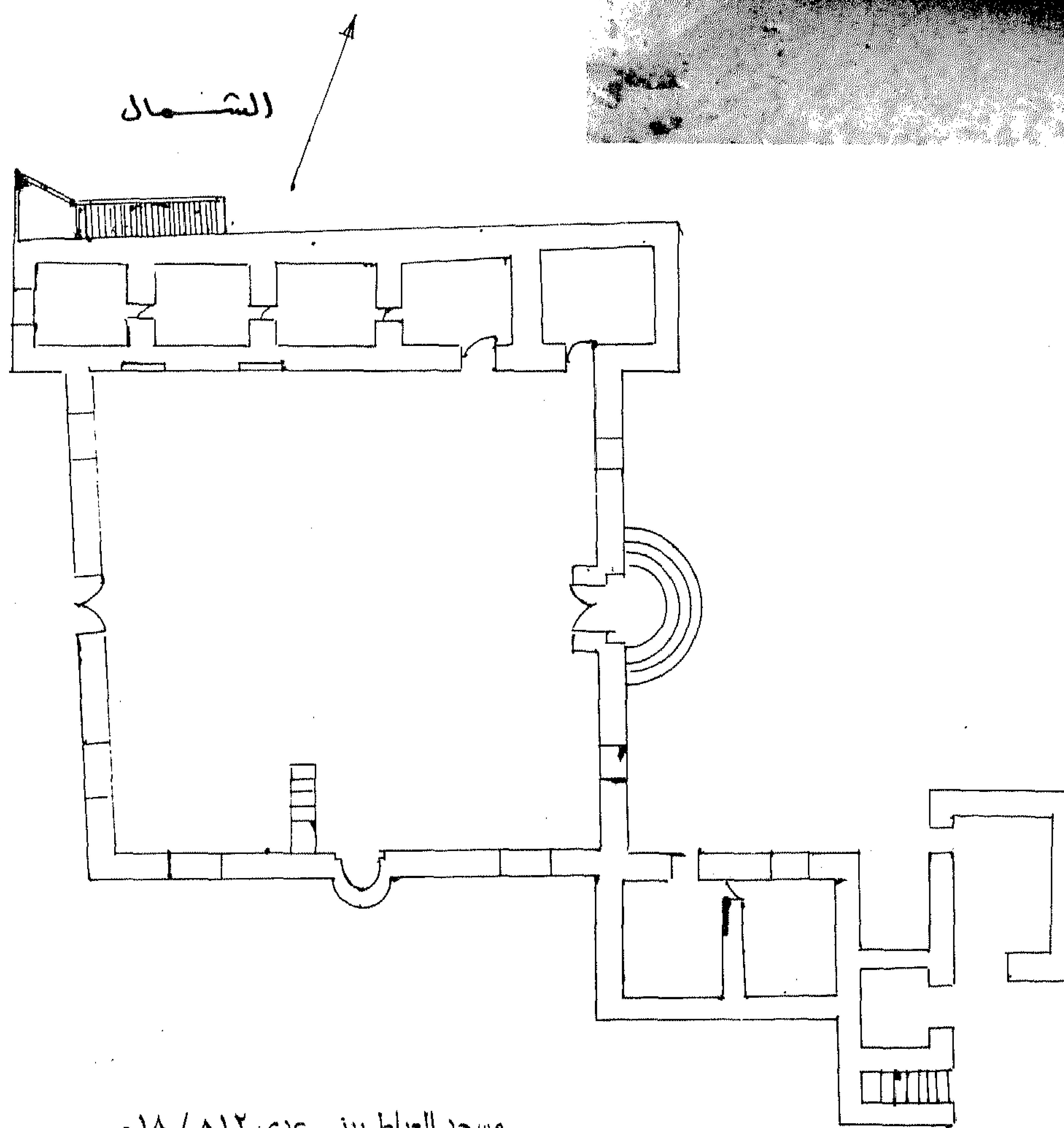
اللوحة (٣) إحدى القباب بساحة مسجد العياط ببنى عدى



اللوحة (٤) ساحة مسجد العياط وبعض ملحقات المسجد

اللوحة (٥)
مدخل ملحقات مسجد العياط ببنى عدى





مسجد العياط ببنى عدى ١٢هـ/ ١٨م

قضية « موت آريوس »
في محكمة التاريخ

دكتور / رأفت عبد الحميد محمد

فى يوم من أيام سنة ٣٣٦ ، ارتاعت القسطنطينية لخبر رددته الجموع ، إنطلق من أحد الشوارع الخلفية فى العاصمة الإمبراطورية الجديدة ، يقول .. مات آريوس .. قس الإسكندرية الأشهر !! وانقسم الناس بين مصدق للخبر ومكذب ، بين فرح فخور ، ومغتم كسير . وتساءل الجميع .. كيف حدث ذلك ؟ ولماذا فى هذا الوقت بالذات ؟! ولماذا أيضا على هذه الصورة البشعة ؟! أليست المدينة كلها تستعد للقاء الغد المرتقب بين الراحل هذا ، واسكندر أسقف حاضرة الإمبراطورية ؟ أليس على موعد بأمر الإمبراطور قسطنطين ، لمناظرة الأسقف حول قاعدة الإيمان ؟! أليس على موعد لإقرار قبوله فى شركة الكنيسة ثانية بعد الحرمان ؟!

ودقت أجراس الكنيسة ابتهاجا .. وصمتت دوائر القصر ! وأشارت أصابع الاتهام من جانب أنصاره ، إلى هنا وهناك . ولف القضية مع التاريخ غموض حالك كثيف كقطع الليل البهيم .. نحاول أن نتلمس الخطى فيه بأمانة المؤرخ ونزاهة القاضى . وهذا يقتضينا أن نرتد على آثارنا قصصا ، لنكون مع الأحداث عند بداياتها ..

كان ذلك منذ ثمانية عشر عاما خلت قبل أن يلقى آريوس حتفه ، أعنى عام ٣١٨ ، عندما اختلف هذا القسيس السكندرى فى الرأى مع أسقفه ، حول الأقنوم الثانى فى الثالوث .. الكلمة .. الإبن . فبينما كان إسكندر أسقف الاسكندرية ، يبشر بـ «الآب الوحيد غير المولود .. الواجب الوجود، [لا يتغير ولا يزول ، هو غاية الكمال ، لا يتكثير عليه نقصان أو زيادة] . معطى الشريعة والأنبياء والأناجيل ، رب الأنبياء والرسل وكل القديسين ، وبرب واحد يسوع المسيح إبن الله الوحيد المولود .. ليس مولودا من العدم بل من الآب على نحو لا يدركه العقل ، الإبن لا يتغير والآب .. الإبن لا ينقص عن الآب شيئا سوى ليس غير مولود .. هو الإبن الكامل وصورة الآب التامة» (١) .

بينما كان اسكندر يبشر بذلك رعيته ، كان آريوس يرى رأيا مخالفا ، ويؤمن به عن اقتناع كامل، يتفق عنده ومنطق الأمور التى تقتضى أسبقية الآب فى الوجود على الإبن ..فـ «الله عند آريوس لم يكن دوما أبا .. فهناك فترة من الزمن لم يكن الله فيها أبا ؛ ذلك أن كلمة الله لم تكن دواما .. ولكنها من العدم نشأت . فالله قد جعل هذا الذى لم يكن من ذلك الذى لا وجود له . ذلك أن الإبن مخلوق ، لا يساوى الإب فى الجوهر ، ليس «الكلمة» الحق الطبيعية للآب ، ليس حكمته الحقة ، إنما هو أحد الخلائق ، دعى «الكلمة» خطأ و«الحكمة» . فهو قد نشأ بذات «كلمة» الله ، وبالحكمة الكامنة فيه ، التى بها سوّاه الله وسواه . ومن ثم فهو بطبيعته عرضة للتغيير والتغاير شأن كل الخلائق . والآب .. كيف يصفه الابن ؟! إن الكلمة لا تعرف كنه الآب ، الإبن لا يعاين الآب يقينا ، بل الابن لا يعرف جوهره هو !! من أجلنا جبل .. يخلقنا الله به ، لم يكن يوجد لولا أن شاء الله خلقنا» (٢) .

وبشئ من الوضوح يمكن القول إن تعاليم الآريوسية كانت تنطلق من اللاهوت العلمى الأفلاطونى القائم على نظرية العقول الثلاثة ، والتى ينحدر منها تلقائيا الفكرة القائلة بأن الخلق المباشر محال . ومن ثم فالآريوسية ترى أن الآب هو الإله الحق ، فى مقابل الإبن الذى ليس إلها حقا ، فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق .. فليس هناك إثنان غير مخلوقين ، إلهان لا متناهيان . ولقد جاء ذلك فى وثيقة رسمية كتبها أحد زعماء الآريوسية ، هو يوساب Eusebius أسقف نيقوميديا Nicomedia فى آسيا الصغرى ، جاء فيها :-

«البتة لم نسمع بكائنين ليسا مولودين ، وما علمنا بانقسام الواحد إلى اثنين .. ولم نع على الإطلاق .. ولم نعتقد ، أن الواحد فى صورة بشرية قد تجسد ، ولكننا نؤكد أن غير المولود واحد» (٣) . وعلى ذلك .. فالله عند آريوس لم يكن دائما آبا ، لأنه قبل أن يوجد الابن كان وحيدا ، ثم أراد الله أن يخلق موجودا أسماه «اللوجوس» .. «الحكمة» .. «الإبن» ، حتى يمكن أن يخلقنا بواسطته ، ولهذا توجد حكمتان ، حكمة خاصة بالله وأخرى يشارك فيها الابن ، كما أن فى الله «لوجوس» آخر غير الابن ، وقد سمى الإبن تكريما له «باللوجوس» . ولله قوة طبيعية ليس كمثلها شئ .. سرمدية . أما المسيح فهو ليس القوة الحقيقية لله ، إنما هو إحدى هذه القوى ، وفى علاقته بالمخلوقات يعتبر خالقا ، أما علاقته بالله فهو مخلوق ، وآلة للخلق وأداة (٤) .

لم يكن آريوس أول الذين ظهروا على الكنيسة بمثل هذه الأفكار ، ولم يكن آخرهم ، فمنذ أخريات القرن الأول الميلادى ، راح كثير من رجال الإكليروس يعملون الفكر فى معتقدهم ، لمجابهة التحديات التى أمست أمرا واقعا ، بعد أن خرجت المسيحية من نطاق اليهودية ، ومضت إلى طريق أمم ، ومن ثم كان على آباء الكنيسة حتما مقضيا ، أن يتخلوا كارهين عن التبشير بمعجزات المسيح على الأرض ، وأن يحاولوا صياغة المسيحية فى قوالب عقلانية ، وتتحدى فكر الأمميين ، أصحاب الثقافات القديمة الزاهرة فى حوض البحر المتوسط ، فلا غرابة إذن إذ اختلطت المسيحية بالفلسفات السائدة ، وأخذت عنها وأعطتها ، وتفاعلت معها . بتعبير آخر .. كان على المسيحية ان تتفلسف ، رغم أن هذا الاتجاه لم يكن يلقى قبولا أو استحسانا فى أول الأمر من جانب عدد من آباء الكنيسة ، إلى الحد الذى دفع مفكرا مثل كلمنت Clemens السكندرى (حوالى ١٥٠ – ٢١٥) ، إلى التندر على هؤلاء النفر ، مشبها إحجامهم عن دراسة الفلسفة وعزوفهم عن سبر أغوارها ، بخوف الطفل من القناع ! وراح يبين لهم أن الفلسفة هى سلاح آباء الكنيسة للرد على خصومهم من الأمميين ، وهى سبيل المسيحية كى تخطو إلى الأمام خطوها فى ثوب علمى . لقد كان كلمنت يعتبر الفلسفة هدية الإله ، والسبيل إلى المعرفة الحقة للمسيح (٥) .

وتحددت معالم هذه الآراء فى اتجاهين رئيسيين ، يتمثل أولهما فى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية لتفسير الكتاب المقدس ، والتى عرفت فى أول الأمر بمدرسة «الموعوظين» Catechesis ثم ذاع صيتها باسم «مدرسة المدافعين» Schola apologetica وهى تعد أول معهد علمى ذا أهمية كبرى للدراسات اللاهوتية فى عالم المسيحية الأول ، وغدا آباء هذه المدرسة مسئولين عن صياغة اللاهوت المسيحى ، ووضع التفسيرات والشروح والتعريفات المحددة للأرثوذكسية . وقد اختطت المدرسة لنفسها نهجا ينبع من اللاهوت الأفلاطونى ، وكان هذا فى حد ذاته سببا فى أن الجموع المسيحية فى الاسكندرية ، ومصر بالتالى ، لم تتأثر بهذه المدرسة كثيرا ؛ ذلك أن الشكل الرمزى ، وحركة التفسير المجازى الصوفى لنصوص الكتاب المقدس ، والتى كانت تتبعها المدرسة فى مسائل الجدل اللاهوتى ، لم تكن تستهوى الكثيرين آنذاك .

أما الاتجاه الثانى فتمثله مدرسة أنطاكية لتفسير الكتاب المقدس والتى اعتمدت العقل فى منهاجها ، واتخذت من المنطق الأرسطى ركيزة لجدالها اللاهوتى ، وكان من أبرز أساتذتها لوقيانوس Lucianus فى القرن الرابع الميلادى ، ويوحنا ذهبى الفم Iohannes Chrysostomos فى أواخر القرن نفسه وأوائل الخامس .

وكان آريوس تلميذا للمدرستين فى آن واحد ، فقد تلقى تعليمه أولا فى الاسكندرية ، وتشرب مبادئها ، مستقيا إياها من كتابات أستاذها الأشهر أوريجن origenes (حوالى ١٨٥ - ٢٥٤) الأفلاطوني الفكر [٦] ، ثم انتقل بعد ذلك إلى أنطاكية ، وتتلمذ على يد أستاذها لوقيانوس ، ونهل من معين أفكاره ، حتى لقد قيل إن مدرسة أنطاكية هى موطن العقيدة الآريوسية ، كما أن لوقيانوس هو الآريوس قبل آريوس نفسه [٧] . وهكذا جمع آريوس بين الفكر الأفلاطونى مستمدا من تعاليم أوريجن السكندرى ، والمنهاج الأرسطى مستقى من آراء لوقيانوس الأنطاكى .، وراح يجهر بدعوة فى الاسكندرية وهو يحاور أسقفه اسكندر حول «الكلمة » .

ولما لم يكن الأسقف السكندرى بقادر على أن يحيى فى عقل آريوس وقلبه من جديد ، معتقد الكنيسة الذى يطمئن هو إليه ، فقد دعا إلى عقد مجمع سنة ٣١٩ تمت فيه إدانة آريوس ، وثنى ذلك فى عام ٣٢١ بمجمع أوسع نطاقا ضمن أساقفة مصر وليبيا ، ليدين من جديد آريوس وأفكاره ، وحصل على موافقة جماعية لهذه الإدانة ، فى المجمع المسكونى الأول الذى عقد فى مدينة نيقية Nicaea بآسيا الصغرى عام ٣٢٥بأمر من الامبراطور قسطنطين Constantinus I (٣٠٦ - ٣٣٧) ، وحضره ثلاثمائه وثمانيه عشر أسقفا يمثلون كنائس الامبراطورية ، غالبيتهم من النصف الشرقى . وتمخض المجمع عن قانون للايمان ، جاء فى جوهره ردا على الآراء الآريوسية ، وغدا من بعد قاعدة الايمان الأرثوذكسى للكنيسة الجامعة . وكان أهم ما احتواه هذا القانون ، العبارتين المتعلقتين بالمسيح ، وهما أنه « مولود غير مخلوق» وأنه « مساو للآب فى الجوهر » Homoousius « الهوموسية» . وكانت هذه العبارة الأخيرة بصفة خاصة ، بابا فتح على مصراعية ليلج منه الصراع اللاهوتى سافرا لزمن طويل من بعد آت .

وصدق الامبراطور على قرارات المجمع ، وأمر بنفى آريوس واثنين من مريديه هما يوساب أسقف نيقوميديا ، وثيوجنس Theognis أسقف نيقية مدينة المجمع ، إلى الشطر الغربى من الامبراطورية ، وإن لم يمض على ذلك ثلاث سنوات حتى أمر قسطنطين بعودة المنفيين ثانية إلى ديارهم وكنائسهم فى عام ٣٢٨ ، وهى السنة نفسها التى مات فيها اسكندر وخلفه أثناسيوس Athanasius أسقفا للإسكندرية ، وهو الذى كان يكن عداء كاملا لآريوس وآرائه وصحبه ، وارتبط اسمه ارتباطا كاملا من بعد بقانون الايمان النيقى، وأصبح أشد المدافعين عنه المستمسكين به . ومن ثم رفض قبول آريوس فى شركة الكنيسة ثانية بعد عودته من منفاه ، ولما اضطربت الأمور فى الاسكندرية اضطر قسطنطين إلى استدعاء آريوس إلى القسطنطينية ، وحدد يوما بعينه لإجراء الحوار اللاهوتى بين قسيس الاسكندرية ، وأسقف العاصمة الامبراطورية ، ليتقرر على أثرها قبول آريوس فى شركة الكنيسة ، بعد أن أمر الإمبراطور باعتبار إيمانه قويما [٨] ، لكن آريوس مات فجأة فى يوم السبت السابق على اليوم الموعود .

وكان أثناسيوس ، الأسقف السكندرى (٣٢٨ - ٣٧٣) هو أول من سجل لنا بقلمه قصة آريوس على هذا النحو المفاجئ [٩] ، وذلك فى رسالة بعث بها الى الراهب المصرى سرابيون Serapion الذى تولى رعاية كنيسة بلدة « تمى » Thumuis فى الفترة ما بين عامى ٣٣٧ - ٣٣٩ ، وكان فى الوقت ذاته يعد الساعد الأيمن لأثناسيوس بعد ذلك ، خاصة فى فترات نفى الأسقف . وجاءت هذه الرسالة Ad Serapionem de morte Arii بناء على طلب الراهب نفسه من أسقفه ، كى يبين له الظروف التى

أحاطت بموت آريوس. وقد انتهز أثناسيوس هذه الفرصة ، ليبين لسرابيون ومن ورائه جموع الرهبان فى مصر ، موقفه المناوئ وإدانته للآراء الآريوسية ، ويستحثهم على التصدى للآريوسيين ومجابهة تحدياتهم خلال نفيه الآن (١٠) .

والرواية كما وردت عند أثناسيوس تقول ، إن آريوس قبيل غروب يوم السبت ، دعته الضرورة المفاجئة والملحة ، إلى أن ينتحى جانبا تاركا رفاقه ، ليقضى حاجته ، فلما استبطأ الرفاق عودته ، راحوا يلتمسونه فى المكان الذى ذهب إليه لقضاء الحاجة ، فألفوه ميتا !

وعن أثناسيوس نقل مؤرخا القرن الخامس الكنسيان ، ثيودوريت (١١) Theodoretus وسوزومين Sozomenos ، نقلا كاملا ، وأشار إلى ذلك صراحة ، وإن كان ثانيهما يزيد على ذلك أن آريوس شعر بآلام حادة فى أمعائه ، دفعته إلى تلبية نداء الطبيعة (١٢) . هذا على حين نجد مؤرخ القرن ذاته ، معاصرهما .. سقراط Socrates يذكر الحادثة نفسها ، ولكنه يضيف تفاصيل كثيرة عن الحالة التى وجد عليها آريوس فى ميتته ، فيذكر أنه ما أن ذهب لقضاء حاجته حتى أصيب بدوار عنيف ، بينما صحب الغائط نزيف حاد ، متضمنا بعض أجزاء صغيرة من الأمعاء والكبد والطحال ! فمات لساعته !! (١٣) .

وما يقوله أثناسيوس ومن نقل عنه ، غاية فى البساطة ، لكنه فى الوقت نفسه غاية فى الغموض، يقود إلى الحيرة . وما يرويه سقراط .. غاية فى التفاصيل ، غاية فى التعقيد ، يدفع إلى الشك والريبة . خاصة إذا أضفنا إلى ذلك ما يذكره من أن المكان الذى فقد فيه آريوس حياته ، مازال معروفا لدى الناس فى القسطنطينية فى زمانه يشيرون اليه (١٤) . ومن المعروف أن سقراط كان أحد مواطنى العاصمة الأمبراطورية .

والموت المفاجئ لقس الاسكندرية ، ثم الموت على هذه الصورة بشكل خاص ، يضع أمام الباحث علامات استفهام كبيرة ، دفعت بمؤرخ شهير مثل ادوارد جيبون E. Gibbon إلى القول صراحة بأن آريوس قد مات مسموما !! بل إن علامات الاستفهام هذه ، لم تكن عن قلم سوزومين ببعيد ، عندما سجل ما يتناقله الناس عن موت آريوس على هذا النحو ، والتفسيرات المختلفة التى يضعها كل فريق ليبرر وجهة نظره فى ذلك الأمر (١٥) . وقريب من هذا جدا ، ما يقوله أثناسيوس بالحرف الواحد : « إن الموت نهاية كل بنى البشر ، وليس لنا أن نلقى باللوم على إنسان ودع الحياة ، حتى ولو كان من بين أعدائنا ، فإنا لا ندرى أيمتد بنا العمر حتى المساء أم يقصر ؟ لكن نهاية آريوس كانت شيئا فريدا للغاية ، لابد أن يثير عددا من الملاحظات » (١٦) .

والذى يزيد الأمر حيرة وارتيابا ، أن المصدر المعاصر لهذه الواقعة ، صمت عنها صمتا مطبقا ، ولم يشر إليها مطلقا ، بل لم ينبس ببنت شفة عن موت آريوس ، أعنى بذلك « حياة قسطنطين » Vita Constantint لمؤلفه يوساب أسقف قيسارية فلسطين ، الذى يعد شيخ مؤرخى الكنيسة ، ومداح الامبراطور قسطنطين ، ومن المقربين ! على الرغم من أن يوساب وضع كتابه هذا بعد ثلاث سنوات فقط من وفاة آريوس ، وضمنه العديد من الوثائق الهامة الخاصة بالمسألة الآريوسية ، بينما وضع أثناسيوس روايته هذه بعد حوالى عشرين عاما من ذلك التاريخ ، أى فى خمسينيات القرن الرابع الميلادى .

وثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام ، وهي أن أثناسيوس كتب روايته هذه إبان بلوغ المد الآريوسى أقصاه، وذلك على عهد الامبراطور قسطنطيوس Constantius (٣٣٧ - ٣٦١) الذى أعلن اقتناعه الكامل بالآراء الآريوسية وحاول فرضها قسرا على شطر الامبراطورية الغربى . ومن ثم نجد أثناسيوس يجمع فى قصته بين الفرح لما حدث ، والحذر . فقد كان آنذاك فى بداية فترة نفيه الثالث (٣٥٦ - ٣٦٢) ، وكان يعتقد أن الامبراطور لا يصدر فى عدائه له ، إلا بناء على نصائح مستشاريه الآريوسيين. لكن الأسقف السكندرى كان واهما فى اعتقاده هذا، لذا دفعه حذره إلى أن يذكر فى صدر روايته أنه لم يكن فى القسطنطينية عندما توفى آريوس ، لكن أحد الكهنة ويدعى مكاريوس Macarius كان هناك ، ومنه علم أثناسيوس بتفاصيل الأحداث التى سبقت وصاحبت حادثة الوفاة. وهذه تحسب للأسقف السكندرى حقا ، فمن المعروف أنه كان منفيا آنذاك فى غالة عام ٣٣٦ ، وذلك بناء على أوامر الامبراطور قسطنطين .

أما سقراط ، والذى دون كتابه « تاريخ الكنيسة» بعد مرور قرن من الزمان على وفاة آريوس ، فيذكر فى أكثر من موضع ، وهو يتناول هذا الأمر ، أنه تلقى معلوماته هذه التى يدونها ، عن طريق ما كانت ألسنة الناس فى القسطنطينية مازالت تتناقله ، وما اطلع هو بنفسه على بعض جوانبها . ومن الجدير بالذكر أيضا ، أن سقراط وضع مؤلفه بعد هزيمة الآريوسية ، وانتصار النيقية التى غدت تمثل العقيدة الرسمية للإمبراطورية ، منذ نهاية القرن الرابع الميلادى على يد الامبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٨ - ٣٩٥) . ولذا كانت موجة العداء والتشفى ضد الآريوسية فى ذروتها [١٧]. ولابد أيضا ربط الناس حينئذ بين الآريوسية والقبائل الجرمانية التى اجتاحت الإمبراطورية كسيل العرم ، منذ سبعينيات القرن الرابع الميلادى ، وراحت تقوض دعائم الامبراطورية فى النصف الغربى ، وكان معظم هذه القبائل قد تحول إلى المسيحية فى صورتها الآريوسية ، ولابد أن سقراط كان يعبر عما يعتمل من نفوس معاصريه من عداء ضد هذه الشعوب ، وضد الآريوسية بالتالى ، ومن ثم نرى ما تتسم به روايته من شماتة واضحة .

وفى ظل صمت بعض المصادر المطبق ، وغموض بعضها ، وتعقيدات بعضها الآخر ، وانعدام أى منها عند الجانب الآريوسى ، بعد أن اغتيلت جل إن لم يكن كل الكتابات الآريوسية ، نتيجة لسيادة العقيدة النيقية ، نقول فى ظل هذا اللابرنت ، علينا أن نختط طريقنا بصعوبة بالغة ، وموضوعية بحتة ، وصولا إلى الحقيقة التاريخية أو قريبا منها قدر المستطاع .وهذا يفرض علينا ، من جراء الصورة التى وجد آريوس عليها ميتا ، وكما جرت بها أقلام خصومه النيقيين ، أن نتساءل عن صاحب المصلحة المباشرة فى موت آريوس ؟ أهو الإمبراطور قسطنطين ؟ أم هو اسكندر أسقف القسطنطينية ومن وراءه من النيقيين ؟ بل قد يذهب بنا التساؤل بعيدا إلى حد افتراض أن يكون أنصاره هم الكائدون !!

أتراه قسطنطين ؟! ذلك الرجل الذى حارت فى فكره العقيدى العقول ، والذى جعل من المسيحية فى الامبراطورية الرومانية ، ديانة شرعية riligio licita ورفع عن أتباعها إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ؟ !

إن قسطنطين لم يكن يعنيه فى المقام الأول ، إلا الحفاظ على إمبراطورية ظل يصطرع ومنافسيه على العرش طيلة ثمانية عشر عاما (٣٠٦ - ٣٢٣) حتى يحفظ عليها وحدتها ، ولم يكن يسمح لأى

إنسان ، مهما بلغت مكانته ، أن يحدث صدعا فى هذا البناء الذى أقام هو القواعد منه عبر هذه السنين . لقد أصدر قراره بنفى آريوس فى عام ٣٢٥ عندما رأى أن الغالبية العظمى من أساقفه الامبراطورية قد أدانوه فى المجمع المسكونى الأول ، وحكموا على آرائه بالهرطقة ، وذلك حتى يبعد شبح الشقاق عن دولته . وبعد هذا التاريخ بعشر سنوات أمر بنفى زعيم النيقية ، أثناسيوس ، عندما رأى أن مسلكه فى مصر وخارجها بات يهدد وحدة الامبراطورية، وذلك بعد أن تمت إدانته فى المجمع الذى التأم عقده فى مدينة صور سنة ٣٣٥ ، وضم أساقفة الشطر الشرقى من الامبراطورية .

بل إن قسطنطين لم يكن لديه ما يمنعه من التخلص من أقرب الناس إليه ، فقد أقدم على إعدام زوجته وابنه كريسبوس [١٨] Crispos ولقد التزم شيخ مؤرخى الكنيسة ومداح الامبراطور ، يوساب القيسارى ، الصمت التام إزاء هذه الفاجعة ، وهو يسجل للزمن قصة « حياة قسطنطين» ، وألزم نفسه منذ البداية ، كما كتب بقلمه فى صدر كتابه ، بأن يحدث فقط عن فضائل امبراطور « فاق بمثله وقيمه الآخرين » [١٩] . فهل يمكن أيضا أن يكون قسطنطين هو الذى أقدم على التخلص من آريوس، وآثر كاتب سيرته أن ينهج إزاء هذه الحادثة نهجه إزاء مصرع كريسبوس وزوج أبيه ؟!

وقد يكون هناك من الشواهد ، ما يذهب لنا شيئا ما وراء هذا الاحتمال ذلك أن الامبراطور – كما تقول الروايات – كان قد استدعى إليه آريوس فى صبيحة يوم السبت ذاك ، وراح يحاوره حول عقيدته ! وعما إذا كان يؤمن بما آمن به الاباء فى نيقية ، ويطلب إليه أن يقدم ذلك فى وثيقة رسمية تبرئ ذمته [٢٠] ثم أطلقه إلى حين اللقاء فى اليوم التالى مع اسكندر أسقف القسطنطينية. غير أن آريوس لم يلبث أن لقى حتفه عصر ذلك اليوم ، السبت ، على هذه الصورة التى تثير الانتباه ، والكثير من الملاحظات ، على حد تعبير الأسقف السكندرى أثناسيوس . خاصة وأن الامبراطور ، كان قد بعث فى طلب آريوس من الاسكندرية ، بعد أن كان قد عاد إليها من منفاه ، نتيجة للإضطرابات التى حدثت فى المدينة بين أنصاره وخصومه .

وليس بخاف على أحد ، أن الاسكندرية كانت تمثل للامبراطورية ، الرومانية صومعة الغلال أو قبو الحنطة ، بل سلة الخبز اليومى للعاصمة الجديدة للإمبراطورية ، لقد كان الامبراطور يدرك جيدا أن فتنة على هذا النحو ، فى الاسكندرية ، تمتد عدواها الى باقى أقاليم مصر ، كفيلة بأن تحول دون وصول شحنة القمح السنوية الى القسطنطينية ، ووعت ذاكرته ما حدث قبل ذلك فى عهود أسلافه وهم فى روما القديمة على ضفاف التيبر . ومن ثم أمر على الفور بأن يعود آريوس إلى القسطنطينية ليكون تحت سمع الامبراطور وبصره ، ثم كان ما كان . بل إن قسطنطين لم يتوان لحظة واحدة عن إصدار أوامر بنفى أثناسيوس إلى غالة ، عندما بلغه أن الأسقف السكندرى يعتزم العمل على تعطيل إرسال شحنه القمح السنوية من مصر إلى القسطنطينية ، دون أن يكلف الامبراطور نفسه حتى مجرد سماع دفاع أثناسيوس عن نفسه إزاء هذا الاتهام [٢١] .

لقد كان ما يعنى قسطنطين ، هو ضمان الهدوء فى امبراطوريته واستقرار الأمور منها بعد هذه الحرب الأهلية الطاحنة . ولم يتخلص الرجل من منافسيه العسكريين السياسيين ، ليجد انشقاقا عقيديا قد يودى بوحده دولته . ولم يعتد فكر الامبراطور الرومانى هذا الأمر من قبل،فالامبراطور دائما هو «الكاهن الأعظم» Pontifex Maximus وله فى دولته أمر الدنيا والدين. والفكر السياسى الرومانى لا

يقبل مطلقا بوجود دولة داخل الدولة ، ولا هيئة تمارس شئونها بعيدا عن نفوذ الامبراطور وتدخله الفعلى. ومن هذا المنطلق كتب قسطنطين فى عام ٣٢٤ ، بعد أن غدا الامبراطور الفرد ، رسالة إلى كل من اسكندر أسقف الاسكندرية قبل أثناسيوس ، وخصمه آريوس ، حملها مستشاره للشئون الدينية «هوسيوس» Hosius أسقف قرطبة ، جاء فيها :

« إنى لعلى يقين أن منبع الجدال الماثل هو ذاك .. فأنت يا اسكندر عندما طلبت إلى الإكليروس إبداء رأيهم حول أمر بعينه يخص الناموس ، أو بالحرى عندما سألتهم عن قضية ما من ورائها طائل !! فأنك يا آريوس أصررت بطيش وتهور على أمر ما كان حسنا أن تعمل الفكر فيه ، ولئن خامرك ليدفنن فى غيابة الكتمان . وها هو الخلف بينكما قد نشب ، بعد أن أغفلتما حق الأخوة ، ووقعت الرعية المقدسة فى تمزق حزبى ، ولم يعد للجسد الواحد وجود ... خطأ إذن فى البدء أن تطرح القضايا على نهج هذا ، والخطأ كل الخطأ بعد فى نقاشها فمسائل الجدال هذه وليس لها من الشرعية نصيب ، وتمليها روح صراع ، وليدة فراغ أسئ شغله !! حتى ولو قصد بها رياضة الذهن .. ينبغى أن تظل حبيسة الفكر ، بعيدة عن آذان الجموع » (٢٢) .

على هذا النحو من الوضوح ، يلقى قسطنطين مسئولية الشقاق الحادث ، على تبعة اسكندر وآريوس ، ويلومهما على الخروج بهذه الآراء إلى الجموع ، وكان الأجدر بهما فى تصوره – أن لا تتعدى آراؤهما ، وبالتالى خلافاتهما ، جدران الكنيسة ، بل بالأحرى زوايا فكريهما ، فالناس بجهلهم بمثل هذه الأمور سائرون وراءهما إلى فرقة أو زيغ ، ومن ثم أفصح الامبراطور عن دفين غيظه ، وراح فى لهجة خلت من كل وقار ، يكيل للرجلين أقذع العبارات ويحملها تبعة الفوضى ، ويحذرهما مغبة ما ورطا فيه نفسيهما والجموع ، كاشفا بكل الصراحة عن عدم اهتمامه أو حتى معرفته بطبيعة ما يصطرع حوله الرجلان .. قال :

« إذن لنر .. هل أصبنا حيث اختلفنا فى كلمات العبث والغباوة ،حتى نعادى بعضنا بعضا ؟ وتمزقت جماعتنا لخلف أصابنا بكما ، أنتما يا من يتعالى صياحكما حول نقاط كم هى تافهة .. وضيعة .. سوقية هى .. !! وخلة حمق صبيانى !! تقف والضد من حصافة الاكليروس والعقلاء» (٢٣) .

ثم يحذرهما دون موارية :

« ذلك حديث أقوله الآن لكما ، دون رغبة فى قهركما على التوافق حول هذه المسألة العقيمة مهما كانت طبيعتها . إنكما تتشاجران على أمور لا جدوى منها ، فعليكما إن صعب الوئام ، أن تقصرا تلك على دواخل فكريكما والعقل .. أعيدوا إلى أياما خوالى وليالى غفت فيها جفونى ، حتى ينالى بهجة الضوء الوهاج ومسرة سكينة الحياة » (٢٤) .

هذان خصمان اختصموا فى ربهم ، وقسطنطين يصف المسألة بأنها « وضيعة وتافهة» و «سوقية» !! ومسلكهما بأنه « عبث وغباء وحماقة صبيانية » !! ولا شك إذن أن يبدو الرجل على هذا النحو ، على استعداد تام للإقدام على كل ما من شأنه أن يحفظ لدولته وحدتها وأمنها. لكن لكى يعطى الرجل فرصة حقيقية فى الدفاع عن نفسه أمام محكمة التاريخ ، فلابد أن نجلو الحقيقة كاملة،

وأن نتعرف على الجوانب الأخرى فى سلوك الامبراطور تجاه الاكليروس عامة ، حتى تصبح المحكمة على بينة .

فالرسالة التى ذكرناها توا ، بلهجتها العنيفة ، يجب أن تفسر فى ضوء كون قسطنطين قد خرج لفوره منتصرا على آخر منافسيه ، ليكينوس فى معركة خريسوبولس Chrydopolis عام ٣٢٣ ، والذى لم يلبث أن أعدم فى العام التالى ، وهى نفس السنة التى كتب فيها قسطنطين رسالته هذه إلى قطبى النزاع فى الاسكندرية ، اسكندر وآريوس . ولقد دخل فى روع الامبراطو ، أنه وهو الذى كسب النصر فى معركة السلاح ، قادر ببضع كلمات منه على رأب هذا الصدع ، والقضاء على هذا الخلاف الدائر جدلا بالكلام !! لكنه كان واهما .

ولشد ما كان غيظ قسطنطين ، عندما رأى الشطر الشرقى من الامبراطورية ، أمله ومبتغاه ، يتعرض لمثل هذا الشقاق ، فى وقت كان يعول عليه الكثير من الآمال ، بعد أن أمسى النصف الغربى من الامبراطورية يأتى فى المرتبة الثانية من النواحى السياسية والاقتصادية والعسكرية . لقد قدم إلى الشرق ، واعتلى عرش الامبراطورية منفردا ، وراح يضع حجر الأساس فى عاصمة ملكه الجديدة ، والأمل يحدوه فى عهد آمن مستقر . كان يحسب أن الأمور تجرى لمستقر لها فى درب الهدوء ، لكنه وجد فتنة تسبح فى بحر الشغب !

وكان فشل هوسيوس فى مهمته الى الاسكندرية ، دافعا لقسطنطين كى يعيد حساباته كلها من جديد ، فتفتق ذهنه عن شئ يحقق به غايتين فى وقت واحد أولهما .. القضاء على هذا الشقاق ، وثانيهما وأهمهما ، فرض سلطانه بكونه امبراطورا رومانيا ، يلتزم بقواعد الفكر السياسى الرومانى ، على الكنيسة باعتبارها دائرة من دوائر الحكومة الرومانية ، وليست هيئة مستقلة لها كيانها الخاص . فدعا الأساقفة لحضور مجمع عام فى السنة التالية مباشرة (٣٢٥) فى مدينة نيقية بآسيا الصغرى ، أمه ثلاثمائه وثمانية عشر أسقفا ، وترأس قسطنطين جلسات المجمع ، وأدار دفة الحوار فيه ، وتدخل فى أمر عقيدة لا يعرف عنها شيئا ، ويصف الجدال فيها بأنه « تافه وعقيم» . لكن ذلك كان شيئا ضروريا ليحقق غايته الثانية. ولما انتهى المؤتمرون إلى إدانة آريوس وتعاليمه، صدق على ذلك ، وأمر بنفيه وزميليه يوساب النيقوميدى ويثوجنس النيقى إلى غالة ، وخلع من فيض نعمائه على الأساقفة الآخرين وهم مرتحلون إلى بيعهم (٢٥) .

ولا شك أنه كان بمقدور قسطنطين أن يتخذ من قرارات المجمع المسكونى الأول هذا ، والتى صدرت بأغلبية ساحقة ، ذريعة لإعدام آريوس وزميليه ، والقضاء بذلك على دعوته نهائيا ، فيكسب بذلك عطف الكنيسة وإكليروسها بشكل منقطع النظير ، لكنه لم يفعل ، فقد راح يتحسس بدقة وذكاء متناهيين مواطئ قدمه ، وأين ومتى يضعها . وها هو الآن ينجح فى أن يضيف إلى لقب « الكاهن الأعظم» الوثنى ، لقب « مبعوث الرب» و « الاسقف الأعلى » فى دنيا المسيحية ، ويصبح القاضى وصاحب القول الفصل فى كل أمور الكنيسة ، وسنة لخلفائه جميعا من بعد .

لهذا لم يكد يمضى على ذلك ثلاث سنوات سويا ، أدرك فيها الامبراطور أن شوكة النيقية قد راحت تقوى ، خاصة بعد أن توفى اسكندر السكندرى ، وخلفه أثناسيوس، الشماس الذى كان قد جذب إليه أنظار حضور مجمع نيقية ، وعلى كرسى أنطاكية يجلس النيقى العنيد يوستاتيوس

والاسكندرية ، وأنطاكية هما حاضرتا الشرق الرومانى فى وقت لم تكن فيه القسطنطينية Eustathius قد رأت النور بعد. لذا أصدر أوامره بالعفو عن يوساب النيقوميدى ويثوجنس النيقى، بل وزاد على ذلك أن أعادهما إلى كنيستيهما ثانية ، بل ومن الجدير بالذكر ، أن يصبح يوساب النيقوميدى هذا من بعد، أحد رجالات البلاط ومن المقربين إلى قسطنطين ، وعلى يديه تلقى العماد وهو على فراش الموت (٢٦) .

وكان قسطنطين قد عفا فى العام نفسه عن آريوس ، وكتب إليه يدعوه للعودة ، وتكشف لنا المصادر (٢٧) أن الامبراطور أرسل إلى آريوس أكثر من مرة ، وآريوس يبدى امتنانه للإمبراطور ويوثر الإعتكاف بعيدا والعزلة بواد غير ذى جدل.. بعد أن أيقن أنه أدى مهمته وبسط للناس أفكاره وكفى .وتفصح آخر رسائل قسطنطين إلى القس السكندرى عن هذا المعنى ، حيث جاء فيها : « لزمن مضى .. بلغ نيافتكم أن بمقدوركم الوفود إلى مقامنا ، بغية لقائنا . وكم كانت دهشتنا بالغة لتوانيكم فى الإقدام ، وعليه إذن .. بادروا بالارتحال إلى بلاطنا مسرعين ، وعندما تحسون رحمتنا بكم وتقديرنا إياكم ، تضمنون العودة إلى دياركم . رعاكم الله وحفظكم » (٢٨) .

وعلى هذا النحو قدم آريوس ، وطلب منه الامبراطور أن يقدم وثيقة إيمان تؤكد توافقة مع الايمان النيقى ، وفعل آريوس ذلك امتثالا لأوامر الامبراطور .ورغم أن الوثيقة التى قدمها خلت من جوهر قانون إيمان نيقية ، فيما يتعلق بالأقنوم الثانى فى الثالوث ، لب النزاع منذ البداية ، أعنى بذلك عبارتى « مولود غير مخلوق» و « مساو للآب فى الجوهر » (٢٩) ، مما يفصح عن تمسك آريوس بعقيدته وحرصه على آرائه رغم نفيه ، نقول .. رغم ذلك إلا أن قسطنطين اعتبر ذلك إقرارا واعترافا بما آمن به آباء الكنيسة فى المجمع المسكونى الأول ، وسمح لآريوس بالعودة إلى الاسكندرية ، مؤملا من أسقفها أثناسيوس قبوله ثانية فى شركة الكنيسة .

وهنا يصبح من العسير ، أن نصدق بما تقوله المصادر التاريخية ، وكلها نيقية متحمسة ، معادية للآريوسية ، من أن قسطنطين عندما استدعى إليه آريوس ثانية من الاسكندرية، طلب إليه أن يقدم من جديد وثيقة إيمان تثبت توافقه مع إيمان نيقية (٣٠) . إذ ليس من المعقول أن يقبل الامبراطور تلك الصيغة التى قدمها آريوس متضمنة إيمانه منذ ثمان سنوات خلت ، ويعتبرها قويمة ، ثم يعود الآن ليعيد المطلب نفسه ! كما أن قسطنطين ليس بالسذاجة التى تصفه بها المصادر ، دون قصد منها طبعا ، كى يخدع فى هذا « الدور المسرحى» الذى قام به آريوس كما تقول هذه المصادر هذا إلى أن آريوس لم يكن ممثلا ولا مخادعا كما اتهمه أصحاب هذه الروايات فالرجل كان واضحا منذ البداية عندما أعلن رأيه صراحة فى الاسكندرية أمام أسقفه اسكندر فى أول أيام النزاع ، رغم إدانته على يد مجمعين . ولم يكن أقل صراحة أمام مجمع الأساقفة المسكونى فى نيقية ، رغم علمه بأنه يسير ضد التيار ، وقبل النفى راضيا قانعا مقتنعا بآرائه . ولم يكن متلهفا على العودة من منفاه كما رأينا . وكان واضحا غاية الوضوح أيضا عندما قدم للإمبراطور وثيقة إيمانه التى خلت تماما من جوهر العقيدة النيقية .

ولقد غاب عن هذه المصادر جميعها بحكم تحمسها للنيقية ، أن آريوس عندما قدم وثيقة إيمانه بعد عودته من منفاه ، لم يكن له من سند فى البلاط يحميه. أما الآن فى عام ٣٣٦ فقد كان يوساب

النيقوميدى ، الآريوسى العنيد ، يحتل مكانة مرموقة فى بلاط قسطنطين . يضاف إلى ذلك أيضا أن ألد خصوم آريوس ، وفى مقدمتهم يوستاتيوس الأنطاكى وأثناسيوس السكندرى ، قد أطيح بهم من على كراسيهم الأسقفية ، وغيبوا فى المنفى. ولم يكن إسكندر أسقف العاصمة بالشخصية القوية أو المثقفة ، التى يمكن أن تجابه آريوس فكرا أو الامبراطور سلطانا .وسوف نعلم ذلك عنه فيما بعد . بما تقوله المصادر النيقية نفسها . ولهذا فلم يكن آريوس مخادعا كما وصفته هذه الكتابات. ومن ثم فإنه حتى لو افترضنا أن الامبراطور قد أمر آريوس أن يقدم وثيقة إيمان جديدة ، فإنها لم تكن لتخرج عما قدمه سابقا ودون موارية ، وهذا ما يعترف به على استحياء المؤرخون الكنسيون أصحاب هذه الروايات .

من هنا جاءت رواية هذه المصادر ساذجة بعيدة عن قبول العقل ، فهى تقول إن آريوس عندما شخص أمام الامبراطور فى يوم السبت ذاك ، قدم بيمناه وثيقة إيمان تتفق والايمان النيقى ، بينما كان يضع تحت ذراعه وثيقة أخرى تتضمن إيمانه الحقيقى !! فلما طلب منه قسطنطين أن يقسم على صحة ما جاء فى الوثيقة ، لم يتردد فى القسم ، وهو يعنى بقسمه الوثيقة الأخرى « المطوية» ، بينما يعتقد الامبراطور أنه يقسم على الوثيقة « الظاهرة» التى يقدمها !! ولذا اقتنع قسطنطين بصحة وقوامة إيمانه ، وأطلق سراحه إلى حيث الغد ، وأمر بأن يقبل فى شركة الكنيسة من جانب اسكندر أسقف القسطنطينية. وهكذا خدع الامبراطور فى إيمان آريوس ، وفى شخصه ، ولم يفطن إلى هذا الخداع !! فهل هذا مما يتفق والعقل ؟!

ومهما يكن من أمر ، فإن الشئ الذى لا يتطرق إليه الشك ، أن آريوس لم يكن صاحب طموح سياسى كغيره من أساقفة ذلك الزمان ، الذين راح كثير منهم يتحلقون من حول العرش ، يسبحون بحمد الامبراطور ، ويغدون « أساقفة بلاط » ، يدورون فى فلك الامبراطور الرومانى . أما هو فقد أخلد إلى الهدوء منذ نفيه ، ولم يأت به إلى مسرح الأحداث ثانية فى الشرق إلا الإمبراطور نفسه ، وربما على كره من آريوس ، كما تفصح رسالة قسطنطين الأخيرة إليه ، والتى عرضنا لها من قبل . وحتى بعد عودته من منفاه ، ظل بعيدا لا يشارك فى شئ من الأحداث التى امتلأت بها السنوات ما بين عامى ٣٢٨ – ٣٣٥ ، بل إن المتتبع لما كتبته المصادر التاريخية الكنسية المعاصرة، لا يكاد يجد له ذكرا فى صفحاتها ، إلا فى هذه السنة الأخيرة (٣٣٥) ، عندما قرر مجمع القدس قبوله فى شركة الكنيسة ثانية . أما فيما عدا ذلك فقد اختفى من على مسرح الأحداث تماما ، لقد كان الرجل شيخا طاعنا ، ولم يكن له مطمع فى جاه أو مطمح إلى سلطان (٣١) بل كل ما كان يرجوه فى دخيلة نفسه ، أن يقر الناس عقيدة آمن بها وأيقن أنها الحق المبين ، وما عداها إفك وضلال. ومن ثم لم يكن لدى آريوس ما يخشاه على نفسه ، ولم يكن هناك أيضا ما يخشاه الامبراطور من جانب هذا الرجل حالة بقائه حيا .

وإذا شئنا الدقة ، فإن الذى يجب أن ينصرف إليه الذهن ، وقد يشكل خطرا معينا ، هو يوساب النيقوميدى ، الذى كان صاحب طموح كبير ، ظل يعمل من أجل بلوغه ، حتى تمكن من ارتقاء كرسى القسطنطينية الأسقفى على عهد الامبراطور قسطنطيوس من بعد. وكان قد أصبح بعد عودته من المنفى فى عام ٣٢٨ يمثل الزعيم الفعلى للآريوسيين ، حتى أضحى إسمه علما على هذا الفريق،

فعرفوا باليوسابيين. وكان هو المحرك الأول لأحداث السنوات السبع هذه ، والتى تمخضت عن عزل ونفى كل من يوستاتيوس الأنطاكى ، وأثناسيوس السكندرى وغيرهما من رجالات النيقية . واحتل مرتبة سامية لدى قسطنطين بشهادة كل من سقراط وسوزومين (٣٢) . ومن ثم لو افتراضنا أن الامبراطور قد دار بخلده أن يتخلص من زعماء الآريوسية ، لكان الأقرب إلى الصواب أن يكون يوساب هو المقصود وليس آريوس ، خاصة وأن الامبراطور كان قد كتب الى كنيسة نيقوميديا فى عام ٣٢٥ رسالة تفيض قدحا وذما فى يوساب هذا ، بعد إدانته فى مجمع نيقية ، وعزل يوساب ثم نفيه على النحو الذى بينا من قبل ، إذ كتب قسطنطين يقول :

« من تراه لقن الرعية البريئة هذه العقائد ؟ ! من الواضح أنه يوساب ... لقد جاء أمرا إدا ... لقد تأثرتم بعقيدته فضللتم سواء السبيل ... ولعلكم تذكرون أن مجمعا عقد فى نيقية حضرته استجابة لنداء ضميرى ، يدفعنى الرجاء فى الوحدة ، وتسوقنى الحمية لاستئصال أذى أوقعته فتنة آريوس السكندرى ، التى تأرجح لهيبها بفعال يوساب الحمقى . لقد كان يعمل دائما وفق رغباته ، وقد امتلأ عقله بخفى الشرور ، متواطئا مع ثيوجنس شريك تآمره » (٣٣) .

ومما يلفت النظر أن قسطنطين لم يخلع على آريوس شيئا من صفات القدح التى خلعها على يوساب ، سواء فى هذه الرسالة أو غيرها ، وأكدت له الأحداث من بعد آريوس ليس إلا رجل فكر فقط ، ولا اهتمام له مطلقا بأى أمر آخر يمكن أن يعد خروجا على الفكر السياسى الرومانى ، وهو كل ما كان يعنى الامبراطور من أمر هذا الصراع ، ولذا نراه لا يتردد لحظة فى أن يوجه تهديدا مباشرا إلى الأسقف السكندرى نفسه ، عندما راح يتباطأ فى حضور المجمع الذى دعا إليه الامبراطور فى مدينة صور عام ٣٣٥ ، وجاء ذلك فى عبارات واضحة قال فيها «ولئن تجاسر أحد ، مع اعتقادى بأن ذلك لن يكون ، على عصيان أمرى ، ورفض الحضور إلى المجمع ، فلأرسلن إليه من يطرده بواقع مرسوم امبراطورى ، ويلقنه أنه لا يليق بمثله أن يعترض قرارات الامبراطور ، حين يكون عن الحق دفاعه » (٣٤) .

ومن ثم فإنه بناء على كل ما تقدم ، يصبح من الواضح أن آريوس لم يكن يشكل خطرا أو تهديدا مباشرا لسلطان الامبراطور قسطنطين ، ولذا نراه لا يفرق بين إيمان آريوس فى وثيقته التى قدمها إليه بعد رجوعه من منفاه ، أو تلك التى نفترض أنه أقسم عليها بعد استدعائه من الاسكندرية ، وبين قانون الايمان النيقى ، رغم الفارق الكبير بينهما ، وهو الفارق الذى يمثل القضية برمتها . ونراه أيضا يطلب فى المرة الأولى إلى أثناسيوس أن يقبله فى شركةالكنيسة ، ويوجه إلى اسكندر أسقف القسطنطينية فى الثانية نفس التوجيه ، ويرجئ ذلك إلى اليوم التالى ، الأحد ، ليكون على مرأى من الناس ومسمع .. لكن ذلك لم يحدث .. فقد مات فى السبت آريوس !

ترى .. هل ينصرف الذهن الآن .. إلى أنصار آريوس أنفسهم ؟ ربما يكون هناك من الشواهد ما يثير هذا الارتياب !

ففى عام ٣٤١ ، أى بعد وفاة آريوس بخمس سنوات ، إلتقى الأساقفة الاريوسيون فى أنطاكية ، فى مجمع عرف باسم « مجمع التدشين Concilium dedicationis للاحتفال بافتتاح الكنيسة الذهبية أو التى عرفت باسم « الكنيسة المثمنة» Ecclesiastica Octangula واتفقوا على صيغة إيمان معينة ،

جاء فى ديباجتها :

« لم نكن فى يوم ما أتباع آريوس !! إذ كيف يعقل ونحن الأساقفة ، أن نهتدى برشد قسيس ؟! لم نبدل الايمان منذ الايمان فى البدء كان ولقد وضعتنا المقادير قضاة فكره ، فراقنا الصدق فيها . ولكن أيعنى ذلك أنا عنه أخذنا ؟! » (٣٥) .

يبدو الأمر على هذا النحو غريبا، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، وتقطعت بهم الأسباب . ويزداد الأمر غرابة إذا علمنا أنه كان على رأس هذه الجماعة التى صاغت مرسوم الأيمان الجديد هذا ، يوساب النيقوميدى ، الذى غدا الآن أسقف القسطنطينية ، فتحقق له بذلك حلمه البعيد. وهو صديق آريوس القديم الحميم ، ورفيق دراسته وزميل منفاه. وانضم اليه فى هذه الصياغة أساقفة أنطاكية وقيسارية وهرقلة ومرعش واللاذقية وقيسارية كباروكيا فى آسيا الصغرى هل نفترض أن الغيرة قد تملكت نفوس هؤلاء الأساقفة ، الذين يرعون أسقفيات لها شأنها فى عالم المسيحية ؟ فتملك الحقد عليهم تجاه آريوس كل سبيل ؟ وذهبت بهم الظنون بعيدا ، إذ كيف يتسنى لهم ، وهم من هم فى أبروشياتهم وبين رعاياهم ، أن يومنوا بما كان يدين به مجرد قسيس فى كنيسة الاسكندرية ؟ وكيف تبدو صورتهم فى أعين من هم دونهم فى السلم الكهنوتى ؟ ناهيك عن أعين رعاياهم لمن فقه منهم أمر هذه الخلافات اللاهوتية ؟! وقوانين التنظيم الكنسى تفرض طبقية صارمة لابد من مراعاتها تماما فى الوظائف الكهنوتية ، ولا يمكن تخطيها أو تجاوزها. فإذا ما تعلقت المسألة بالنواحى الفكرية المتصلة بأمور العقيدة ومراسيم الايمان ، أخذت المشكلة بعدا جديدا لا يمكن تجاهله .

لقد كان يوساب النيقوميدى رجل سياسة طموحا من الطراز الأول ، قبل أن يكون راعيا كنسيا ، ولم يكن يعرف المستحيل فى سبيل تحقيق طموحاته التى لا حدود لها . كان فى بدء عمله أسقفا لبيروت (٣٦) ، ثم سعى جهده حتى اعتلى كرسى أسقفية نيقوميديا ، مقام الأباطرة فى الشرق منذ اتخذها دقلديانوس Diocletianus عاصمة لملكة ، ونجح فى أن يصل حبال المودة بينه وبين ليكينيوس (٣٧) عاهل الشرق ومنافس قسطنطين ، فلما قيض النصر لهذا الأخير سنة ٣٢٣ ، لم يدع يوساب فرصة إلا واغتنمها للتقرب من الامبراطور الجديد. ورغم تعرضه للنفى لرفضه قبول قانون الايمان النيقى ، إلا أنه بعد عودته من منفاه ، أصبح شخصية بارزة فى بلاط الامبراطور ، وابنة قسطنطيوس من بعده . حتى إذا كان عام ٣٣٩ قفز على كرسى العاصمة الجديدة ، القسطنطينية ، بعد عزل أسقفها بولس ، فتحقق له ما كان يهفو إليه فؤاده .

هذه هى الصورة التى رسمها مؤرخو الكنيسة ليوساب النيقوميدى ، وهى تفصح عن مدى الكراهية الكامنة تجاه الزعيم الحقيقى للفريق الآريوسى . وهم يعلمون جيدا أن يوساب كان المحرك الأساسى لأحداث السنوات السبع (٣٢٨ – ٣٣٥) ، وعلى يديه راحت قلاع النيقية تساقط واحدة وراء الأخرى ، وراح الآريوسيون يحققون نجاحا ملحوظا ، ظهر بصورة واضحة فى احتلال رجالهم لكثير من أسقفيات النصف الشرقى من الامبراطورية ، بعد أن كانوا فى مجمع نيقية قلة لا يعتد بها. بل إنه لولا يوساب النيقوميدى ، على حد قول المؤرخ دوشين Duchesme (٣٨) لظلت الآريوسية جدلا سكندريا خالصا ، ولأمكن القضاء عليها بسهولة . لكن يوساب هو الذى نقل هذا الصداع إلى الامبراطورية كلها !

وإلى جانب هذا .. فإن ما آلم هؤلاء المؤرخين ، أن يروا يوساب وقد احتل الكرسى الأسقفى للعاصمة الجديدة ، وكان هذا يعنى انتصار الآريوسية ، وتولى النيقية إلى الظل . ومن ثم صبت أقلامهم جام الغضب القابع فى نفوسهم تجاه عدوهم اللدود على هذا النحو الذى رأيناه .

حقيقة . وعند هذه النقطة بالذات ، وربما يكون قد دار بخلد يوساب وهو يعتلى عرش القسطنطينية الأسقفى ، أنه لا يليق بمثله أن ينتمى فكريا إلى مجرد قسيس كان فى كنيسة الاسكندرية ، خاصة وأن الاسكندرية تذكره دائما بخصمه العنيد ، أثناسيوس . لم يكن من السهل على يوساب ، وهو من هو فكرا وطموحا ، أن يسمح لمدينة لا تعدو كونها مجرد عاصمة لولاية رومانية ، أن تطاول حاضرة الامبراطورية ومستقر الأباطرة .

وعلى هذا النحو يمكننا أن نفسر كيف جاءت ديباجة المرسوم الأنطاكى على هذه الصورة ، فهى لا تعنى – كما هو واضح – نبذ العقيدة الآريوسية ، لأن أساقفة الشرق الذين سبق ذكرهم ، وفى مقدمتهم يوساب وآريوس ، كانوا أبناء مدرسة واحدة فى أنطاكية ، واختلفوا إلى أستاذ واحد هو لوقيانوس ، وتشربوا جميعا فكره ومبادئه. ومن ثم فليس القول ذاك طرحا لما آمن به آريوس وإليه دعا ، وبه هم الآخرون آمنوا. لكن الفريق اليوسابى أدرك الآن ، أن لفظة « الآريوسية » أضحت لا تعنى لدى الكنيسة غير « بدعة» أو « هرطقة » لفظها آباء الكنيسة فى نيقية من قبل . وأيقنوا أنهم بهذه الصفة لن يستطيعوا أن يحققوا أى انتصار لمعتقدهم وها قد مات آريوس ، فلا ضير إذن من التخلى عن هذه اللفظة التى تمقتها الكنيسة عامة. واليوسابيون بذلك لن يخسروا شيئا ، بل ربما ضموا إليهم نفرا من أساقفة الغرب الرومانى ، الذين كانوا بلا قدرة على فهم طبيعة هذا الجدال اللاهوتى . والمتأمل لديباجة المرسوم التى ذكرناها ، يرى أنهم لم يفكروا فكر آريوس لايمانهم الكامل به ، وعلى حد تعبيرهم ، « بعد أن راقنا الصدق فيه » . بل إن بقية المرسوم تكاد تنطق تماما بما جاء فى وثيقة الايمان التى قدمها آريوس الى قسطنطين عام ٣٢٨ بعد عودته من منفاه (٣٩) . بل كل ما فعلوه أنهم حاولوا التنصل من تبعيتهم لآريوس فى الاسم فقط دون جوهر فكره .

ونحن نتفق مع مؤرخى الكنيسة أن يوساب النيقوميدى كان صاحب طموحات واسعة ، ولكنه لم يكن فى هذه فريد زمانه ، بل كان نتاج عصره ، يستوى فى ذلك النيقيون والآريوسيون دون تفرقة؛ فقد خرجت الكنيسة من غمة الاضطهاد التى ظلت تعانى منه ردحا من الزمن ، ولذا كان طبيعيا أن يلتف رجالها حول صاحب السلطان الذى وهب الكنيسة الحياة ، بعد أن كانت قد أوشكت على الغرق زمن دقلديانوس وجاليريوس Galerius (٢٩٣ – ٣١١) . ويقول جلانفيل داونى G.Downey « ليس غريبا أن يظهر نوع من الأساقفة الدنيويين السياسيين ، الذين لم يكرسوا أنفسهم لرعاية شعبهم ، بقدر ما وجهوا غايتهم إلى المناورات السياسية فى البلاط الامبراطورى ، وذلك عندما قامت الخلافات العقائدية وتدخل الأباطرة لحلها ، فأصبح واجبا على الفرق المتخاصمة فى الكنيسة ، أن تسعى إلى كسب الامبراطور ومستشاريه (٤٠) .

لكن الذى لا شك فيه أن يوساب كان على قدر كبير من الثقافة اللاهوتية ، وهذا شئ نعلمه مما جرت به أقلام خصومه أنفسهم من مؤرخى الكنيسة (٤١) ومن رسائله التى بعث بها إلى عدد من رجال الاكليروس إبان الجدال الذى دار بصدد الآراء الآريوسية قبل مجمع نيقية . ويعود ذلك – كما

أسلفنا – إلى أنه كان أحد تلاميذ المدرسة الأنطاكية الشهيرة . هذا بالإضافة إلى أنه كان على استعداد للذهاب إلى آخر مدى دفاعا عن عقيدته التي يؤمن بها . وليس أدل على ذلك من وقوفه مع آريوس وثيوجنس في نيقية ، ضد أساقفة الكنيسة الجامعة ، وقبولهم للنفي في سبيل مبادئهم. بل وتحديه الواضح لقسطنطين الذي راح يحاوره بعد المجمع ، عله يقلع عن أفكاره ويوقع على قانون الايمان النيقي القائل بجوهر واحد للآب والابن ، وهو يعلم أن الامبراطور لن يتورع عن أن يلحقه برفيقة آريوس منفيا ، إذ وجه كلامه في صراحة وجرأة إليه قائلا : « هب أن هذا الرداء قد انفصم أمام ناظري شطرين ، لعجزت أن أحاج بأن أيا منهما ينتهي إلى نفس المادة » ! ولو أن يوساب النيقوميدي هذا كان رجلا صاحب مصلحة فحسب ، ولا شئ سوى ذلك ، لركب موجة النيقية ، على الأقل متظاهرا ، إرضاء للامبراطور ، وهو يرى أن خمسة فقط من رجال الإكليروس ، هو أحدهم ، وفيهم آريوس ، هم الذين وقفوا يتحدون أساقفة المسكونة من أجل مبادئهم . لكن الرجل آثر النفي دفاعا عن عقيدة يؤمن بها ويرى أنها الحق . وظل مخلصا لآريوس طيلة حياته ، وفيا لآرائه بعد موته . وليس عنا ببعيد ذلك الجهد الكبير الذي بذله يوساب من أجل تبرئه ساحة آريوس أمام رجال الإكليروس ، إلى أن ارتضوا جميعا قبول آريوس في شركة الكنيسة في مجمع القدس عام ٣٣٥ .

وتدلنا روايات المصادر التاريخية التي بين أيدينا ، أن يوساب ورفاقه كانوا مع آريوس حتى قبيل لحظات من موته ، أو بمعنى أدق حين استأذن منهم لقضاء حاجته ، وأنهم حذروا اسكندر أسقف القسطنطينية ، بل وهددوه ، صبيحة يوم السبت ذاك ، من مغبة عدم قبول آريوس في شركة الكنيسة في يوم غد ، وأنهم خرجوا من القصر الامبراطوري وقد امتلأوا خيلاء وبهجة ، بعد أن قبل قسطنطين صيغة الايمان التي قدمها آريوس . بل إن أثناسيوس نفسه يقول بالحرف الواحد ، إن آريوس وضع ثقته كلها في قوة يوساب وتهديداته التي وجهها إلى اسكندر (٤١)

وهنا نجد أنفسنا مسوقين تلقائيا للانتقال إلى الجانب الأخير من جوانب هذه القضية الشائكة ، أعني خصوم آريوس التقليديين ، أي النيقيين ، الذين ناصبوه العداء حتى قبل أن يصبحوا نيقيين ، أي قبل أن يصدر قانون الايمان النيقي . وذلك منذ اختلف القس السكندري مع أسقفه في عام ٣١٨. ولم يكن قد بقي من هؤلاء من يحتل مركزا مرموقا سوى اسكندر أسقف القسطنطينية ، بعد أن عزل ونفي معظم زعمائها ، خاصة أثناسيوس السكندري ، ومالت كفة الدولة إلى الآريوسية في إطار سياسة التوازن بين الفرق المختلفة ، التي وضع قواعدها قسطنطين ، ليحقق سيادته المطلقة التي يستمدها الامبراطور من الفكر السياسي الروماني ، باعتباره « الكاهن الأعظم» ومن بعد « الأسقف الأعلى » .

وها هو المؤرخ الكنسي ، الراهب الغزاوي ، سوزومين ، يخبرنا أن الآريوسيين وعلى رأسهم يوساب النيقوميدي ، قد سعوا لعقد مجمع كنسي في القسطنطينية ، ولابد أن هذا المجمع كان الهدف منه التصديق على قرارات مجمع القدس ، الذي عقد في العام الماضي ، وأعاد آريوس إلى شركة الكنيسة . غير أن اسكندر ، حسب تعبير سوزومين ، « استخدم كل جهد يمكن استخدامه للحيلولة دون عقد هذا المجمع ، أو ليكون الفشل من نصيبه » (٤٢) . ولا شك أن اسكندر كان يدرك تماما ، أن مجمعا كهذا يعقد في العاصمة الامبراطورية ، تحت سمع قسطنطين وبصره ، وربما مباركته ، كفيل

بأن تمسى النيقية إلى أفول خاصة وهو يعلم أن الإمبراطور هو نفسه الذى بعث فى استدعاء رجال الاكليروس إلى القسطنطينية بعد انتهاء أعمال مجمع القدس ، فشخص عدد كبير منهم الى هناك ، لينتهى الأمر كما أسلفنا ، بنفى الأسقف السكندرى أثناسيوس ، واستدعاء آريوس من الاسكندرية إلى العاصمة .

غير أن اسكندر سرعان ما أسقط فى يده ، عندما أخبر أن الامبراطور قد صدق على وثيقة إيمان آريوس ، وعدها أرثوذكسية ، وطلب اليه قبوله فى شركة الكنيسة صبيحة الغد ، الأحد . وأدرك أن قسطنطين جاد في عزمه ، حتى ينتهى من هذه المشكلة التى أرقت جفنيه اثنتى عشرة سنة (٣٢٤ – ٣٣٦) حتى الآن ، وتأكد ذلك لديه بصورة عملية ، عندما وجه إليه يوساب النيقوميدى ، على حد قول المصادر ، وكلها كما أسلفنا فى جانب النيقية ، تهديدا مباشرا بأنه إذا لم يجب الامبراطور الى طلبه ويقبل آريوس ، فسوف يسعى يوساب ورفاقه لدى قسطنطين ، لعزل اسكندر من أسقفيته ، واختيار غيره ليقوم بهذه المهمة .

أيقن الأسقف إذن أنه قد أحيط به ، وتلفت حواليه فإذا أعمدة النيقية في فلقتيها ، الاسكندرية وأنطاكية ، قد تهاوت بعزل ونفى أسقفيهما ، وإذا الدائرة تضيق من حوله ، فأصيب بحالة من الهلع الذى تملك عليه كل سبيل .

وإذا كان سقراط يحاول أن يخفف منها ، فيضع خوفه من فقدان منصبه فى مرتبة تالية ، وأقل بكثير من خوفه من انتهاك مبادئ الايمان النيقى (٤٣) . إلا أن سوزومين يذكرها صراحة ودون مواربة حين يقول : « إن الخوف الذى تمكن من نفس اسكندر ، كان يصدر أساسا من الحقيقة التى لا مراء فيها ، والتى تكمن فى أن الامبراطور قد أخذ جانب الآريوسيين (٤٤) » . بمعنى أن الأسقف لابد سيفقد منصبه إذا ما اعترض رغبة قسطنطين فى عودة آريوس إلى شركة الكنيسة . ولابد أيضا أن يكون اسكندر قد عاد بذاكرته إلى تلك اللهجة العنيفة والحازمة التى وجهها قسطنطين إلى أثناسيوس ، مهددا بعزله ، عندما اثاقل هذا عن حضور مجمع صور ، وهى الرسالة التى أشرنا اليها من قبل .

والحقيقة أن المشكلة لم تكن مشكلة اسكندر وحده ، بل كانت قضية الكنيسة بعامة ذلك أن آريوس بتأكيده على « بشرية المسيح» و « خلقه» و « عدم مساواته للآب فى الجوهر » ، واحلاله مرتبة ثانية تالية للآب ، ينتهى الأمر عنده على هذا النحو الى ترتيب فكرة « الخلاص » فى المسيحية ، على الإرادة الإنسانية ، وليس عن طريق الفناء فى المسيح من خلال شركة التناول . وهى نفس الآراء التى نادى بها الراهب الانجليزى بلاجيوس Pelagius من بعد ، ولقيت مقاومة عنيفة أيضا من جانب أب الكنيسة اللاتينية الأشهر .. أوغسطين Augustinus فى أوليات القرن الخامس الميلادى .

وبغض النظر عن الجانب اللاهوتى فى هذا الصراع ، إلا أن الآراء الآريوسية كانت تحمل فى طياتها تهديدا خطيرا لنفوذ الاكليروس وسلطانه الكنسى ، بما يترتب على جعل فكرة « الخلاص » متعلقة بإرادة بنى البشر أنفسهم ، دون وساطة غيرهم من رجال الإكليروس. ولعل هذا يتضح مما جاء فى رسالة يوساب النيقوميدى إلى باولينوس Paulinus أسقف صور ، حيث يقول : « ... إذا كانت تسمية الابن بالمولود تدعو البعض إلى الجهر بأنه قد أتى من نفس جوهر الآب ، ويحمل من الآب

فى الطبيعة شبها ، لأجبناهم أنه ليس هو وحده الذى تحدث عنه الكتاب المقدس بأنه « المولود » ، بل عن آخرين مخالفين له فى الطبيعة ، فقد ورد على لسان بشر « ربيت بنين ونشأتهم ، أما هم فعصوا على » (أشعياء ١/٢) وأيضا : « من ولد مآجل الطل » (أيوب ٢٨/٣٨) . والتعبير هنا لا يعنى أن قطرات الندى شريكة لله فى طبيعته ، لكن المعنى بالحرى أن كافة الأشياء قد تمت وفق إرادته .ليس هناك .. والحق أقول .. شئ من جوهره ، وإنما كل ما فى الوجود من صنعته . هو الله .. كل شئ قد جبل على وفق كلمته ، خلق بمحض إرادته . كل شئ من الله » (٤٥) .

وهذه الناحية يمكن الوقوف عليها من أقلام مؤرخى الكنيسة أنفسهم ، عندما يصنف سوزومين (٤٦) مثلا العناصر التى وقفت تؤيد آريوس ، وتلك التى بقيت إلى جانب اسكندر السكندرى فى بداية الخلاف . فالمثقفون من رجال الاكليروس فى الشرق ، والمتضلعون من دراسة الفلسفة والمنطق الأرسطى فى سوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، كانوا كلهم على قلب رجل واحد هو آريوس . أما الجموع والرهبان وإكليروس الغرب الذين لم يكونوا على قدر من الثقافة اللاهوتية ، تؤهلهم لفهم مثل هذه الأمور الجدالية ، كما يصفهم بذلك صراحة المؤرخ جيبون (٤٧) أو حسب تعبير المؤرخ مارتن « إن حمى هذا الجدال لم تقو على أن تعبر الألب إلى غالة » (٤٨) . ويدلنا على ذلك أيضا حالة جموع الأساقفة الذين قدموا لحضور مجمع نيقية ، وكيف شهدت الجلسات الأولى للمجمع اتهامات « شخصية » عنيفة ، راح عدد ليس بالقليل من رجال الاكليروس يكيلونها لبعضهم بعضا ، متناسين تماما قضية العقيدة التى قدموا أصلا لمناقشتها ، حتى لقد هال ذلك قسطنطين فراح يخاطبهم بقوله :

« ترى .. ما كل هذا ؟ ! ذاك شئ يؤتى به يوم الدينونة للعرض والحساب ، يفصل فيه القاضى الأعظم ... ما بالكم تختصمون وكل الخصوم رجال الله ؟! ما كان لهم أن يقفوا إزاء بعضهم على طرفى نقيض. إذن فليحل بينكم الوئام ، ولتطرحوا على التو جانبا كل هذه الشكايات ، ولنعط اهتمامنا لشئ من أجله جئنا .. ذلكم هو الإيمان » (٤٩) . وما لبث الامبراطور أن أصدر أوامره ، فجمعت حصيلة الأيام من هذه الاتهامات ، وأطعمت بها النيران (٥٠) .

وإذا أضفنا إلى ذلك أن اسكندر أسقف القسطنطينية ، لم يكن له من الشخصية ما كان لغيره من رجالات النيقية ، مثل سميه السكندرى ، أو أثناسيوس ، أو يوستاتيوس الأنطاكى ، والأخيران بصفة خاصة آثرا التمسك بآرائهما العقيدية وقبلا فى سبيلها العزل والنفى. كما لم يكن على قدر من الثقافة اللاهوتية كتلك التى كان عليها يوساب القيسارى شيخ مؤرخى الكنيسة ، ناهيك عن زعماء الآريوسية ، آريوس وصديقه أسقف نيقوميديا . ومن ثم كان على بينة من أمر نفسه ، بأنه ليس ندا لمناظرة آريوس أو يوساب ، إذا ما طلب إليه ذلك ، وهو ما كان يخشى حدوثه فى صبيحة الغد ، الأحد ، على مرأى من أهالى القسطنطينية ، الذين انقسموا بدورهم بين مؤيد للآريوسية ومعارض (٥١) . نقول إذا أضفنا ذلك ، أدركنا أن فقدانه لمنصبه كراع لكنيسة العاصمة الامبراطورية، يصبح واقعا لا محالة ، لعدم كفاءته اللاهوتيه ، والتى سوف تكون دافعا أساسيا ، إلى جوار دوافع أخرى عديدة ، تجعل قسطنطين مصيبا فى حرمانه من منصبه الأسقفى . وهذا هو ما عبر عنه على استحياء سقراط ، وما ذكره دون مواربة سوزومين . ولو أن المسألة كانت عنده تعنى

في المقام الأول ، قضية الدفاع عن إيمان نيقية .. كما يقول سقراط .. لفعل كما فعل يوستاتيوس الأنطاكى أو أثناسيوس السكندرى ، وآثر العزل والنفى مفضلا إياه على « الخوف » من ضياع كرسيه .

لذا لم يكن أمام اسكندر من سبيل ، كما تخبرنا الروايات المعاصرة ، إلا أن يلجأ إلى كنيسة « ايرين » وينبطح أمام المذبح داعيا ربه بإحدى اثنتين .. إما أن يقبض روحه ، إذا كان لابد لآريوس أن يقبل فى شركة الكنيسة ثانية ، وإما أن يحل بآريوس غضبه وعدالته إذا كان اسكندر على صواب . وراح يتوسل متضرعا ، ودموعه تبلل لحيته ، حتى استجابت السماء لدعائه ، فمات آريوس حتى قبل أن يفرغ اسكندر من صلواته .

غير أن الروايات عند هذه النقطة ، يبدو فيها الخلط والاضطراب واضحا ، مما يضع أمامنا علامات استفهام كبيرة ؛ فأثناسيوس ومن نقل عنه ، سوزومين وثيودوريت، يذكرون أن اسكندر فعل ذلك عقب التهديدات التى تلقاها من يوساب النيقوميدى ، بأنه سوف يفقد منصبه فى اليوم التالى ، إذا لم يقبل آريوس ، وكان ذلك بعد انصراف يوساب وآريوس من حضرة الامبراطور مباشرة ظهر يوم السبت ، ووثوقهما من وقوفه فى صف قضية آريوس . إلا أن سوزومين يقرر أن اسكندرظل على صلاته ودعائه طيلة هذه الليلة ، بينما يذكر فى السطر التالى مباشرة أن آريوس مات فى عصر ذلك اليوم . فكيف يستقيم هذا ؟ على حين يكتب أثناسيوس قائلا إن اسكندر واصل صلواته مبتهجا بعد أن علم بنبأ وفاة آريوس ! فهل كان سوزمين يقصد ذلك ؟ أم ترى أن اسكندر عنده لم يعلم بوفاة آريوس إلا فى صبيحة اليوم التالى ؟!

ويزيد سقراط المسألة اضطرابا وغموضا ، عندما يذكر أن هذه الصلوات استمرت لعدة أيام وليال متتابعات ! والغريب أنه يقول ذلك بينما يذكر قبله مباشرة ، أن اسكندر فعل ذلك بعد التهديدات التى تلقاها من يوساب النيقوميدى ، والمعروف أن هذا التحدى جاء يوم السبت بعد لقاء الامبراطور !! ثم نراه يذكر فى فقرة تالية مسألة فحص قسطنطين لوثيقة إيمان آريوس ، وما كان من إصدار أمره إلى اسكندر بقبوله فى شركة الكنيسة فى يوم غد. والرواية هنا أيضا لا تستقيم . إذ كيف يقدم يوساب على تهديد اسكندر بالعزل ، قبل أن يضمن وقوف الامبراطور إلى جانبه ؟ ومن كان يدريه أن الامبراطور لن ينتصر لأسقف مدينته حتى يحدث التوازن المطلوب بين النيقيين والآريوسيين ؟ فها هو أثناسيوس فى المنفى ، ويوساب النيقوميدى فى البلاط ، إذن فليظل اسكندر راعيا لبيعته ، ويبقى آريوس خارجها . والشواهد على ذلك كثيرة فى إطار علاقة قسطنطين بالفرق المسيحية المتصارعة. إذن فليس من المعقول أن يقدم يوساب على تهديد اسكندر – كما يقول سقراط – قبل يوم السبت بأيام وليال عدة ، وقبل أن يطمئن قسطنطين إلى صحة إيمان آريوس .

شئ آخر يحتاج إلى توضيح .. فأثناسيوس يقول إن « مكاريوس » هو الذى نقل إليه تلك الرواية عن موت آريوس ؛ ذلك أن هذا الكاهن كان فى القسطنطينية لحظة وقوع هذه الأحداث ، بينما كان أثناسيوس – كما أسلفنا – منفيا فى غالة . ثم يضيف أثناسيوس ، أنه عندما لجأ اسكندر إلى الكنيسة وأخذ فى الصلاة والابتهال والضراعة ، كان مكاريوس هذا رفيقه فى الكنيسة ، وشريكه فى صلاته ودعائه ، بل وفى سماع صلواته ، ويؤكد أثناسيوس على ذلك بشدة. بينما لا يذكر سوزومين شيئا

عن هذا الأمر . على حين نجد سقراط يؤكد فى إصرار ، أن إسكندر دلف وحده إلى الكنيسة ، وأغلق نفسه على نفسه ، إذا صح هذا التعبير ، ثم يقول بالحرف الواحد : « ولم يطلع أحدا أبدا على غرضه» !

فما هو غرض اسكندر هذا الذى لم يعلنه لأحد ؟ وما هو هدفه الذى أخفاه ، إذا كان سقراط يذكر فى الأسطر التالية مباشرة ، دعاء اسكندر بأحد الأمرين اللذين سبق لنا ذكرهما منذ قليل ؟ لابد أنه قد أسر فى نفسه شيئا معينا وانتوى أمرا ، ولم يشأ لأحد أن يعلم خبيئة نفسه . ولكن .. كيف نوفق بين هذا وما يقوله أثناسيوس فى إصرار من أن مكاريوس كان معه ، يصلى معه ، ويسمع صلاته !! ومن هو مكاريوس هذا الذى يبدو أنه كان أحد رجال الإكليروس القريبين من أثناسيوس ؟ ومادوره ؟ ولما ذا هو بالذات دون غيره من إكليروس اسكندر ، الذى دخل مع هذا الرجل إلى الكنيسة ليكون رفيق صلاته ودعائه ؟ ولم لم يرد له ذكر عند سوزومين ، والذى عرف عنه ولعه بذكر مثل هذه القصص فى كتابه ؟ ولم يؤكد سقراط على عدم وجود أحد على الإطلاق مع اسكندر ، الذى لم يطلع على مكنون نفسه وغرضه هذا أحدا ؟ وأين كان عندما جاءت اسكندر الأنباء بوفاة آريوس ، فراح يواصل صلواته كما علمنا من أثناسيوس دون أن يشرك معه مكاريوس الآن ؟!

تساؤلات عديدة ، لابد تثور فى ذهن أى باحث يرى هذا الاضطراب فى روايات مصادر تلك الفترة ، عن الساعات التى سبقت موت آريوس . ولا تخفى المصادر كلها فرحة النيقيين وفى مقدمتهم اسكندر ، للنهاية التى انتهى إليها آريوس ، وإن كانوا يفسرون ذلك فى ضوء انتقام السماء من هذا القس السكندرى ، الذى جهر بآراء تخالف ما كانت تدين به الكنيسة . وإن كانت الآراء الآريوسية هذه نفسها ، هى التى أدت إلى اختيار صيغة الايمان التى انتهى إليها آباء المجمع المسكونى الأول فى نيقية ، وأصبحت قاعدة الايمان الأرثوذكسى للكنيسة الجامعة من بعد. هذا على الرغم من أن موت آريوس ، كما يعلق سوزومين (٥٣) ، لم يؤد إلى وضع حد أو نهاية للجدل العقيدى .

بل إن موت آريوس لم ينتج عنه ما كان يؤمله النيقيون بموته ، إذ ظل قسطنطين طيلة العام الذى كان قد بقى له من حياته ، يقرب إليه يوساب النيقوميدى ، بل ويتلقى على يديه سر المعمودية حين حضرته الوفاة ، وإن لم يكن قسطنطين بالطبع آريوسيا ، ولا كان حتى نيقيا ! بل ولن تلبث الآريوسية أن تصبح لها السيادة الكاملة فى الامبراطورية على عهد ولده قسطنطيوس ، ثم الامبراطور فالنز من بعد بين عامى (٣٦٤ - ٣٧٨) . وإن كانت النيقية قد كسبت الجولة الأخيرة من جولات هذا الصراع العقيدى ، بعد أن انتصر لها الامبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٨ - ٣٩٥) ، وأوقع هو وخلفاؤه الاضطهاد العنيف ، بكل العقائد والمذاهب الأخرى المخالفة فى الامبراطورية .

بقى أن نتساءل فى النهاية عن موقف قسطنطين من هذه الحادثة ؛ وكيف استقبل خبر موت آريوس ؟ فبينما نجد سوزومين وثيودوريت ، وقبلهما - عن القضية كلها - يوساب القيسارى ، يلتزمون الصمت التام إزاء ما كان من موقف الامبراطور ، ولا يدلون - على غير عادتهم فى مثل هذه الأمور - بأى تعليق ، نجد سقراط يقول فى جملة واحدة « لقد ابتهج الامبراطور بما حدث » ! ويعلل هذا « الابتهاج » فى إطار « اهتمام » قسطنطين المتزايد بالمسيحية ، والتبجيل لقانون الايمان

النيقى . ويقرن « فرحة » الامبراطور هذه بسعادته بأبنائه الثلاثة الذين أعلنهم قياصرة ، وقسم فيما بينهم إدارة الحكم فى الامبراطورية .

أما الأسقف السكندرى أثناسيوس ، فكان أكثر دقة من سقراط فى وصفه للإمبراطور ، حال تلقيه هذه الأنباء ، إذ ذكر ما نصه أن « المبارك قسطنطين تملكته « الدهشة » عندما علم بموت آريوس ، ونظر إلى ذلك باعتباره برهانا على نتيجة الأيمان الكاذبة » يعنى بذلك القسم الذى أقسمه آريوس بصحة إيمانه وتوافقه مع العقيدة النيقية . ثم يعلق أثناسيوس على ذلك بقوله : « وهكذا يتضح للجميع أن الآريوسية وإن لقيت الدعم والتأييد من جانب الامبراطور ، ومن كل الناس ، إلا أنها تظل تحت طائلة الإدانة » .

وهذا الذى يقوله أثناسيوس لا يحتاج إلى تعليق ، فالامبراطور عنده لم «يبتهج» كما أراد له سقراط من بعد ، ولكنه أصيب بـ « الدهشة » والأسقف السكندرى مصيب تماما فيما يقول ، فقسطنطين لم يكن يبهجه أبدا موت آريوس ، ولا موت أحد أيضا من زعماء النيقية ، فكلاهما بالنسبة له ورقة رابحة يمارس بها « لعبة » التوازن بين الفرق المتصارعة فى دولته ، وهى السياسة التى أتقنها تمام الاتقان ، ووصل بدولته عن طريقها إلى بر الأمان خلال عهده ، وفرض من خلال سلطانه باعتباره « الامبراطور الرومانى » على الجميع .. حتى إذا مات بكاه هؤلاء الجميع . بينما افتقد خلفاؤه مهارته السياسية هذه وذكاءه . وكان بلاطه نموذجا حيا لهذه السياسه ، يجمع فيه أضداد الخلائق وشتى الفكر . فهناك المستشارون العسكريون والمدنيون كلهم من الوثنيين ، وإلى جوارهم مستشاره لشئون الكنيسة ، هوسيوس أسقف قرطبة ، النيقى المتحمس . وفى النهاية الأخرى يقف يوساب النيقوميدى الآريوسى العنيد ، صاحب الحظوة لدى الامبراطور ، وبين هؤلاء وأولئك صديقه يوساب القيسارى ، رجل الفكر المعتدل . كان قسطنطين يجمع فى بلاطه بين النار والجليد ، فلا هذا أطفأ تلك ، ولا أذابت النار الجليد !

ومن ثم لا نجد لهذا « التهليل » و « الإطراء» و « مواكب الاحتفالات » التى أقامها مؤرخو الكنيسة لقسطنطين بعد تأييده لقرارات مجمع نيقية ، ونفيه لآريوس وصحبه ، على صفحات طويلة من كتبهم ، أثرا عند سماعه بنبأ موت آريوس ! بل ليس من المبالغة فى شئ ، القول إن الامبراطور ربما عد فقدان ذلك القس السكندرى ، خساره له بالمقاييس السياسية التى يتبعها . لهذا لم يكن أثناسيوس بعيدا عن الصواب عندما قرر أن الامبراطور كان يؤيد الآريوسية ، وأنه أبدى فقط « دهشته » لموت آريوس .

وليس بعيدا عن مجال موضوعنا هذا أن نضيف بأن مسألة اللجوء إلى العنف فى بعض الأحيان من جانب بعض رجال الاكليروس ضد خصومهم ، كانت أمرا واردا فى تلك الفترة ، بل وأيضا تدبير المؤامرات وأحاكة الدسائس .. وهذا الأمر بطبيعة الحال لا يعد مسألة عامة ، بل كانت تجرى من جانب نفر يحاولون تحقيق أغراضهم بأية وسيلة من الوسائل ، وهؤلاء كما قدمنا ، يمثلون الأساقفة السياسيين أو أساقفة البلاط ، وقد بلغ هذا الحال مداه ابان القرن الخامس الميلادى عندما اشتد الصراع بين الكنائس الرسولية فى الامبراطورية حول الزعامة الكنسية ، وكانت أوضح الأمثلة على ذلك ما تعرض له الأسقف السكندرى ديوسقورس Dioscorus من إيذاء وصل إلى حد الاعتداء

بالضرب والتنكيل فى المجمع المسكون الرابع الذى عقد فى مدينة خلقيدونية Chalcedon عام ٤٥١ ، وذلك على يد رفاقه من رجال الاكليروس فى الشرق، الذين حسدوا الاسكندرية على مكانتها ، مما دفع أحدهم إلى القول « يفضل ديوسقورس أن يذهب جميع الأساقفة إلى الضياع ، ولكن إذا ذهب ديوسقورس نفسه فلن يظل العالم بلا أسقف » .

ومهما يكن من أمر آريوس ، فإن خصومه وحدهم ، هم الذين أبدوا ارتياحهم لموته ، كما يحدثنا بذلك صراحة مؤرخو الكنيسة ، ولم لا وهو الذى شغل فكر الاكليروس وأجهزة الدولة والامبراطور ، بآرائه ، طيلة ثمانية عشر عاما (٣١٨ - ٣٣٦) . وإن كانت الآمال التى داعبتهم لم يقدر لها أن تتحقق فى المدى القريب ، على الأقل خلال نصف القرن الذى أعقب وفاته ؛ إذ ظلت السيادة للعقيدة الآريوسية إبانها ، ومهما كانت الحيثيات .. ومهما كانت النتائج -- تظل القضية معروضة على محكمة التاريخ !!

* * *

الهوامش

1- THEODORETUS , historia Ecclesiastica , I , 3.

2 - ATHANASIUS, depositio Arii ; THEOD. hist. ecci. I, 3.

3 EVSEBIUS , epistola ad poulinum , in THEOD. hist. ecci. I,5.

4 - THEOD. hist. ecci, I, 4.

وراجع كذلك الكتب التالية :

Dictionnaire de théologie catholique , paris 1923, v. I, 2, c. 1786

- A dictionary of christian biography , london 1877 , v.I,.

- Jackson (F.) , The history of the christion church from the earlist times to the death of s. leo, london 1909, p.109.

5 - Neander , history of the christian dogmas, london 1882 , I, p. 63 Copleston , A hhistory of philosophy , new. york 1962 , v. 2 p.29

٦ – كان أوريجن السكندرى يؤمن بأن ظهور المسيح على الأرض ، كان صورة لنشاطة الأزلى ، والله عنده خالق منذ الأزل ، وليس فى زمان بعينه وإلا عد ذلك تغيرا فى ذات الله ، والتغير ليس من صفاته . والله الأزلى ولد أو خلق ، كلمته ، Logos ، الابن ، ، الذى على الرغم من كونه ليس إلا حقا ، إلا أنه يشارك فى جوهر الآب . والابن فى رأيه العقل الذى ينظم العالم ، خلقه الله وجعله له تابعا ليخلق به كل شئ . ومن ثم فالابن واسطة بين الله وسائر الخلائق ، وكذلك الروح القدس يأتى من مرتبة تالية ، شأن الابن . راجع :

chadwick, The early church , London 1974 , p. 101 cread , Egypt and the christian church , (I n Legacy of Egypt) , Oxford 1947.

Neander , op. cit. I, p. 66 ; Copleston , op. cit . pp. 41 - 42.

7 - Downey , A history of Antioch in syria , new Iersey 1961 , p. 338.

٨ – يمكن الوقوف على تفاصيل كل هذه الأحداث ، بالرجوع إلى كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصلين الخامس والسادس. القاهرة ١٩٨٢

٩ – يذكر Chadwick أن أثناسيوس ، بعد عشرين سنة من وفاة آريوس ، راح يروج قصة موته فى شكل درامى ، ثم يقول .. وربما تكون هذه القصة مختلفة وغير حقيقية ، وأن آريوس مات معترفا !! أنظر

The early church , p. 136

١٠ – فى الجزء الثالث من كتابنا الدولة والكنيسة ، عرضت لعلاقة أثناسيوس بالسلطة السياسية فى الامبراطورية ، والآريوسيين ، والرهبان ، على امتداد سنين أسقفيته الطويلة .

11 - THEOD. hist. ecci. I, 13.

12 - SOZOMENOS , historia Ecclesiastica , II, 29

13 - SOCRATES , historia Ecclesiastica , I, 38

14 - Id.

15 - SOZOM. hist. ecci .II 29

16 - ATHANAS. ed. ad serap.

١٧ – راجع تفاصيل هذه الأحداث ، وانتصار النيقية الحاسم ، فى الجزء الرابع من كتابنا : الدولة والكنيسة ، القاهرة ١٩٨٣ .

18 - SOZOM. hist. ecci. I, 5

19 - EVSEB. vita Const. I, 10- 11

20 - ATHANAS. Loc. cit. .; THEOD. Loc. cit..

21 - ATHANAS. apologia contra Arianos, 87.

22 - EUSEB. vita Const. I, 69.

23 - Ibid. 71.

24 - Ibid. 72.

٢٥ – عن تفاصيل هذا المجمع .. أنظر

Hefele, History of the councils of the church , new york 1972, vol. I.

26 EUSEB. vita Const. II, 62 - 66; SOZOM. hist. ecci. II, 34.

27- SOCRAT. hist. ecci. 1, 25.

28 - Id.

29 - Ibid. 26

30- ATHANAS. Loc. cit. ; SOCRAt. Loc. cit.
SOZOM. Loc.; THEOD. LOc. cit.

٣١ – من الغريب أن نجد مؤرخا مثل H. Chadwick يفسر ذلك بقوله إن آريوس لقى الاهمال من جانب أنصاره وخصومه على السواء ، حتى أنه شكا ذلك ، وتملكه الحزن على جفاء رفيق دراسته ومنفاه ، يوساب النيقوميدى، له . وهذا بالطبع لا يتفق مع الحقيقة التاريخية التى يذكرها مؤرخو الكنيسة أنفسهم ، فقد ظل يوساب يسعى حثيثا لإعادة آريوس إلى شركة الكنيسة بعد إعادته من منفاه ، ومهد السبيل لذلك بنجاحه فى التخلص تدريجيا ، وعن طريق المجامع الكنسية ، من زعيمى النيقية فى أنطاكية والاسكندرية . ثم حصل على موافقة الأساقفة فى مجمع القدس على قبول آريوس فى شركة الكنيسة . والأغرب من ذلك أن chadwick يذكر أن هذه القضية لا تمثل أهمية للتاريخ ، لأن آريوس نفسه فقد أهميته. وبهذا المنطق الغريب يصبح التاريخ كله لا قيمة له !! . راجع The early church, p. 136

32 - SOCRAT. hist. ecci. I, 27; SOZOM. hist . ecci. II, 22

33 - THEOD. hist. ecci. I,19.

34 - EUSEb. vita const. IV 42.

35 - ATHANAS, de syn. 22; SOCRAT. hist. ecci. II, 10

36 - SOCRAT. hist. ecci. I,3.

37 - THEOD. hist. ecci. I, 19.

38 - Duchesne, Early history of the christian church, London 1950, vol. II,p. 169.

٣٩ – يمكن المقارنة بين وثيقة إيمان آريوس ، ومرسوم مجمع التدشين الأنطاكى ، بالرجوع إلى SOCRAT. hist. ecci. I, 26 وأيضا ATHANAS. De syn. 22

٤٠ – داونى .. أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس ، ترجمة ألبرت بطرس ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٨٣

41 - ATHANAS . ep. ad serap.

وراجع أيضا SOCRAT. hist. ecci. I, 38

42 - SOZOM. hist. ecci. II 29.

43 - SOCRAT. hist. ecci. I, 27

44 - SOZOM. hist. ecci. II, 29

45 - EUSEB. epistula ad paulinum (in THEOD. hist. ecci. I, 5).

46 - SOZOM. hist. ecci. I, 17

47 - Gibbon , The decline and fall of the Roman Empite, London, 1929, vol. II p.350

48 - Martin, Histaire de France, paris, 1849, I, p. 305

49 - SOZOM. hist. ecci. I, 19

50 - ID.

51 - SOCRAT. hist. ecci. I 37

52 - Id.

53 - SOZOm. hist. ecci. II 31

* * *

دراسة تحليلية لسور القاهرة
بالجزء الممتد من باب النصر الى باب البرقية

دكتور / سامح محمد نوار

يرتبط تاريخ سور قاهرة المعز منذ الوهلة الاولى لنزول الجيوش الفاطمية بموقع مدينةالقاهرة فى السابع عشر من شعبان عام ٣٥٨هـ/٦ يوليه عام ٩٦٩م وكان موقعها ارض فضاء يشغل جزءا منها بستان كافور ودير يسمى دير العظام وحصن قصر الشوك وقد بنى القائد جوهر الصقلى هذا السور حول مدينة القاهرةمن اللبن الذى اندثر تماما .

وقد قام امير الجيوش بدر الجمالى فى عصر الخليفة المستنصر بالله ببناء سور جديد للقاهرة عوضا عن السور الاول الذى لم يعمر أكثر من ثمانين عاما وضم داخل السور الجديد ارضا جديدة مثل جامع الحاكم بأمر الله الذى أصبح داخل السور الجديد بعد أن كان قبلا خارج السور القديم وقد بنى الجمالى السور الجديد من اللبن وجعل البوابات وبعض الاجزاء الهامة من الحجر المنحوت كذلك قام صلاح الدين الايوبى فى نهاية العصر الفاطمى حين تولى الوزارة فى عصر الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بترميم الاجزاء التى تداعت من سور بدر الجمالى ويمكن للإستفاضة فى هذا الموضوع الرجوع الى الابحاث العديدة التى تناولت سور [1] القاهرة .

ومن الطريف أن هذا السور على الرغم من العناية بترميمه لم يرد يوما غازيا للقاهرة بل انه كان مقرا لبعض الغزاة [2] احيانا .

وعلى الرغم من الدراسات العديدة التى تناولت بالتحاليل سور قاهرة المعز الا أن هذه الدراسات تناولت الجزء الممتد من باب النصر الى باب البرقية بصورة تفصيلية واضحة تكشف عن سمات هذا الجزء ولهم كل العذر فى [3] ذلك .

وهذا الجزء من السور الذى يمتد من باب النصر الى باب البرقية هو موضوع دراستنا هذه وينقسم الى قسمين رئيسين هما القسم الشمالى وهو الجزء الممتد من باب النصر مع امتداد السور شرقا حتى برج الظفر حيث يبدأ القسم الشرقى الذى يمثل امتداد السور من برج الظفر جنوبا حتى باب البرقية .

أولا القسم الشمالى «الجزء من باب النصر حتى برج الظفر» :

على الرغم من اهتمام الباحثين بالاشارة الى أن باب النصر قد بنى سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧م الانهم لم يخبرونا بتاريخ البدء فى بناء سور القاهرة وقد أمدنا المقريزى بتاريخ بناء بدر الجمالى لسور القاهرة إذيقرر أن سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م «وفيها ابتدأ امير الجيوش فى بناء سور [4] القاهرة » وهذا مالم يشر اليه المقريزى فى مؤلفاته الاخرى عن القاهرة فى كتابه السلوك والخطط كما لم يشر اليه غيره من المؤلفين فيما نعلم .

وقد اعتبر باب النصر هو الباب التجارى لمدينة القاهرة فكانت قوافل التجار تمر من خلاله ويحصل منها الضرائب ولم يكن يصلح لهذا باب الفتوح الذى يفتح على القصبة العظمى للقاهرة مباشرة وهو الشارع الممتد من باب الفتوح شمالا الى باب زويلة جنوبا ماراً بمدينة القاهرة لهذا فقد كانت تمر فيه المواكب السلطانية اما باب النصر فقد كان يفتح على شارع يمتد من الشمال للجنوب ثم ينثنى غربا ليتصل بالقصبة الكبرى بواسطة شارع الضبيبة الذى يصل شارع باب النصر بشارع

المعز [٥] يفسر وجود الوكالات القريبة من هذا الباب مثل وكالة قايتباى وخان قوصون كما يؤكد ذلك النص المنقوش بالحفر البارز بالخط الثلث المملوكى لجمع الضرائب على البرج الغربى للباب والذى نشره «برشم» [٦] ونصه :-

١- بحسب ما رسم به نائب السلطنة المعظمة المقر العالى .

٢-السيفى سودون من عرافة الجمال بأن يؤخذ على كل جمل خمسة [٧] .

٣- وملعون من يأخذ اكثر من ذلك أو يحدث مظلمة فى ايام الدولة .

وقد ظل باب النصر على حالة منذ بناه بدر الجمالى الى زمن احتلال الفرنسين لمصر ١٢١٣هـ-١٢١٦هـ/ ١٧٩٨-١٨٠١م وكان من الطبيعى أن يستخدم الفرنسيون سور القاهرة لسكن قوادهم وجنود هم وهذا يتضح من أسماء قوادهم التى نقشوها على ابراج السور مثل Tour Corbin. Lescal وكما يتضح ذلك من التعديلات التى قام بها الفرنسيون بعد أن سدوا باب الفتوح وقاموا بفتح باب على يسار الداخل لباب النصر وهو باب صغير الحجم من ضلفة واحدة مصفحة بالحديد داخل فتحة باب ينتهى أعلاها بتجويف على شكل حنية نصف دائرية ويؤدى هذا الباب الى سلم صاعد الى سقاطة تعلو الباب وهى سقاطة حجرية بها فتحة بيضاوية الشكل ويحمل السقاطة التى تبرز قليلاعن الحائط ثلاثة كوابيل حجرية بارضيتها فتحتان لصب الماء الساخن والزيت على مهاجمى الباب.

ومما لا شك فيه ان الفرنسيين قد قاموا بتضييق باب النصر وذلك للتحكم فى عملية المرورمن الباب وجددوا به بابا أسموه باب الإستثناء [٨] فقد كان الفرنسيون يقيمون عند كل باب بدنات عظاما وابوابا داخلة وخارجة واخشابا مفروشة بالارض بكيفية مخصوصة [٩]حتى أن الناس لم يتمكنوا بالمرور بالمحمل من باب الإستثناء عند باب النصر وحاولوا فتح باب الفتوح للمرور منه ولكنهم لم يفلحوا بسبب متانة البنيان الذى سند به باب الفتوح [١٠] .

كما قام الفرنسيون كذلك بتوسيع بعض فتحات رمى السهام [١١] بباب النصر وتعلية البناء فوق باب النصر ببناء حجرات بالطوب الاحمر وتركيب مشربيات بهذه الحجرات وبعض الشبابيك الخشبية كما يتضح ذلك من صورة باب النصر بكتاب وصف [١٢] مصر وتمتد الاسوار من باب النصر شرقا وهى من الحجر الضخم الذى يطلق عليه اسم حجر الدستور العجالى [١٣] الذى استخدم فى سور بدر الجمالى .

وفى شهر يناير ١٩٨٢م [١٤] تم الكشف عن احد ابراج سور القاهرة وهو البرج الثالث الى الشرق من باب النصر عند نقطة التقاء شارع جلال مع شارع بهاء الدين وهذا البرج يختلف عن بقية ابراج السور فهو من بناء صلاح الدين وثلثه العلوى يرجع لعصر الحملة الفرنسية (صورة١) فقد عدل الفرنسيون فى ثلثه العلوى بحيث يلائم نصب المدافع عليه فبنى بأحجار مصقولة مستطيلة غير متساوية الحجم وجعلت به فتحات واسعة حتى يمكن اطلاق المدافع منها وهذا الجزء يشبه برج الحملة الفرنسية المعروف ببرج كليبر خلف سينما الكواكب بشارع المنصورية بالدراسة . ملاصقا لزاوية الشيخ عبد اللاه عند نقطة التقاء ضلعين أحدهما شرقى والاخر شمالى العمران السكانى بهذا

الجزء الى الشرق من درب الحجازى المسمى بخريطة الحملة الفرنسية باسم درب الحجازية تحت رقم30 بالمرجع H3 وهو برج نصف دائرى بنى بنفس الاسلوب ومسقوف بجذوع الاخشاب مثل البرج السابق ذكره (صورة٢) وهذان البرجان لهما اهمية كبيرة فهما يحددان طبوغرافية القاهرة فى هذا الجزء فالبرج الذى عدل الفرنسيون فى تصميمه نجده يخرج عن سور القاهرة للجنوب بمقدار خمسة أمتار بنفس مادة البناء التى استخدمها الفرنسيون فى الثلث العلوى لنفس البرج ، بينما يمتد سور صلاح الدين للشرق بعد هذا البرج من الحجر الدستور لمسافة حوالى مترين وبتحديد موقع هذا البرج بالمربع F3 بخريطة الحملة الفرنسية وبخريطة للقاهرة وبخريطة لباسكال (١٥) كوست يتضح أن هذا البرج يمثل نقطة انتهاء العمران للضلع الشمالى والضلع الشرقى للقاهرة إذ أن الزيادة التى احدثها صلاح الدين من هذا البرج شرقا إلى برج الظفر ثم جنوبا إلى باب البرقية لم تكن مسكونة إذ رسمت هذه الزيادة فى الخريطتين السابق ذكرهما مملوءة بالكيمان وليس بها مساكن . ولهذا يمكننا أن نحدد العمران السكانى بالضلع الشرقى بالجزء الداخلى للمدينة الذى يحده بشارع بهاء الدين من هذا البرج ليسير جنوبا حتى شارع الفواطم الذى يمتد شرقا ليلتقى بشارع المنصورية حيث برج الحملة الفرنسية المعروف ببرج كليبر مربع ط ـ ٣ وط ـ ٤ بخريطة آثار القاهرة (١٦) ولاتزال معظم أجزاء هذه الزيادة خالية من المبانى خاصة الأجزاء القريبة من السور ويسكنها الناس داخل عشش من الصفيح أما الأجزاء التى بنى فيها فيلاحظ أنها شوارع متقاطعة مع بعضها على النظام الحديث مثل شوارع العاضد والامام المهدى والقائم بأمر الله والمستعلى بالله وهى شوارع تسير من الشرق إلى الغرب وتقطعها بضعة شوارع تسير من الشمال للجنوب مثل شوارع الجمالى وشوارع بدر مربع ط ـ ٤ (١٧) بعكس حارات القاهرة الغير منتظمة فى تصميمها وربما يرجع السبب فى أن الزيادة التى ضمها صلاح الدين داخل السور فى هذا الجزء لم تكن مأهولة بالسكان هو بسبب الكيمان التى بدأ فى رميها من عصر الحاكم خارج الجدار الشرقى للسور لحماية المدينة من السيول وعرفت بكيمان البرقية مما سبب خطرا للمدينة بسبب ارتفاع هذه الكميان بجوار السور فأحاط هذه الكيمان حتى لايستغلها الأعداء وربما كان خلو هذه المساحة من المساكن دافعا لكتبغا بأن يأمر المماليك البرجية وعددهم ٤٧٠٠ مملوك أن ينزلوا من القلعة وأن يسكنوا ابراج سور القاهرة خلف البرقية ويلاحظ بخريطة وصف مصر وخريطة بسكال كوست (شكل ١) وجود بعض الابراج على الحدود المأهولة بالسكان داخل المساحة التى ضمها صلاح الدين بمدينة القاهرة ولم يتبق منها سوى البرج الواقع خلف سينما الكواكب بشارع المنصورية بالدراسة (صورة ٢) .

ثانيا القسم الشرقى «الممتد من برج الظفر إلى باب البرقية» :

أشار المقريزى إلى أنه بالضلع الشرقى لسور القاهرة ثلاثة أبواب الأول هو الباب الجديد ويقع إلى الجنوب من برج الظفر ويفصل بينهما برج دائرى واحد وقد نسب البعض خطأ الباب الجديد السابق ذكره إلى عصر الحاكم بأمر الله (١٩) وقد حدد المقريزى الباب الجديد الذى بناه الحاكم بأمر الله فى حديثه عن حارة(٢٠) الهلالية فذكر أنها على يسرة الخارج من الباب الجديد الحاكمى وهو الذى خارج باب زويلة .

أما الباب الجديد بسور القاهرة الشرقى قرب برج الظفر فهو من أعمال الناصر صلاح الدين وهذا الباب تبرز بدنته عن السور على شكل المدخل المنكسر Bent Entrance ويمتد السور جنوبا من برج

الظفر فى اتجاه تدريجي الى الغرب إلى أن يمر بالجانب الشرقى لباب البرقية بحوالى ١٥ م ثم يواصل امتداده إلى الباب المحروق وقد اندثر السور فى الجزء الممتد من باب البرقية إلى منشأت الجامعة الأزهرية بسبب فتح طريق حسن عبد الوهاب وبناء نقطة شرطة مطافىء الدراسة .

باب البرقية (صورة ٣)

ينسب باب البرقية إلى طائفة من العسكر فى الدولة الفاطمية من أهل برقة إختطوا حارة لهم سميت بحارة البرقية (٢١) ويغلب على الظن أن اسم باب البرقية لم يطلق على أحد أبواب سور جوهر الصقلى فلم يذكر ناصر خسر وعلى الذى زار مصر ٤٣٧ هـ ـ ٤٤١ هـ قبل بناء بدر الجمالى لسوره بابا باسم باب البرقية ضمن ابواب القاهرة ولم يذكر حارة البرقية ضمن حارات (٢٢) القاهرة وقد كشف عن باب البرقية عام ١٩٥٧ وقبل هذا التاريخ لم نكن نعرف سوى باب البرقية الذى أنشأه صلاح الدين والذى ارجعه المرحوم د. عبد الرحمن زكى (٢٣) الى عصر بدر الجمالى وقد اتضح خطأ ذلك بعد كشف باب البرقية الذى أنشأه بدر الجمالى عام ١٩٥٧ ويقع هذا الباب إلى الشرق من مبانى الجامعة الأزهرية بحوالى ٨٠ م إلى الجنوب من باب البرقية المكتشف عام ١٩٥٧ وقد تم (٢٤) ردم باب البرقية الذى أنشأه صلاح الدين بسبب اصلاح الشارع وموقع هذا الباب الذى ردم على خريطة أثار القاهرة بالمربع ط ـ ٥ بالقسم الأول تحت رقم ٦٤١ .

وفى زمن الحملة الفرنسية نجد أنه لم يكن هناك امتداد للسور بعد البرج الرابع إلى الجنوب من برج الظفر وحتى الباب المحروق بسبب الكيمان والأتربة التى كانت تغطى كل أجزاء السور ولم يكن باب البرقية الذى بناه صلاح الدين مكشوفا بل كان مطمورا تحت (٢٥) الأتربة كما أنهم لم يحددوا على الخريطة نفسها موقع باب البرقية الذى بناه بدر الجمالى والذى كشف عام ١٩٥٧ بينما كان الناس يستخدمون (٢٦) باب الغريب فى الخروج إلى الصحراء وكان يعرف بباب (٢٧) الخلاء وبباب البرقية (٢٨) وقد قام الفرنسيون بسد الغريب والأبواب التى فى أطراف البلد فى ١٩ ذى القعدة ١٢١٥ هـ ١٣ أبريل ١٨٠١ م حتى يمكن السيطرة على البلد وكان من نتيجة هذا أن وجد مشيعو الجنازات مشقة بالغة فى الخروج إلى الصحراء فكلم بعض المشايخ الفرنسيين فى ذلك فقاموا بفتح ثغرة صغيرة فى حائط السور يوم ٢١ ذى القعدة ١٢١٥ هـ / ١٥ أبريل ١٨٠٣ م تكفى فقط لمرور النعش (٢٩) والحمالين والمشاة وعرف بباب الغريب (٣٠) .

ومما سبق نجد أنه كانت هناك ثلاثة أبواب تعرف باسم البرقية أقدمها باب البرقية الذى بناه جوهر الصقلى وجدده عبد الرحمن كتخدا وكان يعرف بباب الغريب وهدم سنة ١٩٣٦ والثانى باب البرقية الذى بناه بدر الجمالى واستخدمه الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر دون أن يفطنوا إلى اهميته والثالث باب البرقية الذى بناه صلاح الدين ولم يكشف عنه إلا فى النصف الأول من هذا القرن (٣١) وهدم بسبب أعمال التنظيم كما هدم الباب الأول الذى بناه جوهر الصقلى والباب الباقى من هذه الأبواب الثلاثة هو الباب الذى بناه بدر الجمالى واسماه باب التوفيق وكشف عنه ١٩٥٧ م واستخدمه الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر فقد أشار الجبرتى إلى الفرنسيين حين سدوا باب البرقية المعروف بباب الغريب نقبوا فى السور نقبا صغيرا عرف بنقب الغريب جهة كفر (٣٢) الطماعين والحق أن هذا النقب كان فى باب البرقية الذى بناه بدر الجمالى عام ٤٨٠ هـ ودليلنا على هذا أنه بمعاينة

الباب وجد فوق صنجة عقده الخارجى حرفين A محفورين بنفس اسلوب وحجم حروف الكلمات التى نقشها الفرنسيون فى سور القاهرة (صورة ٣) كما أن كفر الطماعين لازال موجودا حتى الآن بالدراسة إلى الغرب مباشرة من هذا الباب وقد سد باب البرقية فى زمن مابعد بناء صلاح الدين لسوره الذى يبعد عن هذا الباب بحوالى ١٥ متر بعد ان انتهت وظيفته ببناء السور الجديد ثم اعيد فتحه فى زمن الفرنسيين ليمر منه الناس بعد سد باب الغريب ولهذا عثر على الباب وبه قطع جرانيتيه فتح فيها ممر للمرور ولاتزال هذه حالته حتى اليوم (صورة٤).

ويقفز للأذهان سؤال هام وهو لماذا نقب الفرنسيون ثغرة فى هذا المكان بالذات ؟ والإجابة على هذا السؤال هو أنه اذا كان الفرنسيون قد قاموا بسد أبواب القاهرة ومنها باب البرقية المعروف بباب الغريب الذى بناه جوهر وجدده عبد الرحمن كتخذا ثم أرادوا فتح نقب صغير لمرور الجنازات فلابد أن يختاروا موقعا يمكنهم من مراقبة هذا النقب بسهولة وبالرجوع الى خريطة القاهرة للحملة الفرنسية وجد أن هذا النقب كان يقع بجوار حصن الجنرال ديبوى (٣٣) مباشرة بالمربع K - 2 وربما كان هذا الحصن هو نفسه جزءا من أسوار صلاح الدين التى تقع إلى الشرق من هذا الباب (٣٤) بحوالى ١٥ م وباب البرقية عبارة عن باب ضخل إذا ما قورن بأبواب النصر والفتوح وزويلة المبنية فى نفس الفترة وهو باب من الحجر المنحوت مهدم فى معظم اجزاءه وليست له أبراج تحيط بفتحة بابه بل هو عبارة عن فتحة باب معقودة بعقد مدبب يؤدى إلى ممر مقبى بقبو مدبب ويتقدم عقد الباب من الخارج عقد اخر اكبر منه ويرتفع عنه حوالى ١,٥ متر ويفصل بين العقدتين فتحة تصل إلى أرضية السطح وهذه الفتحة كانت تستخدم فى صب الماء الساخن والزيت الحار على من يحاول اختراق الباب ويوجد على العقد الداخلى للباب لوحة رخامية بيضاء مكسورة لقطعتين محفور عليها بالبارز بالخط الكوفى المورق كتابة تأسيسية نصها : -

١- بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله على ولى الله صلى الله عليهما وعلى الأئمة من ذريتهما أجمعين الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له مافى السموات وما فى .

٢- الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم .

٣- بعز الله العزيز الجبار يحاط الإسلام وتنشأ المعاقل والأسوار رأى انشاء هذا باب التوفيق والسور المحيط بالمعزية القاهرة المحروسة حماها الله فتى مولانا وسيدنا معد ابى تميم الامام المستنصر.

٤- بالله أمير المؤمنين صلوات (٣٥) الله عليه وعلى آبائه الأئمة الطاهرين وابنائه الأكرمين السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو النجم بدر المستنصرى أعز الله به الدين وأمتع بطول بقائه .

٥- امير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته حصن الله بحسن تدبيره الدولة والأنام وشمل صلاحه الخاص والعام ابتغاء ثواب الله ورضوانه وطلب فضله واحسانه وصيانة كرسى الخلافة ازدلافا الى الله بحياطة (٣٦) الحافظ بدى بعمله فى محرم سنة ثمانين واربعماية للهجرة الحنيفية . وهذا

النص يطابق تماما النص المحفور حول بابى النصر وباب الفتوح ونظرا لان بدر الجمالى قد بنى سوره بالطوب النى [٣٧] (اللبن) فقد وضع النص على لوح رخامى بين عقدى الباب وفى نهاية دراستنا نخلص إلى أن بدر الجمالى شرع فى بناء أسوار القاهرة عام ٤٧٧ هـ / ١٠٤٨م وأنّ باب النصر «كان بمثابة البوابة الجمركية للقاهرة وتوضيح ما أحدثه الفرنسيون فى باب النصر» وقت احتلالهم لمصر . كما نخلص كذلك إلى أن السور الممتد من باب النصر مارا بشرق إلى باب البرقية والذى يرجع إلى عصر صلاح الدين وأنه زاد منه مساحة على شكل مثلث قاعدته فى الشمال وقمته فى الجنوب ليحيط بالكيمان التى كانت تهدد الجدار الشرقى للمدينة والذى ربما طمر هدا الجدار تحتها كما أشرنا كذلك إلى البرج الذى عدل الفرنسيون فى تصميمه حتى يمكن إطلاق المدافع منه وكذلك تحديد الجزء المأهول بالسكان فى هذه الفترة بمطابقة خريطة وصف مصر للطبيعة وموقع البرج السابق ذكره المسمى ببرج كليبر خلف سينما الكواكب وهو البرج الوحيد الباقى من الأبراج التى شيدها الفرنسيون على الحدود الشرقية للمدينة بهذا الجزء . وكذلك دراسة الأبواب الثلاثة التى كانت تسمى بباب البرقية الأول الذى بناه جوهر وجدده عبد الرحمن كتخدا وكان يعرف بباب الغريب وكان هو الباب المستخدم زمن الحملة الفرنسية وهو منذثر الآن والباب الثانى الذى كشف عنه عام ١٩٥٧ تحت تلال البرقية والذى فتح الفرنسيون فيها نقبا لمرور الجنازات وهذا الباب باق للآن بشارع المنصورية بالدراسة خلف محطة البنزين التى بأول الشارع أما الباب الثالث فقد كشفه على بهجت فى أوائل هذا القرن وكان فى سور القاهرة الذى بناه صلاح الدين إلى الشرق من جامع عبد الرحمن كتخذا المعروف بباب الغريب بحوالى ١٢٠م وقد ردم هذا الباب بسبب اصلاح الشارع المار بهذا الباب .

كما أكدت المعاينة لباب البرقية أن سور بدر الجمالى كان مبنيا باللبن ولاتزال أجزاء منه موجودة بالجزء السفلى للكيمان جنوب الباب بحوالى ٢ متر وكذلك تصحيح قراءة برشم وڤييت التأسيسى لباب البرقية .

* * *

الهوامش

١- عبد الرحمن زكى قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ، أحمد فكرى مساجد القاهرة ومدائرها جـ ١

creswell, M.A. E.V.I

Berchem, C. I. A, T. I, P. 59

wiet, journal psiatique, 1961, P.B.

٢- اقام الفرنجة بسور القاهرة وبدور القاهرة نفسها حين استعان بهم شاور ضد شيركوه عم صلاح الدين ، كما إتخذ قواد الحملة الفرنسية من سور القاهرة وابراجه معقلا لهم ولجنوبهم.
ابن واصل . مفرج الكروب جـ ١ ص ٥٥١
المقريزى الخطط جـ ٢ ص٣٧ - ٣٨
لبن تغرى بردى . النجوم جـ ٥ ص ٣٤٨ - ٣٤٩

٣- يرجع السبب فى ذلك إى غموض المصادر التاريخية فى معلوماتها عن هذا الجزء بجانب طمر معظم أجزاء هذا الجزء تحت الكيمان ولكريز ويل كل الحق فى قوله «إن المقريزى أو غيره لم يمدنا بمعلومات تفصيلية عن هذا الجزاء»

creswell, colloque internatiovol sur l'histoire du caire A The foundingsof cairo S. P. 128

٤- المقريزى . اتعاظ الحنفا . جـ ٢ ص ٣٢١

٥- يقع شارع الضببية امام وكالج ذو الفقار .

6- D. E, E. M. Tome 1,PL 26
M. Van Berchem, C. I. A, Tome I, P. 59

٧- قراها فإن برشم خمسة وذكر أن الحفار لم يحدد خمسة دراهم أو خمسة دنانير ومن غير المعقول أن يؤخذ خمسة دراهم أو دنانير على جمل مهما اختلفت حمولته من بضائع غالية أو رخيصة والأقرب إلى المنطق أن يؤخذ على كل جمل خمس مايحمله من البضائع فتحقق بذلك العدالة الضريبية .

٨- الجبرتى . تاريخ مصر أحداث يوم ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢١٦ هـ .

٩- الجبرتى . مظهر التقديس ص ٣٠٤
تاريخ مصر . أحداث سنة ١٢١٥ هـ

١٠- الجبرتى . مظهر التقديس ص ٣٥٧ .

11- D. E, E. M. Tome I, PL.46

12- Corte, PL. LxV

١٣- سمى بهذا الإسم لنقله بواسطة العجول لضخامته .

١٤- صدر قرار الإزالة لمقهى يحجب سور القاهرة ، أصدره رئيس هيئة الآثار تحت رقم ٩٤ فى ٢٥ / ٩١ ١٩٨٢ ضد المواطن مجدى ابراهيم محمد سالم . ملف باب النصر بهيئة الآثار المصرية .

15- D. E, EM, Tome I, PL. 26
Corte, PL. LxV

١٦ - خريطة آثار القاهرة . مصلحة المساحة لوحج ١ مقياس رسم ١ - ٥٠٠٠

١٧- المرجع السابق .

١٨- ابن اياس . بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٨٤

19-D. E, XVII, Tome 2 Portie, P. 301

لبينول . سيرة القاهرة ص ١٢٧

أحمد فكرى . مساجد القاهرة ومدارسها جـ ١ ص ٢١ جـ ١

٢٠- المقريزى . الخطط جـ ٢ ص ٣٢٢، ٣٣٠ ، ٤٤٢ ، ابن ميسر. المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٩

٢١- المرجع السابق ص ٣٠٧

٢٢- ناصر خسرو . سفر نامة ص ٤٦ ، ٥٧

٢٣- القلقشندى. صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٥٤

٢٤- عبد الرحمن زكى . قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ص ١٠٢

25- D. E, E. M. Tome I PL. 26

٢٦- كان هذا الباب يقع إلى الشرق من جامع عبد الرحمن كتخدا (المعروف بجامع الغريب) بحوالى ٢٠ متر ثم جدده عبد الرحمن كتخدا عام ١١٦٨م وكان يعرف بباب الغريب أو باب الخلاء ويرى المرحوم/ محمد رمزى أنه باب البرقية الذى أنشأه جوهر الصقلى عند فتحه لمصر وقد هدم هذا الباب عام ١٩٣٦ عند انشاء جامعة الأزهر .

محمد رمزى . النجوم لابن تغرى بردى جـ ٩ ص ٢٠٥ جـ ٢

٢٧- الجبرتى . تاريخ مصر أحداث ١٢١٥ هـ

٢٨- الجبرتى. مظهر التنديس ص ٣٠٤

تاريخ مصر أحداث ١٢٣٥هـ

٢٩- الجبرتى . مظهر التقديس ص ٢٩٢

تاريخ مصر أحداث ١٢١٥

٣٠- الجبرتى . مظهر التفديس ص ٣٥٦

٣١- كشفه على تهجت فى حفائره بهذا الجزء من أسوار القاهرة أوائل هذا القرن .

د. عبد الرحمن زكى . القاهرة تاريخها وأثارها ص ٧٠

٣٢- الجبرتى . تاريخ مصر أحداث ١٢١٥ هـ

٣٣- كان الجنرال كافريللى المعروف بابى خشبة (بسبب قطع احدى رجليه وتركيب رجل خشبية عوضا عنها) هو المهندس الحربى المشرف على بناء القلاع فى الأماكن الهامة وقد توفى فى حصار عكا نقولا التركى . ذكر تملك جمهور الفرنساوية ص ٦٦

٣٤- ربما يكشف عن ذلك فى أحد الأيام بواسطة قيام احدى الجهات المختصة بعمل حفائر فى هذا المكان .

٣٥- لم يكتب الحفار كلمة «الله» ثم حفرها أعلى السطرين كلمتى «صلوات» و«عليه»

٣٦- قرأها فيت وبرشم «ألطافه»

٣٧- توجد آثار السور اللّبن إلى الجنوب من الباب على بعد متـرين بالجزء السفلى للكيمان وأول من أشار إلى هذا المرحوم الدكتور / فريد شافعى .

* * *

المراجع

١- د. أحمد فكرى . مساجد القاهرة ومدارسها . دار المعارف

٢- ابن اياس (محمد بن احمد الحنفى المصرى) . بدائع الزهور فى وقائع الدهور . الطبعة الثانية المعهد العلمى الألمانى لآثار بالقاهرة ١٩٦١ .

٣- ابن تغريردى (أبوالمحاسن يوسف) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة نسخ مصورة عن طبعة دار الكتب المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

٤- ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف بن جلب بن راغب) المنتقى من أخبار مصر انتقاء المقريزى تحقيق ايمن فؤاد سيد المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ،

٥- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب تحقيق د. جمال الدين الشيال . جامعة فؤاد سنة ١٩٥٣ .

٦ - ابو شامه (بهاء الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى) كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين النورية والصلاحية . تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد القاهرة ١٩٦٢ .

٧ - الجبرتى (عبد الرحمن بن حسن) مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس . طبعة اولى تحقيق حسن محمد وعمر الدسوقى سنه ١٩٦٩ ، تاريخ عجائب الاثار فى التراجم والاخبار .

٨ - عبد الرحمن الرفاعى تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم فى مصر . طبعه اولى . مكتبة النهضة ١٩٥٥م.

٩ - د. عبد الرحمن زكى قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية ومعاصرة . القاهرة سنه ١٩٦٠، القاهرة تاريخها واثارها . القاهرة ١٩٦٦ .

١٠- والقلقشندى (ابو العباس) صبح الاعشى فى صناعة الانشا المطبعة الاميرية ١٩١٣ - ١٩٢٢ .

١١ - كزنوفا . تاريخ ووصف قلعة صلاح الدين ترجمة د. احمد دراج .

١٢ - ليبول (ستانلى) سيرة القاهرة ترجمة د. حسن ابراهيم و د. على ابراهيم حسن وادوارد حليم القاهرة ١٩٥٠ .

١٣ - محمد رمزى . حواشى الجزء الخامس من كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى .

١٤ - المقريزى (احمد بن على) اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا القاهرة ١٩٧١ ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار . دار التحرير للطبع والنشر . عن طبعة بولاثق ١٢٧٠هـ .

١٥ - ناصر خسرو علوى . سفر نامة ترجمة د. يحيى الخشاب القاهرة ١٠٤٥ .

١٦ - نيكولا التركى . ذكر تملك جمهور الفرنساوية بالأقطار المصرية والبلاد الشامية . باريز المحمية ١٨٣٩م

١٧ - ملفات باب النصر واسوار القاهرة وباب البرقية بهيئة الاثار .

١٨ - فهرس اثار القاهرة وخريطتان بمقياس رسم ١ - ٥٠٠٠ مصلحة المساحة .

19 - Berchem (Max) Van, Materiaux pour un corpus inscription aracbicorum, Egypte , (M. S. F. A. O) Le Caier 1894 - 1903

20 - (creswell ck) , Muslim Architecture of Egypt , oksford , 1951 calloque international sur l'his-

toire du caire "The founding of cairo" .

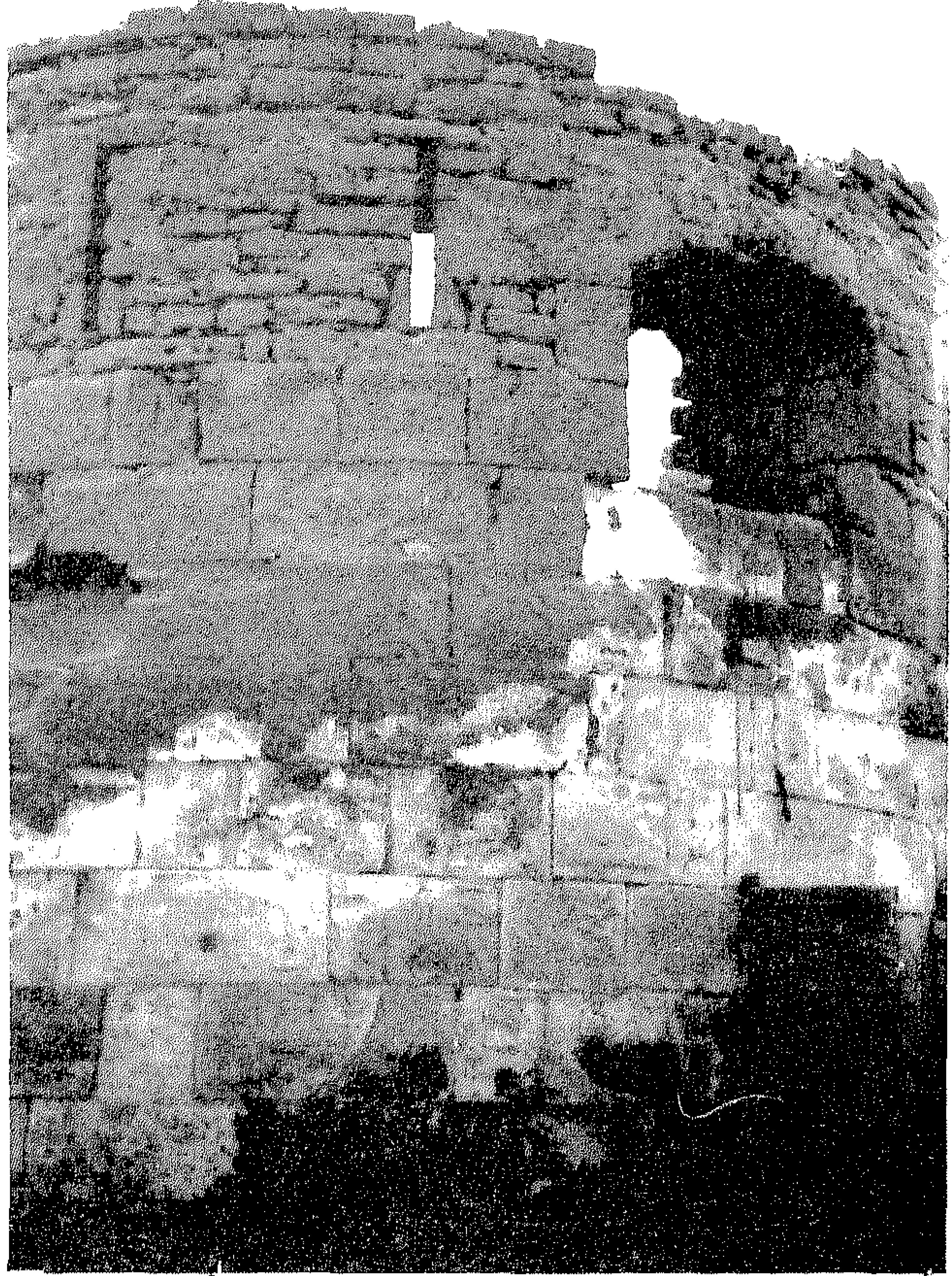
21 - Comite'de conservation des monuments de'l Art arabe 1933 - 35

22 - Coste (P). Architecture arabe ou monuments du Caire mesures et dessins de 818 - 25, Paris MDCCCXXXIX

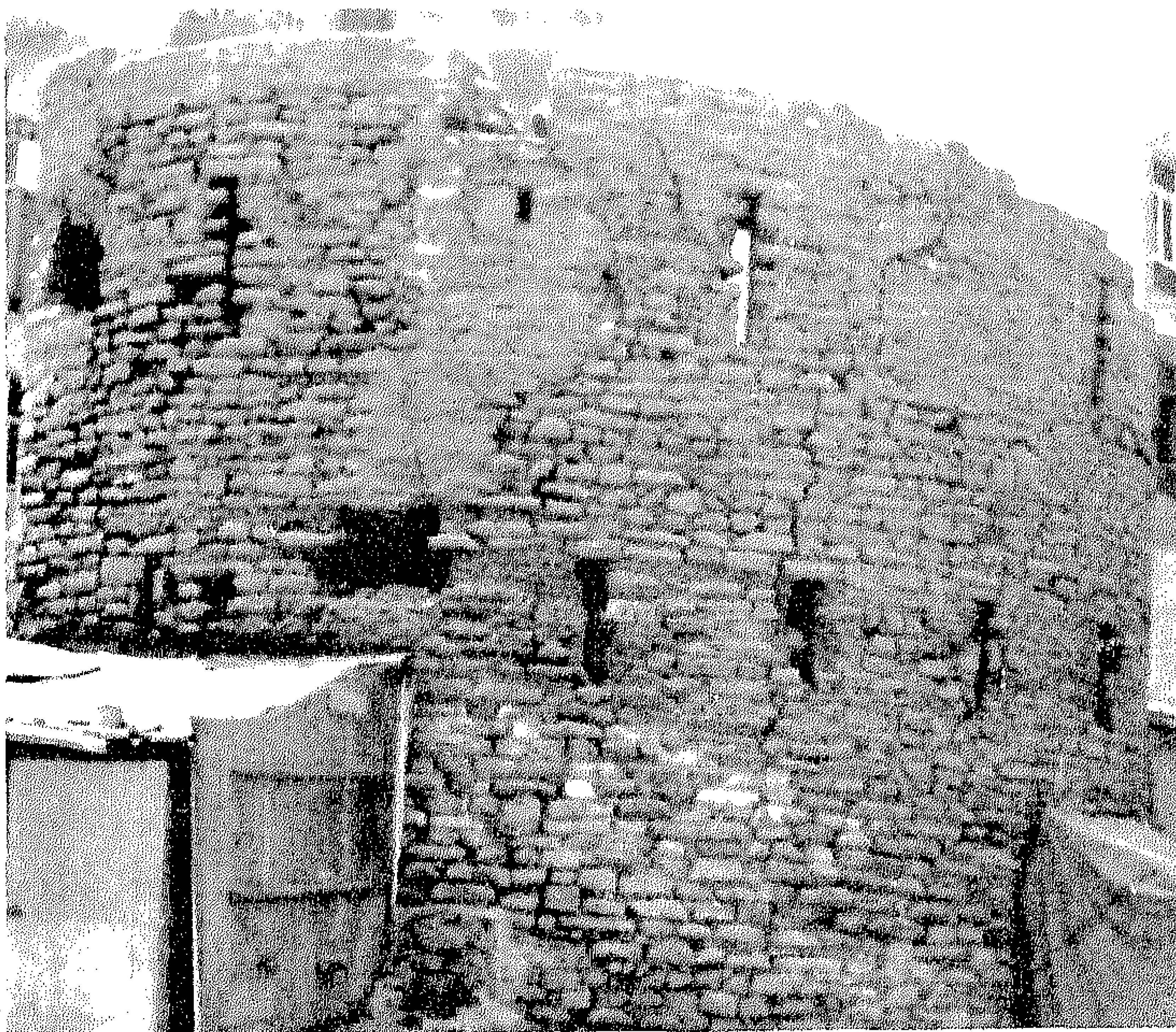
23- Yomard (M), Deacripation du l'Egypte, XVIII, Tome2 partie, Etat moderne, seconde edition, Tome l,Paris MIDCCCXXII.

24 -Wiet (G) , Combe et fauvaget, R'epertoire chronologique d'epigraphie arabe, Tome VIII, Bulletin de l;mstitut, MCMXXXVI .

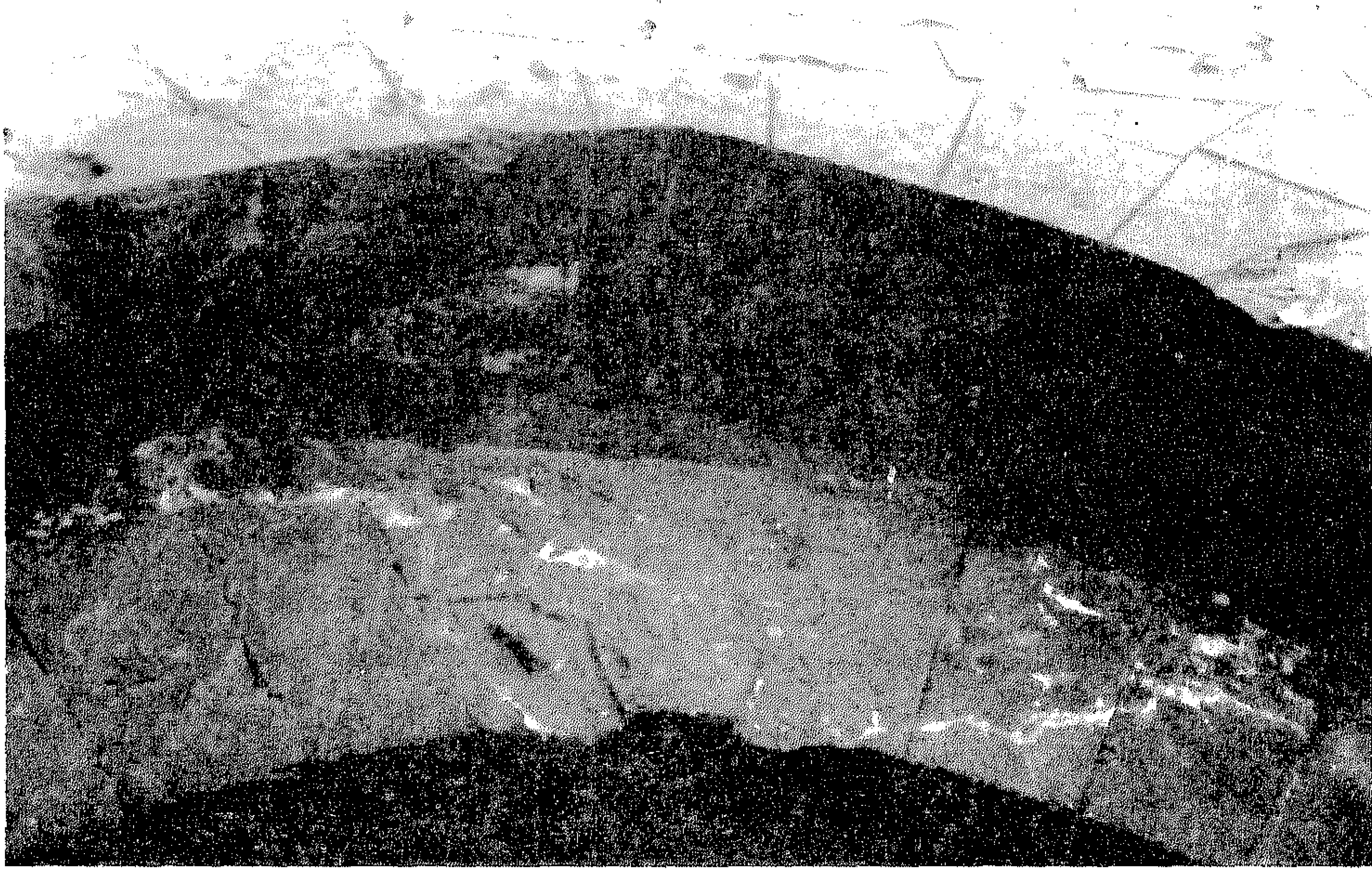
* * *



صورة (١)
البرج الذي عدل الفرنسيون في تصميمة
ويتضح اختلاف أحجار ثلثه العلوى عن باقى البرج



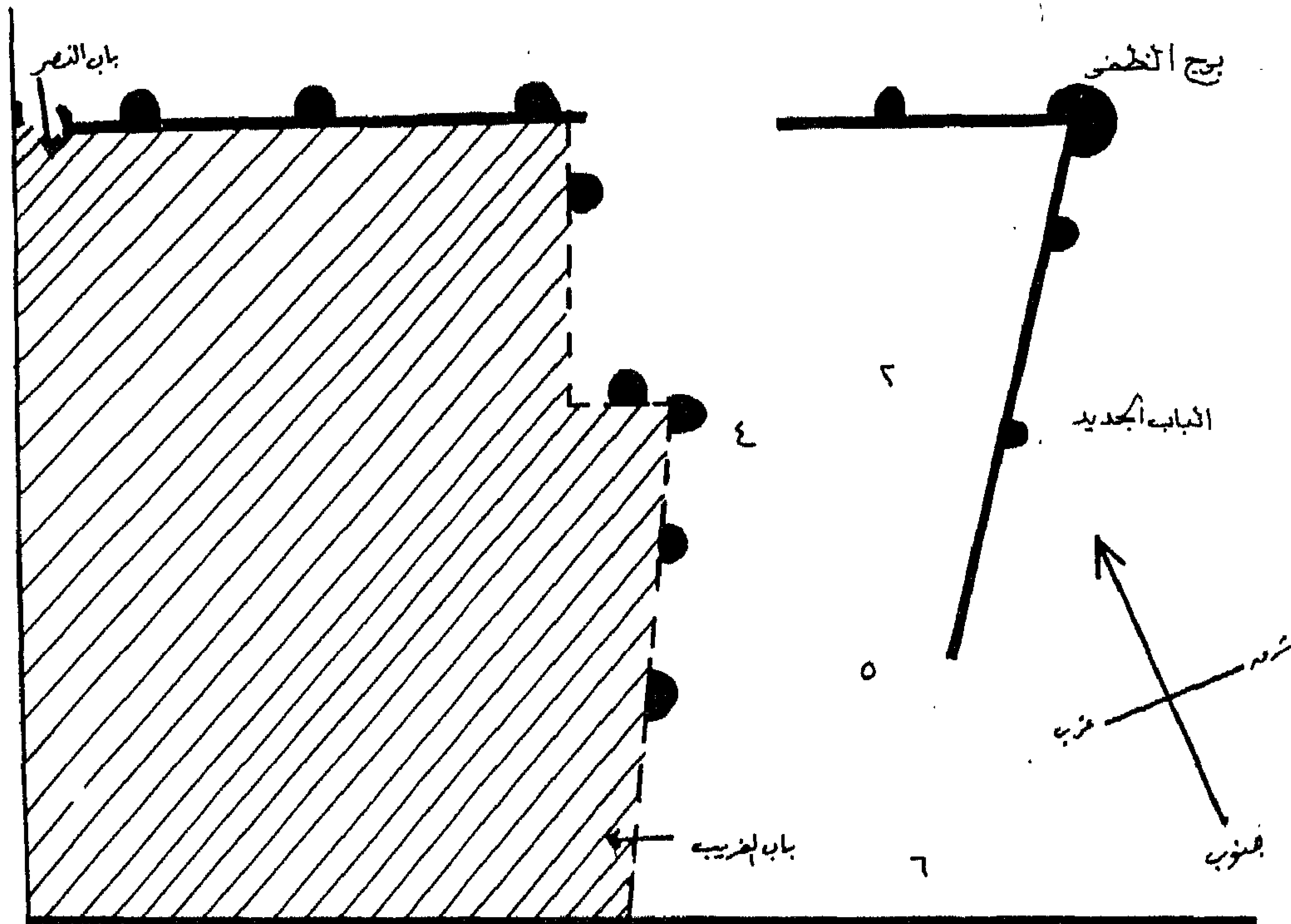
صوره (٢)
البرج المعروف ببرج كليبر



صرره (٣)ويظهر بها الحروف اللاتينيه التى نقشها الفرنسيون بصنجة مفتاح العقد الخارجى
لباب البرقية ، كما يظهر بها اللوحة الرخامية المحفور عليها النص التأسيسى فوق العقد الداخلى للباب



صورة (٤)ويتضح بها بقايا القطع الجرانيتية التى كانت تسد الباب
على يمين ويسار فتحة العقد الداخلى للباب .



شكل (١)(عن الحملة الفرنسية)
شكل يوضح الجزء الممتد من باب النصر إلى باب البرقية بأسوار القاهرة

١- نهاية العمران داخل قاهرة المعز.
٢- تلال الكيمان داخل أسوار القاهرة.
٣- البرج الذى عدل الفرنسيون فى تصميمه .
٤- البرج المعروف ببرج كليبر
٥- موقع باب البرقية (عصر بدر الجمالى) .
٦- موقع باب البرقية (عصر صلاح الدين) .

«دينار فاطمي نادر ضرب في زبيد»
[٤٤٧ هـ]

د. سهام محمد المهدي

زبيد مدينة تقع جنوبى غرب صنعاء باليمن على ساحل البحر الأحمر اختطها محمد بن زياد عام ٢٠٤ هـ (٨١٩م) فى عصر الخليفة المأمون واتخذها حاضرة ملكه (١) وصارت فى يد « نجاح » احد عبيد بنى زياد الذى دخلها فى سنه ٤١٢ هـ (١٠٢١م) وضرب السكة باسمه وكاتب الخليفة العباسى ودخل فى طاعته فنعته «بالمؤيد» ولقبه«نصر الدين» وظلت زبيد فى يده حتى توفى سنه ٤٥٢ هـ (١٠٦٠م) (٢)

ويضم متحف الفن الاسلامى بالقاهرة دينارا فاطميا ضرب فى زبيد عام ٤٤٧ هـ ، لوحة رقم ١ قراءته كالتالى : -

الوجه

١ - الهامش الخارجى :

محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

٢ - الهامش الاوسط : -

وعلى أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين

٣ - الهامش الداخلى : -

لا اله الا الله محمد رسول الله

الظهر

١ - الهامش الخارجى : -

« بسم الله ضرب هذا الدينر بزبيد سنه سبع واربعين واربعمائه »

٢ - الهامش الاوسط : -

دعا الامام معد لتوحيد الاله الصمد .

٣ - الهامش الداخلى : -

المستنصر بالله امير المؤمنين .(٣)

ويثير التساؤل بشأن هذا الدينار عدة أمور: -

اولا : - تاريخ ضربه عام ٤٤٧ هـ وبمدينة زبيد بالذات وهى المدينة السنية

ثانيا : - انه دينار فاطمى باسم الخليفة أبى تميم معد المستنصر بالله مصحوبا بألقابه ورموزه الشيعية الصريحة . كما أنه مماثل لشخصية الدنانير الفاطمية المصرية المضروبة فى تاريخ معاصر .

فكيف ضرب مثل هذا الدينارالشيعى باسم الخليفة الفاطمى بمصر فى تلك المدينة السنيه الموالية للدولة العباسية ؟

وللاجابة على هذا التساؤل نبدأ بتتبع سريع لتاريخ الدعوه الشيعية فى اليمن فقد كانت بلاد اليمن مهداً للدعوة الاسماعيلية السريه منذ عام ٢٦٨ هـ (٨٨٢م) والتى تزعمها الداعيان رستم بن حوشب وعلى بن الفضل ولما قوى امرهما اعلنا الثوره ونجحا فى الاستيلاء على صنعاء وزبيد من أيدى اليعفرين . ثم توفى ابن حوشب عام ٣٠٢هـ (٩١٥م) ، وبعده توفى ابن الفضل عام ٣٠٣هـ (٩١٦م) ومن ثم عادت الدولة اليعفرية إلى الظهور فى صنعاء من جديد ، الا ان الدعوة الاسماعيلية ظلت مستمرة فى الخفاء وخاصة فى ناحية جبل مسور جنوبى صنعاء . وكان الفاطميون يغذون هذه الدعوة سرا من المغرب ثم من مصر.

وفى عصر الخليفة ابى تميم المستنصر تمخض عن هذه الدعوة ثورة على بن محمد الصليحى فى حصن مسور ونجح فى الاستيلاء على صنعاء ومعظم انحاء اليمن منذ سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨م) (٤) ، او ٤٣٩ هـ (١٠٤٩م) (٥) إلا أن مدينة زبيد استعصت عليه وبقيت فى يد نجاح « احد عبيد بنى زياد وكان الصليحى يدعو المستنصر سرا ويخاف نجاحا (٦) ويسكن لامره فى الظاهر وهو فى الباطن يعمل الحيلة فى قتله» (٧) .

ولم تذكر المصادر التاريخية أية صلة للفاطميين بمدينة زبيد الا فى عام ٤٥٣ هـ (١٠٦١م) بعد أن نجح الصيلحى فى قتل نجاح بالسم فى عام ٤٥٢ هـ فكتب الى الخليفة الفاطمى المستنصر يستأذنه فى اظهار الدعوه ووجه اليه بهدية جليله منها سبعين سيفا قوائمها من العقيق (٨) . ولما وصلت هديته الى الخليفة الفاطمى قبلها وأمر له برايات وكتب له الالقاب وعقد له الولاية وأذن له فى نشر الدعوة هناك (٩) .

ومما سبق ذكره نلاحظ ان زبيد فى سنه ٤٤٧هـ تاريخ ضرب الدينار المذكور – لم تكن فى طاعة الصليحى ، بل كانت تحت راية دولة نجاح السنيه .

فكيف نفسر ضرب مثل هذا الدينار الشيعى فى دوله سنيه ؟

من المعروف أن الفاطمين حققوا دعوتهم بوسائل شتى ، بالدعاية تارة ، وبقوة السيف وبذل المال واستغلال مطامع الافراد تارة أخرى (١٠)

وعلى سبيل المثال وصلتنا دنانير فاطميه سجل عليها انها ضربت فى مصر قبل دخولهم اليها بسنوات عديده (١١) .

ومن المؤكد أن مثل هذه الدنانير لم تضرب فى مصر وكذلك هذا الدينار محل البحث لم يضرب فى زبيد فكلنا يعرف الرقابة الصارمة على دار الضرب فى اى بلد بصفتها من المسئوليات السياسية والاقتصادية الرئيسية فيها ، حيث يختص بها الحاكم نفسه أو من ينوب عنه فى الحكم (١٢) .

وحيث كانت « زبيد » فى دولة نجاح السنية ولم يكن الصليحى مسيطرا عليها فان من المرجح أن ذلك الدينار هو من تلك النقود التى استخدمها الفاطميون للدعاية لمذهبهم وأن نقشهم لمكان الضرب «زبيد » هو من قبل الحرب النفسية لذلك الحاكم السنى نجاح .

ومن جهة أخرى فان تداوله فيها قد يدل على انتشار النفوذ الشيعي ووجود أنصار للصليحى من بين سكان المدينة قبل دخولها رسميا تحت راية الداعية الفاطمى عام ٤٥٢هـ .

الهوامش

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن . تحقيق محمد بن على الاكوع – المكتبه اليمنية (١٩٧٩م) ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) عبد الرحمن بن على الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى اخبار مدينة زبيد . تحقيق الدكتور يوسف شلحد (صنعاء) ص ٥٥ – ٥٦ .

(٣) رقم السجل : ٢٦٠٦٥ – الوزن ٤,١٥٠ جم القطر ٢٢ مم .

(٤) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٨٠ – د. أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى ص ٣٣٤ – ٣٤٥ .

(٥) اختلفت المصادر التاريخية فى تاريخ قيام الصليحى بثورته ، فبعضهم ذكرها سنة ٤٢٩ هـ انظر : ابو الحسن على بن الحسن الخزرجى : المسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك ص ٥٦ وكذلك عبد الرحمن بن على الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى آخبارمدينة زبيد ص ٥٥ وذكر عماره اليمنى تاريخ هذه الثوره عام ٤٣٩ انظر المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٦) د. جمال الدين سرور : – المرجع السابق ص ٨١ (عن بامخرمه : المختار فى تاريخ ثغر عدن ورقه ١٢٧) .

(٧) ابو الحسن على بن الحسن الحزرجى : –
المرجع السابق ص ٥٧ .

(٨) المرجع نفسه ص ٥٧ .

(٩) المرجع نفسه ص ٥٧ عبد الرحمن بن على الديبع : المرجع السابق ص ٥٥ – ٥٦ .

(١٠) اين ظافر : اخبار الدول المنقطعه – تقديم وتعقيب اندريه فريه – المعهد العلمى الفرنسى للاثار الشرقيه القاهره (١٩٧٢) ص ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٨ .
د. حسن ابراهيم : – الفاطميون فى مصر ص ٣١٥ .

(١١) منها دينار محفوظ بدار الكتب المصرية ضرب فى عام ٣٥٣ هـ انظر :

Lane- peole , (Stanly), Catalogue of the Collection of the Arabic coins , Preserved in the khedival library in cairo , no 956..

ونشر الدكتور باقر الحسينى دنانير مؤرخه عام ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ هـ .
انظر : دراسات تحليلية اسلامية عن نقود الدعاية والاعلان والمناسبات – مجلة المسكوكات ، العدد ٦ (١٩٧٥) ص ٩ – ١١ .

(١٢) د. سهام محمد المهدى : دار ضرب الاسكندرية ونقودها الاسلامية – رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية الاثار جامعة القاهرة (١٩٨٦) ص ٤٤ .

* * *

لوحة رقم (١)



الوجه



الظهر

الروابط العائلية وتنظيمها في الاسلام

سهيلة الجبوري
بغداد - العراق

الاسلام هو الاسم الذى عرف به الدين الذى جاء به محمد (ص) . ولم تكن هذه التسمية اجتهاداً من الرسول محمد (ص) انما كانت من الله تعالى حيث قال .. (ورضيت لكم الاسلام دينا) (١) .

فالاسلام هو توحيد الله والانقياد والخضوع واخلاص الضمير له والايمان بالاصول الدينية التى جاءت من عنده . لقد سار الاسلام على غير سمت الاديان التى كانت قبله وسن نهجاً جديدا فى البرهان على صحته وعلى انه من عند الله . فالقرآن هو الكتاب المعجزه للبشر بهدايته وتشريعه واسلوبه ومعانيه التى تتميز بخلودها وبقائها على مر الزمان . فنزوله بلسان قومه وكتابته بنفس الخط المتعارف عليه كان امراً مهماً . إذْ أنّ هاتين الوسيلتين كونتا عقولا جديدة لامه محمد ، وحصلت الطفرة الهائلة لصياغتهم صياغة جديدة تحول فيها المجتمع عما كان عليه قبل الرسالة المحمدية (٢) . بينما كانت معجزة موسى عليه السلام عصا انقلبت حيه تسعى وذلك لان قوم فرعون اهل علوم رياضية وطبيعية واولى سحر وصناع. ومعجزة عيسى عليه السلام يبرىء الاكمه والابرص ويحيى الموتى وذلك لأن قوم عيسى اشتهروا بالطب (٣) . لقد كان العرب قبل إسلامهم عبارة عن قبائل متفرقة فكل قبيلة تعتبر نفسها دولة مستقلة لا تذعن لغيرها . الامر الذى ادى إلى التفكك والتنازع والتناحر ، كما أن هذا العصر مضطر ب الأمن تسوده الفوضى من جميع نواحيه : عصبيات جاهليه ، ارتكاب لا شنع المنكرات ، سلب ، قتل ، وأد وعدوان ، تغير القبيلة على الأخرى فتبدد شملها وتسلبها حرياتها ومالها ، وتعتدى على اعراضها . فالحق للقوه الغاشمه (٤) . مما استحق ان يطلق على تلك الفترة(الجاهليه) على الرغم من انهم اظهروا عنايه بالفكر واهتماماً بالعقل والادب (٥) .

لقد كانت المرأة قبل الرساله المحمديه مهانة . فقد عدها كثير من اهل الجاهليه اداة شر قال تعالى: (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) (٦) . إنّ هذا الغلو فى كره الاناث ادى الى العاده المشؤومه وهى وأد البنات ، قال تعالى : (وإذا المؤودة سئلت بأى ذنب قتلت) (٧) . وقد جرى اكثر الجاهليين على عد المرأه كالمتاع الجامد الذى ينهبونه من أعدائهم فاذا كانت الغاره حصل كل فارس ماقدر عليه من النساء فكانوا جميعاً ملكه يتصرف فيهن كما يشاء من بيع وتمتع وامتهان واسترقاق (٨) . بل بلغ امتهان المرآه عند بعضهم أن كان الرجل اذا مات صديقه قال : انا احق بأمرأته أويزوجها لغيره ويستولى على مهرها (٩) . كما ان الرجل اذا مات ورثه ولده ، وفيما يرث من متاعه زوجاته جميعاً فيتمتع بهن كما كان يتمتع ابوه .

اما حرمان المرأه من الارث والمهر فذلك لأن نظرة عرب الجاهليه بأن المال يذهب الى الغرباء الذين تزوجت اليهم وكثيراً ما يكونوا من أعدائهم . وقولهم فى ذلك معروف . (لا يرثنا إلا من يحمل السيف ويحمى البيضه) (١٠) . وكان مهر الفتاة يغتصب من قبل ابيها او أهلها (١١) . اما العضل فهو نوع آخر من الظلم على اليتيمه تكون عند الرجل هو وليها ووارثها ، وقد اشركته فى مالها فيرغب ان يتزوجها أو ان يزوجها رجلا فيشركه فى مالها فيعضلها . كما انهم لا يساوون بين الرجل والمرأه فى الدماء . الا ان كل ما كانت تعتز به المرأه العربيه فى تلك العصورعلى أخواتها فى العالم كله هو حماية الرجل لها ، والدفاع عن شرفها ، والثأر لامتهان كرامتها . لقد كان احترام المرأه شئ قليل لا يصلح اطلاقه على مجموع عرب الجاهليه . وان إمتياز بعض اشراف الحواضر مثل مكه ويثرب شذوذ لا يقاس ، والحكم دائما على المجموع لا على للجميع .

لقد تميزت المرأه فى الجاهليه بصفات ثلاث : هى العفه والفصاحه وحسن التربيه لبنيها . وان الرجولة الطافحه فى بلاد العرب مدينة بالشئ الكثير للمرأة إن لم تكن مدينة لها وحدها بكل صفاتها من مرؤه وشجاعة وكرم ونجده . وقد نبغ منهن ذوات الرأى والنفوذ والمشاعر والكاهنات والمربيات كما كان منهن من امتهن الصناعة كالغزل ، والتجاره وكان لهن التمريض والعناية بالجرحى وسقى الماء وتشجيع المحاربين فى الحرب (١٣) . ومهما يكن من أمر فقد كانت المرأه العربيه احسن حظا من المرأة فى الحضارات الأخرى اذ لم تكن لها حقوق شرعيه أو عرفيه تنسب الى اداب المجتمع وقوانينه (١٤) . وربما كانت الحضاره المصريه القديمه هى الحضاره الوحيده التى خوّلت المرأه (مركزا شرعيا) تعترف به الدولة والامة وتنال به حقوقا فى الاسره والمجتمع (١٥) .

لقد وجهت الطبيعة غريزه الرجل الى العمل للحاضر وحده ولكنها خصت المرأه بغريزة العمل للمستقبل ، تحمل وتلد وتربى وتعلم وتحارب نزوات الرجل بالضعف اذا صلح و بالقوة اذا وجب الأمرموجهه كل ذلك الجهد الى الاحتفاظ بشيئن : الاسره، والولد . الاسره للحاضر والولد للمستقبل . وليس لها من كل ذلك غنيمة أو ربح . تلك هى الغرائز النبيله الساميه (١٦) . ولا يخفى لما للمرأه من القدرة على الصبر وطول النفس وشدة القدرة على التحمل وقدرتها على السهر الطويل على المرض والجوع والحر والبرد . فالتركيب الفطرى فى المرأه وفى الرجل يمكن كل واحد منهما لاداء مهمته فى الحياة . وهذا ينسجم كثيرا مع ما قاله (غاندى) :(ان المرأه والرجل كشفرتى المقراض تختلف الواحد، عن الأخرى وتتم الواحدة الأخرى (١٧) .

موقف الاسلام من المرأه .

فى اواخر القرن السادس للميلاد ، ووسط هذا الظلام الذى خيم على قضية المرأه فى جميع انحاء العالم المتمدن وغير المتمدن إنذاك . انطلق فى جزيرة العرب ، من مكة المكرمه انطلق صوت السماء على لسان محمد (ص) ليضع الميزان الحق لكرامة المرأه ويعطيها حقوقها كامله غير منقوصه، ويعلن انسانيتها الكامله واهليتها الحقوقيه التامّة ، ويصونها من عبث الشهوات وفتنه الاستمتاع بها ويجعلها عنصرا فعالا فى المجتمعات وتماسكها وسلامتها (١٨) .

لقد قضى الاسلام على مظالم المرأه قضاء تاماً وعنى اشد العناية بإشعار الرجل ان المرأه مخلوق مثله فى الانسانيه ، ومكّن لهذا الشعور التمكين كله . قال تعالى : (هو الذى خلقكم من نفس واحده وجعل منها زوجها لتسكن اليها) (١٩) . وقال ايضا : (يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحده وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا و نساء) (٢٠) . ولا مر ما كرر الوحى الاشاره الى ان الرجل والمرأه خلقا من نفس واحده ، فهو يريد استئصال امتهان راسخ فى نفوس بعضهم للنساء . ثم حفظ الإسلام لها حقوقها كاملة ، و أراحها من عنت الجاهلية ، ثم بوأها المقام المحترم فى بيتها و فى المجتمع ، و أوصى بها خيرا .

لقد حرم الأسلام الوأد كما حرم السبى منذ أن حّرم الغزو ، و سوى الإسلام بين دم الرجل و دم المرأة و صار يقتل قاتلها ، و جعل الإسلام المهر حق لها خالصا لا ينزعه الا ظالم . و كان تعدد الزوجات غير محدد و لا مقيد فجاء الإسلام محددا له ، مقيدا بقيود كفيلة بالقضاءعليه . و كان اكراه الفتيات على البغاء ليكسبن لأسيادهن مالاً ، فجاء الإسلام معلناً : (و لا تكرهوا فتياتكم على

البغاء) (٢١) . و كان قتل الأولاد من الفقر فى الجاهلية فجاء الإسلام و منع ذلك قال تعالى : (و لا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقكم و أياهم) (٢٢) . و قرر الإسلام للمرأة ميراثًا : قال تعالى: (للذكر مثل حظ الأنثيين) (٢٣) . وحرم القرآن العضل قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً و لا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن) (٢٤) . و كان الولد يرث زوجات أبيه فى جملة المتاع فجاء الإسلام رادعًا أشد الردع عن هذا المنكر بقوله : (و لا تنكحوا ما نكح اباؤكم من النساء إلا ما قد سلف أنه كان فاحشة و مقتا و ساء سبيلا) (٢٥) . ثم سن الإسلام للمرأة تشريعًا مفصلاً فى الأرث و الزواج و الطلاق مبيناً ما لها و ما عليها ضمن هذا الأساس الحقوقى العادل . قال تعالى : (و لهن مثل الذى عليهن بالمعروف) (٢٦) . وقد قرر الإسلام فى مواريث النساء هذه القاعدة قال تعالى : (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون و للنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون) (٢٧) . فبين للمرأة حقوقها من الارث زوجا كانت ام او بنتا او اختا . فصارت كالرجل ذات حقوق اصلية منصوص عليها بالتفصيل .

لقد جعل الاسلام الزواج عهد وميثاق بين الزوجين . قال تعالى : (واخذن منكم ميثاقا غليظا) (٢٨) . فالزواج فى القرآن هو الزواج الانسانى فى وضعه الصحيح من جهة المجتمع ومن المجتمع ومن جهة الافراد . فهو واجب اجتماعى من جهة المجتمع للمحافظة على النوع الانسانى . وسكن نفسانى من جهة الفرد ، وسبيل مودة ورحمة بين النساء والرجال ، قال تعالى : (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (٢٩) . واوجب على الرجل عند الزواج ان يبذل للزوجة مهرا وقد سماه صدقة . قال تعالى (واتوا النساء صدقاتهن) (٣٠) . وجعل احسان العشرة الزوجية من اهم ما يجب على الرجل الالتزام به . قال تعالى (وعاشروهن بالمعروف فأن كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (٣١) . وقد وضع القرآن شريعته المحكمة فى كل نوع من انواع المعاملات التى تخص المرأة مثل معاملة الادب ، ومعاملة الحقوق ، ومعاملة النسب . وفى كل معاملة دستورها الجامع (٣٢) . وشعور المعاملة القرآنية هو دستور (المرأة الخالدة) .

لقد ساوى القرآن الكريم بين الزوجين فى الواجبات و الحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل قال تعالى (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف و للرجال عليهن درجة) (٣٣) . فحق القوامة مستمد من التفوق الطبيعى فى استعداد الرجل خاصة فى فترة الحمل والرضاعه (٣٤) . كما ان هناك تفسيرات آخرى لمعنى درجة الرجل (عليهن درجة) ، منها ان المراد بالدرجة فضله فى الميراث والديه والامره والطاعة وحقة فى اللعان اذا قذفها وحقه فى الطلاق والرجعه دون استئذانها بخلافها حيث لايحق لها الطلاق أو الرجعه دون تفويضها من قبل الرجل (٣٥) .

اما الاباحه فى تعدد الزوجات فلم يبطلها الاسلام ولكن عدلها وهذبها . فبعد ان كانت الاباحه مطلقه قيدها الاسلام كما وكيفا . قيدها كما بتحديد اقصى عدد يباح من الزوجات . وقيدها كيفا باشتراطه لهذه الاباحه الأمن من الظلم ، وهذا ماورد فى القرآن الكريم : (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحده أو ما ملكت ايمانكم ذلك ادنى الاتعولوا) (٣٦) .

لقد اقر الاسلام مبدأ تعدد الزوجات انه يرمى الى هدف بعيد الغور فى الاصلاح الاجتماعى . لانه يعلم ان من الرجال من لايردعهم عن المضى فى شهواتهم رادع ، كذلك لحماية المرأة من شر مستطير معرضه له (٣٧) . ولضرورته الملحه فى بعض الحالات (٣٨) . فقد ورد عن عمر بن الخطاب (رض) وعن على (كرم الله وجه) قالا : (ما الزواج الا للاولاد) (٣٩) .

ومن الاوهام الشائعة ان الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى اباح تعدد الزوجات بين الاديان الكتابية . الا ان الواقع تدل عليه كتب الاسرائليين والمسيحيين ان تعدد الزوجات لم يحرم فى كتاب من كتب الاديان الثلاثة . وانه كان عملا مشروعاً عند الانبياء (٤٠) .

ان الزواج فى الاسلام صله شرعية بين الرجل والمرأة ، تسن لحفظ النوع وما يتبعه من النظم الاجتماعية (٤١) . وقد حرم القرآن الكريم الزواج من المشركين أو المشركات (٤٢) . قال تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ... ولاتنحكوا المشركين حتى يؤمنوا) . (٤٣) كما لايجوز زواج المسلم من وثنية أو مجوسية (٤٤) . غير أنه اباح الزواج من اهل الكتاب . قال تعالى (اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا اتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ...) (٤٥) .

اما الطلاق فقد اباحه الاسلام مع ذمه والتنفير منه . فقد روى عن النبى محمد (ص) انه قال (ابغض الحلال الى الله الطلاق) (٤٦) . فشريعة القرآن فى مسألة الطلاق شريعة دين ودنيا ، وكل ما اشتملت عليه من حرمة الدين تابع لما شرع له الزواج من المصلحه النوعية والمصلحه الاجتماعية . من هذه الشريعة القرآنيه تتوافر جميع الرخص المفيدة التى لجأت اليها امم الحضاره لتيسير العلاقه بين الزوجين مع المحافظة على الاداب الاجتماعيه . وقد ساوى القرآن الكريم بين الرجل والمرأه فى هذا الشأن . قال تعالى (وأن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من اهلها ...) (٤٧) .

وللمرأه ان تطلب الطلاق للأسباب التاليه :-

آ)عجزه عن اعالتها

ب) اذا كان الزوج مصابا بجنون أو الجذام أو البرص

ج) اذا غاب سنة فأكثر (٤٨) .

د) اذا هجر الزوج زوجته لتأديبها اربعة اشهر وأساء استعمال حقه فى التأديب فللزوجه رفع امرها الى القضاء ولها حق الطلاق بسبب الضرر (٤٩) .

ماعدا ذلك فقد جعل الاسلام الطلاق بيد الزوج (٥٠) .

ومن الحوافظ التى شرعها الاسلام : الاشهاد على الطلاق . قال تعالى (واشهدوا ذوى عدل منكم واقيموا الشهادة لله) (٥١) . فالاشهادعلى الطلاق شرط فى وقوعه ، كما ان الشهادة فى الزواج شرعت لانشائه . وكل طلاق تتبعه فترة تريث تسمى العده . جاء فى القرآن الكريم : (يا ايها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة) (٥٢) . وفترة التريث تتفاوت فى طولها وقصرها تبعاً لحاله الزوجه . فعدة الحامل هى وضع الولد : قال تعالى (وأولات الاحمال اجلهن ان يضعن حملهن) (٥٣) . وعدةالمطلقه غير الحامل هى :-

أ) ذوات الحيض وعدتهن ثلاث قروء أى ثلاث دورات كاملة من الحيض والطهر ، جاء فى القرآن (والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء ولايحل لهن ان يكتمن ماخلق الله فى ارحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر) (٥٥) .

ب) عدة اليائسات : وهن اللواتى تجاوزن الحيض وعدتهن ثلاثة اشهر . جاء فى القرآن (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة اشهر واللائى لم يحضن) (٥٦) . اما المقصود فى (اللائى لم يحضن) فهن اللواتى تجاوزن سن البلوغ دون ان يحضن .

وللعدة فوائد حددها الاسلام . فالاسلام يحرص على بقاء الزوجية المؤيده ، فاذا حصل الطلاق فان العدة تبقى الصلات بين الزوجين كى يستطيع الزوج مراجعة زوجته فهى فترة لامعان الفكر قبل حل الحياة الزوجية (٥٧) . ومن حكم العدة ايضا انه يتبين فيها للمرأة الحمل أو عدمه . وفى ذلك من النفع مافيه كى لاتختلط الانساب (٥٨) .

اذا اعتزم الرجل على الطلاق (فتسريح باحسان) (٥٩) . وعلى الزوج ان يوفى المطلقة صداقها كاملا لايستحل منه شيئا لنفسه . قال تعالى (وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً . اتأخذونه بهتاناً واثماً مبيناً) (٦٠) .

اما الاحكام الفقهية للمرأة فى الحدود والعبادات والمعاملات ، وحقوقها على الوالد والزوج والولد فهى بيان واضح لقوة مركزها الاجتماعى الحقوقى فى الاسلام . فقد اخذت المرأة مكانها فى التصوير القرآنى كانسانه لها شخصيتها المستقلة عن الرجل . فقد استطاعت امرأة فرعون ان تحرر فكرها من كل الاوامر والقيود فترفض ان تسير فى ركاب زوجها بل تعلن موقفها فى ثبات وايمان رغم ضغط المتجمع ورغم الرابطة الزوجية التى تربطها بفرعون (٦١) . قال تعالى : (وضرب الله مثلا للذين امنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين (٦٢) .

كما اصبحت للمرأة فى الاسلام شخصية مسؤولة . وانها لاتقل عن الرجل فى استعدادها لاحتمال التكاليف الشرعية والقيام بها على الوجه الاكمل ، على الرغم من عدم بساطة هذه التكاليف . منها ما يتعلق بدفع المال دون عوض كالزكاه ومنها مايستلزم السفر البعيد كالحج ، ومنها مايقضى بحرمان النفس عن لذائذ الحياة برهه من الزمن كالصيام ، ومنها ما يتعلق باعمال بدنية يومية كالصلاة . وإن عدم استثناء المرأة من بعض هذه العبادات صريح الدلالة على انها لاتقل جدارتها العقلية عن جدارة الرجل . قال تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ..) (٦٣) .

اما العقوبات التى اوقعتها الشريعة الاسلامية على المجرمين من الرجال وجدناها قد اوقعتها على المجرمات من النساء ايضا دون تمييز . ففى جريمة القتل قال تعالى : (يايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى) (٦٤) . وفى جريمة الزنا قال تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلده ولاتأخذكم بهما رأفه) (٦٥) . وفى جريمة السرقة قال تعالى (والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاءاً بماكسبا ...) (٦٦) .

لقد حدد القرآن الكريم الرذائل ونهى المؤمنين والمؤمنات عنها على السواء . وتشتمل الرذائل على : الانقياد لهوى النفس (٦٧) . الكبرياء (٦٨) . الخمر القمار (٦٩) . الزنا (٧٠) . الكذب (٧١) . احتقار الغير .الظن السيئ والتجسس والغيبه (٧٣) . الغضب. الحسد . اللغو . الشراهه .

لقد حدد الاسلام علاقة الاولاد بالوالدين . فقد حرم قتل الاولاد خوفا من الفقر، كما أوصى الاولاد بالاحسان وحسن المعاملة لوالديهما وبخاصة الام .

أما النبى محمد (ص) فقد أوصى بالمرأة خيرا «، أما» كانت أم بنتا «أو أختا» أو زوجة . فشجع على تأديب البنات وتعليمهن القراءة والكتابة . وأوصى بالارملة خيرا» ، كما أوصى الرجل أن يختار لأبنه أما «صالحة وأسما» «جميلا» ويحفظه القرآن وقد كانت آخر وصية له بالنساء فى خطبته فى حجة الوداع حيث قال : (ألا فاستوصوا بالنساء خيرا») .

لايزال القانون الاسلامى سابقا «كل القوانين الحديثة فى أعطاء المرأة الحقوق التى أعطاها للرجل فالشريعة الاسلامية تساوى بين الذكر والانثى فى الولاية على المال والعقود إذ ابلغت سن الرشد . وليس لأبيها أو زوجها أو لغيرهما أن يتدخلوا فى ذلك . وهذا هو شأن المرأة المسلمة منذ أربعة عشر قربا» . فأذا كان إطلاق التصرف المالى للمرأة هى الحرية الديمقراطية النسوية للقرن العشرين فللمرأة المسلمة أن تعتز بهذه الديمقراطية منذ القرن السابع الميلادى .

لقد نالت المرأة المسلمة حقوقها قبل خمسة عشر قرنا» دون أن تنادى بالمساواة وذلك لظهور قيادة أحست بأهمية المرأة فى تغيير ذلك المجتمع المتخلف . وهى نظرة صائبة أنبثق عنها الانسان العربى الذى قاد العالم لفترة طويلة .

اذاً «فلقيادة المجتمع أهمية عظمى فى معرفة أمراضه ووضع اليد على أعراضها ، وبالتالى أستئصالها من جذورها دون أن يبقى لها أثر . فرعاية المرأة وتهذيبها وتعليمها أمراً مهما له علاقة كبيرةفى نشأة الانسان الجديد وعليها يرتكز المجتمع الجديد . ففى العراق اليوم تتمتع المرأة بحقوق قانونية وأجتماعية ونفسية دون أن تطالب بذلك ، بل لأن قيادة المجتمع العراقى تعى أهمية المرأة ، وبخاصة الأم . فقد أصاب الشاعر حيث قال :

الأم مدرسة أذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الاعراق

فالأم ركن هام فى بيتها وفى بيت الأمة . وهى جوهرة ثمينة لا تقدر بمال . وهى سلاح قوى تنهض به الامم . وهى أعظم قائد فى معركة الحياة الخالدة .

لقد نهض المجتمع العراقى اليوم رغم ظروفه الصعبة فهو يخوض حربا ضروساً ضد الفئة الخمينية الايرانية الباغية والمتخلفة . ذلك لأن شعب العراق يمتلك حضارة عريقة ويتحلى بوعى تاريخى . فأجداده هزموا أمبراطورية كسرى فى أربعة أيام فقط فى معركة القادسية الاولى وأحفاده اليوم يهزمون أحفاد كسرى فى معركة القادسية الثانية . فهم أبناء حفيدات نساء العرب الماجدات ، وقد ثبت أن ثلثى صفات الام يرثها الابناء .

لقد يسر الله لبعض المجتمعات من يفسد فيها ، ولبعضها وهبهم قائدا «تاريخيا» يكون لها الدواء الشافى . لقد تركز أهتمام القيادة فى العراق بالمرأة والطفل كى ينشأ الانسان الجديد . مجتمع كان نبيه قد وضع يده على أمراض مجتمعه فأزالها، يستطيع اليوم أن يسير على نهج تعاليم دينه الاسلامى الحنيف وهدى نبيه الكريم للنهوض نحو الافضل ومن الله التوفيق والسلام عليكم .

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ سورة المائدة اية ٣ .

٢ ـ الجبورى ، سهيلة ، اثر الاسلام والنبى الكريم فى نشر الخط العربى وتحسينه مجلة سومر ، العدد الجزء ١٩٨٣ بغداد ص ٢١٥ .

٣ ـ انظر سورة الاعراف اية ١٠٦ ، سورة ال عمران اية ٤٩ .

٤ ـ طبارة ، عفيف عبد الفتاح ، روح الدين الاسلامى ، ط ١٢ ، مطبعة دار العلم للملايين ٩٧٤ ، ٤١٤ .

٥ ـ الاسد ، ناصر الدين ، مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ، مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٦ ، ص ٦٧

٦ ـ سورة النحل اية ٥٨ .

٧ ـ سورة التكوير اية ٨ واية ٩ .

٨ ـ دروزه ، محمد عزة ، المرأة فى القرآن والسنة ص ٣٢ ط بيروت ١٩٦٧ .

٩ ـ نفس المصدر ص ٢٤ .

١٠ ـ نفس المصدر ص ٢٥ .

١١ ـ نفس المصدر ص ٢٧ .

١٢ ـ امين سلامة ، المرأة فى الميزان ، ص ٢٥ .

١٣ ـ دورزه ، محمد عزة ، المرأة فى القرآن والسنة ، ص ١٩ .

١٤ ـ العقاد ، عباس محمود ، القرآن والانسان ، م ٤ ، ١٩٧١ ص ٤٤٢ .

١٥ ـ العقاد ، نفس المصدر ، ٤٤١ .

١٦ ـ مظهر ، اسماعيل ، المرأة فى عصر الديمقراطية ، مطبعة النهضة المصرية ١٩٤٩ ص ٧ .

١٧ ـ البزاز ، عبد الرحمن ، نظرات فى التربية والاجتماع ، مطبعة العانى ، بغداد ١٩٦٧ ص ٥٦ .

١٨ ـ ابن عاشور ، التحرير والتدوير جـ ٥ ، ص ٣٤ تونس ١٩٧١ ص ٢٥ .

١٩ ـ سورة الاعراف اية ١٨٨ .

٢٠ ـ سورة النساء اية ١ .

٢١ ـ سورة النور اية ٣٣ .

٢٢ ـ سورة الانعام اية ١٥١ .

٢٣ ـ سورة االنساء اية ٢١ .

٢٤ ـ سورة النساء اية ١٠ .

٢٥ ـ سورة النساء اية ٢١ .

٢٦ ـ سورة البقرة اية ٢٢٨ .

٢٧ ـ سورة النساء اية ٦ .

٢٨ ـ سورةالنساء اية ٢١ .

٢٩ ـ سورة الروم اية ٢١ .

٣٠ ـ سورة النساء اية ٤ .

٣١ ـ سورة النساء اية ١٨ .

٣٢ ـ البرديس ، محمد زكريا ، الاحوال الشخصية مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٠ ص ٧٣ ـ ص ١٨٥ .

٣٣ ـ سورة البقرة اية ٢٢٨ .

٣٤ ـ العقاد ، عباس محمود ، الفلسفة القرآنية ص ٤٤٥ .

٣٥ ـ الطبرى ، جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ٢ ص ٢ ، ١٩٥٤ ص ٤٨ القرطبى ، الجامع لاحكام القرآن جـ ٣ ، ص ١٢٤ ، الجصاص ، احكام القرآن جـ ١ ، ص ٤٥٤ مطبوعة مصورة عن الطبعة العثمانية ، مطبعة دار الكتاب العربى بيروت ص ٣٧٤ . الراوى التفسير الكبير ط ١ دار الكتب العلمية طهران ، جـ ٦ ، ص ٩٤ .

٣٦ ـ سورة النساء اية ٣ .

٣٧ ـ طبارة ، المصدر السابق ، ص ٣٦٨ – ص ٣٧٦ .

٣٨ ـ العقاد ، عباس محمود ، القرآن والانسان رقم ٤ مطبعة دار الكتاب العربى بيروت ، ص ٤٢٦ .

٣٩ ـ سهيم ، محمد جميم ، المرأة فى حضارة العرب ، العرب فى تاريخ المرأة ، مطبعة دار النشر للجامعين ، ١٩٦٢ ، ص ١٠٤ .

٤٠ ـ العقاد ، القرآن والانسان ص ٥٨٢ .

٤١ ـ نفس المصدر ، ص ٤٦٥ .

٤٢ ـ ابوزيد ، محمد ، الزواج والطلاق المدنى فى القرآن ، مطبعة دار الكتاب الحديث بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ١٨ ـ ص ١٩ .

٤٣ ـ سورة البقرة اية ٢٢١ .

٤٤ ـ البرويس ، عمر زكريا ، الاحوال الشخصية ، ص ٥٦ .

٤٥ ـ سورة المائدة ، اية ٥ .

٤٦ ـ رواه ابو داود وانبى ماجه .

٤٧ ـ سورة النساء اية ٣٥ .

٤٨ ـ البروسى ، المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

٤٩ ـ نفس المصدر ، ص ١٠٥ .

٥٠ ـ طبارة ، المصدر السابق ، ص ٣٨١ .

٥١ ـ سورة الطلاق اية ٢ .

٥٢ ـ سورة الطلاق اية ١ .

٥٣ ـ سورة الطلاق اية ٤ .

٥٤ ـ سورة البقرة اية ٢٣٤ .

٥٥ ـ سورة البقرة اية ٢٢٨ .

٥٦ ـ سورة الطلاق اية ٤ .

٥٧ ـ سورة الطلاق اية ١ .

٥٨ ـ البرنيس ، محمد زكريا ، الاحوال الشخصية ص ١٥٥ ، ١٧٩ ، ١٩٤ .

٥٩ ـ سورة البقرة اية ٢٢٩ .

٦٠ ـ سورة النساء اية ٢٠ .

٦١ ـ التهامى ، سيكولوجية القصة فى القرآن ، ١٩٧١ ، ص ٤٠ .

٦٢ ـ سورة التحريم اية ١١ .

٦٣ ـ سورة التوبة اية ٧١ .

٦٤ ـ سورة البقرة اية ١٧٨ .

٦٥ ـ سورة النور اية ٢ .

٦٦ ـ سورة المائدة اية ٣٨ .

٦٧ ـ أنظر الآيات الكريمة التالية :

- سورة المؤمنون آية ٧١ .
- سورة ص آية ٢٦ .
- سورة القصص آية ٥٠ .
- سورة الانعام آية ١١٩ .
- سورة الروم آية ٢٩ .
- سورة النازعات آية ٤١ .

٦٨ـ سورة الاعراف آية ١٤٦ ، ٧٥ ، ٧٧ .

- سورة الزمر آية ٦٠ .
- سورة الاسراء آية ٣٧ .
- سورة لقمان آية ١٨ .

٦٩ ـ سورة المائدة آية ٩٠ ، ٩١ .

٧٠ ـ سورة الاسراء آية ٣٢ .

٧١ ـ سورة غافر آية ٢٨ .

- سورة الزمر آية ٣ .
- سورة النحل آية ١١٦ ، ١١٧ .

٧٢ ـ سورة الحجرات آية ١١ .

٧٣ ـ سورة الحجرات آية ١٢ .

أحكام أهل الذمة والضرائب

في مصر الإسلامية ورأي الماوردي

د . سيدة إسماعيل الكاشف

الماوردى والنظريات الفقهية :

كان أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى البصرى البغدادى من وجوه فقهاء الشافعية على حد تعبير ابن الجوزى (١) وكان له تصانيف كثيرة فى اصول الفقه وفروعه .. وكان يقول : «بسطت الفقه فى أربعة آلاف ، وقد اختصرته فى أربعين يريد بالمبسوط الحاوى ، وبالمختصر الاقناع » (٢) . وتذكر كتب التراجم التى ترجمت للماوردى أنه كان ثقة صالحا كما أنه ولى القضاء ببلدان كثيرة ، أى أنه مارس الأحكام الاسلامية دراسة وتطبيقا . ومن مؤلفاته التى تعرضت للضرائب ولأحكام أهل الذمة كتاب « الاحكام السلطانية » والاحكام السلطانية كتاب فقهى وليس كتاب تاريخى . والمعروف أن الفقه هو استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم والحديث الشريف، ثم القياس والاجماع . كذلك تعنى كلمة « الفقه » لغة الفهم والمعرفة .

وطبيعى أن يجد المؤرخ فى كتب الفقه بيانات كثيرة عن أحوال الشعوب الاسلامية ونظمها فى العصور الوسطى ، ولا سيما أن الفقهاء يتجهون فى بحوثهم الى كافة طبقات الشعب والى الجوانب المختلفة من حياة المسلمين ، فلا عجب اذا كانت مؤلفاتهم غنية بالاشارات الى مستوى المعيشة والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والمالية ، والى الأخلاق والعادات والى البدع المنتشرة بين طبقات الشعب . لكن يجب على المؤرخ ان يكون حذرا فيما يستنبطه من كتب الفقه ، فان ما يكتبه الفقهاء قد يكون نظريا وبعيدا عن الواقع . فقد سبقت التنظيمات العملية نظريات الفقهاء فى الزمن ، إذ بدأت التنظيمات العملية عند قيام الدولة العربية الاسلامية ونمت وتوسعت بتوسع الدولة وبتطور أساليب الحياة فيها ثم جاء الفقهاء فوضعوا آراءهم وبحثوا مختلف أمور الحياة والنظم بحثاً نظريا بحتا أو بحثا نظريا عمليا .

وفيما يتعلق بالبيانات التاريخية فى كتب الفقه يجب ألا يغيب عن بال الباحث أن دراساتها لبعض النظم ليست شاملة جامعة فبعض الضرائب التى وضعتها الحكومات الاسلامية لا ذكر لها فى كتب الفقه ، كما أن من بينها دراسات قد تضلل الباحث لأنها تقوم على فرض حالات غير سائدة فى المجتمع بغية مناقشتها والنظر فى أحكامها . ولنذكر فى هذا الميدان أن معظم الأمور والعادات والبدع التى تؤكد كتب الفقه على تحريمها أو كراهيتها لابد أن كانت سائدةفى المجتمع الى حد شعر معه الفقهاء بضرورة التأكيد على محاربتها وتخليص المجتمع منها .

وترجع أقدم كتب الفقه التى وصلت الينا الى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) مثل كتاب « الخراج» لابى يوسف ،و« الجامع الكبير » و « الجامع الصغير وكتاب « السير الكبير » للشيبانى ، و«الموطأ » للامام مالك ، والأم « للامام الشافعى » ونلاحظ أن الفقهاء كتبوا فى ظل الأحكام التى عمل بها فى بعض الأقاليم دون الاخرى وذلك لاختلاف ظروف اقليم وبلاد هؤلاء الفقهاء عن الاقاليم الأخرى . كذلك طور الفقهاء آراءهم تبعا لحاجات وتطور المجتمع الذى عاشوا فيه . والمعروف أن ديار الاسلام كان بينها بعض الاختلافات نتيجة لاختلاف تاريخ الدول والشعوب التى تكونت منها ديار الاسلام ، فضلا عن اختلاف المذاهب والديانات التى وجدت فيها قبل الإسلام. بل إن الضرائب التى كان يدفعها شعوب العالم الإسلامى اختلفت من أقليم لآخر لاسباب متعددة ترجع الى عصر الفتوحات العربية والى ظروف تلك الاقاليم ، هذا فضلا عن اختلاف النقود والمكاييل

والموازين ، ووحدةقياس الأرض الزراعية ، وأساليب المعاملات من أقليم لآخر ومن عصر الى عصر . والمعروف أن الإسلام اهتم فى المعاملات بالمبادئ والأسس العامة وترك التفاصيل التى قد تتغير وتتطور حسب الظروف المختلفة وطبيعى أنه كانت هناك أحكام عامة خاصة بأهل الذمة فيما يختص بالضرائب فى كافة ديار الاسلام كما كانت هناك اختلافات ايضا بين دولة واخرى وبين اقليم وآخر.

اصطلاح أهل الذمة وما قصدناه من أحكام أهل الذمة والضرائب :

وقد أطلق اصطلاح أهل الذمة فى العالم الإسلامى على المسيحيين واليهود الذين عاهدهم الرسول عليه الصلاة والسلام أو هؤلاء الذين عاهدهم الخلفاء فى ديار الإسلام . والذمة فى اللغة العربية هى العهد والأمان ، والمنتفعون بالعهد يسمون أهل الذمة أو الذميون أو المعاهدون . ويتسع هذا المعنى الاصطلاحى عند بعض الفقهاء المسلمين ، ومنهم الماوردى ، ويذهبون الى أن أهل الذمة هم أهل الكتاب ، أى أصحاب التوراة والانجيل من اليهود والمسيحيين ، ومن لا كتاب لهم مثل المجوس (٣) .

والحق أن المسلمين تسامحوا منذ البداية مع المجوس اتباع زرادشت وما نى ، ومع صابئة حران الوثنيين ، ومع اتباع بوذا فى الهند ، ومع الوثنيين من البربر فعاملوهم معاملة أهل الكتاب . وفى مصر – موضوع حديثنا – لم يكن هناك أهل ذمة سوى أهل الكتاب من المسيحيين واليهود أما ما قصدناه من أحكام أهل الذمة والضرائب فى مصر الاسلامية فهو الضرائب التى خضع لها أهل الذمة فى مصر الاسلامية بحكم أنهم أهل ذمة يعيشون فى ديار الاسلام . وسنجتهد أن نبين من واقع المصادر والوثائق اذا كانت هذه الضرائب وما يتعلق بها من شروط تطابق ما جاء فى الاحكام السلطانية للماوردى ، أو الواقع التاريخى لم يكن مطابقا لآراء الماوردى ، أو أنها تقابلت فى اجزاء واختلفت فى أجزاء أخرى .

صلح بابليون الاول او معاهدة بابليون :

المعروف أنه حين فتح العرب مصر تحددت العلاقة بين العرب وبين المصريين أهل البلاد – بمقتضى الأمان ، أو المعاهدة أو الصلح الذى عقد فى بابليون (٤) عقب استيلاء المسلمين على الحصن فى سنة ٢٠ هـ (٦٤١م) . وقد أورد الطبرى ومن نقل عنه من المؤرخين هذا الصلح . وذكر المؤرخون أن « أهل مصر كلهم دخلوا فى ذلك الصلح وقبلوه (٥) وفى هذا الصلح منح المصريون الأمان على أنفسهم وعلى دينهم وعلى كنائسهم وأموالهم وأراضيهم. وأكد العرب هذا الصلح بأنه عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) وذمم المؤمنين. وأصبح المصريون .. أهل ذمة » بمقتضى هذا الصلح الذى اصطلحنا على تسميته « صلح بابليون الاول».

الجزية فى مصر الاسلامية ورأى الماوردى :

وقد فرض العرب على أهل مصر الجزية بمقتضى هذا الصلح وكانت الجزية تجبى من المصريين فى زمن الرومان والبيزنطيين ومما جاء فى الصلح نفسه أن قيمة الجزية كانت تتوقف على مقدار ارتفاع أو أنخفاض ماء النيل فى كل عام كما انها كانت تدفع على ثلاثة أقساط فى السنة

كذلك حددت قيمة الجزية فى هذا الصلح اذ جاء فيه « وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف ...» . ولم يذكر فى نص الصلح اذا كانت الجزية بالدينار أو الدرهم وانما ذكر الرقم فقط وهو خمسون مليون ، أو خمسون ألف ألف .

ونحن نعلم أن العرب كانوا يجبون الضرائب من مصر بالدينار وليس بالدرهم ، (٦) اذ كانت مصر قبل الفتح العربى تتبع قاعدة الذهب (٧) ولا شك أن رقم الجزية الذى ذكر فى نص الصلح يبدو كبيرا جدا مما يحملنا على القول بأن هذا الرقم مبالغ فيه ، أو أن لفظ جزية الذى ورد فى نص هذا الصلح يعنى الجزية والخراج معا أى جزية الرءوس والضريبة العقارية ، أو أن الرقم الذى جاء فى الصلح هو رقم اجمالى يشمل كل الضرائب التى فرضت على المصريين أما الجزية فهى ضريبة الرأس واما الخراج فهو ضريبة الارض ، وان كنا نجد فى المراجع احيانا ان الجزية تعنى ضريبة الرأس وضريبة الارض معا ، كما أن الخراج يعنى ضريبة الارض وضريبة الرأس وقد يطلق على ضرائب أخرى غير هاتين الضريبتين . وبغض النظر عما جاء فى المراجع المختلفة من معان للجزية والخراج فإن الفقهاء ومن بينهم الماوردى حرصوا على وضع كل اصطلاح فى مكانه الصحيح وعلى شرح معنى كلمة جزية وكلمة خراج .

ويذكر الماوردى ان الجزية موضوعة على رءوس من دخلوا فى ذمة الاسلام كذلك يذكر الماوردى ان آخر ما تكلم به النبى عليه الصلاة والسلام ان قال : « احفظونى فى ذمتى (٨) » .

ولم نلاحظ فى صلح بابليون الاول تحديدا للجزية على كل فرد ولكن مؤرخى مصر الأسلامية يذكرون أن الجزية كانت دينارين عن كل نفس . وهاك نص ما ذكره المؤرخون عن اتفاق العرب مع أهل مصر على الجزية : « فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها (٩) من القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ ... وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران رفع ذلك عرفاؤهم (١٠) بالأيمان المؤكدة ، فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف نفس وكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر الف الف دينار فى كل سنة (١١) ويذكر البلاذرى فى رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه وضع على كل حالم دينارين جزية الا أن يكون فقيرا (١٢) ولاتفهم من هذا النص اذا كان الفقراء قد أعفوا من الجزية أم قدرت عليهم جزية أقل من غيرهم . أى أنه اذا استثنينا النص الذى ذكره البلاذرى بأن الفقراء لم يدفعوا الدينارين ، نفهم مما ذكره المؤرخون أن المصريين تساووا فى دفع الجزية . ولكن لوكان العرب عاملوا أهل الذمة فى مصر على هذا الأساس لثار عليهم المصريون من أول الفتح ، ولكان العرب قد عادوا بذلك الى تعسف الحكم الرومانى والبيزنطى الذى كان يعفى ذوى النفوذ والثراء من الأعباء المالية ، أو من أغلبها ، بينما يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة الكادحة من السكان . كما أن هذا لا يتفق وسياسة العرب الحكيمة التى كانت ترمى الى التحبب الى أهل البلاد والى توطيد سلطانهم فيها ليس بقوة السيف وانما بحسن السياسة .

أما صاحبنا الماوردى فقد ذكر أن قدر الجزية يجب أن يتناسب مع ثروة الذمى باعتبار أن الناس ثلاثة أصناف اغنياء وأوساط وفقراء ، واعتمد فى ذلك الرأى على اجتهاد الامام ابى حنيفة والامام

مالك والامام الشافعى فقال : « واختلف الفقهاء فى قدر الجزية فذهب ابو حنيفة الى تصنيفهم ثلاثة أصناف أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما ، وأوساط يؤخذ منهم اربعة وعشرين درهما ، وفقراء يؤخذ منهم اثنا عشر درهما ، فجعلها مقدرة الاقل والاكثر ، ومنها من اجتهاد الولاة فيها . وقال مالك لا يقدر أقلها ولا أكثرها وهى موكولة الى اجتهاد الولاة فى الطرفين . وذهب الشافعى الى انها مقدرة الأقل بدينار لا يجوز الاقتصار على أقل منه ، وعنده غير مقدرة الآكثر يرجع فيه الى اجتهاد الولاة ويجتهد رأيه فى التسوية بين جميعهم أو التفضيل بحسب أحوالهم (١٣) أما فيما يختص بمصر الاسلامية فاننا تحدثنا عن مساواة الذميين فى دفع الجزية التى وردت فى بعض روايات المؤرخين ، ونقدنا تلك الروايات . كذلك لا نجد فى نص صلح بابليون الأول مقدار الجزية المقررة على كل ذمى فى مصر ولا طريقة جباية الجزية . ونفهم من صلح بابليون أن تقدير الجزية وطريقة جبايتها تركت للوالى أو الخليفة بحيث يكون تقديرها والاعفاء منها فى حكم التشريع الاسلامى ، أى انه لا يكلف ذمى فوق طاقته فضلا عن أن الجزية تعتبر ضريبة من الذميين فى سبيل حماية المسلمين لهم . فالأصل فى هذه الضريبة أنها مساهمة من غير المسلم فى الدفاع عن الدولة بماله فى مقابل دفاع المسلم عنها بشخصه أى أن الجزية تؤدى فى مقابل حماية المسلمين للذميين والسهر على مصالحهم .ووضح الغرض من الجزية فى عهود العرب المختلفة للبلاد والمدن المفتوحة . كذلك وضح من بابليون ان الجزية من المصريين فى مقابل الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وديانتهم وارضهم .

ويشرح الماوردى فلسفة فرض الجزية على أهل الذمة بقوله : « ... فيجب على ولى الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل فى الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها فى دار الاسلام ويلتزم لهم ببذلها حقان ، أحدهما الكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين...» وفكرة فرض الجزية على أهل الذمة فى مقابل الدفاع عنهم تظهر فى بعض النصوص التاريخية كما تظهر فى معاهدات العرب مع أهل البلاد المفتوحة التى أوردها المؤرخون مثل الطبرى فى كتابه تاريخ الامم والملوك ، والبلاذرى فى كتابه فتوح البلدان . فمثلا لما قدم أهل الحيرة الجزية للعرب ذكروا صراحة أنهم انما دفعوا هذه الجزية على شريطة « أن يمنعونا وأميرهم البغى من المسلمين وغيرهم » (١٥) .

كذلك ذكر خالد بن الوليد فى المعاهدة التى عقدها مع اهالى بعض المدن المجاورة للحيرة هذا المعنى بقوله : « فإن منعناكم فلنا الجزية والا فلا (١٦) » .

ويؤكد هذا المعنى ما حدث حين حشد الامبراطور البيزنطى قواته لصد قوات المسلمين فى الشام، اذ كتب أبو عبيدة بن الجراح قائد المسلمين – الى عمال المدن المفتوحة فى الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ماجبى من الجزية من هذه المدن ، وكتب الى الناس يقول : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم » وكان رد المسيحيين للمسلمين « ردكم الله علينا ونصركم عليهم ، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شئ بقى لنا (١٧) » .

بعد الفتح العربى بأثنى عشر قرنا ونصف وفى مصر الاسلامية ظل أهل الذمة يدفعون الجزية حتى أمر سعيد باشا بالغائها وذلك بالأمر الصادر منه فى ٢١ صفر ١٢٧٢ هـ (١٨٥٥م) [١٨] وما لبث سعيد باشا أن أصدر أمرا عاليا فى جمادى الاولى عام ١٢٧٢ هـ (يناير ١٨٥٦م) ينص على أن ابناء أعيان الأقباط سوف يدعون الى حمل السلاح أسوة بأبناء أعيان المسلمين وذلك مراعاة لمبدأ المساواة . [١٩]

وهكذا ظلت الجزية فى مصر مرتبطة بحماية اهل الذمة وباعفائهم من التجنيد ، وحين الغيت الجزية فى العصر الحديث جنّد الاقباط فى مصر مثل اخوانهم المسلمين .كذلك حدد صلح بابليون الاول من يعفى من الجزية فورد فى نص الصلح الذى ذكره الطبرى « ... ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ ...» . أما الماوردى فيكاد يتفق مع ما جاء فى صلح بابليون الاول فيقول : « ولا تجب الجزية الا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبى ولا مجنون ولا عبد لأنهم اتباع وذرارى [٢٠] ..» كذلك نلاحظ فى أحكام الجزية وغيرها من الضرائب الاسلامية العدل والرحمة ، فكانت الجزية لا تجبى الا من رجل حر عاقل قادر على ادائها ، فالله تعالى قال فى كتابه الكريم « حتى يعطوا الجزية عن يد » [٢١]. ويذكر الماوردى أن « فى قوله سبحانه وتعالى – عن – يد – تأويلا ، احدهما عن غنى وقدرة ، والثانى أن يعتقدوا ان لنا فى اخذها منهم يدا وقدرة عليهم [٢٢]..» .

ونلاحظ ان الماوردى وغيره من الفقهاء مثل ابى يوسف [٢٣] ويحيى بن آدم والقرشى [٢٤] راعوا تقسيم الفئات التى يجب عليها الجزية الى ثلاث فئات : عليا ، ووسطى ، ودنيا . كذلك حدد الماوردى ما تدفعه كل فئة بالدراهم كما سبق أن ذكرنا .

وفى بداية فتح العرب لمصر لا نجد فكرة تحديد طبقات اهل الذمة الى ثلاث طبقات ، ولا تحديد الجزية الواجبة على كل فرد من الثلاث طبقات . وقد ذكرنا ان العرب فرضوا الجزية على المصريين ولكن لم يحددوها وظهر ذلك من نص معاهدة بابليون . ويذكر مؤرخو مصر الاسلامية أن أحد الذميين طلب من عمرو بن العاص . أن يخبره ما على كل ذمى فى مصر من الجزية فرفض عمرو بن العاص وترك هذه المسألة للظروف المختلفة [٢٥] ويذكر ابن عبد الحكم فى رواية له « أن عمر بن الخطاب كان يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ما سمى على نفسه لا يضيع من ذلك شيئا ولا يزيد عليه ، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئا نظر عمر فى أمره فاذا احتاجوا خفف عنهم وان استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم [٢٦] » .

وواضح من دراستنا لتاريخ فتح العرب لمصر وتاريخ مصر الاسلامية انه لم يحدد قدر معين من الجزية على أهل الذمة فى مصر وتركت المسألة كلها لظروف مختلفة اقتصادية أو حربية دون المغالاة فى قيمة الجزية المفروضة .

وقد اثبتت الأوراق البردية أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص . ففى كتاب من قرة بن شريك والى مصر فى خلافة الوليد بن عبد الملك ـ٩٠ – ٩٦ هـ/ ٧٠٩ – ٧١٥م) ، الى بسيل صاحب اشقوه [٢٧] نجده يأمره بأن يرسل كشفا بالأماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال فى كل مكان، والجزية الواجب عليهم اداؤها ، وما يملكه كل رجل من الأراضى وما يقوم به من الأعمال .

ويطلب من صاحب الكورة الا يوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء منه ، ويذكر بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيرا حسنا ومعاقبة من يتنكب عن طريق العدل (٢٨) .

ونحن نرى من هذا الكتاب أنه لو كان كل فرد يدفع جزية مساو لما يدفعه الآخر لما طلب والى مصر كشفا بما يملكه كل شخص ، وما يقوم به من عمل ، وبالجزية الواجبة عليهم ، ولما طلب من صاحب الكورة أن يكون عادلا فى عمله ، ولما هدده اذا هو لم يتبع طريق الحق أو أوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء من جانب أهل كورته ، ولاكتفى الوالى بمعرفة عدد رجال كورته وبذلك يعرف الجزية الواجبة عليهم .

وفى كتاب آخر بعث به قرة بن شريك نراه يطلب من صاحب الكورة أن يعدل فى تقدير الضرائب الواجبة على كل فرد وأن يسهل عليهم الاتصال به كى يسمع ما يقولون (٢٩) .

وقد حفظت لنا أوراق البردى أيضا كشوفا من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) دونت فيها أسماء أشخاص مختلفين ، وذكرت فيها مقدار الجزية الواجبة على كل ، وقد اختلفت هذه الجزية باختلاف كل شخص وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية ؛ فشخص يدفع دينارا ، وآخر دينارا ونصفا ، وثالث ثلثى دينار ، ورابع دينارا وثلثا وهكذا (٣٠) .

والحق أن الأوراق البردية المختلفة التى ترجع الى العصر الأموى والى ايام امارة قرة بن شريك على مصر ، اى بعد الفتح العربى لمصر باكثر من ستين عاما ، تصحح الكثير من الروايات التاريخية المتضاربة والتى يرجع أقدمها الى زمن يبعد عن الفتوحات العربية باكثر من قرنين من الزمان ، فضلا عن آراء الفقهاء ومن بينهم الماوردى .

وفى الاوراق البردية التى تمتد حتى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) لا نرى ان الجزية ضريبة باهظة وانما كانت ضريبة متناسبة أو أقل من الضرائب الأخرى وبمرور الزمن فى مصر وبعد عصر الماوردى بنحو قرن من الزمان تظهر فكرة الماوردى من حيث تقسيم اهل الذمة الى ثلاث فئات قادرة على الدفع . ففى عصر الدولة الايوبية يحدثنا الا سعد بن مماتى (٣١) صاحب كتاب « قوانين الدواوين » عن الجزية او الجوالى فيقول : « والجزية الآن على ثلاث طبقات : عليا ومبلغها أربعة دنانير وسدس ووسطى ومبلغها ديناران وقيراطان (٣٢) ، وسفلى ومبلغها دينار واحد وثلث وربع وحبتين » (٣٣)

اما القلقشندى الذى عاش فى العصر المملوكى والمتوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) فيقول ان أعلى قيمة للجزية بلغت خمسة وعشرين درهما وبلغت أدنى قيمة لها عشرة دراهم (٣٤) ونلاحظ هنا ان اعلى قيمة للجزية تعادل القيمة التى يدفعها اوساط الناس فى رأى الماوردى ، اذ ذكر ان اوساط الناس يؤخذ منهم اربعة وعشرون درهما ، اما ادنى قيمة ذكرها القلشقندى وهى عشرة دراهم فهى أقل من ادنى قيمة حددها الماوردى الذى ذكر أن فقراء الناس يؤخذ منهم اثنا عشر درهما . وعلى أية حال فإن الجزية فى مصر الاسلامية لم يحدد قدرها كما ذكرنا منذ الفتح العربى ، وسياسة مصر فى هذه الناحية قال بها الامام مالك فقد ذكر الماوردى رأى الامام مالك فى الجزية وهو انه « لا يقدر أقلها ولا اكثرها وهى موكولة الى اجتهاد الولادة » (٣٥) .

ويذكر المقريزى (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م) أن حصيلة الجزية المعروفة بالجوالى كانت تورد قلما مستقلا فى حسابات الدواوين حتى الروك [٣٦] حتى الروك الناصرى . فى سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥م) حين فرقت فى اقطاعات الامراء وغيرهم [٣٧] . ويخبرنا النويرى (المتوفى سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩م) أن الفرد من أهل الذمة بعد سنة ٧١٥هـ كان يدفع جزية قيمتها أربعة دراهم أو نحوها وكانت ستة وخمسين درهما حين كانت الجوالى (الجزية) فى الخاص السلطانى [٣٨] .

وقد ذكرنا أن الجزية فى مصر كانت تدفع بالدنانير ، ولكن نلاحظ انه منذ العصر الفاطمى فى مصر (٣٥٨ – ٥٦٧ هـ/ ٩٦٩ – ١١٧١م) أخذ الناس يتعاملون بالدراهم والدنانير بدلا من تعاملهم بالدنانير فقط [٣٩] .

وأصبحت فكرة تقسيم أهل الذمة الى ثلاث فئات هى الفكرة الظاهرة فى مصر بمرور الزمن كما بينا سابقا .وفى العصر العثمانى فى مصر قسم أهل الذمة الى ثلاث فئات :

١ – الفئة العليا يدفع الشخص منها ٤٠٠ بارة سنويا

٢ – الفئة الوسطى يدفع الشخص منها ٢٠٠ بارة سنويا

٣ – الفئة الادنى يدفع الشخص منها ١٠٠ بارة سنويا [٤٠]

أما البارة فكانت عملة تركية لنقد صغير من النحاس تساوى حسب تقدير الإب انستاس (١) مليما واحدا ؛ اى ان الحد الأدنى للجزية فى العصر العثمانى كان يساوى عشرة قروش والحد الاعلى اربعين قرشا .

وفى وثائق دار المحفوظات بالقلعة فى القاهرة دفاتر بيان أموال الجزية المقررة على يهود ونصارى مصر ومسجل بها فئات أهل الذمة فى العصر العثمانى (أعلا أوسط – أدنى) ، والضريبة المقررة على كل فئة وعلى كل فرد ، وهى مجموعة محدودة العدد من سنة ١٢٠٩ هـ الى ١٢١٨ هـ / ١٧٩٤ م الى ١٨٠٣ ونلاحظ هنا أن تقسيم أهل الذمة الى ثلاث فئات والذى أصبح معمولا به فى مصر على الأقل منذ العصر الفاطمى او الايوبى كما بينا سابقا ، نلاحظ ان هذا التقسيم هو الذى قرره الماوردى وغيره من الفقهاء . ونحن نفهم أن كل فئة من الفئات يندرج تحتها مستويات مختلفة من حيث الدخل والثروة ، وهذا ظاهر فى الأوراق البردية وفى وثائق دار المحفوظات فى القلعة التى اشرنا اليها . أما ميعاد جباية الجزية فيقول الماوردى : « ولا تجب الجزية عليهم فى السنة الا مرة واحدة بعد انقضائها بشهور هلالية » [٤١]

ويذكر ابن مماتى : « وجرت العادة باستخراجها فى مستهل المحرم من كل سنة وهى الآن تستأدى من أيام من ذى الحجة [٤٢] ويذكر القلشقندى ايضا انها تجبى مرة واحدة فى السنة [٤٣] .

ويذكر المقريزى ان الجزية تؤدى سنويا [٤٤]

ونلاحظ هنا ان نظرية الماوردى فى تقسيم أهل الذمة الى ثلاث طبقات ، وفى ميعاد جباية الجزية كان يعمل بها فى مصر منذ العصر الفاطمى أو بداية الايوبى كما يتضح لنا من كتابات المؤرخين ، أما قبل ذلك فقد مر بنا فى معاهدة بابليون ان العرب جعلوا الجزية والضرائب على

المصريين على ثلاثة أقساط فى السنة. والمعروف أن البيزنطيين فى مصر كانوا يجمعون الضرائب ثلاث مرات فى السنة أيضا . ولكن اتضح لنا من الأوراق البردية التى ترجع الى عصر قرة بن شريك ومن الأوراق البردية التى نشرها المستشرق النمسوى الاستاذ ادولف جرومان والتى ترجع الى القرون الاربعة الاولى للهجرة كانت تدفع فى أغلب الأحيان مقسطة على عدة أقساط كان يصل عددها أحيانا الى اثنى عشر قسطا . ولدينا كمية كبيرة من ايصالات (براءات) الضرائب أو الجزية مكتوبة على الاوراق البردية منذ القرن الاول الهجرى الى الرابع الهجرى (السابع الميلادى الى العاشر تبين أن دفع الضرائب أو الجزية كان فى كل شهور السنة اذ وردت فيها كل اسماء الشهور القبطية والعربية تقريبا ويظهر أن هذا كان نوعا من التساهل من جانب الحكومة وسلطات الحكم على غرار ما كانت تفعله الحكومة من جباية متأخرات جزية فى السنة التالية او فى السنوات التالية . ففى كتاب من قرة بن شريك فى سنة ٩١ هـ (٧٠٩م) الى صاحب شبرا بيرو من كورة أشقوه يذكر فيه أن على قريته من جزية سنة ٨٨هـ ما قيمته ٢/٣ ١٠٤ دينار،ومن ضريبة الطعام ١/٣ ١١ أردبا من القمح (٤٥) . وفى كتاب آخر أرسله سنه ٩١ هـ الى أهل شبرا أجيه بتوتيه من كورة أشقوه يذكر فيه أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ ما قيمته ٣٧ دينارا (٤٦) . وفى كتاب ثالث أرسله سنة ٩١ هـ لأهل هروس ابيرميوطس من كورة أشقوه ذكر أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ ما قيمته ١/٦ ٢٨ دينارا (٤٧) .

وفى مصر كانت الجزية والزكاة هى التى تحدد ديانة دافع مثل سائر ديار الاسلام ، أما بقية الضرائب فقد كانت ضرائب على الشعب المصرى ليس بوصفه أهل ذمة وانما بوصفه شعب يخضع لحكومة عليها التزامات نحو شعبها كما أن للشعب حقوقاً تجاه حكومته .

الخراج وأنواعه وتقديره ورأى الماوردى :

وكان من أهم الضرائب فى مصر بعد الجزية ضريبة الخراج على الأرض الزراعية وقد رأينا فى صلح بابليون أن العرب أمنوا المصريين على أراضيهم . والواقع أن عمر بن الخطاب أظهر حكمة بالغة فى عدم تقسيم الأرض فى مصر بين الفاتحين باعتبارها غنيمة ؛ وقد اتبع هذه السياسة ليس فى مصر وحدها بل فى العراق والشام . ولم يرد الخليفة أن يشغل جنده بالزراعة والأرض بينما الجهاد يناديهم فى كل مكان ، كما أن العرب فى جملتهم لم يكونوا أمة زراعية. ولعل الخليفة راى أيضا ان اصحاب الارض احق بارضهم من الفاتحين ، واكتفى العرب بفرض ضريبة عقارية على الارض عرفت باسم الخراج. وكان رئيس مالية القطر المصرى يعرف باسم صاحب الخراج وهذا يدلنا على ان الدخل الرئيسى لميزانية الدولة كان عن طريق الخراج ولا عجب فإن الزراعة كانت المصدر الرئيسى لثروة مصر وخيراتها منذ أقدم العصور . والواقع انه كان لصاحب الخراج اهمية كبيرة فى مصر الاسلامية حتى حين كانت تابعة للخلافة بعد الفتح العربى ؛ فكثيرا ما كان صاحب الخراج منافسا لوالى مصر مع أن الوالى هو الرئيس الأعلى لمصر بالنيابة عن الخليفة. وحسبنا دليل على اهمية صاحب الخراج من أنه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الاسكندرية سنة ٢٥ هـ (٦٤٥م) أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يولى عمرا على الحرب (أى يوليه على الصلاة أى على مصر) وان يولى عبد الله بن سعد بن ابى سرح على الخراج ، فقال عمرو : « أنا إذاً كما سك

البقرة بقرنيها وآخر يحلبها » (٤٨) ، ورفض ما اراد عثمان بن عفان وترك ولاية مصر . ونظرا لأهمية منصب العامل على الخراج فقد كان الوالى يسعى دائما الى أن يضاف اليه اختصاص هذا المنصب واليا على الصلاة والخراج معا. والحق أن العرب حين أتوا الى مصر لفتحها كانوا يعرفون ويقدرون ثروتها الزراعية وخيراتها . وكثيرا ما أظهروا إعجابهم بتلك الخيرات والنعم التى خص بها الله مصر والمصريين . ومن هذه الخيرات الوفيرة كانت مصر تقدم للفاتحين المال والطعام ، فلا عجب اذ قال عمرو بن العاص – قائد فتح مصر « ولاية مصر جامعة (٤٩) تعدل الخلافة » (٥٠) .

وعندما تطرق الضعف الى الخلافة العباسية أصبح الجمع بين هذين المنصبين اكبر عون على استقلال الولاة وتفكك الخلافة ، فنرى احمد طولون يتنازع مع ابن المدبر صاحب خراج مصر ، ولم يبدأ استقلاله الا بعد تخلصه من ابن المدبر .

ونعرف مما ورد فى أوراق البردى ومما ذكره المؤرخون ان الخراج اما الجزية فكانت تجبى نقدا فى مصر كان يجبى عينا ونقدا ؛ وكانت الضريبة العينية تعرف فى اوراق البردى باسم ضريبة الطعام ، وكانت هذه الضريبة تشمل القمح وسائر الغلال والزيت والعسل وأنواع الطعام الاخرى (٥١) ونلاحظ ان عطاء الجند وارزاقهم فى مصر الاسلامية فضلا عن مرتبات جميع الموظفين كانت تشمل النقود والطعام .

والواقع أن ضريبتى الجزية والخراج كانتا عماد الخزينة المركزية فى الدولة العربية حين فتحت مصر وغيرها من البلاد . ونلاحظ من نصوص معاهدة بابليون أن العرب وضعوا الخطوط العريضة لسيادتهم فى مصر ، وكان من بين هذه الخطوط الاشارة الى ما يجب على المصريين دفعه الى حكومة العرب بوصفهم أهل ذمة وبوصفهم ملاكا للأرض . وقد مر بنا أن العرب فرضوا فى هذه المعاهدة الضريبة الواجبة على المصريين على أساس فيضان نهر النيل كما انهم جعلوها على ثلاثة أقساط فى السنة .

وقد كثرت آراء الفقهاء ومن بينهم صاحبنا الماوردى ، وآراء المؤرخين حول الأرض والخراج وقدره فى مختلف البلدان الاسلامية ومن بينها مصر ، وجعلوا الأساس عندهم الطريقة التى تم بها فتح كل قطر. ففى رأيهم أن الأراضى التى تفتح صلحا تكون فيئا للمسلمين أى يتفق أهل البلاد المفتوحة مع العرب على مقدار الجزية والخراج التى تدفع لهم دون ان يمسوا الأرض . أما الأراضى التى تفتح عنوة فتكون فى حكم الغنيمة وتقسم بين الفاتحين (٥٢) طبقا للاية الكريمة (واعلموا انما غنمتم من شئ فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير) (٥٣)

وقد تعددت آراء الرواة والمؤرخين حول فتح مصر فهل فتحت صلحا أم عنوة ؟؟ أم أن بعضها فتح صلحا والبعض الاخر فتح عنوة ؟! ونحن نرى من حوادث فتح مصر أنها فتحت عنوة ، وفى الوقت نفسه قبل العرب أن يمنحوا المصريين عهدا ، إذ أن العرب كانوا يعتبرون أنفسهم محاربين للروم لا للمصريين ولهذا تركوا الأراضى بيد أصحابها من المصريين كما جاء فى معاهدة بابليون .

وقد حاول الفقهاء مثل ابى يوسف والماوردى ، والمؤرخون مثل ابن عبد الحكم والمقريزى ، تعليل اختلاف نظم الضرائب باختلاف الطريقة التى تمت بها الفتوحات الإسلامية فى مختلف

البلدان . ولكننا رأينا من دراستنا أن كتابات المؤرخين والفقهاء ما هى الا روايات وتعليلات متأخرة عن العصر الذى تمت فيه الفتوحات العربية . وسواء اكانت البلاد المختلفة قد فتحت صلحا أو عنوة فإن النظام الإدارى والنظام المالى فى الدولة الإسلامية كان يختلف من مكان الى آخر تبعا للنظام الذى كان موجودا قبل الفتح العربى سواء اكان النظام مصريا أم بيزنطيا ام فارسيا ام قوطيا رومانيا كذلك يجدر بنا أن نشير الى ما ذكرناه قبل ذلك وهو اننا نجد فى المراجع القديمة خلطا بين ضريبتى الجزية والخراج فأحيانا تعنى الجزية ضريبة الرأس وضريبة الأرض ، كما الخراج الذى يفرض على الأرض التى صولح اهلها عليها على أن تصير وقفاً يسمى خراج أجرة (٥٥) ويذهب المستشرق السويسرى فان برشم الى ان عمر بن الخطاب حول الأراضى التى فتحت خارج شبه جزيرة العرب الى أراضى وقف متبعا فى ذلك ما اتبعه الرسول عليه الصلاة والسلام بشأن بعض أراضى شبه جزيرة العرب. وكأن عمر أراد بتحويله الأراضى المفتوحة الى أراضى موقوفة أن يضمن للجماعة الاسلامية فى عهده وفى المستقبل أملاكا عامة ، لا يتصرف فيها ، وانما يديرها الخلفاء لصالح الجماعة الاسلامية (٥٦) .

على أنه لا يمكننا قبول نظرية الوقف هذه فيما يتعلق بمصر . فاذا كانت أراضى مصر قد صارت وقفا كان ذلك معناه أن العرب منحوا المصريين حق الانتفاع بها فقط ، ولكن صلح بابليون أقر أراضى المصريين على حالها وأمن المصريين على أرضهم . كذلك تدل الأوراق البردية التى ترجع الى فجر الاسلام فى مصر على انه كان يحق للمصريين التصرف فى الأراضى التى يملكونها بالبيع والشراء والتوريث والهبة (٥٧) وهذا طبعا مما ينقض نظرية الوقف .

واذا طبقنا رأى الماوردى نرى أن خراج مصر كان خراج جزية وليس خراج أجرة لان ارض مصر لم تكن وقفا كما بينا ووضح من نص صلح بابليون أنه كان يراعى فى تقدير خراج مصر حالة فيضان النيل فى كل عام لارتباطه بالزراعة. وقد سد الماوردى الفراغ فى بقية الشروط والاحوال التى تراعى فى تقدير الخراج والتى لا نجدها فى كتابات المؤرخين. فكتب الماوردى فى هذا المعنى يقول إن الأرض تختلف من ثلاثة أوجه يؤثر كل واحد منها فى زيادة الخراج ونقصانه « أحدها ما يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها ، والثانى ما يختص بالزرع من اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار فمنها ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه فيكون الخراج بحسبه ، والثالث ما يختص بالسقى والشرب لأن ما التزم المئونة فى سقية بالنواضح (٥٨) والدوالى (٥٩) لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقى السيح (٦٠) والأمطار ومن الناس من اعتبر شرطا رابعا وهو قربها من البلدان والأسواق وبعدها لزيادة أثمانها ونقصانها ، وهذا انما يعتبر فيما يكون خراجه ورقا (٦١) ولا يعتبر فيما يكون خراجه حبا (٦٢) . وتلك الشروط الثلاثة تعتبر فى الحب والورق . » (٦٣) ونحن لا نعرف تماما اذا كانت كل هذه الأسس التى ذكرها الماوردى لتقدير الخراج قد اتبعت فى مصر ، وانما هذه الاسس على كل حال تعطينا فكرة عما كان متبعا فى ديار الاسلام أو ما يجب أن يكون . وكان الماوردى كما كان غيره من الفقهاء يبحثون فى الموضوعات المختلفة من الوجهة النظرية المثالية ، كما كانوا يبحثون فى مثل هذه المسائل فى زمن متأخر نسبيا عن بداية التنظيمات الاسلامية وتطورها ، أى حين بدأت هذه النظم فى الاستقرار وعلى اية حال فاننا نعرف. بعض الظروف التى كان يقدر خراج مصر على اساسها مما اورده المؤرخون ومما جاء فى الاوراق

البردية . فقد اتبع العرب فى جباية الضرائب فى مصر النظام الذى اتبعه البيزنطيون من قبل وكانت كل قرية مسئولة بالتضامن عن الضرائب المفروضة عليها . وكما كان الحاكم العام فى مصر فى عهد الرومان والبيزنطيين يقدر الضرائب التى تفرض على مختلف نواحى البلاد على اساس المعلومات التى يقدمها اليه الحكام المحليون ، كذلك نجد العرب يتبعون نظاما يشبه النظام السالف . ففى الأوراق البردية نرى قرة بن شريك يرسل الى صاحب كورة أشقوه تعليمات خاصة بجباية الضرائب ؛ فيأمره بجمع رؤساء كل قرية أو موازيت (٦٤) القرى ، وذوى النفوذ فيها كى يختاروا رجالاً أمناء أذكياء ليكلفهم بتقدير ما على كل قرية فى كورته من الضرائب بقدر استطاعتهم ، وبعد ان يقوموا بمهمتهم هذه تحت إشراف صاحب الكورة يطلب منه أن يرسل اليه نتيجة عملهم بعد أن يحتفظ بنسخة لنفسه . كذلك يطلب قرة بن شريك من صاحب كورة أشقوه أن يكتب اسماء وألقاب ، محل إقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وينذره بأنه اذا وجد أن قرية حملت أكثر مما تحتمل من الضرائب أو أقل ، فإنه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب الكورة أشد عقاب (٦٥) . والذى استخلصناه من الأوراق البردية يؤيد ما ذكره مؤرخو مصر الإسلامية من أنه لما استوثق الأمر لعمرو بن العاص « أقر قبطا على جباية الروم وكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وإن قل أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ومازوتها ورؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى إذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكورة ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع » (٦٦) اى ان تقدير الخراج هنا كان على اساس العمارة والخراب فى البلاد وعلى اساس عدد السكان وسعة المزارع ، تلك الأمور التى حاول الماوردى وضع قوانين وشروط لها .

وقد قام فى مصر أيضا منذ العصر العباسى نظام آخر لجباية الضرائب وهو نظام قبالات الأراضى ويشبه نظام الالتزام الذى كان معروفا فى مصر فى العهد الرومانى والبيزنطى. ويتضح لنا من الاوراق البردية (٦٧) ، ومن وصف المقريزى (٦٨) أنه كان يقوم فى المسجد الجامع مزاد لتقبل الأرض أو ضمان خراجها ، وكان التقبل لأربع سنوات حتى تتعادل سنو المحصول الضعيف بسنى المحصول الطيب. وهنا نلاحظ فكرة الماوردى الخاصة بالزرع الجيد والردئ ، والارض الجيدة والارض الرديئة . وكان المتقبل حسب وصف المقريزى لهذا النظام يخصم من المبلغ المطالب بدفعه ما ينفقه فى كرى الترع واصلاح الجسور وحفر الخلجان . وهنا ايضا نلاحظ فكرة الماوردى عن أهميه الرى للاراضى الزراعيه وتقدير الخراج على اساس صعوبة وصول المياه للأرض أو سهولتها . وفى مصر يعتمد الفلاحون فى الرى على نهر النيل وعلى الترع والقنوات التى تخرج منه .

اما امطار مصر فهى غير كافية لاعتماد الزراعة عليها ؛ وقد أشار الماوردى إلى الأراضى مفرقا بين رى الامطار ، والرى الذى يحتاج الى الدوالى والى جهد الانسان وبالتالى يختلف تقدير الخراج فى رأيه بين الارض التى تعتمد على الجهد فى الرى وتلك التى تعتمد على الأمطار (٦٩) .

وقد استمر تضمين أو تقبل الاراضى فى مصر الاسلامية يجرى فى المسجد الجامع كل أربع سنوات . وأطال المأمون البطائحى (٥١٥ - ٥٢٤ هـ / ١١٢١٠ - ١١٣٠م) وزير الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله مدة الأربع سنوات فى التقبل وجعلها ثلاثين سنة فمهد بذلك لنظام الاقطاعات العسكرية التى ظهرت فى عصر الايوبيين ثم المماليك (٧٠) .

ولدينا وثيقة بردية ترجع الى سنة ٣١٢ هـ ، أى الى قبيل العصر الاخشيدى فى مصر ، وتتضمن هذه الوثيقة تقبل اراضى من كورة الاشمونين لاربع سنوات متواليات اولها سنة ٣١٢ هـ وآخرها سنة ٣١٥ هـ (٩٢٧م) . ومن هذه الوثيقة نعرف ان شخصا اسمه انتناس بن سسنه بن انتناس يملك الارض المعروفة بهور قلته وينص على أنها ملك له ولآبائه قبله . وكذلك نعرف أن متقبل الخراج لهذه الارض هو مزاحم بن اسحق بن محمد لأربع سنين متوالية ، وان حساب المتقبل خمسة دنانير عن كل سنة ، أى ان حسابه فى المدة كلها عشرون دينارا « عيونا ذهبا مثاقيل مغسولة بنقد بيت المال ووزنه » (٧١)

ولسنا نعرف تماما تفصيل علاقة المتقبل مع رجال الادارة ، وان كان من الواضح ان العرب وجدوا عند الفتح نظاما زراعيا وماليا لم يستطيعوا تركه تماما ، وكان هذا النظام يبعدهم الى حد كبير عن الاتصال بالفلاحين ودافعى الضرائب مباشرة . أما قوام هذا النظام فهو طائفة من الأعيان وكبار الملاك الذين كانوا يقدرون الضرائب أو يدفعونها أو يضمنون ادائها عن مساحات زراعية كبيرة .

أرض العشر وارض الخراج :

ذكرنا أن العرب حين فتحوا مصر أبقوا الأرض بأيدى أهلها من المصريين وفرضوا عليها الخراج، أو ضريبة الملكية العقارية ، أى ان أراضى مصر كانت اراضى خراجية . ونشأت فى مصر أيضا بعد الفتح العربى أرض عشرية ، أى الأراضى التى امتلكها المسلمون بعد الفتح وهذه الارض كان يدفع عنها العشر زكاة . وقد عرفت الاراضى التى امتلكها العرب بعد الفتوحات ايضا باسم الصوافى ، ولم تكن هذه الأرض مغتصبة من أصحابها وانما كانت تشمل اراضى كسرى وقيصر ، وأراضى قتلى الحرب ، والارض التى هرب عنها اصحابها ، والأرض الموات (٧٢) . أما أراضى الصوانى التى آلت الى الخليفة فى مصر فكان له حق التصرف فيها مثل سائر اراضى الصوانى فى ديار الإسلام ، وكان تصرفه هذا لا يمس حقوق المصريين ولا ينقض صلح بابليون . وكانت حكومة العرب تتبع فى الانتفاع بالاراضى التى استولت عليها طريقة الاقطاع . وقد زادت هذه الأراضى التابعة للحكومة زيادة كبيرة بما أضيف اليها من الموات أو الارض المهجورة اثناء الحكم العربى نفسه (٧٣) .

وتذكر الروايات التاريخية أن عمر بن الخطاب أقطع ابن سندر أحد الصحابة – منية الأصبغ (٧٤) بمصر فحاز لنفسه منها ألف فدان ولم تزل له الى أن مات ، واشتراها بعد ذلك الأصبغ بن عبد الله ابن مروان من ورثته وكانت أقدم وأفضل قطيعة بمصر (٧٥) ونلاحظ هنا أن نظام الاقطاع بدأ بعد الفتح العربى لمصر ، ولكن بدءه وتطوره يختلفان عن نظام الاقطاع فى الغرب ، لأن من العوامل الأساسية فى نشأة الاقطاع فى الغرب وفى أسباب منحه رغبه الامير أو الملك فى أن يحصل على عون حربى ممن دونه من الأمراء والأشراف . بينما لم يدخل العنصر الحربى فى نظام الاقطاع الاسلامى فى مصر الا فى نهاية العصور الوسطى على يد الأيوبيين ثم المماليك ، ودخل بأسلوب آخر يتلخص فى انتفاع الجند بدخل الاقطاعات المختلفة بغير منحهم الأراضى للاقامة فيها وزراعتها ، كما لم يوجد فى الاقطاع الحربى بمصر حق الوراثة الذى كان يتمتع به أصحاب الاقطاع فى أوربا .

والحق أن الفقهاء ومن بينهم الماوردى سدوا الثغرات الكبيرة فى كتابات المؤرخين فى مسائل الارض والاقطاع. وقد افاض الماوردى فى ذكر أحكام الاقطاع ، وبين منشأ احقية الخلفاء فى أراضى الاقطاع والتمليك ، كما وضح الفرق بين اقطاع التمليك واقطاع الاستغلال ، واتى بآراء الأئمة الثلاثة – الشافعى ومالك وابى حنيفة فى هذا الصدد. كذلك بين الماوردى أن المسلمين كانوا يدفعون عن أرضهم العشر زكاة ، كما بين أن الأرض الموات ارض عشر فمن يحييها يدفع عنها العشر ولا يؤدى عنها خراجا . كذلك وضح الماوردى أنه لا يجوز اقطاع العامر من أرض الخراج تمليكا « لأنها تنقسم على ضربين ، ضرب يكون رقابها (أى ملكيتها) وقفا وخراجها أجرة ، فتمليك الوقف لا يصح باقطاع ولا بيع ولا هبة ؛ وضرب يكون رقابها ملكا وخراجها جزية فلا يصح اقطاع مملوك تعين مالكوه» (٧٦) .

أما اقطاع التمليك فى مصر فقد عرفناه بعد الفتح العربى منذ اقطاع ابن سندر . وظهر فى مصر منذ العصر الفاطمى اقطاع الاستغلال الذى تحدث عنه الماوردى فقيها . أى أن الخليفة او السلطان يمنح المقطع حق الانتفاع بايراد الارض مدى الحياة أو لمدة متفق عليها وبعدها تسترد الدولة الأرض ، ويمكن للدولة أن تسترد اقطاع الاستغلال أيضا اذا أدخل المقطع بشروط الخليفة (٧٧) ونعرف أن عمر بن الخطاب حرم على الجند العرب بعد فتح مصر الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض فلم يكونوا يعنون بغير السياسة والحكم والحرب . وظاهر ان الخليفة كان يريد أ تكون الدولة العربية دولة حربية تديرها الارستقراطية العربية ، ويقوم بأودها الشعوب المحكومة الذين يحميهم العرب والذين يقومون فى مقابل ذلك بالعمل وتوفير أسباب العيش والراحة للارستقراطية العربية . لكن هذه الفكرة لم تتحقق طويلا فقد ازدادت هجرة القبائل العربية الى مصر بعد عهد عمر بن الخطاب وزاد اختلاط العرب بأهل وادى النيل. وبمرور الوقت وبازدياد هجرة العرب الى البلاد المفتوحة ومن بينها مصر ، وبازدياد شراء العرب للأراضى الزراعية ، لم يكن من المعقول ان تظل الضرائب الخراجية الى جانب الضرائب العشرية على الاراضى المزروعة . وكانت مشكلة الجزية والخراج مشكلة عامة واجهتها الدولة العربية فى مصر وفى كافة البلاد العربية . وكانت الدولة الأموية تمر بمرحلة تطور هامة فى النواحى المالية والاقتصادية وذلك لاسلام عدد كثير من أهل الذمة ، ولتنافس العرب بعد عهد عمر بن الخطاب فى شراء الارض الخراجية ؛ فكان يتبع ذلك اعفاء المسلمين الجدد من الجزية وتحويل أرضهم الخراجية الى أرض عشرية ، كما أن امتلاك العرب للأراضى الخراجية حول تلك الأرض الى أرض عشرية . وكان الحجاج من يوسف الثقفى – أمير العراق فى خلافتى عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك – أول من حاول معالجة هذه المشاكل الصعبة بطريقة عملية بعيدا عن النظريات ولا سيما أن جاءه النذير من عماله بأن « الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار (٧٨) . » ولذا نرى الحجاج يحاول جهده حل المسألة المالية وتثبيت دخل الدولة فى إمارته. ولم يراع فى سياسته رغبات العرب أو الموالى وانما اهتم بمصلحة الدولة العربية وقوتها ، ففرض الخراج على العرب الذين امتلكوا أراضى خراجية ، وفرض الجزية والخراج على الأعاجم الذين أسلموا وبقوا فى قراهم . ولما حاول الأعاجم هجر قراهم الى المدن فرارا من سياسة الحجاج المالية أمر بارجاعهم الى قراهم. وسببت سياسة الحجاج ضجة بين الموالى والعرب على السواء ونادوا بانها منافية للإسلام ؛ ولكن الحجاج لم يأبه لكلا منهم وأخذ

فى تنفيذ سياسته التى ما لبثت أن طبقت فى جميع ديار الاسلام ومن بينها مصر . وليس من شك فى أن هذه الخطوة كانت خطوة عملية أيضا فى سبيل تعريب البلاد المفتوحة وازالة الفوارق بين الفاتحين العرب وبين أهل الذمة ، اى أهل البلاد المفتوحة .

وأصبحت أرض مصر كلها يفرض عليها الخراج ، أى أن الضريبة العقارية أصبحت متصلة بالأرض نفسها دون النظر الى مالكها . ولا نعرف متى طبق هذا النظام فى مصر ولكن من الراجح أنه طبق فى امارة عبد العزيز بن مروان على مصر من قبل اخيه عبد الملك بن مروان أو بعد وفاته ووفاة الخليفة عبد الملك بن مروان سنه ٨٦ هـ (٧٠٥م) . ونحن لا نجد اشارة الى الاراضى العشرية فى الاوراق البردية العربية التى لدينا والتى يرجع أقدمها الى خلافة الوليد بن عبد الملك ولا فى حوليات الكنيسة المصرية التى نشرها ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كذلك لدينا كشوفات بردية فى القرن الثالث الهجرى مدون فيها أسماء دافعى الضرائب وأنواع الضرائب المختلفة حسب ما تغله الأرض ولا نجد فيها ذكرا للأراضى العشرية ؛ فمثلا نجد قسما لضرائب المراعى ، وقسما للنخل ، وقسما للقرط ، وقسما للمئلة (٧٩) وقسما للمروج (٨٠) .

وكانت الارض فى مصر الاسلامية لا تعفى من الضريبة الا اذا كانت مسجلة فى الديوان وسجلات الخراج بوصفها أرض بور (٨١) ، أو أرض موات .. ولما كانت الزراعة هى العمود الفقرى فى اقتصاد مصر فقد كان ينص فى عقود ايجار الأرض الزراعية على دفع الخراج حتى على الاراضى التى يتركها الزراع وتصبح ارض بور أو موات نتيجة للاهمال ، فنقرأ فى الأوراق البردية هذه العبارة بين المالك والمستأجر « وما بورت فعليك خراجه (٨٢) » .

وتبين المصادر التاريخية والأوراق البردية أن اولى الامر فى مصر الاسلامية كانوا يهتمون دائما بقياس الارض الزراعية والأرض البور ، وكانوا يهتمون باحصاء الناس الذين يتوقف عليهم وفرة الانتاج ، كما كانوا يهتمون بقياس النيل الذى يروى أرض مصر واهلها ، وارتبطت فى مصر ايضا الثروة الحيوانية بالثروة الزراعية .

والحق أن ما كتبه الماوردى وسائر الفقهاء عن أرض العشر ، والفيصل بين أرض العشر وارض الخراج ، والاحكام الخاصة بالعشر والخراج (٨٣) لم تكن سوى نظريات عاشت بعد انتهاء العمل بها بمدة طويلة . ولا نجد فى مصر الاسلامية من واقع الاوراق البردية ومن واقع كتابات المؤرخين ذكرا لهذه الارض العشرية ، بل اننا لا نعرف عنها الا ما ذكره الفقهاء ، ثم الخطوة التى بدأها الحجاج بن يوسف الثقفى لتثبيت مالية الدولة ولتثبيت الضريبة على الارض بغض النظر عن دين مالكها او جنسيته ، تلك الخطوة التى تأكدت بعد ذلك خلال العصر الأموى وقبل قيام الدولة العباسية .

الجزية والزكاة :

مر بنا أن الخراج كان يفرض على أهل الذمة فى مصر الاسلامية بينما فرض على المسلمين العشر زكاة على ما يملكون من ارض . وشرح الماوردى آراء الامام الشافعى ومالك وابى حنيفة فى

أصل الارض العشرية والتى تتلخص فى انها اما أن تكون الارض غنيمة كالاموال تقسم بين الغانمين فيفرض عليها العشر ، أو أن تصير وقفا على المسلمين فتصبح ارضا عشرية ، أو ان تكون ارضا ملكها المسلمون لجلاء اهلها عنها (٨٤) . وقد مر بنا أن أرض العشر فى مصر هى تلك التى استولت عليها الدولة العربية بعد الفتح ولم يكن لها صاحب أو مستحق .

وكانت أرض العشر فى مصر ، إما قطيعة منحت لبعض المسلمين ، أو أرض حصل عليها العرب من الحكومة أو القبط بطريق الشراء ، أو أرض موات احتلوها . كذلك كان القبطى الذى يعتنق الإسلام تصبح أرضه عشرية. لكنه بعد نصف قرن من الفتوحات العربية بدأت الدولة تعيد النظر فى أرض العشر وارض الخراج ، لان دخل الدولة وماليتها يجب ان يكون مستقلين الى حد كبير عن الظروف الخاصة غير المنظورة كاعتناق أهل الذمة الدين الاسلامى وما الى ذلك مما يصعب على الحكومة تقدير أثره فى ماليتها . واصبح الذمى الذى يعتنق الاسلام يدفع الخراج عن الأرض وليس العشر . بل إن هذه القاعدة لم تلبث ان طبقت على العرب انفسهم . وفى مصر الاسلامية كانت أول ثورة للعرب بسبب زيادة الخراج زيادة محجفة زمن الخليفة العباسى المهدى ، حين كان موسى بن مصعب الخثعمى واليا عليها (١٦٧ - ١٦٨هـ / ٧٨٣ - ٧٨٤م) (٨٥) .

اى انه فى خلال العصر الأموى فى مصر حتى قيام الدولة العباسية تساوى المسلمون واهل الذمة ، والعرب والاقباط ، فى دفع الخراج على الارض ولم تعد هناك ارض عشرية .

وأصبحت الجزية والزكاة هى الضرائب الوحيدة التى تفرض على المصريين على اساس الدين . ويذكر الماوردى وسائر الفقهاء انه لا تجتمع الجزية والزكاة ، اى لا يدفع شخص جزية وزكاة ، فالزكاة يدفعها المسلم والجزية يدفعها الذمى (٨٦) وقد مر بنا ان الحجاج بن يوسف الثقفى درس المشاكل المالية المترتبة على اسلام اهل الذمة وحاول معالجتها فكان أن فرض الخراج على العرب الذين امتلكوا اراضى خراجية كما فرض الجزية والخراج على الاعاجم الذين اسلموا (٨٧) .

ويذكر المؤرخون ان الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٥ - ٧٠٥م) كتب الى اخيه وواليه على مصر ، عبد العزيز بن مروان ، ان يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة على غرار ما فعله الحجاج فى المشرق. لكن ابن حجيرة كلم عبد العزيز بن مروان فى ذلك وقال : أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر . فوالله ان اهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف نضعها على من أسلم منهم ؟ » فتركهم عند ذلك (٨٨) .

ولكن يبدو لنا أنه بعد وفاة عبد العزيز بن مروان فى سنة ٨٦ هـ (٧٠٥م) كانت الجزية تفرض فى مصر أحيانا على الذين يسلمون حديثا وخاصة اذا دعت الحالة المالية الى ذلك ، أو أن مصر ارادت أن تطبق مبدءا أخذ به المشرق الاسلامى . ولكننا لا نعرف من المصادر القديمة ولا حتى من حوليات الكنيسة المصرية التى نشرها ساويرس من بدأ فى مصر بوضع الجزية على من يسلم حديثا. ونقرأ أن حيان بن سريج متولى خراج مصر فى خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ/ ٧١٨ - ٧٢٠م) كتب الى الخليفة يقول : « أما بعد فان الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار وتممت عطاء أهل الديوان (أى ديوان الجند) فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل .» لكن الخليفة غضب من فكرة بقاء الجزية على من يسلم وجاء فى رده :

« ... فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فإن الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر أحقر من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه (٨٩) » .

ونقرأ أيضا فى تاريخ الكنيسة المصرية أن حفص بن الوليد والى مصر سنة ١٢٧ هـ/ ٧٤٥م من قبل الخليفة الأموى مروان بن محمد أعلن اعفاء كل من يسلم من الجزية ، ويذكر ساويرس انه نتيجة لهذا القرار اعتنق عدد كبير من الاقباط الدين الإسلامى (٩٠) .

كذلك يذكر ساويرس أن الخليفة أن الخليفة العباسى الاول ابا العباس السفاح أعلن اعفاء كل من يسلم من الجزية ، ونتيجة لذلك القرار يذكر ساويرس أن كثيرا من المسيحيين ، أغنياء كانوا أو فقراء، تخلوا عن دينهم واعتنقوا الدين الإسلامى بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم (٩١) .

ونحن نعتقد أنه لا يمكن لشخص أن يستمر فى دفع الجزية ثم يقوم بدفع الزكاة بدليل أننا تتبعنا هذه المسألة فى مصر فى كل المصادر القديمة فضلاعن الأوراق البردية فلم نجد الا الحالات التى قمنا بذكرها وهى محاولة صاحب خراج مصر فى خلافة عمر بن عبد العزيز لابقاء الجزية على من يسلم وقد رفضها الخليفة ، ثم الحالتين اللتين اشار اليهما ساويرس فى آخر العصر الاموى واول العصر العباسى . وقد تكون الظروف المالية والسياسية التى كانت تمر بها الخلافة الأموية فى آخر مراحلها قد حدت بالولاة فى مصر الى فرض الجزية على من يسلم ، ومع ذلك فالذى نستطيع أن نتصوره ان فرض الجزية على من يسلم حديثا لا يمكن أن يتجاوز جزية السنة التى اسلم فيها او بقية السنةالتى اسلم فيها . ويعطينا الماوردى رأيه فى هذه المسالة فيقول : « ومن مات منهم فيها (أى من مات أثناء السنة) أخذ من تركته بقدر ما مضى منها ، ومن أسلم منهم كان ما لزم من جزيته دينا فى ذمته يؤخذ بها . وأسقطها أبو حنيفة باسلامه وموته (٩٢) » .

ضيافة المسلمين :

يذكر الماوردى واجب ضيافة المسلمين على أهل الذمة باعتبار أن الضيافة نوع من أنواع الجزية ، ويشترط فى الضيافة المدة ، ونوع الضيافة ، كما أنها لا تجب طالما لم يتفق عليها مع أهل الذمة . فيقول الماوردى : « واذا صولحوا على ضيافة من مر بهم من المسلمين قدرت عليهم ثلاثة أيام ، وأخذوا بها لا يزادون عليها ، كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة ، وتبييت دوابهم من غير شعير ، وجعل ذلك على أهل السواد دون المدن (٩٣) » .

وفى مصر لا نعتبر شرط الضيافة زمن الفتح واجبا على المصريين بوصفهم أهل ذمة ، وانما بوصفهم أصحاب البلاد . فيذكر مؤرخو مصر الاسلامية انه اشترط على المصريين ضيافة الاجناد ، فمن نزل عليه جندى أو أكثر وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام (٩٤) .

والمعروف أن العرب فى بداية عهدهم فى مصر اشتغلوا بالجندية والحكم ، كما أنهم اختطوا الفسطاط لتكون مقرا لهم وسكن البعض الجيزة ، كما أقام البعض فى الاسكندرية . وكانت الحاميات العربية تجوب بين سواحل مصر وبين أنحاء مصر المختلفة من الشمال الى الجنوب . وكان لابد من حماية مصر فضلا عن خروج الحملات منها الى الغرب والى الجنوب لتأمين حدودها . ولهذا كان

شرط ضيافة الأجناد مسألة حيوية توفر على الجند العربى كثيرا من العناء عند انتقالهم من جهة الى اخرى فى أنحاء البلاد . ولا شك أن هذا الشرط اختفى بمرور الوقت بعد أن بدأ العرب فى الاستقرار فى الريف المصرى وفى الانتشار فى أنحاء البلاد ، وخاصة منذ خلافة هشام بن عبد الملك الاموى حين وفدت على مصر اسرات عربية كثيرة منذ سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧م للاشتغال بالزراعة ، وبتشجيع من الخلافة (٩٥) ولم يعد عرب مصر يحتكرون الجندية والحكم والحرب منذ قيام الدولة العباسية فى سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م ثم زال هذا الدور الحربى فى مصر نهائيا حين أسقط الخليفة العباسى المعتصم الجند العربى فى مصر من الديوان فى سنة ٢١٩ هـ (٨٣٤م) ؛ ويظهر أن الاختلاط فى ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين اهل البلاد بدليل ان قرار الخليفة المعتصم بصرفهم عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل عنيف (٩٦) . وطبيعى أن كلامنا على أقباط وعرب ، أو مصريين وعرب ، ولا ينصرف الا الى الفترة السابقة على خلافة المعتصم العباسى فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . أما بعد ذلك فقد تم الاندماج بين العرب وأهل البلاد وأصبح الكل مصريا عربيا ، اذ أن المصريين تعربوا والعرب تمصروا .

والحق أن ضيافة أهل الذمة للمسلمين ، الذى حدثنا عنه الماوردى وسائر الفقهاء ، أو ضيافة المصريين للجند العربى الذى أشار اليه المؤرخون المصريون ، كان من النظم التى وجدت قبل الفتح العربى واخذ بها العرب فى مصر وفى غيرها من البلاد الاسلامية .

وكان ايواء الجند وضيافتهم يمثل جانبا من نظام الالتزام المعروف فى العالم الكلاسيكى باسم الليترجيا Leiturgia ومعناه التزام الشخص أو الجماعة ببعض الخدمات للدولة ، وظهر هذا النظام فى العصر الاسلامى فى الضرائب وما يتصل بها (٩٧) .

وحدة قياس الأرض الزراعية والموازين والمكاييل والنقود :

يذكر الماوردى أن الخراج حق معلوم ، على مساحة معلومة من الارض ، ويرتبط به النقود المعترف بها ، والمكاييل والموازين المأخوذ بها. فيقول : « والخراج حق معلوم على مساحة معلومة فاعتبر فى العلم بها ثلاثة مقادير تنفى الجهالة عنها ؛ أحدها مقدار الجريب بالذراع المسموح به ، والثانى مقدار الدرهم المأخوذ به ، والثالث مقدار الكيل المستوفى به (٩٨) ثم يفصل الماوردى بعد ذلك فى بيان مساحة الجريب وأقسامة ، والاطوال المعروفة فى العراق مثل الذراع السوداء والذراع الهاشمية الصغرى ، والنقود الاسلامية مفصلا الكلام عن الدراهم الفارسية ثم الدراهم الاسلامية واوزانها ، وكذلك المكاييل المعروفة فى العراق (٩٩) . وهذا التفصيل من فقيه عراقى عن وحدة قياس الأرض الزراعية ، وعن المكاييل والموازين ، والاطوال ، والنقود فى الشرق الاسلامى ، لا يستطيع الباحث فى مصر الاسلامية الاخذ بها وإن اخذ بالرأى والفكرة . ففى مصر الاسلامية كانت وحدة قياس الارض الزراعية الفدان وليس الجريب . وقد ذكر المؤرخون والكتاب المصريون هذه الوحدة مثل ابن مماتى فى كتابة قوانين الدوواوين ، والقلشقندى فى كتابه صبح الاعشى . كذلك ورد ذكر الفدان والفدادين فى أوراق البردى العربية (١٠٠) ويذكر الماوردى أن الجريب عشر قصبات فى عشر قصبات (١٠١) اى ان مساحة الجريب كانت مائة قصبة مربعة ؛ والمعروف أن مساحة الفدان فى العصر الاسلامى كانت اربعمائة قصبة مربعة اى حوالى ٥٩٢٩ متر مربع وذلك منذ فتح العرب

لمصر حتى عهد محمد على حين خفض مساحة الفدان الى ١/٣ ٣٣٣ قصبة مربعة فاصبح مساحة الفدان ٤٢٠٠ متر مربع (١٠٢) .

أما نقود مصر الاسلامية فكانت هى الاخرى تختلف فى اوزانها عن نقود شرق العالم الاسلامى. فقد كانت مصر قبل الفتح العربى وبعده تتبع قاعدة الذهب بينما كان العراق يتبع قاعدة الفضة ، فكان اساس المعاملات بين المصريين العملة الذهبية المعروفة بالدينار بينما كان اساس المعاملات فى شرق العالم الاسلامى العملة الفضية المعروفة بالدرهم . وحين ظهر الإسلام كانت الدولة العربية تأخذ بنظام المعدنين . ولم يكن الدرهم جزءا من الدينار وانما كان هذا نقدا على اساس الفضة وذاك نقدا على أساس الذهب ، ولكل من النقدين وحداته. وكان التعامل بالنقود بالعد والوزن وكان ما يساويه الدينار من دراهم يتغير بمرور الزمن . وظلت نقود مصر او سكتها مرتبطها بسكة الخلافة الى ان استقلت مصر فى القرن الثالث الهجرى (٩ الميلادى) على يد أحمد بن طولون فأصبح لها سكتها المستقلة التى كانت تتأثر بالحالة السياسية والحربية وبالاوضاع الاقتصادية (١٠٣) .

أما المكاييل والموازين فى شرق العالم الاسلامى والتى ذكرها الماوردى (١٠٤) فانها تختلف عن تلك التى كانت مستعملة فى مصر الاسلامية . فاننا نعرف من الاوراق البردية ان الفلاح المصرى كان يستعمل فى العصر الإسلامى المكاييل والموازين التى لايزال يعرفها ويستخدمها الى يومنا هذا ؛ فكان يستخذم فى المكاييل والموازين الاردب والويبة والكيلة والقدح والفقة (١٠٥) .

* * *

خاتمــة

وبعد فاننا حاولنا جهدنا بيان احكام أهل الذمة فى مصر الاسلامية فيما يتعلق بالضرائب معتمدين على المصادر التاريخية وكتب الفقهاء والاوراق البردية والوثائق وحوليات الكنيسة المصرية . وقد حاولنا أن نبين مدى ارتباط تلك الاحكام الضريبية بآراء ونظريات الماوردى فى كتابه الاحكام السلطانية . وقد لاحظنا أن الماوردى اجتهد في بحث تلك الاحكام من الوجهة الشرعية الاسلامية كما اورد فى كثير من الاحيان اجتهادات الامام الشافعي والامام مالك وابى حنيفة . كذلك لاحظنا أن الماوردى كان يتكلم عن ديار الاسلام عامة دون تخير لمواطنة العراق ومع ذلك فإن أمثلته نبعت من العراق ومن الشام ولم نعثر على مثال واحد من مصر . كذلك فصل الكلام عن مكاييل وموازين ونقود شرق العالم الاسلامى فضلا عن وحدة قياس الارض الزراعية فى الشرق الاسلامى مما كان يخالف ما هو معروف ومتعارف عليه فى مصر .

كذلك لاحظنا ان الماوردى . مثله مثل سائر الفقهاء ، يعطينا تفاصيل لا نجدها أحيانا لدى المؤرخين وذلك خلال الشروح النظرية وخلال ايراد آراء الائمة المجتهدين . كذلك لاحظنا أن الماوردى كتب أحيانا عن نظم كانت قد اندثرت فى مصر الاسلامية فى زمن الماوردى او قبل زمنه بكثير مثل اراضى العشر ، ومثل ضيافة الاجناد . ومن ناحية أخرى فان الماوردى وغيره من الفقهاء كتبوا أحيانا خلال دراساتهم الفقهية والنظرية عن نظم وتنظيمات كانت قد بدأت تأخذ شكلها القانونى او شكلها النهائى او شكلها التقليدى . فالماوردى فى العراق عاصر الخلافة الفاطمية فى مصر وفي هذا العصر أو بعده بقليل روعى فى جباية الجزية فى مصر تقسيم اهل الذمة الى ثلاث فئات وهو الرأى الذى اورده الماوردى كما أورده غيره من الفقهاء . كذلك أصبحت الجزية تجبى مرة واحدة فى السنه كما يذكر الماوردى ، وكانت قبل ذلك تجبى مقسطة خلال السنة أو تجبى بعد انقضاء سنة او سنتين او ثلاث سنوات كما ظهر من خلال دراستنا للأوراق البردية .

كذلك ظهر منذ العصر الفاطمي اقطاع الاستغلال الذى حدثنا عنه الماوردى بتفصيل .

وبعد فدراستنا تناولت نقطة صغيرة من بحر واسع أو محيط كبير لدراسات العالم الفقيه الماوردى الذى أنتج ودرس والف الكثير مما نعتبره نحن المؤرخين معينا لا ينضب فى دراساتنا التاريخية .

* * *

الهوامش

١) ابن الجوزى (ابو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد ت ٥٩٧ هـ) : المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك . ج ٨ ص ١٩٩ (الطبعة الاولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بعاصمة حيدر آباد الدكن ١٣٥٩هـ) .

٢) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٢٠٠

٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٨ (طبع القاهرة ١٣٢٧ هـ – ١٩٠٩م) ؛ والفراء الحنبلى (أبو يعلى محمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) : الأحكام السلطانية ص ١٣٨ (طبع القاهرة ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٨م) .

٤) بنى الامبراطور الرومانى تراجان (٩٨ – ١١٧م) حصن بابليون بالقرب من منف عاصمة مصر الفرعونية . وسماه العرب الحصن وقصر الشمع واليونة وباب اليون . وقد بنى العرب . عاصمتهم فى مصر وهى الفسطاط بالقرب من الحصن . ولازالت بقايا الحصن موجودة للآن بالقرب من الكنيسة المعلقة فى مصر القديمة وبالقرب من المتحف القبطى وقريب من جامع عمرو بن العاص .

٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩ (الطبعة الاولى بالمطبعة الحسينية المصرية) ؛ وابن خلدون : كتاب القبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ص ١١٥ (القاهرة ١٢٨٤هـ) ؛ والقلشقندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا ج ١٣ ص ٣٢٤ (المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٣ – ١٩١٩ م) ؛ وابو المحاسن بن تغرى بردى الأتابكى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص ٢٤ – ٢٥ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩م) .

٦) المقريزى : النقود الاسلامية . ص ١١ (وهو المعروف باسم شذور العقود فى ذكر النقود القديمة والاسلامية طبع القسطنطينية ١٢٩٨هـ) .

٧) اذا كان أساس النظام النقدى فى الدولة الذهب يقال إنها تتبع قاعدة الذهبgold standard (الدكتور عبد الحكيم الرفاعى : الاقتصاد السياسى ج ١ ص ٤٧٩ – القاهرة ١٩٣٦م) .

٨) الماوردى : الاحكام السلطانية . ص ١٢٧ – ١٢٨

٩) أعلاها وأسفلها : اى الوجه القبلى والوجه البحرى ، او مصر العليا ومصر السفلى .

١٠) العريف: العالم بالشئ ومن يعرف أصحابه والجمع عرفاء.

١١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٦٣ – ٦٤ (طبعة هنرى ماسية Henri massé المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ، ١٩١٤م) ؛ والمقريزى : الخطط . ج ١ ص ٢٩٢ – ٩٣ (بولاق ١٢٧هـ) ؛والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١ (القاهرة ١٣٢٧ هـ).

١٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٤ (ليدن ١٨٦٦م)

١٣) الماوردى : الاحكام السلطانية . ص ١٢٨

١٤)الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٧ – ١٢٨

١٥) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ١ ص ٢٠٥٥ (طبعة دى جويه – ليدن ١٨٨٥ – ١٨٩٣م)

١٦) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ١ ص ٢٠٥٠ (طبعة ليدن)

١٧) ابو يوسف : كتاب الخراج ص ٨١ (القاهرة ١٣٠٢هـ)

ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٧٩ (الترجمة العربية للدكتور حسن ابراهيم حسن . القاهرة ١٩٥٧م) .

١٨) محفوظات عابدين : أمر عالى بتاريخ ٢١ صفر ١٢٧٢ هـ ، سجل ١٨٨٣ رقم ٨ .

١٩) محفوظات عابدين . سجل ٥٠٥ ؛ معية سنية تركى ؛ رقم ١

٢٠) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٨

٢١) سورة التوبة (٩) آية ٢٨

٢٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٧

٢٣) ابو يوسف: كتاب الخراج ص ٦٩

٢٤) يحيى بن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ٥١ (ليدن ١٨٩٥ - ١٨٩٦)

٢٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها . ص ١٥٣ - ١٥٤ (طبقة تورى .Torrey نيوهافن ١٩٢٢م) ؛ والمقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ح١ ص ٧٧

٢٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥٣ (طبقة تورى)

٢٧) اشقوه : كانت كورة من كور الصعيد (أى مركزا من مراكز الصعيد) وهى الآن كوم اشقوه بين ابو تيج وطهطا فى محافظة اسيوط . وقد عثر فيها سنة ١٩٠١م على مجموعة من الأوراق البردية التى ألقت شعاعا من النور على حكم قرة بن شريك فى مصر . وكانت اشقوه تعرف فى العصر البيزنطى باسم افروديتوپوليس aphrodito-polis

28) Bell (H.I.) : Translations of the greek aphrodito Payri in the British museum (Der Pslam. Band II Strassbirg 1911) p. 272.

29) Bell : Op. Cit. pp. 281 - 282 .

30) Grohman (Ddolf) : dralic Papyri in the Egyptian library . vol . III. pp. 177- 178 , 201 - 203 , 217, 219 220 - 221 . (Cairo 1938)

٣١) أصله من نصارى أسيوط ، وجده هو أبو المليح الذى عمل فى خدمة بدر الجمالى والخليفة المستنصر حتى تولى وظيفة مستوفى الدواوين . وتولى ابنه المهذب بن ابى المليح رئاسة الجيش حين كانت الدولة الفاطمية تحتضر – فى وزارة أسد الدين شيركوه . واسلم هو واولاده حينئذ ، ومن بين أولاده الأسعد بن مماتى الذى عاصر فترة الانتقال بين الفاطميين والايوبيين واصبح ناظرا للدواوين المصرية فى العصر الايوبى ووزيرا للدولة الايوبية وكتابه قوانين الدواوين يصور لنا حالة البلاد المصرية فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

٣٢) فيما يتعلق بالنقود الاسلامية واوزانها واقسامها . انظر : سيدة كاشف دراسات فى النقود الاسلامية . مجلة الجمعية لمصرية للدراسات التاريخية – القاهرة ١٩٦٤ – ١٩٦٥م

٣٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣١٨ – ٣١٩ (نشر الامير عمر طوسون – عزيز سوريال عطية – القاهرة ١٤٣ .

٣٤) القلشقندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج ٣ ص ٤٦٢ – ٤٦٣ ألطبعة الاولى لدار الكتب المصرية بالقاهرة)

٣٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٨ .

٣٦) الفعل راك والفعل روك : معناها تقويم الأرض ومسحها .

٣٧) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٠٢ – ١٠٣ و ١٠٦ .

٣٨) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٣٠ ص ٢١ (مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة) .

٣٩) انظر : سيدة الكاشف : دراسات فى النقود الاسلامية ص ٩١ ٩٥ (بحث فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد الثانى عشر)

٤٠) الدمرداش (أحمد الدمرداش كتخذا عزبان) : الدرة المصانة فى اخبار الكنانة ج ٢ ص ٤٠٨ – ٤٠٩ (مخطوط فى جزءين محفوظ فى المتحف البريطانى فى لندن) Estéve : mémoire sur les Finances de l' Egypte p. 193 (en Description de l' Egypte vol. XII)

٤١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٠

٤٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣١٩

٤٣) القلشقندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٨ – ٤٥٩

٤٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٠٢ – ١٠٣

45) Becker : neve drabisehe Papyri des aphroditofundes p. 267 (Der Islam II Strassbrg 1911) grohman : drabic papyri in the Egyption library. vol. III p. 48

46) Becker (C.H.) : op . cit. p. 267 ; grohmann : op. cit. p. 51

47) Becker : op. cit. p. 268; grohman : op . cit . p. 54

٤٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر . ص ١٧٨ (طبعة تورى)

٤٩) يعنى بذلك اذا اجتمعت الامارة والولاية على الخراج بشخص واحد

٥٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٢ (طبعة تورى) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٧

51) Becker (C. H.) : neue drabische papyri p. 267; grohman : arbic papyri .. vol. III pp. 48 , 141 - 142 ; bell : Translation of the greek ophrodito papyi (Der islam . Band III - 1912) ; p. 271
والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٥ ، اليعقوبى تاريخ ج ٢ ص ١٧٦ – ١٧٧ (ليدن ١٨٩٢)

٥٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٢ – ١٢٣ وما ذكره من أراء الامام الشافعى ومالك وابى حنيفة بهذا الصدد.

٥٣) سورة الأنفال ٨ آية ٤١

٥٤) يذكر الندى فى كتابة الولاة والقضاة (ص ١٢٥ – ١٢٩) ان موسى بن مصعب الخثعمى والى مصر من قبل الخليفة المهدى (١٦٧ ١٦٨ هـ) تشدد فى جباية الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما كان .

٥٥) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣١ – ١٣٢

56) van Berchem (max): la propriété territoriale et l' impôt foncier sous les premiers califes .p. 23 (gemeve 1886) .

٥٧) جروهمان : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ج ١ ص ١٢٩ – ١٣٠ و ١٣٢ – ١٣٣ و ١٤٥ و ١٤٦ – ١٤٨ (هذا الجزء ترجمه المؤلف بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن – القاهرة ١٩٣٤م)

٥٨) نضح البعير الماء : حمله من بئر أو نهر لسقى الزرع .

٥٩) الدالية : الناعورة يديرها الماء ، والأرض تسقى بدلو أو بناعورة والجمع دوال .

٦٠) السيح : الماء الجارى الظاهر .

٦١) الورق هنا بمعنى النقود .

٦٢) الحب بمعنى الغلال .

٦٣) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣٣ - ١٣٤ .

٦٤) موازيت : معناها رؤساء ومشايخ القرى ، وهى تقابل الكلمة اليونانية ميزوتروس Meisotepos ووردت فى أوراق البردى العربية كلمة مازوت وموازيت ، وطبعت هذه الكلمة خطأ حين نشرت الكتب القديمة فكتبت بواريث وذلك لان موازيت لا توجد فى القواميس العربية فاعتقد ناشرو المخطوطات القديمة ان موازيت كتبت من باب التصحيف وليس من باب الصحة كما نرى مثلا فى كتاب الولاة والقضاة للكندى ص ٦٩ (طبعة بيروت ١٩٠٨م فى مجموعة جب التذكارية Gibb memorial series)

65) Bell (II.T.) : Translations of the greek aphodito papyri .. p. 282 (Der Islam , Band III 1912)

٦٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ١٥٢ - ١٥٣ (طبعة تورى) ؛ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٧ (بولاق ١٢٧٠هـ) والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ (القاهرة ١٣٢٧هـ) .

٦٧) انظر مثلا : grohman : drabic papyri vol IIp. 39 - 40

٦٨) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٢ .

٦٩) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٣ .

٧٠) دكتور عطية مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ص ١٦٩ ، وما ذكره من مراجع (القاهرة - الطبعة الثانية) .

71) grohman : drabic papyri vol. II pp. 57 - 64.

٧٢) الموات بعكس العامر من الأرض ، اى الأرض التى تحتاج الى تعمير واصلاح .

٧٣) سيدة الكاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣ (الطبعة الاولى القاهرة ١٩٤٧م) .

٧٤) شمالى القاهرة وموقعها الحالى قريب من ضاحية الدمرداش .

٧٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ص ١٣٧ - ١٣٨ (طبعة تورى) ؛ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٦ ؛ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٦ .

٧٦) الماوردى : الأحكام السلطانية (الباب السابع عشر فى أحكام الاقطاع)ص ١٦٨ - ١٧٥ .

٧٧) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٣ ، وج ٢ ص ٦ ، دكتور عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ص ١٥٧ - ١٥٨ وما ذكره من مراجع (الطبعة الثانية - القاهرة) ، دكتورة سيدة الكاشف : الأرض والفلاح فى مصر الاسلامية ص ١٦٦ - ١٦٧ (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٧٤ م).

٧٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٣٥ (الطبعة الاولى بالمطبعة الحسينية بالقاهرة) .

٧٩) المثلة والجمع مثال : معناها الحديقة .

80) grohman : dralic papyri ... vol . IV pp . 96 - 97

81) grohman arabic papyri vol II pp. 47, 69, 76.

٨٢) انظر grohman : drabic papyri .. vol . II pp. 44 - 48.

٨٣) انظر : الماوردى : الاحكام السلطانية . ص ١٣١ .

٨٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٢٢ - ١٢٣ .

٨٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٢٥ - ١٢٩ .

٨٦) الماوردى : الاحكام السلطانية . ص ١٣٠ .

٨٧) سيدة الكاشف : الوليد بن عبد الملك ص ٧٨ - ٨٠ (مجموعة اعلام العرب ١٧ - القاهرة ١٩٦٣م) .

٨٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥٦ (طبعة تورى) والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٧ - ٧٨.

٨٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر . ص ١٥٦ (طبعة تورى) ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٨.

٩٠) ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين : سيرة الآباء البطاركة ص ١١٦- ١١٧ .

(Patrologia Orientalis T. V. Paris 1910

٩١) المرجع السابق . ص ١٨٩ - ١٩٠ .

٩٢) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣٠ .

٩٣) الماوردى : الاحكام السلطانية . ص ١٢٩ .

٩٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها . ص ٦٤ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) ؛ والمقريزى : الخطط جض ص ٢٩٢ ، والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١.

٩٥) الكندى : الولاة والقضاة . ص ٧٦ - ٧٧ ؛ والمقريزى لك البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب . ص ٥٠ - ٥١ (القاهرة ١٣٥٦هـ) ، الخطط ج ٢ ص ٢٦١ .

٩٦) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٣ - ١٩٤ ، والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤ .

٩٧) دكتورة سيدة الكاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

٩٨) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .

٩٩) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧ - ١٤١ .

100) grohman : drabic papyri vol. ii pp. 32, 44 , 45, 48 etc..

١٠١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣٧ .

١٠٢) انظر البحث القيم للامير عمر طوسون فى كتابة : مالية مصر من عهد الفراعنة الى الآن ص ١٩٧ - ٢٠٥ (الاسكندرية ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م) .

١٠٣) انظر : دكتورة سيدة الكاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٦٥ - ٦٩ وما ذكرته من مراجع ؛ وسيدة كاشف : دراسات فى النقود الاسلامية . بحث فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الثانى عشر (القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٥م) .

١٠٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤٠ - ١٤١ .

١٠٥) سيدة الكاشف : الارض والفلاح فى مصر الاسلامية ص ١٨٨ .

مركز احياء تراث العمارة الاسلامية

د . م . صالح لمعي

السبيل : عمارة من روح الاسلام

إن الهدف الاساسى من هذه الدراسة هوالمحاولة للتأكيد على الشخصية الاسلامية في عمارة السبيل وتحديد مظاهر عمارته وعناصرها ومدى الذوبان فى الملامح الآتية من معانى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

لقد عرف الإنسان منذ القدم مدى أهمية المياه لاستمرار الحياة . فالماء ضرورى لكل الكائنات الحية إذ يكون الجزء الاكبر من البروتوبلازم فى الخلية الحية ومن العصارة النباتية ، كما إنه ضرورى لعملية البناء الضوئى (١) . ولهذا فقد كان الماء هو العنصر المركزى للعديد من النظريات الاسطورية بما فى ذلك نظرية النشوء (٢) .

وعلى ذلك فعندما تصور العالم الفليسوف ثاليس من ميليه (٣) (Thales od miletus) فى القرن السابع قبل الميلاد وجود آلهه للقوى الطبيعية ، ترك الماء على أساس أنه المصدر الرئيسى لنشأة الكون ، كما أن نيوتن عمل فى دراساته على اساس أن كل شئ يمكن أن يختزل الى ماء (٤) .

فإذا كانت الحضارات القديمة وخاصة الواقعة على ضفاف الانهار قد اهتمت بجر المياه وتخزينها وعمل الآبار بهدف مد المواقع والمدن بها ، فإننا نتساءل عما إذا كان العمل المعمارى الاسلامى فى هذا المجال هو استمرار لما كان فى السابق ، أم إنه هنا يعبر عن الدلالات التى تحمل فى عمارتها ملامح أتية من الشريعة الاسلامية ، وإن هذه العمارة وليدة معطيات مستلهمه من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة فى موادها واشكالها وزخارفها . لذلك نجد أنه هناك ضرورة قبل الدخول فى دراسة عمارة السبيل الاسلامية التعرف فى عجالة على اعمال الحضارات السابقة بالمناطق التى انتشر فيها الدين الاسلامى لتفهم حقيقة العلاقة - إن وجدت - بين عمارة الحضارات القديمة فى هذا المجال وما اوجدته الحضارة الاسلامية ، أم أن العمل يمثل كتلة معمارية تجسد معانى نبعت من تعاليم الاسلام .

الحضارة المصرية القديمة (٥) :

ففى الحضارة المصرية القديمة عملت الآبار بحوض النيل والواحات بهدف الرى أو بالصحراء بجوار المناجم ، ومن ضمن الاعمال الهامة فى هذا المجال ما قام به حنو (Henw) رئيس الديوان فى عصر منتوحتب الثالث بحفر عشرين بئرا ، وكذلك الآبار التى عملت خلال حمله منتوحتب الرابع إلى وادى الحمامات . كذلك قام سيتى الأول بإنشاء معبد مع بئر للمياه على الطريق إلى مناجم الذهب فى البرامية بالقرب من إدفو ، والبئر الذى أقامه رمسيس الثانى على الطريق إلى مناجم الذهب فى وادى علاقى . كذلك وجدت بقايا محطة للمياه مع نصوص جدارية ترجع إلى الاسرة السادسة والعشرين بالقرب من البحر الاحمر بوادى جازوز .

وتجدر الاشارة إلى أن النصوص الجدارية أو البرديات المعروفة لم تشر إلى وجود أية نصوص دينية توصى بعمل سقايات كما هو الحال فى الاسلام (٦) .

الحضارة الايرانية وبلاد ما بين النهرين :

وتقديرا من هذه الحضارات للدور الهام الحيوى للمياه فى الحياة فقد خص الايرانيون وسكان بلاد ما بين النهرين الماء بالإله ايا (٧) (Ea) ، إلا أن المصادر لم تفدنا بوجود إنشاءات لتقديم المياه لعابرى

السبيل ، كما هو الحال فى المدينة الاسلامية أو العربية ، إلا أنه من المسلم به حفر آبار لتجميع وتخزين المياه وما يستلزم ذلك من عمل قنوات وتوصيلات مائيه وقد وجدت مثل هذه القنوات فى قصر سرجون (٨) فى خورساباد (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق. م).

الحضارة اليونانية :

وقد وجدت عمليات تغذية المدن بالمياه فى الحضارة اليونانية وعلى سبيل المثال خط المياه الذى عمل فى القرن السادس فى اثينا والذى شيده بيزيزتراتوس (٩) (Peisistratus.) وكذلك ما عرف باسم البئر ذى القنوات التسعة (١٠) .

ويتم فى العادة توزيع المياه فى المدن اليونانية عن طريق مجارى مائية مبنية بالحجارة ومبطنة بالمونة أو من خلال قساطل من الفخار ـ عمل بعضها مزججا ـ ، كما عملت نافورات عامة وخزانات عامة وخاصة ايضا (١١) .

الحضارة الرومانية :

وقد تطورت عملية التغذية بالمياه فى هذه الفترة بالاماكن العامة والخاصة على السواء فى جميع انحاء الامبراطورية الرومانية . فعملت الجسور لنقل المياه من الاماكن المرتفعة (١٢) (Aquaeduct.) ، وشاع استخدام القساطل الرصاص لتوزيع المياه إلى الخزانات الفرعية أو الفوارات والحمامات والمبانى العامة . وقد حصل سكان روما على احتياجاتهم من الماء من خلال الفوارات العامة . وقد قدرت المياه المستعملة للشخص الواحد فى روما فى بعض الاحيان بحوالى ٥٠ جالونا فى اليوم الواحد (١٣) .

وقد شكلت وحدات المياه بشكل حوض كبير(Lacus) أو بشكل فوارات (Salientes) أو الاثنين مجتمعين فى تصميم واحد مزين بالاعمدة والتماثيل . (١٤) وقد وجدت الفوارات الخاصة فى الأفنية والحدائق داخل المنازل ، صنعت من الرخام أو الجرانيت وزينت بتماثيل من البرونز بشكل حوريات (الهه ثانوية من الطبيعة) (١٤) .

وفى مدينة بومبيى استخدمت المياه كعنصر للتشكيل الداخلى للفراغات السكنية فعملت قوصرات غير عميقة فى الحوائط ، كسيت بالموزايك ، ووضع بصدر القوصرة رؤوس سباع من البرونز تسيل منها المياه (١٥) . وفى قصر اوجستينا عملت قوصرة تسيل منها المياه الى حوض كبير مستطيل الشكل يحيط به ضفاف من الاعمدة (١٦) .

إن النظرة الرومانية للمياه الجارية النظيفة بلغت درجة عالية من التقدير الكامل وذلك باستعمالها فى المبانى التذكارية لتخليد ذكرى الاعمال المجيدة لعظماء الرجال والنبلاء ولتكريم المتوفى عن طريق تقديم خدمة عامة (١٧) .

الحضارة الاوربية :

وفى القرون الوسطى باوربا اقيمت نافورات فى الميادين العامة خلال العصر القوطى وعصر النهضة وعصر الباروك وذلك لتؤدى خدمة عامة بالاضافة إلى أنها أحد وسائل التجميل والتشكيل البصرى للساحات العامة (١٨) .

الحضارة الاسلامية :

لقد ترك العديد من الدارسين للحضارة الاسلامية مصدر التشريع الاسلامى وهو القرآن الكريم والسنة النبوية وانطلقوا خلف العديد من التفسيرات الغربية والدخيلة فى محاولة منهم لوضع فلسفة للعمارة الاسلامية .

ففى العديد من الدراسات الغربية (١٩) عولج موضوع المياه بالدرجة الأولى كعنصر تشكيلى فى المبانى الدينية والمدنية على السواء . فالبعض أشار إلى أن آبار المياه عملت على طرق التجارة للشرب والاستحمام والوضوء ، أو أشير إليه كعلامة للرخاء ، أو كعنصر من عناصر المعالجة المناخية فى المبانى السكنية ، أو للوضوء قبل أداء الشعائر فى المبانى الدينية . كذلك أشير إلى الماء كعنصر تشكيلى فى الفراغات الداخلية وتحديد معالم الصورة البصرية للمواقع مسترشدين فى ذلك بأمثله متعددة من العالم الاسلامى وخاصة فى عمارة المغول فى الهند والعمارة الاسلامية فى اسبانيا .

وقد استرشد بعض الدارسين المسلمين بآراء دخيلة غربية فى تصور الماء فى الاسلام فمن هو قائل بأن الماء فى الاسلام رمز لنزول الوحى أو أن الوضوء بالماء عند المسلم هو تعبير رمزى لإنتماء المسلم وعودته إلى صورته التكوينية الاصلية (٢٠) .

لقد تناسى العديد من الدارسين أن القرآن الكريم والسنة النبوية هى مصادر التشريع والالهام والعطاء الفكرى . لقد حدد القرآن للمسلم نظام حياته وطريقة عيشه وسلوكه وعلاقاته الاجتماعية وهنا نستشهد بقول الحق سبحانه وتعالى : سورة ٦ (الانعام) الجزء الاوسط من الاية ٣٨ :

«مافرّطنا فى الكتاب من شئ»

سورة ١٨ (الكهف) اية ٥٤ :

«ولقد صرفنا فى هذا القرآن من كل مثل»

أما أهمية الماء ومدى ارتباط الحياة به فقد وردت فى العديد من السور القرآنية:

سورة ٢١ (الانبياء) أية ٣٠ :

«وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون»

سورة ٢٤ (النور) أية ٤٥ :

«والله خلق كل دابة من ماء»

سورة ٢٥ (الفرقان) اية ٥٤ :

«والله خلق من الماء بشرا»

وهنا تظهر قدرة الله وسلطانه العظيم فى خلقة أنواع المخلوقات على اختلاف اشكالها والوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد (٢١) .

ولقد تعرفنا من القرآن الكريم على أن العرب قد عرفوا السقاية قبل الاسلام (٢٢) :

سورة ٩ (التوبة) اية ١٩ :

«اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الاخر وجاهد فى سبيل الله لايستوون عند الله والله لايهدى القوم الظالمين» .

وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال الاحاديث النبوية على سقى الماء للإنسان والحيوان . والحديث النبوى ملزم للمسلم وذلك بما جاء فى الذكر الحكيم :

سورة ٤ (النساء) أية ٨ :

«من يطع الرسول فقد اطاع الله» .

سورة ٥٩ (الحشر) أية ٧ :

«وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا» .

ونعود هنا لنستشهد بالاحاديث النبوية التى تدعو إلى الصدقة والسقاية . ولقد حرص المسلم على اتباع الذكر الحكيم وتعاليم الرسول فى سبيل الحصول على رضاء الله وغفرانه . عن ابى هريره (٢٣): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

عن ابى هريره (٢٤): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«ثلاثة لاينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم :

رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا فإن أعطاه منها رضى وإن لم يعطه منها سخط ، ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال والله الذى لا اله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا فصدقه رجل» .

وعن ابى هريرة (٢٥) ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا رجل يمشى فاشتد عليه العطش ، فنزل بئرا فشرب منها ، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى فملأخفه ثم امسكه بفيه ، ثم رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا يارسول الله : وإن لنا فى البهائم أجرا ، قال : فى كل كبد رطبة أجر » .

إن هذا الماء الذى نشربه هو عطاء من الله سبحانه وتعالى ونعود هنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى فى الكتاب الكريم :

سورة ١٥ (الحجر) أية ٢٢ :

«وأرسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه وما أنتم له بخازنين»

سورة ٥٦ (الواقعة) اية ٦٨ ـ ٦٩ :

«أفرأيتم الماء الذى تشربون . ءأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون» .

وهنا نتساءل ما هو دور الانسان بشكل عام فى التصور الاسلامى .

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى إلى الملائكه .

سورة ٢ (البقرة) أية ٣٠ :

«وإذ قال ربك للملائكه إنى جاعل فى الارض خليفة»

بمعنى إن آدم ومن قام مقامه أمر بطاعه الله والحكم بالعدل بين خلقه وتنفيذ أوامره (٢٦) .

بكل وضوح وجب على الانسان المسلم خليفة الله فى أرضه طبقا لتعاليم القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف بأن يقدم الماء الذى ينزله إلى كل كائن حى .

عمارة السبيل (٢٦ أ) :

وعلى هذا فإنه يتضح مما سبق أن الانسان المسلم بإقامته السبيل كتكوين معمارى لم يقصد منه كما أشار (٢٧) البعض إلى تخليد ذكراه بعمل معمارى سهل وصغير يحمل اسمه ورنكه ، ولكنه بالدرجة الأولى تنفيذا لأوامر الحق سبحانه وتعالى وسنة نبيه الكريم بعمل صدقة وتنفيذ عمل صالح فى سبيل الله كأحد الاعمال المتوجبه على الإنسان المسلم .

وهنا قد يتساءل البعض عن ضرورة إقامة مبانى الاسبلة على هذه الصورة المعمارية الرائعة التى احتوت على معان وقيم معمارية على درجة عالية من التنوع والايقاع والتنغيم والتوازن المعمارى وخاصة فى عمارة العصر المملوكى الجركسى والعصر العثمانى أم إنه كان يكفى عمل حوض للشرب مادام الهدف هو الاصل السقاية لابن السبيل وكل كائن حى .

فى تصورى أن المسلم قد تفهم أن الماء هو عطاء من الله وأنه عبد من عباد الله منفذا لتعاليمه الواردة فى الكتاب الكريم ولاحاديث نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا فإن المعمار المسلم قد استوحى العناصر المعمارية من الوصف القرآنى للجنة واشجارها وعيونها . وعلى هذا فقد اختار نصوصا قرآنية واحاديثا نبوية للتاكيد على الوظيفة التى حددت للعناصر المعمارية (٢٨) وهو ما نجده فى العديد من المبانى الاسلامية الدينية والمدنية موضحا من خلالها أنه ينفذ تعاليم الله سبحانه وتعالى وأن هذه النعم من الله وحده .

ولذلك وجب وضعها فى غلاف معمارى يليق بهذه النعمة الاهلية . ونستشهد هنا ببعض الاسبله ومابها من نصوص قرآنية واحاديث نبوية تؤكد ماسبق أن ذكرناه بالنسبة لعلاقة الإنسان المسلم بالسقاية (٢٩) :

١ - سبيل الامير شيخو (أثر رقم ١٤٤ / ذى القعده ٧٥٥ هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٣٥٤م) .

بسملة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فى كل ذات كبد حراء اجر . وسئل صلى الله عليه وسلم : اى الاعمال افضل . قال : سقى الماء (٣٠) .

٢ - سبيل فرج بن برقوق بمسجده امام زويله (اثر رقم ٢٠٣ / مستهل ذو القعدة ٨١١ هـ / ١٨ مارس ١٤٠٩م)

سورة ٧٦ (الانسان) الآية ٢١ (الكلمتين الاخيرتين) :

«وسقاهم ربهم» (٣١)

٣ - سبيل قايتباى بالازهر (اثر رقم ٧٦ / شعبان ٨٨١ م / نوفمبر - ديسمبر ١٤٧٦م) .
بسملة : سورة ٧٦ (الانسان) اية ٢١ :
«وسقاهم ربهم شرابا طهورا»

٤ - سبيل قايتباى بمدرسته بالقرافة (اثر ٩٩/٨٧٧ - ٨٧٩ م / ١٤٧٢ - ١٤٧٤م) بسملة سورة ٧٦ (الإنسان) اية ٥ - ٧ :
«إن الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا»

٥ - سبيل يوسف الكردى (اثر ٢٣٠ / اوائل القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى) .
بسملة : سورة ٧٦ (الانسان) ايه ٥ - ٢٨

٦ - سبيل يوسف بك (اثر ٢١٩ / ١٠٤٤ م / ١٦٣٤م) .
بسملة : سورة ٧٦ (الانسان) ايهة ٥ - ٩ .
كذلك وجدت هذه الايات بالمزمله (المزيره) داخل الميانى الدينية (٣٢) .

وعلى هذا فقد اهتم المعمار المسلم بتشكيل هذه الوحدة المعمارية سواء من الداخل أو من الخارج ، وإن كان الاتجاه العام انصب بشكل اكبر على التشكيل الداخلى بالنسبة للحوائط والاسقف والارضيات مع التنوع فى استعمال الالوان والزخارف والحليات ضمن إطار من الوحدة ، التى أدت إلى صورة متكاملة متزنة.

لقد جاء المعمار المسلم بهذه الصورة الرائعة من خلال تعرفه الصادق على أيات القرآن الكريم التى استلهم منها عنصرا رئيسيا بالسبيل الا وهو السلسبيل .

وهنا نعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى فى وصف الجنة وعيونها ومعيشة الابرار بها : سورة ٧٦ (الانسان) اية ٥ - ١٨ :

بسم الله الرحمن الرحيم «إن الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ، يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا » «إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضره وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا، متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسا ولازمهريرا ، ويطاف عليهم بآنيه من فضة واكواب كانت قواريرا ، قوارير من فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا »

إن القرآن الكريم قد اخصب وأغنى واثرى فكر ووجدان المعمار المسلم (٣٣). فقد أشار السمهودى (٣٤) (مؤرخ المدينة فى القرآن التاسع الهجرى) إلى ماذكره ابن زبالة (مؤرخ المدينة فى القرن الثانى الهجرى) عندما شاهد اعمال الفسيفساء على حوائط المسجد النبوى خلال اعمال الاضافات على عهد الخليفة المهدى العباسى ، فكان جواب العمال عن المصورات :
«إنا عملناه على ما وجدنا من صور الجنة وقصورها»

كما دلت الحفريات بالرقه بسوريا - لمبان ترجع للقرن الثالث الهجرى - الى ظهور تكسيات بالارضيات تظهرها بشكل مسطح مائى . (٣٥) وهنا نعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى فى وصف قصر سليمان فى السورة ٣٧ : (النمل) اية ٤٤ :

«قيل لها ادخلى الصرح فلما راته حسبته لجة (سطح مائى) وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير (زجاج) .

وعلى هذا فقد زينت وصوفت الاسقف الخشبية بالسبيل (٣٦) بالالوان والزخارف والتذهيب ، كما غطيت الحوائط بوزرة من الرخام الملون وغطيت الارضيات بالرخام الملون فى تشكيل هندسى بديع

ويوجد اقدم نص معروف حاليا لانشاء سبيل فى دمشق وهو مؤرخ فى عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٧ - ٧٨م (٣٧) ، واقدم الامثله المعروفة الموجودة فى مصر هو سبيل الناصر محمد بن قلاوون (اقوش وارغون) (٣٨) .

وقد الحق السبيل فى العصر المملوكى بالمبانى الدينية ولاتوجد امثلة معروفة حاليا كانت ملحقة بالمنازل فى هذه الفترة (٣٩) . ولكنها وجدت ملحقة بالمنازل العثمانية (٤٠) .

ويوجد أعلى السبيل بشكل عام كتاب (مكتب السبيل) لتعليم الايتام حفظ القرآن والقراءة والكتابة، وجدت أسبلة قليلة لايعلوها كتاب . واقدم مثال موجود لسبيل يعلوه كتاب هو بمدرسة اسنبغا (اثر رقم ١٨٥ / ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م) ، إلا أن بعض المصادر تشير إلى سبيل يعلوه كتابا كان بجوار مسجد اقسنقر (اثر رقم ١٢٣/ ٧٤٧ - ٤٨هـ/ ١٣٤٦-٤٧م) ، (٤١) وإن كان النويرى قد أشار إلى أن قلاوون قد أنشا سبيلا يعلوه كتابا (٤٢) .

وقد يعلو السبيل سكن للمزملاتى أو قاعة لصاحب المبنى ، كما عين قراء لقراءة القرآن بالاسبلة والحق ببعضها ميضاة (٤٣) .

وقد وجد فى إحداها فى العصر العثمانى محراب مسطح وميضاه ويؤدى به الصلوات الخمس ويقوم أحد العاملين فيه بوظيفة الإمام . (٤٤) وقد استعمل سبيل السلطان محمود (اثر رقم ٣٠٨ - ١١٦٤هـ/ ١٧٥٠م) كصالة للدرس وقراءة القرآن ، كما الحقت مصلى بسبيل مصطفى سنان (اثر ٢٤٦ - ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م) (٤٥) .

ويلاحظ أن السبيل قد احتل موقعا مميزا من المبنى ونظمت به نوافذ بسنابل من البرونز بمسطحات تخالف تلك ببقية المبنى . وتجدر الإشارة هنا إلى أن تعدد النوافذ بالسبيل قد ارتبط بتحدد الواجهات المطلة على الطريق وإن ذلك لايمكن اعتباره تعددا فى النمط المعمارى للاسبلة (٤٦) ، حيث أن المقصود بإختلاف الانماط هو اختلاف المساقط من حيث جوهر واسس ومبادئ التصميم المعمارى وهو ما لم يمكن حدوثه بتعدد الفتحات .

كذلك لم يكن للسبيل اتجاها جغرافيا محددا كما أشارت إحدى الدراسات بأنه احتل الركن الشمالى الغربى من المبانى (٤٧) ، ولكنه فى الواقع احتل جزءاً مميزاً من الواجهة المطلة على الشارع بجوار

باب المدخل او ركن المبنى فى حالة وقوعه على شارعين وكان ذلك بهدف توفير خدمة افضل لعدد اكبر من المنتفعين بالسقاية .

ومن هذا كله يمكننا أن نقول بوضوح إن عمارة السبيل قد استلهمت عناصرها ومكوناتها من الوصف القرآنى للجنة وعيونها ، لبى فيها المعمار المسلم تعاليم القرآن الكريم وسنة نبيه الصادق الامين عليه الصلاة والسلام ، منفذا لاحد افضل الاعمال كخليفة الله فى ارضه ، إلا وهو سقى ابن السبيل وذلك من خلال عمل معمارى تميز بتشكيل متنوع متغير ولكن فى إطار من الوحدة الكاملة المتناسقة راعى فيها الاخلاص العمرانى للانماط التراثية سواء من ناحية الشكل أو المظهر معطيا فى الفراغ الداخلى تعبيرا ديناميكيا استوحاه من السور الكريمة التى تحدثت عن حركة الماء النازل من السماء والتى فجرت بالمعمار المسلم طاقات خلاقة مبدعه .

ملحـق :

نلحق بهذه الدراسة وصفا لاحد الاسبلة المملوكية : (سبيل فرج بن برقوق بمسجده امام باب زويلة (اثر ٢٠٣) - والذى تم افتتاحه فى مستهل ذو القعدة - ٨١١هـ/١٨مارس/١٤٠٩م) طبقا للنص على المبنى ونظام العمل به وذلك من واقع وثيقة السلطان فرج [٤٨] .

مقتطفات من وثيقة السلطان فرج بن برقوق

وصف السبيل :

١٠٨ - .... والباب الموعود بذكره أولا وهو الذى بالدهليز الأول على اليسره .

١٠٩ - مربع عليه باب من الخشب المدهون الملون المغلف بالنحاس المذهب والكتايب المذهبه بعتبة سفلى مرخمه وعليها حجرا من حجر الماء .

١١٠ - يدخل من الباب المذكور إلى حانوت السبيل ، وهو رواق مربع مفروش الارض باصناف الرخام الملون النفيس المثمن ، بوزره دايرة بها .

١١١ - الواح كبار من نفيس الرخام من السماقى والزوروزى والمرسينى والشحم واللحم وغير ذلك . وبه على اليمنه شاذروان [٤٩] مذهب بسلسبيل .

١١٢ - مذهب ، يعلوه قوصرة معقودة بدق الرخام الملون والفصوص الملونة والنحاسين المدهشة والعروق الخطاى ، وبه عدة من السباع .

١١٣ - المعمولة من النحاس المموه بالذهب المعمولة برسم نزول الماء إلى الشاذروان . سفل الشاذروان المذكور صحن من المرمر الابيض برسم الماء . يعلوا ذلك .

١١٤ - كله انواع النقوش المنشرحة برؤيتها النفوس . وبجانب الحانوت المذكور شباكان كبيران بسنابل غلاظ من النحاس المذهب ، أحدهما مطل .

١١٥ - على الطريق من الجهة القبلية ، والثانى مطل على الطريق مقابلة لبابى زويلة فيه خلع باب صغير وفى هذه الجهة يسبل الماء .

١١٦ ـ ويجلس السقاء . وامام كل شباك منها الحجر المحمول على الكباش الحجر البارزة المعدة لوضع الأوانى . ويغلق على كل من الشباكين .

١١٧ ـ المذكورين زوجا باب خشب مدهون بالدهان والتذهيب . وهو مسقف بالسقف المذهب المقرنص بسيالات مذهبة وفى .

١١٨ ـ هذا الحانوت من حسن الصناعة والتذهيب والرخام والتصويق ما تسر النفوس برؤيته وتذهب.

١١٩ ـ بالظما بهجته . قد زاد بالحسن والاحسان ، واستقر به البرطول الزمان ويسفل ذلك وما جاورة

١٢٠ ـ بناء الصهريج المبنى فى تخوم الارض بالطوب الآجر والمونة المحكمة المعد لاستقرار الماء به ، وهو .

١٢١ ـ المذكور اعلاه

الوظائف ونظام العمل بالسبيل :

٤٣١ ـ واما الصهريج المذكور باعاليه .

٤٣٢ ـ فانه وقفة لاستقرار الماء الحلو المحمول اليه من بحر النيل المبارك ليسبل على المسلمين اسوه أمثاله من .

٤٣٣ ـ الصهاريج . والحانوت المذكور اعلاه الموصوف ايضا باعاليه فانه اوقفه لوضع الاوانى المعدة لتسبيل .

٤٣٤ ـ الماء واستقرار ما به من الازيار والكيزان وغير ذلك ، وان يسبل الماء طول النهار ، وطرفى الليل .

٤٣٥ ـ فى شهر رمضان ، ولجلوس السقا المقام لذلك اسوه امثاله من حوانيت السبيل ، ويزيد غسلها (؟) .

٤٣٦ ـ فى السبيل المذكور طول النهار ، واما بقية الاراضى والاماكن المذكورة اعلاه ، فمنها .

٤٣٧ ـ مكتب السبيل الموصوف اعلاه فانه وقفة على ان يجلس به مؤدب الايتام الاتى ذكره فيه والايتام .

٤٣٨ ـ الاتى ذكرهم حالة الاشتغال بكتاب الله وتعليم الخط وجعله اسوه امثاله من مكاتب السبيل على .

٤٣٩ ـ العادة .

السقا بالسبيل

٦٠٣ ـ ويرتب الناظر رجلا خيرا حسن الخلق ذا قوة وامانة وجوده يقيمه بحانوت السبيل العالى على

٦٠٤ ـ فوهة الصهريج الكائن بخط بابى زويلة الشارع على الطريق العظمى المذكور اعلاه على ان يتولى .

٦٠٥ ـ السقاء المذكور نشل الماء من الصهريج ووضعه فى الاوانى لسقيه الناس وغسل الاوانى المذكورة .

٦٠٦ ـ وتنظيفها وصونها من الدبيب والهوام وحشاش الارض بالتغطية وتنظيف المكان المذكور وكنسة .

٦٠٧ ـ ومسحه وازالة اوساخه وملى الآنية والكيزان ووضعها بمواضعها المعمولة لها وارصادها للشاربين .

٦٠٨ ـ واعادة ملى ما يتفرغ منها وتسهيل المشرب على الناس ويعاملهم بالرفق وحسن الخلق ليكون ابلغ فى .

٦٠٩ ـ ادخال الراحة على الواردين ، ويجلس لذلك من وقت الضحى الى الغروب فى كل يوم ، وفى رمضان .

٦١٠ ـ من قبل الفطر الى العشاء الاخره ، ومن قبل الفجر الى الفجر بحيث تكون صدقة دائمة وحسنة مستمرة .

٦١١ ـ طول النهار . وجعل الله صدقات واقفها على الابد جارية وملكه على الدوام ولا جعل الدنيا عنه خالية .

٦١٢ ـ ويصرف الناظر للسقاء المذكور مايرى صرفه مما يكفيه . ويصرف الناظر فى كل سنة فى ايام (التسبيل ؟) ما .

٦١٣ ـ يحتاج الى صرفه فى ملى الصهريج المذكور من ماء النيل المبارك وفى ثمن جملين ظهيرين وعده من روايا .

٦١٤ ـ وقرب وعدد برسم حمل الماء الى الصهريج المذكور من بحر النيل المذكور بطول السنة على الدوام ، وفى .

٦١٥ ـ كلفة الجمال المذكورة واجرة عمال مايرى صرفه من مال الوقف المذكور بحيث يكون العمل مستمرا ونقل الماء من

٦١٦ ـ البحر الى الصهريج دائما لاينقطع ، ومن مافنى من ذلك اشترا الناظر عوضه على ذلك . كذلك

٦١٧ ـ ويصرف الناظر ايضا من مال الوقف المذكور مايرى صرفه فى ثمن فرش للجامع والمسجد ومكتب السبيل .

٦١٨ ـ وزيت للوقود وقناديل وسلاسل وعبى للمسح وسفنج واوانى للسبيل وبسط كل مكان بما يليق به على عادة امثاله .

٦١٩ ـ وما يقتضيه العرف فى ذلك وعادة الزمان وثمن شمع فى رمضان وزيادة زيت الوقود على العادة فى الشهر المذكور .

الهوامش

١ ـ الموسوعة الثقافية : أشراف حسين سعيد (دار الشعب / القاهرة ١٩٧٢م) ٨٦٧.

2 - Encycl. Britanica: Micropeadia 1XX (London 1982) [15] 633.

٣ ـ ولد عام ٦٢٤ ق م ، توفى عام ٥٤٥ ق م عن عمر يناهز ٧٨ عاما .
Encycl. Britanica: Micropeadia 1X (London 1982) [15] 919.

4 - Encycl. Britanica: Micropeadia X1X (London 1982) [15] 633.

5 - Helk, W. + Otto, E: Lexikon der Agyptologie 1 (Wiesbaden 1972) 872 - 3.

٦ ـ حديث مع كل من الباحث الدكتور كولمان بالمعهد الألمانى للآثار بالقاهرة والدكتور ياريتز بالمعهد السويسرى للاثار بالقاهرة .

7 - Porada, E. : Alt - Iran (Germany 1979) [2] 42 - 44.
فرج بصمجى : كنوز المتحف العراقى . مديرية الآثار (بغداد ١٩٧٢م) ١٨ .

8 - Fletcher, B. : A History of Architecture (London 1950) [15] 51, Fig. c & 58.

٩ ـ استقراطى يونانى ساهم فى تطوير مدينة اثينا . توفى عام ٥٢٧ ق م .

9 - Encycl. Britanica: Micropeadia VII (London 1982) [15] 836.

10 - Müller, W. + Vogel, C. : dtv - Atlas zur Baukunst 1 (München 1974) 179.

11- Encycl. Britanica: Micropeadia X1X (London 1982) [15] 645 - 9.

12 - Müller, W. + Vogel, C. : Dtv - Atlas zur Baukunst 1 (München 1974) 244.

13- Encycl. Britanica: Micropeadia X1X (London 1982) [15] 648 - 9.

14 - Fletcher, B. : A History of Architecture (London 1950) [15] 198 - 9.

15 - Fletcher, B. : pid, 199.

16 - Ciedion, S. : Architektur und das Phanomen Des Wandels (Tübengen 1969) 206, fig. 141, 148, 150.

17 - Fletcher, B. : ibid, 199.

18 - Fletcher, B. : ibid, 568, 65.
Pevsner-Fleming-Honour: Brunnen. lexikon der Welt Architektur (München 1971) 77.

19 - Michell, G- (ed.): Architecture of the Islamic World: its History and social Meaning. (London 1984) 2 19, 97, 173, 174.

20 - Ardalan, N. + bakhtiar, l..: the Sense of Unity (Uni. Chicago press 1973) 58 - 60.

٢١ ـ ابن كثير : تفسير ابن كثير ، المجلد السادس (دار الشعب / القاهرة ١٩٧١م) ٧٩ ـ تحقيق عبد العزيز غنيم ، محمد عاشور ، محمد البنا .

٢٢ ـ ابن كثير : تفسير ابن كثير ، المجلد الرابع (دار الشعب / القاهرة ١٩٧١م) ٦٤. نزلت هذه الآية فى العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر .

٢٣ ـ ونسنك : المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى الشريف ، الجزء الثالث (ليدن ١٩٥٥م) ٢٩١ .

٢٤ ـ ونسنك : المصدر السابق ، الجزء الثانى (ليدن ١٩٤٣م) ٤٠٥ .

٢٥ ـ ونسنك : منسنج : المصدر السابق ، الجزء الثانى (ليدن ١٩٤٣م) ٢٧٠ .

٢٦ ـ ابن كثير : تفسير ابن كثير . المجلد الاول (دار الشعب / القاهرة ١٩٧١م) ١٠٠ – ١٠٣ .

٢٦ ا ـ عن كلمة سبيل انظر :

Lane, E. W. : An Arabic-English Lexicon I (London 1872) 1301 -3.
Dozy, R. : Supplément aux Dictionnaires Arabes 1. (Beirut 1981) 2 629 - 30
Encyklopädia des Islam IV (Leiden - Leipzig 1934) 23 - 4 .

27 - Sophie Ebeid : Early Sabils and their standardization.
Thesis for M. A. (not publ.), Dept. of Arabic Studies, AUC (Cairo 1976) 9 .

28 - Grabar, O. : The Alhambra (Britan 1978) 100.

٢٩ ـ للنصوص القرآنية والاحاديث على المبانى التاريخية والاثرية :

Van berchem, M : Matéraux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, premiere : Egypte 1, Le Caire MMAFC XIX / 1- 4 (le Caire 1894 - 1903).
Combe + Sauvaget + Wiet : RCEA : répertoire chronologique d'Epigraphie arabe, IFAO : 16 vol . (Le Caire 1931 - 1964).

٣٠ ـ ونسنك + منسنج : المعجم المفهرس لالفاظ الحديث الشريف الجزء الثانى (ليدن ١٩٤٣م) ٤٨٥ .
يرجح ان يكون هذا المكان حوضا لشرب الدواب لارتباط نص الحديث بسقاية الحيوان .

31 - Lamei, S. : Moschee des Farag ibn barqùq in Kairo, DAIK, Islamische Reihe III (Glükstadt 1972) 39.

٣٢ ـ حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ، الجزء الاول (القاهرة ١٩٤٦م) ٢٥٣ .

٣٣ ـ مصطفى نجيب : المزملة كمورد لمياه الشرب بمنشاءات القاهرة فى العصر المملوكى .
مجلة كلية الاثار / العدد الثانى ١٩٧٧ (جامعة القاهرة ١٩٧٨م) ١٥١ ـ ١٥٦ .

٣٤ ـ محمد قطب : منهج الفن الاسلامى (دار الشروق / بيروت ١٩٨١م) ٩٠ ، ١١٨ ، ١٤٦ .

٣٥ ـ صالح لمعى : المدينة المنورة ـ تطورها العمرانى وتراثها الحضارى (بيروت ١٩٨١م) ٧٠ .

36 - Grabar, O. : The Alhambra (G. Britan 1978) 129.

٣٧ ـ وجدت اسبلة فى امثلة نادرة بسقف حجرى : سبيل خايربك بمسجده (اثر رقم ٢٤٨ ـ ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م) وله سقف قباب كروية منخفضة وسبيل ملحق بقبة طراباى الشريفى بقبو مروحى (اثر ٢٥٥ ـ ٩٠٩هـ/١٥٠٣م) .
(محمود الحسينى : الاسبلة فى العصر العثمانى ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الاثار / قسم الاثار الاسلامية (جامعة القاهرة ـ ١٩٨٢م) ١٣ .

38 - Combe + Sauvaget + Wiet : RCEA: VII , no. 2721 (Le Cairo 1956) 203 - 4 .
حسنى نويصر : مجموعة سبل السلطان قايتباى . رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب – قسم الاثار الاسلامية (جامعة القاهرة ـ ١٩٧٠م) .

أشارت صوفى عبيد خطأ إلى ان أقدم نص مؤرخ فى ٧٠٣هـ/١٣٠٣م فى حلب .
Sophie E. : Ibid (1976) 7 .

٣٩ ـ عن هذا السبيل :

Sophie E. : ibid (1976) 11 - 25.

٤٠ ـ حسنى نويصر : المصدر السابق (١٩٧٠ م) ٠٨.

٤١ ـ محمود الحسينى : المصدر السابق (١٩٨٢ م) ١٣ ،

٤٢ ـ ماكس هرتس : دليل دار الاثار العربية (مصر ١٣٢٨ هـ) ١٤ .

٤٣ ـ حسنى نويصر : المصدر السابق (١٩٧٠ م) ٠٦

٤٤ ـ حسنى نويصر : المصدر السابق (١٩٧٠م) ١١ ,١٨, ١٠٧ .

٤٥ ـ محمود الحسينى : المصدر السابق (١٩٨٢م) ٥١ .

٤٦ ـ حسنى نويصر : المصدر السابق (١٩٧٠م) ١٣ .

47- Sophie, E. : ibid (1976) Abstract III.

48- Lamei, S. : ibid (1972) 49.
الوثيقة محفوظة حاليا بدار الوثائق القومية تحت رقم ٦٦/ ١١ وهى مؤرخة فى ٧ المحرم ٨١٢هـ/٢٢ مايو ١٤٠٩م وكانت قبل ذلك محفوظة بمحكمة شبرا للاحوال الشخصية .
عن الوثائق انظر : محمد امين : فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك ـ المعهد العلمى الفرنسى للاثار الشرقية (القاهرة ١٩٨١م) ١٦ .

٤٩ ـ شاذروان :

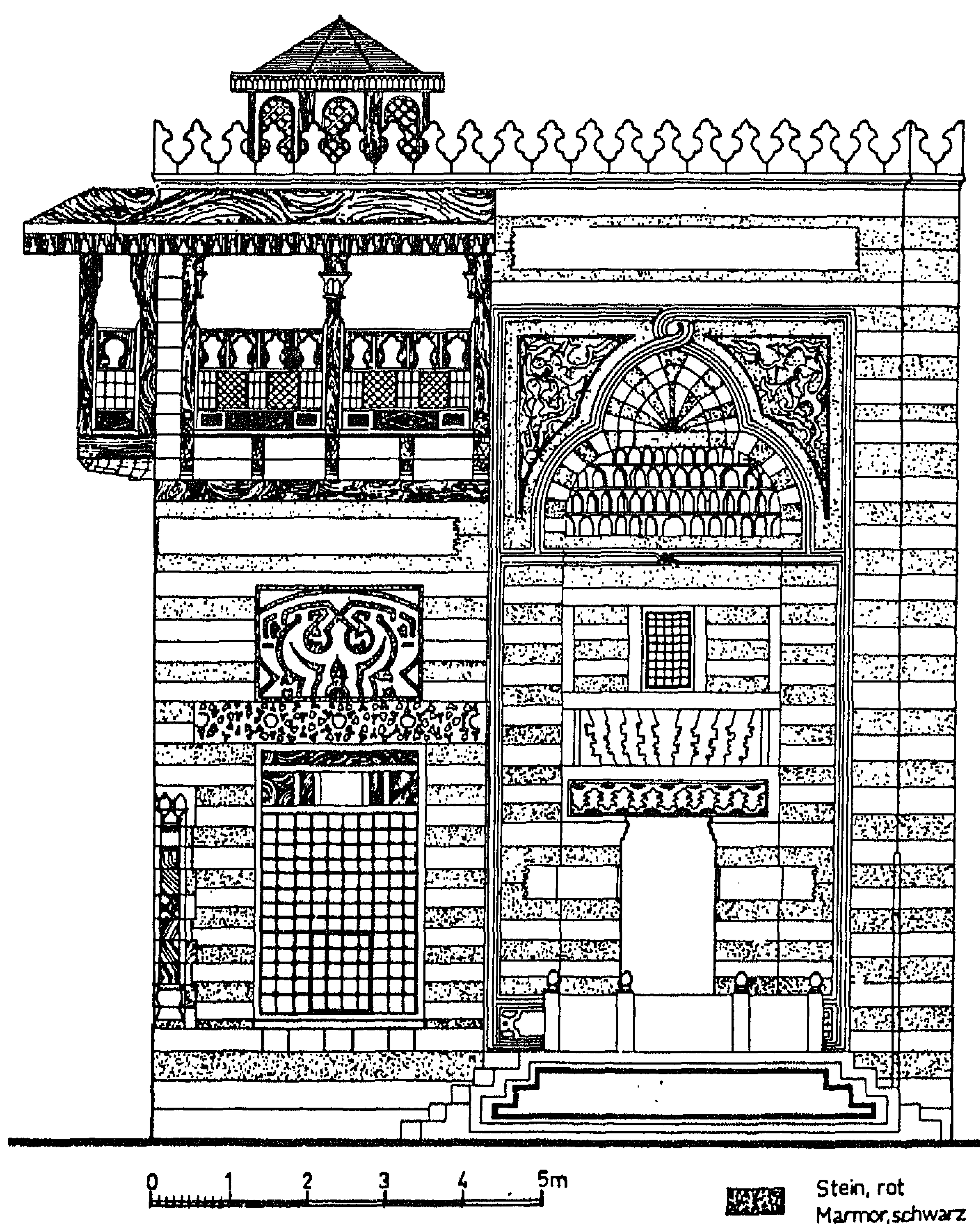
Dozy, R : Supplement aux Dictionnaines Arabes I (Beirut) 2 715.
Steingass, F: The Comprehensive Persian-English Dictionary (Beirut 1975) 3 722.

محمد التونجى : المعجم الذهبى (بيروت ١٩٨٠م) ٣٦١ .

Sophie, E. : ibid (1976) 84 - 92.

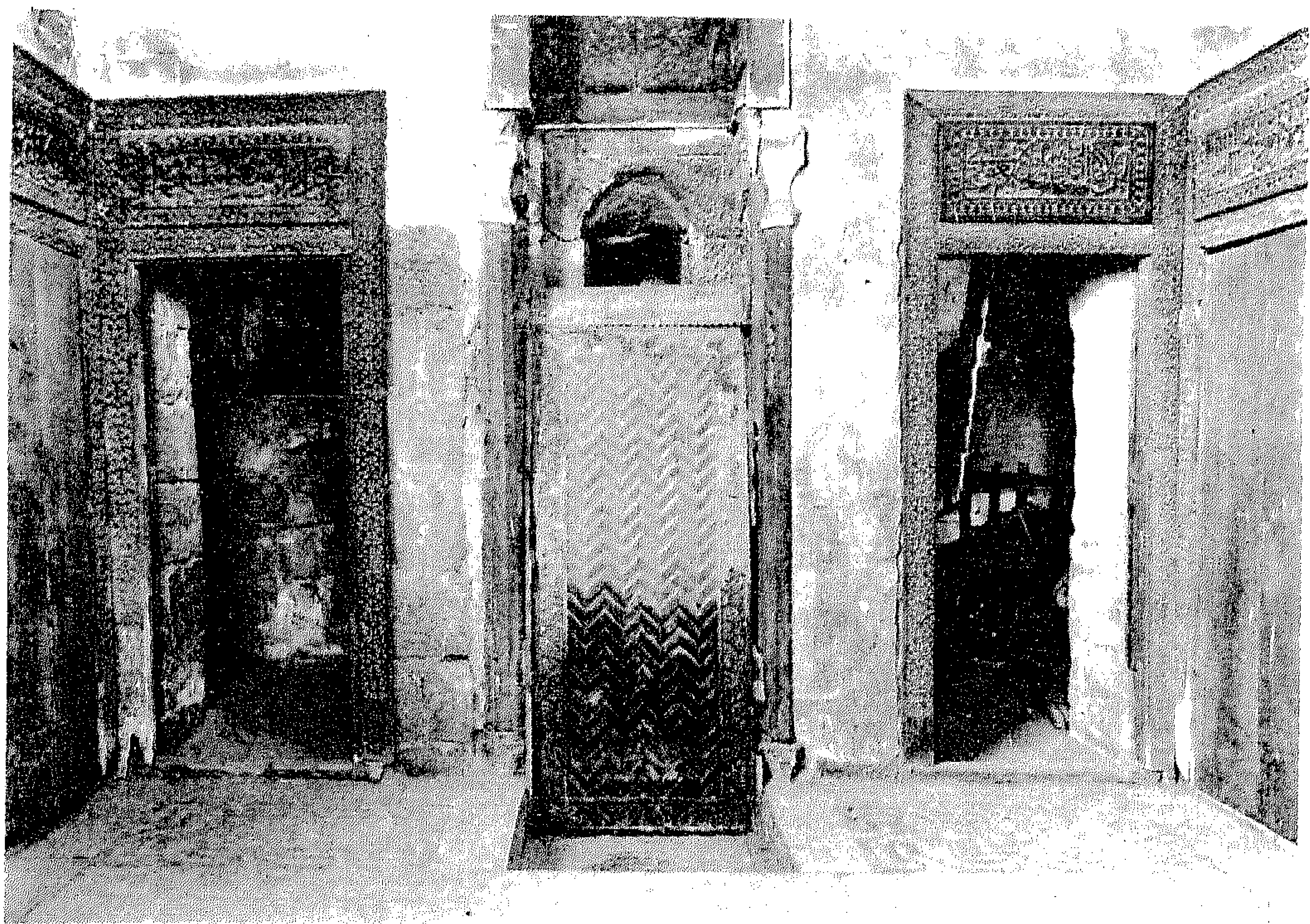
* * *

١- مسجد فرج بن برقوق - المسقط الأصلى
(LAMEI)



٢– مسجد فرج بن برقوق الواجهة الشمالية الأصلية (LAMEI)
٨١١ هـ / ١٤٠٩ م

٣- لوحة ٦٤ – قبة وسبيل الغوري – مسقط السبيل (LMBI)
٩٠٩ – ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ – ١٥٠٥م



سبيل الغورى ـ الشاذروان والسلسبيل



سبيل الغورى ـ تفاصيل الأرضية



سبيل الغورى ـ تفاصيل السلسبيل

دراسة معمارية واثرية
عن كنائس واديرة اخميم

للاب الراهب صموئيل السورياني

تلاحظ أن لكنائس أخميم طابعها المعمارى الخاص كذلك طريقتها الخاصة فى المبانى وإن كانت هذه الكنائس ترجع للقرن ١٥/١٧/ الى انه توجدبينها كنيستان من عصر أقدم وهما دير الانبا بساده شرق المنشاه ودير الانبا باخوم حنالوشام بالصوامعة شرق

كنائس أخميم عبر التاريخ

١- وقد ذكر فى سيرة الانبا باخوميوس أب الشركة أنه أنشأعدة أديرة فى صعيد مصر ومن بينها منطقة أخميم ولاتزال ترى فى بعض الاديرة بعض زخارف أو تيجان ترجع الى عصور قديمة.

٢- ثم يأتى أبو المكارم (الذى نسب خطأً الى أبى صالح الأرمنى) فيذكر أنه كان بأخميم سبعون بيعة فى سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) (٢) ويذكر أيضا نفى نسطور الى أخميم (٣) ولايزال يعرف تل أخميم بتل نسطورحتى الآن . ويذكر ديرأبو حلبانه شرق أخميم وأن عليه عين ماء تجرى من الجبل الى فسقية هناك (٤) وهذا الوصف يناسب العين التى تجرى بجوار أثار دير السبع جبال شرق السلامونى شرق أخميم . كما يذكر أيضا دير الحميدات (٥) فى المنطقه وهو غالبا منطقة نجع الشيخ عبد الغنى الحميدى بنجع الدير جنوب أخميم شرق جرجا ويذكر أيضا دير أبو بشونة صاحب الدير بأخميم (٦) ولانعرف له أثرالا اذا كان موجودا باسم أخر .

٣- ويذكر المقريزى فى خططه الجزء الرابع دير السبعه جبال بين الشاهقة وهو غالبا الدير بجوار العين شرق السلامونى ويذكرايضا دير قرقس على مسافة ثلاث ساعات من دير السبعة جبال وغير معروف حاليا . ودير الملاك وسماه دير صبره ولم يكن فية وقتة غير راهب واحد . ودير الانبا بسادة وسماه ديرأبى بشاده وذكران فى غربيه منشأه أخميم التى هى المنشأه حاليا . كماذكرالمقريزى أيضا فى أخميم كنيسة أسبوطيرومعناه المخلص وكنيسة مخائيل وان لم يكن هناك فى كنائس أخميم كنيسة حالية بهذا الاسم انما يصح أن تكون كنيسة أسبوطير قد تغير اسمها الى كنيسة أبى سيفين أقدم كنائس أخميم .

٤- ويذكر سيكار الذى زار مصر من١٧١٢-١٧٢٦م أنه توجدبأخميم كنيسة تعد من أجمل وأنظف كنائس مصر كلها ولعها كنيسة أبى سيفين الحالية (٧).

٥ - كما ذكر فى وصف مصر للحملة الفرنسية دير الشهداء وإن لم يكن هناك وصف له وانما وصف دير يطلق عليه دير المعدود من عدة مغارات وكنيسة مبنية يشابه فى وضعه آثار دير السبعة الجبال شرق السلامونة (٨) .

الخصائص المعمارية لكنائس وأديرة نواحى أخميم

نظام الهياكل والحجرات الجانبية :

فى الشرق يوجدعادة الهياكل الثلاثة بين حجرتين جانبيتين مستطيليتين. الثلاث هياكل عادة دائرية لكن أعمق قليلا من نصف دائرة . الهيكل الأوسط أعرض قليلا من الهياكل الجانبية أما الصحن فمقسم الى خمسة بواكى من الشمال الى الجنوب وباكيتين من الشرق الى الغرب حيث لا نرى هذا التقسيم فى أماكن أخرى فى مصر

المداخـل :

ست كنائس من أديرة أخميم يقع مدخلها فى منتصف الحائط الغربى أمام الهيكل الاوسط وبعض الكنائس لها مداخل جانبية فى الحوائط البحرية والقبلية .

الحجرات الجانبية والممر الشرقى (الضفير) :

فى كثير من كنائس أخميم (الملاك . العذراء . الحديدى . الست دميانة) نرى ممر مغطى بقبو يقع خلف الهياكل بين الهياكل والحائط الشرقى للاديرة ويكون مدخله من الحجرات الجانبية للهياكل. (ويسمى حتى الان بالضفير) .

الهياكل المضافة :

يوجد بعض الهياكل المضافة للمبانى القديمة للكنيسة الاصلية حيث نرى فتحات شبابيك بين الكنيسة الاصليةوالهياكل المضافة مثل (الملاك . العذراء. الحديدى . أبوسيفين)وأحيانا نرى الهياكل المضافة بدون فتح شبابيك بل إزالة الحائط كليةوضم الهياكل الجديدة كلية للكنيسة مثل (باخوم. الشهداء . دميانه. بسادة . نجع الدير.)

الكنائس ذات الحنيات الثلاث :

يظهر بوضوح أن كنيسة الانبا باخوم وكنيسة الانبا بسادة أقدم من الكنائس الاخرى ولايزال يرى أثار الهيكل ثلاثى الحنيات triconch وقد أخذ هذا الشكل من الانبا شنودة«الدير الابيض» ودير الانبا بيشاى «الدير الاحمر»بسوهاج بنفس المنطقة .

الكنائس القصيرة :

ممكن مقارنة كنيسة الانبا توماس بالكنائس القصيرة فى وادى النطرون التى يكون صحنها بلاجناحان والصحن مساو للخورس والهياكل الثلاث المعتادة بنفس العمق انما أقل فى العرض والمثل الواضح لذلك فى وادى النطرون هو كنيسة الست مريم بالسريان.

الحينات الزخرفة للهياكل :

نرى الحلات الدائرية التى تزخرف الحائط المستدير للهياكل فى معظم (الملاك . الشهداء . العذراء الحديدى. أبوسيفين . الست دميانة) وهذا المشكل مأخوذ من الامثلة المماثلة فى دير الانبا شنودة ودير الانبا بيشاى ودير أبوحنس ودندرة وأرمنت ولكن فى شكل أبسط .

الثرونوس فى الحنية الوسطى فى الهيكل الرئيسى :

الثرونوس هو كرسى الاسقف ومكانة في الحنية الشرقية فى الهيكل الاوسط مرفوع عن أرضية الهيكل حوالى سبع درجات ونرى ذلك فى أمثلة (الحديدى . أبو سيفين . الست دميانة)

حوض اللقان :

ويستعمل فى خميس العهد وعيد الرسل وعيد الغطاس (ان لم يكن يوجد مغطس) ونراه فى كنائس أخميم ليس فى مكانة المعتاد فى منتصف الصحن وانما نراه فى الجزء الغربى من الجناح القبلى (أمثلة : أبوسيفين . الانبابسادة)

حوض المغطس :

ونرى فى دير الملاك بنجع الدير حوض مغطس كبير حوالى ٢×٢م وبدلامن أن نراه فى النهايه الغربية للكنيسة نجدة فى مبنى منفصل مماثل للمغطس الموجود فى دير القديسين بطود بأرمنت ودير الانبا بضابا بزيلنتى بنجع حمادى ودير المجمع بنقادة .

القبة الوسطى :

فى كل كنائس أخميم نرى قبة وسطى أمام الهيكل الاوسط محمولة على كوابيل وحنيات ركنية وهى أعلى من باقى القباب المنخفضة المحمولة على مثلثات كروية أما الباكيات الجانبية فمغطاة بقبوات ووضع هذه القبة يعطى وضع لهذا المنطقة التى تسمى احيانا بالخورس الأول .

الطوب الاحمر والاسود :

نرى فى خمس كنائس من هذه المنطقة (أ بوسفين . الست دميانة . الملاك . العذراء . الحديدى) زخرفة بالطوب الاحمر والاسود فى الاعمدة والعقود والقباب ربما تشير الى دماء الشهداء التى سفكت وربما غطت حوائط وأعمدة الكنيسة .

الحجاب :

بعض هذه الكنائس لها حجاب من الطوب والبعض له حجاب خشبى بزخارف هندسية . فى معظم الاحوال نرى باب فى المنتصف وشباكين على الاجناب . أما الكنائس الاقدم فنرى فى الوسط شباك وعلى جانبيه بابين (انبا باخوم . أنبا بسادة . الشهدآء) .

الحصون :

لم نر أى أثر لأى حصن فى أديرة أخميم وذلك واضح لقربها من الريف .

ديرتوماس

الموقع : يقع ديرتوماس ٥ كم شمال الصوامعة شرق ولا توجد أى أثار أخرى باقية من الدير سوى الكنيسة .

المدخل : ندخل الكنيسة من الفناء الخارجى من باب فى الجزء القبلى من الحائط الغربى الى ممر مقسم بعقد كبير الى قسمين كل قسم مغطى بقبة منخفضة على مثلثات كروية . توجد حجرتان ممرها بحرى . الحجرة الشرقية لها باب وشباك على صحن الكنيسة والحجرتان مغطاتان بقبة على مثلثات كروية .

جسم الكنيسة : مستطيل والاستطالة من الشمال الى الجنوب وهو مقسم الى صحن وجناحين الصحن مغطى بقبة على كوابيل وحنيات ركنية bracketsad squinchies والاجنحة مغطاه من الشرق الى الغرب.

الخورس : يتصل بالحصن بعقد ضخم ويتصل بالاجنحة بأبواب صغيرة وانفصاله عن الصحن ربما يرجع الى نفس المثلة الموجودة فى وادى النطرون ويتكون الخورس من قبة فى المنتصف وانصاف قباب الحنيات الكبيرة apses فى الشمال والجنوب .

الهيكل : الاوسط نصف دائرى به ثلاث حنيات مستطيلة تزخرف الجزء الشرقى منه أما الحجرتان الجانبيتان فهما أقل فى العرض مغطى بقبة منخفضة على مثلثات كروية ولا توجد فتحات بين الهيكل الاوسط والحجرات الجانبية وتوجد معمودية فى الحجرة القبلية .

دير الانبا باخوم وضالوشام أخته بالصوامعة شرق

الموقع : يقع الدير فى الجزء البحرى من قرية الصوامة ٨كم شمال أخميم والكنيسة هى الجزء الوحيد الباقى من دير الانبا باخوم وواضح أن المبانى مرت بثلاثة عصور ، أقدم جزء هو الهيكل الثلاثى الحنيات يماثل الدير الابيض والدير الاحمر بسوهاج وكانت الكنيسة غالبا بسقف خشبى ثم تحولت الى كنيسة ذات قباب مع اضافات حديثة فى الغرب والشمال . وجود الهيكل ذو الثلاث حنيات الكبيرة يعطيها عمرا قديما يرجع الى القرن ٧ بمقارنتها بالكنائس ثلاثية الحنيات .

الجزء الشرقى : الحنيات الشرقية والقبلية بأنصاف القباب أعلاهما لا تزال موجودة لكن الحنية البحرية اختفت . الحنيات الكبيرة apses مزخرفة بحنيات بجمالون منكسر broken gabled nich مأخوذ من المماثل له بالدير الابيض والدير الاحمر أما الحجرة الجانبية الاصلية قبلى الهيكل فهى لاتزال موجودة .

الخورس وجسم الكنيسة : سقف الكنيسة مغطى معظمه بالقباب المنخفضة على المثلثات الكروية لكن الباكية الوسطى مغطاة بقبة على كوابيل وحنيات ركنية محمولة على دعامات داخلها دعامات أقدم وهذه الدعامات تفصل الخورس عن الصحن . والدعامات االمدفونة الصغيرة تشير نوعا ما الى الكنيسة القديمة ذات السقف الخشبى . جزء آخر من الاكتاف لا يزال يرى فى الحائط الغربى من الكنيسة الخارجى أما عقب باب الفناء الخارجى للكنيسة فهى قطعة فرعونية معاد استخدامها . ولوح الرخام فوق المذبح فله شكله المميز وحوض المعمودية فى الركن القبلى من الكنيسة.

الإضافة البحرية : الجزء البحرى من الكنيسة مضاف حد يثا به هيكل فى الشرق . البحرى به حنيه دائرية فى الشرق وحنية مستطيلة عميقة فى الحائط البحرى .أما الاجنحة التى تقود الى هذه الهياكل فتتكون من أربعة بواكى مقسمة بعمود مستدير من الطوب يحمل العقود والقباب المنخفضة أما الهيكل القبلى فمحمولة على كوابيل وحنيات ركنية توجد حنية عميقة فى الجزء الغربى من الحائط البحرى كانت قديماً باب يرى بوضوح من الخارج .

دير مارجرجس الحديدى

الموقع : يقع الدير على تل صغير فى قرية قبطية ٨ كم جنوب أخميم على الطريق الاسفلتى الشرقى الى نجع حمادى . السور الخارجى المحيط بالدير داخله بعض المنازل الصغيرة وتقع كنيسة مارجرجس فى الجزء الشرقى داخل السور . والكنيسة لها باب فى منتصف حائطها الغربى ولها بابان جانبيان للكنائس الجانبية الصغيرة .

الجزء الشرقى: الكنيسة لها ثلاث هياكل ذو حنيات دائرية apses أعمق قليلا من نصف دائرة والهيكل الاوسط أعرض قليلا من الاخرين . فى الحنية الوسطى يوجد الثرونوس (عرش أو كرسى

الاسقف) يرتفع ٧درجات وكل هيكل مزخرف بخمسة حنيات صغيرة دائرية كما توجد فتحات بين الهياكل بعضها البعض وبينها وبين الحجرات الجانبية ولكل هيكل حجاب من الطوب كل له باب وشباكين جانبيين .

الحجرات الجانبية : بحرى وقبلى الهياكل توجد حجرتان جانبيتان مستطيلتان كل مغطى بقبو. الحجرة البحرية بها المعمودية وباب يقود الى الكنيسة الجانبية القبلية ولكنة مسدود حالياً . كل من الحجرات الجانبية له باب يدخل الى ممر طويل مغلق يمر خلف الهياكل والهياكل المضافة ولكنه مقطوع ببروز الثرونوس الخارج من الهيكل الاوسط . الحائط القبلى للممر البحرى من الطوب النى والممرات الخلفية مضاءة بثقوب صغيرة فى أعلى القبوات .

كنيسة أبو سيفين

الموقع : تقع الكنيسة فى قلب مدينة أخميم قرب مركز الشرطة . وهى مبنية فوق تل أثرى قديم يطلق علية تل نسطور حيث ذكر فى تاريخ البطركة لساويرس بن المقفع ان نسطور نفى الى هناك حيث دفن .

المدخل : تقع الكنيسة فى مستوى ٦متر تحت منسوب الشارع ولها مدخل واحد أمام الهيكل الاوسط . وربما كان لها مدخل غربى آخر تحول الان الى شباك ربما كان لها باب آخر فى الحائط البحرى اختفى بعد بناء الكنيسة الجديدة التى بنيت بحرى الكنيسة القديمة .

الهياكل : الكنيسة لها ثلاث هياكل نصف دائرية أعمق قليلا من نصف دائرة والهيكل الاوسط أعرض من الهياكل الجانبية وله ثرونوس نصف دائرى (لكرسى الاسقف)أعلا السلالم . والثلاث هياكل لها حنيات دائرية تزخرف الحائط المستدير ولكل هيكل حجاب خشبى مزخرف برسومات هندسية بباب فى النصف وشباكين جانبيين والحجاب البحرى علية تاريخه منذ حوالى ١٠٠سنة .

الحجرات الجانبية : الهيكل القبلى له حجرةجانبية وربما كان للهيكل البحرى حجرة جانبية مماثلة اختفت بعد الكنيسة الجديدة التى للا نبا أنطونيوس والانبا بولا بحرى الكنيسة القديمة . ويوجد باب يصل الهيكل البحرى للكنيسة القديمة بالهيكل القبلى للكنيسة الجديدة . لا يوجد حاليا معمودية فى الكنيسة القديمة ، ربما كانت موجودة فى الحجرة الجانبية البحرية التى اختفت والمعمودية الجديدة الحالية تقع فى الحائط الغربى للكنيسة الجديدة قرب السلم .

جسم الكنيسة : يتكون من أربعة بواكى من الشمال للجنوب وباكيتين من الشرق للغرب مقسمين بواسطة ثلاثة أعمدة دائرية من الطوب أحدهم محاط بمبانى للتقوية . الباكيتان أمام الهيكل الاوسط مغطاة بقباب على كوابيل وحنيات ركنية مع وجود شبابيك مفتوحة أسفل القبتين . أ ما البواكى الجانبية مغطاة بقباب منخفضة محمولة على مثلثات كروية الحجرة الجانبية القبلية مغطاة بقباب فقيرة الانشاء .

جميع الاعمدة والعقود والقباب مبنية بطوب محروق ملون أحمر وأسود فى تقسيمات هندسية لكن باقى الكنيسة مبيض ومدهون بالجير .

اللقان : في منتصف الباكية التى على يمين باكية المدخل الاوسط يوجد اللقان المستدير قطره ٤٥سم وله أربعة اذان لحملة وهو يستعمل فى لقان خميس العهد وعيد الرسل والغطاس .

كنيسة الست دميانة

الموقع : تقع الكنيسة فى الجزء البحرى من البلد قرب سوق أخميم . يتكون المبنى من كنيستين الكنيسة البحرية هى الأقدم للست دميانة القبلية للسيدة العذراء .من الفناء ندخل الى ممرعلى اليمين كنيسة السيدة العذراءوفى الامام كنيسة الست دميانة التى يقع مستواها أقل ٥٠سم من مستوى ارضية كنيسةالسيدة العذراء .

الهياكل : الكنيسة لها ثلاث هياكل الهيكل البحرى نصف دائرى له خمسة حنيات صغيرة دائرية تزخرف الحائط المستدير أما الهيكل الاوسط والهيكل القبلى فشكلهما غير منظم . الهيكل الاوسط له ثرونوس (عرش: كرسى الاسقف) ذو السلالم مثل الموجود فى كنيسة أبى السيفين بنفس البلد وهو حاليا مغلق بحائط ولكن رؤيتة ممكن من أعلى سطح الكنيسة . الهيكل القبلى كان له خمسه حنيات دائرية مزخرفة حائطها المستدير مزخرف واحد منها فقط لايزال موجودا

الحجرات الجانبية : قبلى الهياكل الثلاثة توجد حجرة جانبية مستطيلة تحوى المعمودية كما توجد أثار لحجرة جانبية البحيرة ولاتزال ترى بعض بقايا السقف القبو الذى كان يغطيها

المداخل : الكنيسة لها بابان فى الحائط القبلى وفتحة بعقد كبير بين الكنيستين .

جسم الكنيسة : جسم الكنيسة ينقسم الى أربعة باكيات من الشمال الى الجنوب وباكيتين من الشرق الى الغرب بواسطة ثلاثة أعمدة دائرية من الطوب .وقد أضيف جناح جديد غرب الكنيسة أقدمه الجزء الجنوبى وربما استعمل كمدخل الاعمده الدائرية مخبأه الآن داخل حوائط تقوية لتحمل العقود الاضافية لتقوية القباب المتداعية . فى الغرب توجد دعامات مربعة محاطة بمبانى تحمل العقود والقباب أيضا . جميع قباب الكنيسة من القباب المنخفضةعلى مثلثات كروية ShaLLow domes on pendentives أما القبتان أما م الهيكل الاوسط فمحمولان على كوابيل وحنيات ركنية bracKets ad squin ches اما الجزء القبلى فمغطى بقبو . . brackets and squinches

كنيسة العذراء : المجاورة الأحدث بها ثلاثة هياكل قد أعيد بناء حائطها الشرقى وهى ليست فى وضعها الأصلى . يتكون الصحن من ثلاث باكيات من الشمال الى الجنوب وباكيتين من الشرق الى الغرب والبواكى بعمودين مستديرين من الطوب يقعان حاليا داخل مبانى ساندة تحمل العقود الاصافية للتقوية . الكنيسة لها بابان فى الوسط فى الحائط الغربى والاخر يقع فى الباكيه يمينه . البواكى مغطاه بقبات منخفضه على مثلثات كرويه ماعدا القبه التى أمام الهيكل الأوسط فهى محمله على كوابيل وحنيات ركنيه .

دير السيدة العذراء

الموقع : ممكن الوصول بسهولة الي الدير بالسير فى الطريق الاسفلتى الشرقى نجع حمادى وبعد ٦كم تصل الى قرية الديابات . نعبر الكوبرى على اليسار نصل الى قرية المهدى بعد ١كم ومن هناك نرى سور الحائط الخارجى للدير أعلاه قبة صغيرة .

يوجد حاليا بالدير أحد الرهبان وممكن زيارته فى أى وقت . المدخل فى الحائط الغربى ويوجد دعامات مستديرة فى اركان الدير وفى حوائطه الخارجية الغربية والبحرية والشرقية . تقع الكنيسة فى الركن الشرقى والقبلى وممكن تقديرها من كنائس القرن السادس عشر من نفس طراز كنائس أخميم .

الهياكل : الكنيسة لها ثلاثة هياكل مارجرجس قبلى والسيدة العذراء فى الوسط والملاك بحرى . الهيكل الاوسط أعرض قليلا من الهياكل الجانبيه وجميع الهياكل دائرية الحنية ولكن أعمق قليلاً من نصف دائرة وحائطها الدائرى مزخرف بثلاث حنيات دائرية صغيرة . توجد أبواب بين الهياكل والحجرات الجانبيه ولكل هيكل حجاب خشبى بحشوات هندسية . بحرى وقبلى الهياكل توجد حجرتان مستطليتان كل حجرة مغطاه بقبو وهما أعمق من الهياكل وفى الحائط البحرى من الحجرة الجانبية القبلية يوجد باب يدخل الى ممر خلفى مغلق بقبو منخفض به فتحات صغيرة للأضاءة . والحجرة الجانبية البحرية توجد المعمودية وبها دواليب للكتب والزيوت المقدسة (الميرون والغاليلاون) .

جسم الكنيسة : مقسم الى خمسة باكيات من الشمال الى الجنوب وباكيتين من الشرق الى الغرب بواسطة أربعة أعمدةطوب دائرية تحمل العقود والقبات المنخفضة على المثلثات الكروية عدا القبة أمام الهيكل فهى محمولة على كوابيل وحنيات ركنيه أما الجانب البحرى والقبلى فكل مغطي بقبو والصحن له باب وشباكان فى الحائط القبلى وباب آخر ولايوجد شبابيك قبلية حيث أن الكنيسة ملاصقة للحائط الخارجى القبلى للدير .

الكنائس الصغيرة الجانبية : بحرى الكنيسة وغربها يوجد مدخل صغير مغطي بقبو ، خلف المدخل يوجد صحن الكنيسة الجانبية المكون من أربعة بواكى مقسمين بعمود طوب دائرى يحمل العقود والقبات المنفضه على المثلث الكروية وهياكلها مستطيله وهى للأنبا أنطونيوس والانبا بولا وقد فتح باب حديثا بين الحجرة الجانبية البحرية والهياكل الجديدة .

مبانى أخرى بالدير : يوجد بالدير مبانى أخرى معيشية مثل سكن الرهبان وسكن الضيوف وأماكن الخبيز والطبخ ومخازن جميعها من الطوب النى وسقفها من القباب المنخفضه على مثلثات كروية ومبنيه من حوالى ١٠٠ سنة . بعض المبانى المستجدة بدأت تظهر قرب الحائط القبلى للدير أما الكنيسة فقد أعيد رونقها فى سنة ١٩٨٠ .

دير الملاك ميخائيل

الموقع : يقع الدير على حافة الصحراء قرب السلامونى ويبعد ٢ كم شمال دير العذراء وحاليا يسكنه راهب وممكن زيارته فى أى وقت .

الهياكل : الكنيسة لها ثلاثة هياكل تنسب للشهيد مارى جرجس بحرى والملاك ميخائيل فى الوسط والسيدة العذراء قبلى .

والهياكل متساوية تقريبا فى الحجم عدا الهيكل الاوسط فهو أعرض قليلا وجميع الهياكل دائرية الحنيه ولكن أعمق قليلا من نصف دائرة . توجدخمسة حنيات صغيرة (niches) تزخرف الحائط

الدائرى للهيكل (apse) الاوسط وثلاث حنيات تزخرف الحائط الدائرى للهياكل الجانبية التى تحوي أيضا حنيات مستطيله كدواليب .

الحجرات الجانبية : توجد حجرتان مستطليتان جانبيتان ولكن أعمق قليلا من الهياكل .

المعمودية : تقع فى الحجرات البحرية ومن الركن الشرقى من الحجرة القبلية نجد باب يدخل الى الممر المعغلق خلف الهياكل المغطى بالقبو المنخفض مماثل للموجود فى دير العذراء وبه أيضا فتحات صغيرة علوية للأضاءة وهذا الممر مقسم الى قمسين بحاجز من الطوب .

جسم الكنيسة : باب الكنيسة يقع فى منتصف الحائط الغربى كما يوجد بابان فى الحائط البحرى وشباكان بينهما يشيروا الى أن الكنيسة الجانبية الصغيرة قد أضيفت فيما بعد أما جسم الكنيسة فمماثل لدير العذراء وهو مقسم الى خمسة بواكى من الشمال الي الجنوب وباكيتين من الشرق الى الغرب بنفس التقسيم من القبات المنخفضه والقبوات الجانبية والقبة المحملة على الكوابيل والحنيات الركنية أمام الهيكل الرئيسى .

الهياكل الجانبية : الهياكل الجانبية لها مدخل فى الحائط الغربى ومدخل بحرى الكنيسة القديمة مباشرة والصحن مغطى بقبتين منخفضتين أما المدخل فمغطى بقبو صغير والقبة أمام الهيكل على كوابيل وحنيات ركنيه والحائط الدائرى للهيكل فمزخرف بثلاث حنيات دائرية وحنية مستطيلة .

المبانى الآخرى : مساحة الدير ٧٠ر١٤ × ٥٠ر٢٩ متر والمدخل فى الحائط الغربى يدخل الى فناء الدير وبه فتحات أرضية لربط الحيوانات وحجرات صغيرة للحيوانات أيضا يوجد مبنى صغير جميل لأوعية المياه على يمين المدخل وباقى المبانى من الطوب النى وحول الكنيسة مبانى الكهنة والزوار والمخازن والافران .

دير الشهداء

تشتهر أخميم و أسنا بأنهما قد قدمتا كل أهل بلدهما للاستشهاد فى عصر دقلديانوس لذلك يوجد بجوار كل من البلدين دير باسم الشهداء .

الموقع : يقع الدير فى منتصف المسافة من دير العذراء و دير الملاك بجبل السلامونى و حوله جبانة قديمة لا تزال مستعملة .

مبانى الدير: يقع المدخل فى منتصف الحائط الغربى و يفتح على فناء كبير به حاليا مدافن كثيرة و توجد حجرة لها فناءات صغيرة قبل المدخل و بعد المدخل مبنى صغير آخر لأوانى المياه و بعض الحجرات الصغيرة حول الكنيسة تكاد تغطيها و عمر هذه المبانى حوالى ١٠٠عام .

الهياكل : الكنيسة لها هيكل دائرى أوسط أعمق من نصف دائرة و حجرتان مستطيلتان جانبيتان مغطيتان بقباب منخفضة على مثلثات كروية مستعملين حاليا كهياكل و هذه الحجرات بها ثلاث حنيات مستطيلة فى كل جانب بينما الحائط الدائرى للهيكل الأوسط مزخرف بخمسة حنيات صغيرة دائرية . حجاب الهيكل الأوسط به بابان و شباك بينما باقى الاحجبه لها باب واحد وجميعها من الطوب .

جسم الكنيسه : ينقسم جسم الكنيسه إلي جزئين : الخورس أمام الهيكل والناركس (صالة المدخل) : غربية بينهما حائط به فتحة كبيرة فى الوسط وباب صغير فى الجنوب ربما فتح بعد اضافة الكنيسة الصغيرة القبليه . جميع بواكى الخورس والنارثكس مغطاه بقباب منخفضه على مثلثات كروية .

الكنيسة الصغيرة الجانبية : يبدو أن الجزء القبلى من الكنيسة قد أضيف متأخرا وقد قطع لخورس بفتحة لاضافة الهيكلين استخدام الأول كهيكل أما الثانى القبلى فهو يحوى المعمودية وهما مغطيان بقباب منخفضة على مثلثات كروية .

وقد أخذ من المنطقة التى حول الدير أقدم منسوجات أخميم القبطية المشهورة .

دير الانبا بسادة

الموقع : يقع الدير على شاطىء النيل الشرقى أمام مدينة المنشأة جنوب أخميم على الطريق الاسفلتى الشرقى الى نجع حمادى .

المدخل : ندخل الكنيسة من باب فى الحائط الغربى يدخل الى النارثكس (صالة المدخل) المستطيل طول الجزء منه حوالى ضعف الجزء القبلى الذى يحوى اللقان غريب الشكل بحيث أنه يقع داخل حنية الحائط السميك الذى يفصل النارثكس عن منطقة الخوروس والهياكل التى تعتبر مبانيها أقدم .

منطقة الخورس والهياكل القديمة : الهيكل الرئيسى مستدير الحنية أعمق قليلاً من النصف دائرة وبها ثلاث حنيات صغيرة مستطيلة فى الشرق والبحرى والقبلى . المذبح مستدير من جهة الشرق والحجاب الخشبى به بابين فى الشرق والبحرى والقبلى . المذبح مستدير من جهة الشرق والحجاب الخشبى به بابين فى الاجناب وشباك فى الوسط . أمام المذبح قبة على كوابيل وحنيات ركنيه وعلى جانبيها البحرى والقبلى أنصاف قباب ، القبليه فقط هى التى لاتزال تري أثارها . من باب جانبى قبلى الهيكل الرئيسى ندخل الى الحجرة الجانبية القبلية ومنها ندخل الى حجرة أخرى أعمق من الهيكل وبها المعمودية فى الركن الشرقى البحرى وحنية فى الحائط البحرى .

الاضافات البحرية : يبدو أن المبانى البحرية الاصلية للخورس النصف دائرى قد تهدمت وبنى بدلها هيكلان مستطيلان بنهاية مستديرة وحجرة جانبية مستطيلة مغطاه بقبو داخلها حجرة ثانية أعرض منها . وأمام الهياكل الحجرة الجانبية ثلاث قباب منخفضة محملة على مثلثات كروية

الاضافات القبلية : من فتحة كبيرة فى الخورس جنوبا ندخل الى المنطقة أمام الهياكل القبليه والهيكلان مستطيلان بنهاية مستديرة البحرى به ثلاث حنيات : فى البحرى حنية مستديرة وفى الشرق والقبلى حنيات مستطيلة . أما الهيكل القبلى فحول حائطة المستدير أربعة حنيات الحنية الشرقية مستديرة أما الباقى فمستطيلة . قبلى الهيكلين حجرة جانبية تلتف الى البحرى فى نهايتها بئر الكنيسة .

الصحن عبارة عن أربعة بواكى كل مغطى بقبة منخفضة على مثلثات كروية مقسمين بواسطة عمود دائرى من الطوب وأمام الحجراة الجنابية باكية صغيرة مغطاة بقبو. على يمين المدخل

الصغير الغربى المفتوح غرب الاضافات القبلية يوجد سلم يقود الى شرفة علوية ربما كانت تستعمل للنساء أو للمرضى .

دير الملاك بنجع الدير

الهيكل : تشبه هذه الكنيسة كنائس أخميم من ناحية طرازها حيث يوجد ثلاث هياكل دائرية .

الحنية : الهيكل الاوسط غير منتظم الاستدارة أعرض من الهيكلين الجانبين اللذين بهم ثلاث حنيات تزخرف الحائط الدائرى ونجد حجرتين جانبتين مستطلين القبيلة فقط هى الموجودة وداخلها العمودية ومغطاة بقبة منخفضة على مثلثات كروية أما البحرية فقد أزيلت وتحولت الى هياكل جانبية أضيفت فى عهد لاحق .

الصحن : غير منتظم الشكل لحدوث تغيرات فى عصور متلاحقة الصحن الاصلى كان عبارة عن خمسة بواكى من الشمال الى الجنوب وباكيتين من الشرق الى الغرب كانوا مقسمين بواسطة أربعة أعمدة مبانى مستديرة استبدل العمود البحرى بدعامة وجميع البواكى مغطاة بقباب منخفضة الاضافات البحرية : يبدوانها تمت لاضافة هيكلين اضافين للكنيسة والهياكل المضافة شبه مربعة بها حنية شرقية صغيرة مستديرة وحنيتان جانبيتان مستطيلتان وكل هيكل مغطى بقبة منخفضة على مثلثات كروية . أمام الهيكل البحرى نجد قبة منخفضة أمام الهيكل المجاور فامامة باكيتان الباكية التى أمام الهيكل على كوابيل وحنيات ركنية أما الباكية الغربية الاخرى فهى مغطاة بقبة منخفضة على مثلثات كروية .

منطقة المغطس وبئر الكنيسة : هذه المنطقة لها مدخل فى حائط القبلى المطل على فناء الكنيسة الداخل وشكل المنطقة غير منتظم . الجزء البحرى الغربى منه به عمودان مستديران من الطوب يحملون العقود وأربعة قباب منخفضة على مثلثات كروية أما باقى المساحة فمغطى بسقف خشبى . يوجد المغطس تحت القبة الغربية القبلية ومقاسة ٢٫٠٠×٢٫٠٠م كما يوجد البئر فى فراغ داخل الحوائط فى منتصف الحائط القبلى .

«دير السبعة جبال : دير بير العين»

يقع هذا الدير أعلى جبال السلامونى الشاهقة دير الملاك قرب قرية السلامونى ويبعد عنها حوالى ١٢كم ولم نستطيع الرفع المعمارى للمبانى الباقية من الدير لصعوبة الوصول اليها .

* * *

الهوامش

(١) سيرة الانبا باخوريوس نشرها القمص عبد المسيح المسعودى .

(٢) الجزء الثانى ورقه ٨٦ وجه .

(٣) » » » ٨٤ » .

(٤) » » » ٨٦ » .

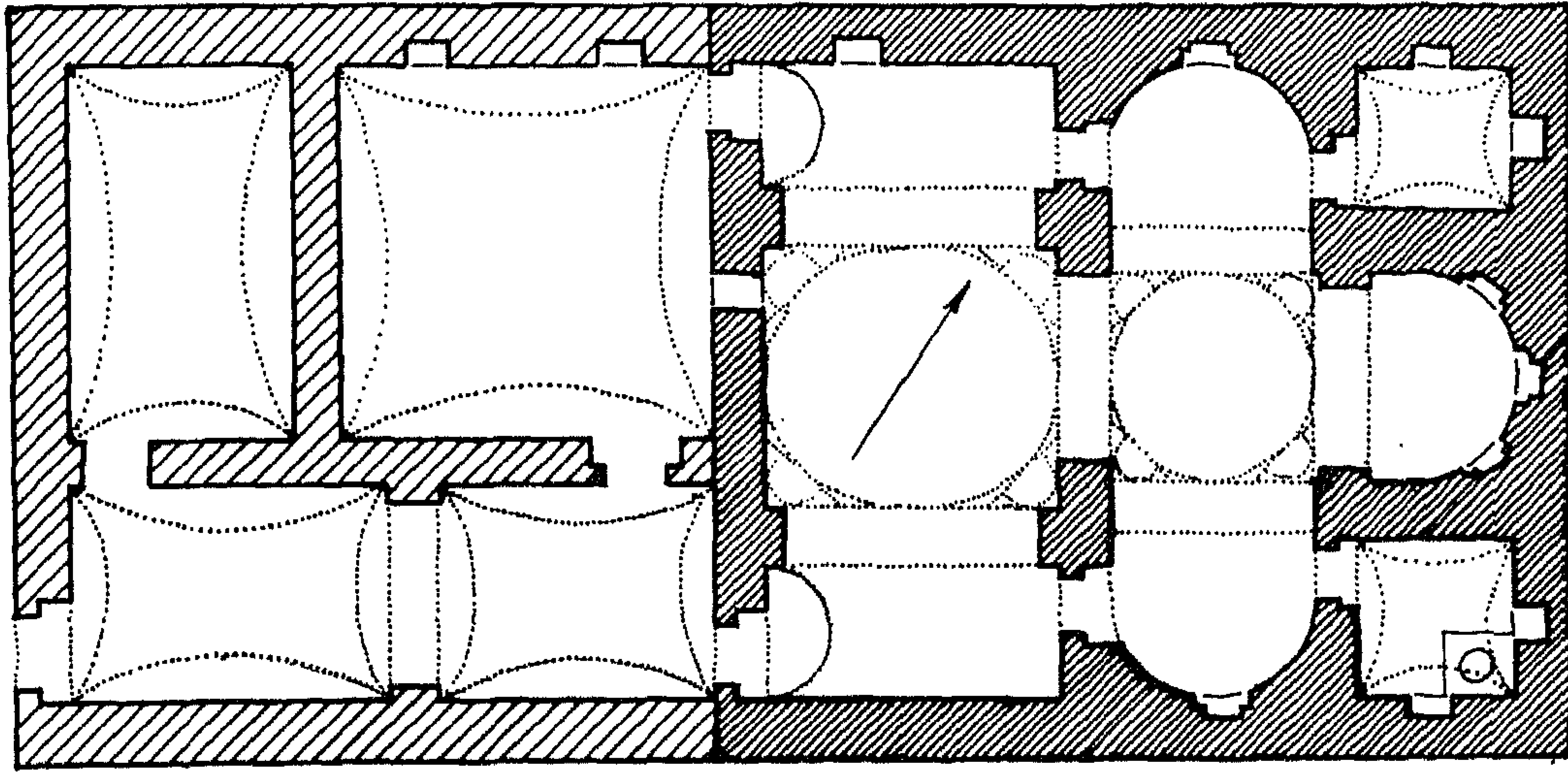
(٥) » » » ٨٤ » .

(٦) » » » ٨٦ » .

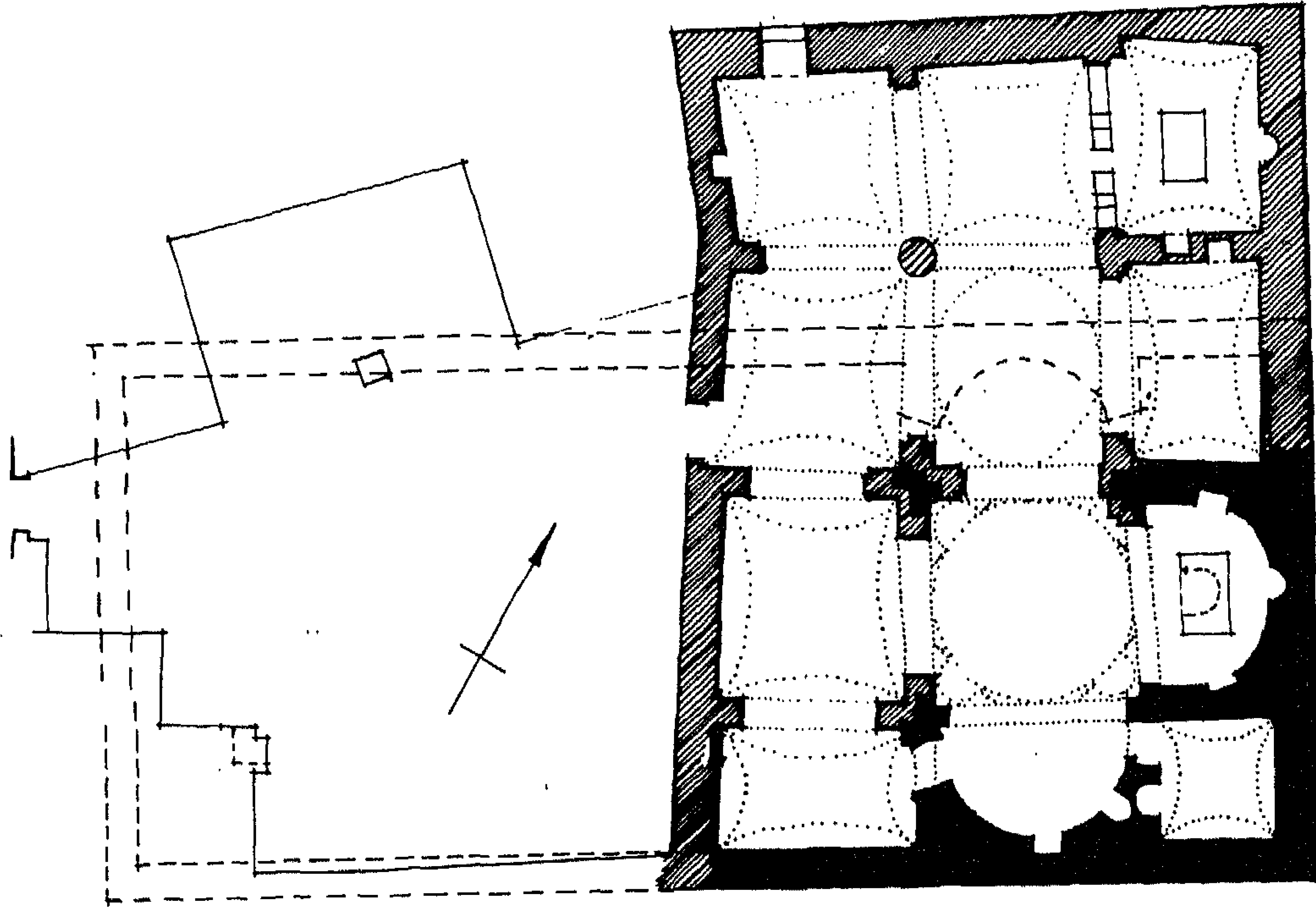
(7) Oeuvres II2 : 52

(8) T. IVCH.XI (59-62)

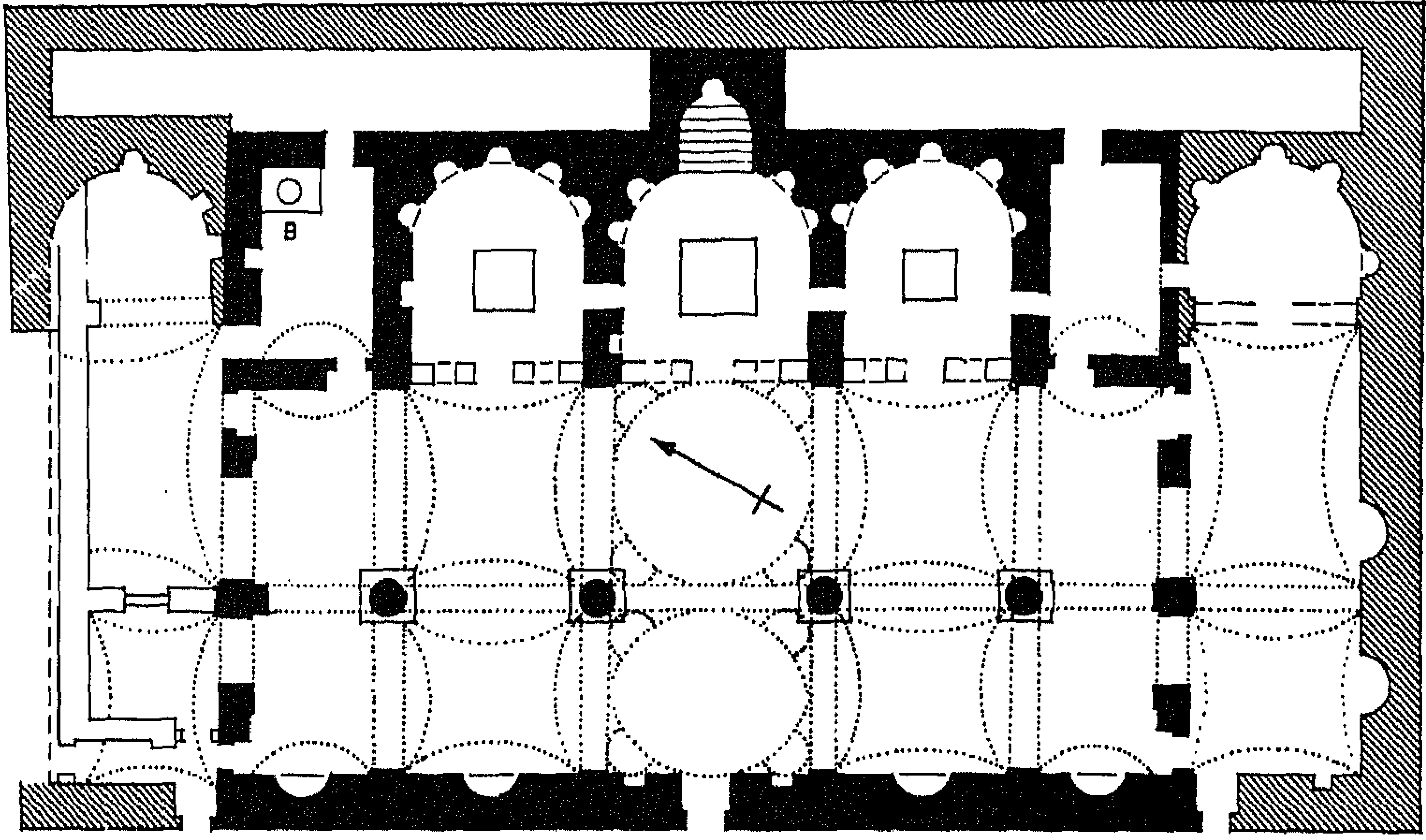
* * *



مخطط (١) دير الأنبا توماس شمال أخميم

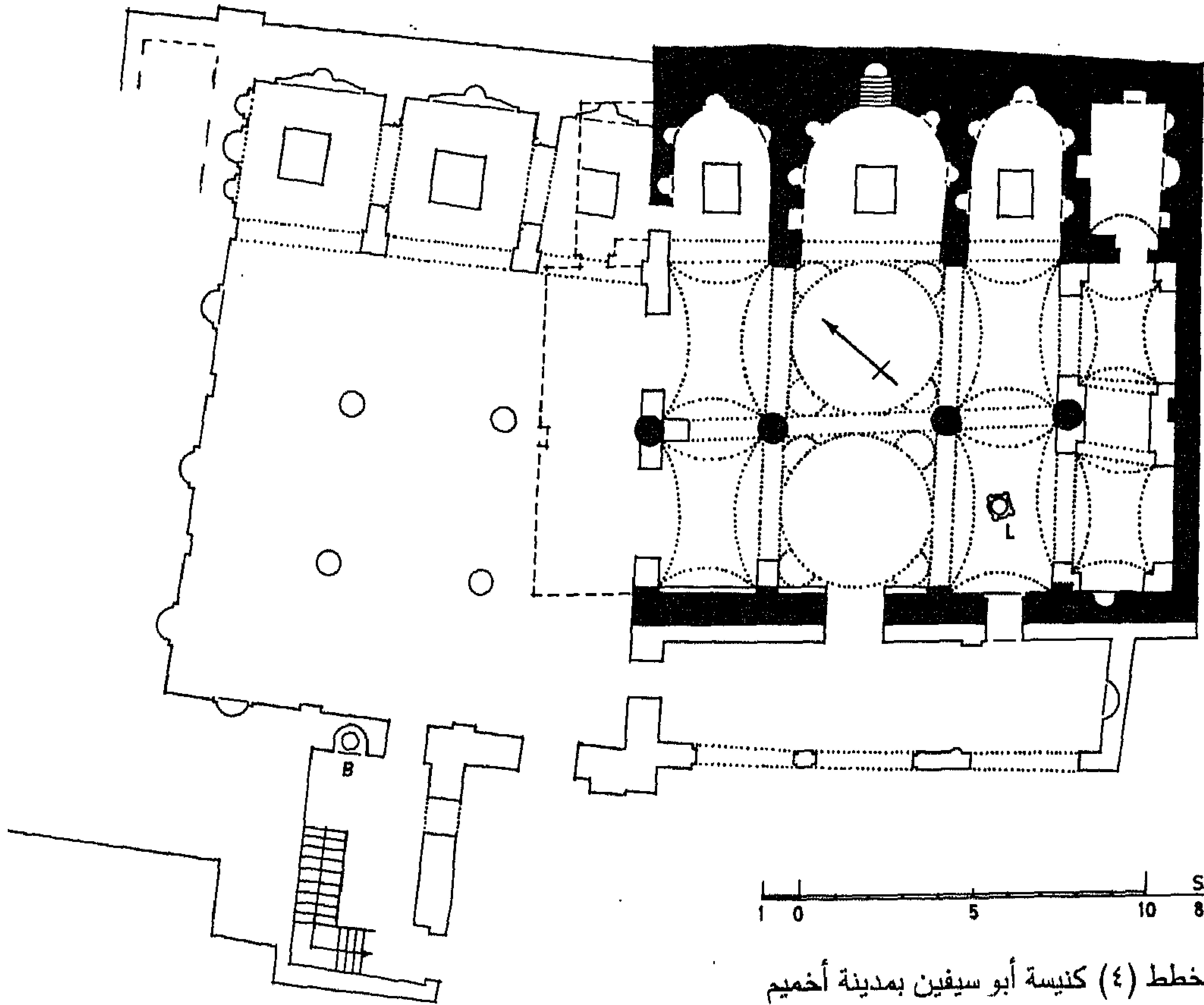


مخطط (٢) دير الأنبا باخوم وضالوشام بالصوامعة شرق أخميم

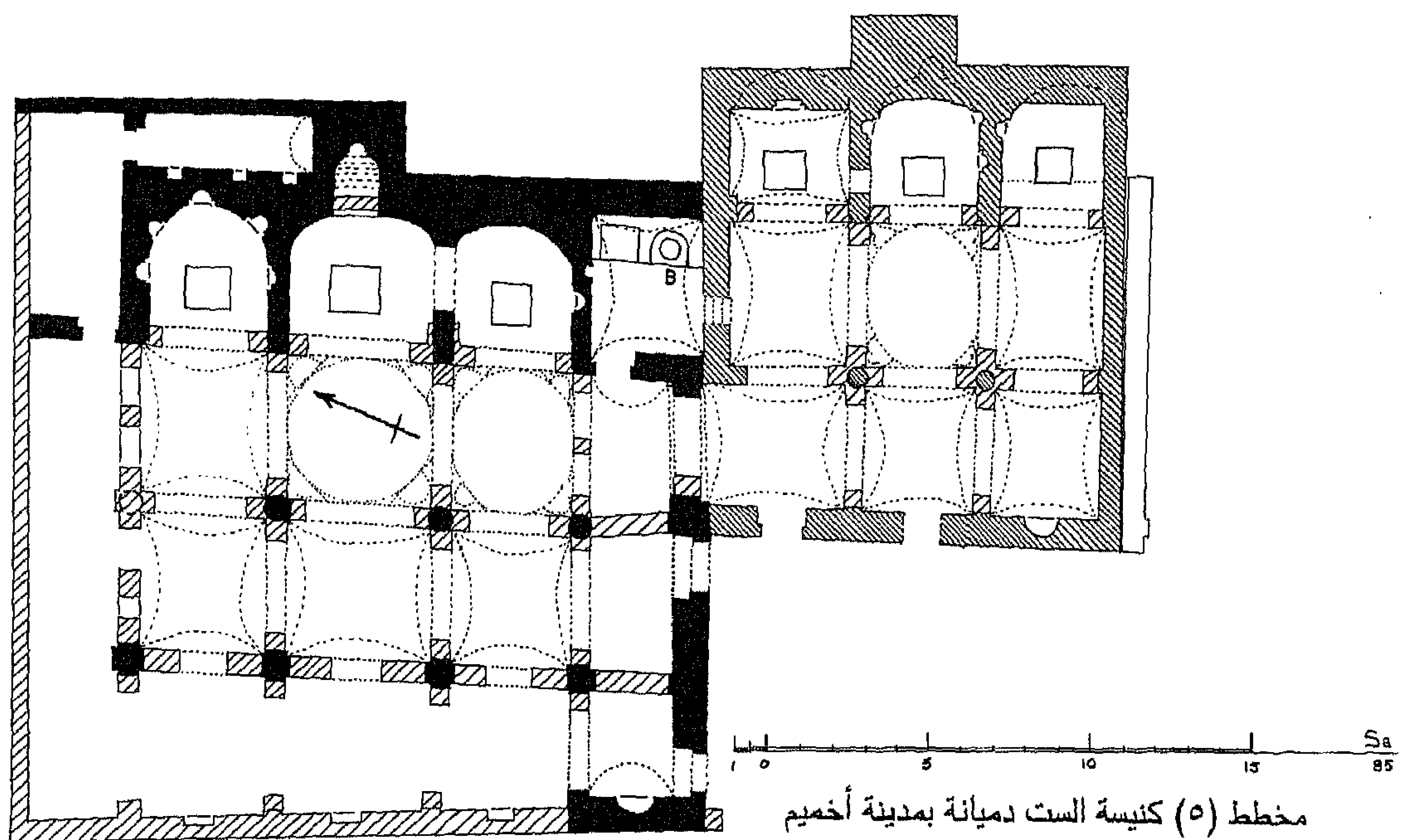


مخطط (٣) دير مارجرس الحديدى جنوب أخميم

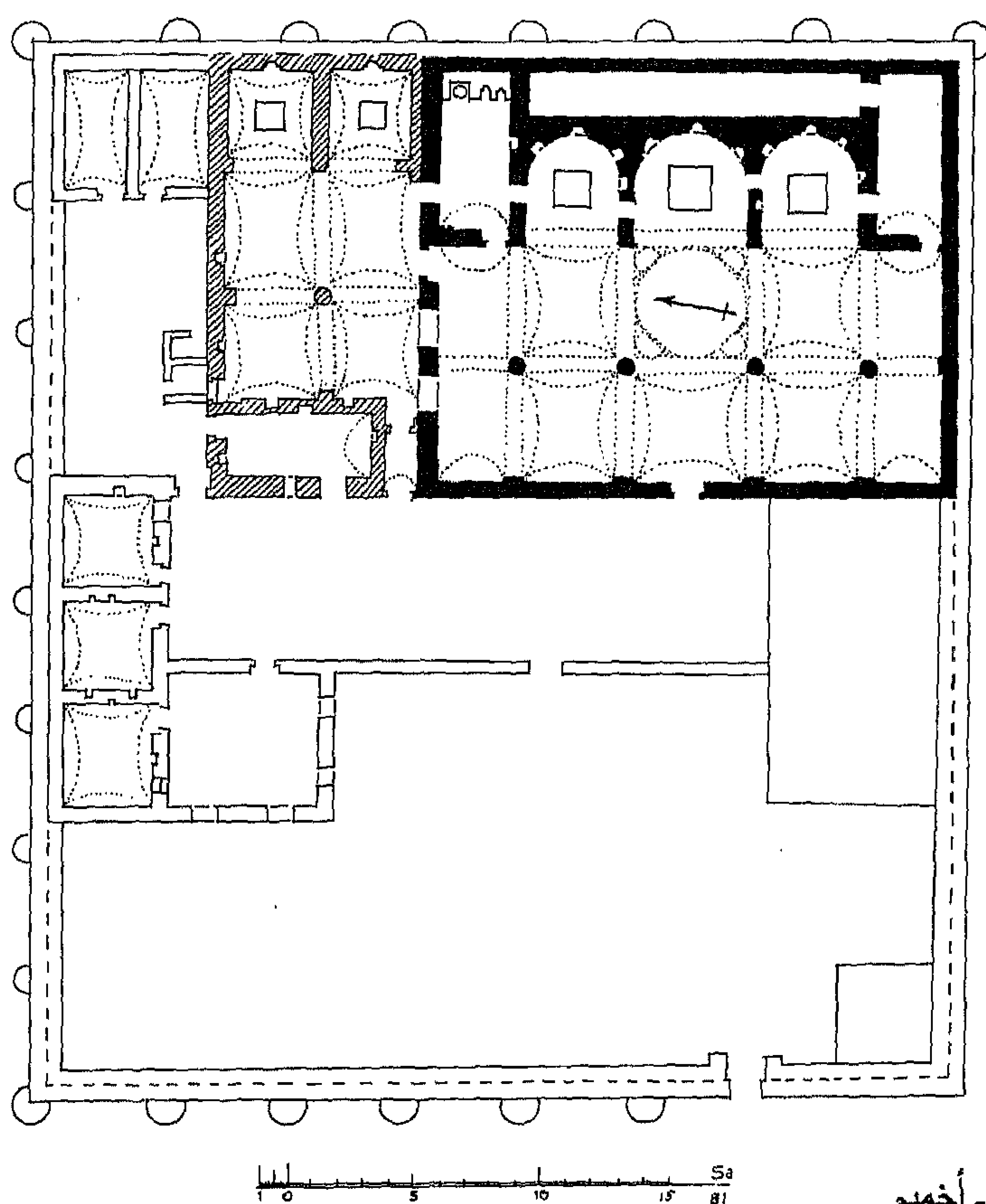
1 0 5 10 SA 81



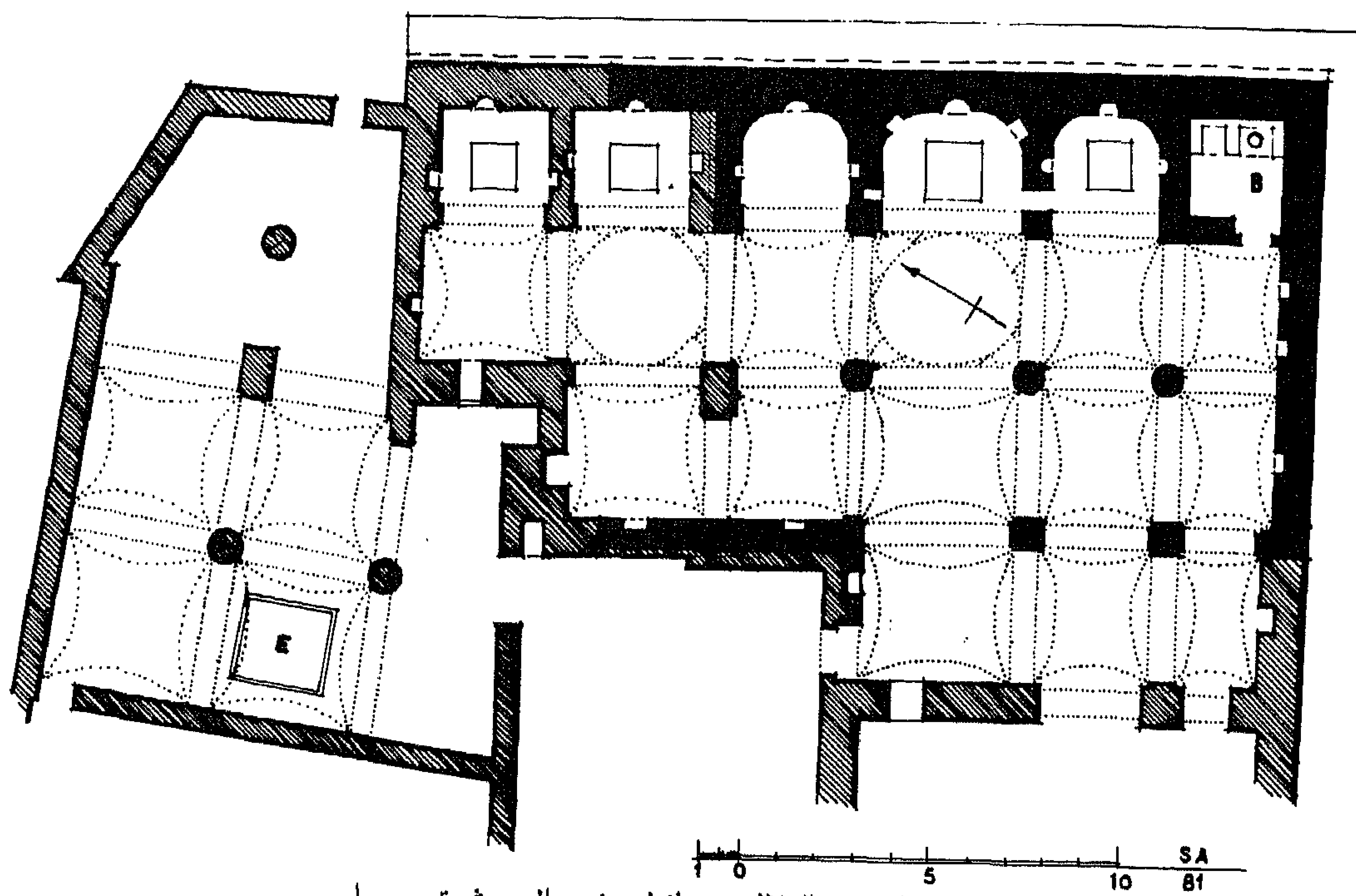
مخطط (٤) كنيسة أبو سيفين بمدينة أخميم



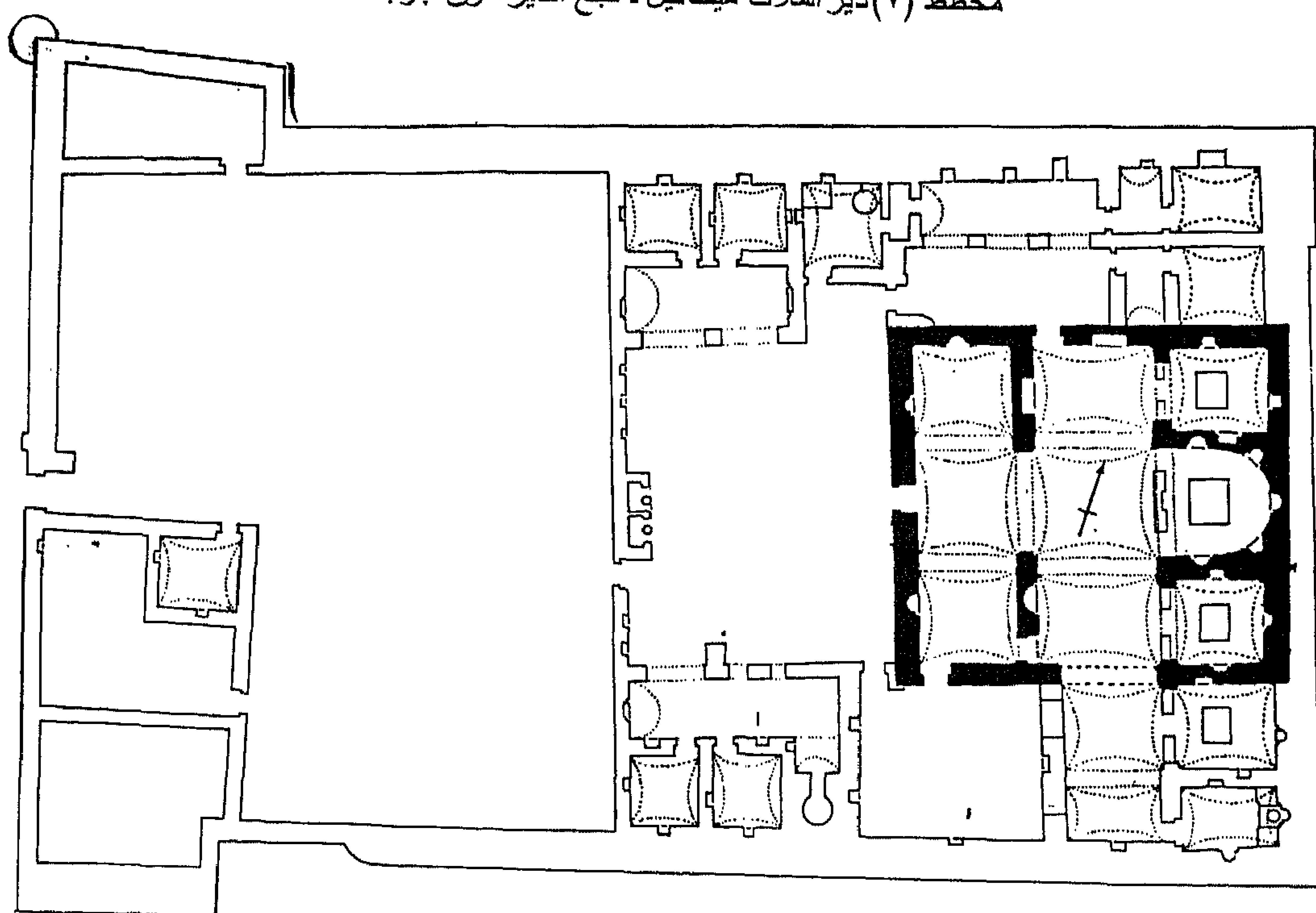
مخطط (٥) كنيسة الست دميانة بمدينة أخميم



مخطط (٦) دير العذراء بالحواويش ـ أخميم

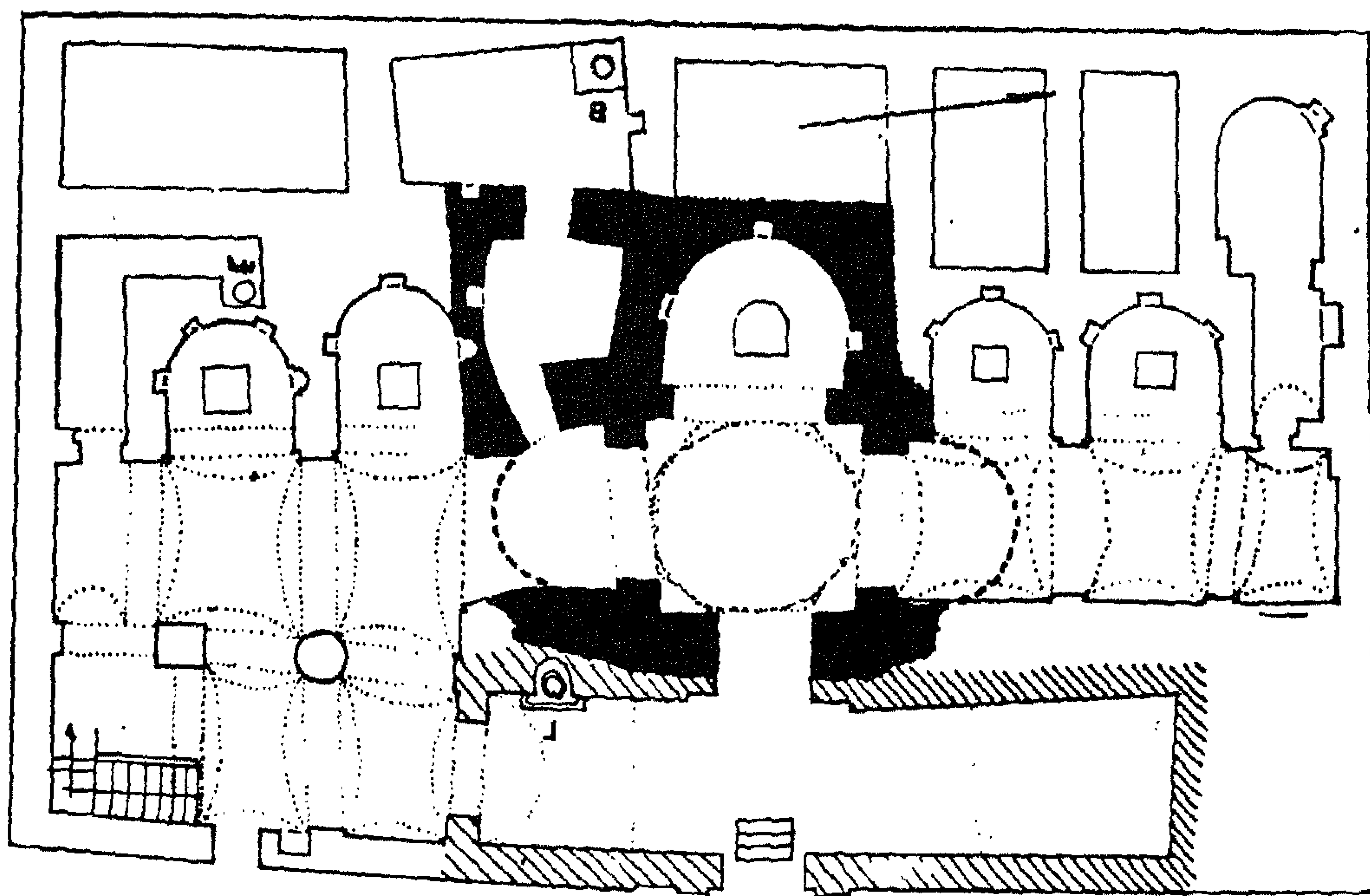


مخطط (٧)دير الملاك ميخائيل - نجع الدير شرق جرجا

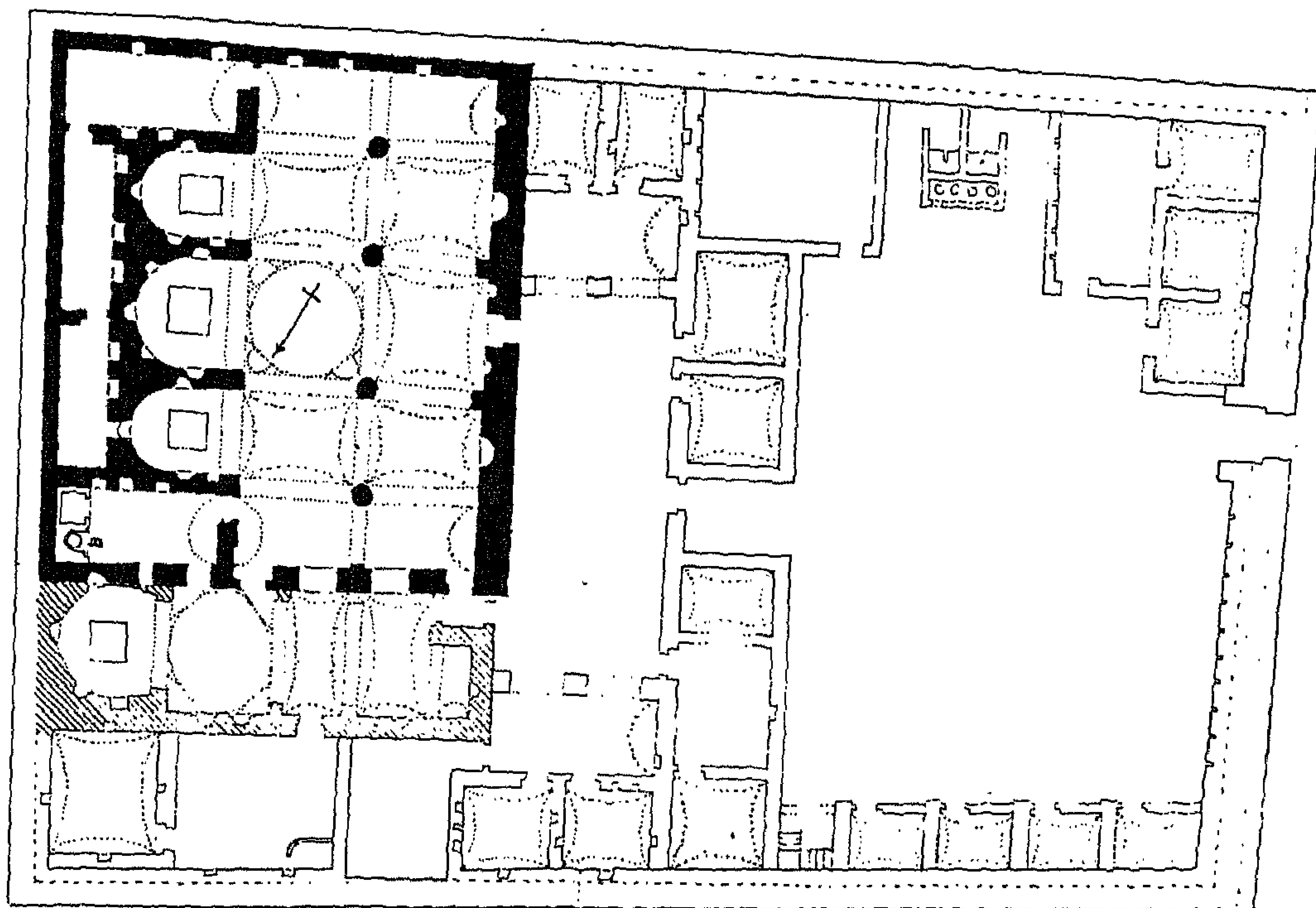




مخطط (٨) دير الشهداء شرق أخميم



مخطط (٩) دير الأنبا بسادة شرق المنشأة



مخطط (١٠) دير الملاك قرب أخميم

سبيل أم محمد على الصغير

دكتور / عادل شريف علام
كلية الآداب جامعة طنطا

يتناول هذا البحث دراسة تحليلية للاسبلة ذات الواجهة المقوسه ويتناول دراسة وصفية لواحد من هذا النوع من الاسبلة وهو سبيل أم محمد على الصغير ١٢٨٦هـ /١٨٦٩م مع نشر الوثيقة الخاصة بالسبيل المحفوظة بالارشيف التاريخى بوزارة الأوقاف رقم ٣٣٠٢ أوقاف تزخر القاهرة بالعديد من الإسبلة سواء الملحقة بالمنشآت الدينية أو المدنيه أو الإسبلة المنفردة ، ويوجد نوع من الاسبلة بدأ تشييده فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى يعرف بالاسبلة ذات الواجهة المقوسة .

وقد ظهر هذا النوع من الأسبلة فى القاهرة العثمانية وإستمرفى إسبلة القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، وهذا النوع من الاسبلة إتخذ من اسبلة اسطنبول نموذجًا لها حيث حجرة التسبيل مستطيله أو مربعة تختلف فى مساحتها حسب المساحة المخصصة للبناء وتطل على الشارع بواجهة مقوسة .

ويبلغ عدد هذه الاسبلة سبعة عشرة سبيلاً ، وتمتاز واجهات هذه الاسبلة المقوسة بأن بها ثلاثه أو أربعة أو خمسة شبابيك للتسبيل فى دخلات ذات عقود قوسية يتوجها دخلات اكبروبنفس الهيئه ترتكز على أعمدة جانبية ويتقدم هذه الدخلات داير رخامى لوضع كيزان للتسبيل وفى جانب من الواجهة نجد سبيل حجرمصاصه [1] وإحيانا أثنين .

ويتلاحظ على هذا النوع من الاسبلة عدم إستخدام أسبلة للشاذروانات حيث كان الماء من فوهة الصهريج مباشرة إلى أحواض التسبيل التى إتخذت هيئتها الهيئة المقوسة .

وتتميز هذه الإسبلة بأن دخلاتها معقودة بعقود قوسية ترتكز على أعمدة جانبية من الرخام ملتصقة بالجدار وهو تأثير تركى ، والدخلات المعقودة يفصل بينها أكتاف بنائية ملتصق بها من الخارج الاعمدة الرخامية التى تحمل عقود الدخلة الكبرى التى تتوج دخلة شباك التسبيل .

وقد كانت الالواح الرخامية أمام شبابيك التسبيل فى الاسبلة المقوسه تأخذ شكل إستداره الواجهة نفسها وهى عبارة عن داير رخامى ولايحمل على حر مدنات حجرية ومثبت أسفل جدار الواجهة أو يحمل هذا الداير على عدة صفوف من المقرنصات الحجرية ، كما إتخذت المساطب التى خصصت لصعود الماره أمام واجهات الأسبلة المقوسة شكل إستدارة الواجهة الخارجية .

ويمكن تقسيم الاسبلة ذات الواجهة المقوسه إلى ثلاث طرزهى :-

أولا الاسبلة ذات الثلاثة شبابيك :

تتشابه هذه الاسبلة بأن حجرة التسبيل مستطيلة إتخذت واجهتها الرئيسية الهيئة المقوسة بها ثلاثه شبابيك للتسبيل، وبعض هذه الاسبلة ملحق بمدرسة أو جامع أو وكالة أو منزل ، كما يعلوها كتاتيب وهذه الاسبلة هى :-

١- سبيل السلطان محمود ١١٦٤هـ/ ١٧٥٠م

٢- سبيل ابراهيم بك الكبير ١١٦٧هـ/٥٣-١٧٥٤م

٣- سبيل السلطان مصطفى الثالث ١١٧٢هـ/١٧٥٩م (لوحة ١)

٤- سبيل رقية دودو١١٧٤هـ/ ١٧٦١م (لوحة٢) .

٥- سبيل حسين الشعبى نهاية القرن ١٢هـ/ ١٨م (لوحة ٣).

٦- سبيل نفيسه المرادية ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م .

٧- سبيل على كتخد الجاويشه ١٢١٢هـ/ ٩٧- ١٧٩٨م .

٨- سبيل حسن اغا آزرنكان ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م .

٩- سبيل أم حسين بك ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م .

١٠- سبيل مصطفى فاضل باشا ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م (لوحة ٤) .

١١- سبيل أحمد باشا ١٢٨١هـ / ١٦٦٥م .

١٢- سبيل الشيخ صالح ١٢٨٤هـ /١٨٦٧م (لوحة ٥) .

ثانيا الاسبلة ذات الاربعة شبابيك :

يتميز هذا الطراز بأن حجرة التسبيل مستطيلة إتخذت واجهتها الرئيسيه الهيئه المقوسه وبها أربعة شبابيك للتسبيل ، ولايوجد من هذا الطراز سوى ثلاث أسبلة فقط منها سبيل ملحق بجامع وهو سبيل سليمان أغا السلحدار وهذه الاسبلة هى:-

١- سبيل محمد على بالنحاسين ١٢٤٤هـ / ١٨٢٩م (لوحة ٦)

٢- سبيل سليمان أغا السلحدار ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م (لوحة ٧)

٣- سبيل أم محمد على الصغير ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م (موضوع البحث)

ثالثا الأسبلة ذات الخمسه شبابيك :

يتميز هذا الطراز بأن حجرة التسبيل مستطيلة إتخذت واجهتها الرئيسية الهيئة المقوسة بها خمسة شبابيك وهذه الاسبلة هى :-

١- سبيل محمد على بالعقادين ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م ٢- سبيل بنيه قادن ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م (لوحة ٨) .

سبيل أم محمد على الصغير ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م

الموقع

يقع هذا السبيل بميدان رمسيس .

المنشئ

أنشأته زيباقادن زوجة محمد على الكبير والدة محمد على الصغير فى سنه ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م (٢)

والمهندس الذى قام بتصميم هذا السبيل هو المهندس حسين باشا فهمى المعمارى الذى نهج فى تصميمه أصول العماره الإسلاميه . (٣)

الوصف المعمارى للسبيل

يشغل السبيل الدور الإرضى يعلوه كتاب (شكل ، لوحة ٩)

وهو يتبع طراز الاسبلة المقوسة التى سادت فى القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى .

الواجهة

تطل الواجهة الرئسيه للسبيل على شارع الجمهورية ، وهى عباره عن واجهة مقوسة إلى الخارج من الرخام الابيض (٤) وبها أربعة شبابيك ذات عقود ثلاثية (٥) (اللوحات ٩-١٠-١١) يشكل العقد الاوسط ثلثى دائرة والجانبين جزء من منحنى يتصل يكتفى العقد ، ويحد كلا من هذه الشبابيك جفت بارز لاعب ذى ميمات سداسيه وعلى جانبى الشباك أسفل الجفت اللاعب صفان من المقرنصات .

ويغشى شباك السبيل ستارة من النحاس المفرغ تزدان بالأشكال الهندسية والنباتية المحورة ، بأعلى الستارة دائرة بها زخارف نباتية محورة يتوسطها نجمة خماسية ويفصل بين كل شباك وآخر جفتان لا عبان يبدآن من مستوى قاعدة الشباك الى مستوى أسفل السقف ويلفان حول الشبابيك مشكلة مستطيلات ، ويحتوى كل شباك على أربعة فتحات لوضع كيزان الشرب ، ويوجد أسفل الشبابيك ثلاثة بزابيز نحاس للشرب تأخذ شكل أسد (٦) ، ويزين أسفل الشبابيك شكل بيضاوى غائر ذو زخارف نباتية محورة بارزة .

ويعلو كل شباك اطار به كتابات نسخية بالرخام الأبيض البارز تتضمن آيات قرآنية تبدأ من الشباك الأول من ناحية اليمين نصها :

(١) إن الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون (٧)

(٢) عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا (٨)

(٣) وسقاهم ربهم شرابا طهورا (٩)

(٤)عينا يشرب بها المقربون (١٠)

ويتقدم السبيل بسطة يصعد اليها بواسطة سلم حجرى يتكون من ثلاث درجات والأرضية من الرخام (١١) كما يتقدم الواجهة بائكة من أربعة عقود (١٢)على شكل حدوة الفرس به أطار ذو زخارف مجدولة حلزونية يعلوها جفت لاعب ينتهى بميمة سداسية فى المنتصف ، وهذه البائكة محمولة على ثلاثة أعمدة ونصفى عمود فى الاركان وهى أعمدة رخامية ذات تيجان عربية نقشت بزخارف بناتية محورة ، أما بدن العمود فهو دائرى القطاع ذى قنوات ، ويعلو زخارف العقود حطتان من القرنصات يتكون السفلى من مقرنص واحد والعلوى من ثلاثه يحمل جزءا بارزا يقسم الشرافات التى بأعلى واجهه السبيل الى أربعة مناطق ، وتأخذ الشرافات شكل الورقة البناتيه الثلاثيه، ويعلو العقود بين الزخارف النباتية أربعة أطارات من الكتابات النسخيه على أرضية زرقاء نصها من اليمين الى اليسار .

١ – إن الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً (١٣) .

٢ – يطاف عليهم بكأس معين (١٤) .

٣ – ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً (١٥) .

٤ – يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك (١٦) .

السـقف

السقف خشبي مقسم الى أربعة مناطق قوامها شكل شبه منحرف متساوى الساقين منحنى القاعدتين باطارات ويحوى صره دائرية مكونة من شكل أشعاعى تخرج منه زخارف نباتيه، وفى الأركان زخارف نباتيه محورة «اربيسك » بالحفر البارز ويتدلى من الصره سلسلة نحاسيه لتعليق القناديل ويتقدم السقف رفرف خشبى متجه إلى أسفل محمول على كوابيل خشبيه وتمتلئ المنطقة بين كل كابولى وآخر بزخارف مخرمة داخل أشكال تأخذ شكل زهرة ذات أربع ورقات ، ويوجد بين الإعمدة ساتر يملأ الثلث السفلى من واجهة الكتاب من الخشب الخرط الميمونى يتخلله دلف تفتح لأعلى من الخشب الخرط الصهريجى .

ويوجد بالجزء الشمالى والجنوبى لواجهه السبيل لوحتان من الكتابة اللوحة التى تقع إلى اليسار داخل مستطيل مقسم لثمانى مناطق أفقيه ويحدد المستطيل زخارف هندسيه ونباتيه وتاريخ الانشاء بالضلع السفلى سنه١٢٨٦ ، والكتابة على أرضيه زرقاء نفسها من أعلى الى أسفل .

١ – خليلة محيى قطر مصر محمد . على مليك العصر رب المحامد .

٢ – ووالدة الشهم الامير محمد على ايثل المجد عن خير والد .

٣ – بنت لعباد الله فى حب بعلها وواحد اها أسنى سبيل المقاصد .

٤ – فمن مائه الصافى كما شاء يرتوى بعافية فى جسمة كل وارد .

٥ – ويثنى بإخلاص عليها فإنها بنته لإحياء نفس غاد ووافد .

٦ – وسادت على أترابها فى زمانها بحسن ثواب دائم متزايد .

٧ – وفى دولة اسماعيل نالت من الورى ثناء بتوفيق لخير المقاصد .

٨ – وقد قال مجدى فى بناها مؤرخا سبيل زبا عذب سنى الموارد .

أما الموارد الثانية التى تقع على اليمين فهى باللغة التركية ، والكتابة على أرضية صفراء نصها باللغة العربية : – (لوحة ١٣) .

١ – من سيد مصر محمد على باشا فليكن كل من يرتوى نديما بفضل ماء الكوثر .

٢ – من أجل محمد على باشا قدمت الأم عملا يستحق التقدير .

٣ – لقد وجهت تفكير ابنها نحو الطريق المستقيم فليقبل الله عز وجل هذا العمل العظيم .

٤ – كلما استمر هذا العمل الخيرى فى العطاء فإن حياتها ستطول بأمر الله .

٥- لقد وجهت الأم كل سخائها وحماسها نحو هذا السبيل .

٦- فليكافئها الله بدخولها الجنة لقد بينت أن النيل ينبع من الجنة .

٧- يوجه الخالق وقد عمرتنا السعادة بيت من الشعر ، شبيه باللؤلؤ لقد زينت العالم وشيدت السبيل .

هذا ويوجد أسفل كل لوحة كتابية سبيلان حجر مصاصه . ويتقدم الواجهة سقيفة محمولة على ثلاثة أعمدة خشبية ونصفى عمود بالأركان (لوحة ١٢) وتحمل أربعة عقود خسبية كل منها عبارة عن عقد نصف دائرى ذو رجل طويلة ويزخرف باطنه زخرفة قالبيه تشبه المخدات تنتهى فى رجلى العقد ثلاثة حطات من المقرنصات الخشبية وهذه العقود من الخارج مزخرفة بزخارف نباتية محورة بارزة مضافة على محيط العقد ويرتكز رجلى العقد على عمد خشبى مستدير ذو قاعدة نصف دائرية القطاع على قاعدة مربعة مشطوفة بمثلثين تنتهى بشكل ذى إثنى عشر ضلعا ، وتاج العمود عبارة عن حطتين من المقرنصات بأسفلها زخارف نباتية محورة بالحفر البارز ، ويعلو تاج العمود زخرفة تمثل صرّة تخرج منها إشعاعات بداخل شكل مربع .

مدخل السبيل

يقع مدخل السبيل فى أقصى الركن الشمالى (لوحة ١٤) وهو عبارة عن حنية يتوسطها عقد كبير مدبب ، يتوسطه باب خشبى من دلفة واحدة مزخرفة بزخارف نباتية محورة [١٧] من النحاس المفرغ لم يبق منهاإلا نصفها العلوى ، يعلوه عتب مكون من صفين من المقرنصات تعلوه زخارف ارابسك من النحاس بداخلها طبق نجمى ، ويحوط هذه المجموعة عقد على هيئة حدوة الفرس يرتكز على كتفى المدخل ويعلو حنية المدخل شريط عريض من الزخارف النباتية يحيط بها جفت لاعب يتوسطه ميمه سداسية كبيرة أسفلها جزء مخروطى محلى بزخارف نباتية محورة .

ويعلو حنية المدخل شرفة بارزة محمولة على كابولين كل من ثلاثة حطات من المقرنصات وقد زخرف باطن الشرفة البارزة بثلاث مناطق قوام كل منها شكل بيضاوى يتوسطه صرة بيضاوية الشكل ، ويوجد أسفل الشرفة وفوق حنية المدخل شريط كتابى بالخط النسخى نصه قال الله تعالى (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) (لوحة ١٥) [١٨] ويحيط بالآية الكريمة زخرفة نباتية محورة داخل شكل مستطيل ويفتح على الشرفة التى بأعلى المدخل ثلاثة شبابيك معقودة بعقد موتور ويعلو العقود الثلاثة اطارات خالية من الزخرفة يعلوها ثلاثة حطات من المقرنصات تتدرج فى البروز ويعلوها شرفات حجرية تأخذ شكل الورقة النباتية الثلاثية وعلى جانبى المدخل توجد حنيتان نصف دائرى يعلو الحنية دائرة بها زخارف نباتية محورة ، ويفضى المدخل الى بسطة تؤدى الى درج يوصل الى الكتاب ، وفى مواجهة الداخل باب خشبى يدلف منه الى حجرة وكانت هذه الحجرة للمزملاتى [١٩] اما من جهة اليمين فتوجد فتحة معقودة بعقد نصف دائرى نفضى الى حجرة التسبيل ويصعد اليها بواسطة ثلاث درجات ، وحجرة التسبيل مستطيلة الشكل بها عدة تجديدات حديثة ، أما السقف فهو مربع يتوسطه شكل بيضاوى يتدلى منه سلسلة نحاسية لتعليق القناديل هذا ويعلو السبيل كتاب يأخذ شكل استدارة السبيل .

* * *

ملحق البحث

وثيقة زيباقادن (والدة محمد على باشا الصغير) محفوظة بالأرشيف التاريخى بوزارة الأوقاف رقم ٣٣٠٢ ، وهى عبارة عن كراسة تتكون من ست عشر صفحة وعدد صفحة وعدد أسطرها ٢٥٤ سطر ، صادرة من محكمة الباب العالى ومؤرخة بتاريخ غاية الحجة سنة إحدى وتسعين ومائتين والف . ويبدأ وصف السبيل من الصفحة السادسة .

ص ٦ المشتمل على داير نصف

ص ٧ بيكار مبنية بالرخام الأبيض المحلى بالذهب وبواكى مركبة على أربعة عمدان من الرخام .

ص ٨ الأبيض الشفاف يتوصل من البواكى المذكورة الى سلم خمس درج داير نصف بيكار أحد الخمس .

ص ٩ درج المذكورة بالحجر والأربعة بالرخام الأبيض يصعد من على السلم المذكور الى بسطة كبيرة [٢٠] .

ص١٠ دايرة نصف بيكار يعلو البسطة المذكورة أربعة بزابيز وأربعة شبابيك من النحاس الأصفر .

ص ١١ معد من البزابيز المذكورة لشرب المارين والأربعة شبابيك الذكورة معدة لوضع الطاسات .

ص١٢ المعدة لشرب المارين ايضا من الفساقى [٢١] الآتى ذكرها فيه ويجاور الدايرة المذكورة من جهة .

ص ١٣ قبلى باب السبيل المذكور يتوصل اليه من سلم خمس درج بالحجر الفص النحيت يدخل منه .

ص ١٤ الى قسمة مفروشة بالرخام الأبيض الترابيع بها يسرة سلم ثلاث درج من

ص١٥ الرخام يأتى ذكره فيه وبالفسحة المذكورة تجاه الداخل باب نعلق عليه درفتى

ص١٦ باب خشب أفرنكيا يدخل منه الى محل به طلنبه كاملة العدة والآلة معدة لإستخراج .

ص١٧ الماء من الصهريج [٢٢] المذكور وتوصيله للحوض الخافض [٢٣] المجاور للطنبلة المذكورة والحوض .

ص١٨ المذكور برابيز من الحاس الأصفر معدة لتوصيل الماء للفساقى الآتى ذكرها فيه .

ص١٩ ويصعد من السلم الموعود بذكره أعلاه الى قسمة كبيرة مفروشة بالرخام الأبيض .

ص٢٠ التراقيع بها يسرة باب يتوصل منه الى أرضية الصهريج المذكور وبالقسمة ص٧ .

ص٢١ المذكورة يمنة طاقة بها حنفية من النحاس الأصفر يتوصل لها الماء من الحوض المذكور .

ص٢٢ ثم يتوصل من الحنفية المذكورة الماء للفساقى الآتى ذكرها فيه وبالفسحة المذكورة الصهريج .

ص٢٣ المذكور أعلاه مركب عليه خرزة [٢٤] من الرخام الأبيض وبالفسحة المذكورة أيضا أربعة .

ص٢٤ فساقى من الرخام معدة لصب الماء فيها من لوالب من النحاس الأصفر مسقف ذلك .

ص٢٥ جميعه روميا مدهون (٢٥) سقف ذلك وأبوابه بالدهانات الأفرنكية وما لذلك من المنافع .

ص٢٦ والحقوق .

الوقف

ص١٢اما السبيل المذكور فإنه جعله وقفا لوجه الله الكريم على أن يشرب منه المارين والواردين عليه من عباد الله تعالى .

* * *

الهوامش

١- سبيل حجر مصاصة ، عبارة عن لوح من الحجر أو من الحجر الرخام يحتوى على النحاس ومثبت فى الواجهة الخارجية للسبيل ، ويتصل هذا اللوح بحوض كبير مربع أو مستطيل أيضا من الحجر أو الرخام بداخل حجرة التسبيل وأحيانا بخارجها ويتم تزويد هذا الحوض بالماء من الصهريج وهو تأثير تركى وافد من اسطنبول حيث ظهر هناك بكثرة وأقدم مثل باق على جانبى مدخل منشأة «صاحب عطاش بمدينة قونية ١٢٠٨م التى شيدها كمالوك بن عبد الله . د. محمود الحسين ، الاسبلة العثمانية ، مكتبة مدبولى ، ١٩٨٨م ، ص٧١.

٢- محاضر لجة حفظ الآثار العربية ، ك ٤١ ، سنة ١٩٥٤ :١٩٦١م ، ص٧

٣- محاضر لجنة حفظ الآثار العربية ، ك ٤١ ،١٩٥٤ :١٩٦١م ، ص٧

٤- تذكر الوثيقة ان واجهة السبيل عبارة عن داير تصف بيكار مبنية من الرخام الأبيض المحلى بالذهب . وثيقة زيباقادن ، الأرشيف التاريخى بوزارة الأوقاف رقم ٣٣٠٢ ،ص٦

٥- تذكر أن الأربعة شبابيك من النحاس الأصفر معدين البزابيزلشرب المارين . وثيقة زيباقادن، ٣٣٠٢ أوقاف ، ص٦

٦- تذكر الوثيقة زنهم أربعة بزبيز .وثيقة زيباقادن ، ٣٣٠٢أوقاف ، ص٦

٧- سوة المطففين، آية ٢٢-٢٣

٨- سورة الاسان، آية ٦

٩- سورة الانسان ، آية ٢١

١٠- سورة المطففين ، آية ٢٨

١١- تذكر الوثيقة أن هذا السلم يتكون من خمس درج احداها بالحجر والأربعة بالرخام الأبيض ، وثيقة زيباقادن ، ٣٣٠٢ أوقاف ، ص٦

١٢- تذكر الوثيقة أن هذه البائكة مركبة على أربعة عمدان من الرخام الأبيض الشفاف ، وثيقة زيباقادن ، ٣٣٠٢ أوقاف ،ص٦

١٣- سورة الانسان ، آية ٥

١٤- نص الآية الكريمة من سورة الواقعة (يطوف عليهم ولدان مُخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين) ولكن النص جاء بالسبيل ناقصا .سورة الواقعة ،الآيتان ١٧، ١٨ .

١٥- سورة الانسان ، آية ١٧

١٦- سورة المطففين ، الآيتان ٢٥، ٢٦

١٧- تذكر الوثيقة أن الباب معلق عليه درفتى باب خشب أفرنكيا ، وثيقة زيباقادن ، ٣٣٠٢ أوقاف ، ص٦

١٨- سورة مريم ، آية ١٢

١٩- هذه الحجرة تستخدم الآن كمحل مخزن .

٢٠- عنى المعمار يعمل بسطة امام شباك التسبيل وذلك لتسهيل صعود المارة عليها للشرب وغالبا ما كانت هذه البسطة تأخذ شكل الواجهة التى تتقدمها ، وفى سبيل أم محمد على تأخذ البسطة شكل الدايرة وكان يتوصل الى

هذه البسطة عن طريق درج يلتف حولها .

٢١- الفساقى ، مفردها فسقية وكان لهذا اللفظ من المعانى فهو يعنى حوض ماء الوضوء والاغتسال أو أحواض تسبيل المياه وهى التى تتوسط أرضيات شبابيك الأسبلة ويسيل عن طريقها الماء للمارة .
د. مصطفى نجيب ، الملحق الوثائقى ، ص١٨٤ .

٢٢- الصهريج ، الجمع صهاريج بفتح الصاد ، وتكسر فى حالة الافراد ، وهو حوض يتجمع منه الماء، وصهاريج الاسبلة بالاسفل منها فى تخوم الارض وهى الطبقة الغير ظاهرة للعيان ووسيلة الاتصال بها هى فتحتها التى يجلب منها الماء ، كما يمكن الاتصال بها عن طريق فتحة بركن فى أرضية السبيل أو فى الجزءالملحق به عن طريق سلم صغير وذلك لنزول المزملاتى لتنظيف الصهريج وتطهيره قبل ملئه وتبنى الصهاريج عادة من الآجر أو الأحجار المقاومة للرطوبة ، أما مونتها فمن الخافض وهى مونة تتكون من الجير والحمرة وتقاوم الرطوبة . وتغطى الصهاريج بقباب ضحلة غير عميقة «مقالية» تعتمد على دعامات وعقود من الحجر النحيت .
د. مصطفى نجيب ، الملحق الوثائقى ، ص١٧٨-١٧٩ .

٢٣- الخافض ، مونة من الجير والحمرة تستخدم فى بناء الصهاريج أو أحواض المياه لأنها تقاوم الرطوبة وتمنع تسرب المياه ،
د. مصطفى نجيب ، الملحق الوثائقى ، ص١٧٩ .

٢٤- الخرزة ، هى غالبا قطعة من الرخام أو الحجر الصلد ، توضع على فوهة البير أو فتحة فتحة الصهريج المبنى فى جوف الأرض وتكون مستديرة الشكل عادة .
د. عبد اللطيف ابراهيم ، وثيقة قراقجا الحسنى ، ص٢٣ .

٢٥- مسقف روميا مدهون ، هو السقف المسطح أو المطبق دمسا فى مصطلح أرباب النجارة وتسقف به الأيوانات والحجرات الصغيرة ويكون من ألواح الخشب المدهونه بالألون وقد انتشر فى العصر التركى وعرف باسم« سقف رومى» ،
د. عبد اللطيف ابراهيم ، دراسات تاريخية دائرية لوثائق عصر الغورى ، معجم المصطلحات الفنية .

* * *

المصادر والمراجع العربية

أولا : الوثائق

وثيقة زيباقادن ، ٣٣٠٢ أوقاف .

ثانيا : المراجع العربية

– امين سامى باشا

تقويم النيل وعصر محمد على باشا ، ج٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٦هـ /١٩٢٨م .

–اندريه ريموند

فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانيه ، ترحمية زهير الشايب ، روزاليوسف ، ١٩٧٤

– حسنى نويصير (دكتور)

مجموعة سبل السلطان قايتباى بالقاهرة ، ماجسيتير ، جامعة القاهرة ١٩٧٠

– عبد الرحمن زكى (دكتور)

القاهرة تاريخيا وآثارها من جوهر الفائد الى الجبرتى الؤرخ ، القاهرة ، ١٩٦٦

الاسبلة الاثريه فى مدينه القاهرة ، مقاله بمجلة كليه الآثار ، جامعه القاهرة ، ١٩٧٧

– عبد اللطيف ابراهيم (دكتور)

دراسات تاريخيه واثريه فى وثائق عصر الغورى ، مجلدان ، دكتوراه ، جامعه القاهرة ، ١٩٥٦

وثيقه قراقجا الحسنى ، فصلة من كلية الاداب ، الجزء الثانى ، مجلد ١٨ ، ١٩٥٦ –محاضر الحنه حفظ الآثار العربيه ، ك ٤١ ، ١٩٥٤– ١٩٦١

– محمد مختار باشا

التوفيقات الالهاميه ، بولاق ، ١٣١١هـ

– محمود الالفى

عمائر القرن التاسع عشر ، دكتوراه ، كليه الهندسه ، ١٩٨٤

– مصطفى نجيب (دكتور)

مدرسه امير كبير قرقماس ، دكتوراه ،مجلدان ، جامعه القاهرة ، ١٩٧٥

* * *

ثالثا : المراجع الأجنبية

Aslanapa (O.)

Turkish Art And Architecture, london 1971

Description de l'Egypte.Vol .2,paris, 1800.

Mantrain (R.)

Inscription turques aude l'Epoque turques caire (Annales Islamologiques) tomex1.IFAO,1972.

Pauty (E.)

- Etude sure des Monuments l'Egypte de la periode Ottomane (dans comite de conservation des Monuments de l' Art Arabe comite XXXVII) . !933-1935 .

- Les Sabils - Kouttabs (BIFAO.Tome XXXVI) , Le Caire , 1939 .

- Raymond (A.)

Les Fontaines Publiques (Sabil) de caire A L'Epouque Ottomane (Annales Islamologiques) Tomexv,

IFAO,1979.

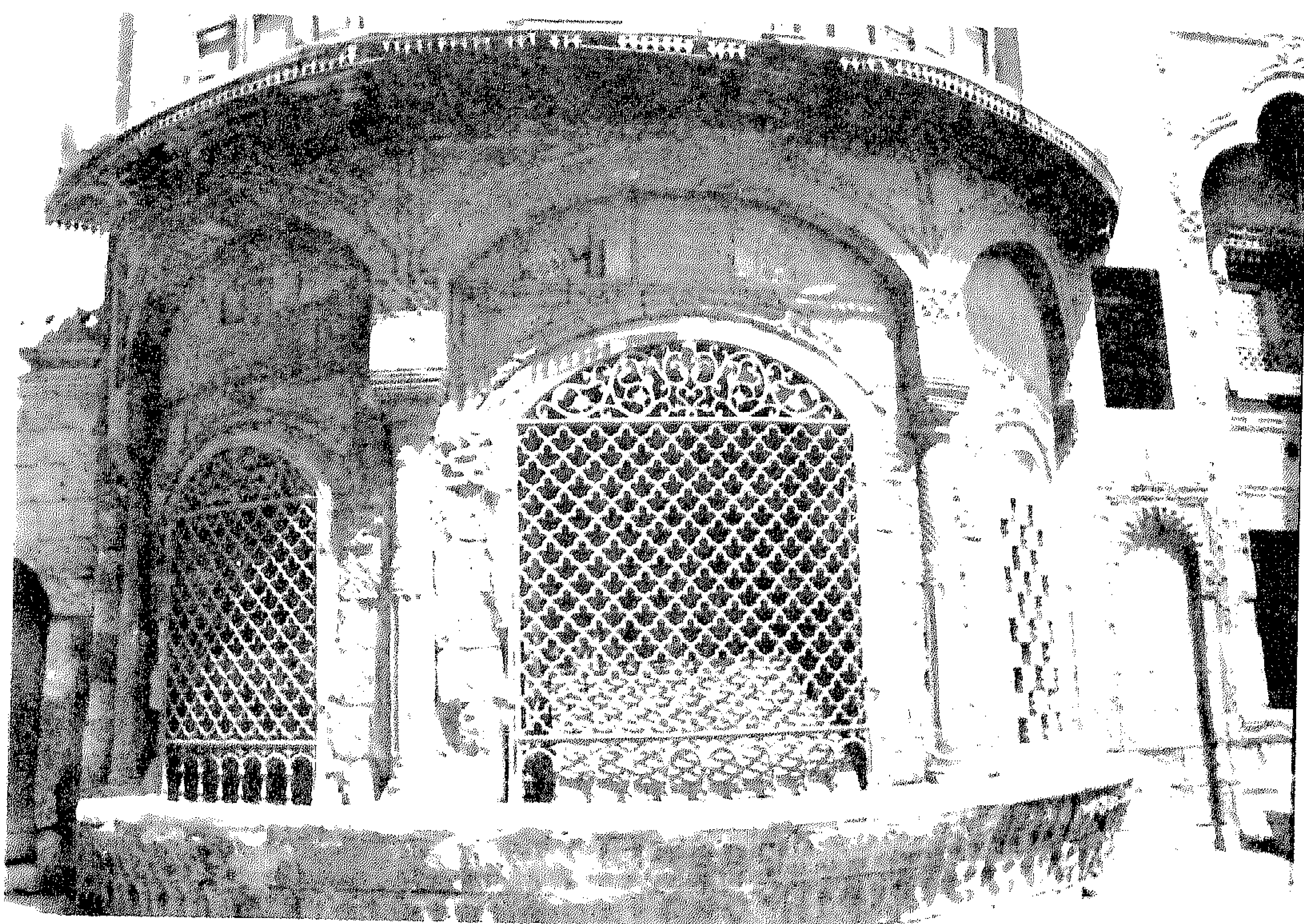
* * *



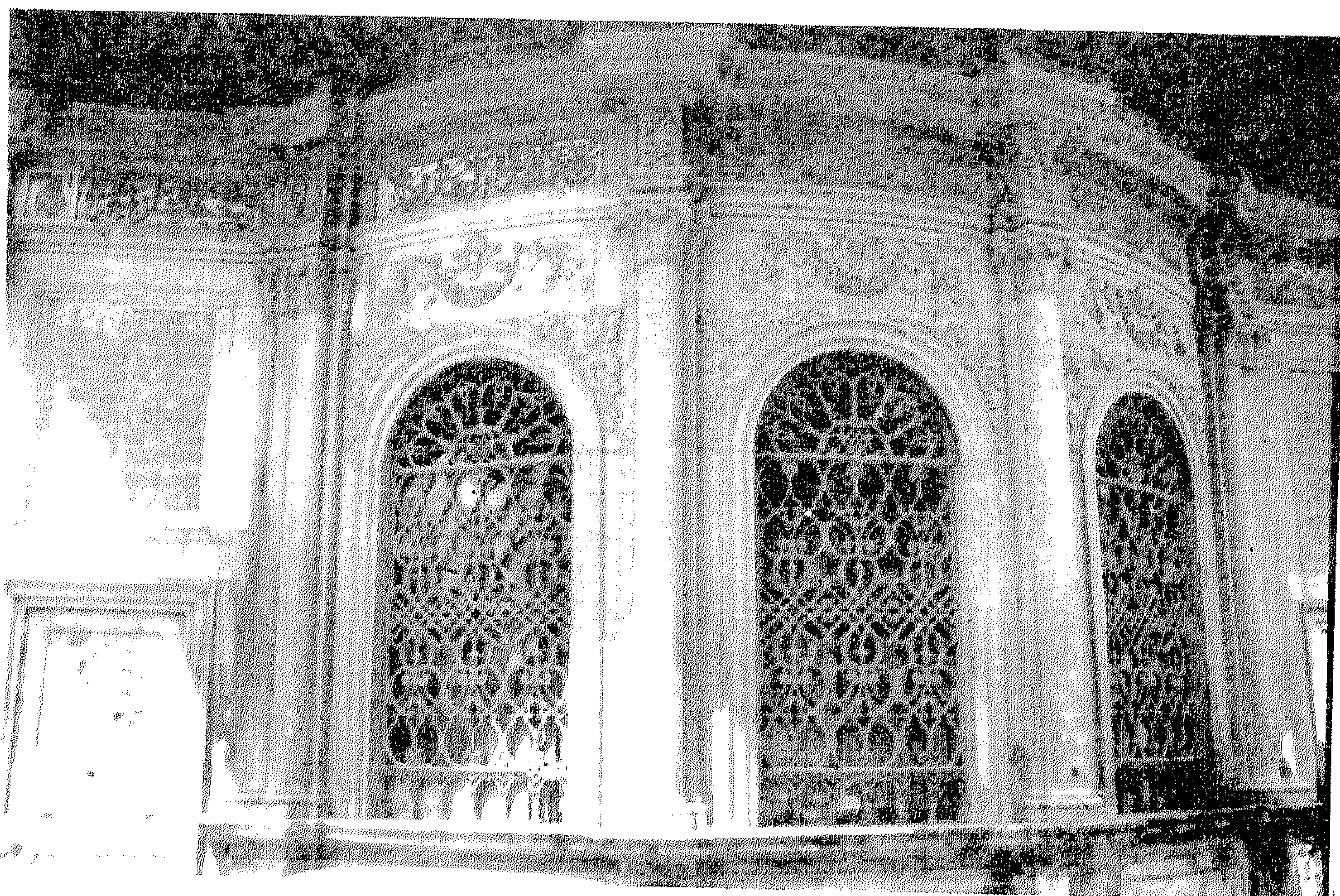
١- واجهة سبيل مصطفى الثالث



٢- واجهة سبيل رقية دودو



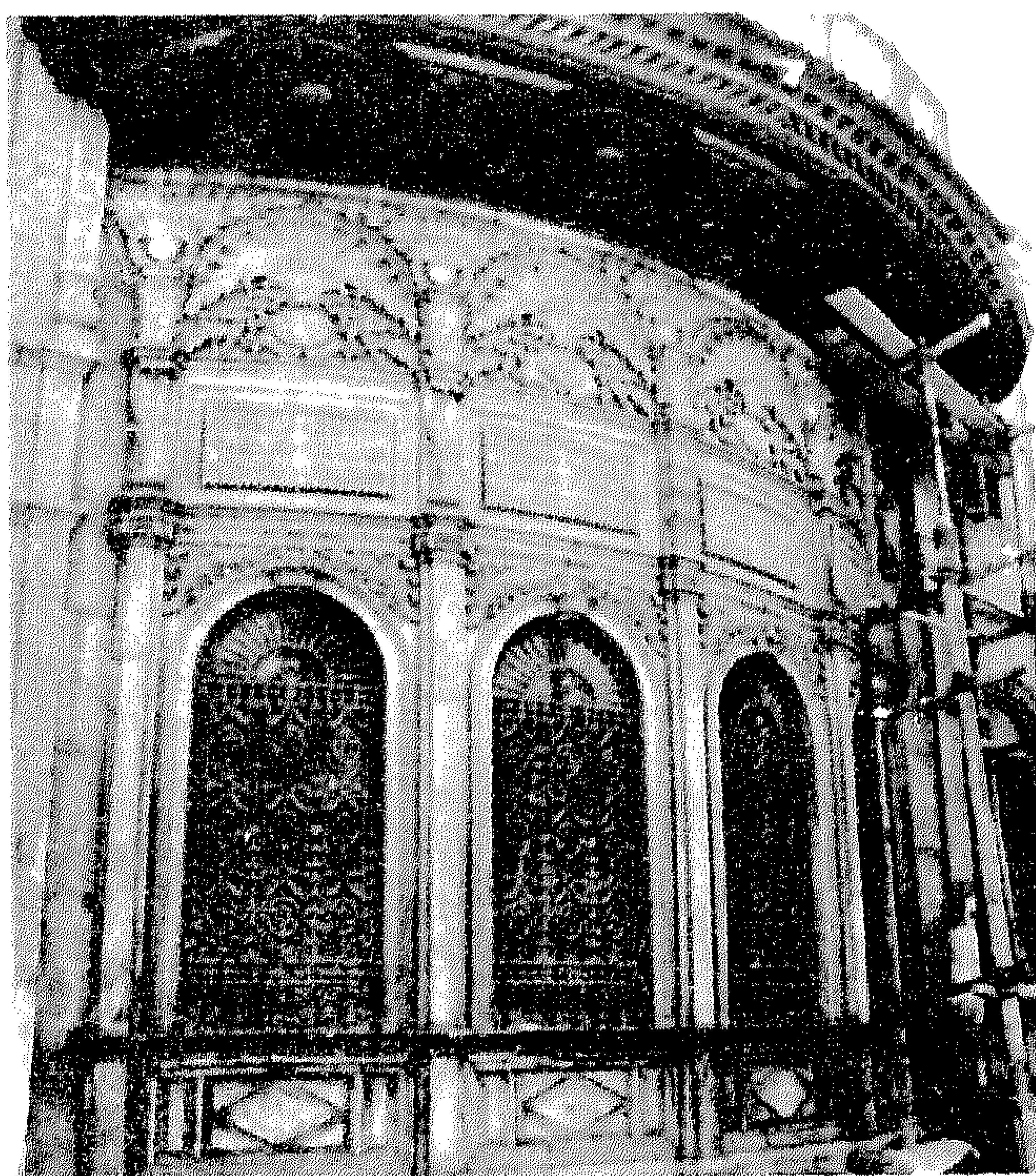
٣- واجهة سبيل حسين الشعيبى



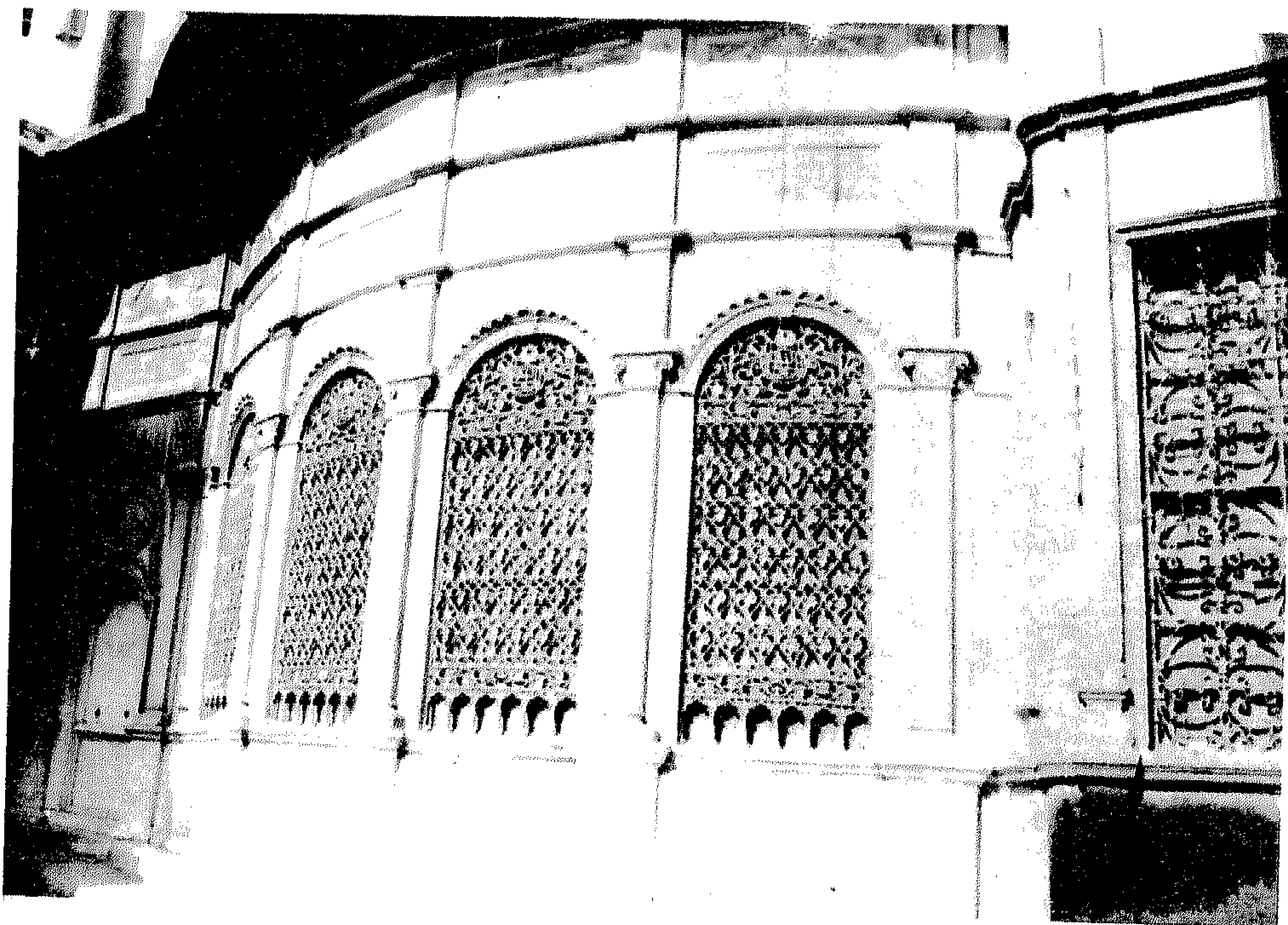
٤- واجهة سبيل مصطفى فاضل



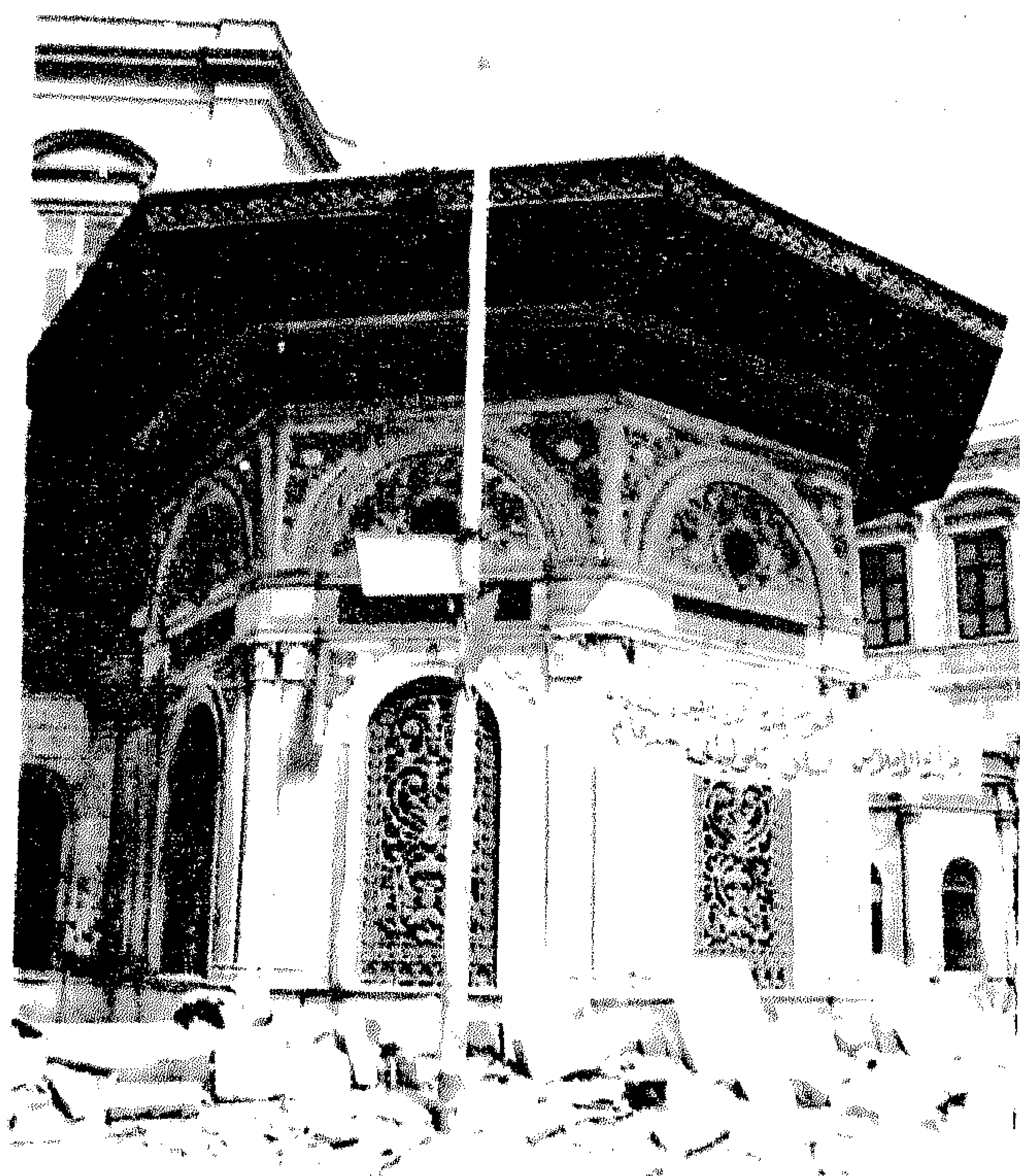
٥- واجهة سبيل الشيخ صالح



٦- واجهة سبيل محمد على بالنحاسين



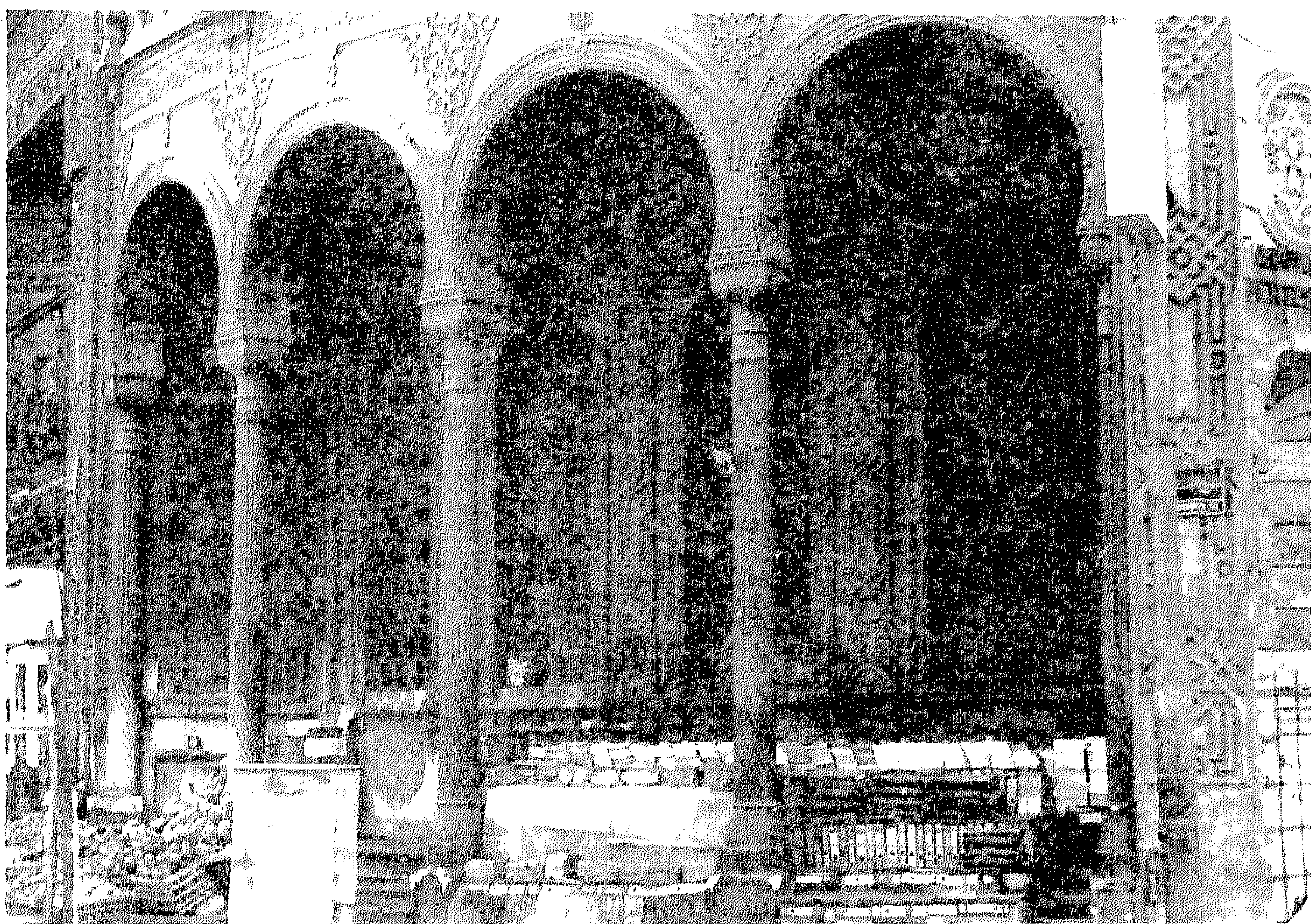
٧- واجهة سبيل سليمان أغا السلحدار



٨- واجهة سبيل بمباقادن



٩- واجهة سبيل وكتاب أم محمد على الصغير



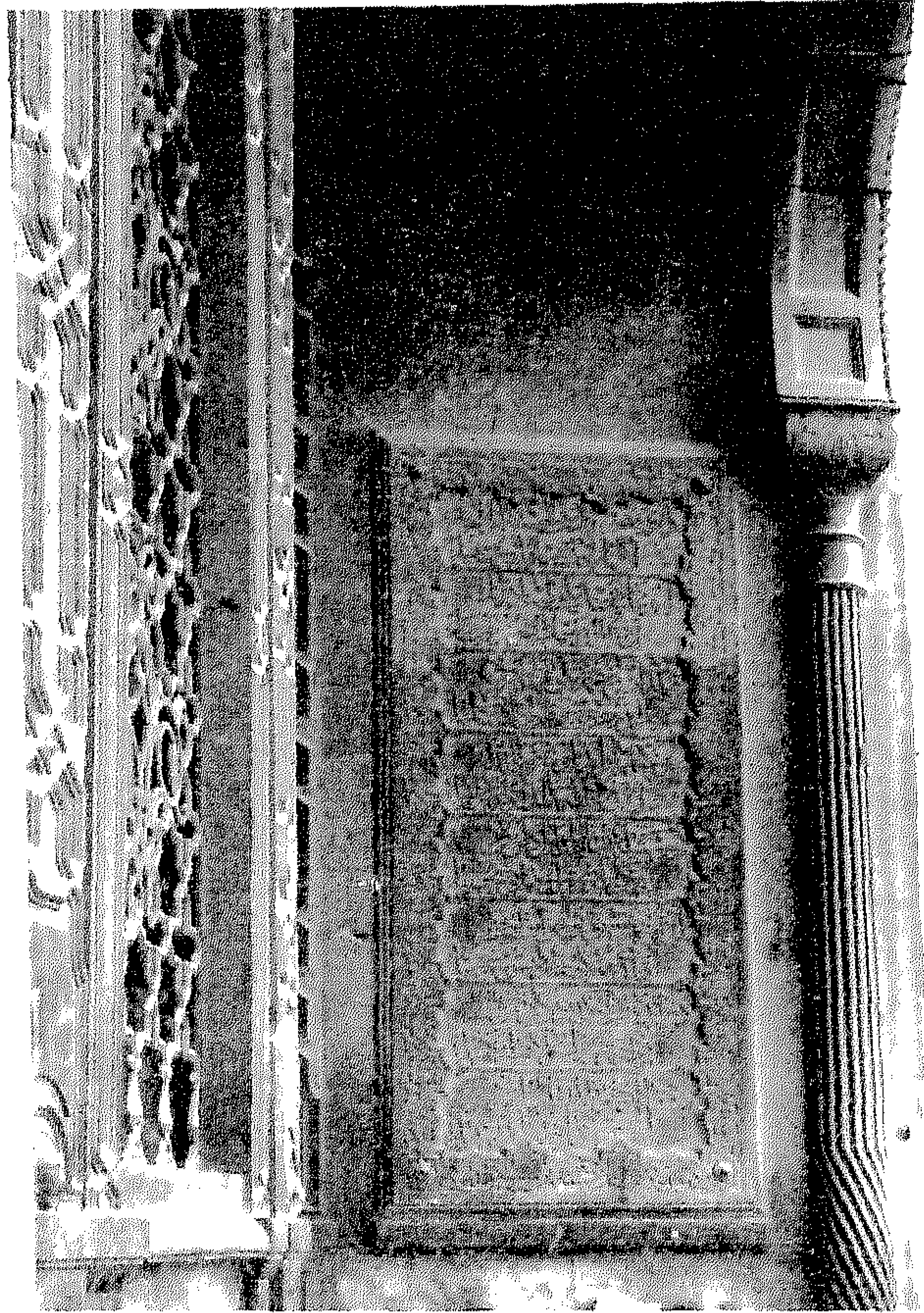
١٠- واجهة سبيل أم محمد على الصغير



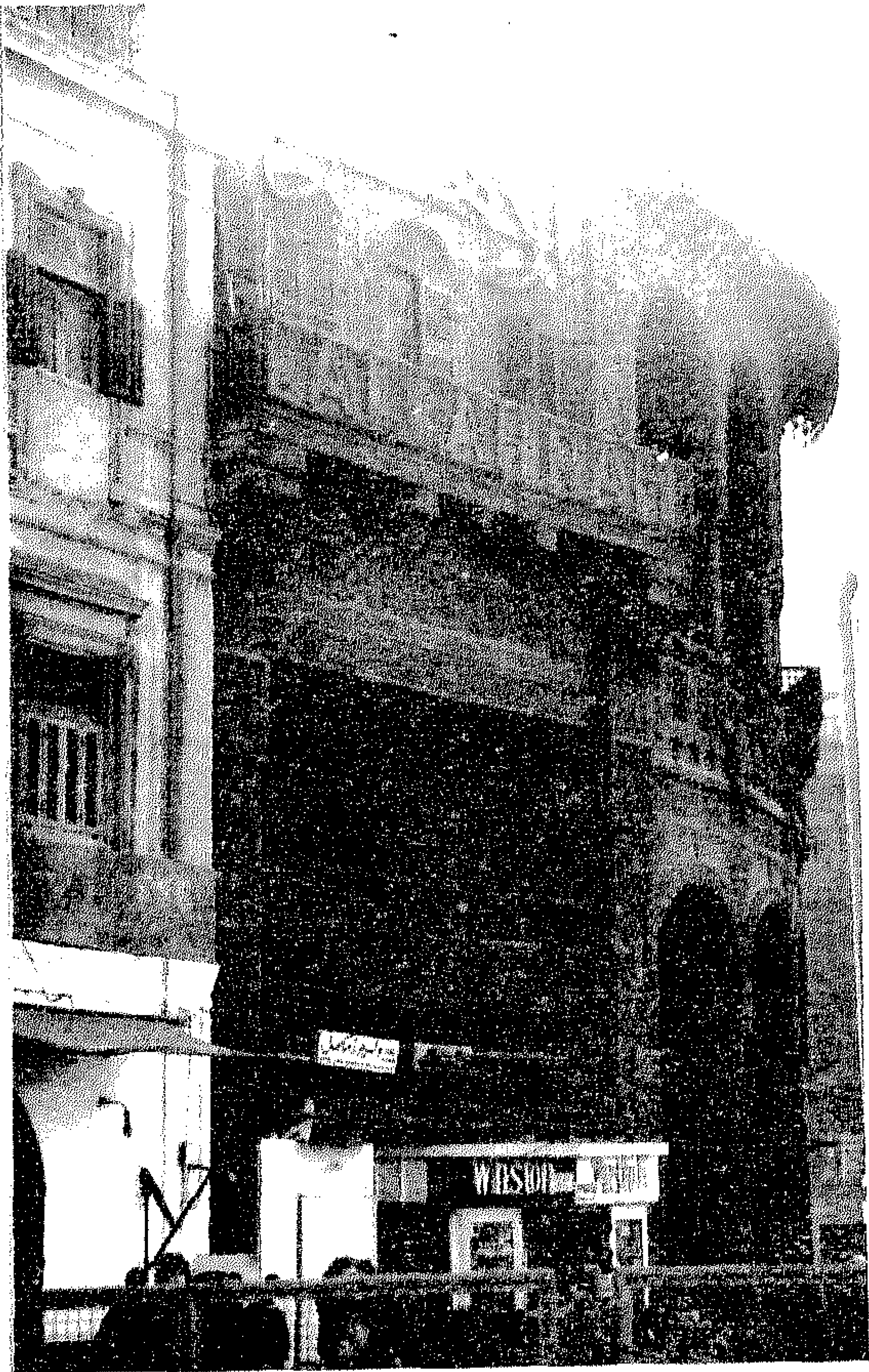
١١- واجهة سبيل أم محمد على الصغير



١٢- الكتاب الذى يعلو سبيل أم محمد على الصغير



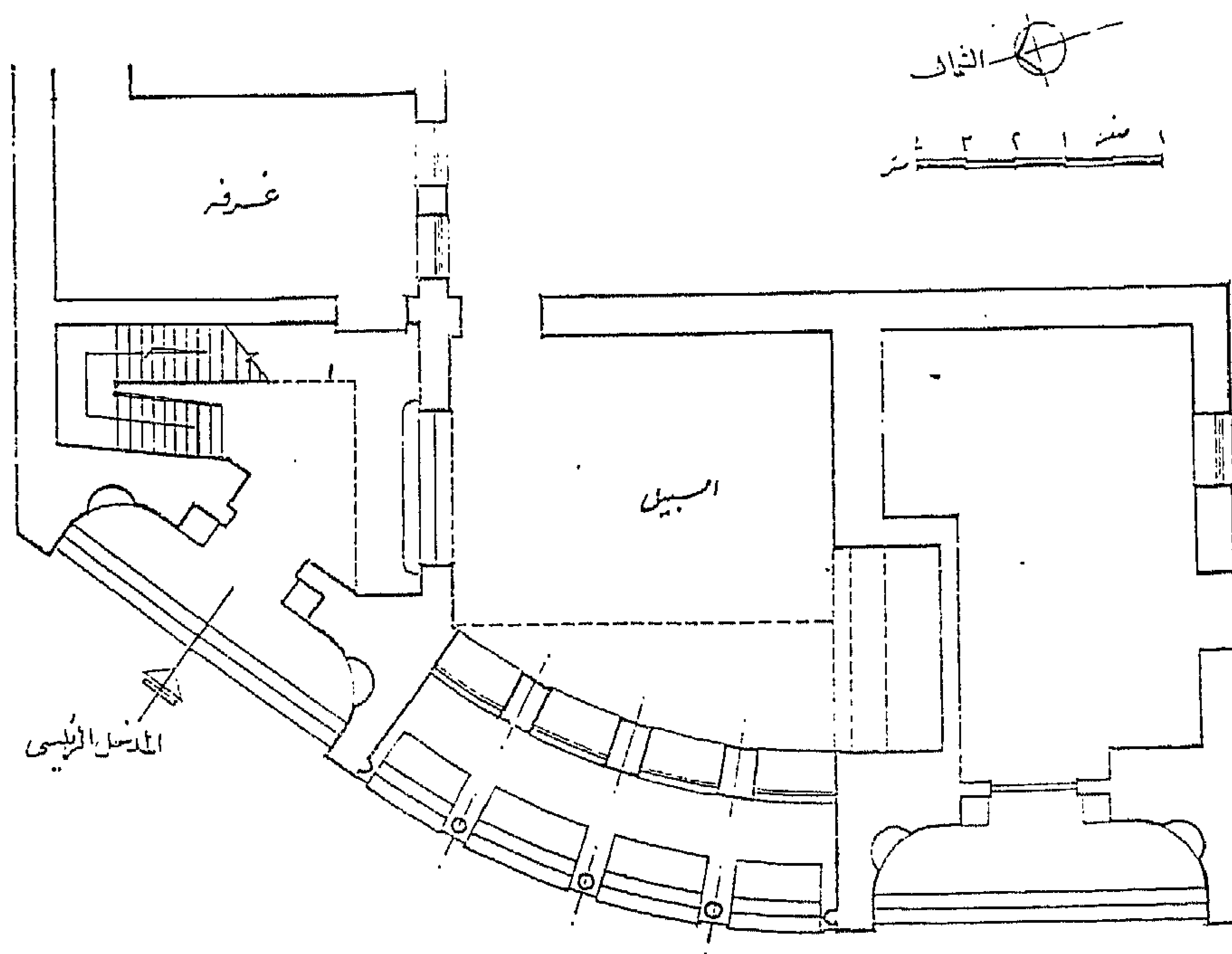
١٣- النص الكتابى بالجهة اليمنى
لسبيل أم محمد على الصغير



١٤- مدخل سبيل أم محمد على الصغير

١٥- النص الكتابى أعلى مدخل سبيل أم محمد على الصغير





سبيل أم محمد على الصغير- مسقط الدور الأرضى

تعليم ودراسة الآثار الاسلامية
في صعيد مصر ١٩٧٦ - ١٩٨٥

دكتور / عاصم الدسوقي
عميد آداب سوهاج

لسنوات طويلة كان تدريس الآثار الاسلامية فى مصر مقتصرا على جامعة القاهرة . ولم تتسع دائرة الاهتمام التعليمى بهذه الزاوية من الحضارة لكى تضم الجامعات المصرية الاخرى وخاصة جامعتى الاسكندرية وعين شمس رغم قدم كل منهما بالنسبة للجامعات التى نشأت فى أقاليم مصر .

والحق ان كلية آداب سوهاج (جامعة أسيوط) تميزت عن نظائرها بالجامعات الأخرى بانشاء قسم للآثار بها فى ١٩٧٦ /١٩٧٧ ، وهو العام التالى مباشرة لنشأة الكلية . ويتكون هذا القسم من شعبتين : شعبة لدراسة الآثار المصرية القديمة ، وشعبة لدراسة الآثار الاسلامية .

وتقوم الدراسة فى شعبة الآثار الاسلامية على الجانب النظرى العلمى والجانب التطبيقى العملى فى آن واحد ، من حيث دراسة : العمارة والفنون الاسلامية ، والتصوير الاسلامى ، والمسكوكات والكتابات الأثرية ، وفن المتاحف ، وتاريخ الفن . كما تهتم الشعبة بتدريس العلوم المساعدة لتعليم الآثار الاسلامية مثل اللغة الفارسية والتركية ، ومقطوعات من النصوص بلغات أوربية ، فضلا عن صفحات من التاريخ الاسلامى . ويضاف الى ذلك التدريبات العملية المتصلة بالعمارة والفنون فى المناطق الأثرية والمتاحف ، وكذلك ترميم الآثار والترميم المعمارى . وتساعد الرحلة العلمية السنوية التى يقوم بها طلاب الشعبة الى القاهرة والاسكندرية ورشيد ومناطق أخرى فى اكتمال الفائدة العلمية المرجوة . وتعتمد الشعبة فيما تعتمد فى التدريس ، على الأجهزة البصرية والسمعية ، والتدريب على القطع الأثرية المهداة من بعض أصحاب المجموعات الخاصة ، فضلا عن مكتبة متخصصة تضم المصادر والمراجع اللازمة للبحث العلمى فى ميدان الآثار .

وقبل أن تتخرج الدفعة الاولى من الشعبة فى عام ١٩٨٠ ، كان المجال قد فتح للدراسات العليا للحصول على درجتى الماجستير والدكتوراه فى موضوعات لها اهميتها الملحوظة ، لم تطرق من قبل فى مجال الآثار والفنون الاسلامية والمسيحية ، ليس فقط فى نطاق مدينة القاهرة المعروفة للجميع بتخمتها فى المفردات والوحدات الأثرية ، بل لقد امتدت الدراسات لتشمل البحث خارج هذا النطاق وخاصة فى صعيد مصر . وهنا ترتبط الدراسة فى آداب سوهاج بخدمة الاقليم مما يساعد على توسيع نطاق السياحة الآثرية فى البلاد .

والحق إن الفضل فى انشاء قسم الاثار بآداب سوهاج وشعبة الاثار الاسلامية بشكل خاص ، يعود الى الى العالم الفاضل الاستاذ عبد الرحمن عبد التواب الذى وضع خطة الدراسة بهذه الشعبة ، وأسهم فى التدريس بها والاشراف عليها ، وأخذ على عاتقة مسئولية اعداد هيئة التدريس اللازمة حيث أشرف على بعض النابهين من الطلاب وتعهدهم بالرعاية العلمية والأبوية لاعداد رسائل الماجستير والدكتوراه ، حتى تولى بعضهم مسئولية أعباء التدريس .

ولقد حرص عبد الرحمن عبد التواب على أن تغطى الرسائل العلمية التى تحت اشرافه المجالات المتنوعة للاثار الاسلامية : فى مجال العمارة وفى مجال الفنون وفى مجال الاثار والفنون المسيحية بمصر ، بحيث يحق لنا أن نطلق على هذه الشعبة اسم شعبة الاثار الدينية فى مصر . ولعل هذا ما يميز حقيقة تعليم ودراسة الاثار فى آداب سوهاج .

ففى مجال العمارة الاسلامية كانت خطته تتلخص فى محاولة الوقوف على النظريات والانساق التى تجمع الآثار المختلفة ، والبحث عن الخصائص المشتركة لمجوعة عمائر معينة ، أو لمجموعة

عمائر تنسب لشخص بعينه ، ومحاولة الافادة من الوثائق فى استخراج كثير من المعلومات المتعلقة بالآثار والدراسة القائمة فى وضع رسوم افتراضية لها .

فى بحث بعنوان «نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة» (١) وجه الباحث لاكتشاف التنوع فى المنشآت الدينية الاسلامية ، والاختلاف فى التخطيط اثباتا لفرضية تقول باختلاف الوظائف التى تؤديها وتنوعها . ولقد أكدت نتائج هذه الدراسة ان تطبيق النظرية الوظيفية قديم وملازم لنشأة العمارة والعمران ، وتحققت بوضوح فى المعمار المملوكى ، وليست نظرية جديدة .

ولاثبات هذه الفرضية اعتمد البحث على التقاط المعلومات الواردة فى أمهات كتب التراث الاسلامى كخلفية تاريخية للعمارة محل الدراسة ، ثم الاتجاه نحو تحليل الأبنية تحليلا معماريا يبين ما بها من عناصر انتفاع أو خدمة أو تهوية واضاءة أو انتقال وحركة أو وقاية أو عناصر جمالية . ولقد تطلب هذا تتبع نشأة وظيفة كل نوع من انواع المنشآت الدينية وتطورها قبل العصر المملوكى ، مثل منشآت الصلاة ، والتدريس ، والتصوف ، وما طرأ على هذه المنشآت من تغيير فى العصر المملوكى حيث تكشف الدراسة فى النهاية ان المبانى الدينية فى العصر المملوكى قد أنشئت لغرض عملى ، وان هناك علاقة وثيقة بين الحياة السياسية للدولة ونشأة نوعيات مختلفة من المنشآت الدينية ، وعلاقة بين الدراسات الفقهية وتطورها وبين نشأة وتطور تلك المنشآت ، كذلك كشفت الدراسة أسلوب الحياة فى المدارس والخانقاوات ودورها فى رعاية الطلبة والمتصوفة ، وأثر ذلك فى تخطيط مبانيها وعناصرها المعمارية .

ومن العمائر الدينية بشكل عام الى دراسة «منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهايةعصر المماليك » بشكل خاص . (٢) ويقوم البحث هنا على دراسة لمجموعة من المنشآت الأثرية المختلفة تختص بالخدمات المتكاملة ، وهى الخدمات التى تعرف حاليا بالرعاية الاجتماعية . فهناك البيمارستان وخدماته العلاجية والوقائية ، والحمامات العامة وما كانت تؤديه من خدمات ، وذلك اعتمادا على نصوص وثائقية صححت كثيرا من الاستنتاجات والفروض التى وردت فى مؤلفات سابقة . كذلك يشير البحث الى الربط والزوايا والخوانق والمدارس والأسبلة والكتاتيب ، ومدى ملائمة العناصر المعمارية لكل منها لما تؤديه من وظيفة اجتماعية أو خدمة اجتماعية .

وتثبت هذه الدراسة ان الرعاية الاجتماعية فى تلك الفترة كانت من اختصاص منشآت تضم المتخصصين ، كما تميزت بصفة الاستمرار بفضل نظام الوقف الذى ضمن لها دخلا ثابتا ومستمرا يتم التصرف فيه باسلوب مقنن تحكمه شروط الواقف والاعراف السائدة ، مما خرج بهذه المنشآت عن طابع الاحسان الفردى الى التزام المجتمع والدولة .

وكان «للمنشآت المائية بمصر منذ الفتح الاسلامى وحتى نهاية عصر المماليك» من الزاوية المعمارية موضع اهتمام فى مدرسة عبد الرحمن عبد التواب . فنرى ان تلك الدراسة (٣) تتناول مقياس الروضة ووصفه المعمارى ، ثم خلجان وترع وجسور القاهرة والوجهين القبلى والبحرى وحدود كل منها . ثم اشارة الى «السقايات» قبل العصر الاسلامى ، وسقاية ابن طولون ، وسقاية فم الخليج ، وكافة السواقى والآبار التى كانت تستخدم فى تجميع ورفع المياه . وبعد ذلك تأتى دراسة

القناطر الثلاث الرئيسية : قنطرة الظاهر بيبرس ، ثم قنطرة اللاهون ، ثم قنطرة أم دينار ، وما يتصل بذلك من أماكن خزن المياه مثل الصهاريج العامة والسدود بأنواعها ، والخزانات الطبيعية والصناعية .

ولهذه الدراسة فضل تحديد المقاييس التى كانت قائمة قبل الفتح الاسلامى ، وتلك التى بناها المسلمون ، وتحديد أعمال الترميم التى تمت ببعض هذه المقاييس منذ بنائها ، وتصحيح بعض الاخطاء الشائعة عن مواقع بعض الخلجان والسدود والقناطر ، وإثبات اسماء أكثرها وتصحيحها ، وكذلك اسماء منشئيها .

واستكمالا للجوانب المختلفة للمنشآت المعمارية فى مصر الاسلامية ، أشرف الاستاذ عبد الرحمن عبد التواب على دراسة بعنوان «المنشآت الصناعية فى العصر المملوكى من خلال الوثائق» (٤) الخاصة بمختلف التحف والوحدات الجمالية التى ازدانت بها المنشآت المعمارية بالقاهرة ، ومنشآت الحرف الصناعية الأساسية أنذاك مثل معاصر الزيوت والسيارج والقصب ومطبخ السكر ، ومعامل النشا ، وقاعات الحلاوة ، وقاعات اللبن ، وأفران الخبز والطواحين ، وما يتعلق بحرفة النسيج مثل قاعات القزازة والحرير والسجاد والصباغة والحياكة . وما يتعلق بصناعة التعدين مثل قاعة النحاس وقاعة الذهب والفضة ، ثم الفواخير وصناعة البناء ومستلزماته من ضرب الطوب والجباسات ونشر الرخام .

ولقد توصل الباحث من خلال وثائق بعض المنشآت الى وضع رسوم افتراضية لها ، ووصف الكثير منها ، وتحديد مواقعها بالقاهرة . كما أضاف اسماء بعض الصناع والحرفيين التى لم تكن معروفة لجمهرة دارسى العصر ، كما جمع الكثير من المصطلحات الخاصة ببعض الآلات .

واذا كان الاستاذ عبد الرحمن قد وجه طلابه لدراسة مجالات العمارة الاسلامية على نحو ما سبق ذكره فى أربعة أعمال ، فلم يفته الاهتمام بالمهندسين المعماريين والبنائين الذين أقاموا صرح تلك العمارة . ومن هنا نجد رسالة عن «المعمار الاسلامى فى مصر من الفتح العربى وحتى نهاية الدولة المملوكية» (٥) تعنى بدراسة شخصية المهندس المعمارى فى مصر الاسلامية ، والفريق المشارك فى تنفيذ الاعمال المعمارية من المهندس المشرف الى عامل البناء نفسه (الفاعل) . وقد شملت الدراسة مواد البناء المستخدمة وتأثيرها على الطراز المعمارى ، وأساليب البناء المختلفة ، وذكر أعلام المهندسين ومشاهير رجال العمائر ، وبعض المشرفين على العمائر ومعاونيهم من مرخمين ونقارين . كما تناولت الدراسة المكانة الاجتماعية للمهندسين وطبيعة عملهم التى تحكمها ضوابط كثيرة منها الظروف البيئية والعوامل الدينية ، والظروف السياسية والاقتصادية ، وذلك من خلال نظام طوائف الأصناف المختلفة ، وهو النظام الذى انتهى الى نظام نقابات المهن المعروف حاليا .

وبالاضافة الى المنشآت المعمارية فى المجالات المختلفة ، وجه الاستاذ عبد الرحمن عناية خاصة لدراسة مجموعات العمائر التى قام بانشائها شخص واحد أو تنسب اليه ، وذلك لأكتشاف الأسلوب الذى يربط بينها .

وفى هذا المقام هناك رسالة عن «الأعمال المعمارية للقاضى زين الدين عبد الباسط» [٦] وهو أحد الشخصيات البارزة فى العصر المملوكى التى تنوعت منشآته الدينية والمدنية فى مصر وخارجها حيث كان أصلا من أهل الشام . ولم تكن الاعمال المعمارية لهذا القاضى قد خضعت من قبل للبحث والتحليل . كما لم يرد ذكرها إلا فى اشارات المؤرخين القدامى الذين اهتموا بشكل خاص بترجمة حياته . ومن هذه الاعمال : تربته بصحراء المماليك ، ومدرسته بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، ومدرسته بالخرنفش بالقاهرة . ولقد عنى البحث بتصويب تاريخ انشاء المدرسة ووظيفتها وموظفيها، والوصف المعمارى لها ، ثم الملحقات التى الحقت بها مثل خلاوى الصوفية ، والسبيل ، والكتاب ، وما كانت تزدان به من تحف نقلت فيما بعد الى متحف الفن الاسلامى . كما اهتم البحث باكتشاف السمات المعمارية للمدرسة وكيف ان المهندس المعمارى المسلم استغل المساحات الناتجة من ميل زاوية القبلة ناحية الجنوب الشرقى لبناء ملحقات المدرسة . كما اهتم بدراسة زخارف المدرسة من معمارية وهندسية ونباتية وكتابية نسخية .

وهناك دراسة أخرى عن «الاعمال المعمارية ليوسف بن عبد الكريم بن بركة الشهير بالجمالى يوسف» . [٧] وهو أحد الشخصيات المدنية التى شاركت فى الاعمال الادارية بمصر وتنوعت منشآته الدينية والمدنية فضلا عن قيامه بترميم كثير من العمائر فى عصره . وهذه الاعمال ـ شأن أعمال القاضى زين الدين عبد الباسط ـ لم تخضع للبحث والتحليل الا فى اشارات المؤرخين القدامى الذين ركزوا أكثر على ترجمة حياته .

وقد تناولت الدراسة أعمال الجمالى فى القاهرة وخارجها وخارج مصر ، مع التركيز على مدرسته بسويقة الصاحب ، حيث قدم تاريخها ووظيفتها ، والوصف المعمارى لها وملحقاتها (السبيل والكتاب) ، واعمال الترميم والاصلاحات التى أجريت لها . وكذلك الاهتمام بزخارفها الهندسية والبنائية والكتابية النسخية والكوفية ، وسائر الزخارف المعمارية المختلفة . ولم تهمل الدراسة شرح المصطلحات الفنية والمعمارية التى وردت بوثائق الجمالى وتسجيل الرسومات الهندسية والتقاط الصور الفوتوغرافية .

أما السلطان الغورى صاحب الشهرة الذائعة بين المماليك والذى مازال اسمه متداولا فى قلب القاهرة المعزية من خلال شارع الغورية ، فقد كانت عمائره موضع لدراسة بعنوان «العمائر فى وثائق الغورى الجديدة بوزارة الاوقاف» . [٨] ويتلخص الهدف من تخصيص بحث كهذا ، فى نشر مجموعة من أوصاف العمائر المدنية التى وردت بوثائق الغورى ، مما يساعد على تصور التكوين المعمارى لها لمعرفة خصائص وميزات هذه النوعية من العمائر التى لم يتبق منها نماذج مثل المنازل والقياسر والمعاصر والطواحين ، ومحاولة تحديد مواقع هذه المنشآت ، مما يساعد فى النهاية على التعرف على تخطيط القاهرة فى اواخر العصر المملوكى .

ولهذا عرضت الدراسة للنصوص المتعلقة بالمنشآت التجارية من خانات وفنادق ووكالات وقياسر وأسواق وحوانيت ومقاعد . وقد حاول الباحث بناء على ذلك ان يرسم بعض المساقط الافتراضية لعدد من هذه المنشآت . ثم قام بدراسة المنشآت الصناعية وهى : مطبخ السكر بحارة زويلة ، ومعصرة قصب بولاق أمام المدرسة الجيعانية ، ومعصرة زيوت بالقرب من الجامع الواسطى . وقد

وضع الباحث تصورا للتكوين المعماري لهذه الوحدات ومراحل العمل بكل منها . وكذلك الحال بالنسبة للمنشآت السكنية الواردة في وثائق الغوري من رباع ومنازل وقصور ، مع دراسة اجزاء الدار المملوكية ، ووصف لعشرة من هذه الدور والقصور التي تعطي تصورا لأوضاع العمائر السكنية . ولقد أفردت الدراسة نقطة لدراسة القاعة المملوكية من حيث تكوينها المعماري ووظائفها ، ودراسة لحمامين ورد ذكرهما في الوثائق وهما : حمام بجوار جامع الخطيري وحمام الحلاويين .

والى جانب ما تم نشره في هذا البحث من أوصاف خمس واربعين منشأة مدنية لأول مرة ، استطاع الباحث تحديد موقع العشرات منها ، وتعديل تاريخ بعضها ، والكشف عن طرز جديدة لبعضها ، وتحديد استخدامات كثير منها .

ولقد امتدت دائرة الاهتمام بالعمارة الاسلامية بآداب سوهاج الى العصر العثماني ولم تتوقف عند عصر المماليك ، كما هو الحال بالنسبة لأغلب الدراسات . فنرى دراسة عن «الطراز العثماني في عمائر القاهرة الدينية ٩٢٣ - ١٢٢٠هـ» .(٩) استهدفت التعرف على الوحدة الفنية والأصول المعمارية للعمارة التركية ، وأوجه الشبه بين الآثار المختلفة في مناطق واسعة من خلال دراسة تصميمات المساقط الأفقية لمتابعة مدى استمرار الوحدة الفنية للفن والعمارة التركية .

وعلى هذا تناول الباحث النشاط المعماري عند الاتراك وحتى نهاية حكم السلاجقة العظام ، أي عند القرخانيين ثم الغزنويين ثم السلاجقة العظام الذين أخذ عنهم سلاجقة الأناضول الكثير من التقاليد المعمارية التي سادت آسيا الصغرى . وينتقل بعد هذا لدراسة المعمار التركي بآسيا الصغرى على يد سلاجقة الاناضول في الجامع والمدارس والأضرحة والمنشآت التجارية ، ثم عند الايلخانيين خلفاء هولاكو ، وعند الامارات المستقلة التي نشأت في أعقاب سقوط دولة السلاجقة .

وبعد ذلك يعالج الباحث التراث المعماري الديني عند الاتراك العثمانيين . فيدرس الجامع العثماني ، والتطور الى الطراز الفخم بدء من اعمال بايزيد الثاني . وقد اهتم الباحث بتحديد العمائر الدينية في القاهرة التي اصطبغت بالصبغة العثمانية .

وفي هذا الاطار هناك رسالة أكثر خصوصية تتناول «الاثار الاسلامية بمنفلوط من الفتح العربي حتى العصر العثماني» (١٠) والرسالة بهذا العنوان تخرج عن دائرة اهتمام معظم الباحثين الذين ركزوا ابحاثهم عن الآثار الاسلامية بمدينة القاهرة . وتكشف هذه الدراسة جوانب مختلفة من تاريخ مدينة منفلوط خلال فترة العصور الوسطى الاسلامية اعتمادا على الآثار المتبقية ، خاصة وان مؤرخي تلك الفترة اهملوا الاشارة الى الاقاليم .

وعلى هذا فقد ركز البحث على التعريف بآثار منفلوط الدارسة من معابد ومساجد ومدارس وأضرحة ومنازل وقاعات للغزل والنسج ومصابغ ومطاحن ومعاصر وحمامات ووكالات .وكذلك دراسة الاثار القائمة حتى نهاية العصر العثماني وهي : سبع مساجد بملحقاتها من مدارس وأسبلة وأضرحة ووكالة وقيسارية ، مع الاهتمام بالعناصر المعمارية والزخرفية لهذه الآثار .

ولقد خصص الباحث دراسة مستقلة لمسجدي الفرغل بأبي تيج والعياط ببني عدى ، وهما من أعمال الأمير على كاشف جمال الدين خارج مدينة منفلوط حاليا . كما اهتم الباحث بتسجيل الصور الفوتوغرافية والرسوم الهندسية للاثار الباقية بمنفلوط من مساجد وزوايا ومؤسسات اجتماعية ومنشآت تجارية .

وكان للفنون الاسلامية مجال فى شعبة الآثار الاسلامية بآداب سوهاج حيث وجه الاستاذ عبد الرحمن عبد التواب بعض تلاميذه لتغطية هذا المجال الذى يعنى بشكل عام بتفاصيل دقيقة للعمارة

وفى هذا المجال هناك رسالة عن «صناعة النسيج فى العصر المملوكى فى مصر»(١١) تناولت ثلاثة نقاط رئيسية : الاولى عن المواد الخام الحيوانية والنباتية المستخدمة فى صناعة النسيج ، وعمليات الغزل والنسيج والصباغة ، والمراكز الصناعية فى الوجه البحرى وصعيد مصر ، ودار الطراز والحسبة . والنقطة الثانية خاصة بالطرز الزخرفية المختلفة التى استخدمت من زخرفة منسوجة وتطريز وطباعة واضافة ، وانواع الملابس الخاصة بالسلاطين والخلفاء ، والخلع والتشاريف ، وملابس أرباب الوظائف الدينية والديوانية ، والملابس الخاصة بأهل الذمة من اليهود والمسيحيين . وأما النقطة الثالثة فكانت عن العناصر الزخرفية المختلفة التى استخدمت فى زخرفة المنسوجات من عناصر خطية وهندسية ورسوم حيوانية وطيور ورسوم آدمية ورنوك .

ولقد حرص الباحث على تزويد بحثه بالمصطلحات الفنية الخاصة بصناعة النسيج ومقابلها باللغة الانجليزية وشرحها .

وهناك بحث آخر خاص «بادوات الكتابة من الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى» (١٢) ويبين هذا البحث أهمية وقيمة أدوات الكتابة وموادها ودورها فى حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية ، وفضلها فى نقل الحضارة وأخبار التاريخ وخاصة تاريخ الأمم السابقة . ويتناول البحث بالتفصيل المواد التى كان يكتب بها مثل الأقلام والأحبار حيث نشر الباحث صورا للدوى الخشبية والنحاسية المكفتة بالفضة ، وصورا لاقلام البوص . ثم المواد التى كان يكتب عليها مثل : البردى والجلد والرق وطريقة اعداد كل منها للاستخدام ، واللوحات الطينية فى العراق القديم ، والكتب الخشبية ، والكتب الحريرية ، والالواح الخشبية لدى الرومان ، وطرق الكتابة عليها ، ولحاء الشجر والقماش .

ثم يخصص الباحث فصلا عن أدوات الكتابة فى العصر الاسلامى وهى : القلم وتسمياته واشتقاقاته وصفاته ومساحته وأسلوب اعداده للكتابة (البرى) ، ولقب ومقاس كل قلم ، ثم الاحبار والمواد المستخدمة فى اعداده . وفصلا عن المواد التى كتب عليها فى العصر الاسلامى وتعددها وتنوعها مثل : الحجارة ، والعظام ، والالواح الخشبية ، والقماش ، والفخار ، والخزف ، والمعادن ، والجلد والرق ، والبردى والاوراق ، وما يتصل بها من حرفة الوراقة والوراقين . وفصلا لدراسة بعض المواد التى كتب عليها دراسة فنية مثل : الجلد والرق والبردى والورق ، وكيفية اعداد كلٌ منها للكتابة .

وقد ألحق الباحث بالبحث ملاحق تضم تراجم لمشاهير الخطاطين والخطاطات، وتراجم لبعض الوراقين ولبعض الدوادرية .

ولم تقتصر اهتمامات الاستاذ عبد الرحمن عبد التواب على الدائرة التقليدية لدراسة الاثار الاسلامية فى مصر والتى ظلت منحصرة فى تناول الأثر الاسلامى بالمعنى الاصطلاحى ، بل نجده يخرج بتلاميذه عن نطاق هذه الدائرة ليتناول الآثار المسيحية فى العصر الاسلامى فى مصر، أو تحت ظلال الاسلام فى مصر ، مما جعل لشعبة الاثار الاسلامية بآداب سوهاج طابعا مميزا بفضل توجيهات هذا العالم الفاضل .

وفى هذا المجال هناك أربع دراسات نتخصصة :

الاولى دراسة عن «الحصون الدفاعية فى الأديرة المصرية» (١٣) تتناول ـ بعد الخلفية التاريخية اللازمة شأن كل الدراسات السابقة الحصون الدارسة وأصلها وخصائصها ، والحصون الباقية التى قسمها الباحث الى ثلاث مجموعات : الاولى، وتشمل أديرة وادى النطرون (أبو مقار ، وبيشوى ، والسريانى ، والبراموسى) ، ودير المحرق باسيوط والثانية ، وتشمل أديرة الانبا بولا والفاخورى والدير الأحمر . وتشمل المجموعة الثالثة ، ديرى الانبا هدرا باسوان ، ومصطفى كاشف بالواحات .

وقد أفرد الباحث جانبا لدراسة العناصر المعمارية والزخرفية فى الحصون من خلال عمل ميدانى قام به حيث أوضح مدى تأثرها بطرز وأساليب العمارة الاسلامية التى كانت سائدة وقت انشائها .

والدراسة الثانية عن «كنائس وأديرة محافظة الفيوم منذ انتشار المسيحية وحتى نهاية العصر العثمانى (١٤) » . وتأتى اهمية هذا البحث من أنه يدرس آثار الفيوم المسيحية تحت ظلال الاسلام . فنرى الباحث يتتبع أديرة وكنائس الفيوم المندرسة من خلال ما ورد عنها فى الوثائق ، وما ذكره مؤرخى العصور الوسطى ، وكتب الرحالة . وحاول على ضوء ذلك تحديد مواقع بعض الأديرة . ثم عرض للكنائس والأديرة القائمة حاليا ، ودرسها دراسة معمارية وتاريخية . وقد خصص فصلا للكنيسة المكتشفة وملحقاتها بالموقع المعروف باسم دير البنات .

وأما الدراسة الثالثة فكانت عن «التصوير الجدارى القبطى فى مصر الاسلامية حتى نهاية العصر المملوكى (١٥) » . وتبدو أهمية معالجة هذا الموضوع اذا ادركنا خلو المكتبة العربية من أية دراسة مستقلة عن التصوير القبطى على الجدران ، واقتصار جهود العلماء الأجانب على تسجيل مشاهدة بعض المناظر واغفال معالجتها من زاوية كونها تزين عمائر شيدت فى ظل الاسلام ، أو تم تجديد بعضها على الأقل فى ظله .

ولقد أقيمت هذه الدراسة على الرصد الميدانى فى أديرة : أبى مقار والانبا بيشوى ، والسريان ، والبراموس فى وادى النطرون ، ودير المحرق بأسيوط ، والديرين الأبيض والاحمر بسوهاج ، وديرى الشهداء والفاخورى باسنا ، ودير الانبا سمعان باسوان ، وديرى انطونيوس وبولا بالبحر الاحمر ، وكذلك فى البجوات بالواحة الخارجة ، فضلا عن كنائس مصر القديمة والمتحف القبطى .

ولقد خصص الباحث فصولا لدراسة تاريخ بناء وتجديد وتزيين كنائس وأديرة الاقباط فى مصر الاسلامية ، ودراسة التصاوير الجدارية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى ، ودراسة للسمات العامة للتصوير الجدارى عند الاقباط وعلاقته بفنون التصوير المعاصرة له ، وما يرتبط بذلك من دراسة الطرق الصناعية لهذا الفن ، والتعرف على سماته من خلال التعرف على علاقته بالتصوير الاسلامى على الجدران ، وعلاقته بالتصوير المسيحى المعاصر بشكل عام .

وتنتهى الدراسة الى اثبات ان الفتح العربى لم يوقف العمارة القبطية ، بل على العكس استمر الحال فى انشاء الأبنية المختلفة ، وتجديد لكثير مما هو قائم ، واستمرار فن التصوير على الجدران .

أما الدراسة الرابعة فى هذا المجال فكانت عن «التصوير فى بلاد النوبة منذ انتشار المسيحية حتى نهاية العصر المملوكى (١٦) » . ويدرس هذا البحث ما كشفت عنه أعمال التنقيب التى تمت فى بلاد النوبة من تصاوير جدارية ، وأخرى تزين التحف المنقولة ، مع الاشارة الى النظم والحضارة فى ممالك النوبة المسيحية .

وقد خصص الباحث فصولاً مستقلة لدراسة عمارة الكنيسة النوبية ، وما حدث من تصنيف لأنماطها ، وتتبع تطورها ، ومعرفة طرق الانشاء بها ، واهم المواد المستخدمة فى ذلك .

وتحديدا لأبرز الاتجاهات الفنية التي ظهرت فى فن التصوير ببلاد النوبة ، وابرازا للتأثيرات الوافدة عليه ، وصلة ذلك بالفنون المعاصرة له ، يفرد الباحث فصلا لدراسة فن التصوير فى الكنيسة الشرقية وما تميز به من سمات ، وفن توضيح المخطوطات ، والتصوير على التحف المنقولة فى بلاد النوبة . كما يفرد فصلا اخر عن التصوير الجدارى فى كنائس النوبة ، وفصلا عن الموضوعات التى شاع تمثيلها فى كنائس النوبة . كما تعرض لاصول وسمات فن التصوير على الجدران فى هذه البلاد .

ولقد عنى الباحث بتزويد بحثه بقائمة لملوك النوبة ، واسماء أساقفة فرس ، وكتالوجا باللوحات المختلفة .

تلك كانت انجازات شعبة الاثار الاسلامية باداب سوهاج خلال ما يقرب من عشر سنوات بفضل رعاية الاستاذ عبد الرحمن عبد التواب الذى لازال يشرف على رسائل اخرى فى مجالات مختلفة من فنون العمارة الاسلامية . وهى انجازات ضخمة بالقياس الى الفترة الزمنية .

* * *

الهوامش

١ ـ بحث لدرجة الدكتوراة من اعداد محمد عبد الستار عثمان .

٢ ـ بحث لدرجة الدكتوراة من اعداد محمد سيف النصر .

٣ ـ بحث لدرجة الدكتوراة من اعداد سامى محمد نوار .

٤ ـ بحث لدرجة الماجستير من اعداد احمد محمد أحمد .

٥ ـ بحث لدرجة الماجستير من اعداد عوض عوض الامام .

٦ ـ بحث لدرجة الماجستير من اعداد سامى نوار .

٧ ـ بحث لدرجة الماجستير من اعداد عادل شريف شرف علام .

٨ ـ بحث لدرجة الماجستير من اعداد احمد محمود عبد الوهاب المصرى .

٩ ـ بحث لدرجة ادكتوراة من اعداد على محمود سليمان المليجى.

١٠ ـ بحث لدرجة الماجستير من اعداد حمزة عبد العزيز بدر .

١١ ـ بحث لدرجة الماجستير من اعداد نصر عوض حسين .

١٢ ـ بحث لدرجة الماجستير من اعداد السيد محمد على خليفة .

١٣ ـ بحث لدرجة الماجستير من اعداد حجاجى ابراهيم محمد .

١٤ ـ بحث لدرجة الماجستير من اعداد محمد فتحى عطية خورشيد .

١٥ ـ بحث لدرجة الماجستير من اعداد محمد السيد غيطاس .

١٦ ـ بحث لدرجة االدكتوراة من اعداد محمد السيد غيطاس .

* * *

الزخرفة المنسوجة بالأقمشة المملوكية

إعداد أ.دكتور / عبد الرحمن عبد العال عمار
وعميد كلية الفنون التطبيقية / جامعة حلوان
شهر مارس ١٩٨٦

فن النسيج الاسلامى

مقدمــــة

مما لاشك فيه أن الفن الاسلامى الذى انتشر فى الاقاليم العربية ماهو الا صياغة جديدة للفنون السابقة للاسلام فى هذه المناطق العربية ، بعد أن تأدبت بآداب الاسلام ، وتشربت روحه ، فقد تلاحظ اختلافا ظاهريا فى الاشكال ولكننا نلاحظ أيضا تآلفا حقيقيا فى الجوهر والمحتوى ، ولاشك أن فنون الاسلام تأثرت بجوهر العقيدة الاسلامية التى وجهها القرآن الكريم والسنة .

ومع اتساع الدولة الاسلامية بدأت مظاهر الترف على الحكام بارتدائهم أفخر المنسوجات الحريرية ، وأصبحت المنسوجات بصفة عامة ، والمنسوجات الحريرية بصفة خاصة من الأمور الهامة لدى حكام المسلمين ، بعد أن كانت فى بادئ الامر لاتلقى اهتماما من العرب خصوصا فى زمن الخلفاء الراشدين لما كانوا عليه من الزهد والتقشف ، الى جانب كراهيتهم لخامة الحرير كلباس للرجال فى الدين الاسلامى .

ومن العوامل التى ساعدت على تقدم حرفة النسيج فى العصور الاسلامية تقاليد العرب - خاصة الخلفاء منهم - من منح الخلع وكسوة الكعبة الشريفة وميلهم الطبيعى الى الاكثار من الثياب واقتناء الفاخر منها ، ولقد استمرت الخامات السابق استعمالها فى حرفة النسيج بمصر بعد أن خضعت للحكم العربى ، اذ لم تكن هناك قيود فى بادئ الامر فى التدخل فى أمور الزراعة والصناعة ، وربما يرجع هذا لعدم درايتهم بالصناعات والفنون وربما لتفرغهم للسياسة والحكم والحرب .

وللفترة المملوكية أهمية خاصة فى محيط تطور الفن الاسلامى ، حيث ظهر فى مصر وسوريا عناصر من الفنون التركية التى أدخلها المماليك ، ويعد ذلك خطوة هامة ترتب عليها إنقلابات فنية وجوهرية فى الفن الاسلامى الموجود فى هذه المنطقة ، ولقد أخذ الفنان فى مصر من هذه العناصر التركية بعض الاساليب الفنية ومزجها بتقاليد فاطمية محلية وانبثق من هذا أسلوب فنى مملوكى جديد .

كذلك ازدهرت وارتقت مصر المملوكية فى شتى مجالات الفنون التطبيقية ، وكان من أهمها صناعة المنسوجات المتنوعة ، حتى غدت لمصر فى ذلك العصر شهرة خاصة فى صناعة أنواع معينة من الاقمشة .

الزخرفة المنسوجة بالاقمشة المملوكية

من الواضح أن المجتمع فى مصر المملوكية كان مجتمعا طبقيا قام على أساس طبقات وعناصر متمايزة شجع على التفرقة والفصل بينها النظم المماليكية نفسها . ومن المظاهر الاساسية للفصل بين الفئات المتباينة التى تكون منها المجتمع المصرى فى ذلك العصر التفرقة بينها فى الزى ونوع الدابة التى يركبها الفرد وحجم عمامته وغير ذلك (١) هذا فضلا عن الألقاب التى اعتبرت أساسا هاما لمعرفة مكانة الفرد فى المجتمع والدلالة على حيثيته (٢)

ونتاجا لذلك ظهر التمايز واضحا فى الملابس والخلع التى اعتاد السلاطين أن ينعموا بها على اتباعهم ورعاياهم فى الاعياد . على ان الانعام بالخلع لم يقتصر على الاعياد الدينية والقومية ، وانما عرفت له أوقات ومناسبات اخرى كثيرة .

وقد بالغ سلاطين المماليك فى صنع هذه الخلع ، وأسرفوا فى تكاليفها ، كما جعلوها درجات أو طبقات اعلاها ما هو مختص بالامراء المقدمين من النواب (٣) . فخلع كبار الامراء خلعاً صنعت من الاطلس المزركش بالذهب والفراء الفاخر والشاشات الرفيعة المرقومة بألقاب السلطان أما المنطقة أو الحزام فتكون محلاه بالزمرد واللؤلؤ ، وأحيانا يكون مع الخلع سيف محلى بالذهب . ثم تقل قيمة الخلعة وكلفتها حسب رتبة الامير المنعم بها عليه ، ولكنها مع ذلك تظل دائما مضرب الامثال فى الفخامة والعظمة (٤) . وعلى سبيل المثال كانت خلعة الوزير أو الكاتب عبارة عن جبة ثمينة مطرزة بالحرير يصحبها فراء فاخر (٥) .

وعن ملابس الرجال فى عصر المماليك ، فقد تباينت واختلفت حسب مكانه الشخص ومركزه حتى أصبح من السهل على أى زائر يمر بالقاهرة أن يحكم على كل شخص يراه ويحدد فى سهولة طبقته الاجتماعية ، وحرفته أو عمله ، وديانته إن كان مسلما أو غير مسلم ، وذلك بمجرد النظر الى هيئته العامة وملبسه . ومن هنا اتخذ الزى اساسا للتعبير عن مهنة الشخص وعمله فى المجتمع فيقال فلان تفقه ثم ترك وتزيا بزى الفقراء ، وبعد مدة عاد وتزيا بزى الفقهاء (٦) .

أما ملابس المماليك فاختلفت وتعدلت على مر الأجيال ، وكثيرا ما أدخل السلاطين التغييرات والتحسينات المختلفة على ملابس الجند والامراء (٧) . هذا الى تعدد ملابس المماليك باختلاف المواقف والمناسبات ، فهناك ثياب خاصة بالخدمة السلطانية واخرى بالسفر وثالثة بالصيد وهكذا (٨) . ومع ذلك فقد حافظ المماليك على لباس الرأس الذى اتخذوه من ايام بنى أيوب ، وهو كلوتات صفر مضربة بكلبندات (٩) بغير عمائم أو شاشات (١٠) ، فى حين يرسلون شعورهم مضفورة خلفهم فى أكياس حرير ملونه أحمر أو اصفر (١١) . وقد ظل الامر على ذلك حتى عهد السلطان خليل حين تغير لون الكلوتات من الصفرة الى الحمرة . أما العمائم التى من فوقها فامتازت بالصفره وظلت كذلك حتى عهد السلطان شعبان «فحسنت هيئتها (١٢) . على أن لبس المماليك العمائم لم يستمر طويلا ، اذ ذكر المقريزى أن الامراء والمماليك والاجناد أكثروا فى أيامه من لبس الطواقى بغير عمائم ، ونوعوا هذه الطواقى مابين أخضر وأحمر وأزرق كما يفعل الصبيان والبنات (١٣) .

أما ملابس المعممين وأرباب الوظائف الدينية من القضاة والعلماء ، فاختلفت باختلاف مراتبهم . فالقضاه والعلماء يلبسون العمائم الكبار ، ومنهم من يجعل طرف عمامته على هيئة ذؤابه طويلة يرسلها بين كتفيه . أما قاضى القضاه فامتاز بلبس طرحه تستر عمامته وتنسدل على ظهره بين الكتفين مع ميل الى الكتف الايسر وأما الخطيب فاختص بلبس دلق مدور أسود وشاش أسود وطرحة سوداء رمزا للشعار العباسى (١٤) . وقد تمسك العلماء على عصر سلاطين المماليك بزيهم هذا وحرصوا عليه وأصبحوا «يوقرون مجالس الحديث فى اللباس .. حتى جعلت اليوم هذه الثياب للفقيه كأنها فرض عليه وأنه لابد للطالب منها (١٥) .

وعن المظهر العام للافراد فى المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، فأنه يبدو لنا مما سبق أن الناس اعتنوا بأناقة المظهر فأكثروا من استعمال الذهب فى زينتهم ، وصقلوا ملابسهم بالكى حتى حرص بعض الاثرياء على الاحتفاظ فى بيوتهم بعمال مخصصين لكى الملابس (١٦) كذلك اهتم الناس بالدابه التى يمتطيها الفرد منهم ، فاختار المماليك الخيل الجميلة المنظر وزينوها بالكساوى الثمينة فى حين ركب عامة الناس الحمير العالية التى اذا ركبت بسرج اختطلت مع البغال ، واجادوا تعليمها بصورة استرعت إنتباه الرحالة الاجانب (١٧) .

وبالاطلاع على بعض المخطوطات المصورة التى ترجع الى العصر المملوكى والتى ظهرت بها الازياء التى كانت شائعة فى هذا العصر بين الخاصة والعامة يتبين لنا كثرة الزخارف المنسوجة على اقمشةملابس الرجال والنساء على السواء وقد بلغت زخارف المنسوجات فى عصر سلاطين المماليك درجة فائقة وشأوا عظيما ؛ لما بلغ فنانوها من الخبرة الواسعة بالاوضاع الزخرفية والأساليب الفنية والمقدرة الفائقة على اختيار الالوان وانتقائها ، ومن ثم اخرجوها من آنوالهم رائعة الجمال ، هادئة منسجمة دقيقة متننوعة ، حسنة الذوق ، بديعة التراكيب ، ذات طابع عربى مميز .

والوقع أنه لايمكن لكتب التاريخ وحدها أن تطلعنا بصوره واضحة على الاساليب المختلفة التى استعملت فى تزيين هذه المنسوجات من زخارف نباتية وحيوانية وهندسية وكتابية ورنوك ، بل أن ماتحويه كنوز المماليك والمتاحف العالمية ومتحف الفن الاسلامى بالقاهرة من قطع نسجية هى التى تحدثنا بصدق وأمانة عن مدى ماوصل اليه فنانو مصر المملوكية من سمو ورقى فى هذا الجانب من الحضارة المادية .

والمنسوجات بوجه عام هى من أهم الفنون التطبيقية فى عصر سلاطين المماليك فى مصر ، والتى زخرت منتجاتها بالعديد من العناصر الزخرفية المختلفة ، والتى كثيرا ما كانت تزخرف بالوحدة الزخرفية المعروفة بأسم شجرة الحياة ، وتتألف هذه الزخرفة من شجرة محورة يحف بها حيوانان أوطائران متماثلان فى تقابل أو تدابر وعلى عكس أسلوب رسم الشجرة المحورة يتسم رسم االطيور والحيوانات بالقرب من الطبيعة وبالتعبير عن الحركة ، وأن لم يخل من تنسيق زخرفى (١٨) .

والتأمل فى الزخرفة المنسوجة بالاقمشة المملوكية يكشف لنا أنها تقوم أكثر ما تقوم على العناصر الزخرفية النهائية ، لم يبتكرها الفنان المسلم ولكنه ابتكر طريقة جديدة فى رسمها وترتيبها ترتيبا غير مسبوق ، وتنسيق أجزئها تنسيقا جعلها تبدو وكأنها شئ جديد وما هى كذلك ، فقد يوحى مظهرها بشئ جديد ، نحن نجهل أصله ، ولكننا لا نستطيع فى الوقت نفسه أ ن ننكر عليه شخصيته الجديدة الواضحه القوية .

إن الفنان المسلم فى العصر المملوكى لم يبتكر وحدات زخرفية بل رسم الازهار والاشجار والفروع والاغصان والأوراق والسيقان والطيور والحيوان ، وبعد أن حورها تحريرا كادت أن تفقد معه صورتها القديمة ولأنها وان بعدت عن هذه الصورة فلا يزال لها جمال فنى يدل على قدرة مبدعها وينطلق بصفاء قريحته (١٩) إن هذا التحرير انما يدل أول ما يدل على شخصية الفنان والطلاقة بين نفسية هذا الفنان والطبيعة . كما يدل فى الوقت نفسه دلاله قاطعة على مدى تذوقه لجمال الطبيعة ، ثم تفاعل هذا االجمال فى نفسيته ، الامر الذى يمثل الصراع بين الطبيعة والفنان حتى أخرج هذه

الزخارف بطريقة مبتكرة فى الرسم والترتيب والتنسيق بشكل جمالى ساعد على تحديد شخصية الفنان الجمالية .

وبنظرة شاملة على مجمل المنسوجات المملوكية وزخارفها من حيث مشتملاتها الفنية وعناصرها الجمالية ، تلك التى تضافرت مع بعضها البعض لتكوين المحسوس الجمالى ، وباخضاع تلك الاعمال من خلال مفرداتها نؤكد صفة الجمال والقدرة الفنية الرائعة لدى الفنان المسلم فى العصر المملوكى .

فاللون وتقسيماته وتوزيعاته ، والعنصر الزخرفى وترتيبه وكيفية معالجته ، وجماليات الوحدات الزخرفية وكيفية تأثيرها فى اللعب بالشكل ، كل هذه العناصر تؤكد صفة الجمال . ثم أن نوعية الوحدة الزخرفية سواء أكانت نباتية أو حيوانية أو كتابية أو رنوك أو وحدات زخرفية هندسية ، وأن كانت مستمدة من واقع المجتمع المصرى فى العصر المملوكى أو مستمدة من تأثيرات وتيارات فنية غريبة عن طريق التجارة ، ومن ناحية اخرى فاللعب بالفراغ الذى يؤثر فى الانطباع البصرى لدى المشاهد لتلك القطع المنسوجة بما تحمله من قيم بالاضافة الى الاسلوب التطبيقى المستخدم فى اخراجها ، وبما يتضمنه من اختيار لمادة العمل الفنى مع مواءمتها بما يتناسب مع الغرض المطلوب. من خلال كل هذه الاسس مجتمعة يمكن الوصول الى العناصر الجمالية للمنسوجات المملوكية باختلاف انواعها سواء الزخرفية أو التطبيقية .

ولايفوتنا فى هذا المقام أن نذكر انه بقدر ما برع الفنان المسلم فى العصر المملوكى فى انتاج أقمشة تزخر بالعناصر الزخرفية المختلفة ، فقد نجد على جانب آخر بعض القطع المنسوجة وثيقة الصلة ببعض سلاطين المماليك ، ولكن أساس الزخرفة بها ناتج من تأثير اقلام لونية طولية أو عرضية أو من كليهما معا .

ومن هنا يتضح أيضا مدى قدرة فنانى مصر المملوكية فى استغلال الخامات النسجية بشتى صورها ، ومن جهة أخرى تطالعنا تلك القطع المنسوجة بتأثيرات الاقلام اللونية بقدر كبير من اهتمام الفنان بنواحى اللون المختلفة ، ومنذ العصر المملوكى وما سبقه من عصور وحتى وقتنا الحاضر يحتل اللون مكانة هامة فى جميع أوجه نشاطنا وقد اهتم الفنانون وعلماء اصول الشعوب وعلماء الاثار ، وعلماء الطبيعة ، وعلماء النفس وغيرهم بنواحى اللون المختلفة .

ومن امثلة القطع المنسوجة بعصر سلاطين المماليك بمصر واساس الزخرفة بها تأثيرات لونية مختلفة ، قطعة محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة - (سجل رقم ٢٢١٦) (شكل رقم ١) وتمثل زخرفة هذه القطعة اللونية المهارة الفنية فى اللعب بالمساحات اللونية متمثلة فى أقلام رأسية ، وتوضح فى الوقت نفسه صورة من صور التناسق اللونى فى منسوجات مصر المملوكية . وبالرغم من أنه ليست هناك قواعد محددة تحكم تناسق الالوان ، فاى مجموعة من الالوان تكون مفرحة وتعطى أشباعا كاملا للمشاهد يمكن أن تمثل تناسقات الالوان ويختلف الاحساس باللون بين مختلف الاشخاص بحيث يكون اكثر تطورا فى شخص منه فى شخص آخر ، ومن تجمع الالوان لابد أن نضع فى الاعتبار الأثر الذى يحدثه اللون الآخر ، بحيث ترتب الالوان بطريقة تزيد من جمال الالوان .

ومن ألوان هذه القطعة المنسوجة عن طريق ترتيب معين لفتل السداء من الألوان الأحمر والأزرق والأصفر الذهبى والزيتونى ، واللون السمنى بحيث يفصل اللون الازرق عن طريق ثلاث فتل زرقاء بين كل من الالوان الباقية ، مع استخدام لحمة مستمرة من لون واحد وهو اللون الاحمر ، قد يبدو انسجام هذه الالوان بعضها مع بعض نتيجة مشاركة لون اللحمة الاحمر بنسيج سادة ١/١ مع كل الوان السداء . وذلك بالاضافة الى الخامة المستخدمة وهى الحرير الطبيعى لكل من السداء واللحمة ، وما تعطية هذه الخامة من صفة اللمعان للمنسوج ، وذلك من تاثير انعكاس الضوء على المنسوج .

وبفحص هذه القطعة المنسوجة يتضح لنا مدى العناية الفائقة فى غزل ونسج خامة الحرير المستخدمة فى التصنيع ، مما ساعد على انعكاس الضوء على سطح المنسوج فتظهر الالوان بصورة رائعة وعلى درجة كبيرة من الجمال .

ومن الامثلة أيضا قطعة (سجل رقم ٢٢٠١) محفوظة بمتحف الفن الاسلامى القاهرة (شكل ٢) وهى توضح لنا عن مدى قدرة الفنان وبراعته فى اظهار الجمال للعمل الفنى المنتج ، وعند تحليل هذه القطعة ترى أن الفنان المسلم فى العصر المملوكى استطاع أن يصل بعمله هذا الى التصميم المطلوب من توافق فى الألوان سواء بالنسبة لاستخدام الخامه أو فى الاسلوب التطبيقى المستخدم والذى يعطى خطوطا أفقية متوازية متقاطعة بصورة تكاد تكون منتظمة مع خطوط رأسية من الالوان البنى الداكن والاخضر والأصفر والذهبى .

ويوضح (شكل ٣) جزءا مكبرا من تقاطع مجموعات الالوان لكل من السداء واللحمه يمثل فى حد ذاته شكلا جماليا غاية فى الروعة والدقة .

وبالمتحف الاسلامى بالقاهرة ايضا طاقيتان ترجعان الى العصر المملوكى مصنوعتان من أقمشة ذات تأثيرات لونية مختلفة ، الطاقية الاولى (سجل رقم ٢٢٤٦) (شكل رقم ٥) مصنوعة من قماش ذى تقليمات لونية من اللونين الذهبى والكحلى ومنسوجة من خيوط كتابية للسداء ، واللحام من الحرير ، ويزيد من جمال زخرفة هذه الطاقية ظهور بعض المساحات الزخرفية من متوازيات الاضلاع والنجوم السداسية وذلك عن طريق تحديد أضلع هذه الاشكال الهندسية بغرز حياكة على سطح المنسوج .

ويوضح (شكل رقم ٦) جزءا مكبرا من نسيج هذه الطاقية يظهر فيه بجلاء ووضوح انعكاس الضؤ على الخيوط الحريرية حيث يبدو جمالها وروعتها ، كما يتضح من الشكل الاسلوب التطبيقى المستخدم فى النسيج وهو نسيج السادة ١/١ بسداء مستمر من الخيوط الكتابية مع تقليمات من اللحمة باللونين الكحلى والذهبى بترتيب سبع لحمات من اللون الكحلى يليها سبع لحمات من اللون الذهبى ثم سبع من اللون الكحلى .. وهكذا فى بعض أماكن الزخرفة مع استمرار لحمات اللون الذهبى فى باقى الاماكن . والطاقية الثانية (سجل رقم ٢٢٤٥) (شكل رقم ٧) ، وهى مصنوعه من أقمشة حريرية ذات أقلام لونية طولية وعرضية (كاروهات) والتأثيرات اللونية ناجمة عن اشتراك كل من فتل السداء وخيوط اللحمة بالالوان البنى والذهبى والازرق بالاضافة إلى التأثيرات النصفية الناجمة نتيجة تعاشق خيوط كل من الالوان الثلاثة ، وبعد ظهور التأثيرات النصفية وغيرها عن طريق

تعاشق الخيوط ذات الالوان المختلفة مع بعضها البعض عن طريق التراكيب النسجية من العوامل التى تكسب المجموعات اللونية فى المنسوجات صفات جمالية عالية فمثلا عند تعاشق قلم طولى من خيوط ذات لون أصفر مع لحام من خيوط ذات لون أصفر مع لحام من خيوط ذات لون أزرق بنسيج سادة ١/١ تعطى التأثير النصفى من كلا اللونين ، وبنسيج مبرد ٣/١ تعطى لون بين الاصفر والازرق بنسبة ٢٥٪ من اللون الاصفر ، و ٧٥٪ من اللون الازرق ، ولكن تأثير اللون الناتج يصعب الحصول عليه من صباغة الخامة بنفس اللون أو بأى وسيلة اخرى ، ويتضح ذلك من تقاطع كل من الاقلام اللونية الطويلة والعرضية بالشكل السابق .

ويتضح من (شكل رقم ٨) جزءا مكبرا من نسيج هذه الطاقية ، ومن تحليل نسيجها يتضح أن ترتيب فتل السداء كالآتى :

٢ لون ذهبى : ٢ لون بنى : ٥ لون ذهبى : ٢ لون بنى ذهبى : ٢٠ لون أزرق ثم يكرر الترتيب ، وهكذا يتكرر على ٣٣ فتلة بينما اللحمة تتكرر على ١٤ خيط أربعة باللون الذهبى وعشرة باللون الازرق .

ويظهر اللون الازرق النقى فى اماكن تعاشق فتل السداء واللحمات الزرقاء وبنفس الاسلوب أماكن ظهور اللون الذهبى ، وتظهر ، وتظهر تأثيرات لونية اخرى نتيجة تعاشق خيوط كل من اللونين مع بعضهما ، وهذا يوضح براعة ومهارة الفنان المسلم فى العصر المملوكى فى اظهار تأثيرات لونية تكسب المنسوج صفة جمالية وبأبسط التراكيب النسجية ، وذلك بالاضافة إلى عناصر اللون المختلفة.

ومن منسوجات مصر المملوكية والتى زخرفت عن طريق التأثيرات اللونية المختلفة سواء الطولية أو العرضية أو كليهما معا ، والى أسلوب آخر فى الزخرفة وذلك عن طريق العناصر الزخرفية المختلفة ، ونستطيع القول بان الفنان المسلم فى عصر سلاطين المماليك اتجه الى كل وسائل الزخرفة فيما أنتجه من تحف وما شيده من عمائر معتمدا على عناصر زخرفية مختلفة من نباتية ، وهندسية، وخطية ، وآدمية ، وحيوانية ، وكثيرا مازاوج بين هذه العناصر حيث جعل الزخارف النباتية أرضية للنصوص الخطية أو حشو بين ثنايا الزخارف الهندسية ، على أن أهم ما تتميز به هذه الزخارف فى الاغلب انها تميل الى التجريد ، ولا تلتزم بالاشكال الطبيعية التى أنبتت منها ، كما ان العناصر النباتية والهندسية بصفة خاصة ليس لها بداية ولانهاية ، انما تريد ان تمتد لتعبر هذا الاستمرار الازلى للحياة ، وعن انطلاقة الروح الانسانية من قيود المادة التى تحدها .

وجدير بالذكر ان تتبع هذه الزخارف سواء أكانت هندسية أو خطية أو نباتية ... الخ. يجعل النظر ينتقل من الخطوط اللينة الى الجافة ، ومن الانحناءات والانثناءات الى ما يعارضها من خطوط أو الوان أخرى .

* * *

الهوامش

(١) ابن حجر : أبناء الغمر ج ٢ - ص ٢٧٧ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك - ص ٢٠٦ .

(٢) سعيد عاشور - المرجع نفسه - ص ٢٠٧ .

(٣) المرجع نفسه : ج ٤ - ص ٥٤ .

(٤) المقريزى : المواعظ ج ٣ - ص ٣٦٩ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة - ج ٢ - ص ٢٢٦ ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك - ص ٢١٠ .

(٦) ابن حجر : الدور الكامنة - ترجمة نجم الدين الحسين بن على ج ٢ ص ٦٠ .

(٧) ابو المحاسن : النجوم - ج ٧ - ص ٣٣٢ .

(٨) خليل بن شاهين : زيده كشف المماليك - ص ٨٨ .

(٩) الكلوتات : جمع كلوته بتشديد اللام وهى طاقية صغيرة من الصوف مضربه بالقطن والكلبندات جمع كلبنده وهى لباس الرقبة تربط تحت الذقن لحفظ الكلوته التى فوق الشعر من الحركة (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٣٠) .

(١٠) الشاشة هى القماش الرقيق الذى يلف حول العمامة (Dozy: P. 233) .

(١١) المقريزى : المواعظ : ج ٣ - ص ١٦٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ص ٩٨ .

(١٢) القلقشندى : صبح الاعشى - ج ٤ ص ٣٩ :

(١٣) المقريزى : المواعظ - ج ٣ ص ١٦٨ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك - ص ٢١١ .

(١٤) السيوطى : حسن المحاضرة - ج ٢ - ص ٦٨ ، ١١٥ .

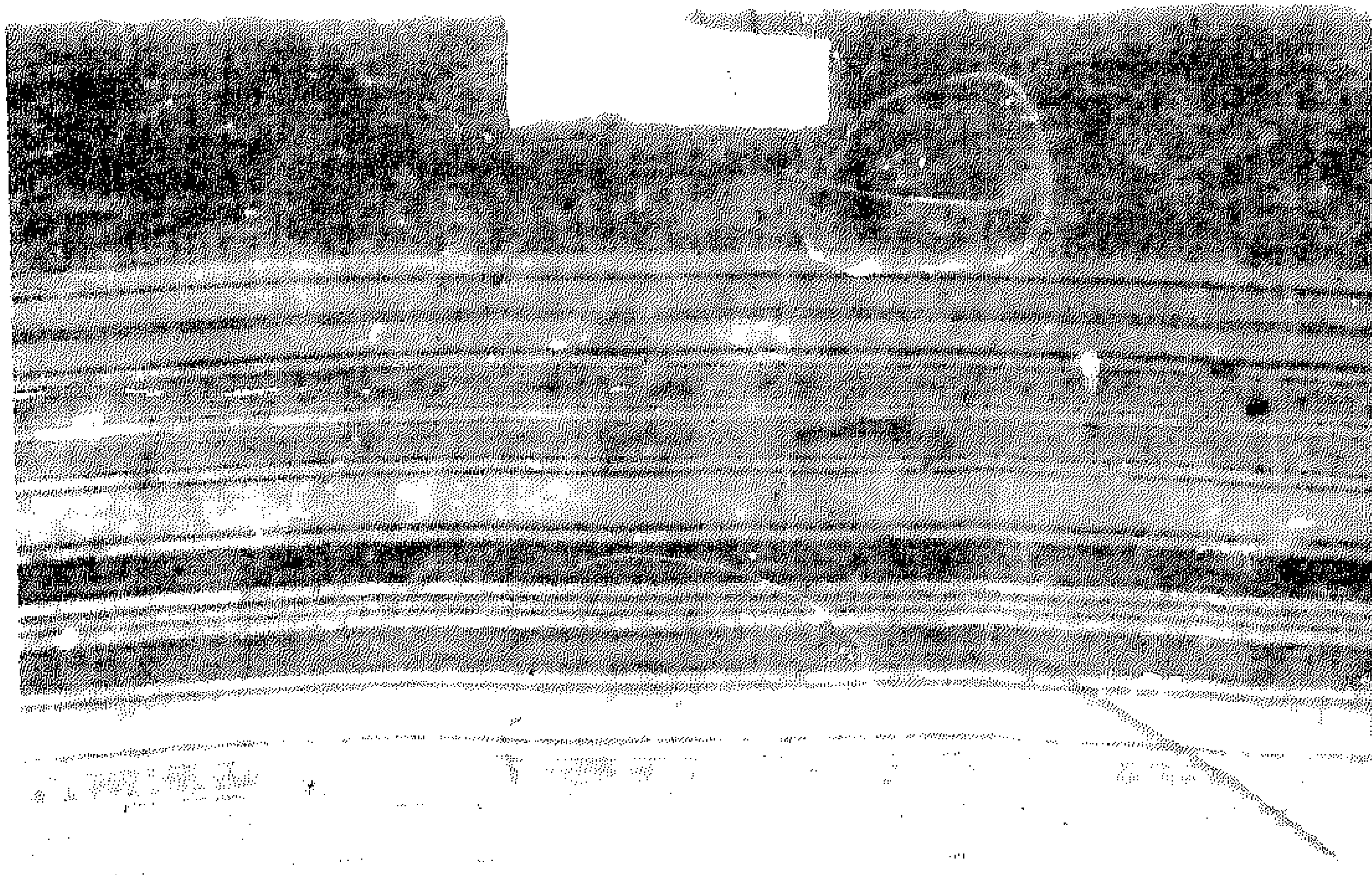
(١٥) ابن الحاج : المدخل - ج ١ ص ١٣١ .

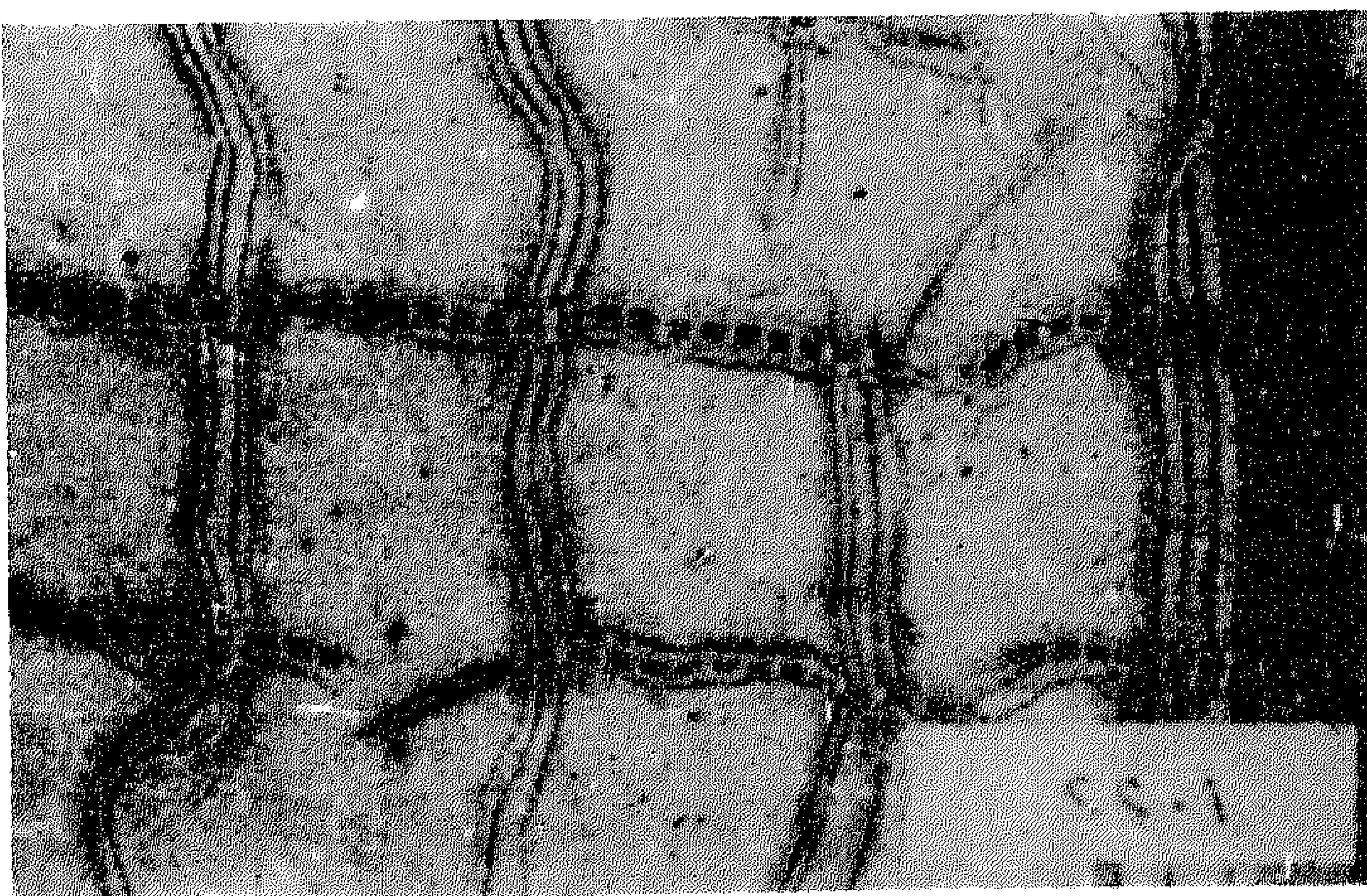
(١٦) السخاوى : الضؤ اللامع ج ٢ - ص ١٢٦ - ترجمة احمد بن محمد بن عبد اللطيف .

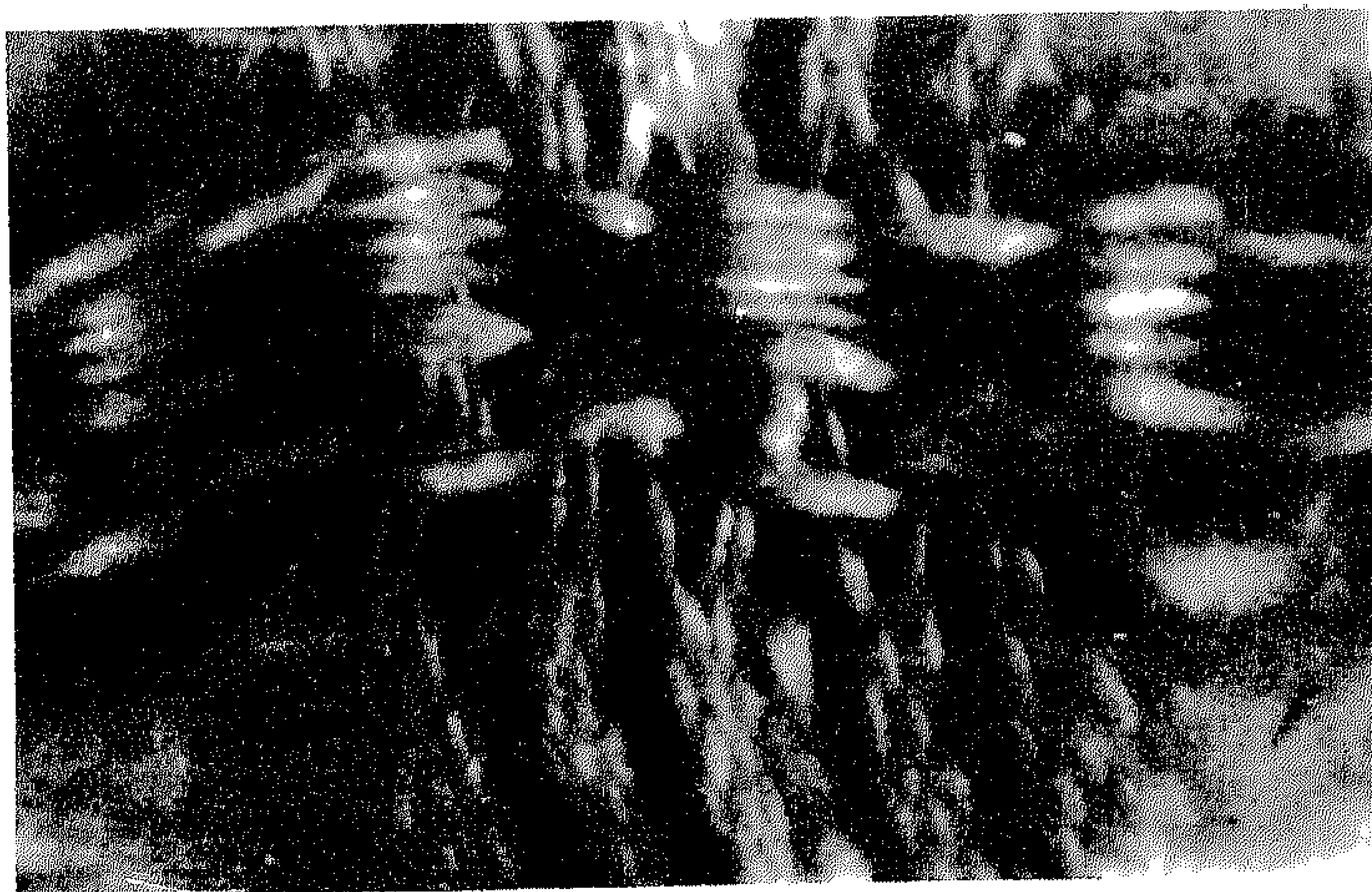
(١٧) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٢٢٣ ، السيوطى : منتقى الينبوع ورقة ٦ .

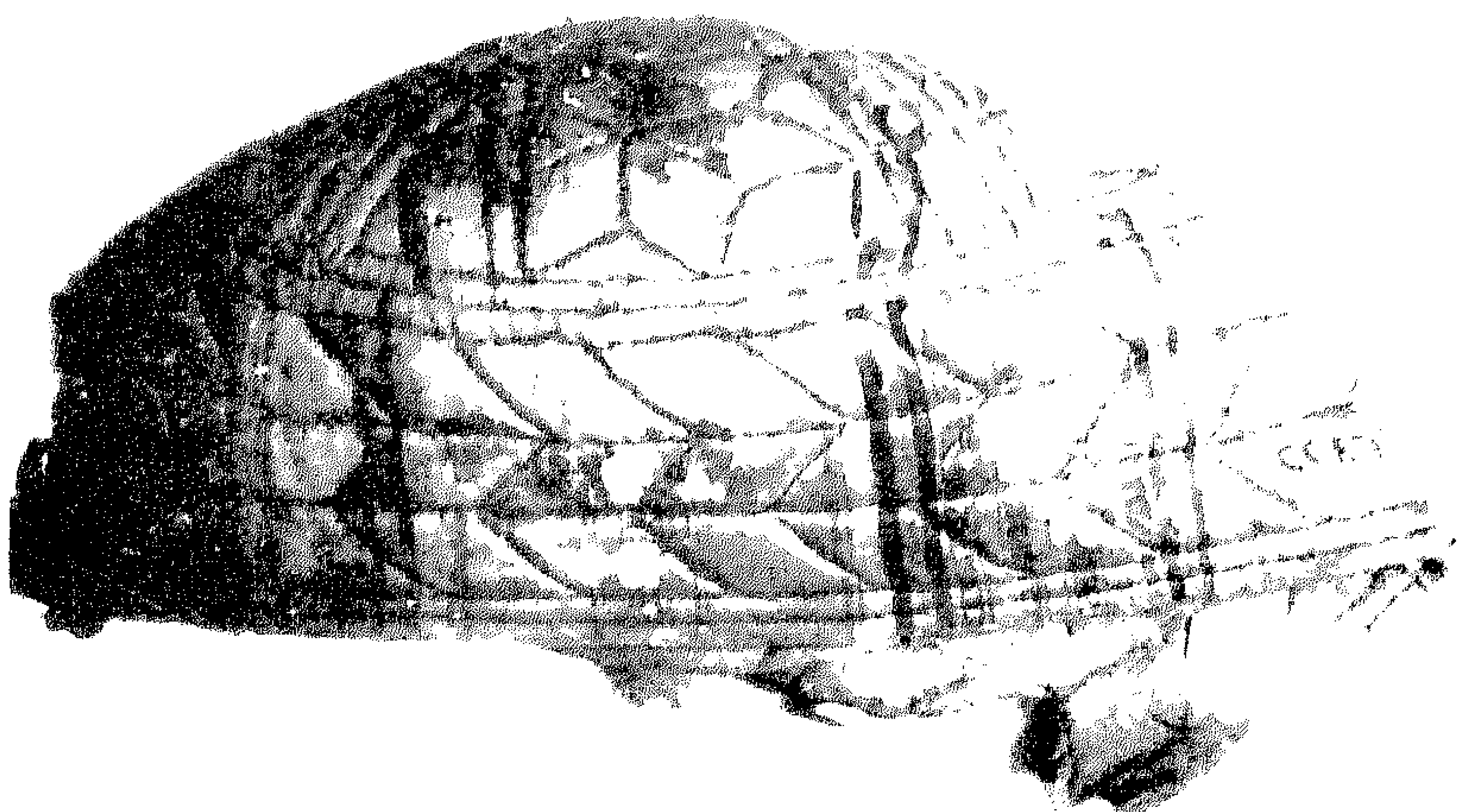
(١٨) السخاوى : الضؤ اللامع ج ٢ - ص ١٢٦ - ترجمة احمد بن محمد بن عبد اللطيف .

(١٩) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٢٢٣ ، السيوطى : منتقى الينبوع ورقة ٦ .


شكل (١)


شكل (٢)

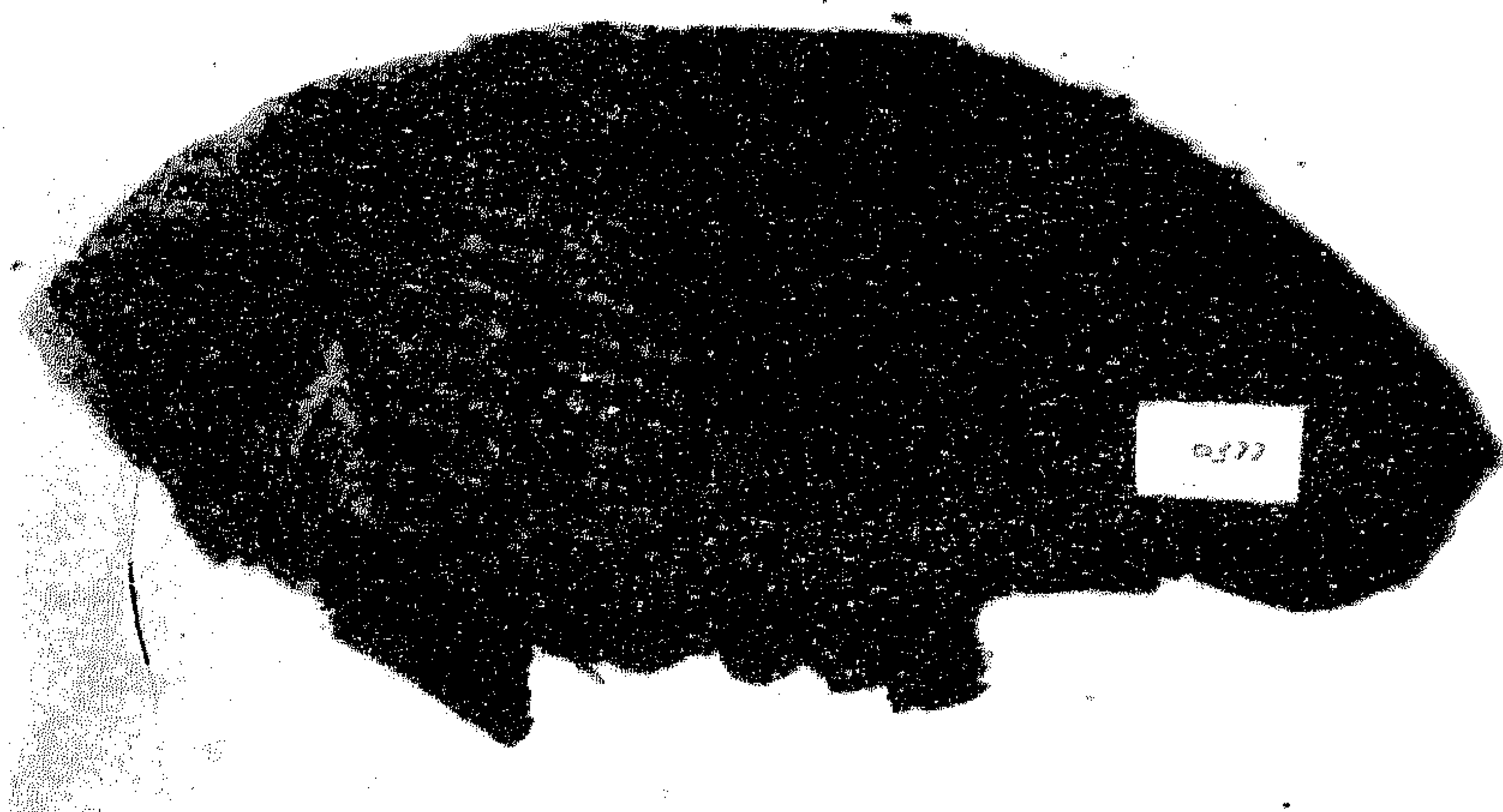

شكل (٣)



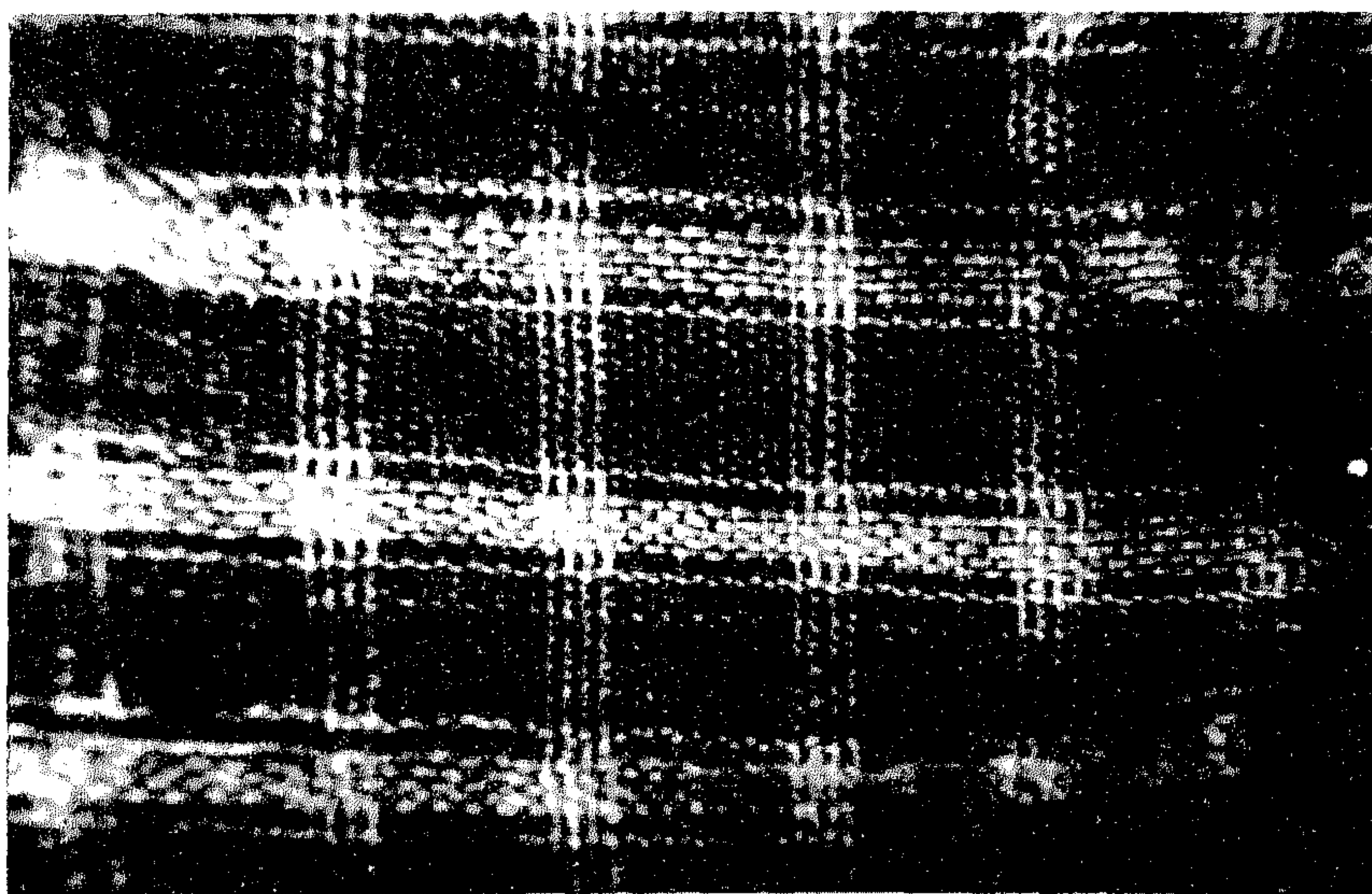
شكل (٤)



شكل (٥)



شكل (٦)



شكل (٧)

مظاهر التجديد المعماري في مصر الفاطمية

دكتور عبد القادر الريحاوي

استاذ مشارك لتاريخ العمارة الاسلامية

في كلية الهندسة / قسم العمارة جامعة الملك عبد العزيز / جدة

تأسست الدولة الفاطمية فى تونس وسيطرت على بلدان المغرب العربى وصقلية ومصر والشام (١) ، لكن التراث المعمارى الذى تخلف فى مصر يعتبر أهم تراث العهد الفاطمى واغناه من الناحية الفنية ، ذلك لان الفترة الزمنية التى اقامها الخلفاء الفاطميون فى مصر كانت اطول منها فى افريقية (٢) ، ولم يبق فى حواضرهم فى تونس (القيروان والمهديّة وصبرة المنصورية) شئ يذكر ، بينما تحفل حاضرتهم فى مصر ، القاهرة الفاطمية ، بالعديد من العمائر الهامة ، وتحتفظ بالقسم الهام من اسوارها وبواباتها بحالة جيدة .كذلك كانت الظروف السياسية والحضارية للفاطميين بعد إنتقالهم الى مصر تختلف عما كانت علية فى تونس ، فقد تقدم بهم الزمن فى مصر وتأصلت المعانى الحضارية ، وتزايد ت طموحات الخلفاء بعد ان اصبحوا قادة لدولة واسعة استمرت الى القرن الخامس ، اى قبل ان يخسروا بلدان المغرب (الشمال الافريقى) وصقلية والقسم الاكبر من بلاد الشام. وانعكس ذلك على اعمار العاصمة المصرية وتزيينها بالقصور والمساجد والاسواق والحمامات وادى ذلك للارتقاء بالفن المعمارى من خلال محاولات المعماريين الملحوظة للتجديد والابتكار واغناء العمائر بالعناصر الفنية . ويظهر ذلك بشكل خاص فى عمائر القرنين الخامس والسادس ، بدءا من عهد الخليفة المستنصر ووزيره بدر الجمالى .

ويبدو من تأمل هذه العمائر ما خصت به من اهتمام وعناية فى التخطيط ، وتصميمات الواجهات والبوابات ، وتنويع العناصر المعمارية والزخرفية مما سنتلمس حقيقته من خلال تحليل هذه التصاميم والعناصر .

اولا – المسجد المعلق :

نجد فى مجال الهندسة والتخطيط ظاهرة جديدة تهدف الى الارتفاع بالمسجد على مستوى الارض والصعود اليه بواسطةالادراج ،وقد وصف القدماء ، مثل هذه المساجد بالمعلقة ولا شك ان الفكرة جاءت من الرغبة فى اقامة طابق سفلى من الدكاكين تكون وقفا على المسجد .

ويمكننا أن نعتبر مسجد الصالح طلائع(٣) اول المساجد المعلقة المعروف ، ولقد طبقت الفكرة باشكال مختلفة فى اقاليم اخرى من العهدين المملوكى والعثمانى ، أذكر اثنين منها فى دمشق (الجامع المعلق ، والمدرسة السيباءية) . وكلاهما من العهد المملوكى . ومساجد عثمانية فى استانبول وغيرها .

ثانيا – الرواق الخارجى :

كذلك نجد فى مجال التخطيط عنصرالرواق (٤)يظهر بشكل غير مألوف فى الواجهات الخارجية ليطل نحو الشارع ، وسنرى هذه الظاهرة فى عهد لا حق تتكرر فى اكثر من مسجد فى الاناضول فى عهد الاتراك السلاجقة والعثمانيين من بعدهم ، ولا ندرى ان كان المعمارى الفاطمى قد أخذ هذه الفكرة عن مسجد صغير فى سوسة (تونس) هو مسجد بوفاته (٣٢٢هـ/٨٣٨م)الذى نعتبره أول رواق يتقدم مدخل المساجد ، لا ننا لا نعتبر الرواق الذى يتقدم باب جيرون فى جامع دمشق اسلاميا .

ثالثاً -القباب :

يلفت انتباهنا فى تصميم قاعة الصلاة فى كل من الأزهر وجامع الحاكم القباب الثلاث المقامة عند جدار القبلة ، واحدة امام المحراب وإثنتان على استقامتهما فى الركنين القبليين ، وقد كنا عرفنا القباب قبل ذلك فى المساجد ، لاعلى أنها عنصر أساسى فى التسقيف ، وانما كانت واسطة للإنارة ، ثم غدت رمزا وعنصرا ملازما.

أول ما عرفنا القبة فى قبة الصخرة ، لكن لهذا المبنى وضعه الخاص ، فهو لم يكن مسجدا بالمعنى الصحيح ، فعلى خطوات منه المسجد الأقصى الذى لم يتأكد وجود قبة فيه قبل تجديده فى أيام الخليفة المهدى ، حين زودت سقوفه الجملونية بقبة اما م المحراب .ونجد القبة فى جامع دمشق الاموى تحتل وسط المجاز المتعامد مع جدار القبلة عند المحراب .

ثم وجدناها فى جامع القيروان الأغلبى ، امام المحراب عند نهاية البلاطة الوسطى المتعامدة معه ، يرجع تاريخها كما يرجح الى عام ٢٤٨هـ/ ٨٦٢م ، وقد الحقت بها بعد وقت (٢٦١هـ/٨٧٥م) قبة ثانية فى اول البلاطة الوسطى عرفت بقبةباب البهو كعنصر فى التوسعة الجديدة ، ،كذلك الحال فى جامع الزيتونة الأغلبى بتونس قد زود بقبة وحيدة امام المحراب (٢٥٠هـ/٨٦٤م) الحقت بها قبة امامية فى وقت متأخر (٣٨٥هـ/٩٩٥م) .

وقبيل بناء الأزهر بسنوات قليلة ظهرت فى توسعة الحكم الثانى (٣٥٤هـ/٩٦٥م) بجامع قرطبة أربع قباب لتزود هذه التوسعة التى ابتعدت كثيرا عن الصحن بالنور اللازم ، ثلاث منها متجاورات امام المحراب ورابعة على المحور المتعامد معه فى أول التوسعة .

هذه هى أوضاع القباب فى المساجد التى سبقت بناء الأزهر والحاكم فى القاهرة ، لانجد بينها حالة واحدة مشابهة لتوزيع القباب فى هذين المسجدين .

كان طبيعيا أن يتأثر المعمار الفاطمى ولاسيما فى اوائل عهد الفاطميين فى مصر بالعمارة الأغلبية التى تأصلت فى تونس قبيل الفاطميين ،ولكن حدث العكس تماما ، فقد استمد المعمار الفاطمى عند بناء الأزهر والحاكم الأسس العامة لتخطيط قاعة الصلاة من جامع دمشق (بلاطات موازية للقبلة ومجاز قاطع) . ووزع القباب فى وضع جديد لاسابقة له ، كما وصفنا (٥) .

هذا وإن القبة الموجودة حاليا فى رواق الصحن فى الأزهر والتى تقع على محور المحراب والتى تشبه فى وضعها هذا قبتى باب البهو فى القيروان والزيتونة اللتين تقدمت الأشارة اليهما ، هذه القبة محدثة ، وترجع كما هو مرجح الى اواخر العهد الفاطمى ،عهد الخليفة الحافظ (اوائل القرن السادس الهجرى) .

رابعا - البوابات والواجهات :

تميزت العمارة الفاطمية بالعناية بالبوابات والواجهات الرئيسية للجوامع واحاطتها بمظاهر الزينة والزخرفة وهو شيء لم يكن مألوفا فى غير بوابات القصور وكانت زخرفة المساجد موجهة نحو الداخل . ولم يلتفت الى زخرفة واجهاتها الخارجية أو اعطاء بواباتها اهتماما كبير . وتشذ عن ذلك

واجهات قبة الصخرة ، ولكن هذا المبنى ، كما سبق ان اشرنا اليه ، وضع خاص ، وهو كذلك قائم فى داخل اسوار الحرم القدسى (٦).

وكانت اول محاولة لابراز اهمية مداخل المساجد قد ظهرت فى جامع المهدية الفاطمى ، حين اقيمت بوابة المسجد فى برج بارز كأنه قوس النصر ، لكنها عادات لتظهر فى مساجد القاهرة الفاطمية بشكل أقوى ولاسيما فى جامع الحاكم وجامع الاقمر . ولقد بدأت زخرفة البوّابات فى المهدية بمحاريب فى غاية البساطة وانتهت فى واجهة الاقمر (٧) وبوابته الى ذروة الجمال الفنى ، فى التصميم والعناصر ،وساعد على ذلك بالطبع استخدام الحجر الذى انعكست عليه كل فنون النحت والنقش ، وتكوين المقرنصات والمحاريب المفصصة او الشعاعية ، و نقش الزخارف الهندسية والكتابات الكوفية المشجرة . وتبدو لنا ظاهرة العناية بالحجر ونقشه واغنائه بالعناصر الزخرفية منذ إشادة بوابات القاهرة الجديدة فى ايام بدر الجمالى التى سنعود للحديث عنها فى فقرة مقبلة .

اما العناية بالواجهات الخارجية فتظهر بشكل واضح فى مسجد الصالح طلائع . فعدا عن الواجهة الشمالية التى خصت بالرواق الخارجى المكون من خمس قناطر على على اعمدة ، كما رأينا ، فقد صممت الواجهات الاخرى بشكل مغاير ، لكنه ينسجم كل الانسجام معها ، حيث نجد فى الواجهة الشرقية مثلا خمس دخلات جدارية متجاورة على جانبى الباب الشرقى البارز ، تماثل فى عددها وارتفاعها وسعتها قناطر الرواق ، وكأنها قناطر مسدودة ، لكنها خالية من الاعمدة ، فتح فى قسمها السفلى شبابيك مستطيلة وزين بعضها فى قسمه العلوى بعقود شعاعية . هذا العنصر الذى عرف بالدخلات الجدارية سيصبح شائعا فى معظم عمائر العهد المملوكى ، كحل لابعاد الرتابة عن الواجهات وإعطائها شيئا من التجميل .

وليس غريبا ان يكون المعمار الفاطمى قد طور هذه الدخلات مما كان معروفا فى واجهات قصر الاخيضر العباسى (القرن الثانى) الموجود قرب الكوفة ، فقد تأثرت بيوت الفسطاط منذ العهد الطولونى كذلك بتصميمات الوحدات السكنية المنشأة داخل هذا القصر الى حد بعيد .

خامسا – المآذن :

اتخذت المآذن الفاطمية كذلك شكلا مختلفا بعض الشئ عن سابقتها مآذن دمشق والقيروان وقرطبة ذات الابراج المربعة ، وغدت ذات طبقتين سفلية مربعة وعلوية اسطوانية او مثمنة او اسطوانية مخروطية ، اى يتناقص قطرها كلما ارتفعت المئذنة ، كذلك هو شكلها فى مئذنتى الحاكم ، قبل ان تلبسا قميصا حجريا على هيئة برج مربع متدرج قليلا (٨) وكذلك مآذن اسوان والاقصر وأسنا التى شيدت فيما بعد ونحن نعلم ان تجديدا حصل كذلك فى المشرق وغدت المآذن اسطوانية ومثمنة، كما فى مآذن ايران وافغانستان ، او اسطوانية مخروطية كمئذنة بخارى ، لكنها جميعا شيدت بعد مئذنتى الحاكم ، فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر (٩).

ولكن الشئ الهام فى موضوع المآذن الفاطمية ، تلك الظاهرة الجديدة التى جعلت بعض المآذن تقام فوق مداخل المساجد ، وأحسن مثل عليها مئذنة مشهد الجيوشى (١٠) (٤٧٨/١٠٨٥م) التى ماتزال تحافظ على اصالتها ، بينما تغيرت معالم مئذنتى الاقمر والصالح طلائع .

ولاندرى مالذى اوحى للمعمار الفاطمى بهذه الفكرة الجديدة التى جعلت المئذنة تبدأ من مستوى السطح بدلا من ان تبدأ من الارض .

وانتقلت الفكرة فى وقت لاحق شرقا وغربا لتظهر بشكل او بأخر ، فهى فى مآذن سلاجقة الا ناضول ، تصبح مئذنتان فوق الباب (١١).

ونشاهد عددا من المآذن المقامة فوق الباب الرئيسى للمسجد او المدرسة فى الشام خلال العهد المملوكى ، ثم فى العهد العثمانى كمئذنة مسجد الشيخ محيى الدين فى دمشق (أنشأه السلطان سليم الفاتح ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م) ونشاهد فى المغرب شيئا مشابها فى جامع المنصورة المرينى المشيد خارج مدينة تلمسان فى الجزائر (اوائل القرن الرابع عشر الميلادى) . لكن المئذنة هنا لم تبن فوق الباب وانما فتح الباب الرئيسى فى قاعدة المئذنة فى برج بارز على مستوى جدران المسجد كظاهرة للجمع بين المئذنة والبوابة الرئيسية باسلوب مختلف عن مسجد الجيوشى بعض الشئ .

سادسا – العقود فى العمارة الفاطمية :

شهدت العمائر فى العهد الفاطمى تنوعا ملحوظا فى العقود الانشائية والاقواس الزخرفية . وظهرت اشكال لم تكن معروفة من قبل ، اختلف الباحثون فى اصلها ومنشئها ، ومهما يكن من امر فانها جاءت مع العهد الفاطمى ونسبت اليه .

ومن المعلوم ان العقود الشائعة فى العمارة الاسلامية من قبل تنحصر بما يسمى بالعقد نصف الدائرى والحدوى (الذى يتجاوز قوسه نصف الدائرة) ، والمفصص ، والمدبب ، وهذا الاخير على انواع فمنه المدبب الذى يرسم من مركزين ، استخدم بشكل محدود فى العهد الاموى ، وكان قليل التدبب ، ثم تطور فى العهد العباسى واخذ شكلا مختلفا واصبح يرسم من اربعة مراكز ، ويتألف من قوسين علويين قليلى التحدب ، وقوسين فى الاسفل ، مركزاهما فى موقعين مختلفين عن القوسين الاوليين ، وأحسن مثل عليه ذلك الذى نشاهده فى باب بغداد المقام فى اسوار مدينة الرافقة (الرقة) فى عهد هارون الرشيد (١٨٠هـ/٧٩٦م) ، ويجدر ان يطلق عليه : العقد العباسى لكونه لم يعرف قبل ذلك فى اى مكان .

ونلاحظ فى العمائر الفاطمية تطويرا للعقد العباسى هذا ، ليظهر منه شكلان جديدان ، بعد أن استخدم كما هو فى البداية . وتظهر الاشكال الجديدة متأخرة ، بدءا من القرن الخامس الهجرى . يتصف الشكل الاول بان قسمه العلوى تحول الى مستقيمين متلاقيين كرأس زاوية منفرجة ويشكلان مماسين للقوسين السفليين ، نشاهد مثل هذا العقد فى عمائر اسوان (اواخر القرن الحادى عشر) وفى بوابة مسجد الاقمر (٥١٩هـ/١١٢٥م) .

وكما فعلنا بالنسبة للعقد العباسى ، فاننا نفضل ان نسمى هذا العقد بالفاطمى لأنّا لم نشاهده مستعملا فى مكان آخر قبل ذلك (١٢) وهذا أصح مما لجأ اليه بعض مؤرخى الفن حين اسموه : الفارسى .

اما الشكل الاخر للعقد الفاطمى فهو مانسميه الفاطمى المتطاول لانه اصبح يقوم على ارجل مستقيمة . ويشاهد بشكل واضح فى اروقة الاقمر ، وقناطر الصالح طلائع (١٣) داخلا وخارجا ، وفى

مسجد السيدة رقية (٥٢٧هـ/١١٣٣م) ، وفى قناطر القبة الامامية فى الازهر وواجهة الحرم [١٣] (عهد الخليفة الحافظ ، ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) ، وغيرها .

ونعتقد بأن ظهور هذا العقد مبعثه الرغبة فى زيادة ارتفاع القناطر ، سواء كانت قائمة على عمد كما فى مسجدى السيدة رقية والصالح طلائع ، او على عضائد فى العمائر الاخرى . هو حل لجئ اليه بعلاج آخر فى جامع القيروان وجامع قرطبة وذلك باضافة عضائد صغيرة فوق العمد لزيادة ارتفاع القناطر ، وبالتالى سقف البناء .

وهناك عقود اخرى شاعت فى العهد الفاطمى ، استخدمت لاغراض الزخرفة فى المحاريب والنوافذ ، والمحاريب المسطحة ، اهمها مانسميه بالعقد المفصص الذى نجد منه فى العمائر الفاطمية اشكالا عدة متميزة ، منها :

المفصص الوسائدى ، الذى يتألف من فقرات حجرية محدبة الظاهر ، تشبه الوسائد او مجلدات الكتب المرصوصة الى بعضها . نشاهده فى باب الفتوح المجدد فى ايام بدر الجملى (٤٨٠هـ/١٠٨٧م) ، يعلو قنطرة مسطحة او محرابا مسطحا فى برج الباب . وسيشيع استعمال هذا العقد فى اقاليم وعهود اخرى كالذى نشاهده فى جامع علاء الدين بقونيه (القرن السابع الهجرى) ، وفى اماكن فى القدس ودمشق (سبيل الخزنة وجامع يلبغا من العهد المملوكى) . وكذلك يظهر فى بوابة جامع الظاهر بيبرس فى القاهرة . ويبقى عقد باب الفتوح حتى الان اقدم هذه العقود .

وفى باب الفتوح عقد مفصص بشكل مختلف ، حيث تأخذ فقرات العقد شكل نتوءات متدرجة ، تنتهى برأس دائرى . عثرنا على مايشبه هذا التفصيص فى نافذة اموية فى مسجد قصر الحلابات (الاردن) .

وشكل ثالث للتفصيص مطبق فى باب زويلة [١٦] ونجد هنا تفصيصا مألوفا نوعا ما ، حيث يجرى تجزئة العقد الى اقواس صغيرة . عرف اقدم نموذج لهذا النوع من التفصيص فى قوس زخرفى يعلو ايوان كسرى فى المدائن (كتيزيفون) .، ثم ظهر فى العمائر العباسية (الاخيضر- باب بغداد فى الرقة ، قصر العاشق بسامراء) .

ومع ذلك فان تصميم عقد باب زويلة الفاطمى يتميز عن كل ماذكرناه فهو ثلاثى الفصوص لكن الفص العلوى كبير ومجزأ بدوره الى فصوص كثيرة صغيرة.

ومفصص رابع يشيع كعنصر زخرفى فى العمائر الفاطمية ، يمكن ان نسميه بالشعاعى او المحارى . نجد هذا العقد فى المحاريب الزخرفية ، حيث يمتد التفصيص الى حشوة العقد او طبلته ، او فيما نطلق عليه طاسة المحراب . وتنطلق الاشعة غالبا من بؤرة مركزية وكأنها عين الشمس ، كالذى شاهدناه فى بوابة الاقمر وواجهته ، وفى بعض عقود الصالح طلائع [١٧] ، وفى كثير من محاريب المساجد (السيدة رقية - يحيى الشبيه) . وتختلف هذه العقود الشعاعية عن المحاريب المحارية التى ظهرت قبل ذلك فى القيروان (قبة المحراب الاغلبية) ، وكذلك المحاريب الرومانية . فهى اذن تتمتع بالاصالة . وسوف يستمر استخدامها فى عمائر القاهرة بشكل خاص فى العهدين الايوبى (مدرسة الصالح نجم الدين) والمملوكى .

وهناك اخيرا عقد استخدم فى اغراض زخرفية اكثر منها انشائية ، وسوف يشيع فى عهود لاحقة كعنصر انشائى فى عقود القناطر وغيرها ، ولاسيما فى ايران والولايات الشرقية وفى ولايات الدولة العثمانية بعد ذلك . وتعتبر هذا العقد متطورا عن العقد العباسى ، فهو يرسم من اربعة مراكز ايضا ولكن مراكز القوسين العلويين تقع خارج العقد ، مما يعطيها شكلا مقعرا . وكذلك اسماه معظم مؤرخى العمارة عقدا فارسيا . ولعل السبب هو شيوع استعماله فى المشرق . على اى حال لم نجد استعمالا له قبل العهد الفاطمى ، حيث وجدناه فى اقواس بعض المحاريب ، كمحراب الافضل فى ابن طولون (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) ، وفى شمسيات (النوافذ الجصية) [١٨] جامع الحاكم ، وفى محاريب مساجد أسوان وغيرها ، وفى واجهة صحن الازهر [١٩] المحدثة فى عهد الخليفة الحافظ المجددة فى عام ١٨٩١ ، كما هو معروف .

* * *

الهوامش

١ ـ حكم الفاطميون فى تونس أو إفريقية : من ٢٩٧هـ/٩٠٩م الى ٤٠٦هـ/١٠٠٦م وفى مصر من ٣٥٩هـ/٩٦٩م الى ٥٦٧هـ/١١٧١م .
وفى الشام : من ٣٥٨هـ/٩٦٩م الى ٤٦٩هـ/١٠٧٦/م.

٢ ـ فى تونس حوالى واحد وستين سنة وفى القاهرة مئة وتسع وستون سنة .

٣ ـ و٤ـ انظر المخطط رقم ـ١ـ والصورة رقم (١)

٥ ـ انظر المخططان : ٤،٣،٢

٦ ـ يمكن الرجوع الى بحثنا : تاريخ الحرم الشريف واثاره «المنشور فى وقائع الندوة العالمية الاولى للاثار الفلسطينية ـ جامعة حلب ـ ١٩٨٤م .

٧ ـ انظر الصورة رقم (٢) .

٨ ـ انظر المخطط رقم ـ٤ـ والصورة رقم (٦) .

٩ ـ شيدت مئذنتا الحاكم فى اواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) واضيف اليهما المعطف الحجرى بعد سنوات قليلة (٤٠٣هـ/١٠١٣م) .

١٠ ـ انظر المخطط رقم ـ٥ـ .

١١ ـ جفته منارة مدرسة فى سيواس (٦٧٠هـ/١٢٧١م) ، وجفته منارة مدرسة فى أرضروم (حوالى ١٢٧٥م) .

١٢ ـ يقول كريزويل بأن اقدم ماشوهد من هذه العقود فى ايران يظهر فى مشهد جلال الدين حسين فى اوزجند يرجع تاريخه الى عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م .

١٣ ـ انظر الصورة رقم (١) .

١٤ ـ انظر المخطط رقم ـ ٦ـ

١٥ ـ انظر الصورة رقم (٣) .

١٦ ـ انظر الصورة رقم (٤) .

١٧ ـ انظر الصورتين رقم (١) و (٢).

١٨ ـ انظر المخطط رقم ٤ .

١٩ ـ انظر المخطط رقم ٦ .

* * *

اهم مصادر البحث

١ ـ المقريزى (محمد بن احمد) : اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا القاهرة ، ١٩٤٨

٢ ـ د. فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الاسلامية . النهضة المصرية ، ١٩٦٩ .

٣ ـ د. احمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ، ١٩٦٥

٤ ـ د. عبد العزيز مرزوق : مدارس القاهرة قبل عصر المماليك ، القاهرة ، ١٩٤٦

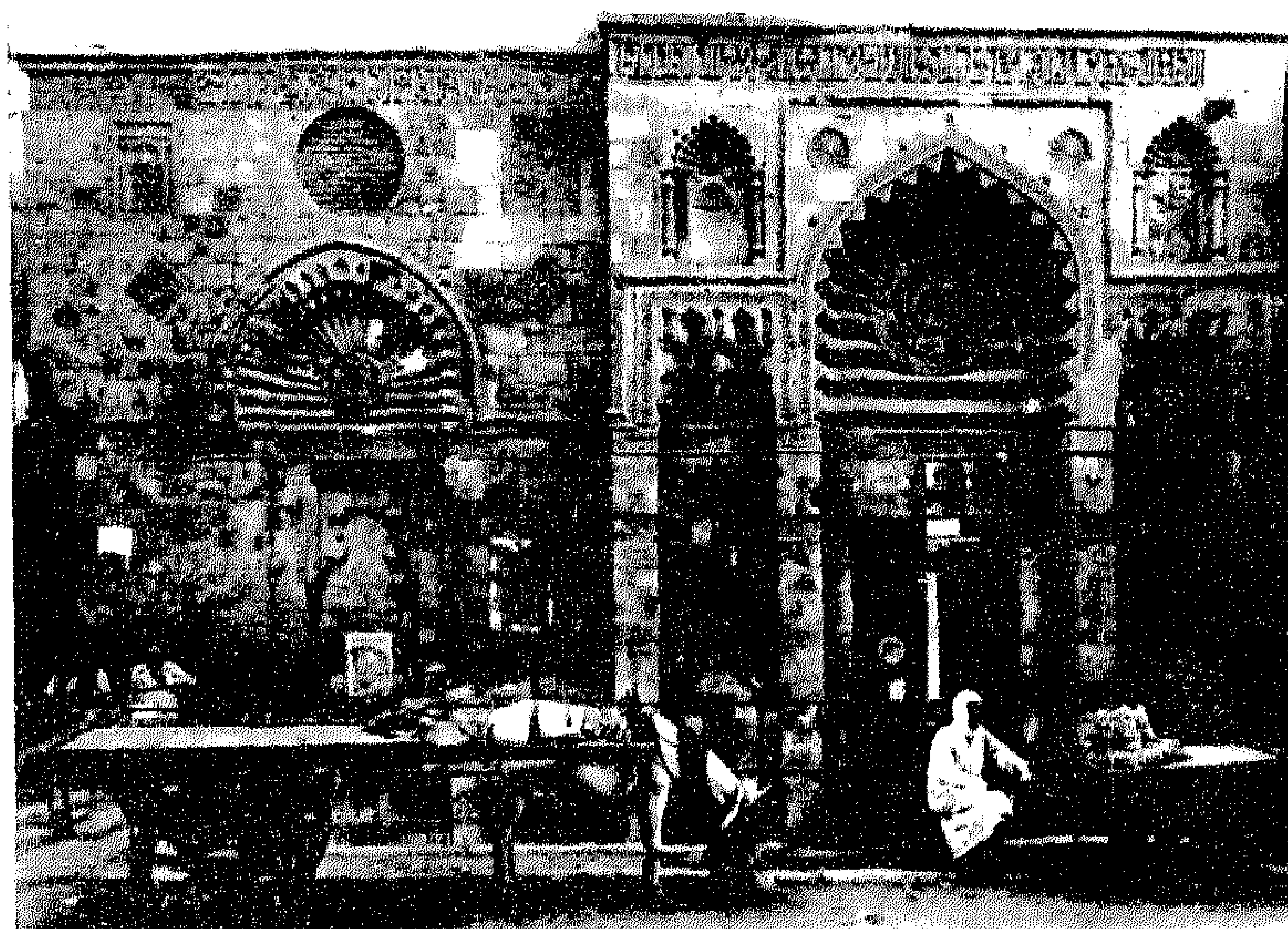
٥ ـ د. صالح لمعى مصطفى : التراث المعمارى الاسلامى فى مصر ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٥

6- Creswell (K. A. C.) : Early Muslim Arcritecture of Egypt, vol, I, Oxford, 1952.

7- Hoag (J. D): Islamic Architecture, Newyork, 1977.

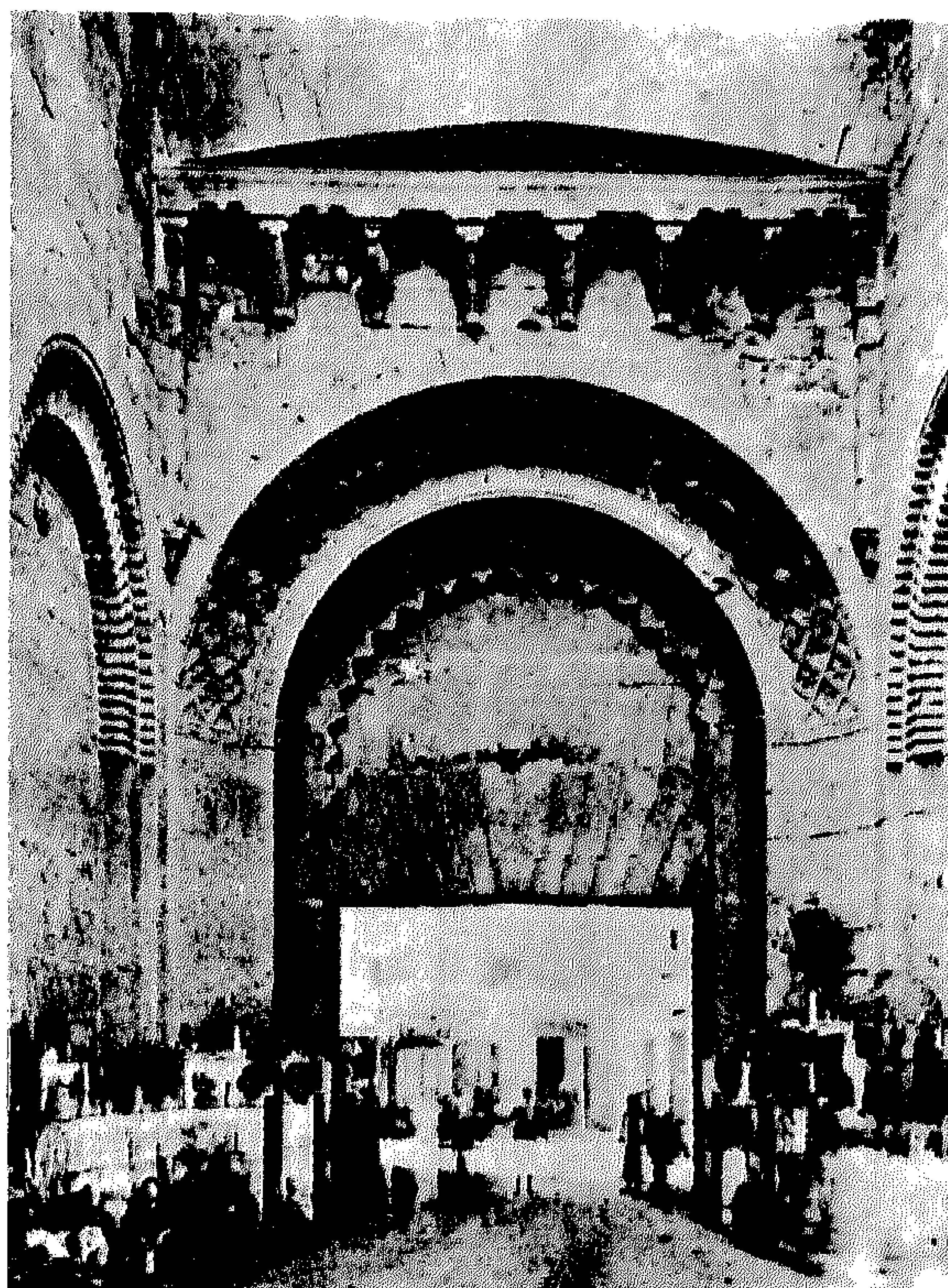


صورة (١) -جامع الصالح طلائع - الواجهات الخارجية
(نقلاً عن صالح لمعى مصطفى)



صورة (٢) جامع الأقمر - الواجهة والبوابة
(نقلاً عن هوغ)

صورة (٣)
باب الفتوح (نقلاً عن كريزويل)

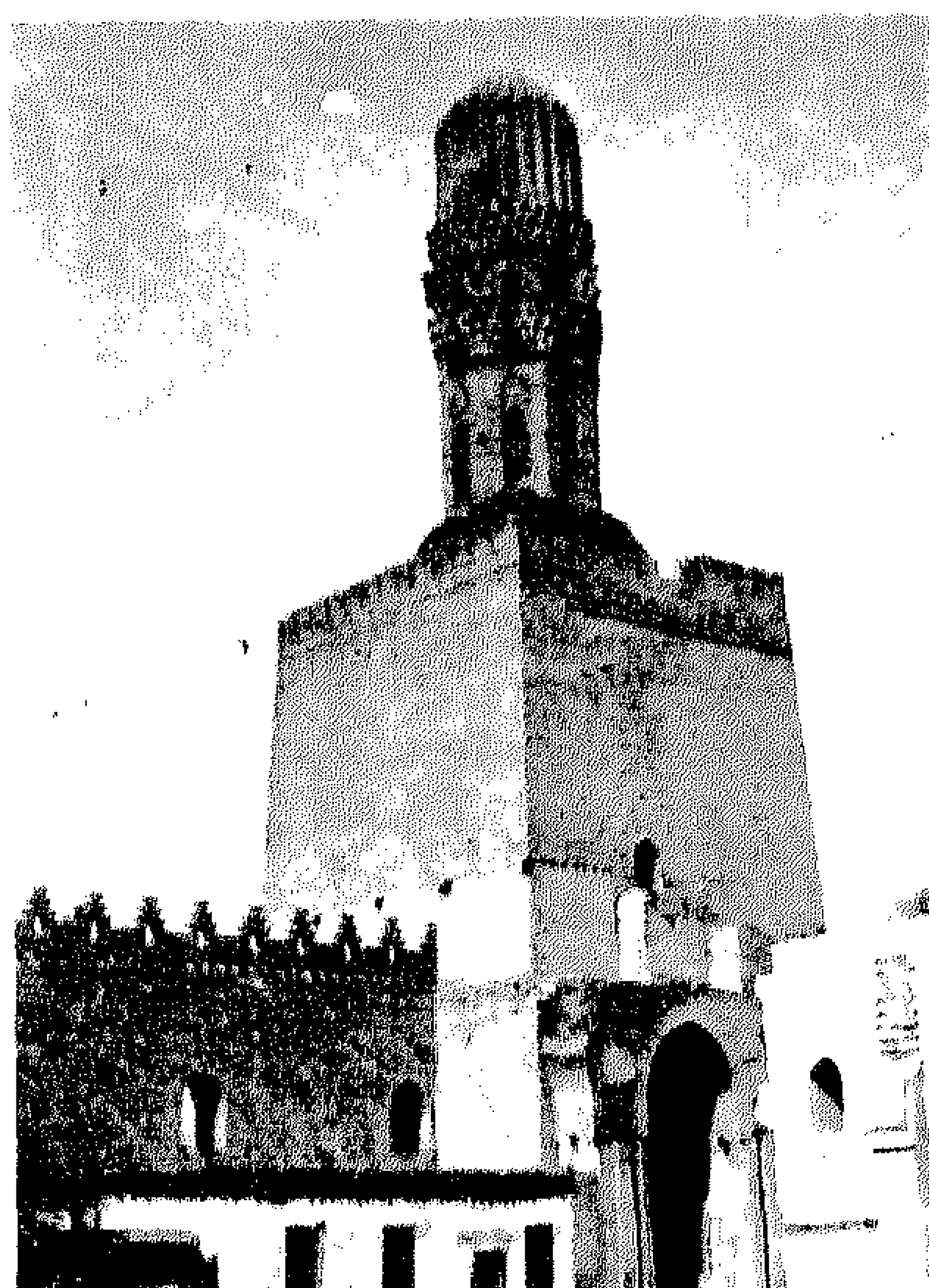




صورة (٤)
باب زويله (نقلاً عن كريزويل)

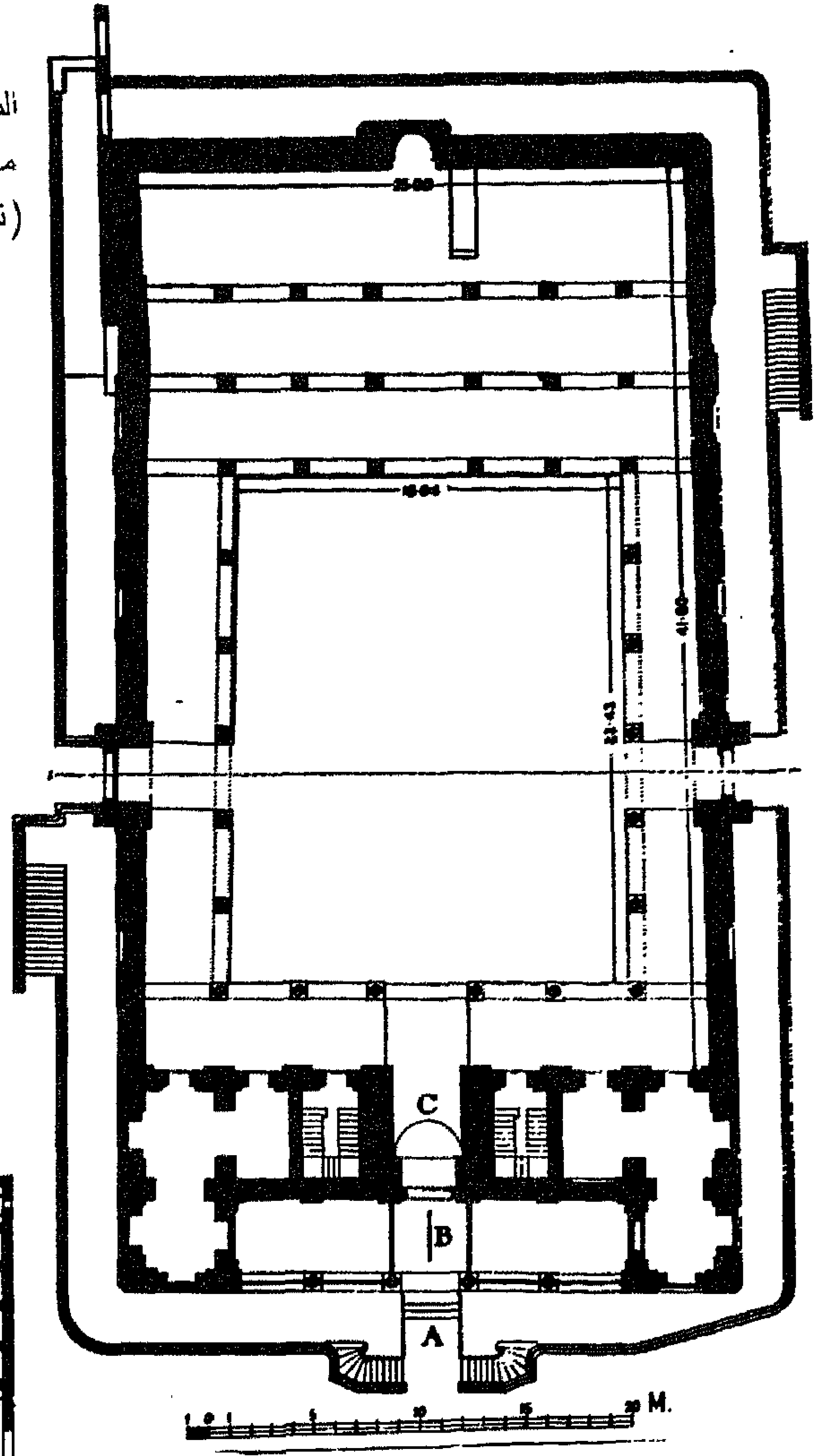


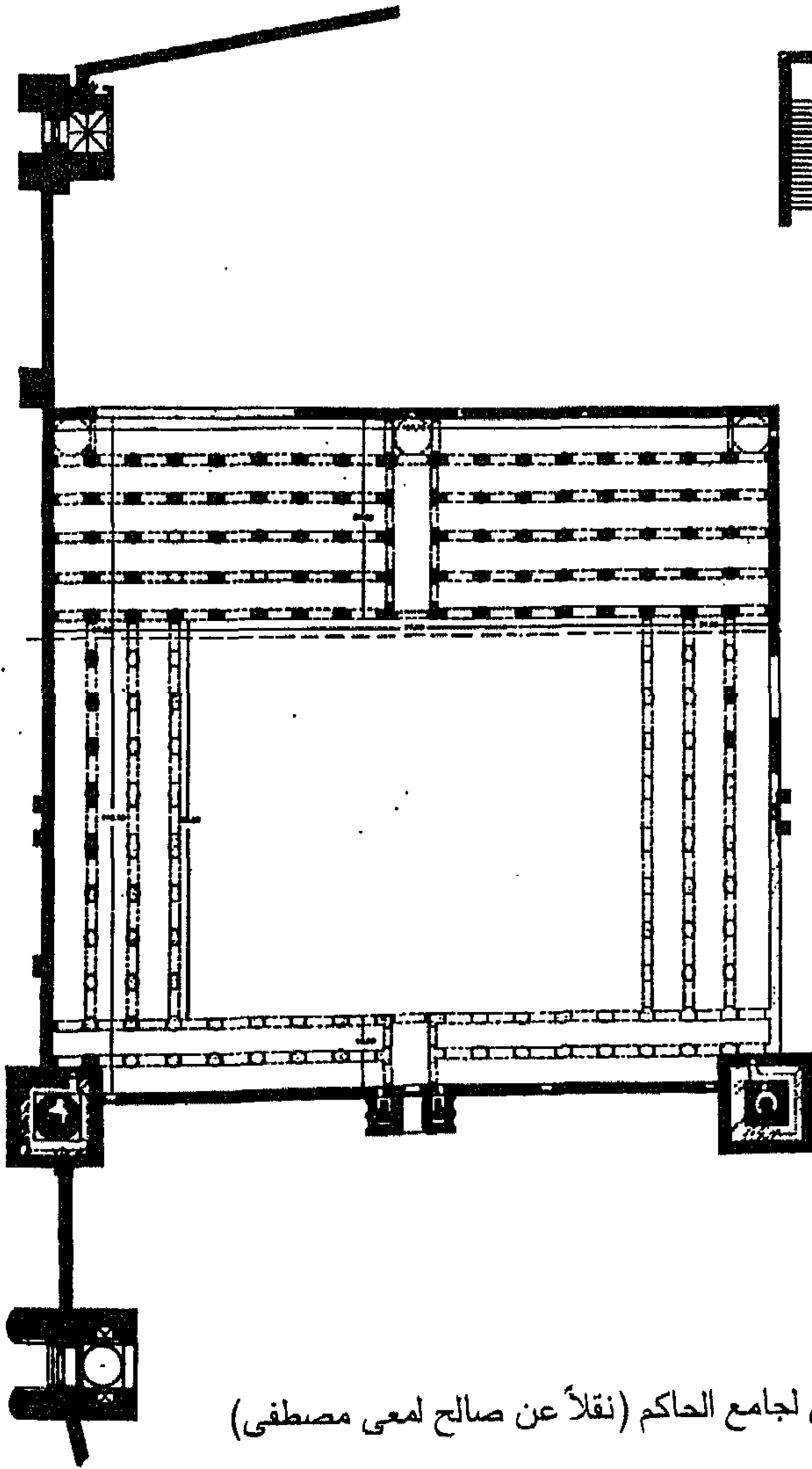
صورة (٥)
مسجد الصالح طلائع
عقد فارسى فى شمسية النوافذ (نقلاً عن كريزويل)



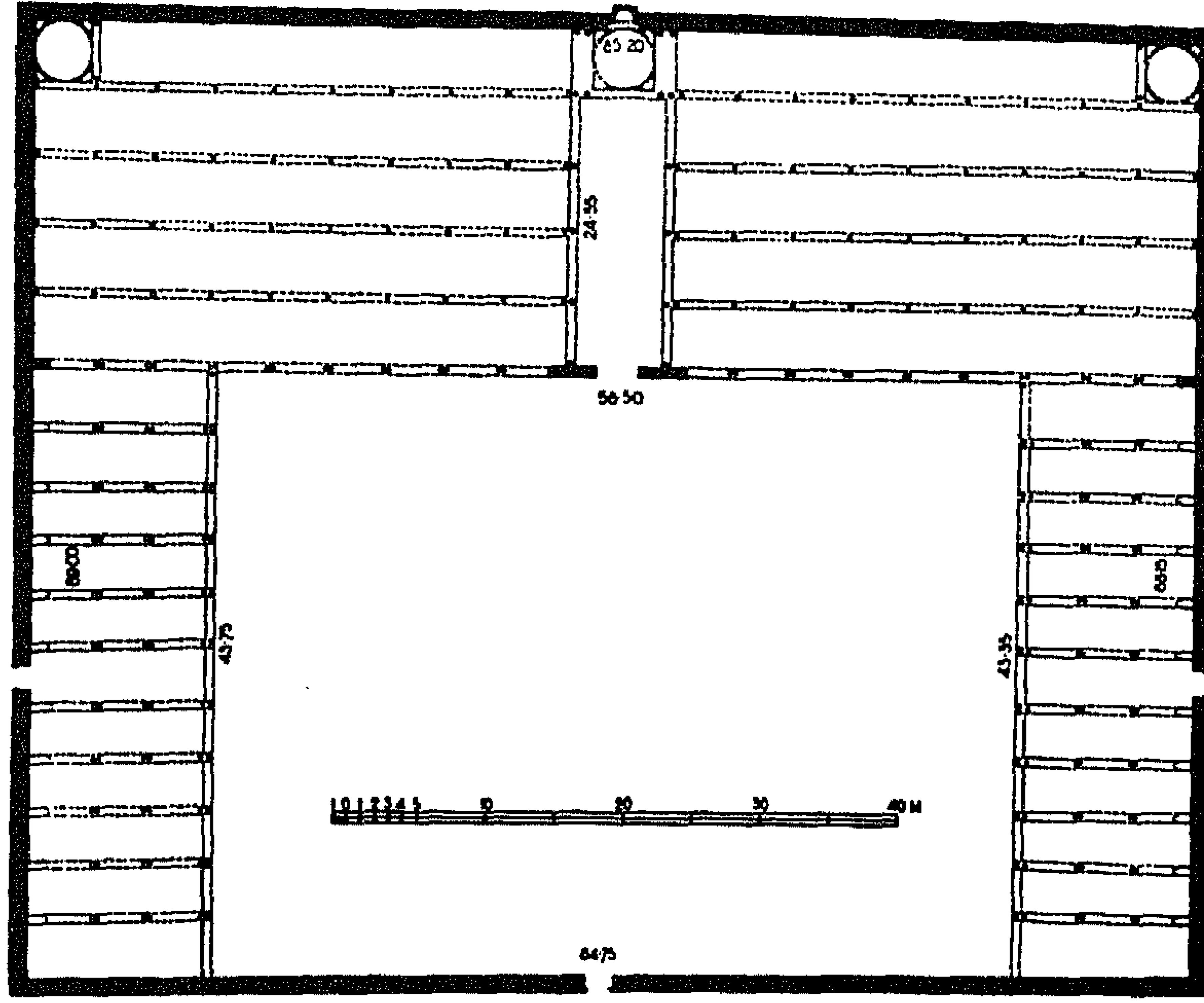
صورة (٦)
مئذنة جامع الحاكم

المخطط ١-
مسقط أفقى لمسجد الصالح طلائع
(نقلاً عن كريزويل)

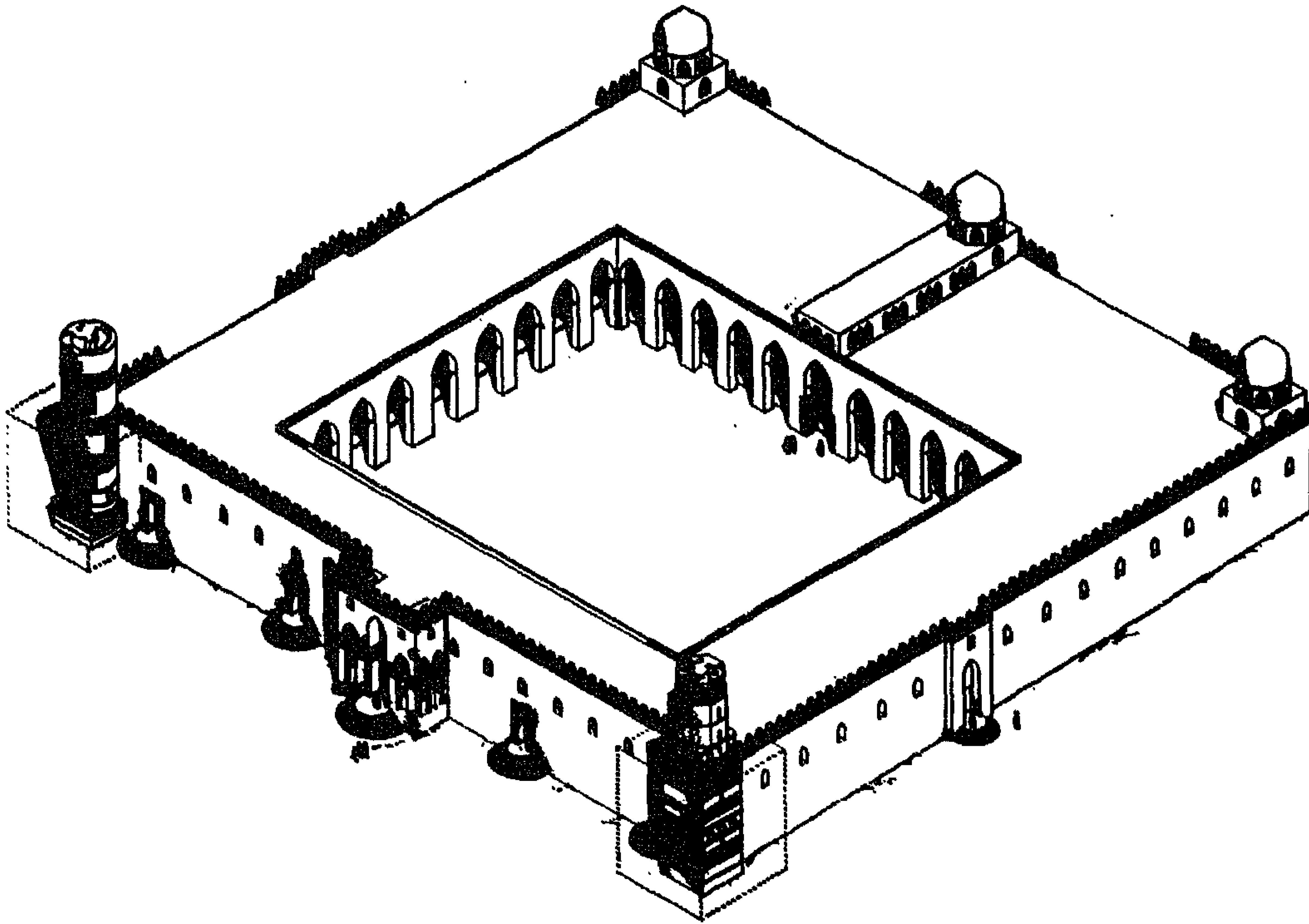




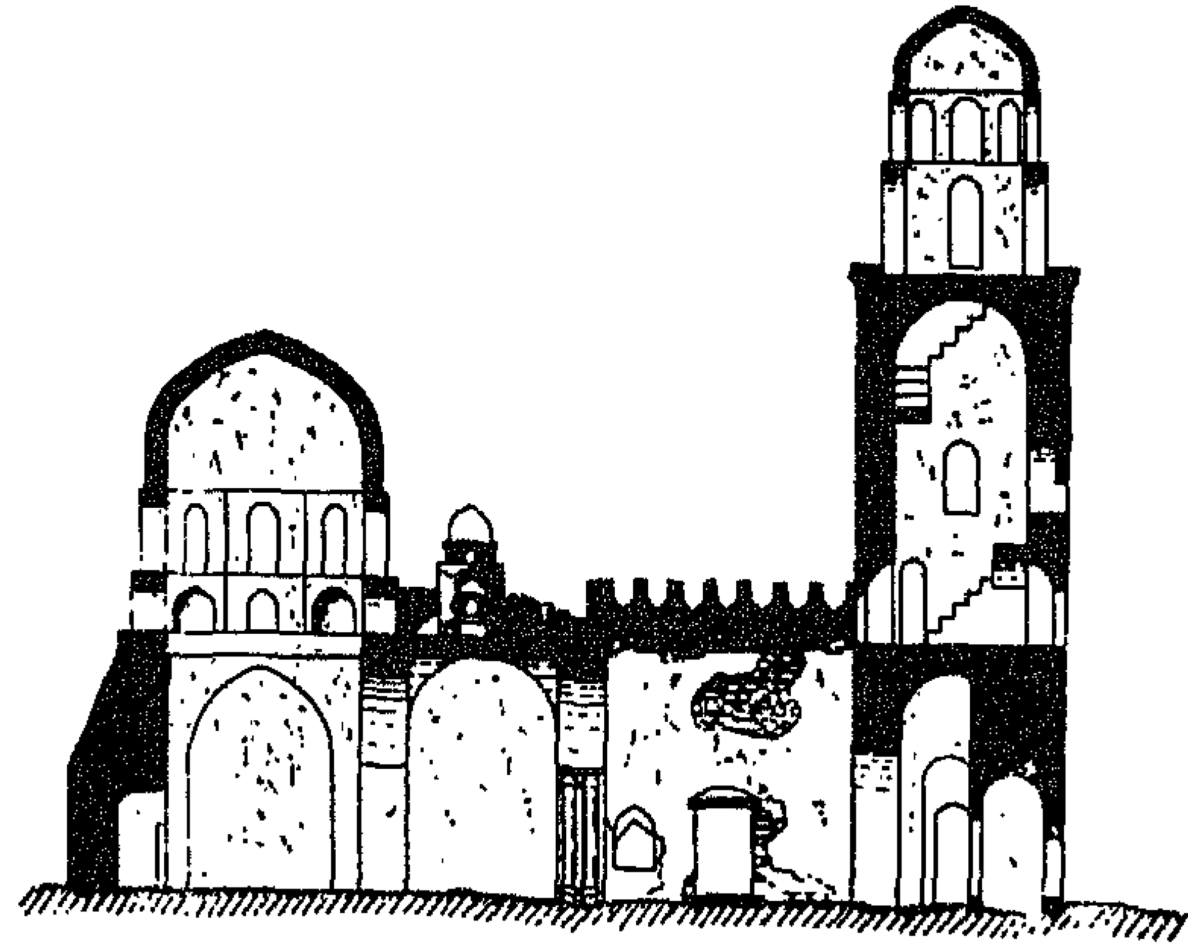
المخطط ٢- مسقط أفقى لجامع الحاكم (نقلاً عن صالح لمعى مصطفى)



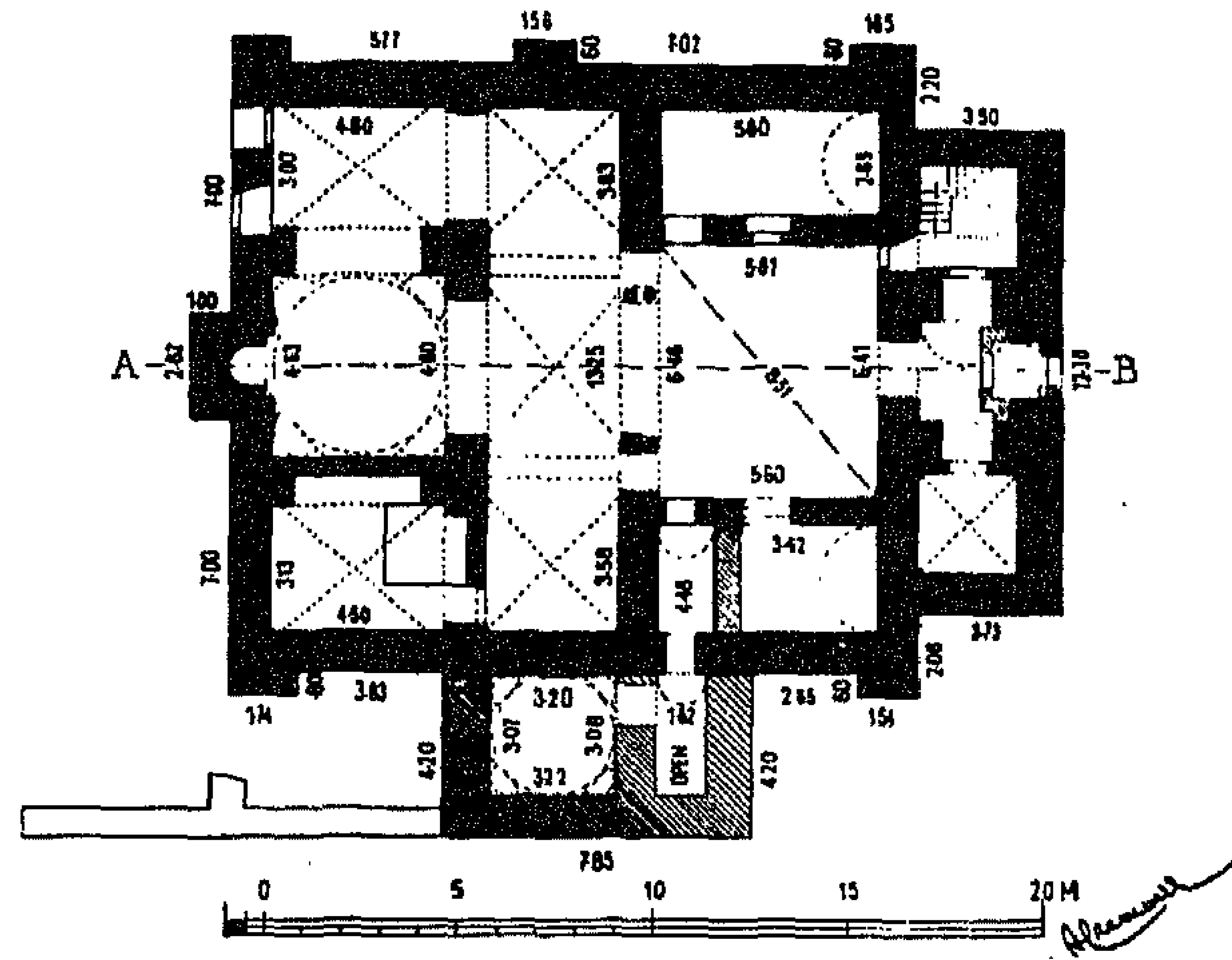
المخطط -٣- مسقط أفقي للأزهر في وضعه الأول
(نقلاً عن كريزويل)



المخطط ٤- جامع الحاكم- مجسم- (نقلاً عن كريزويل)

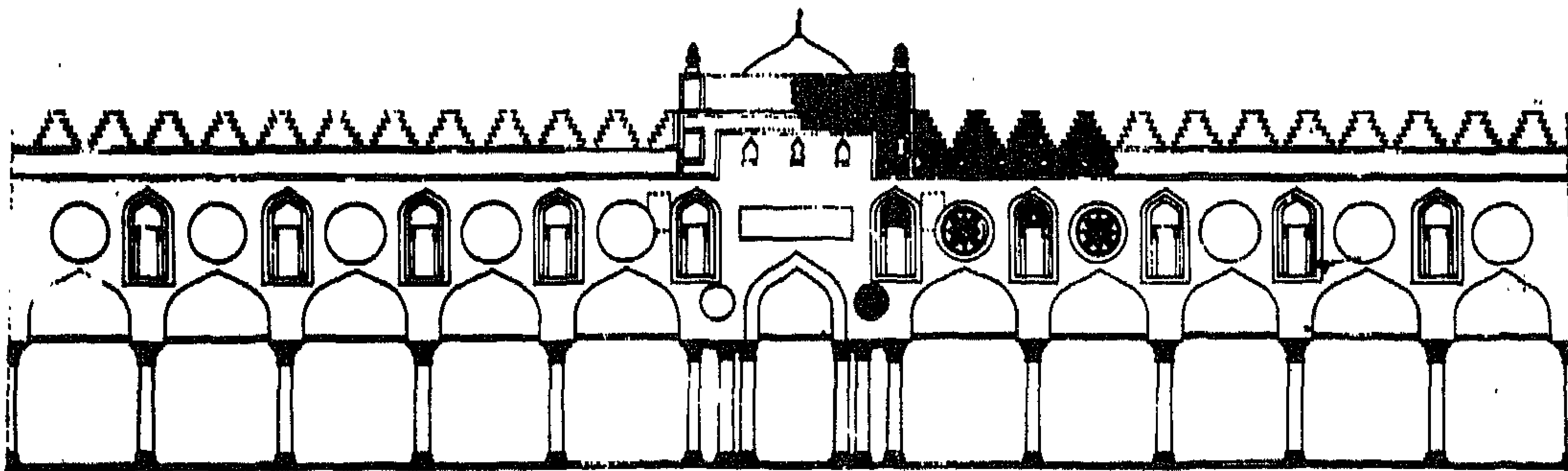


Section A-B



المخطط -٥-

مسجد الجيوشى - مسقط ومقطع (نقلاً عن كريزويل)



المخطط-٦- واجهة قاعة الصلاة فى الأزهر

قباب القاهرة في عصر المماليك الشراكسة

[دراسة في التكوين المعماري]

دكتور / علي غالب أحمد غالب

ازدهرت عمارة القاهرة فى عصر المماليك وازدانت بالعمائر التى مازال الكثير منها يزين المدينة حتى اليوم ، شاهدا على همة معمارييها وعلو شأنهم وتفوقهم فى صنعتهم . وهذا التراث المعمارى بالاضافة الى كونه ذو اهمية خاصة فيما يتعلق بدراسة حضارة مصر الاسلامية فى العصور الوسطى وكجزء هام من تراث العمارة الاسلامية ، فان هذه الاعمال مصدر لاينضب للمعرفة خاصة فيما يتعلق بالمفاهيم النظرية والممارسة العملية فى تلك العصور .

إن دراسة التكوين المعمارى لهذه المبانى ، ومحاولة التوصل الى اساليب عمل المعماريين القدامى ، تؤدى دون شك الى فهم اعمق وادق للنواحى المختلفة للعمل المعمارى ، كما تضيف الكثير الى معلوماتنا عن الجوانب المتعددة للحضارة الاسلامية وعلومها وفنونها . وترجع اهمية هذا الموضوع الى أنه لم ينشر منذ صدور كتاب جوزيف دللى عام ١٩٢٣ حتى الآن اى بحث على الاطلاق يتعرض بدراسة جدية لموضوع النسب واساليب التكوين المعمارى فى عمارة مصر الاسلامية .

ويقتصر الحديث هنا على نوع واحد من المنشئات وهو القباب المنفرده المقامة فوق القبور فى عصر المماليك الشراكسة (١٣٨٢ ـ ١٥١٧م) فلن اتعرض بالحديث للقباب الموجودة كجزء من مبانى أخرى مثل المساجد والمدارس والخانقاوات . هذا كما أن البحث يدور حول اساليب البناء الهندسى للشكل المعمارى لهذه المبانى دون اى محاولة للسرد التاريخى أو الوصف الاثرى .

وتعد هذه القباب نموذجا ممتازا لدراسة أساليب التكوين المعمارى التى كان المعمارى المصرى فى العصور الوسطى يتبعها فى عمله إذ أنه نظرا لبساطتها الشديدة فيما يتعلق بالمتطلبات الوظيفية فان الاهتمام الاساسى للمعمارى كان يتركز حول متطلبات الشكل والتكوين والانشاء ، وكما أنها كانت تبنى على الاغلب خارج أحياء المدينة المزدحمة مما يسمح بحرية أكبر فى اختيار النسب والعلاقات دون التقيد بظروف الموقع والمبانى المحيطة هذا بالاضافة الى أن بناء هذه القباب كان قد بلغ قدرا عاليا من التطور فى عصر المماليك البرجية مرتكزا على تراث كبير من خبرات وتقاليد العصور السابقة .

ورغم التنوع الكبير فى احجام وزخارف هذه القباب الا انها تكاد تتفق عموما فى التكوين الاساسى لعناصرها . فهى تتكون عادة من ثلاثة اجزاء . الجزء الاول وهو القاعدة المقامة عليها القبة وهى عبارة عن متوازى مستطيلات مسقطه الافقى مربع ، والجزء الثانى وهو منطقة الانتقال التى يتحول من خلالها المسقط الافقى المربع الى دائرة تقام عليها القبة ومنطقة الانتقال عادة من عدة حطات من المقرنصات بأشكالها المتنوعة ثم يعلو ذلك الجزء الثالث ويتكون من القبة المقامة على رقبة اسطوانية . وسأحاول هنا تحديد العلاقات الموجودة بين الاجزاء المختلفة للمبنى والاساليب التى اتبعها المعمارى فى تحديده لنسب هذه الاجزاء .

ان تحليل النسب فى الاعمال المعمارية حلقة هامة فى ادراك طريقة عمل المعمارى الذى يحدد صورة المبنى . ففى المنطق الداخلى المحدد لتكوين المبنى والمعتمد على خبرة البناء على مدى قرون عديدة تتضح عملية ابداع محددة تقودنا الى داخل فكر المعمارى .

ومن اجل التوصل الى القواعد العامة والاسس المحددة لطبيعة العمل المعمارى يجب التعرض لدراسة اكبر عدد ممكن من الامثلة حتى لاتحمل النتائج طابع المصادفة . وقبل البدء فى عرض أمثلة محددة يجب أن نوضح أن التحليل الهادف المقنع يجب أن لايقتصر على دراسة توافق الاشكال الهندسية بصرف النظر عن طبيعتها ووظيفتها بل يجب أن يكون على اساس دراسة أشكال هندسية مجردة مع مراعاة ما يلى :-

- يجب أن تتم الدراسة على اساس رسومات دقيقة موثوق بها * .

- إن كل اساليب البناء الهندسى للشكل المعمارى تتحدد بمستوى معارف المعمارى المصرى فى العصور الوسطى وعلوم ذلك العصر وامكانياته التكنيكية فيما يتعلق بالتكوينات الهندسية والحسابات الرياضية .

- بساطة تحقيق مراحل البناء الهندسى سواء على الرسم او فى اثناء عمليات البناء على الطبيعة .

- عند دراسة كل مبنى يتم تحديد مقياس ابتدائى يكون هو اساس المراحل التالية للعمل ويكون الحلقة الاولى فى سلسلة متتابعة الحلقات تكون العمليات التالية لبناء الشكل المعمارى للمبنى .

- يجب أن تتفق عمليات التكوين الهندسى للشكل المعمارى للمبنى مع المنطق الانشائى وتتابع عملية البناء على الطبيعة .

- يختتم تحليل كل مبنى بتحديد النسب الاجمالية للمبنى .

- يجب أن لاتتعدى التجاوزات فى القياس نسبة ٢ ٪ من الطول ، والا يجب الاشارة اليها ومحاولة تفسيرها .

قبة جانى بك الاشرفى : (٨٣١ هـ - ١٤٢٧م) (أثر رقم ١٢٢) طول ضلع المربع المقامة عليه القبة يساوى ١٥ر٦م أى حوالى عشرة أذرع ($\frac{٦ر١٥}{١٠}$ = ٦١٥ر. سم) الدائرة المرسومة حول المربع الداخلى تحدد سمك حوائط الجزء السفلى (شكل ١) أى أن طول ضلع المربع الداخلى الى طول ضلع المربع الخارجى يساوى ١ : ٢٧ أى أن طول الضلع الخارجى يساوى قطر المربع الداخلى يساوى حوالى ١٤ ذراع .

ارتفاع الجزء السفلى من الداخل وحتى بداية الكورنيش اسفل منطقة الانتقال يساوى طول ضلع المربع الداخلى أى حوالى عشرة أذرع (شكل ٢) .

* أستعنت فى هذه الدراسة بالرسومات الموجودة بمركز تسجيل الاثار الاسلامية بهيئة الاثار المصرية وهى بمقياس رسم ١ :٥٠ وعلى درجة كافية من الدقة . وأسجل هنا خالص شكرى للسيدة أمال أمين مدير عام الشئون الفنية والسيدة وداد اسماعيل مدير عام المركز على عظيم عونهما .

ارتفاع الجزء السفلى من الخارج من مستوى الارض وحتى بداية منطقة الانتقال يساوى ضعف القطع الاصغر من القطاع الذهبى * بالنسبة لضلع المربع أى ٢ (٦١٨ر٠) : ١ .

ارتفاع منطقة الانتقال حتى مركز القبة تساوى ارتفاع منطقة الانتقال .

ارتفاع القبة والرقبة معا من الخارج بالنسبة للارتفاع من منسوب الارض حتى نهاية منطقة الانتقال يساوى ١ : ٦١٨ر١ . سمك حوائط الرقبة والقبة يساوى $\frac{١}{٤}$ سمك حائط الجزء السفلى وسمك حوائط منطقة الانتقال $\frac{٣}{٤}$ سمك حوائط الجزء السفلى .

طول ضلع المربع الداخلى الى الارتفاع الكلى يساوى ١ : ٥ (٦١٨ر٠)

قبة نصر الله : (٨٤٥ هـ - ١٤٤١م) (أثر رقم ٨٨)

طول ضلع المربع المقامة عليه القبة من الداخل ٠٥ر٤م بينما طول الضلع من الخارج ١٠ر٦م أى حوالى عشرة أذرع .

نسبة طول ضلع المربع الداخلى الى طول ضلع المربع الخارجى ٢ :٣ أى أن سمك حوائط .

الجزء السفلى يساوى سدس طول الضلع الخارجى أو ربع طول الضلع الداخلى (شكل ٤)

ارتفاع منطقة الانتقال يساوى نصف ارتفاع الجزء السفلى

ارتفاع منطقة الانتقال بالنسبة الى طولها من الداخل يساوى ١ : ٦١٨ر١ (شكل ٥)

ارتفاع القبة والرقبة بالنسبة للارتفاع من منسوب الارض حتى نهاية منطقة الانتقال يساوى ١ : ٢ (٦١٨ر٠)

ارتفاع الرقبة حتى شريط الكتابة الخارجى يتناسب مع ارتفاع منطقة الانتقال بنسبة ١ : ٦١٨ر١

ارتفاع القبة من شريط الكتابة الخارجى يساوى قطرها من الداخل .

سمك حائط الرقبة والقبة ثلث سمك حائط الجزء السفلى وسمك حائط منطقة الانتقال يساوى ثلثى سمك حائط الجزء السفلى .

طول الضلع الخارجى بالنسبة الى الارتفاع الكلى للقبة يساوى ١ : $\frac{٣\sqrt{٢}}{٢}$

قبة السبع بنات : (منتصف القرن التاسع هجرى - منتصف القرن الخامس عشر ميلادى) (أثر رقم ١١٠)

طول ضلع المربع المقامة عليه القبة ٢٣ر٦م أى حوالى عشرة أذرع ($\frac{٦٫٢٣}{١٠}$ = ٦٢٣ر٠ سم) .

---

* اصطلح على هذه التسمية لنسبة ١ ($\frac{\sqrt{٥}+١}{٢}$) أى ١ :٦١٨ر١ أو ١ : ٦١٨ر. أى طول ضلع المربع الى قطر نصفه زائد أو ناقص نصف ضلع المربع أو بتعبير أخر $\frac{أ}{ب} = \frac{ب}{أ+ب}$ وهذه العلاقة رغم ما يبدو من تعقيد التعبير الرياضى سهلة التحقيق عمليا .

سمك الحوائط يتحدد بالدائرة المرسومة حول المربع الداخلى أى أن طول ضلع المربع الخارجى يساوى قطر المربع الداخلى أى حوالى ١٤ ذراع (شكل ٧)

الارتفاع من الارضية الداخلية حتى بداية منطقة الانتقال يساوى طول ضلع المربع الداخلى بينما الارتفاع من الخارج حتى بداية منطقة الانتقال يساوى طول ضلع المربع الخارجى (مع ملاحظة احتمال ارتفاع المنسوب الحالى للارضية عن المنسوب الاصلى)(شكل ٨)

ارتفاع منطقة الانتقال يساوى ٦١٨ر٠ بالنسبة لطول ضلع المربع الداخلى أو لارتفاع الجزء السفلى من الداخل .

ارتفاع منطقة الانتقال يساوى حوالى نصف طولها من الخارج .

طول ضلع المربع الداخلى بالنسبة الى الارتفاع من منسوب الارضية الداخلية حتى نهاية منطقة الانتقال يساوى ١ : ٦١٨ر١ ·

ارتفاع الرقبة حتى شريط الكتابة الداخلى يساوى قطر المستطيل المكون من الجزء السفلى بالاضافة الى منطقة الانتقال .

ارتفاع القبة يتناسب مع قطرها الداخلى بنسبة ٣ : ٢ أى كارتفاع المثلث المتساوى الاضلاع الى طول ضلعة .

ارتفاع الرقبة والقبة يساوى تقريبا القطر الخارجى .

ارتفاع القبة والرقبة معا يتناسب مع الارتفاع من منسوب الارض حتى نهاية منطقة الانتقال بنسبة ٣ : ٥ .

سمك حوائط الرقبة والقبة يساوى ربع سمك حوائط الجزء السفلى وسمك حائط منطقة الانتقال يساوى نصف سمك حائط الجزء السفلى .

نسبة طول الضلع الخارجى الى الارتفاع الكلى من الخارج تساوى ١ : ٥ .

قبة برسباى البجاسى : (٨٦٠ هـ - ١٤٥٦م) (أثر رقم ١٢٤)

طول الضلع الداخلى للمربع المقامة عليه القبة ٨٠ ر٥ م (؟)

سمك الحوائط يساوى سدس طول ضلع المربع الداخلى ، أى أن طول ضلع المربع الداخلى بالنسبة الى طول ضلع المربع الخارجى يساوى ٣ : ٤

ارتفاع الجزء السفلى من الخارج حتى بداية منطقة الانتقال يساوى طول الضلع الخارجى (شكل ٩)

ارتفاع الجزء السفلى من الداخل حتى بداية الكورنيش أسفل منطقة الانتقال يساوى قطر نصف المربع الداخلى .

ارتفاع الجزء السفلى من الخارج حتى بداية منطقة الانتقال بالنسبة الى الارتفاع من منسوب الارض حتى نهاية منطقة الانتقال يساوى ١ : ٢ .

ارتفاع منطقة الانتقال من الداخل بالنسبة لطول ضلع المربع الداخلى يساوى ١ : ٦١٨ر١

ارتفاع الرقبة حتى نهاية شريط الكتابة الداخلى يساوى نصف ارتفاع منطقة الانتقال .

ارتفاع الجزء الباقى من الرقبة زائد القبة بالنسبة لقطر القبة من الداخل يساوى ٣ : ٢ .

ارتفاع القبة زائد الرقبة يساوى قطر القبة من الخارج .

ارتفاع القبة زائد الرقبة بالنسبة للارتفاع من منسوب الارض حتى نهاية منطقة الانتقال يساوى ٥ :٨ أو يقارب جدا نسبة القطاع الذهبى ١ :٦١٨ر١

سمك حوائط الرقبة والقبة يساوى ثلث سمك حائط الجزء السفلى وسمك حائط منطقة الانتقال يساوى ثلثى سمك حائط الجزء السفلى .

طول الضلع الداخلى بالنسبة للارتفاع الكلى يساوى ١ :٣

قبة أزرمك : (٩٠٩هـ - ١٥٠٤م) (أثر رقم ٨٧)

طول ضلع المربع الداخلى ٤٠ر٥م أى حوالى ٥ر٨ ذراع (٨٥ × ٦٢ر٠ = ٢٧ر٥م) الفارق حوالى ١٣ر٠م

طول قطر المربع ٦٠ر٧ ، حوالى ١٢ ذراع (١٢×٦٢ر٠ = ٤٤ر٧م الفارق حوالى١٦رم

سمك الحوائط تحدده الدائرة المرسومة حول المربع الداخلى . أى أن طول الضلع الخارجى يساوى قطر المربع الداخلى .

ارتفاع الجزء السفلى من الداخلى من الارضية وحتى بداية منطقة الانتقال يساوى قطر نصف المربع الداخلى (شكل ١٠)

ارتفاع الجزء السفلى من الخارج بالنسبة لطول ضلع المربع الداخلى يساوى ٦١٨ر١ : ١

ارتفاع منطقة الانتقال من الخارج بالنسبة لضلع المربع الداخلى يساوى ٦١٨ر٠ :١

ارتفاع منطقة الانتقال من الداخل بالنسبة لطول ضلع المربع الداخلى يساوى ١ : (٢× ٦١٨ر.) أو ٦١٨ر١ :٢

ارتفاع القبة والرقبة من نهاية منطقة الانتقال حتى قمة القمة يساوى القطر الداخلى لها .

سمك حائط القبة والقبة يساوى ربع سمك حائط الجزء السفلى وسمك حائط منطقة الانتقال يساوى نصف سمك حائط الجزء السفلى .

طول ضلع المربع الداخلى بالنسبة للارتفاع الكلى للقبة يساوى ١ : (٢×٦١٨ر١) .

قبة عصفور : (حوالى ٩١٢ هـ - ١٥٠٦م) (أثر رقم ١٣٢)

طول ضلع المربع الداخلى يساوى ٤٠ر٣م بينما القطر الداخلى للقبة يساوى ١٥ر٣م أى خمسة أذرع (٥ × ٦٢ر٠ = ١٠ر٣م)

طول ضلع المربع الخارجى للجزء السفلى بالنسبة الى قطر القبة يساوى ٦١٨ر١ : ١

سمك حوائط الجزء السفلى يساوى سدس طول الضلع الخارجى

الارتفاع الداخلى من منسوب الارضية حتى بداية منطقة الانتقال بالنسبة الى طول ضلع المربع الداخلى يساوى ٦١٨ر١ : ١

ارتفاع منطقة الانتقال من الداخل يساوى قطر نصف المربع الداخلى

الارتفاع من الخارج من منسوب الارض حتى بداية منطقة الانتقال من الخارج يساوى ٥ر١ طول الضلع الخارجى .

ارتفاع القبة زائد منطقة الانتقال من الخارج يساوى أرتفاع الجزء السفلى من الخارج

أرتفاع منطقة الانتقال من الخارج بالنسبة لارتفاع الرقبة والقبة معا يساوى ١ : ٦١٨ر١

سمك حوائط القبة والرقبة يساوى ثلث سمك حوائط الجزء السفلى وسمك حوائط منطقة الانتقال يساوى ثلثى سمك حوائط الجزء السفلى .

الارتفاع الكلى يساوى ثلاثة أمثال طول الضلع الخارجى .

قبة أزدمر (أوائل القرن العاشر هجرى - القرن السادس عشر ميلادى) (أثر رقم ١١٣)

طول ضلع المربع الداخلى للجزء السفلى يساوى ٢٥ر٤م أى حوالى سبعة أذرع (٢٥ر٤ / ٧ = ٦٠٧ر٠ سم)

الدائرة المرسومة حول المربع الداخلى تحدد سمك الحوائط عدا الحائط الشرقى فسمكة يساوى ربع طول ضلع المربع الداخلى (شكل ١٢)

طول ضلع المربع الداخلى يتناسب مع ارتفاع الجزء السفلى حتى بداية منطقة الانتقال من الداخل بنسبة ٥ : ٨ بينما يتناسب مع ارتفاع الجزء السفلى حتى بداية منطقة الانتقال من الخارج بنسبة ١ : ٦١٨ر١ (شكل ١٣)

ارتفاع منطقة الانتقال من الداخل يتناسب مع طول ضلع المربع الداخلى بنسبة ١ :٢ .

الارتفاع من منسوب الارض حتى نهاية الجزء السفلى من الخارج يتناسب مع الارتفاع حتى نهاية منطقة الانتقال بنسبة ١ : ٢

ارتفاع منطقة الانتقال زائد الرقبة والقبة يساوى ضعف طول المربع الداخلى .

ارتفاع القبة والرقبة يتناسب مع الارتفاع من منسوب الارض حتى نهاية منطقة الانتقال بنسبة ١ : ٦١٨ر١

ارتفاع شريط الكتابة الخارجى يساوى نصف ارتفاع منطقة الانتقال سمك حوائط الرقبة والقبة يساوى ثلث سمك حائط الجزء السفلى وسمك حائط منطقة الانتقال يساوى ثلثى سمك حائط الجزء السفلى .

طول الضلع الخارجى يتناسب مع الارتفاع الكلى بنسبة ٢ : ٥

يمكن مما سبق استخلاص بعض النتائج المتعلقة بالاسس العامة لاسلوب عمل المعمارى المصرى فى العصور الوسطى ومنها :

- المقاس الابتدائى أو نقطة الانطلاق فى بناء الشكل المعمارى لقباب القاهرة فى أغلب الاحيان هو طول ضلع المربع المقامة عليه القبة . وان كان احيانا هو قطر القبة أو طول الضلع الخارجى .

ومن أجل تحديد هذا المقاس الابتدائى كانت هناك مقاسات نمطية يمكن أن نحدد منها سلسلتين من المقاسات ، الاولى : ٦ أذرع (اينال الاتابكى - محمد جانى بك) ٥ر٨ ذراع (زين الدين يوسف - تتر الحجازية - أزرمك) ١٢ ذراع (الجاى اليوسفى - الاشراف اينال - قانيباى السيفى - قانصوه أبو سعيد) ١٧ ذراع (الصالح نجم الدين ايوب - الأشرف خليل - برقوق - فاطمة خاتون) والثانية ٥ (عصفور) ٧ (الشيخ يونس - احمد المهمندار - ازدمر - أبو الغضنفر) ١٠ (الاشرف برسباى - ايدكين البندقدارى - جانى بك الاشرفى - نصر الله - السبع بنات) ١٤ (صيرغتمش) ٢٠ (خانقاه برقوق) ومن الواضح أن كل عدد فى السلستين يتناسب مع العدد الذى يليه بنسبة ١ : ٢ أى أن كل عدد يمثل ضلع مربع قطره هو العدد التالى له .

- طول الذراع السائد استخدامه فى اعمال البناء فى مصر فى العصور الوسطى يساوى ٦١ - ٦٢ سنتيمترا أى ضعف القدم اليونانى السائد استخدامه فى العمارة البيزنطية (٨ ر٣٠ × ٢ = ٦ر٦١ سم)

- سمك حوائط المربع المقامة عليه القبة يتحدد اما بالدائرة المرسومة حول المربع الداخلى (جانى بك - السبع بنات - أزرمك - أزدمر) أو بعلاقة عددية بسيطة بالنسبة لطول ضلع المربع كأن يكون ربع أو سدس طول الضلع (نصر الله - برسباى البجاسى - عصفور - أزدمر)

- ارتفاع الجزء السفلى أى القاعدة عليها القبة من الداخل يساوى طول ضلع المربع الداخلى (جانى بك الاشرفى - السبع بنات) أو يساوى قطر نصف المربع الداخلى (برسباى البجاسى - ازرمك) أو يساوى ٦١٨ر١ من طول الضلع (عصفور - أزدمر) .

- ارتفاع منطقة الانتقال يساوى نصف ارتفاع الجزء السفلى (جانى بك الاشرفى) (نصر الله) أو يساوى ٦١٨ر٠ من طول الضلع الداخلى (السبع بنات - أزرمك) أو أن الارتفاع من منسوب الارض حتى نهاية منطقة الانتقال يساوى ١ : ٢ (برسباى البجاسى - ازدمر) .

- ارتفاع منطقة الانتقال من الداخل بالنسبة لطول ضلع المربع الداخلى يساوى ١ : ٦١٨ر١ (جانى بك - نصر الله - السبع بنات - برسباى البجاسى) أو يساوى ١ : (٢ × ٦١٨ر٠) (أزرمك) أو يساوى ١ : ٢ (أزدمر) أو يساوى $\frac{٥}{٢}$ ١ (عصفور)

- ارتفاع القبة والرقبة معا بالنسبة للارتفاع من منسوب الارض حتى نهاية منطقة الانتقال يساوى ١ : ٦١٨ر١ (جانى بك الاشرفى - برسباى البجاسى - أزدمر) أو يساوى ٣ : ٥ (السبع بنات) أو يساوى ١ : (٢ × ٦١٨ر٠) (نصر الله) أو يساوى ١ : ٦١٨ر١ بالنسبة لارتفاع الجزء السفلى حتى بداية منطقة الانتقال من الخارج (أزرمك) أو يساوى ١ : ٦١٨ر١ بالنسبة للارتفاع من بداية منطقة الانتقال حتى قمة القبة (عصفور)

- سمك حوائط الرقبة والقبة يساوى ربع سمك حوائط الجزء السفلى (جانى بك الاشرفى - السبع بنات - أزرمك) أو يساوى ثلث سمك حوائط الجزء السفلى (نصر الله - برسباى البجاسى - عصفور - أزدمر) وسمك حوائط منطقة الانتقال يساوى ثلاثة ارباع سمك حوائط الجزء السفلى (جانى بك الاشرفى) أو يساوى ثلثى سمك حوائط الجزء السفلى (السبع بنات - أزرمك)

- النسب الاجمالية للعرض والارتفاع متنوعة وتختلف من حالة لاخرى

إن نتائج دراسة التكوين المعمارى لقباب عصر المماليك الشراكسة والواردة أعلاه تعطينا الحق فى تأكيد أن اسلوب عمل المعماريين فى ذلك العصر كان يعتمد على استخدام العلاقات الهندسية والعددية البسيطة من أجل اقامة وتحديد الشكل المعمارى للمبنى ، فقد كانت هذه العلاقات هى الاداة المستخدمة لحل مسائل التكوين المعمارى سواء ما كان منها يتعلق بالنواحى الإنشائية أو الجمالية أو تنفيذ عمليات البناء ، كانت هى اللغة التى يستخدمها المعمارى فى نقل الخبرات من جيل الى آخر .

ويبدو تتابع وتطور هذه الخبرات واضحا اذا نظرنا الى أمثلة من عصور سابقة . فشيوع استخدام نسبة القطاع الذهبى مثلا يرجع الى تقاليد عصور سابقة ويبدو هذا فى قبة الخلفاء العباسيين (١٢٤٣م) (شكل ١٤) وفى قبة الصالح نجم الدين أيوب (١٢٥٠م) غير أن معماريى عصر المماليك طوروا هذا التراث فأصبح التكوين المعمارى لقباب هذا العصر أكثر نضجا بتأكيد وابراز كل عنصر من عناصرها كما أنها أصبحت أكثر رشاقة بإزدياد ارتفاعها بالنسبة الى عرضها ، وازدادت خبرات المعماريين وتفننهم فى استخدام العلاقات والتكوينات الهندسية فى تحديد الشكل المعمارى لهذه القباب .

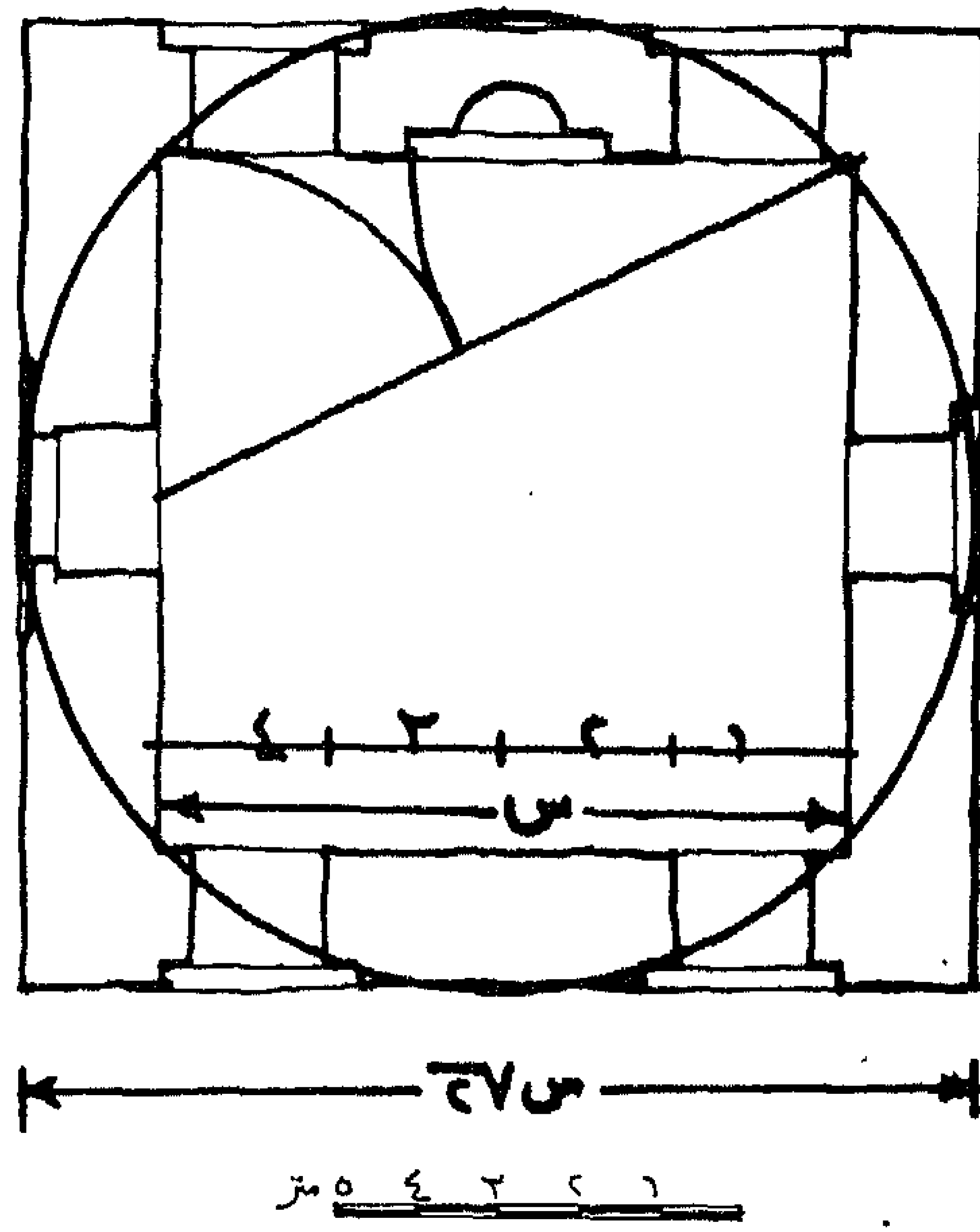
ولاشك فى أن النشاط العملى للمعمارى كان يعتمد على هذه الخبرات المتراكمة عبر قرون عديدة بالاضافة الى المفاهيم النظرية التى صاغها علماء المسلمين مثل الخوارزمى والفارابى والبيرونى وغيرهم . فالفارابى يضع رئاسة البناء ضمن فروع الهندسة العملية أو كما يسميها (الحيل الهندسية) وعلى حد تعبير الفارابى فان الهندسية العملية تنظر فى خطوط واسطح الخشب إذا استخدمها النجار أو الحديد اذا استخدمها الحداد أو الحجر اذا استخدمها البناء وفى كتاب (الحيل الروحانية والاسرار الطبيعية فى دقائق الاشكال الهندسية) يورد الفارابى العديد من أساليب اقامة الاشكال الهندسية المنتظمة بالاستعانة بالبرجل والمسطرة . وعلى أثر الفارابى يضع أبو الوفا بوزجانى (كتاب أبى الوفا فيما يحتاج اليه من أعمال الهندسة) وبهذا فان هندسة اقليدس النظرية التى تبحث فى خطوط واسطح وأجسام مجردة ، قد وجدت تجسيدا عمليا لها فى مؤلفات علماء المسلمين فى العصور الوسطى فربطوا بذلك بين المؤلفات النظرية والممارسة العملية لعصرهم . ومن الواضح فيما يتعلق بقباب القاهرة فى عصر المماليك أن المعماريين كانو يحددون بقدر كاف من المهارة والدقة نسب كل أجزاء المبنى غير أنهم كانوا على قدر كبير من المرونة فيما يتعلق باختيار نوع البناء الهندسى والنسب والعلاقات العددية طبقا لفكرة التكوين والمتطلبات الانشائية وفكر المعمارى وطابعه الخاص فى كل حالة على حدة .

* * *

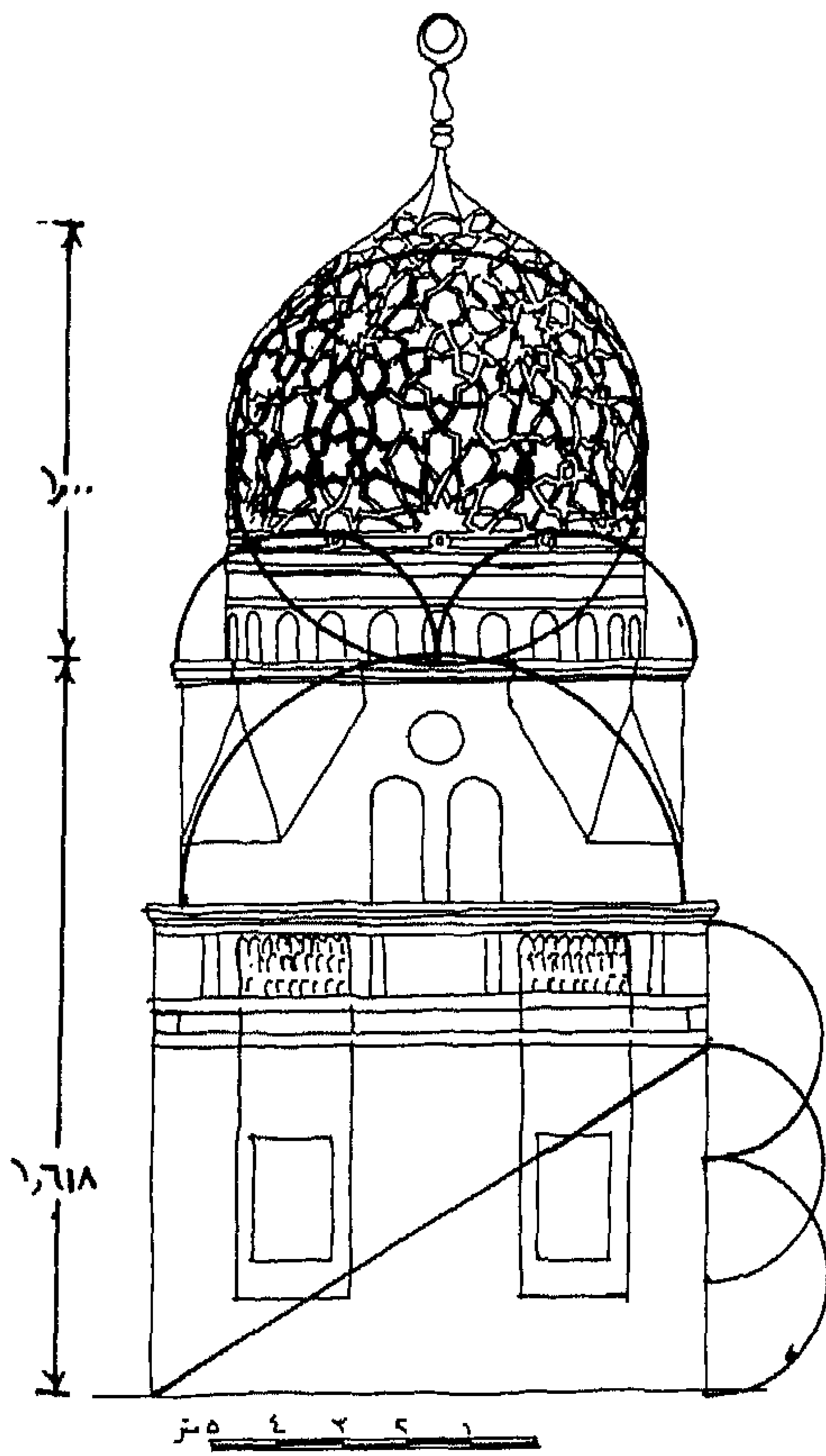
المراجع

١ ـ الفارابى ، ابو نصر
احصاء العلوم
حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور عثمان امين
مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٨
٢ ـ الفارابى ، ابو نصر
كتاب الحيل الروحانية والاسرار الطبيعية فى دقائق الاشكال الهندسية .
مخطوط محفوظ بمكتبة جامعة أوبسالا بالسويد .
٣ ـ دللى ، ولفرد جوزف
كتاب العمارة العربية بمصر
فى شرح المميزات البنائية الرئيسية للطراز العربى
تعريب محمود احمد
المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٢٣
٤ ـ فهرست الاثار الاسلامية لمدينة القاهرة
مصلحة المساحة ١٩٥١

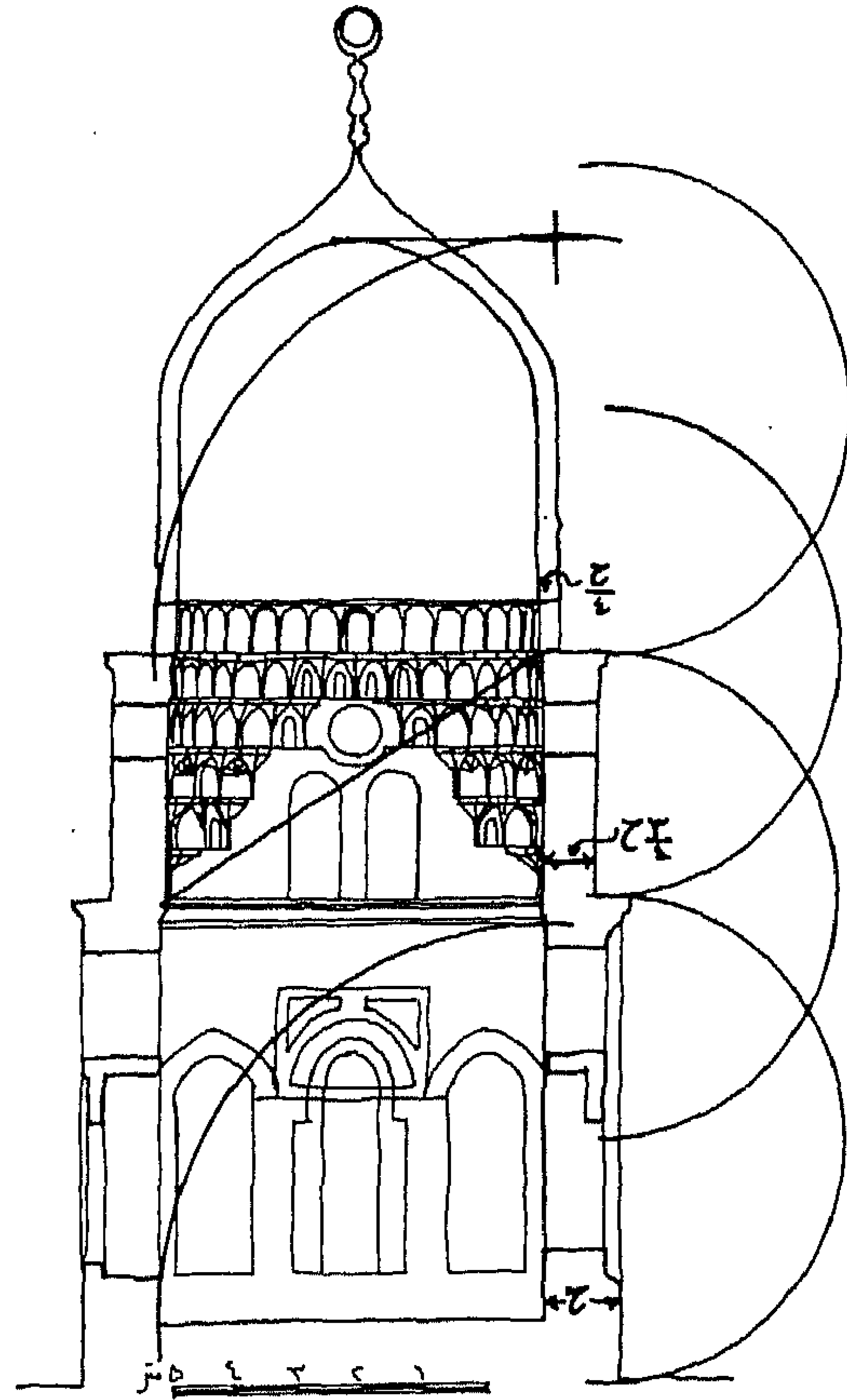
* * *



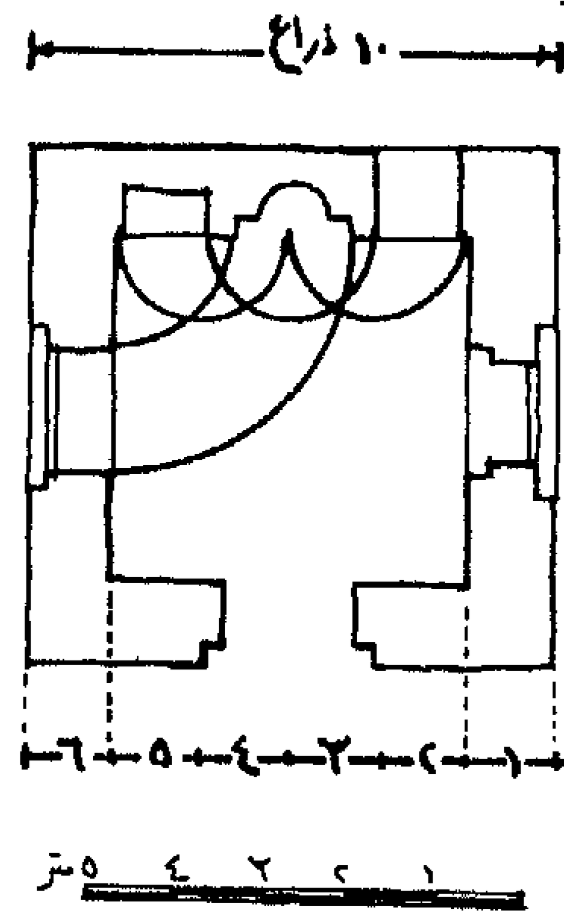
(١) قبة جانى بك الأشرفى . مسقط أفقى



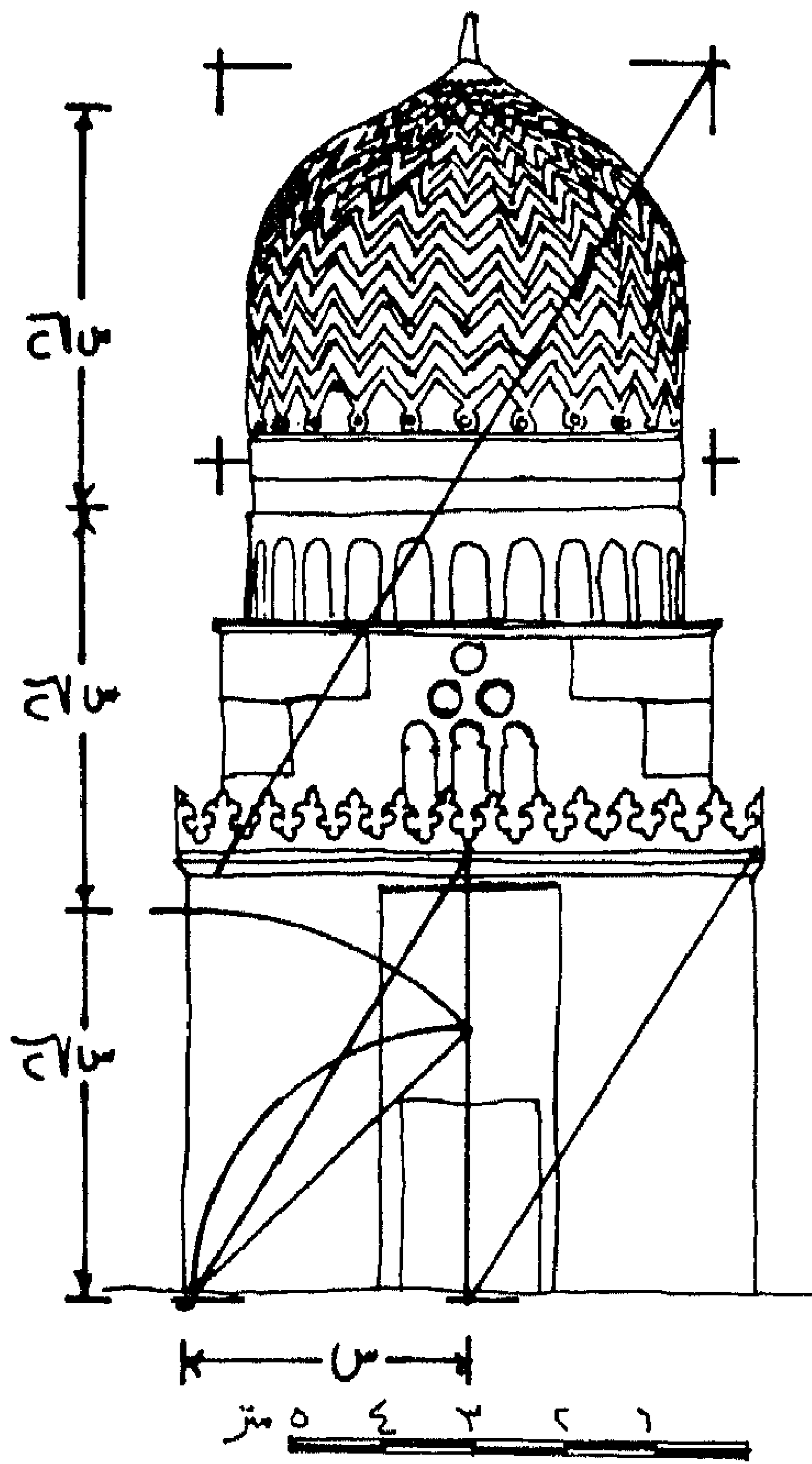
(٣)قبة جانى بك الأشرفى . واجهة



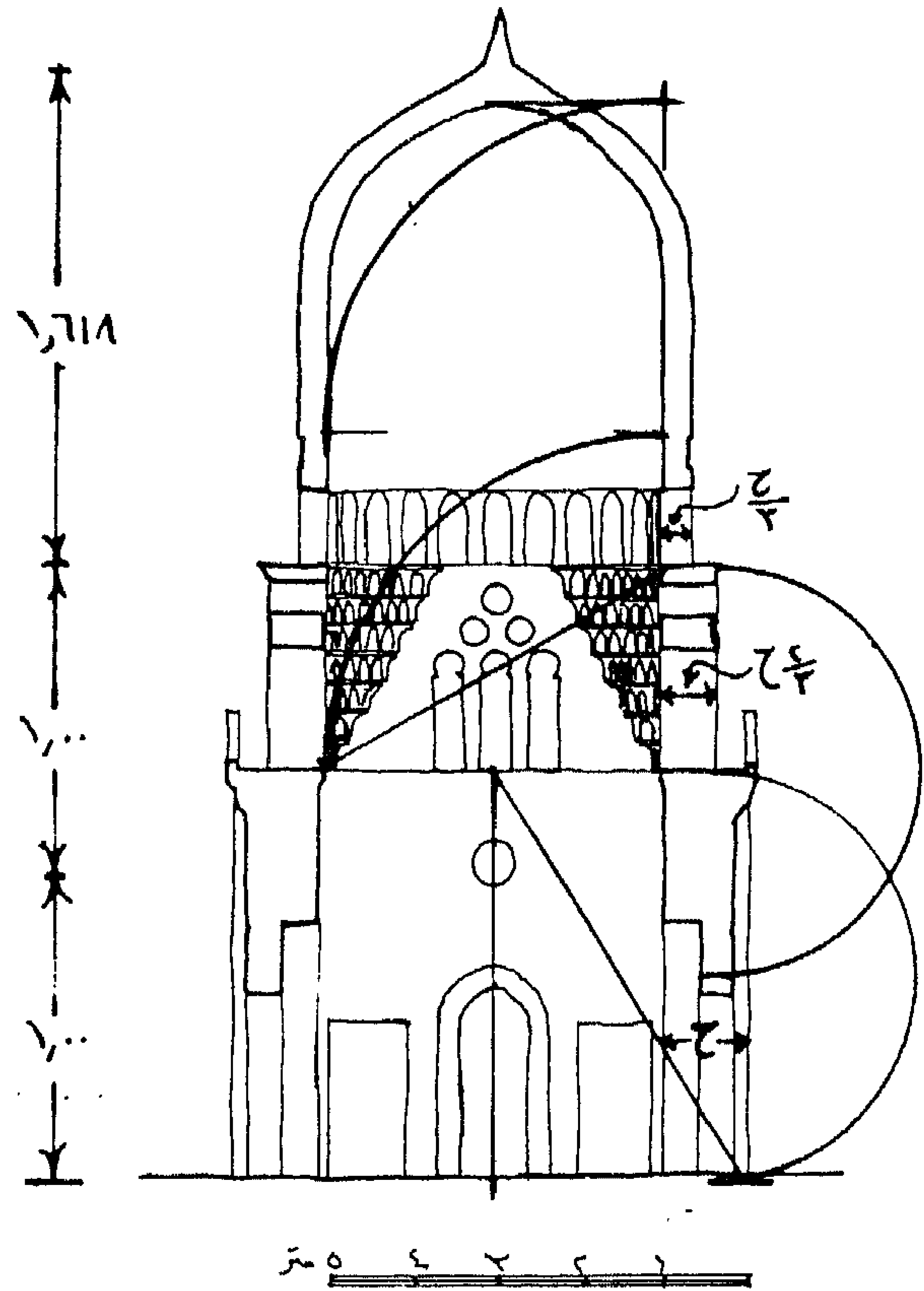
(٢)قبة جانى بك الأشرفى . قطاع رأسى



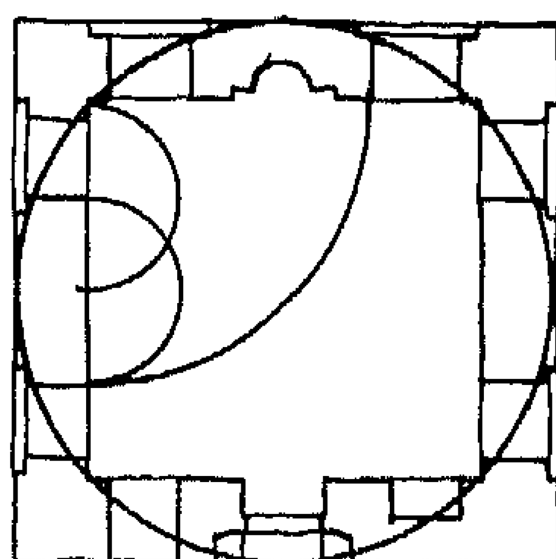
(٤) قبة نصر الله . مسقط أفقى



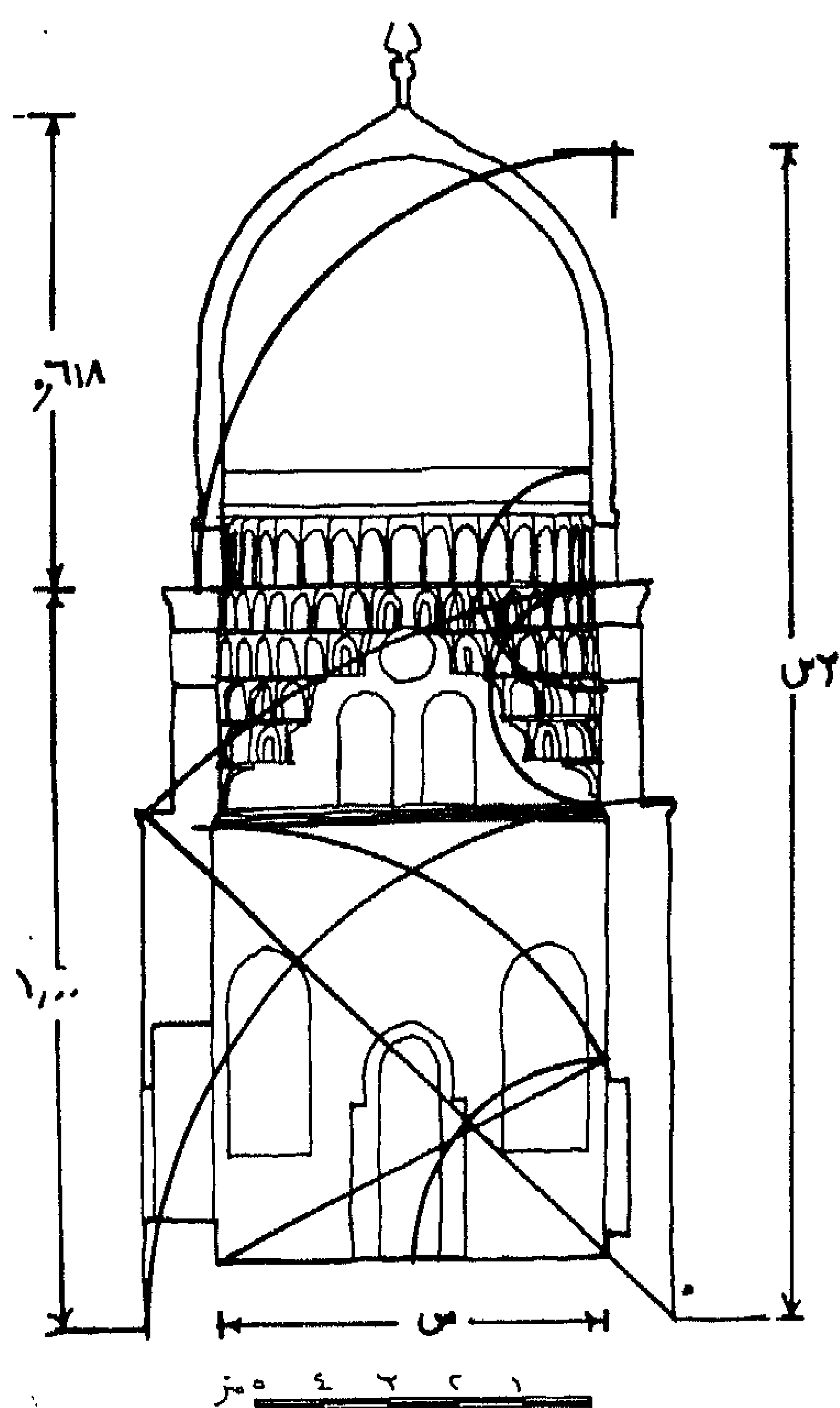
(٦) قبة نصر الله . واجهة



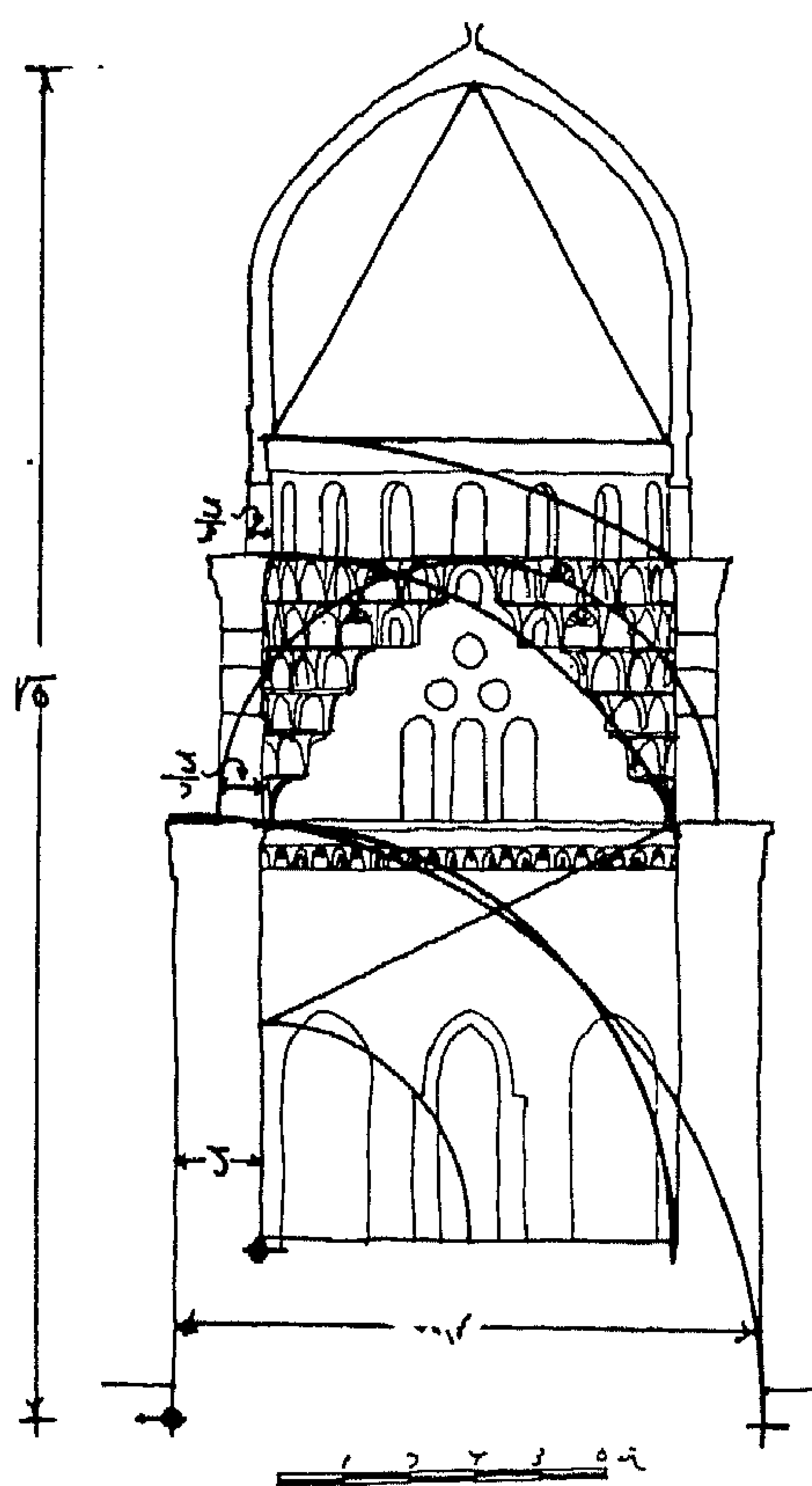
(٥) قبة نصر الله . قطاع رأسى



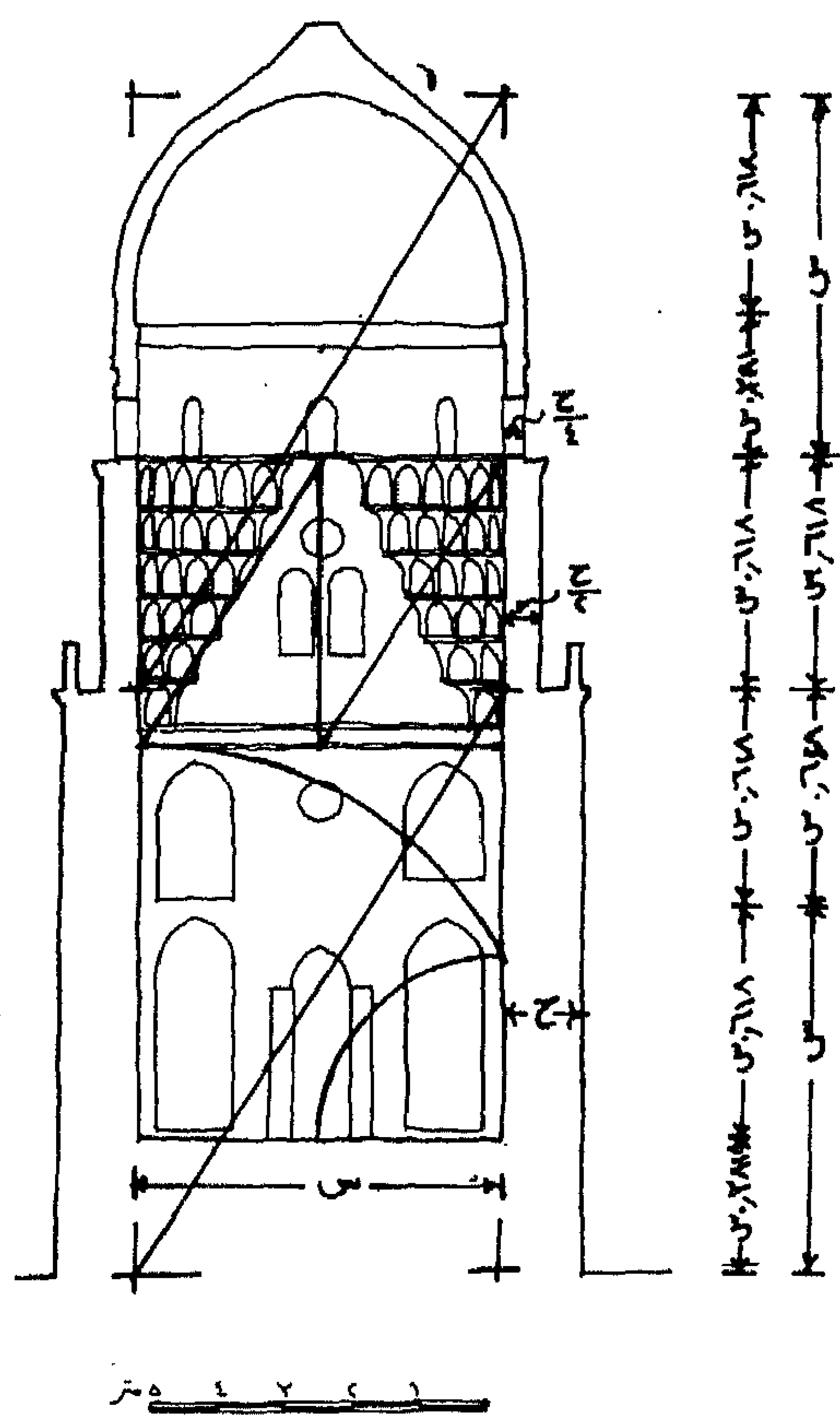
(٧) قبة السبع بنات . مسقط أفقى



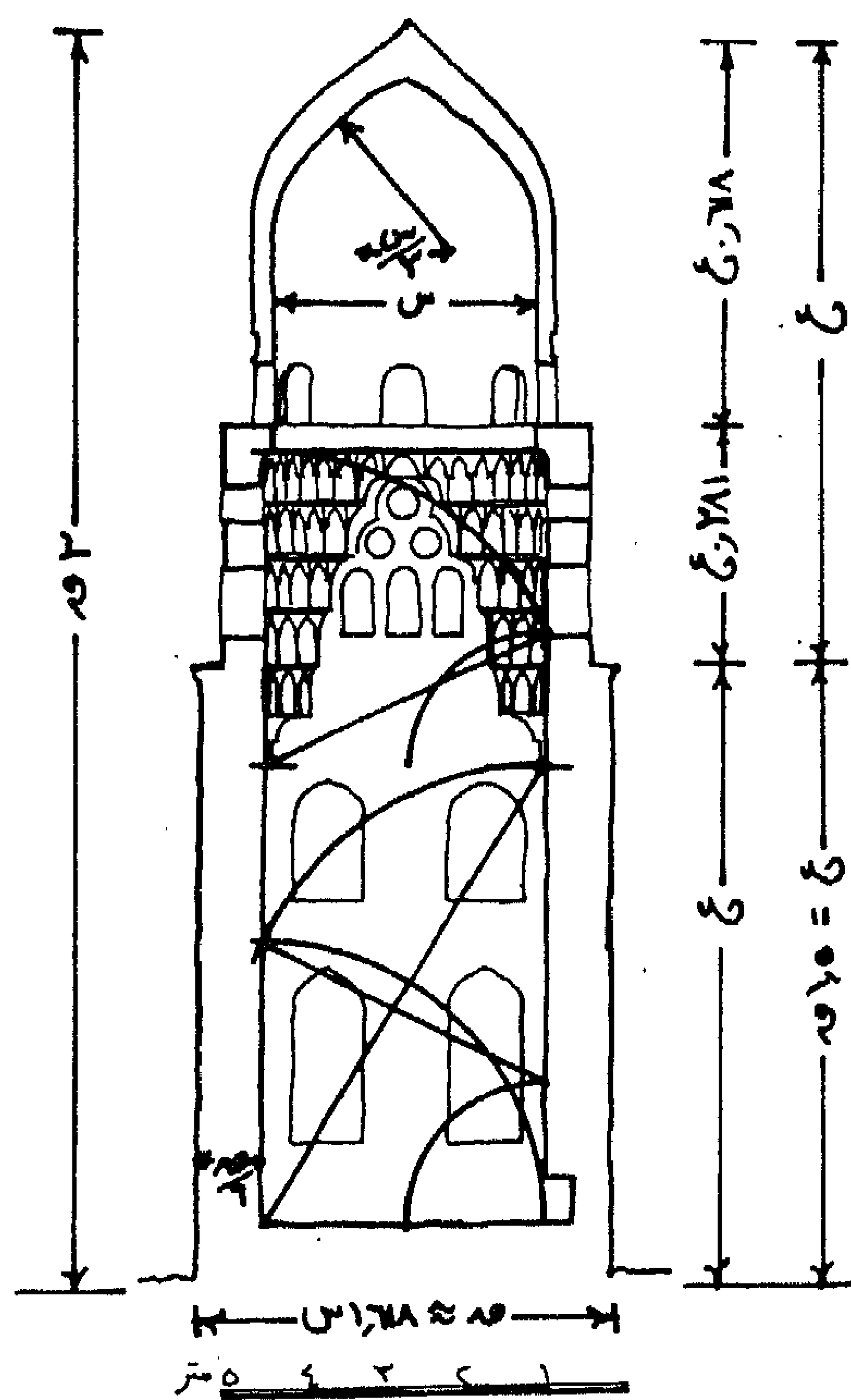
(٩) قبة برسباى البجاسى . قطاع رأسى



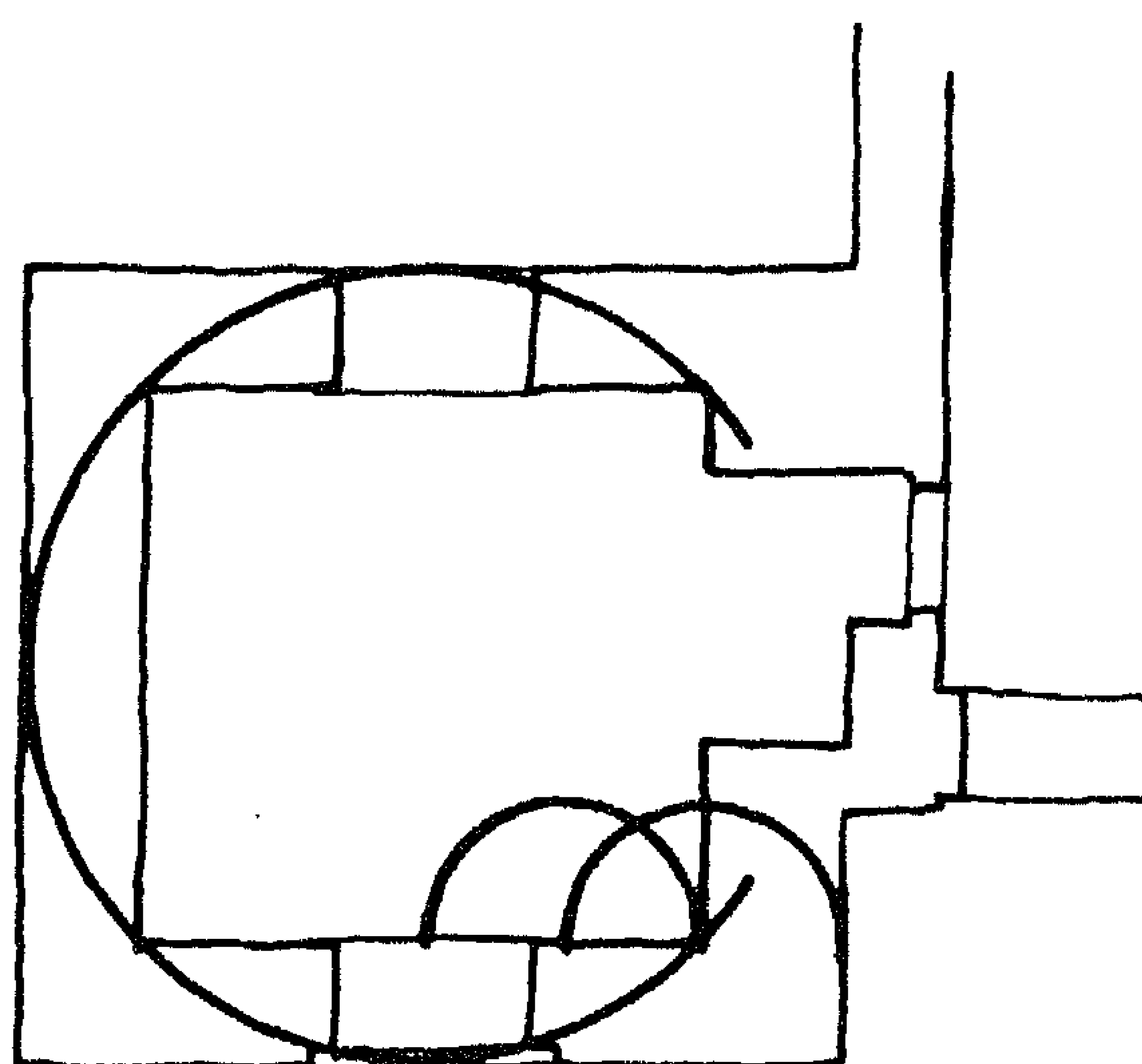
(٨) قبة السبع بنات . قطاع رأسى



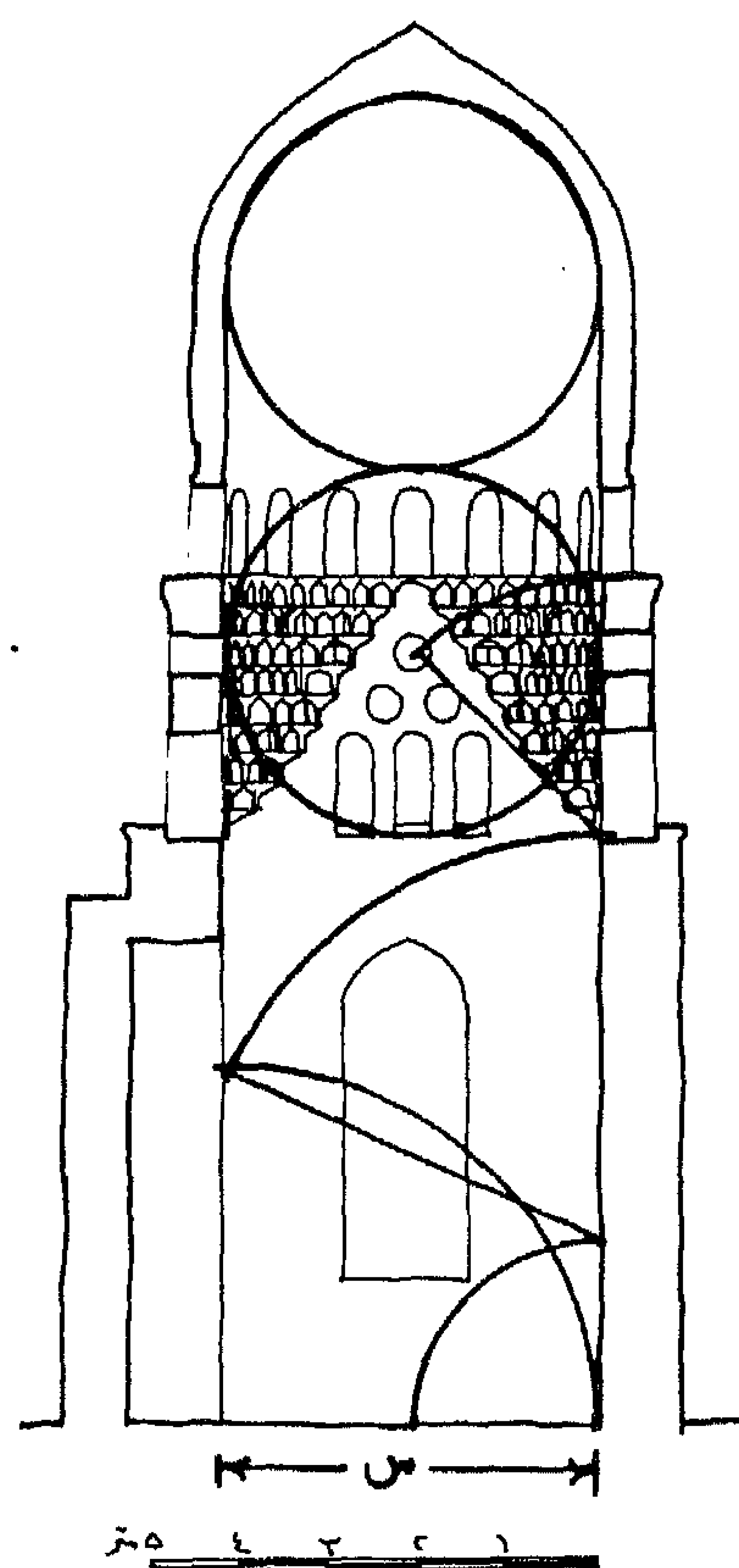
(١٠) قبة أزرمك . قطاع رأسى



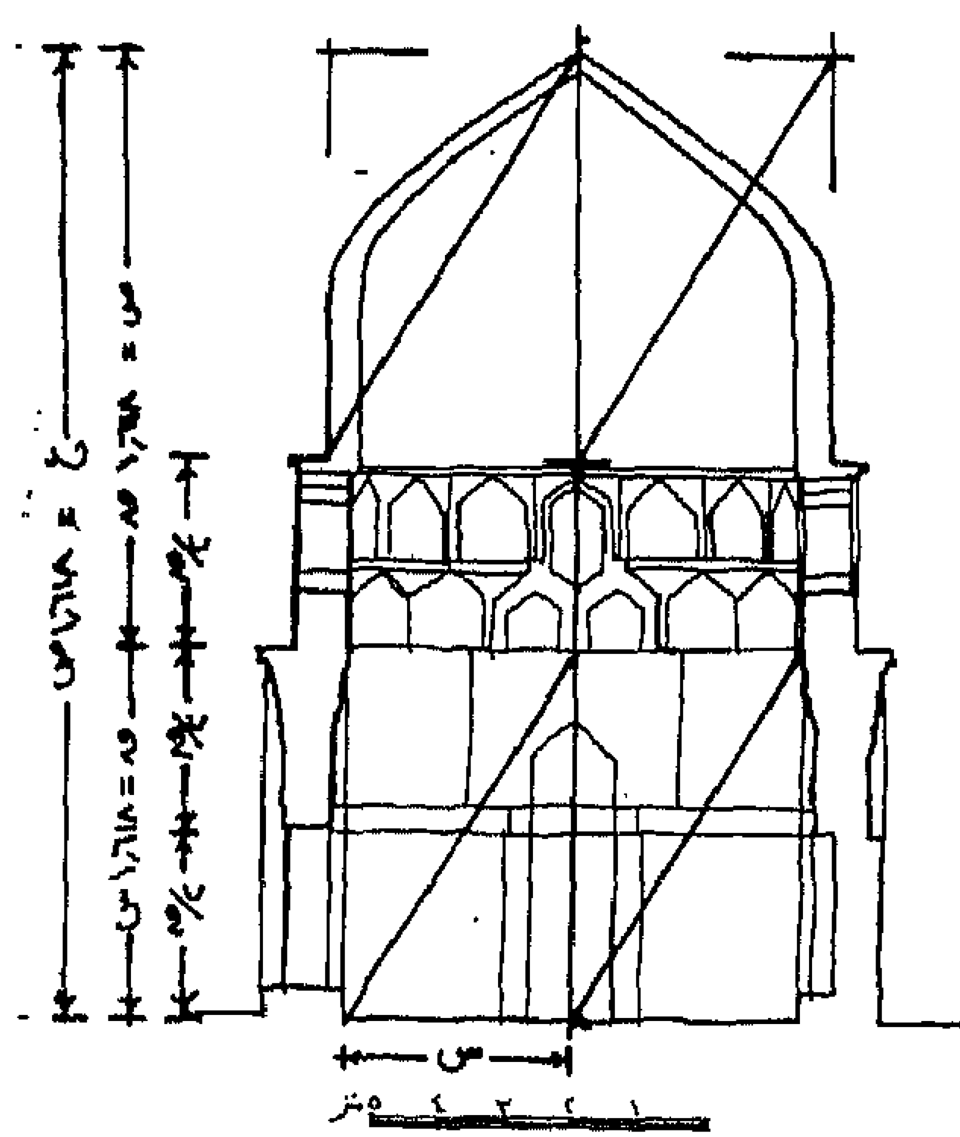
(١١)قبة عصفور . قطاع رأسى



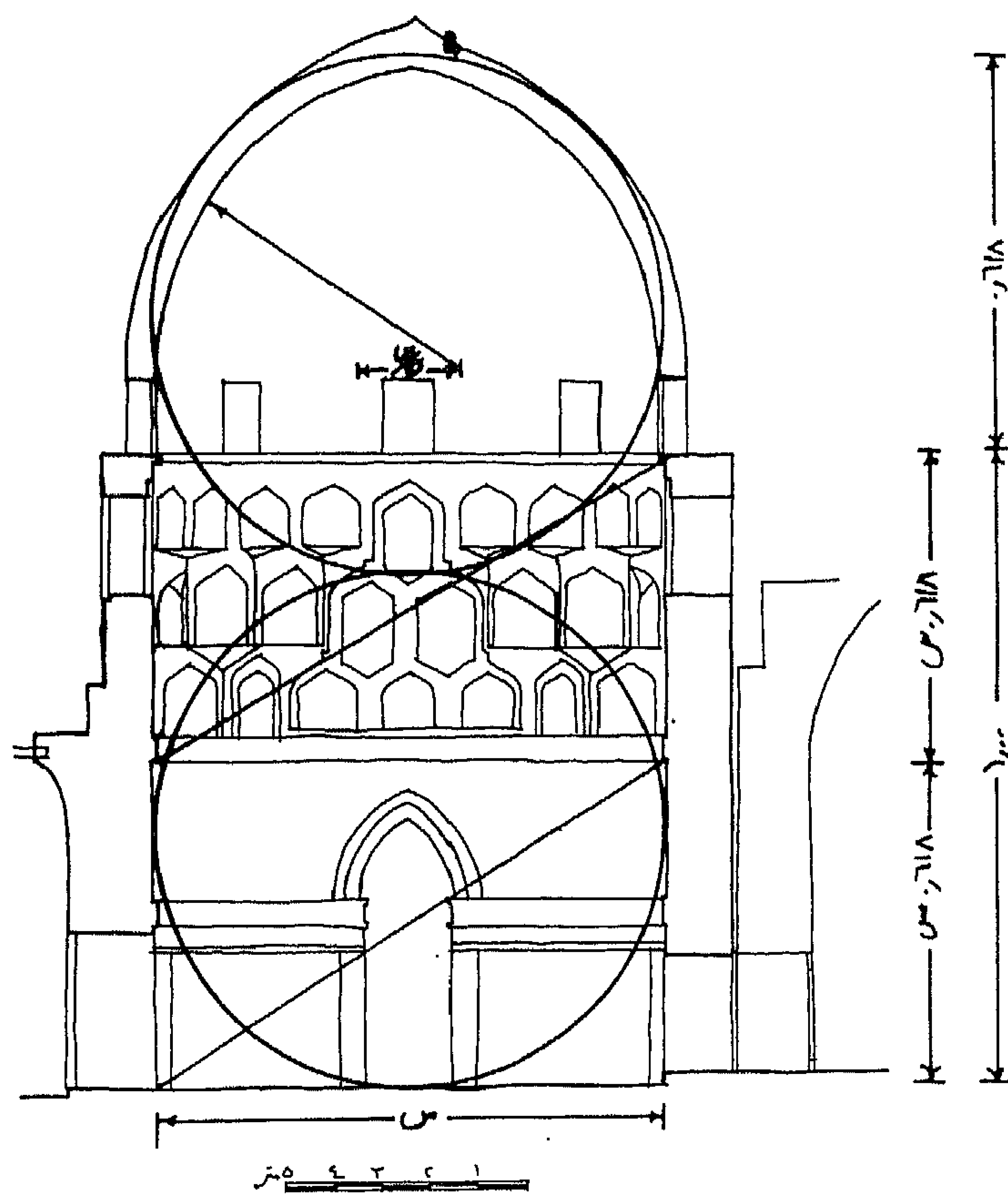
(١٢) قبة أزدمر . مسقط أفقى



(١٣) قبة أزدمر . قطاع رأسى



(١٤) قبة الخلفاء العباسيين . قطاع رأسى



(١٥)قبة الصالح نجم الدين أيوب . قطاع رأسى

روائع مختاره من كنوز الفسطاط

حفائر ١٩٦٦ - ١٩٧٩

دكتور / فهمي عبد العليم

مدير عام الآثار الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

أكتب هذا المقال تقديراً لرجل أعطى من وقته وجهده وعلمه الكثير فى خدمة الأثار الاسلامية والقبطية لفترة طويلة بلغت أكثر من ثلاثين عاما حتى اعتزل الخدمة الرسمية عام ١٩٧٦ م ومازال حتى الآن يعطى ولا يبخل بالعطاء وهو الأستاذ / عبد الرحمن عبد التواب الذى أشرف على هذه الحفائر التى تمت بها فى الفترة من ١٩٦٦ - ١٩٦٩ ، واذا كانت الكتابة عن هذه الحفائر قد تأخرت لظروف كثيره الا أنه لحسن الحظ أن الكتابه عنها جاءت فى مناسبة اعداد هذا الكتاب تكريما له وتقديرا لجهوده .

الفسطاط تاريخها وما تم بها من حفائر سابقة :-

يرجع تاريخ مدينة الفسطاط الى عام ٢١ هجرياً ٦٤٢ ميلادياً وهى السنة التى خطط فيها عمرو بن العاص هذه المدينة لتكون أول عاصمة لمصر الاسلامية كما شيد بها الجامع المعروف باسمه وأنشأ بجواره داراً للاماره وخطط قادة جيشه الخطط المختلفة بالمدينة الجديدة وفى عام ١٣٢ هجريا أضاف صالح بن على القائد العباسى عاصمة جديدة شمال مدينة الفسطاط وأطلق عليها اسم العسكر كما شيد أحمد بن طولون بعد أن استقل بحكم مصر عن الخلافة العباسية فى بغداد عاصمة أخرى شمال العسكر أطلق عليها القطائع فوق قمة جبل يشكر وقد انتشر العمران وامتدت المبانى والأسواق والمصانع فى المدن الثلاث وأطلق عليها اسم مدينة مصر فى العصر الفاطمى وفى نهاية الخلافة الفاطمية أضرم شاور وزير الخليفة العاضد النار فيها عندما اقتربت جيوش الصلبيين من المدينة واتضحت نيتهم فى الاستيلاء عليها فاحترقت المدينة واستمرت النار مشتعله بها ما يقرب من شهرين ، فتحولت الى خرائب منذ نهاية القرن الثانى عشر الميلادى وهاجر معظم سكانها الى مدينة القاهرة وما حولها ولم يبق بها سوى عدد قليل من الناس.

وقد اجتذبت مدينة الفسطاط اهتمام العلماء والباحثين منذ أوائل القرن العشرين وتوالت عليها بعثات التنقيب من مصريين وأجانب حيث قام كل من على بهجت وجبريل بالتنقيب جنوب مدينة الفسطاط فى الفترة ما بين ١٩١٤ - ١٩١٨ ونشرت نتائج هذه الحفائر فى المجلد المعروف باسمها وتتابعت أعمال الحفر بعد ذلك فى أطلال المدينة على فترات متقطعه حتى عام ١٩٣٦ ثم توقفت واستؤنفت مره أخرى عام ١٩٥٢ بواسطة متحف الفن الاسلامى ولم تلبث أن توقفت مره أخرى حتى عام ١٩٦٠ حيث بدأت مصلحة الآثار أعمال الحفر بها شمال حفائر على بهجت ولم تتوقف هذه الحفائر منذ ذلك الوقت وحتى الآن حيث تم الكشف عن الكثير من المنازل وبقايا أفران الخزف والزجاج والعديد من التحف المتنوعة كما اهتمت بعض البعثات الأجنبيه باجراء حفائر بالمدينه ومنها بعثة مركز البحوث الأمريكى التى قامت بإجراء حفائر جنوب شارع صلاح سالم فى عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٧٠ ثم عام ١٩٧٣ ، و١٩٧٨ لفترات قصيرة وأسفرت حفائر المركز عن الكشف عن عدد من بقايا المنازل والأفران وبعض معالم خطط وحارات المدينة القديمة وقد نشرت جامعة اكسفورد نتائج هذه الحفائر عام ١٩٦٩ .كما قامت بعثة جامعة واسيدا اليابانية باجراء حفائر شرقى مسجد عمرو منذ عام ١٩٧٩ وحتى الآن وقد بدأت بعثة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بإجراء حفائر بمنطقة اسطبل عنتر منذ عام ١٩٨٥ ولازالت تباشر أعمالها .

حفائر ومجسات الفسطاط

١٩٦٦ - ١٩٦٩

موقع الحفائر :

كان الموقع الذى أختير لاجراء هذه الحفائر لا يوحى بوجود آثار به سواء كانت ثابته أو منقوله فالأرض تلال منبسطة خالية من المبانى الأثرية هذا بالرغم من أن هذا الموقع يحيط به أطلال الفسطاط وما بها من بقايا متهدمه .

والموقع يحده شمالا شارع صلاح سالم وجنوبا حفائر هيئة الآثار المصرية (مصلحة الآثار سابقا) وشرقا جمعية مساكن جنوب القاهرة وغربا مسجد أبو السعود وحفائر مركز البحوث الأمريكي ومساحة الموقع بلغت حوالى ١٥٠ × ١٥٠ مترا (ش رقم ١) .

وكان الموقع مخصصا من قبل محافظة القاهرة لاقامة مساكن لبعض أهالى منيل الروضة الذين تهدمت منازلهم الا أنه تطبيقا لقانون حماية الآثار كان من الضرورى اجراء حفائر ومجسات بالموقع لتصفيته والتأكد من خلوه من الآثار أو الاحتفاظ بما يعثر عليه من آثار .

بدء العمل : -

نظرا لعدم وجود مظاهر أثرية بالموقع المقرر اجراء الحفائر به كما أسلفنا فقد استقر الرأى على اجراء مجسات بها أولا تتحول الى حفائر علمية فى حالة العثور على آثار مبنيه ثابتة وعلى هذا فقد تم تقسيم الموقع ومساحته ١٥٠ ×١٥٠ مترا الى ستة مناطق مساحة كل منطقة ٥٠ × ٥٠ مترا تم تقسيمها بدورها الى ٢٥ مربع مساحة كل مربع ١٠ × ١٠ مترا وقد كان من المقرر أن يكون المجس على شكل وتر يقسم المربع الى مثلثين واستمر العمل فعلا فى بعض مربعات منطقتى الحفر الأولى والثانيه بهذا الأسلوب (ش رقم ٢) (ش رقم ٣) الا أنه بعد العثور على عدد من الأبار فى المجسات وفيما بينها (ش رقم ٤) رؤى أن تكون المجسات على شكل وترين متقاطعين داخل المربع بشكل صليبى للتأكد من ظهور أى جزء من البئر فى أى من هذه المجسات وفى هذه الحالة يتم الكشف عنه وتنظيفه واخراج ما به من تحف أثرية (ش رقم ٥) (ش رقم ٩٦ (ش رقم ٧) (ش رقم ٨) (ش رقم ٩) .

وقد استمر العمل بهذا الأسلوب منذ بدأ العمل من عام ١٩٦٦ وحتى عام ١٩٦٩ فى مواسم متتاليه أولها من ٢٦ مارس حتى نهاية مايو ١٩٦٦ ومن ١٩٦٦/١١/٥ حتى ابريل ١٩٦٧ .

ومن نوفمبر ١٩٦٧ حتى يناير ١٩٦٨ ومن نوفمبر ١٩٦٨ حتى مايو ١٩٦٩

نتائج الحفائر : -

أسفرت أعمال الحفائر التى وصلت الى سطح الجبل بالمنطقتين الأولى والثانيه عن عدم العثور على بقايا مبانى بينما تم الكشف عن عدد كبير من الأبار المحفوره فى الجبل بأشكال وأعماق مختلفة (زشكال من رقم ١٠ الى رقم ١٧) بمنطقة الحفر الأولى . وأشكال ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ بمنطقة الحفر الثانيه .

كما أسفرت أعمال الحفر بالمنطقة الثالثة عن العثور على مجموعة من الأبار المتجاورة المنحوته فى الجبل والمتصله ببعضها بواسطة ممرات منحوته فى الجبل أيضا وهى تمثل خمسة آبار (أشكال من ٢١ - ٢٦) وأحد هذه الأبار وهو رقم ٤ ب بمنطقة الحفر الثالثه يبلغ عمقه ١ متر وقطر ٣٠ سم و٥ متر يتفرع منه ممر منحوت فى الجبل (ب جـ) عرضه ٧٠ سم و١ متر يتجه غربا مؤديا الى البئر (٣جـ) التى يبلغ عمقها ٦ متر حتى الوصول الى سطح المياه وعلى عمق ٥,٥ متر من هذه البئر عثر فى الجهه الغربية منها على فتحه صغيره يبلغ قطرها ٥٠ سم تؤدى الى البئر الكبير رقم (٢د) ويبلغ قطرها ٧,٦٠ متر وعمقها ٦ متر حتى ظهور المياه والبئر رقم (٢أ) بمنطقة الحفر الثالثه

يبلغ عمقها ٤ متر حتى ظهور المياه وقطرها ٧٠ سم تخرج منها قناه أخرى (أجـ) منحوته فى الجبل وبعض أجزائها مغطى وهى تؤدى بدورها الى البئر (٣جـ) والى البئر (٢د) وقد اتضح من فحص القناه (أجـ) أن بعض أجزائها منحوت بالجبل نفسه وهى من الأنواع النادر وجودها بمدينة الفسطاط والجزء المغطى الذى عثر عليه يدل على أن هذه القناه جميعها كانت منحوته فى الجبل وقد عثر بداخل هذه الأبار والقنوات على عدد من الأوانى والمسارج تحتوى على زخارف نباتيه بارزه وملونه تمثل طابع الفن القبطى .

كما أسفرت أعمال الحفر بالمناطق ٤، ٥، ٦، على العثور على عدد آخر من الابار التى تتراوح أعماقها بين ١,٥ ، ٨ متر وقطرها بين ٧,١ متر وقد ظهرت المياه فى بعضها على عمق ٦ متر أشكال من ٢٧ – ٣٠ وقد تبين من فحص الرديم الناتج عن الحفائر وبقايا الجدران المتهدمه التى عثر عليها داخل الآبار ومن التحف الأثرية التى عثر عليها بالابار أن المنطقه التى أجريت بها الحفائر كانت عامرة بالمبانى حتى نهاية العصر الفاطمى وربما استخدمت بعد ذلك خلال العصر الأيوبى وما يليه كمحجر الأمر الذى أدى الى تدمير بقايا المنازل الباقية بالمنطقة ويرجح ذلك أيضا العثور على أجزاء من الأبار مرتفعة بينما الأجزاء الأخرى منخفضة ومن وجود بعض نتوءات بارزه فى أرض الجبل نفسه .

المناقشات التى دارت حول الآبار المكتشفة :

كان العثور على هذه المجموعة الكبيرة من الآبار المتنوعة الأشكال والمختلفة الأعماق والتى يتصل بعضها ببعض بواسطة قنوات أو ممرات داخلية منحوته فى الجبل فى هذا الحيز الضيق الذى أجريت به الحفائر مثار مناقشات كثيره ومما زاد الأمر غرابه فى ذلك الوقت عدم وجود بقايا منازل قائمه ومبنيه فى الموقع الذى أجريت به الحفائر بالرغم من العثور على هذه الأعداد الكبيرة من الآبار .

وكان الرأى المبدئى حول طبيعة هذه الابار والقنوات أن بعضها آبار للشرب والآخر استخدم للصرف كما هو الحال فى باقى منازل الفسطاط السابق اكتشافها سواء فى حفائر على بهجت أو حفائر مصلحة الآثار أو مركز البحوث الأمريكى ، بينما كان من رأى الأستاذ / عبد الرحمن عبد التواب أن هذه الابار استخدمت كمقابر بئريه شبيهه بالمقابر الرومانية البئرية بالاسكندرية ، خاصة وأنه ظهرت فى جوانب بعض الآبار أجزاء منحوته فى الجبل تسمح بوضع جثث الموتى .

ولم تنته المناقشات حول طبيعة هذه الآبار وتفسير وجودها بهذه الكثره الى رأى محدد حتى عثر الأثرى عباس الشناوى منذ أكثر من عام أثناء اعادة تنظيف منطقة حفائر على بهجت على أحد الآبار الكبيره بالبيت السادس المطل على الطريق حيث عثر على عمق تسعة أمتار على ممر بنهايته سلم منحوت فى الصخر يؤدى الى غرفة صغيرة بداخلها تجويفان صغيران غشيمان ، وتجدر الاشاره الى أنه عثر على أثار حبال بباطن فتحة الممر العلوية المطله على البئر مما يشير الى عملية انزال وادخال تابوت .

الرأى بالنسبة لهذه الآبار

وفى ضوء ما سبقت الاشاره اليه من مناقشات وآراء وما عثر عليه من آبار بالحفائر موضوع المقال ، يمكن القول أن هذه الآبار ما هى الا مقابر بئرية رومانية وأن المنطقة التى عثر بها على الآبار كانت منطقة مقابر قبل تأسيس مدينة الفسطاط ويرجح ذلك الرأى الحقائق التاليه : –

١ – ارتفاع أرض الجبل فى هذه المنطقة عن باقى مناطق الفسطاط مما يسمح بحفر الآبار أو المقابر البئرية بها .

٢ – المنطقة التى عثر بها على هذه الابار قريبة من منطقة حصن بابليون وكنائس مصر القديمة والمنطقة السكنيه القديمة حولهما الأمر الذى يحتم ضرورة وجود مقابر لدفن موتى هذه المنطقة .

٣ – العثور داخل بعض هذه الابار والممرات الموصله بينها والمحفوره فى الجبل على بعض القطع الأثرية منها مسارج عليها زخارف تمثل طابع الفن القبطى الذى ساد قبل العصر الاسلامى ، كما عثر على بعض أوانى من الفخار الأحمر المصقول عليه زخارف مدهونه وملونه تمثل نفس الطراز وهى زخارف شاع استخدامها خلال القرنين السادس والسابع الميلادى .

قطع أثرية منتقاه من نتائج الحفائر :

أسفرت أعمال الحفر لهذه المنطقة عن الكشف عن أكثر من ألف وخمسمائة قطعة أثرية نقل من بينها ثلاثون قطعة الى متحف الفن الاسلامى عام ١٩٦٩ بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفى للقاهره ، أما باقى القطع فقد حفظت بمخازن هيئة الآثار بالفسطاط .

وسأعرض فى هذا المجال عشرين قطعة مختاره من نتائج هذه الحفائر من الفخار والخزف المسمى بالفيومى والخزف ذى البريق المعدنى والبورسيلان الصينى والزجاج والتى تؤكد استمرارية التقدم الفنى لمختلف الصناعات بالفسطاط وخاصة خلال العصر الفاطمى ، منها بعض نماذج فريده لم يسبق العثور على مثيل لها بمصر .

من الفخار أربع قطع من بينها قلتان كاملتان وقدر صغير ، وجزء من شباك قله بداخله زخرفه على هيئة راقصة .

ومن الخزف المسمى بالفيومى قطعتان احداهما صحن كبير والأخرى قدر .

ومن الخزف ذى البريق المعدنى ثمانية قطع احداها قدر والقطع الباقية صحون عليها زخارف مختلفة من رسوم أشخاص وزخارف نباتيه وحيوانيه وكتابات كوفيه .

ومن الزجاج خمس قطع منها كأس صغير له قاعدة على شكل حذاء ومقبض وهو من الزجاج الرقيق لم يعثر على مثيل له فى مصر ، وقطعة عباره عن جزء من قاعدة أناء من الزجاج البنفسجى الداكن عليها زخرفه بالبريق المعدنى تمثل هدهد يتدلى من فمه فرع نباتى وأنيتين وتحفه صغيره على هيئة قارب .

وأخيرا صحن من البورسيلان الصينى المستورد فى العصر الفاطمى ويطلق عليه بورسيلان (شنج باى) .

وقد دونت أمام كل قطعة من هذه القطع رقم سجلها وتاريخها والماده المصنوعه منها ومقاساتها ومصدرها ومكان حفظها (انظر أشكال ٣١ – ٥٠) .

وفى ختام هذا المقال أود أن أشير الى أن هذه الحفائر قد زودتنا بمعلومات جديدة ليس فقط بما أسفرت عنه من الكشف عن تحف أثريه نادره يعد بعضها نماذج جديدة لم يسبق العثور على مثيل لها فى الحفائر السابقة ولا بأعداد القطع التى تعادل مجموع القطع الأثرية التى عثر عليها لسنوات طويله سابقة لاجراء الحفائر ولكن بنتيجتين هامتين أولهما أن هذه المجموعة الكبيرة من الآبار كانت مستخدمه كمقابر قبل تأسيس مدينة الفسطاط والنتيجة الثانية أن المظهر الخارجى لأى موقع أثرى قديم لا يدل على ما فى باطن هذا الموقع من أثار وهو ما أكدته هذه الحفائر فبالرغم من عدم وجود مظاهر أثرية فوق سطح الأرض الا أن مجموع القطع الأثرية التى زادت عن ألف وخمسمائة قطعه والآبار التى تم الكشف عنها يزيد عشرات المرات عن مجموع الأثار التى عثر عليها فى الحفائر المحيطه بالموقع بالرغم من وجود مظاهر أثريه بها ..

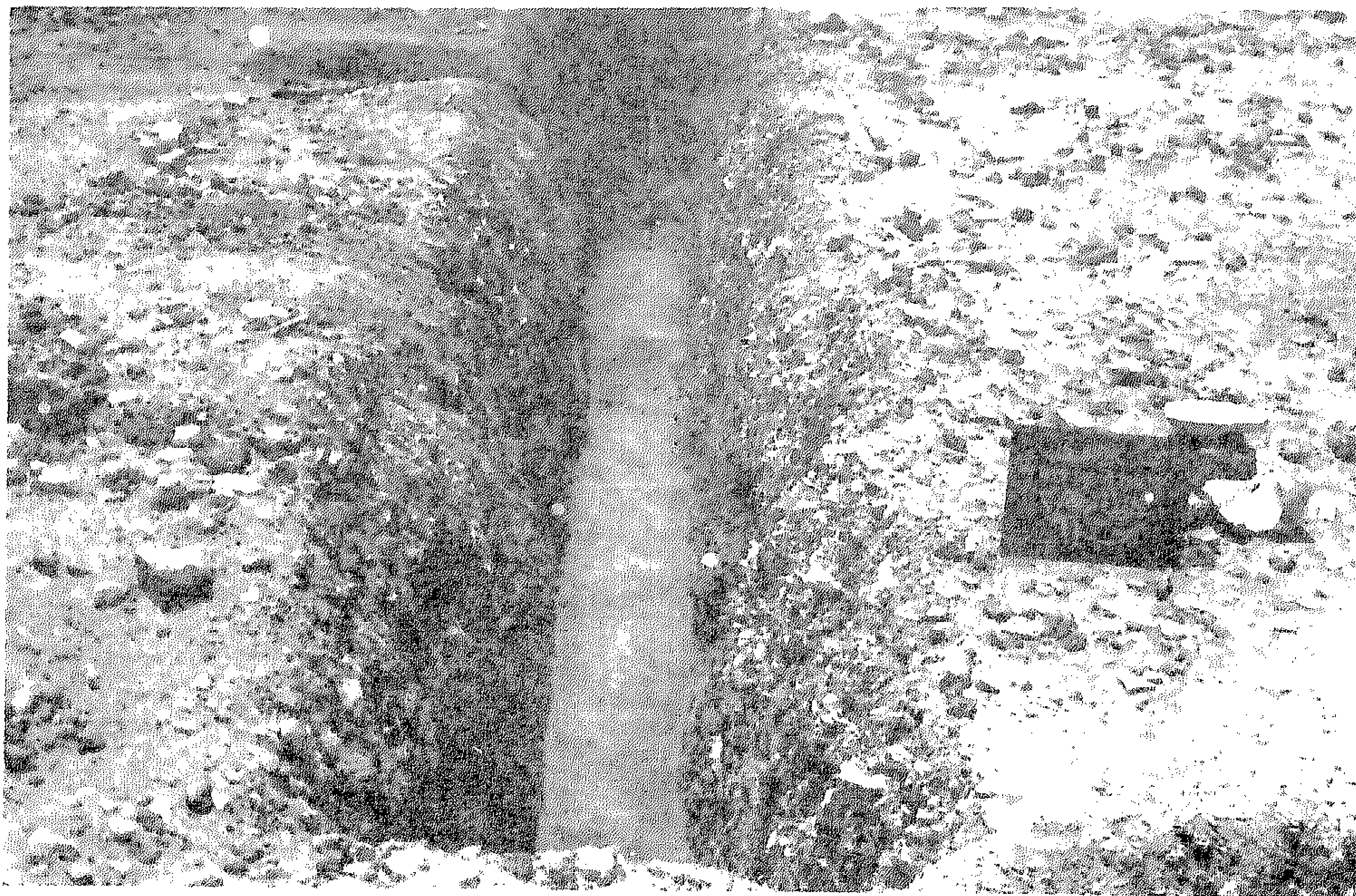
* * *



شكل رقم (١)



شكل رقم (٢)



شكل رقم (٣)



شكل رقم (٤)

شكل رقم (٥)





شكل رقم (٦)



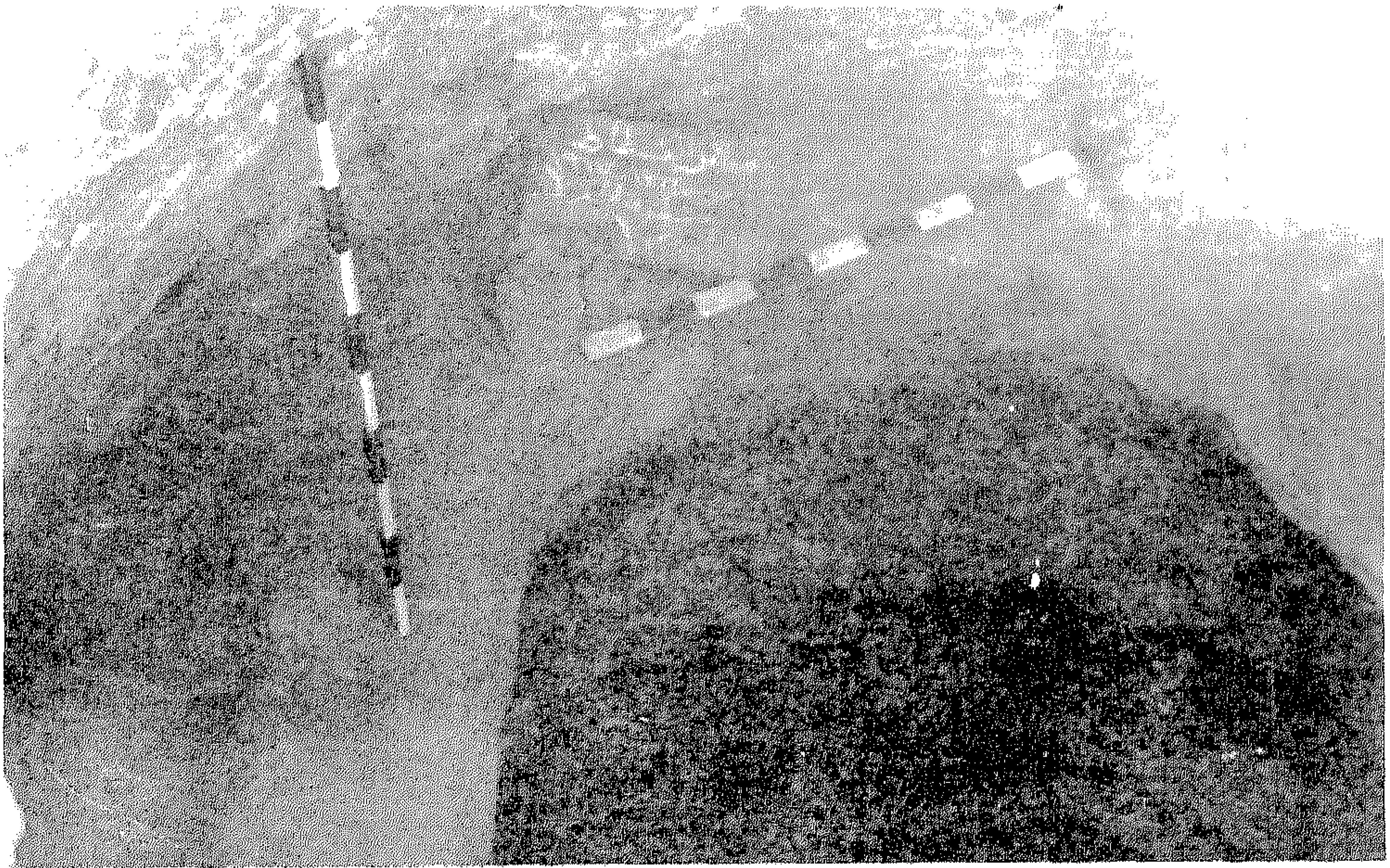
شكل رقم (٧)



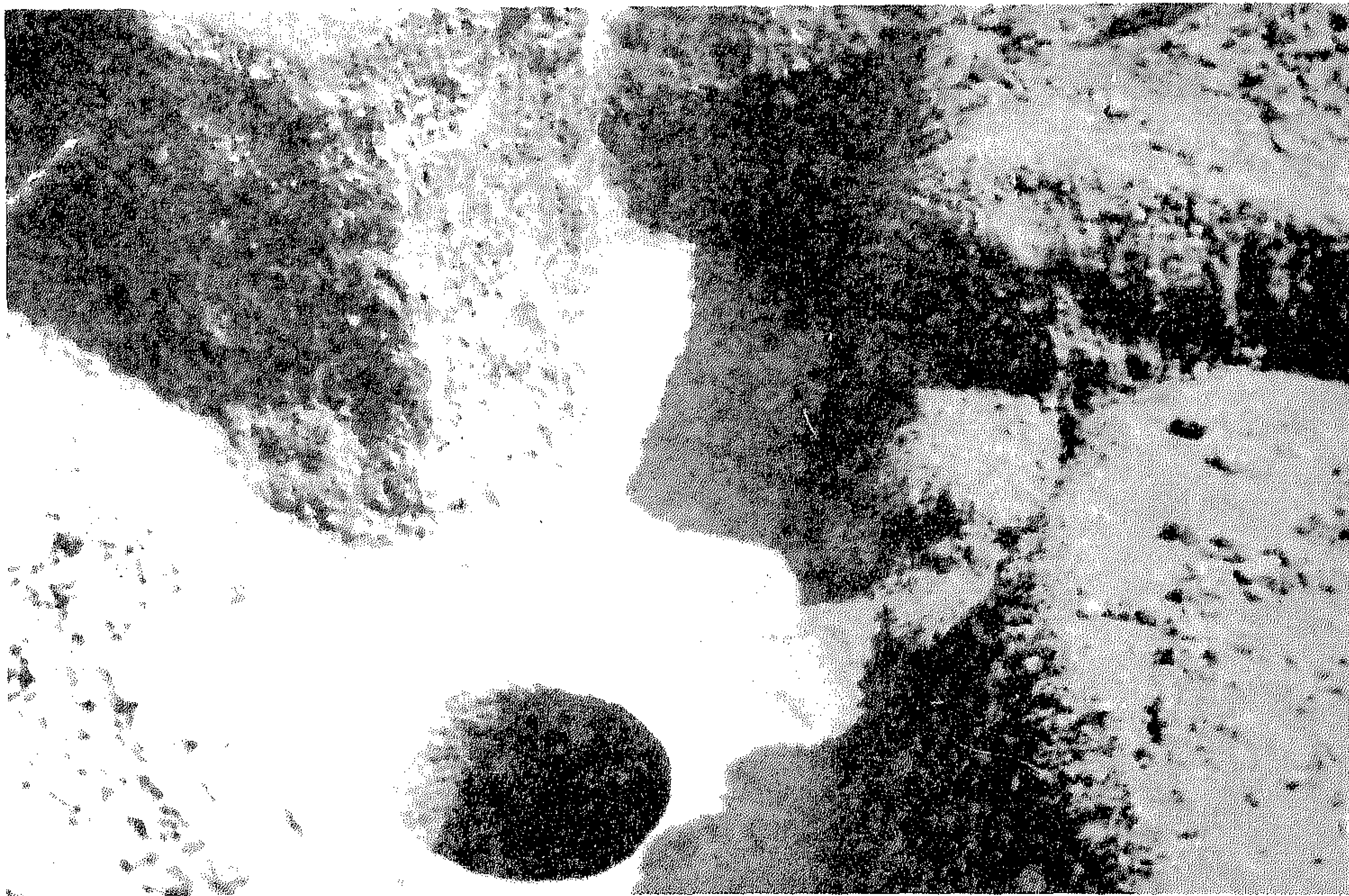
شكل رقم (٨)



شكل رقم (٩)



شكل رقم (١٠)



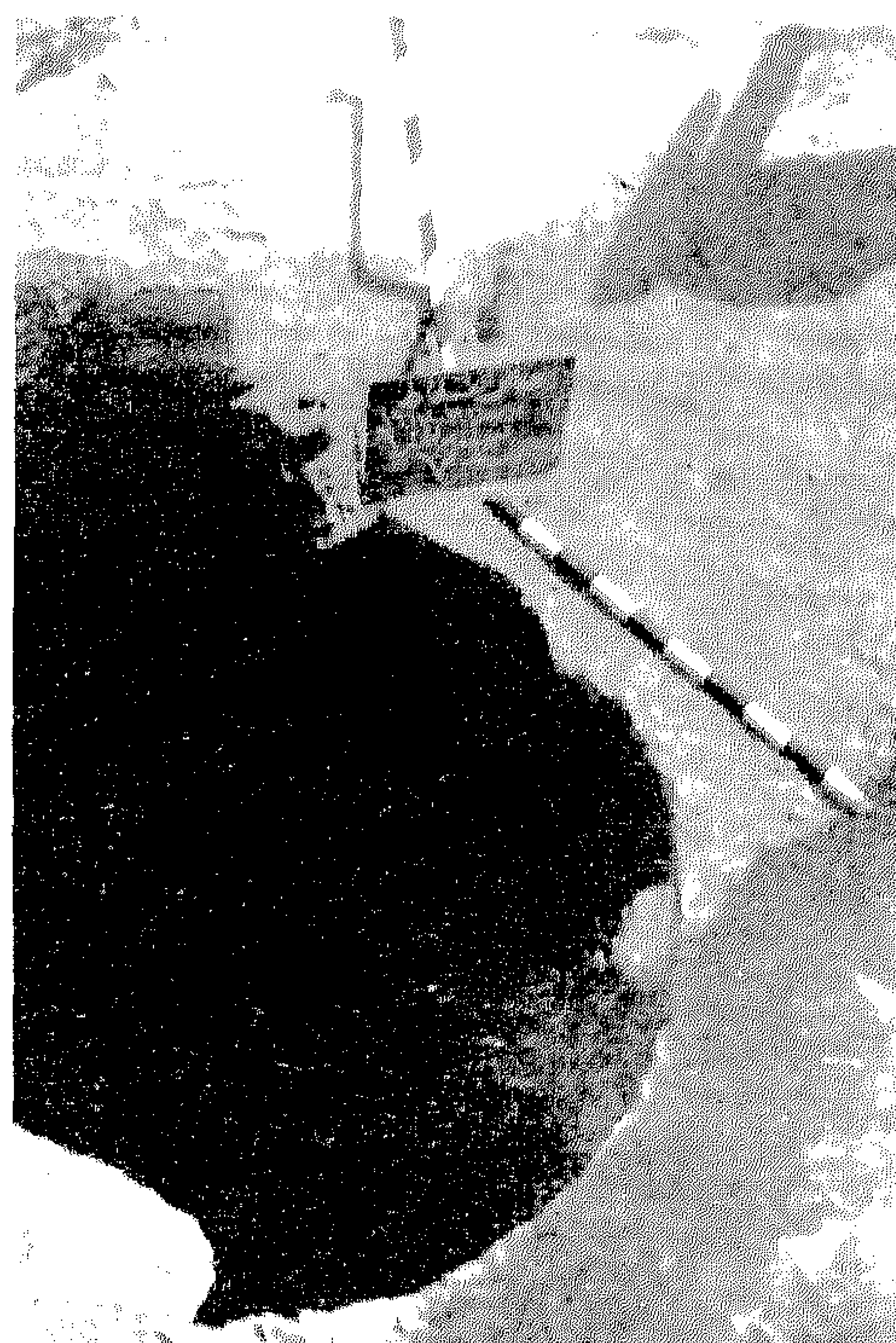
شكل رقم (١١)



شكل رقم (١٢)

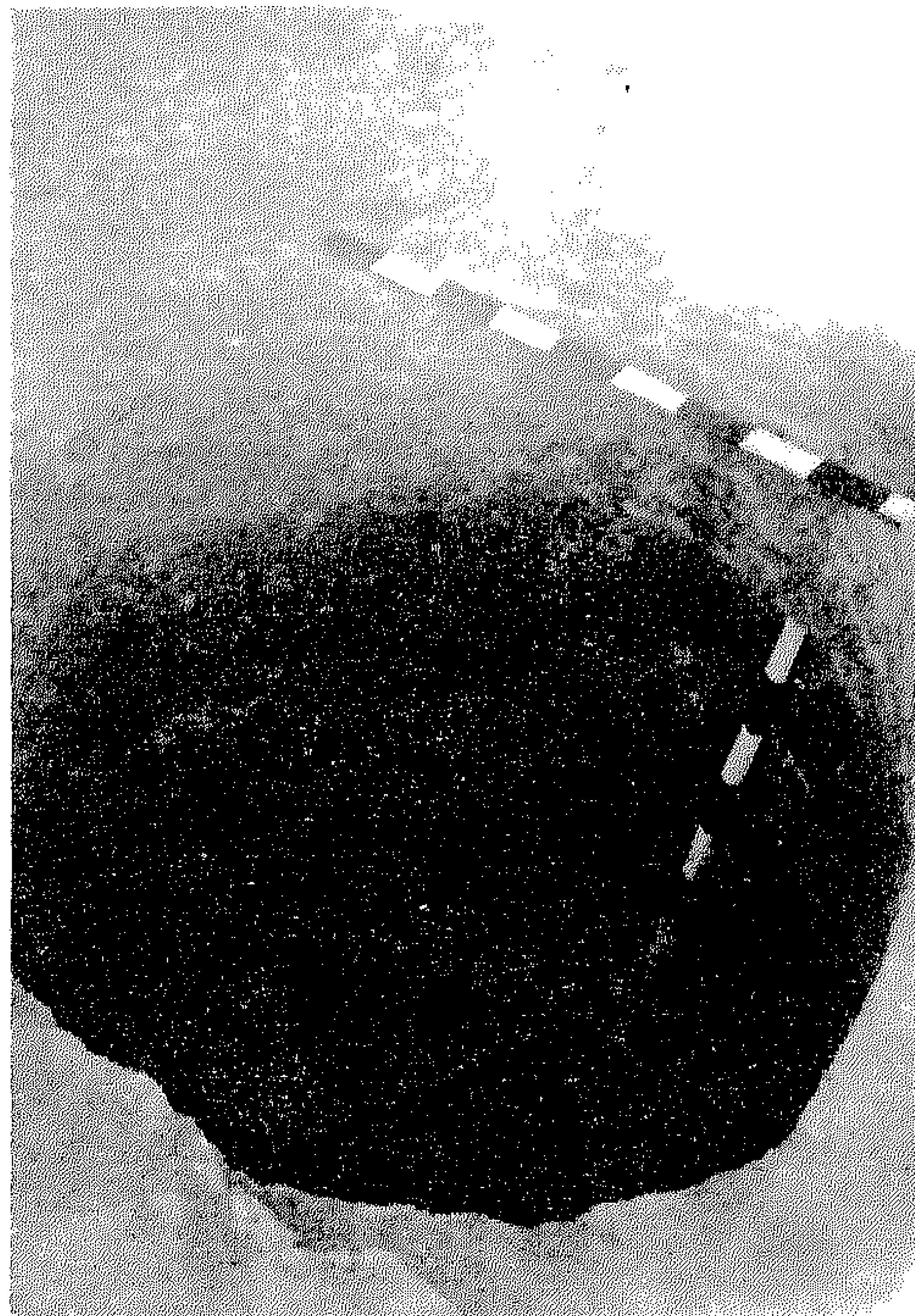


شكل رقم (١٣)



شكل رقم (١٤)

شكل رقم (١٥)





شكل رقم (١٦)



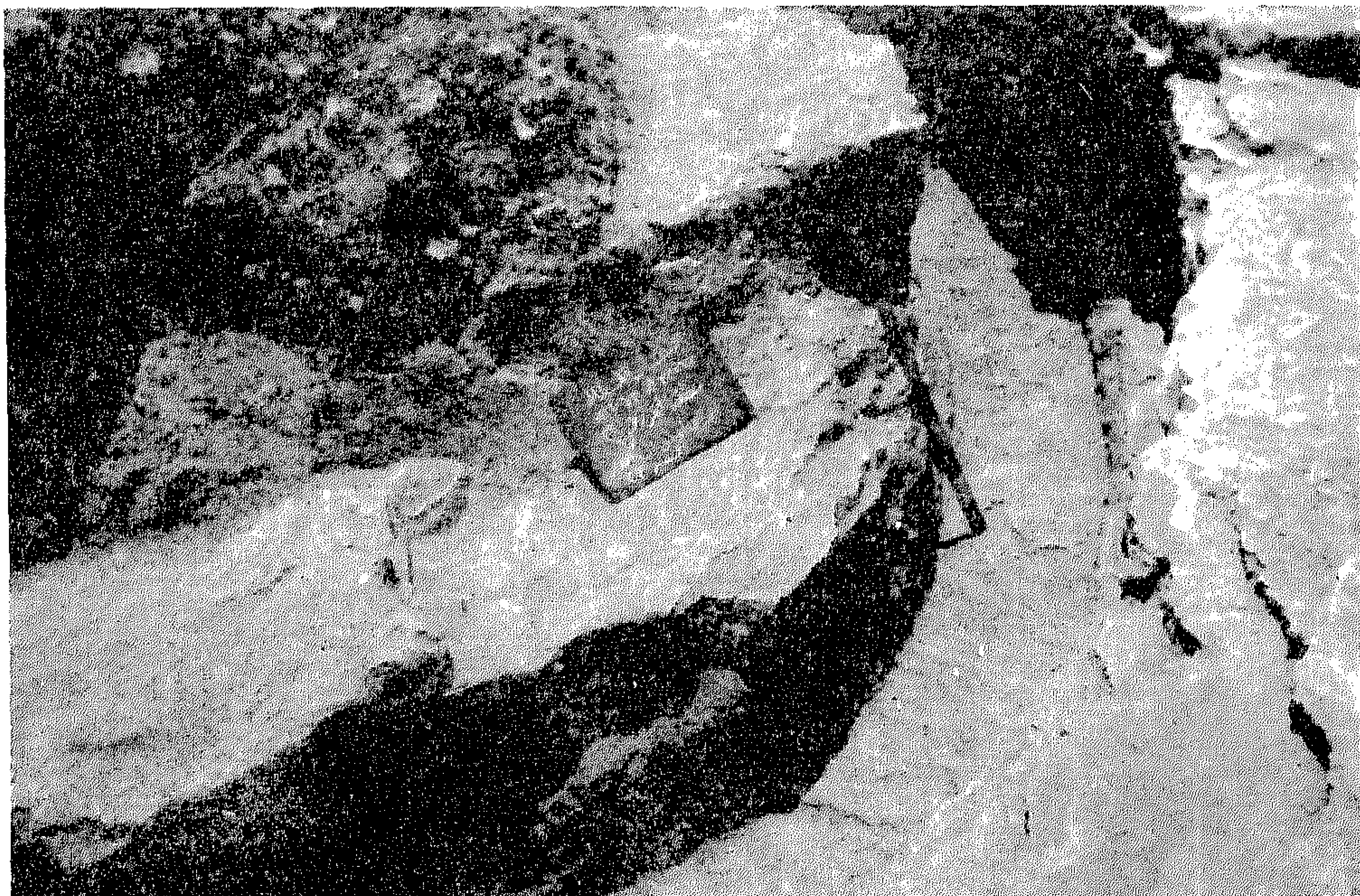
شكل رقم (١٧)



شكل رقم (١٨)



شكل رقم (١٩)



شكل رقم (٢٠)



شكل رقم (٢١)



شكل رقم (٢٢)



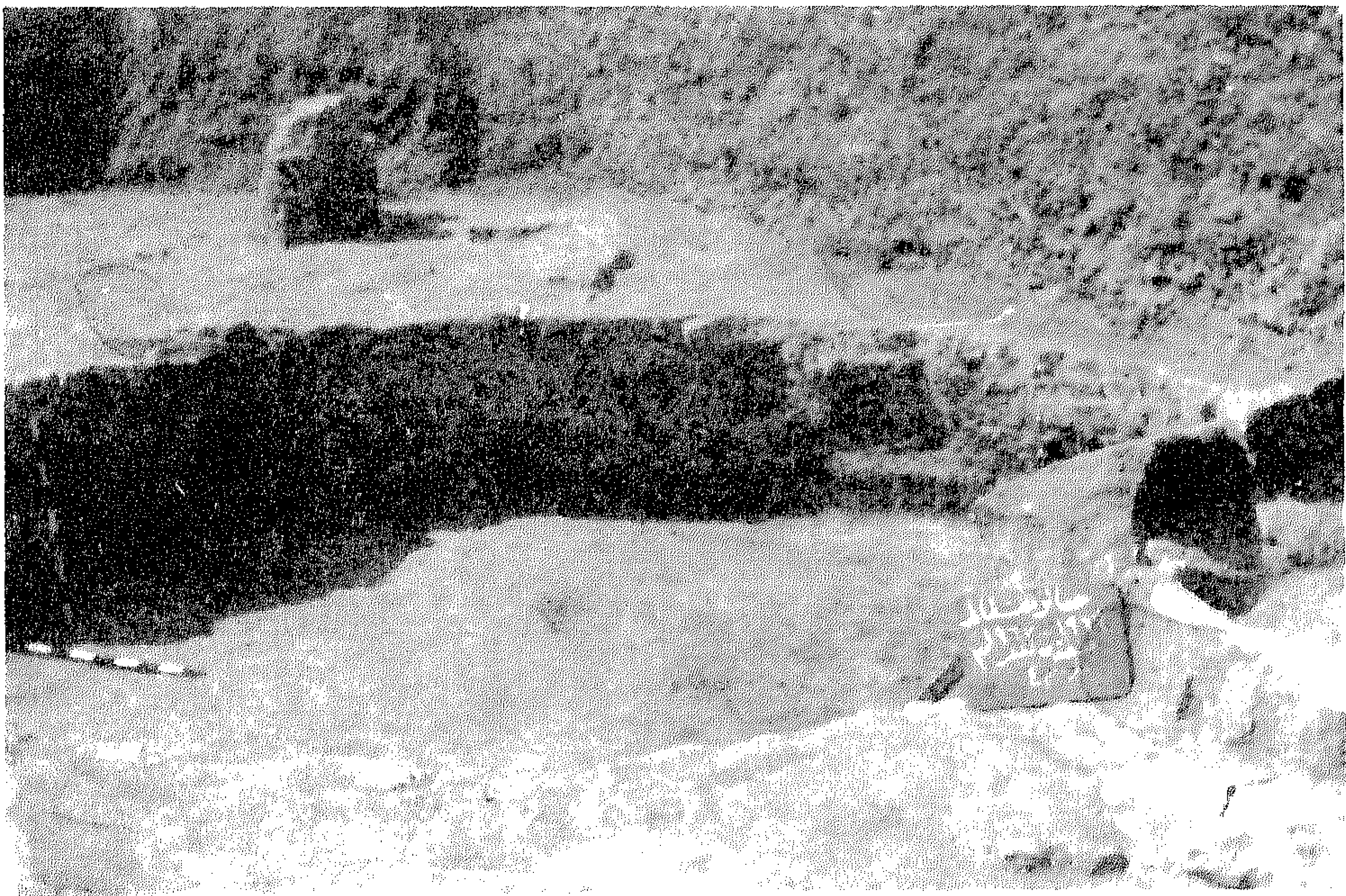
شكل رقم (٢٣)



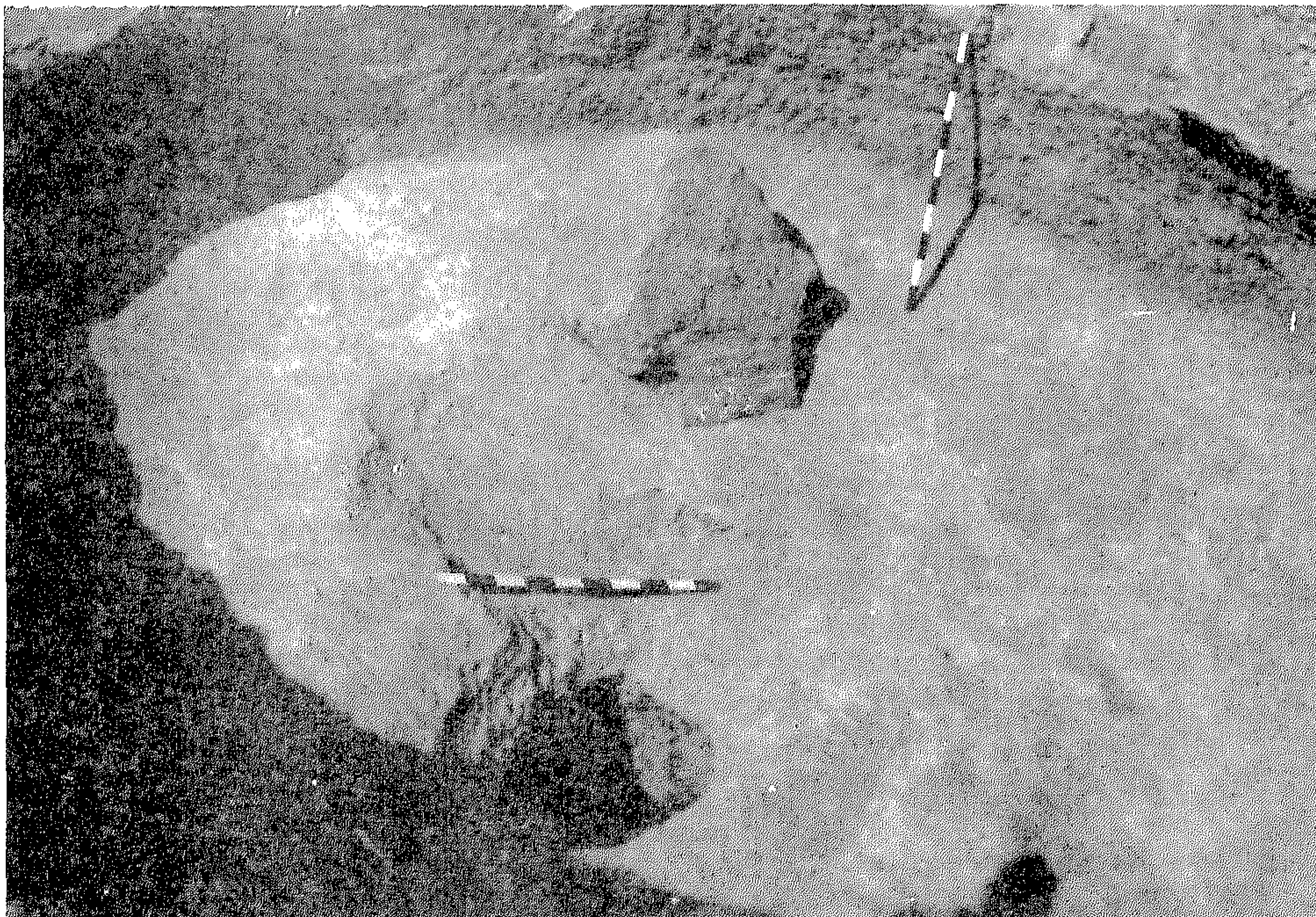
شكل رقم (٢٤)



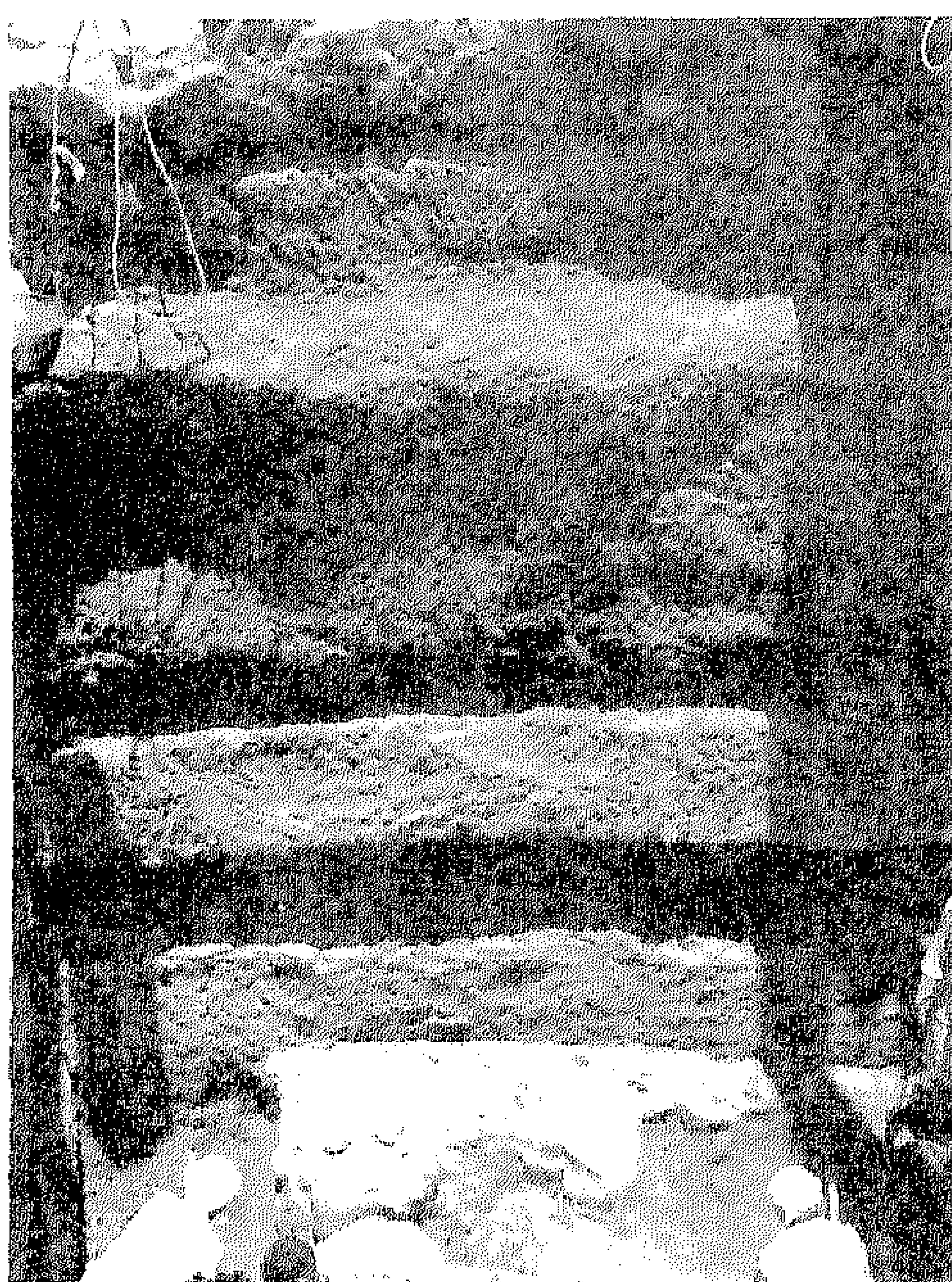
شكل رقم (٢٥)



شكل رقم (٢٦)



شكل رقم (٢٧)



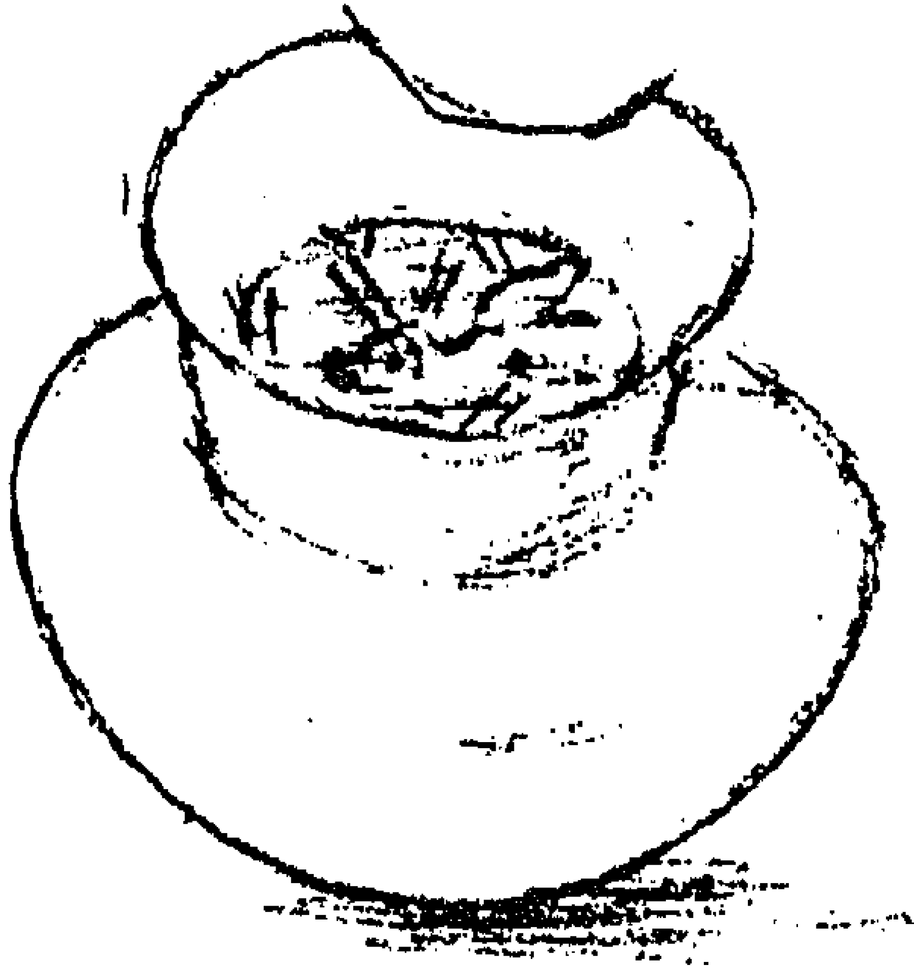
شكل رقم (٢٨)

شكل رقم (٢٩)





شكل رقم (٣٠)



شكل (٣١)

رقم السجل : ٨٣٠

تاريخ الأثر : فاطمى ق٥هـ / ١١م

المادة : فخار

مقاييس الأثر: ارتفاع العنـق : ٤سم قطر الفوهة : ٩سم

ارتفاع البدن : ٨سم قطر القاعدة : ٥,٦ سم

قطر الشباك : ٦سم



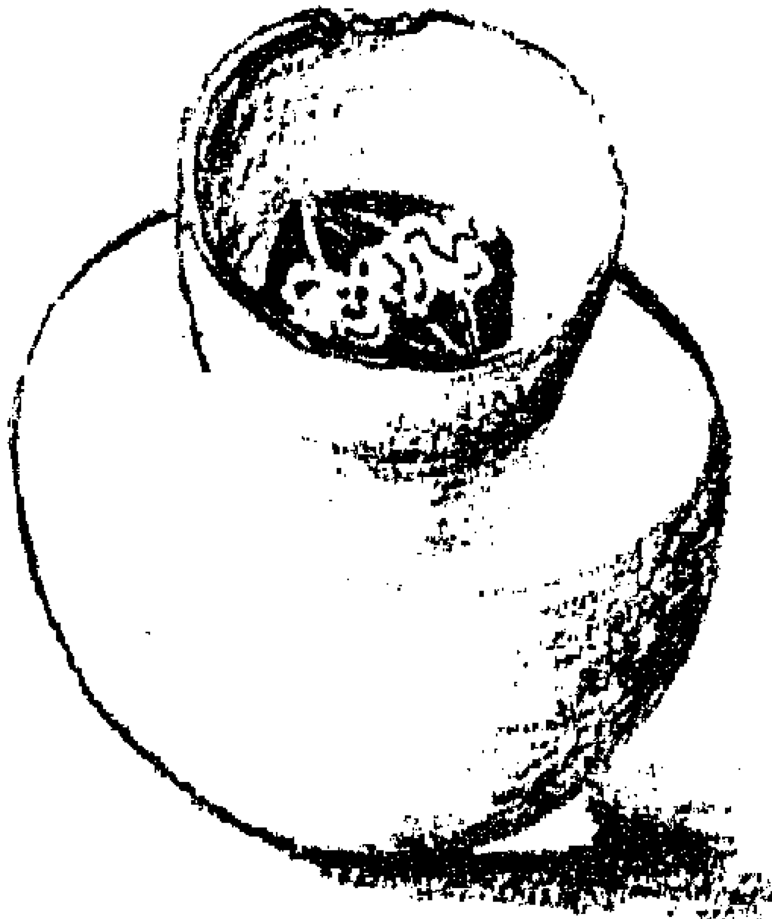
مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الأولى مجسة ٣ عمق من ٣,١٠ - ٣,٦٠ متر من البئر

وصف الأثر : قله من الفخار طينتها صفراء ذات بدن مستدير وقاعدة مستديرة مقعرة قليلا ورقبة متسعة من أعلى بها شباك مزخرف بزخارف مخرمة ومحزوزة تمثل غزال يجرى .

جزء من بدن ورقبة القلة مفقود .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .



شكل (٣٢)

رقم الأثر : ٩١٦

تاريخ الأثر : ق٥ هـ / ١١م

مادة الأثر : فخار

مقاييس الأثر: قطر القاعدة : ٤,٤ سم

ارتفاع : ٩,٥ سم

قطر الفوهة : ٦سم



مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ٦٦ / ٦٧

منطقة الحفر الأولى عمق ٣ متر من البئر .

وصف الأثر : قلة صغيرة من الفخار الأصفر ذات قاعدة صغيرة مستديرة ومستوية وبدن بيضاوى واسع من أعلى ضيق من أسفل ولها عنق واسع به شباك به زخرفة هندسية مخرمة ومحزوزة . جزء من بدن وحافة القله مفقود.

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .





شكل (٣٣)

رقم السجل : ٧٢٠

تاريخ الأثر : ق٥هـ / ١١م

المادة : فخار

مقاييس الأثر : ٦,٥ × ٣,٥ سم

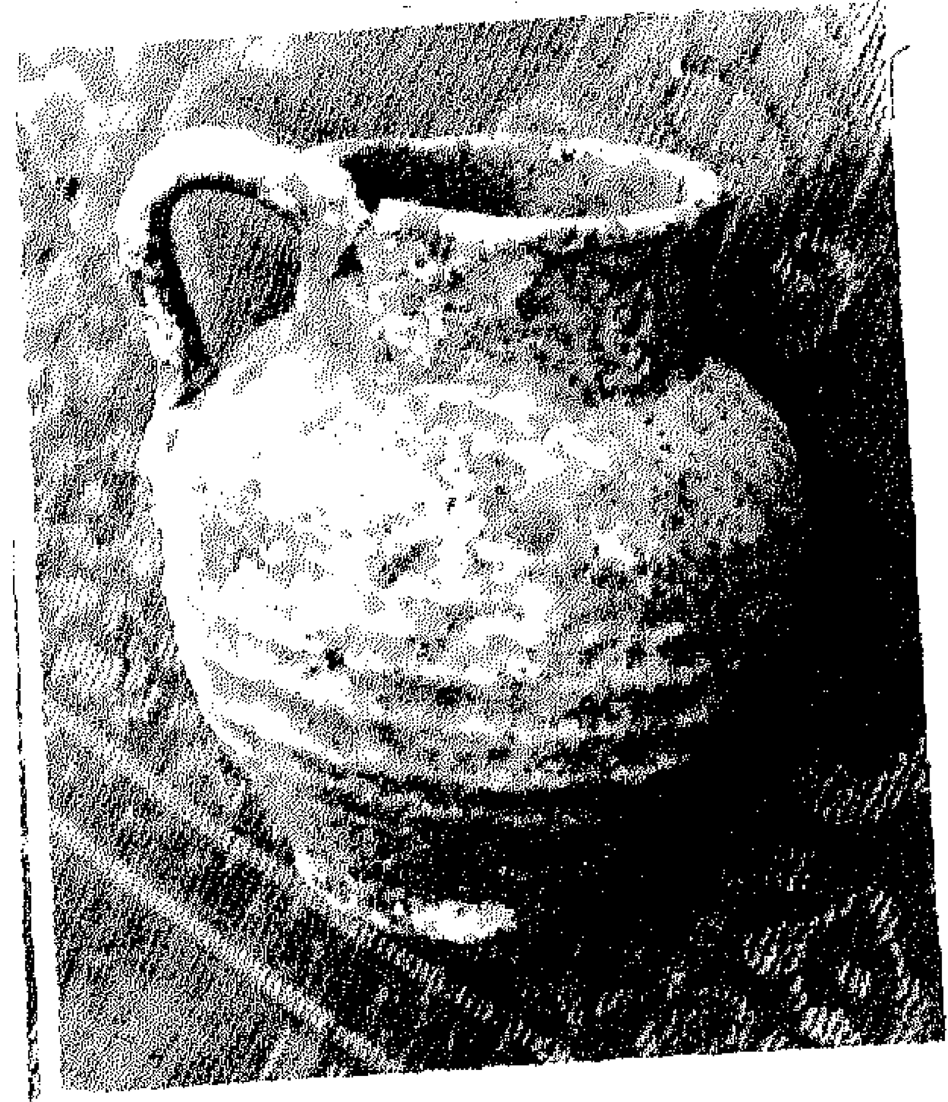
المصدر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الثانية بئر المجسة ٧ عمق ٢ متر

وصف الأثر : جزء من شباك قلة ماء طينته صفراء به زخرفة محزوزة بالوسط تمثل امرأة شبه عارية أطراف أرجلها مفقودة وإحدى أطراف يديها مفقودة وكذلك الرأس ولها ثديين وحلية عند الرقبة حولها زخارف مخرمة ودقيقة .

وهى من القطع النادرة .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .



شكل (٣٤)

رقم الأثر : ٨٤٦

تاريخ الأثر : ق ٥-٦هـ / ١١-١٢م

مادة الأثر : فخار

مقاييس الأثر : ارتفاع : ١٢ سم

قطر الفوهة : ٦سم

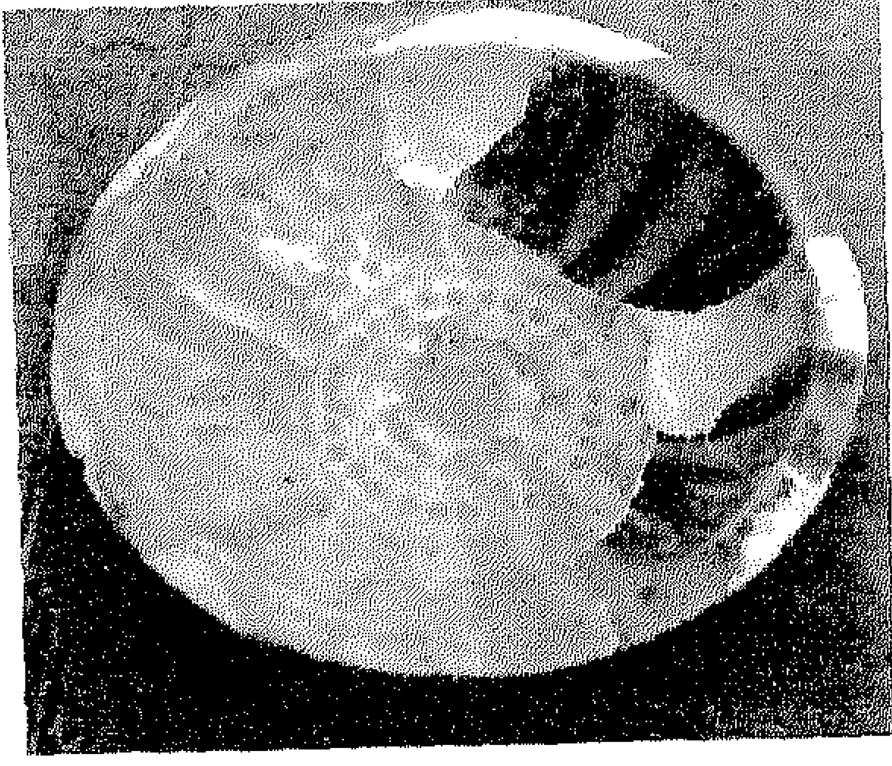
قطر القاعدة : ٥سم .

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الأولى بئر المجسة رقم٣ عمق من ٨ – ٨,٥ من البئر

وصف الأثر : قدر صغير من الفخار طينته بنى له قاعدة مستديرة مقعرة من الوسط بدنه بصلى ورقبته قصيرة متسعة وله مقبض. جزء من بدنه وعنقه مفقودة كان عدة أجزاء ورمم .

موضع الأثر : الفسطاط .



شكل (٣٥)

رقم السجل: ٨٦٦

تاريخ الأثر : ق ١٠ -١٢م   ق ٥ هـ / ١١م

مادة الأثر : خزف فيومى

مقاييس الأثر : ارتفاع البدن : ٧٥ سم   قطر القاعدة : ١٣ سم

قطر الحافة : ٢٤ سم   بروز الحافة : ١,٥ سم

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الثانية بئر المجسة ٧ عمق من ٤,٥ – ٥ متر .

وصف الأثر : صحن كبير من الخزف الفيومى الفاطمى ذو قاعدة كبيرة واسعة وبدن كبير وحافة بها بروز للخارج طينته صفراء التزجيج أبيض معتم والزخارف بالداخل تمثل دائرة وسطى يحيط بها نقط باللون الأصفر وعلى الجوانب من الداخل خطوط رأسيه متداخلة بالألوان الأخضر بدرجاته . أجزاء من البدن والحافة مفقودة كان عدة قطع صغيرة ورمم.

موضع الأثر : الفسطاط .



شكل (٣٦)

رقم الأثر : ١٠١٧

تاريخ الأثر : ق ٥-٦ هـ / ١١ – ١٢ م

مادة الأثر : خزف فيومى

مقاييس الأثر : ارتفاع العنق : ٣سم   قطر الفوهة : ٧,٨سم

ارتفاع البدن : ١١,٥سم   قطر القاعدة : ٧,٨ سم

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ٦٦/٦٧

منطقة الحفر الأولى بئر رقم ١ عمق من ٨,٨٠ – ٩,٣٠ متر

وصف الأثر : قدر متوسط الحجم من الخزف الفيومى الفاطمى قاعدته مستديرة مستوية ذو بدن بيضاوى متسع من أعلى وفوهه قصيرة متسعة قليلا ويوجد إطار بارز عند أعلى البدن ، الطينة بنى فاتح والتزجيج أخضر فاتح الزخارف حول البدن من الخارج عبارة عن أشرطة عريضة رأسية بالألوان البنى والأصفر والأخضر . كان عدة أجزاء ورمم ، بعض أجزاء من البدن والحافة مفقودة .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .



شكل (٣٧)

رقم السجل : ٨٨٤

تاريخ الأثر : ق ٣هـ / ٩م

المادة : خزف ذو بريق معدنى

مقاييس الأثر : ارتفاع : ٣,٥ سم قطر الحافة : ٢٦,٥سم

قطر القاعدة : ٢٥ سم بروز الحافة : ٤سم

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الثانية مجسه رقم ٧ عمق من ٤,٧ – ٥ متر من البئر

وصف الأثر : صحن كبير واسع من الخزف ذى البريق المعدنى قليل الارتفاع كان أجزاء كثيرة ورمم ذات قاعدة مستديرة كبيرة مستوية وبدن قليل الارتفاع بنهايته بروز عريض يتجه الى الخارج . الطينةصفراء مزججة تزجيج أبيض معتم والزخارف داخل الصحن عبارة عن طائر خرافى كبير على هيئة (بطة) لها رأس به قرنين ومنقار يتدلى منه فرع نباتى عبارة عن نصف ورقة نخيلية والجسم يمثل حيوان كبير له أربع أرجل الخلفيتين كاملتين والأماميتين إحداها مفقودة والزخرفة عبارة عن نقط ودوائر صغيرة من الداخل وحول الحافة إطار مستدير من الفستونات .ولون البريق أصفر مائل للخضرة . والزخارف من الخارج عبارة عن دوائر متداخلة بداخلها خطوط طولية تشبه زخارف طراز سامرا .

موضع الأثر : الفسطاط.



شكل (٣٨)

رقم السجل : ٧١٢

تاريخ الأثر : ق ٥ هـ / ١١ م

المادة : خزف ذو بريق معدنى

مقاييس الأثر: قطر الرقبة : ٧ سم ارتفاع: ١٢سم

قطر القاعة : ٦,٥ سم

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الثانية عمق ٢ متر من بئر المجسة رقم ٧



وصف الأثر : قدر صغير من الخزف ذى البريق المعدنى ذو قاعدة مستوية وبدن بيضاوى طينته صفراء مزججة تزجيج أبيض معتم وعلى البدن كتابة كوفية مورقة مذهبة باللون الذهبى الفاتح نصها ، يمن يمن لصاحبها ، وعند نهاية البدن قرب الرقبة يوجد ثلاثة بروزات صغيرة على هيئة مقابض . بعض أجزاء من البدن والرقبة مفقودة .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .





شكل (٣٩)

رقم السجل : ٧٣٤

تاريخ الأثر : ق ٥ هـ / ١١ م

المادة : خزف ذو بريق معدنى

مقاييس الأثر : قطر القاعدة : ٩,٥ سم

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الثانية بئر المجسة رقم ٧ عمق من ٤,٥ – ٥ متر.

وصف الأثر : قاعدة ووسط وأجزاء من بدن وحافة صحن من الخزف ذى البريق المعدنى عثر عليه فى طبقات متتالية وأمكن تجميعه وترميمه – الطينة بنى فاتح والتزجيج أبيض معتم والزخارف عبارة عن إطارات زخرفية متداخلة بها أوراق نباتية خماسية بالبريق المعدنى الذهبى تنتهى بشكل سداسى بالوسط يوجد رسم حصان مجنح دقيق له سرج وحول حافته يوجد إطار دقيق من الكتابة الكوفية ومن خارج الصحن يوجد دوائر وخطوط صغيرة مذهبة بالبريق المعدنى .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .



شكل (٤٠)

رقم السجل : ٧٤٣

تاريخ الأثر : ق ٥ هـ / ١١ م

مادة الأثر : خزف ذو بريق معدنى

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦ .

منطقة الحفر الثانية بئر المجسة رقم ٧ عمق ٢,٢٥ متر .



وصف الأثر : صحن كبير من الخزف ذى البريق المعدنى كان عدة أجزاء صغيرة ورمم وأجزاء من قاعدته وبدنه وحافته مفقودة . طينته بنى فاتح مزجج تزجيج أبيض معتم من الداخل وأصفر فاتح من الخارج ، الزخارف من الداخل تمثل طائر خرافى له قرنين ويتدلى من فمه فرع نباتى به ورقة نباتية وله جناحين وذيل ورجلين احداهما مفقود ويحيط به زخارف عبارة عن أوراق وفروع نباتية ونقط والزخرفة بالبريق المعدنى الأحمر الفاتح والذهبى .

موضع الأثر : الفسطاط .



شكل (٤١)

رقم السجل : ٨٨٥

تاريخ الأثر : ق ٥ هـ / ١١ م

مادة الأثر : خزف ذو بريق معدنى

مقاييس الأثر : قطر الحافة : ٢٤,٥ سم

قطر القاعدة : ١٣ سم

ارتفاع البدن : ٧,٥ سم

بروز الحافة : ١,٥ سم

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الثانية بئر المجسة رقم ٧ عمق من ٥,٣٠ متر – ٥,٨٠ متر.

وصف الأثر : صحن كبير من الخزف ذى البريق المعدنى الفاطمى ذو قاعدة مستديرة وبدن دائرى واسع وحافة لها بروز أفقى يتجه للخارج . طينته بيضاء مزجج تزجيج أبيض معتم . الزخارف من الداخل تمثل رجل يمسك بإحدى يديه كأس وبجانبه دورق جزء من رقبته وبدنه مفقود ، والرجل يبتسم ويلبس عمامة كبيرة وملامحه دقيقة وملابسه مزركشة ومزخرفة على أرضيته زخارف عبارة عن دوائر ونقط صغيرة وعلى حافة الإناء زخارف على هيئة فستونات والزخرفة خارج الصحن عبارة عن ثلاثة دوائر داخل كل منها دائرة أخرى صغيرة وتوجد خطوط صغيرة حولها وبينها . لون البريق الذهبى .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .



شكل (٤٢)

رقم السجل : ٨٨٢

تاريخ الأثر : ق ٥ هـ / ١١ م

مادة الأثر : خزف ذو بريق معدنى

مقاييس الأثر : قطر الحافة : ٢٤ سم

ارتفاع البدن : ٨ سم

قطر القاعدة : ٦٥ سم

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦١

منطقة الحفر الثانية بئر المجسة رقم ٧ عمق من ٥,٤٠ – ٥,٦٠ متر.

وصف الأثر : صحن كبير من الخزف ذى البريق المعدنى الفاطمى أجزاء من حافته وبدنه مفقودة كان عدة أجزاء ورمم ، طينته صفراء مزججة تزجيج أبيض معتم له قاعدة مستديرة وبدن دائرى واسع من أعلى وحافته بها بروز تتجه قليلا إلى الخارج والزخارف داخل الصحن تمثل امرأة جالسة على رأسها غطاء وشعرها متدلى ويحيط برقبتها عقد ملامحها جميلة العينين واسعتين والأنف والفم دقيقتين وهى تمسك بإحدى يديها كأس . يوجد بجانب الصحن اناء فوهته مفقودة والفراغات مليئة بالزخارف على هيئة دوائر متداخله والبريق ذهبى .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .



شكل (٤٣)

رقم السجل : ٨٨٣

تاريخ الأثر : ق ٥ هـ / ١١ م

مادة الأثر : خزف ذو بريق معدنى

مقاييس الأثر : قطر الحافة : ٢٥,٥ سم

ارتفاع البدن : ٨ سم

قطر القاعدة : ١٢,٥ سم

بروز الحافة : ١,٥ سم

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الثانية بئر المجسة رقم ٧ عمق من ٥,٥ – ٦ متر .

وصف الأثر : صحن كبير من الخزف ذى البريق المعدنى ذو قاعدة مستديرة وبدن دائرى واسع وحافة تتجه للخارج كان عدة أجزاء ورمم أجزاء من بدنه وحافته وقاعدته مفقودة . طينته بيضاء مزجج تزجيج أبيض معتم والزخارف من الداخل تمثل دائرة وسطى كبيرة بداخلها زخرفة تمثل طائر (طاووس) يجرى له ذيل كبير مرتفع لأعلى وجناح مزخرف ورقبة طويلة ورفيعة ويتدلى من فمه فرعين نباتيين ومن رأسه فرع آخر . وعلى البدن توجد كتابة كوفية نصها «الملك لله » مكررة والفراغ بين الزخارف به أشكال مستديرة ولون البريق الذهبى .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .



شكل (٤٤)

رقم الأثر : ١٠١٦

تاريخ الأثر : ق ٦ هـ / ١٢ م

مادة الأثر : خزف ذو بريق معدنى

مقاييس الأثر : قطر القاعدة : ٤ سم

ارتفاع البدن : ٤,٥سم

ارتفاع القاعدة : ١ سم

قطر الفوهه : ١١,٥ سم .

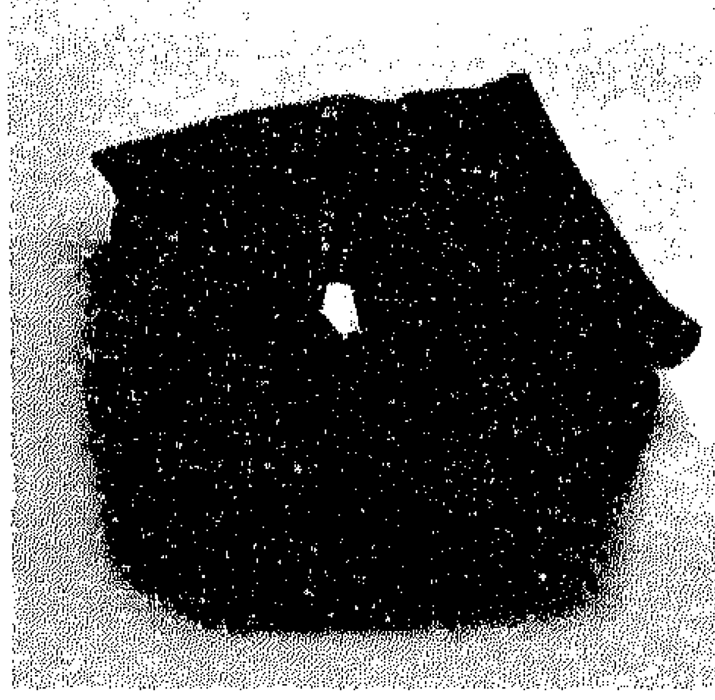
مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ٦٦ / ٦٧

منطقة الحفر الأولى بئر رقم ٧عمق من ١–٢ متر .

وصف الأثر : صحن صغير من الخزف ذى البريق المعدنى ذو قاعدة صغيرة مستديرة مقعرة وبارزة قليلا وبدن متسع من اعلى ضيق من أسفل طينته بيضاء مزججة تزجيج أبيض معتم والزخارف من الداخل هندسية ونباتية محوره على هيئة إطار زخرفى مكون من ورقة نباتية مكررة ومعكوسة وبالوسط أربعة مناطق شبه مستديرة كان عدة أجزاء ورمم – أجزاء من البدن والحافة مفقودة – لون البريق زيتونى .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .





شكل (٤٥)

رقم الأثر : ٧٤٧

تاريخ الأثر : ق ٥ هـ / ١١ م

مقاييس الأثر : ٨× ٦,٥ سم

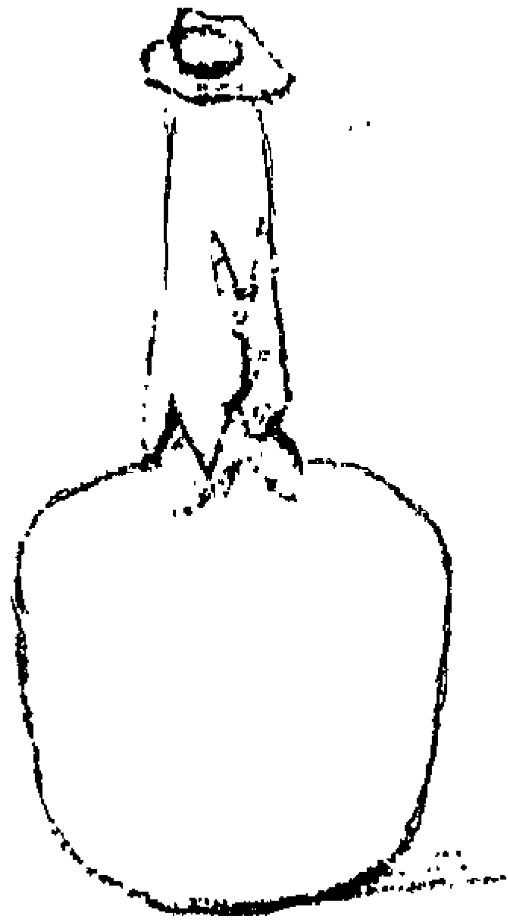
مادة الأثر : الزجاج

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الثانية بئر المجسة رقم ٧ عمق ٢,٢٥ متر .

وصف الأثر : جزء كبير من قاعدة اناء من الزجاج به جزء من البدن لون الزجاج بنفسجى داكن يتوسطه من الداخل زخرفة تمثل هدهد يتدلى من فمه فرع نباتى والزخارف بالبريق المعدنى .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .





شكل (٤٦)

رقم السجل : ٨٣٨

تاريخ الأثر : ق ٥ هـ / ١١ - ١٢ م

مادة الأثر : الزجاج

مقاييس الأثر : ارتفاع العنق : ٨,٥سم

ارتفاع البدن : ٨سم

قطر القاعدة : ٦,٥ سم

قطر الفوهه : ١,٥ سم .

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الأولى من بئر المجسة رقم ٣ عمق من ٤,١٠ - ٤,٦٠ م.

وصف الأثر : دورق من الزجاج الأبيض الشفاف المائل للصفرة أجزاء من بدنه وعنقه وحافته مفقودة ذى قاعدة مستديرة ومستوية وبدن أسطوانى وعنق طويل متسع من أسفل ضيق من أعلى توجد حول العنق زخارف مخروزة ومكشوطة . كان عدة أجزاء ورمم .

موضع الأثر : الفسطاط .



شكل (٤٧)

رقم السجل : ٨٥١

تاريخ الأثر : ق ٥ هـ / ١١ م

مادة الأثر : الزجاج

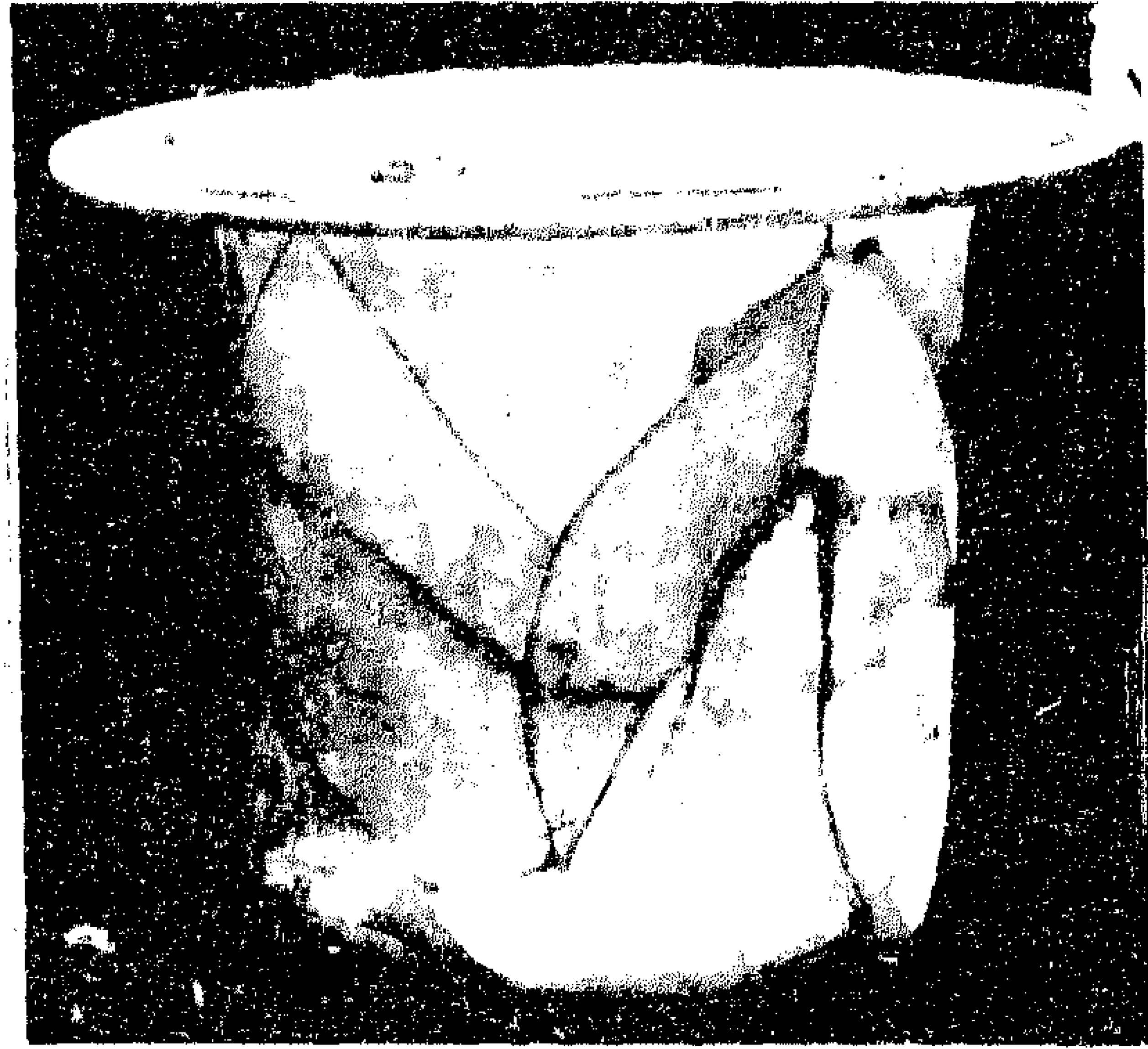
مقاييس الأثر : ارتفاع : ١٤ سم – طول القاعدة : ٦ سم .

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الأولى بئر المجسة رقم ٣ عمق من ٩–١٠ متر .

وصف الأثر : قارورة من الزجاج البنفسجي الشفاف كانت أجزاء كثيرة ورممت وبعض أجزاءها منفصل ومفقود تمثل قاعدة على هيئة حذاء وبدن أسطوانى ضيق من أسفل واسع من أعلى ولها مقبض . وهى من القطع النادرة .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .



شكل (٤٨)

رقم الأثر : ١٠٢٢

تاريخ الأثر : فاطمى

مادة الأثر : الزجاج

مقاييس الأثر : قطر القاعدة : ٩ سم

قطر الفوهه : ١٠ سم

بروز الحافة : ٢ سم

ارتفاع البدن : ١٠ سم

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ٦٦ / ٦٧

منطقة الحفر الأولى بئر رقم ١ عمق من ٨,٨٠ – ٩,٣٠ متر .

وصف الأثر : اناء من الزجاج الأخضر الفاتح الشفاف ذو قاعدة مستديرة مستوية وبدن أسطوانى وفوهة مفلطحة لها بروز يتجه إلى الخارج . كان عدة أجزاء صغيرة ورمم . أجزاء من القاعدة والبدن مفقودة . ليس عليه زخارف .

موضع الأثر : الفسطاط .

شكل (٤٩)

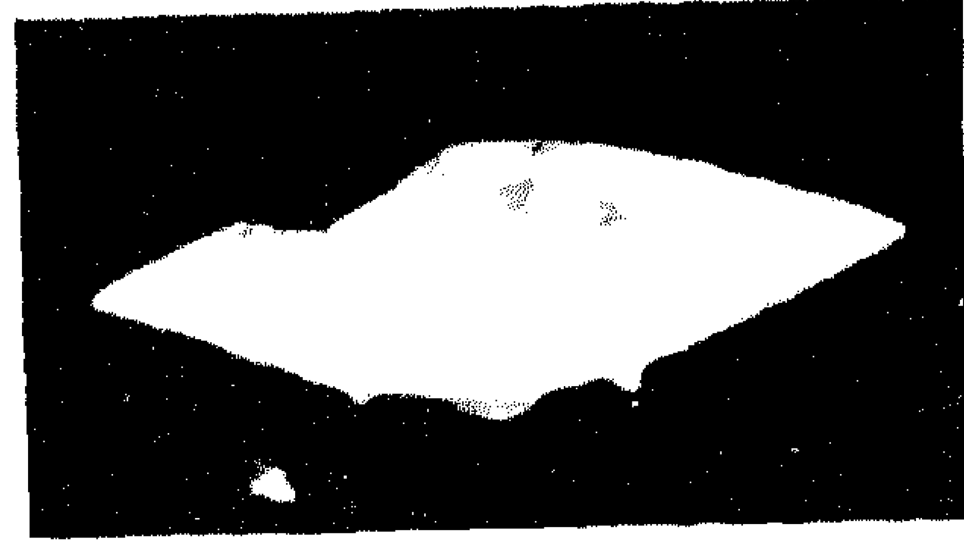
رقم السجل : ١١٢٣

تاريخ الأثر : فاطمى

مادة الأثر : زجاج

مقاييس الأثر : طول ١٤,٥ سم عرض : ٥,٥ سم ارتفاع : ٢ سم .



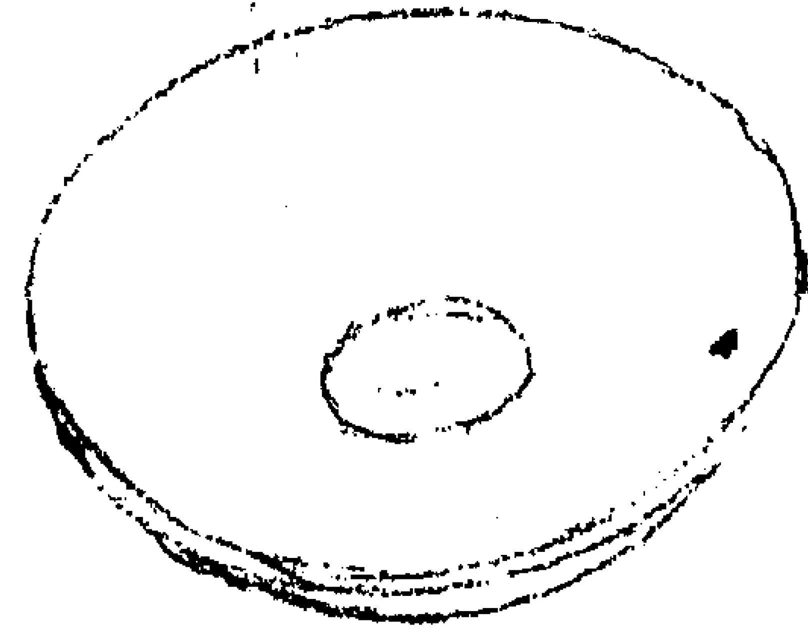


مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ٦٦ / ٦٧

منطقة الحفر الثالثة الحجرى المحفور فى الجبل بين البئرين رقمى ٣،٢ عمق ١ متر .

وصف الأثر : وعاء على هيئة قارب صغير من الزجاج السميك ذو طرفان مدببان على بدنه من الخارج زخرفة بارزة تمثل أربعة أشكال بيضاوية مقعرة قليلا ومدببة من أحد طرفيها وبينها أربعة بروزات مدببة صغيرة . لون الزجاج أبيض شفاف مائل للصفرة ، جزء من حافته مفقودة كان جزءين ورمم .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .





شكل (٥٠)

رقم السجل : ٨٣٧

تاريخ الأثر : مستورد فى العصر الفاطمى

المادة : بورسيلان صينى

مقاييس الأثر : قطر القاعدة : ٦ سم

ارتفاع البدن : ٦سم

قطر الصحن : ١٩ سم .

مصدر الأثر : حفائر الفسطاط ١٩٦٦

منطقة الحفر الأولى مجسة ٣ عمق من ٣,١٠ - ٣,٦٠ متر من البئر .

وصف الأثر : صحن من البورسيلان الصينى كان عدة أجزاء عند العثور عليه ورمم به أجزاء صغيرة من بدنه وقاعدته مفقودة طينته رمادى والتزجيج رمادى فاتح قاعدته مستديرة وقصيرة وبدنه وحافته سميكة وبارزة قليلا .

موضع الأثر : متحف الفن الإسلامى .

النهضة العلمية في الحضارة الإسلامية وأنساب صانعيها

دكتور/ فيصل عبد الحليم إسماعيل

١ ـ تقديـم

هو جهد متواضع أقدمه على استحياء وبفرط حياء الى القارئ المستنير ، بالضرورة ، والغيور ، ومبلغ الطموح فيه مجرد التعريف بما هو فى مجمله شرف ومسرّه ، ودرة بين مفاخر الحضارات وندرة .

والذين صنعوا النهضة العلمية فى القرون الوسطى فغدا بهم عالمهم الاسلامى مشرقا بينما أغرقت أغلب الامم فى ظلام سحيق ، فعلوا ذلك ليس لانهم كانوا عربا او فرسا او هنودا أو مغاربة ، وانما لانهم كانوا مسلمين : لا أقل حتى تلك القلة المعاصرة لهم من العلماء ممن بقوا على غير الاسلام دينا (وهو بسماحة العقيدة الحنيفة حقهم) برزوا وأبدعوا لانهم قد انتموا الى عالم اسلامى نقى وكانت تحكمهم فيما أنتجوا تقاليد علمية ومناهج فكر اسلامية . والذين ينسبون تلك النهضة الى قومية عرقية دون الاخرى فانما هم ـ رغم نبل المقصد أكثر الاحيان ، قد اختاروا لاصحاب الحضارة منازل أقل ، واستبدلوا لهم الذى هو أدنى بالذى هو خير وأعموهم حيث أرادوا ان يكحلوهم .. فليس بعد جمال الانتساب الى الاسلام او الاستظلال بظلة تجمل او مفخرة .

واذا كان جوهر العلم الاسلامى وحدة «الوجود ووحدة الكون ووحدة الكائنات ، فان فى التجزئة العرقية خرقا لأسسة ، وانتقاصا بالتبعية من شأن اولئك الذين «يفصلون عن الهيكل الاسلامى المتماسك لكى» يحصروا فى قوقعة قومية هزيلة متداعية . والعرب مثلا لم تقم لهم قائمة علمية متخصصة ، قبل او بعد الاسلام ، فى غير الاطار الزمنى للنهضة التى بقيت ما حفظ النظام الاسلامى متكاملا فى القلب والقالب . واللغة العربية كان لها وجودها القديم المبهر والمزدهر قبل الاسلام ولكنها (مع كل هذا) لم تصبح لغة العلم والثقافة والتحضر فى العالم المتقدم لعدة قرون الا من خلال موقعها المتميز الجديد (فى عصر النهضة) كلغة للقرآن ، وللعبادات والشعائر الاسلامية .

ولهذه الاعتبارات كلها لزم إنصاف من اختلطت أنسابهم على مترجميهم المحدثين بجمعهم فى نسبهم الأبقى والأعلى والأكرم .. بين علماء الحضارة والعراقة .. والتقاليد والأعراف العلمية الاسلامية ، دون تميز عرقى منقص مهين.

٢ ـ بين التجرد والتجنى

اذا كانت كتابة التاريخ علما له اصوله ومبادئه ودقائقه التى تحتم على العارف بها والمقدر لها تجردا كاملا عن الهوى عند التفسير والتحليل ودقة وتأنيا وتحققا عند الرواية ، فان مهمة المؤرخ العلمى تكون أقل بكثير من مهمة كل من المؤرخ العقائدى (الدينى او السياسى) او المؤرخ الاجتماعى .. وخاصة اذا ما كان مؤرخ العلوم هو نفسه مشتغلا بأحدها .

والدارس المدقق للمصادر العربية المتداولة حديثا فى تاريخ العلوم الاسلامية خاصة يقف حائرا امام نمط من المعالجة يكوّن شبه ظاهرة تخلع فيها عن عمل او انجاز صفته الاسلامية المؤكدة ليلبس عباءة عربية تغير الشكل ولايمكن ان تمس حقيقة المضمون .. فيهدم بذلك العمل التأريخى من أساسة . وحين يحاول المرء تحليل مثل تلك الظاهرة فإنه يخرج بعدد من التعاليل (هى فى واقعها علل) ..

لعل من أهمها :

أ- تقليد تلقائى لمفهوم غربى سطحى عشوائى (أو متعمد) يخلط بين العروبة والاسلام فيستعمل احداها كمرادف أو بديل للاخرى . ونتيجة هذا الخلط لدى قطاع من الفكر الغربى أن يفهم الاسلام بأنه دين العرب ، أو أن العرب (دون سواهم) هم أصحابه .. بينما ميزة الاسلام انه دين الناس كافة ، باختلاف طبائعهم وأجناسهم وشعوبهم وقبائلهم . والحجة فى هذا الابدال غالبا أن الاسلام ظهر فى الجزيرة العربية وانتشر منها . والمسيحية مثلا ظهرت فى أرض فلسطين وانتشرت من هناك ، ومع هذا فان نفس الفكر الغربى لايعتبرها فلسطينية .. أو حتى شرقية.

ب- الالتصاق بالجانب العربى وحده من الوجود الاسلامى .. مجاملة (فقط) للأقلية المنتمية إلى ديانات مخالفة فى الاقطار العربية ، فيبدو هذا تأكيدا لروح السماحة والوفاق . ومجاملة على حساب الحق لايمكن ان تخدم غرضا ذا قيمة تذكر لأى من طرفيها .

جـ- مجاراة التيارات القومية (العرقية) التى فرضتها الحركات السياسية او الأنظمة المهيمنة فى اكثر المنطقة العربية . وهذه غالبا تسعى بعنف الى الغاء الانتماء الاسلامى ، ناظرين اليه بمفهوم عقائدى محدود وضيق ، وغافلين بهذا عن حقيقة ان الاسلام دين ودولة . وهو اذن مواطنة من خلال الدولة الاسلامية . والنهضة العلمية بزغ نورها وازدهرت فى العصر الاول (والأخير .. حتى الآن) لتلك الدولة المتكاملة .

وعندما يقع المرء على أعمال تحمل ، مثلا ، هذه العناوين :

العلوم عند العرب (١)

تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه (٢)

تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك (٣)

محاضرات فى العلوم عند العرب (٤)

تاريخ الطب العربى (٥)

لمحات من التراث الطبى العربى (٦)

فإن أول مايتبادر الى الذهن هو ان هذه الاعمال (ومثيلاتها) تتناول بالدراسة الاسهام العربى فى النهضة العلمية الجامعة والشاملة للحضارة الاسلامية . أو أنها تعنى بإبراز أهمية خاصة لافراد من علماء تلك الحضارة ، ممن ينتمون الى الاجناس العربية بين خلائق البشر المتعددة المكونة للكيان الاسلامى ، والمشاركة هى الاخرى بنصيب وافر فى صنع النهضة .. وفى تأصيلها . ولكن خيبة الانسان تعظم حين يتحقق له ان الاعمال المذكورة (ومثيلاتها) لاتتناول الجزء من خلال الكل حسب متطلبات التخصيص والتفصيل والتفرع ، وانما هى تنسب الكل الى الجزء وتقلصه فتهون من شأن الاثنين ، وكأنها أخرجت حبة لؤلؤ من وسط عقد منظوم يزخر بأثمن الجواهر وأنفس المعادن فينفرط ويتناثر . ثم تجمع قطعة كيفما اتفق فى كيس من سندس ناعم لامع ثم هى تحمل الكيس مفاخرة تهزه فى خيلاء .. طربة بما يصدر عن حركة محتوياته .. من أصوات وفرقعات لاتختلف كثيرا عن خشخشات الحصى أو حشرجات حديد قد صدأ .

ويعـجب المرء أيما عـجب من ادخـال أعـلام مـثل ابن سـينا والبـيـرونى والخـوارزمـى والرازى والصوفى والخازن والسرخسى والبوزجانى والنسوى والاسفزارى .. بل والكاشى وعمر الخيام فى زمرة العرب (١ ـ٣) . ويبحث المرء عن مبرر لهذا الخلط البين بين طيات هذه الترجمات (وغيرها) فيرى من امرها مـايزيد الحيرة . وبينما لايقدم الكثيرون تفسيرا للاختيار المعجز الذى يجعل من الفرس والاتراك والاندلسيين عربا ، وكأن هذا التحول بين البديهيات واضح للعيان .. نجد البعض يلوذ بمعـايير وتعـاريف ومعـاذير لانعرف لها فى السابقين وجودا ، ولا فى واقع عصرنا الحـاضر مقابلا او تطبيقا . وأمامنا بين الفئة الاخيرة مثالان نمطيان للمعالجة .

والأول نجده فى كتاب : تاريخ العلم ودور العرب فى تقدمه (٢) والذى يقدم لنا التعريف التالى للعرب:

«كما اننا نعنى بالعرب كل أولئك الذين ضمتهم الامبراطورية العربية والوطن العربى الذى امتد يوما بين مشارف الصين شرقا ومشارق فرنسا غربا ، ونقصد بالعلماء العرب كل من نشأ منهم فى هذه البـلاد التى دانت بـالاسلام وتكلم أهلهـا اللغـة العربيـة وكـتب وألّف فـى هذه المعـارف باللغـة العربية» ـ ص ١ .

والقبول بصحة ذلك التعريف يجعل منا غيرنا .. ممن خضعوا لسلطان الامبراطورية البريطانية انجليـزا . اى أننا .. نحن المصريين كنا انجليزا على الاقل فى الفـترة الزمنية بين عـامى ١٨٨٢ ، ١٩٥٤ ، وكنا روما لنحو سبعمائة عام واغريقا لثلاثمائة عام وهكسوسا لاكثر من مائتى عام . وقياسا على التعريف المشار اليه فإن الامريكان كانوا انجليزاً أيضا .. ولكن لضعف المدة والهنود لأربعة أضعافها . والأستراليون والكنديون .. وشعوب اخرى متفرقة فى افريقيا وآسيا يكون قد كتب عليهم بأن يبقوا الى الأبد انجليزاً . وكل هذا لان الانجليز كانوا نواة تلك الامبراطورية التى لم تكن تغيب عنها الشمس . وفى ذات الوقت ، ورغم التعريف المشار اليه فان الواقع شئ آخر تماما ، لأن اكثر الشعوب البريطانية فعلا ليسوا إنجليزا ويؤذى مشاعرهم كثيرا أن يدعوا انجليزا .. ففيهم الاسكتلنديون والويلزيون والايرلنديون ، لاهم من الانجليز ولا الانجليز منهم . والكتابة باللغة الإنجليزية ، أيضا ، لاتجعل وحدها من المؤلف بها إنجليزيا . والمنطقة المحددة فى التعريف المشار اليه لايمكن ، بذلك ، الا ان تجمعها صفة الدولة الاسلامية ، بينما العلماء الذين شملهم التعريف اكثرهم من غير العرب وقلة منهم من غير المسلمين .. وجميعهم من رعايا الدولة الاسلامية الكبرى ومن اعلام حضارتها ونهضتها العلمية .

ومن ناحية اخرى فاننا نجد مثالا للنمط الثانى من تعريف النسب العربى ، فى كتاب بعنوان : ابن نفيس (٧) .. حيث يقول :

«تعريف الطب العربى ، او مايطلق عليه هذا الاسم ، من الامور الداعية للحيرة ، فاذا عرفناه بأنه طب شبه الجزيرة العربية لم نسلك جادة الصواب ، اذ انه ظهر وترعرع بعيدا عنها فى العراق والشام ومصر وفارس والأندلس . وان سميناه طب الاسلام استبعدنا جماعات الصابئة والمسيحيين واليهود والمجوسيين والوثنيين الذين برعوا فيه تحت ظل الاسلام» ص ٥١ .

ولاتنتهى حيرة صاحب هذا التعريف الذى أوقع نفسه فيها باختياره ، حين أراد أن يتجاهل الشمس ، فى بحثه عن مصدر الضوء والدفء الاكبر فى الارض . وخاتمة تعريفة كانت كافية لاخراجه من حيرته ، فهى تؤكد ان كل انجاز وكل براعة وكل سبق فى العلم تحقق لعربى أو غير

عربى .. مسلم او غير مسلم ، خلال الفترة المعنية من تاريخ الامم ، انما تمت تحت (فى) ظل الاسلام . ومن الجدير بالذكر ان ابن نفيس تبريزى الاصل والمولد . والنهضة العلمية محل الابدال ليس لها اذن غير انتماء طبيعى واحد ، يتقرر من كونها جانبا من جوانب الحضارة الاسلامية .. التى تحرك بها وعمل لها ، وفى نطاقها ، العربى وغير العربى والمسلم وغير المسلم .. فى دولة الاسلام . وشرف الارتباط بتلك الحضارة ومفاخرها يعلو عند المسهم فيها ودارسها والمقيم لها ، ويفوق .. كل انتماء عرقى او عقائدى أو طائفى او مذهبى . وليس أبسط من هذا ولا أوضح فى إحقاق حق . ولن يفيد الملتصق بالعروبة ، دون سواها ، ان يسعى سعيا يكون من اهدافه او من نتائجه ان تسلب الحضارة الاسلامية انجازا معجزا خالدا .. لولا روح الاسلام وعظمته ما كان .. لا على يد العرب ، ولا على يد العجم ، والله تعالى أعلم .

٣ ـ المواطنة الاسلامية

لاشك ان الاسلام ، بكل المعايير ، منّة من الله ونعمة .. لم تخترعه امة او تأت به كنتاج عبقرية او جهد خارق لها : «قل لاتمنوا علىّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان » . وواقع التاريخ الاسلامى ان الشعوب الداخلة فى الدين الحنيف من غير أجناس العرب ربما أرفع درجة عند الله ، فلقد كانت فى معظمها اكثر تقبلا للاسلام وأسرع الى الهداية : «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» .

ولعل الدين الحنيف لم يلق حربا اكثر ضراوة من تلك الحروب التى لقيها فى دار عربية تشرفت ببزوغه . وكل هذا ورسول الله وآيته الظاهرة أمام أهلها ، وهو بين ظهر انيهم لايملك الا ان يدعو الله سرا .. سنين طويلة ، ويلقى عربا فى غزوات ويبعث اليهم بسرايا .. الى ان يأذن الله بالفرج والفتح من عنده . ولم يقل احد بأن تلك الغزوات والسرايا كانت عربية باسم العروبة ، ولم يقل احد بأن فتح مكة كان نواة فتوحات العرب ومولد إمبراطورية خططوا لها .. أو حتى حلموا بها . ويموت النبى فيخوض خليفته مع فئات من العرب حرب ردة ضروسا . ولقد نسب الى المسيح فى مثل هذا الموقف قوله «طوبى لمن آمن بى ولم يرنى» . والشعوب خارج جزيرة العرب أقبلت على الاسلام : «يدخلون فى دين الله أفواجا» .. فى غيبة رسول الدعوة وبعد وفاته ، فكان القرآن وحده هديهم .. وكانوا من المتقين : «الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة» .

ولعل حكمة الله فى ظهور الاسلام بين قبائل شبه جزيرة العرب كانت تأكيدا لقدرته على خلق حياة من العدم .. فالعرب قبل الاسلام كانوا قلة ضعيفة بين الامم . كان انتشار الدعوة بها أولا ، تأكيدا لقدرة المولى على اتمام نوره فى أصعب الظروف وأحلك الظلمات : «والله متم نوره ولو كره الكافرون» .

ودين التوحيد له أنبياؤه الذين سبقوا محمدا بالدعوة إلى الاسلام فكان (تاريخيا) آخرهم ، وخاتم النبيين والمرسلين لايفضل غيره منهم ، عند الله ، فيما فضل به بعض الرسل على بعض ، بعرقة أو بمولده العربى : «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله» . ولم يكن أى من من موسى او عيسى أو يوسف أو يعقوب .. وغيرهم كثيرون من أنبياء الله ، ينطقون بالعربية .

يقول خالد محمد خالد فى كتابه : رجال حول الرسول (٨) :

ولعل الاسلام حين أبطل عادة التبنى ، انما اراد ان يقول للمسلمين : لاتلتمسوا رحما ، ولاقربى ، ولاصلة تؤكدون بها اخاءكم أكبر ولاأقوى من الاسلام نفسه .. والعقيدة التى يجعلكم بها اخوانا ـ الكاتب يشير هنا الى الآية الكريمة : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) ـ ولقد فهم المسلمون الاوائل هذا جيدا فلم يكن شئ أحب الى احدهم بعد الله ورسوله ، من اخوانهم فى الله وفى الاسلام .ـ ص ٦٢٤ ، ٦٢٥ .

وتاريخ الدعوة الاسلامية يزخر بصفحات مشرقة مضيئة لرجالات من الرعيل الاول كانوا عمدا راسخة قوية فى انتشار الاسلام وازدهاره .. ممن لم يكونوا من العرق العربى . ومنهم من أبلى أحسن البلاء وكان سندا للنبى ـ بعد الله ـ وعونا فى الكفاح الاول وفى اقسى المحن .. يفتدونه ، ولايخذلونه أبدا . وما من مسلم لايعرف لبلال بن رباح (الحبشى) قدره وعلو شأنه . ولقد قال فيه نبى الرحمة : «انى سمعت ذف نعليه بين يدى فى الجنة» ـ والذى يعنى انه كان فى مقدمة أصحاب النعيم يسبق رسول الله فيه ـ فقه السنة (٩) : ص ٤٤ ، ٤٥ ـ وكان عمر بن الخطاب اذا ذكر بلال يقول : «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» ـ رجال حول الرسول (٨) : ص ٨٠ . ومات بلال فى الشام مرابطا فى سبيل الله .

وعندما حاصر المشركون المدينة بأربعة وعشرين ألف مقاتل على رأسهم أبو سفيان فى العام الخامس للهجرة .. كان سلمان الفارسى صاحب المشورة بحفر خندق دفاعى . ووقف الانصار ينادون : سلمان منا .. ووقف المهاجرون يهللون : بل سلمان منا .. وناداهم رسول الله قائلا : «سلمان منا أهل البيت» .

وكان الرسول يطرى فطنته وعلمه كثيرا ، كما كان يطرى خلقه ودينه .. وقال فيه «لقد أشبع سلمان علما ..» . ولقد بلغ سلمان الفارسى فى نفوس الصحابة جميعا منزلة عالية . ففى خلافة عمر بن الخطاب ، مثلا ، علم الخليفة ان سلمان وكان اميرا للمدائن قد جاء المدينة زائرا ، فجمع أصحابه وقال لهم : «هيا بنا نخرج لاستقبال سلمان» ـ وخرج بهم لاستقباله عند مشارف المدينة .. وهو مالم يفعله عمر مع غير سلمان . وعندما طعن ابن الخطاب طعنة الموت ، وبينما هو يحتضر ، رشح ستة من اهل الشورى للخلافة (امارة المؤمنين والدولة الاسلامية) هم : عبد الرحمن بن عوف ، عثمان بن عفان ، على بن أبى طالب ، سعد ابن أبى وقاص ، أبو عبيدة الجراح ، وعبد الله بن عمر . وقال: «لو كان سلمان حاضرا لوليته» . وهذا يؤكد أن اختيار أمير للمؤمنين من عرق عربى لم يكن دستورا للولاية أو منهاجا .

ولعل فى موقع صهيب بن سنان الرومى من رسول الله دلالة أكيدة وواضحة على انتفاء النسبة المحلية (العربية) عن الاسلام والمد الاسلامى والكيان الاسلامى . ومعروف عن صهيب أنه كان ملتصقا بالنبى لدرجة أن قريشا (وهم من ضلعاء العرب) قد ادعوا عليه أنه صاحب القرآن الكريم وواضعه ، فنزل فى هذا قول الله : «لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين» . وآية أخرى من كتاب الله الحفيظ العليم نزلت فى موقف اسلامى لصهيب ، مصفى من كل شوائب

المفاخرة بحسب . فبينما كان يتجه الى المدينة مهاجرا ، قطع عليه المشركون طريقه فتحداهم للنزال فجادلوه قائلين : لقد أتيتنا صعلوكا فقيرا ، فكثر مالك عندنا وبلغت بيننا ما بلغت . والان تنطلق بنفسك وبمالك ؟ .

فأرشدهم الى مكان حفظ فيه جميع ثروته ، قائلا : لكم مالى فخذوه ، ولى دينى . فتركوه وشأنه. وعندما دخل على رسول الله وحوله بعض أصحابه هلل الرسول مناديا :

«ربح البيع أبايحى .. ربح البيع أبايحى»

وفى هذا نزلت الآية الكريمة :

«ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد» ـ رجال حول الرسول (٨) : ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

وهكذا فان الفضل فى قيام الدولة الاسلامية هو ، اولا واخيرا ، لله وحده .. ولاينسب لعرق دون عرق .. ولا لارض دون أرض : «لله الأمر جميعا» ، و «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده» .

ولم يكن العرب احرص على الاسلام بعروبتهم ، ولا اسبق اليه ممن سواهم بين اجناس فى الارض تقدر بنحو ثلاثمائة جنس (أو فئة عرقية) رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد بن عبد الله نبيا ورسولا . واذا كانت الالسن فى أمة التوحيد شتى فان تلك ميزة (تتجلى من خلالها حكمة الخالق وعظمة الاسلام) وليست نقيصة . ويكفى ان هناك الآن مسلمون فى كل قطر من اقطار الدنيا يتحدثون بأكثر اللغات المعروفة . وتحتل اللغة العربية مكانها الذى قدر لها فى مجموعة اللغات الأفرو ـ آسيوية . وهذه يتحدث بها عدد اقل من اولئك المسلمين الذين تنتمى لغاتهم الى المجموعة الهندية ـ الايرانية . وموقع اللغة العربية اذن من الناحية العددية متواضع ، وان كان هذا لايهون من شأنها ، فلقد كرمها الله .. ولكن فقط فى الاطار الاسلامى وليس العرقى . ومن اسس الاسلام ان الخلق خلق الله وأن الأرض أرض الله .. ولاحجة هنالك لتميز أو تمييز فيما يمكن أن يخضع لدراية البشر . فالاعمال ، فى الاسلام ، والنوايا هى التى تحدد منزلة فرد (وليس مجموعة) :ـ

«كل نفس بما كسبت رهينة»

و«ولاتزر وازرة وزر اخرى»

و«فمن يعمل مثقال ذرة خير يره» .

والدولة الإسلامية التى كانت ، قدمت الشاهد العملى الذى يمكن الاستعانة به والبناء عليه فى التوصيف وفى التصنيف .. اذا لزم هذا لاى سبب جدلى . فالذين قد انتموا الى تلك الدولة ممن نطقوا بالشهادة هم بالعرف والقانون مسلمون .. عليهم واجبات المسلمين .. التى تصل الى الموت فى سبيل الدعوة .. وتقع عليهم جميعا مسئولية بقاء واستمرار الدولة ، لاتقل مسئوليات مسلم ، فى هذا الواجب ، عن مسلم آخر باصله أو حسبه أو نسبة العرقى . والدولة الاسلامية كان لها رعاياها من غير المسلمين .. لهم نفس حقوق مواطنى الدولة ممن اسلموا ، فى حرية العقيدة والعبادة : «إكراه فى الدين» وعليهم واجبات الانتساب للدولة والاستظلال بظلها كما بينها النظام وحددها

الدستور الالهى . ولم تكن تلك الواجبات لتطلب منهم اكثر من الولاء الضرورى والخدمة المخلصة ، فقد رفع عنهم تكليف التضحية بالدم لحماية دين لم يدخلوا فيه . ومواطن الدولة الاسلامية اذن لم يكن يميزه فيها عرق (فيستأثر بإنجازاتها ومفاخرها لنفسه أو لجنسه) ، ولم يكن يعزله عنها أو يخرجه منها أو يسلبه حقه فيها وحقها فيه اختلاف جنس أو اختلاف عقيدة .

٤ ـ البواعث الاسلامية للنهضة العلمية

والعرب لم ينشدوا العلم بذواتهم ولم يكلفوا وحدهم ـ دون سائر المسلمين ـ بالسعى اليه والحرص عليه . فطلب العلم اصبح ـ بعد الاسلام ـ «فريضة على كل مسلم ومسلمة» وليس «كل عربى وعربية» . وآيات القرآن التى حثت المسلم على المعرفة ، وجعلتها صنفا من العبادة لا تعد ولاتحصى . وهذه كانت للذين : «يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك» . ولم يختص القرآن بهذه النعمة والميزة .. وبهذا الواجب ، جنسا من المسلمين دون الاخر : «وما أرسلناك إلا كافة للناس» ، «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون» . جاء فى كتاب : رجال حول الرسول (٨) :

«انها لاحدى روائع الاسلام وعظائمه ، الا يدخل بلدا من بلاد الله الا ويثير فى اعجاز باهر ، كل نبوغها ويحرك كل طاقاتها ، ويخرج خبء العبقرية المستكنة فى أهلها وذويها .. فاذا الفلاسفة المسلمون .. والاطباء المسلمون .. والفقهاء المسلمون .. والفلكيون المسلمون .. والمخترعون المسلمون .. وعلماء الرياضة المسلمون .. واذا بهم يبزغون من كل أفق ، ويطلعون من كل بلد ، حتى تزدحم عصور الاسلام الأولى بعبقريات هائلة فى كل مجالات العقل ، والارادة ، والضمير .. اوطانهم شتى ، ودينهم واحد ..» ص ٤٤ .

ومقومات ذلك التحول الهادر وذلك التقدم الدافق كانت تكمن ، كما هو ظاهر للعيان فى قرآن يتبع وسيرة نبوية تحتذى . والمسلمون الأوائل كانوا على وعى كامل بفضل العلم ومرتبة العاملين به ، عند الله . فكان حماسهم للمعرفة عبادة وذكرا .. وتقربا الى المولى الخبير ، وكل يدعو بالغداة والعشى :

«رب زدنى علما»

فالمعرفة اذن تقترن بالتقوى .. تقوى الله :

«إنما يخشى الله من عباده العلماء»

«يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير»

واذا كان رسول الله يقول : «الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أولى الناس بها» فانما يأتى هذا تبيانا لما جاء فى الذكر الحكيم من آيات تؤكد على أهمية العلم فى النظام الاسلامى . فالله تعالى يقول : «ولا ينبئك مثل خبير»

ويقول : «وما يعقلها إلا العالمون»

ويقول : «هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون»

ويقول على لسان موسى مخاطبا من آتاه الله حكمة وعلما :

«هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ..»

وفى كتاب الله آيات كثيرة بينات محكمات تحدد آفاق العلم ومباحث المعرفة الانسانية التى يريد للمسلمين أن يتناولوها بالبحث والتدقيق . ومن ذلك قوله تعالى : «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما انت مذكر» .

وقوله : «يومئذ تحدث أخبارها»

وقوله : «يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور»

وقوله : «يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان»

وقوله : «يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك» .

وقوله : «وفى أنفسكم أفلا تبصرون»

وقوله : «وأرسلنا الرياح لواقح»

وقوله : «إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا» ...

واعتماد المسلمين على اقوال رسول الله كمصدر رئيسى ، يلازم القرآن ، لتفقه المسلم فى شئون دينه ودنياه يفرضه قول المولى : «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»

وقوله : «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى»

ومن الطبيعى اذن أن نجد فى الاحاديث الشريفة للعلم نصيبا وافرا من الاهمية . ويبدو هذا جليا فى قوله صلى الله عليه وسلم : «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة»

وقوله : «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع»

وقوله : «اطلبوا العلم من المهد الى اللحد»

وقوله : «اطلبوا العلم ولو فى الصين»

وقوله : «العلماء ورثة الانبياء» ..

والعالم فى عصر النهضة الاسلامية كان بذلك مهاجرا فى سبيل الله يرجو رحمته ورضوانه .. لاينشد عرض الدنيا ولايبغى شهرة أو ثروة . ويوجز هذا الاحساس بالواجب المقدس ، فى عبقرية بالغة ، قول البيرونى (١٠) .

«ولو لم يكن بنا حاجة فى تحقيق المسافات بين البلدان وحصر المعمورة ، بحيث يعرف سموت بعض بلدانها عن بعض ، غير الحاجة الى تصحيح القبلة ، قال تعالى (ومن حيث خرجت فول

وجهك شطر المسجد الحرام) ، وقال تعالى : (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) ، لوجب علينا صرف العناية اليها وقصر المهمة عليها ، فالاسلام قد عم اكثر الارض وبلغ ملكه اقصى المشارق والمغارب ، وكل منهم محتاج لاقامة الصلاة ونشر الدعوة الى معرفة القبلة» ص ٣٤ .

وهكذا ، فان : «الفهم الهادى والموضوعى للعلوم الاسلامية لايتحقق ابدا بدون الفهم الواعى لروح الدين الاسلامى نفسه ، والذى كان القوة الدافعة ، وكان مصدر الحياة والوجود لحضارة متسعة شاملة .. كانت العلوم واحدة من ثمارها ... وظهور العلوم الاسلامية وازدهارها كان مرجعهما فقط الى حقيقة أن اصحابها (من جاءوا بها) كانوا مسلمين ، وكانوا يتنفسون فى جو كون اسلامى» : العلوم الاسلامية (١-أ) الفصل الأول : ص ٣ .

٥ ـ بوادر الإبدال العربى .. وأبعاده

لعل جماعة المستشرقين التى بدأت بنقل العلوم الاسلامية من مصادرها الرئيسية باللغة العربية كان قد خرج منها نفر ممن جهلوا الجوهر الاسلامى أو تعمدوا اسقاطه وربما هؤلاء هم المسئولون أصلا عن الايحاء بتقليص نور المعارف الاسلامية الى فتيلة غزو عربى طفرى . وبتثبيت ذلك المفهوم اصبح من السهل تحجيم الكيان الاسلامى فى اطار هيمنة عربية عارمة كانت تتبوأ مكانها الطبيعى فى دورة الحضارات الاقليمية أو العرقية : المصرية القديمة ..البابلية.. الاشورية .. الفارسية .. الاغريقية .. الرومانية .. ثم ـ ولم لا ؟ .. العربية . ولعل تلك العصبة من جماعة المستشرقين (أو صنوا لها) كانت المسئولة عن ادخال لفظ «عربى» الى المعاجم الغربية كمرادف لكلمة «متسول» . ومثل هذا التدنى ليس سوى نتيجة حتمية للقبول بمنطق الانحدار من مرتفع الحضارة الاسلامية الشاهق الى منخفض التسلط العرقى السحيق .

ولم يكن يغيب عن فطنة مفكر جاد يشرفه انتسابه الى جنس عربى أو آخر ان ماعمد اليه بعض المستشرقين أو وقعوا فيه (فوق انه يجافى الحقيقة) لاينصف الاجناس العربية التى كانت توقن بأن انتماءها فى الدولة الاسلامية كان لوجود وحضارة أعظم وأرفع شأناً . ثم تظهر علامات التأثر العربى بتلك النظرة القاصرة المجحفة للحضارة الاسلامية اول ما تظهر لنا فى عمل يتناول الجانب العلمى منها فينسبه جملة الى الجنس العربى (٣) . ويأتى هذا العمل غريبا لان صاحبه يهديه الى «مقام حضرة صاحب الجلالة مولانا المعظم الملك فاورق الاول» .

ويقول فى صدره : «ورثتم مولاى ، عن ساكن الجنان والذكم العظيم ، العمل على بعث الثقافة الاسلامية ..» ـ انظر الشكل ١ . ونسب الملك الراحل فاروق كان دون شك معروفا لدى صاحب العمل (بعنوان تراث العرب العلمى ..) ـ (٣) ، ثم نجده بعد ذلك الاهداء بنحو عشرين عاماً يقول فى مقدمة كتاب له آخر بعنوان : العلوم عند العرب (طبعة عام ١٩٦٠) ـ (١): «وينجلى من موضوعات هذا الكتاب أنه كان للعرب فى سير الحضارة وامتدادها مايدل على انهم قاموا بدورهم فى التطور الفكرى بحماسة متناهية وفهم قوى ... لقد كان هذا عندما كان العرب احرارا . ولكن عندما ابتلوا بالاستعمار التركى والغربى ... ضعفت عزائمهم وهزلت هممهم ...» ويقول :

«وفى هذا القرن شهد العالم استفاقة العرب من غفلتهم ونهوضهم من كبوتهم ... ثم انثنوا ـ يساعدون اقوامهم للنضال واستعادة روح الكرامة الشخصية والقومية ...» ـ ص ١٣ . ويأتى كتاب :

تراث العرب العلمي ... (٣) غريبا كذلك لان صاحبه قد اختار أن يسير فيه على نهج كتاب هام ورئيسي في تاريخ العلوم لجورج سارتون (٢-أ) في تصنيفه وتوصيفه .. معتمدا عليه بدرجة كبيرة . ومع هذا فانه إستبدل كل صفة اسلامية استعملها مصدره (تقريبا) ، بالصفة العربية . فالمؤرخ العلمي سارتون مدقق وحريص للغاية فى اختيار تعبيراته وبياناته ولم يحدث أن اختلطت عليه الصفتان : العربية والاسلامية ، أو خلطهما عنده . وكتاب : العلوم عند العرب (١) ، ومن ناحية أخرى ، يورد تعليقا لمصطفى (بك) نظيف يقول فيه : «فان كانت الفلسفة الاسلامية قد بدأت بتعريف الجسم بأنه الجوهر المحسوس فانها لم تقف بالجسم عند هذا التعريف بل أضافت اليه معنى آخر هو أن المعاوقة عن التحريك القسرى خاصية اساسية ، وهذا المعنى هو أحد الأسس التى ينبنى عليها علم الديناميكا» - ص ٢١٠ . فالعلم الذى يتحدث عنه مصطفى نظيف علم اسلامى جعل منه صاحب الكتاب المذكور علما عربيا .

ولعل من المفيد ، عند هذه النقطة ، أن نشير الى عمل تأريخى علمى كامل ظهر خلال عام من صدور كتاب : تراث العرب العلمى ..(٣) . وصاحب العمل الاخر هو مصطفى نظيف .. والدقة فيه لايتطرق اليها أدنى شك . والعمل بعنوان : «الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية» (١١) . وابن الهيثم اهم علماء النهضة الاسلامية ممن ينتمون الى عرق عربى . ولكن مصطفى نظيف كان يعلم جيدا أن الذى يجمع ابن الهيثم وابن يونس والبيرونى وابن سينا ليس المواطنة العربية وانما المواطنة الاسلامية ولم يكن ابن الهيثم وحده قادرا على خلق علم عربى خارج البوتقة الاسلامية ، وكذلك لم يكن ابن سينا وحده قادرا على خلق علم فارسى خارج الوعاء العلمى الاسلامى . وربما لهذه الحقيقة اساسا نجد مصطفى نظيف يختار عبارات إهدائه الى الملك الراحل فاروق - أيضا ، بميزان وضحت دقته وحساسيته : أنظر الشكل ٢ .

وهكذا نجد أن بداية التأثر العربى بالخلط الغربى كانت فى اواخر الثلاثينات من هذا القرن . ولكن التأثير بلغ غايته فى منتصف الستينات ، ليصبح الخلط شائعا ... بل لنجد انفسنا امام نعرة منفرة .. علها بلغت منتهاها (ونهايتها) فى كتاب : «علماء ينسبون الى مدن اعجمية وهم من أرومة عربية» (١٢) . وقائمة منشورات صاحب هذا العمل تحتوى على عناوين قائمة قميئة ، منها : «عروبة العلماء المسلمين المنسوبين الى المدن الاعجمية» ، «عروبة المدن الاسلامية» .

ولعل مقدمة الكتاب المذكور نفسها تهدم حجة صاحبه ، ففيها «وقد توصلنا فى هذا البحث الى أن كثيرا من هؤلاء المنسوبين أو المضافين الى مدن اعجمية ... انما كانوا من اصل عربى خالص . وسنبرهن فى هذه الرسالة على هذه الحقائق العلمية التى لاريب فيها ، وعلى مدى تغلغل العرب فى البلاد الاسلامية واستقرارهم فى مدنها هم وذراريهم ، وتصاهرهم مع اهلها ، وتوطنهم فيها اجيالا طويلة حتى اليوم» - ص ٣ ، ٤ .

وهو فى موقع آخر يقول :

«وسادت البلاد الاسلامية بأسرها موجة دينية وثقافية . وبذلك أصبح التمايز بين العرب وغيرهم من المسلمين أمرا صعبا جدا» - ص ٦ ، ٧ .

ويقول كذلك :

«... ويشاركهم فى هذا الشعور العلماء الذين عاشوا هم وأسلافهم أجيالا عديدة فى البلاد العربية أو الاسلامية ولم يكونوا يعرفون لهم ثقافة غير الثقافة العربية ، ولا أدبا غير الادب العربى ، ولا لغة غير العربية ، يعتزون بالاسلام وأهله ، ويفضلون العرب على العجم ... والحق أننا ذكرنا العلماء الذين انتسبوا الى مدن أعجمية بناها العرب والمسلمون ، أو الذين انتسبوا الى المدن التى سكنها العرب أو التى أسلم أهلها . ولم نذكر تلك الأعداد الهائلة من العلماء العرب ، ومشاهير رجالهم الذين انتسبوا الى قبائلهم أو ابائهم ، وعاشوا هم وذراريهم فى تلك المدن ، أجيالا طويلة ، بل اندمجوا فى أهلها مع الزمن» - ص ١٧ ، ١٨ .

٦ - خاتمة

ليس يغيب على محقق ، أيا كان ميله ، ان النهضة العلمية فى الدولة الاسلامية انما هى وجه واحد من جوانب حضارتها . ولايمكن فصل او عزل اسهام عرقى معين .. عربياً كان او غير عربى عما عداه ، ولايعتقد ان هناك حكمة مجدية من وراء مثل هذه المحاولة . ومثلما ان للحضارة الاسلامية نهضتها العلمية فان لها نهضتها المعمارية والفنية بجميع تفرعاتها . وعلى العكس مما حدث فى النهضة العلمية من محاولة إلباسها عباءة عربية ، فان محاولات على نفس النطاق لم تظهر فيما هو أوسع انتشارا واكثر اشارة ووقعا ، وهو فوق هذا واقع ملموس : مثل العمارة الاسلامية والآثار الاسلامية ، والمدن الاسلامية ، والاقتصاد الاسلامى (هل سمع احد باقتصاد عربى ؟) ، والنقود الاسلامية ، والنسيج الاسلامى (بسط وسجاد وأغطية ...) ، والحدائق الاسلامية والعدالة الاسلامية ، والتربية الاسلامية القديمة (القرويين والزيتونة والأزهر) .. وقائمة لانهائية من المفاخر التى تمثل النهضة العلمية فقط جزءا منها ولايمكن لمفكر ، مهما كانت سعة خياله ، ان ينسبها لجنس، أو ان يجزئها عرقيا .. لسبب غامض ، أو لاخر .

واذا كان يكفى الدولة الاسلامية شرفا تجسيدها لشريعة الله فى خلقه كافة .. ، فانها سوف تظل تفخر الى ان يشاء الله وتعود رحمة للعالمين ، بانها فاقت كل ماعداها (الى اليوم) تحضرا . سوف تظل حضارة الاسلام تفخر بان تقنيتها المتطورة والمتقدمة لم تشأ ان تنتج (رغم قدرتها وتفوقها) سلاح تدمير شامل (لايبقى ولايذر) . وسوف تظل نهضتها العلمية تفخر بانها كانت حضارية بناءة، ولم تخلف اداة عدوان على الطبيعة واحدة .. تجرد البشر من حقهم الشرعى فى هواء نظيف وماء نظيف وغذاء نظيف . وسوف تظل حضارة الاسلام تشهد بان معالمها الباقية من آثارها قائمة أو منقولة ، ليست سوى آيات بينات خالدات لعظمة الخالق . ولأنه سبحانه ، جميل يحب الجمال .. كان نتاج الحضارة الاسلامية كله يفيض رقة وعذوبة ، وينطق بالذوق الاصيل والفن الرفيع ، ويشع فى كل جوانبه نورا يضيئ جنبات نفس الرائى ، فيغمرها بالحياة .. والدفء الدائم .

شكر وتقدير :

قام الاخ الدكتور على عبد الحليم شهوان ، مشكورا بمراجعة ناقدة تصحيحية للنص عززها بمناقشة تستوجب الثناء والعرفان : جزاه الله عنا أفضل وأكرم الجزاء .

مصادر المقال

اولا مصادر باللغة العربية :

١ ـ العلوم عند العرب ـ قدرى حافظ طوقان ـ مكتبة مصر ـ القاهرة (١٩٦٠) .

٢ ـ تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمة ـ عبد الحليم منتصر ـ دار المعارف القاهرة (١٩٦٩) .

٣ ـ تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ـ قدرى حافظ طوقان ـ هدية المقتطف ـ القاهرة (١٩٤١) .

٤ ـ محاضرات فى العلوم عند العرب ـ عبد الحليم منتصر ـ معهد الدراسات الاسلامية ـ القاهرة (غير مؤرخ) .

٥ ـ تاريخ الطب العربى ـ يحيى شريف ـ معهد الدراسات الاسلامية ـ القاهرة (غير مؤرخ)

٦ ـ لمحات عن التراث الطبى العربى ـ مرسى محمد عرب ـ منشاة المعارف ـ الاسكندرية (١٩٧٥) .

٧ ـ ابن نفيس ـ بول غليونجى ـ الدار المصرية ـ القاهرة (غير مؤرخ) .

٨ ـ رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ دار الفكر ـ بيروت (غير مؤرخ)

٩ ـ فقة السنة (المجلد الاول) ـ السيد السابق ـ مكتبة المسلم ـ القاهرة (غير مؤرخ)

١٠ ـ البيرونى : ابو الريحان محمد بن احمد ـ احمد سعيد الدمرداشى ـ دار المعارف ـ القاهرة (١٩٨٠) .

١١ ـ الحسن بن الهيثم : بحوثه وكشوفه ـ مصطفى نظيف ـ مطبعة نورى ـ القاهرة (١٩٤٢) .

١٢ ـ علماء ينسبون الى مدن اعجمية وهم من ارومة عربية ـ ناجى معروف ـ مطبعة الحكومة ـ بغداد (١٩٦٥) .

١٣ ـ الحسن بن الهيثم ـ احمد سعيد الدمرداشى ـ دار الكتاب العربى ـ القاهرة (١٩٦٩) .

١٤ ـ رسالة الحسن بن الهيثم فى الضوء ـ عبد الحميد حمدى مرسى ـ جمعية المعلمين ـ القاهرة (١٩٣٨) .

١٥ ـ كتاب تنقيح المناظر لذوى الابصار والبصائر (الجزء الاول) ـ كمال الدين ابى الحسن الفارسى ـ دار المعارف العثمانية ـ حيدر اباد (١٩٢٨) .

١٦ ـ ابو الريحان : محمد بن احمد البيرونى ـ ابو الفتوح التوانسى ـ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة (١٩٦٧) .

١٧ ـ ابو الريحان : محمد بن احمد البيرونى ـ محمد جمال الفندى ، امام ابراهيم احمد ـ الموسسة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة (١٩٦٨) .

١٨ ـ ابو الريحان البيرونى : حياتة ومؤلفاته وابحاثة العلمية ـ على احمد الشحات ـ دار المعارف ـ القاهرة (١٩٦٨) .

١٩ ـ الخوارزمى : العالم الرياضى الفلكى ـ محمد عاطف البرقوقى ، ابو الفتوح التوانسى ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة (غير مؤرخ) .

٢٠ ـ العلوم البحتة فى العصور الاسلامية ـ عمر رضا كحالة ـ مطبعة الترقى ـ دمشق (١٩٧٢) .

٢١ ـ امتاع الاسماع للمقريزى ـ تحقيق محمد عبد الحميد ـ دار الانصار ـ القاهرة (١٩٨١) .

٢٢ ـ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ـ ابو زكريا يحيى بن شرف النووى ـ دار الكتاب الاسلامى ـ القاهرة (غير مؤرخ) .

٢٣ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ـ الامام الحافظ احمد بن على العسقلانى ـ دار المعرفة ـ القاهرة (غير مؤرخ) .

٢٤ ـ تاريخ الجنس العربى فى مختلف الاطوار والادوار والاقطار ـ محمد عزه دروزه ـ المكتبة العصرية بصيدا ـ بيروت (غير مؤرخ) .

٢٥ ـ القاموس الاسلامى ـ احمد عطية الله ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة (١٩٦٣) .

٢٦ ـ الاعلام (قاموس تراجم) ـ خير الدين الزركلى ـ دار العلم للملايين ـ بيروت (١٩٧٩) .

٢٧ ـ كتاب التوقيعات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية ـ محمد مختار : تحقيق محمد عمارة . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ القاهرة (١٩٨٠) .

ثانيا مصادر باللغة الانجليزية :

(١ ـ ا) العلوم الاسلامية ـ سيد حسين نصر :
NASR, Seyyed Hossein, Islamic Science, Westerham Press Ltd, Kent (1976).

(٢ـ ا) مقدمة لتاريخ العلم ـ جورج سارتون :
SARTON, George, Introduction to the History of Science, Carnegie Institution, Washington (1927).

(٣ ـ ا) البيرونى : العيد الالفى (الميلادى) حكيم سيد (محرر) :
SAID, HAKIM M. (Editor), Al - Biruni:
Commemorative Volume, Times Press, Karachi (1979).

(٤ ـ ا) البيرونى : العيد الالفى (الهجرى) ـ مجموعة
Al - Biruni: Commemorative Volume, Iran Society, Calcutta (1951) .

(٥ ـ ا) تاريخ العلم ـ رينية توتو (محرر) :
TOTON, RENE (EDITOR), HISTORY OF SCIENCE:
Ancient Medieval Science, Books Inc., New York (1963).

(٦ ـ ا) الطب العربى ـ ادوارد براون :
BROWNE, Edward G., Arabian Medicine, University Press, Cambridge (1921).

(٧ ـ ا) الشعوب الاسلامية : مسح عام للاجناس ـ ريتشارد ويكس (محرر) :
WEEKES, Richard V. (Editor), Muslim Peoples: A World Ethnographic Survey, Greenwood Press, London (1978).

(٨ ـ ا) القاموس الاسلامى ـ توماس هيوز :
HUGHES, Thomas P., Dictionary of Islam, W. H. Allen, London (1885).

الإهداء

إلى حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ملك مصر

مولاي صاحب الجلالة

أنتم مبعث ما أخذ يتملك النفوس في هذه البلاد وفي غيرها من البلاد العربية نحو تراث الإسلاميين وثقافتهم من شعور الإجلال والتقدير وأنتم يا مولاي العون المرتجى في تنشئة النهضة العلمية المصرية في هذه الأمة على أسس من الثقافة المجيدة التي خلفها السلف الصالح وأنتم يا مولاي معقد الأمل في أن تكون نهضة هذه الأمة على صورة تتجلى فيها معالم العزة والسؤدد من تاريخنا القديم

وكتابي هذا يا مولاي فيه بيان مأثرة من مآثر أحد الأعلام من العلماء الإسلاميين هي بحوث ودراسات دعم بها ابن الهيثم منذ نيف وتسعة قرون أحد فروع علم الطبيعة الحديث ونالت منها صفحة من أمجد ما في سجل التاريخ من صفحات ولعلها يا مولاي قد دونت بين جدران هذه القاهرة حاضرة ملككم السعيد وفي حمى أزهرها الشريف

فإن كنت يا مولاي أطمع بأن أحظى بشرف رفع هذا الكتاب إلى مقام سدتكم العالية فذلك ليقيني بأن عرض تلك الصفحة تحت نظركم السامي أمر محبب إلى نفسكم النبيلة الشريفة ولأن هذا هو أسمى ما يسدى من التمجيد إلى ذكرى ذلك العالم الإسلامي الجليل .

لا زلتم يا مولاي ذخرا وعونا وملاذا

الخادم الأمين
مصطفى نظيف

٢٠ ربيع الثاني سنة ١٣٦٣هـ
الموافق ٦ مايو سنة ١٩٤٤م

الإهداء

إلى مقام حضرة صاحب الجلالة مولانا المعظم

الملك فاروق الأول

مولاي صاحب الجلالة .

ورثتم مولاي، عن ساكن الجنان والدكم العظيم، العمل على بعث الثقافة الاسلامية، والكشف عن امجاد العرب الفكرية، ونفختم في هذا العمل القومي، روحاً من روحكم الكريم، وأضفيتم عليه جلالاً من جلالكم السامي، ودفعتم فيه حياة زاخرة من شبابكم الزاهر أدامه الله .

وفي هذا الكتاب حاولت انصاف حضارة العرب في بعض نواحيها، وتجلية امجادها العقلية في ميدان العلوم الرياضية والفلكية، فحملني واجبي القومي، على التوجه بالاهداء الى مقام جلالتكم السامي وسدتكم العالية، راجياً ان تشرفوه وتشرفوني بالقبول، داعياً المولى تعالى ان يكلأ جلالتكم بعنايته ويحفظكم ذخراً للعرب والاسلام .

خادم جلالتكم المخلص

نابلس - فلسطين

قدري حافظ طوقان

الاسكان في العصر الاسلامي في مصر

أستاذ دكتور / كمال الدين سامح

· تنوعت المساكن فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى حتى اليوم وكان لها دور كبير فى دراسة التصميم المعمارى سواء من ناحية التخطيط العام أو التفاصيل والعناصر المعمارية المكونة لكل نوع منها .

وقد أسفرت الحفائر التى قامت بها بعض الهيئات العلمية فى مصر عن كشف أطلال بعض بيوت قديمة لوحظ فى تصممها ملاءمتها لجو البلاد وللعادات الشرقية فكفلت بذلك حرمة الدار وجعلت تعذرمن يوجد بخارجها من رؤية حريم المسكن الموجودين داخلها .. كما تميزت بالخصوصية وبتكيف حجرتها بطرق طبيعيه . وقد ذكر بعض المؤرخين أن بيوت الفسطاط عند زيارتهم لها كانت مكونة من عدة طوابق .. فقد كان معظمها مكونا من خمس وست وسبع طوابق وربما سكن فى الدار – الواحدة المائتان من الناس .. ويذكر إبن دقماق أن خارجة بن حذافة قائد عمروبن العاص كان قد بنى لنفسه أول غرفة فوق الطابق الارضى وعندما سمع الخليفة عمر بن الخطاب بذلك كتب الى عمروبن العاص يقول له أنها انما انشئت لتكون عينا على جيرانه فأمر بهدمها .

ومن دراسة المساقط الافقية لنظام البيوت الطولونية التى كشفت عنها حفريات الفسطاط * نجد أنها متأثرة أصلا من تصميم قدس الأقداس بمعبد أبى سنبل التى أثرت على بيوت قصر شرين وفيروزياد وسرفستان ببلاد الفرس وهذه بدورها أثرت على تصميم البيوت داخل قصر الأخيضر العباسي بالعراق ثم عادت ثانية الى مصر فى البيوت الطولونية بمدينة الفسطاط اذ نجد الوحدات مكونة من قاعة رئسية للاستقبال وتحدها من جانبيها غرفة أصغر من الوسطى والثلاثه تشرف على سقيفة ذات عمودين ومفتوحة على الفناء بثلاث عقود أو فتحات وفى بعض الاحيان تتماثل .

المجموعة من جهتين البحرية والقبلية ومن أهم الدور التى شيدت منذ الفتح الاسلامى فى مصر دار عمروبن العاص بمدينة الفسطاط (١٢هـ) وكانت تفتح على بعد حوالى أربعة أمتار عن الجانب الشمالى الشرقى لجامعه المعروف ثم دار عبد العزيز بن مروان الذى كان أمير مصر من قبل أخيه عبد الملك الخليفة الاموى وكانت تعلوه قبه مذهبه – وكانت هذه الدار فسيحه جدا حتى سميت بالمدينه كما اطلق عليها اسم القصر الذهبى وأصبحت داراً للإمارة حتى دمرها الحريق الذى سببه مروان الثانى أثناء هربه اذ أنشأ صالح بن على (١٣٢–٧٥٠م) قصرا جديدا فى مدينة العسكر الى الشمال من مدينة الفسطاط بالقرب من جبل يشكر واستمرت الدار الجديدة مقرا للحكم حتى أنشأ أحمد بن طولون قصر الميدان فى سنة (٧٥٢ –٨٧١م) .

ولنشأة أحمد بن طولون فى العراق تأثير فى أخذ الفن الطولونى كل أصوله عن الفن العراق العباسى وتعتبر أول مرحلة جميلة واضحة فى تاريخ الفن الاسلامى فى مصر فله صفاته ومميزاته .

وقد استطاع بنو طولون أن يتخذوا لانفسهم بلاطا ينافس بلاط الخليفة فى سامرا وقد اطلق على القصر وميدان لعب الصوالجة اسم «الميدان» وكان موقعة تحت الصخرة التى اقيمت فوقها قلعة صلاح الدين «ميدان الرميلة» – وفى الجهة الجنوبية الشرقية من القصر كانت تفتح دار امارة أحمد

---

* راجع كتاب حفريات الفسطاط لعلى بهجت والبير جابرييل

انظر شكل ١٢٦ ، ١٢٧ ص ٦٧ كتاب العمارة الاسلامية فى مصر للدكتور كمال الدين سامح .

بن طولون وكانت ملاصقة لحائط القبله للمسجدالطولونى – ولها باب يفتح على المسجد ومنه يدخل أحمد بن طولون مباشرةالى المقصورة الى يسار المنبر ، وكان لقصر أحمد بن طولون تسعة أبواب منها باب الميدان ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش – وباب الصوالجه وباب الخاص وباب الحرم وباب الدرومون وباب دعناج وباب الساج وباب الصلاه وكان يطلق عليه أحيانا باب السباع وله ثلاث أبواب معقودة – وكان اذا خرج أحمد بن طولون ممتطيا جواده وهو على رأس جيشه مر من الباب الاوسط ومر من البابين الجانبين ويعلوباب السباع مجلس يشرف منه أحمد بن طولون ليلة العيد على القطائع وعلى باب مدينة الفسطاط .

ولقد قلد إبن طولون الخليفة المعتصم فى مدينة سامرا بالعراق فيما اتخذه من ميدان كبيرللعب الصوالجه اذ وجد مثل هذا الميدان قبل ذلك فى قصره بسامرا والمعروف باسم «الجوسق » ومن أهم الدور بعد ذلك بيت وبستان خمارويه ، فقد زاد خمارويه فى قصر ابن طولون كماحول الميدان الى بستان زرع فيه أنواع الورود والرياحين وأضاف الشجر والنخيل مقلدا فى ذلك حدائق سامرا كما غرس الشجر المطعم فى بستانه وبنى برجا من خشب الساج ثم كسا النخل بالنحاس المذهب .. ويحدثنا المقريزى أنه جعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وقد أجرى فيها الماء فكان يخرج من قائم النخل وينحدر الى فساقى يفض منها الماء الى جداول تسقى سائر البستان .

وقد غرس خمارويه فى بستان الريحان على شكل نقوش وكتابات وشرح فيه أصناف الطيور ذات الاصول الجميله النادرة الوجود كما شيد خمارويه فى داره مجلسا سماه بيت الذهب ويذكر المقريزى أن حوائطه كانت مطليه بالذهب ومحلاه بنقوش اللازورد – كما جعل فيه صورا بارزه من الخشب تمثل نساء بروءسهن أكاليل من الذهب المرصع بالجواهر – كما يذكر أيضا أن خمارويه قد أنشأ فى داره فسقية ملاها زئبقا وكان منظرها عجيبا فى ضؤ القمر وقد أقامها لمعالجة الأرق الذى كان يشكو منه .

وقد أنشأ خمارويه فى داره أيضا دارا للسباع ومن بينها سبع أزرق العينيين يقال له زريق «وقد آنس بخمارويه وصار مطلقا فى الدار لا يؤذى أحدا .

وقدأطنب المؤرخون فى إزدياد العمران بالفسطاط ولم يؤثر تأسيس القاهرة فى عمرانها ، فقد تزايد عمارتها وأسست بها الدور الانيقه والحمامات والقياسر والمنتزهات ، كما عمرت مدينة الفسطاط بالمصانع المختلفة ، وقد كشفت الحفائر التى اجريت فى مناطق الفسطاط عن مصبغة يتضح مما تبقى من آثارها أنها كانت تقوم بأعمال الصباغة على نطاق واسع ، كما عثر أسفل بعض الطرق على مجار ذات أقبيه مايدل على العناية بتنظيم وسائل الصرف كما كشفت الحفائر أيضا عن مجموعة من الدور والطرق ترجع الى مابين القرنين الثالث والخامس بعد الهجرة (٩-١١م) ، أفادت المشتغلين بالعمارة عن أسس تصميم تلك الدور فى الفتره من الزمان .

وفى سنة ٣٥٨هـ وضع جوهر أساس القصر الذى بناه لمولاه المعز فى الفضاء الذى يقع فيه الان خان الخليلى ومسجد الحسين تقريبا وأطلق علية القصر الشرقى الكبير كما أطلق عليه أيضا قصر المعز لدين الله الذى أمر جوهر ببنائه حين سيره لفتح مصر، ووضع تصميمه وكان الخليفه يسكن

فيه ويباشر أعمال الدولة – وقد قيل أنه كان يحتوى على أربعة الاف حجرة وكان لقصر المعز أبواب كثيرة منها باب الذهب وباب العيد وباب الزهرية .

وكان غرب القصر الشرقى قصراً آخر أصغر منه بناه الخليفة العزيز بالله وأطلق عليه اسم القصر الغربى الصغير وموقعه مكان سوق النحاسين وقبة المنصور قلاوون وما جاورها وكان بين قصرى المعز والعزيز فضاء يسع عشرة آلاف من الجند أطلق عليه فيما بعد اسم «بين القصرين» .

وقد وجد نفق تحت الارض يصل بين غرفة الخليفة وقسم الحريم وهذه العاده اتبعت فى أغلب القصور الاسلامية الأولى اذ شوهدت قبل ذلك فى قصر الخليفة المعتصم فى سامرا . كما وجدت فى بغداد بين قصرى الحسنى والثريا فى عهد الخليفة المعتمد كما وجدت أيضا فى جهات عديدة بعد ذلك فى القصر الكبير الشرقى الفاطمى فى مدينة القاهرة وبين هذا القصر وقصر اللؤلؤه فى أيام الحافظ بالله والفائز .

وقد شيد الفاطميون عدة قصور ومناظر على النيل ولما قدم ناصرخسروالرحاله الفارسى مصر سنة (٤٣٩هـ–١٠٤٦م) فى عهد الرخاء فى أيام الفاطمين كانت الفسطاط مدينة عامرة بالمبانى فقد أشاد فى وصفها بقوله «حينما يرى الانسان من بعيد مصر الفسطاط ، يظن أنها جبل فيها دور من أربع عشرة طبقة وأخرى من سبع طبقات » كما ذكر ما كان بها من حدائق السطح فذكر أيضا أنّ بعض الناس كان له بستان على سطح دار له مكون من سبع طبقات وكان به ساقيه يديرها أحد الثيران فيصعد الماء الى السطح الذى غرس فيه بعض أشجار الموالح والزهور والرياحين كما ذكر الرحالة خسرو أن الخليفة الفاطمى كان يمتلك ٢٠ر٠٠٠ منزل ذات خمسة طوابق وكانت تؤجر على أنها « ربع » وكان بناؤها بالحجر وليست بالطوب وبها حدائق فيحاء ومنسقه . وقد أطنب المؤرخون وعلماء الاثار فى وصف الكنوز الفنيه والتحف الاثرية التى خلفها الفاطميون فى قصورهم .

وتعتبر قاعه الدردير القريبة من مدرسة ومسجد الغورى بالغورية أقدم قاعه اسلامية بمدينة القاهرة وتتوسطها درقاعة مربعة تعلوها قبه صغيرة تعرف بالشخشيخه وبأسفلها نافورة ويطل عليها من جهتيها ايوان سقفه أقل ارتفاعا من الجزء الاوسط ويغطى سقفه قبوه فى حين نجد أيضا أن أرضيه الدرقاعة منخفضه عن مستوى أرضية الايوانين بدرجه .

وفى العصر الايوبى أقام صلاح الدين الايوبى قلعته المعروفه باسم قلعه الجبل وأقام بوسطها قصرا أقام فيه سلاطين الايوبيين وأصبح مقرا رسميا لهم . وفى العصر المملوكى تنوعت أنماط السكن الشعب الربع والخان ولسكن التجار الوكالة التى أصبحت كفنادق يقيم فيها التجار ويعرضون بضاعتهم فى حوانيت تطل على فناء يتوسط الوكالة وفى الطابق الاول توجد غرف لاعداد المعروضات التى يعرضها التجار أسفلها وتجد فى الطابق الثانى وما يعلوه مساكن من غرف مفرد أوشقق أو فيلات مكونه من طابقين أو ثلاثه كما قام به المعمارى العالمى الفرنسى لوكور بوزييه فى العمارة المعاصرة .

وشوهد فى العصرالمملوكى المستشفى لإقامة المرضى فنجد البيمارستان المقام فى مجموعة المنصور قلاوون بالنحاسين ثم مساكان للطلبه فى المدارس الاسلامية مثل مدرسة السلطان حسن

بالقلعة ... اذ نجد مساكن الطلبه فى أركان المدرسة الاربعه ومكونة من عدة طوابق تشرف على فناء مربع يتوسطها فكأنها كانت تقوم مقام المدينة الجامعيه فى العصر الحديث .

وهناك نجد أيضا الخانقاه فى عصر المماليك الشراكسه وذلك لسكن الجماعة من المتصوفين وذلك فى أمثله هامه منها خانقاه برقوق بالنحاسين وبرقوق وفرج بمقابر المماليك .

وزادت أهمية الاهتمام بتنوع المسكن لافراد الشعب حيث نرى البيت والدار والقصر كنماذج وأنماط للسكن وترجع العوامل التى أثرت على تصميم المنزل المملوكى الى عوامل ثلاثة وهى مناخية واجتماعيه ودينية .

فمن حيث العامل الأول نظرا لقلة سقوط الأمطار فى مصر فقد استغنى عن جعل سقوف المنازل الخارجية مائلة و بدت أفقية مستوية كما أن شدة الحرارة أوجدت المقعد نتيجة لذلك و هو عبارة عن فراندة مفتوحة على الحوش الأوسط و بأسفله التختبوش و هو مكان مسقوف و يفتح على الحوش من جهته البحرية و مزود بمقاعد للجلوس من جهاته الثلاثة و يتوسط واجهته المطلة على الحوش أحيانا عمود يقسم واجهته إلى فتحتين .

وروعى فى تصميم القاعه الاسلامية وجود الملقف لتكيف هواء القاعة حيث يدخل الهواء من جهته البحرية وينزل ثم يعلو بعد أن يسخن حيث يخرج منفتحات –الشخشيخه التى تعلو الدرقاعه .

وكان لوضع الغرف حول فناء مكشوف تتوسطه نافوره للمياه أثره فى السماح للهواء من تخلل اجزاء المنزل المختلفه وتلطيف درجة حرارته صيفا ولتسرب أشعة الشمس شتاء الى الغرف الداخليه لتدفئتها .. ومن حيث الناحيتين الدينية والاجتماعية فقد روعيت الخصوصيه فى تصميم المنزل حيث روعى عدم رؤية سكن الحريم بجعل المدخل للبيت منكسرا فلا يمكن لمن هو خارجه من رؤية حريم الدار داخل الحوش – ووضعت المشربيات لتعطى فتحات النوافذ العلوية – كما صممت فتحات الطابق الارضى عاليه حتى لا تمكن المشاه خارج المنزل من رؤيه من بداخله .. كما بنيت حوائط الدور الارضى من الحجرالسميك الذى يمنع الاصوات داخل الغرف من سماعها خارجه وأصبح سمكها الكبير مانعا للحرارة والرطوبة للداخل ..

وكان الداخل الى مدخل أى بيت فى هذا العصر ينكسر يمينا أو يسارا حتى يسلك فى دهليز طويل حيث يصل الى نقطة توزيع لجزئين رئيسين فى المنزل هما السلاملك والحرملك . والاول للزوار والضيوف أما الثانى فهو لحرم وسكان المنزل ومن أمثلة القصور المملوكية التى لاتزال قائمة بالقاهرة قصر الامير بشتاك ويعرف باسم حوش بردق (٧٣٨هـ – ١٣٣٧م) ويقع بشارع المعز لدين الله مقابل مدرسة برقوق والمدرسة الكامليه – وقصر الاميرطاز وقصر السلطان قايتباى ومنزل زينب خاتون وبقايا منزل السلطان الغورى (٩٢٢هـ – ١٥١٦م) وقاعة منزل الحرمين وغيرها ..

ولعل أهم قاعة اسلامية مملوكية لاتزال قائمة فى مدينة القاهرة هى المعروفة بقاعة عثمان كتخدا أثر رقم ٥٠ (٧٥١هـ –١٣٥٠م) وتقع بشارع بيت القاضى . وقد تخلفت هذه القاعه من منزل كبير أنشأه محب الدين الموقع الشافعى وقد أوقفه الامير عثمان كتخدا القازد وغلى على أثر امتلاكه له فى سنة (١١٤٨هـ – ١٧٣٥م) وعلى أثر تخطيط شارع بيت القاضى (١٢٩٠هـ –

١٨٧٣م) هدم جزء منه ولم يبق منه سوى هذه القاعة وهى مستطيله التخطيط ومكونه من ايوانين عاليين بينهما در قاعة . والسقف محلى بزخارف جميله ذات الوان بديعه . كما يوجد درج فى الجهة القبلية يؤدى الى دهليز مستطيل يغطية سقف من الجص المفرغ مكون من أشكال هندسية بديعة ومغطاه بالزجاج الملون ومنه يؤدى الى غرفه صغيره مغطاه بقبه مفرغه من الجص بها زجاج ملون أيضا .

ويعتبرمقعد بيت القاضى من قصر الاميرماماى (٩٠١هـ – ١٤٩٦م) وقد تم بناؤه على يد سيف الدين ماماى ويرجع انشاء عدة بيوت وقصور اسلامية الى العصر التركى العثمانى أهمها منزل محمد بن طولون وبعد سكنه لجاير اندرسون أعطاه للحكومة المصرية التى حولته كمتحف اسلامى – ومنزل جمال الدين الذهبى (١٦٣٧م) بشارع حوش قدم ومنزل رضوان بك (١٦٥٤–٥٥م) ويقع مقابل مسجد محمود الكردى الى الجنوب من باب زويله وينسب للقرن الثامن عشر منزل المفتى أو الشيخ المهدى (١٧٠٤ – ١٧١٥م) – ويقع بشارع الخليج المصرى – وقصر المسافر خانة بشارع الجمالية (١٧٧٩م) ومنزل ابراهيم الانصارى بالقرب من المدرسة السنية كتخدا السنارى (١٢٠٩هـ ١٧٩٤م) ويقع بحارة منج بالسيدة زينب ومنزل الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى المعروف بيت السحيمى (١٠٥٨ – ١٢١١هـ) (١٦٤٨ – ١٧٩٦م) ويقع بشارع الدرب الأصفر بقسم الجمالية .

و تنفرد مدينة رشيد بطابعها الخاص و الذى يميزها عن غيرها من ناحيتى الأنشاءو الزخرفة ـ إذ تشتهر منازلها بالبناء بالطوب الملون و المكون لأشكال زخرفية و كتابات كوفية مربعة و كذلك فى أعمال النجارة كالخرط و التطعيم و من أهم المنازل التى لا تزال محتفظة بتفاصيلها المعمارية منزل الأمصيلى المنشأ فى سنة (١٢٢٣هـ ـ ١٨٠٨م)و الذى يتكون من ثلاثة أدوار و يمتاز بمجموعة أعمال النجارة التى قل أن توجد فى غيره من الدور .

و هناك أيضا منزل وقف الأتراك المنشأ فى سنة (١١٣١هـ ـ ١٧١٨م)و قد الحق بإحدى واجهتيه سبيل و كذلك منزل رمضان بشارع دهليز الملك و هو من أهم الدور التى انشئت فى القرن الثامن عشر الميلادى و يتكون من أربعة طوابق و يمتاز بالمشربيات الكبيرة و الصغيرة ذات الطابع الخاص بها . و يمتاز مدخل هذا المنزل بزخرفته بالطوب ذى اللونين الأحمر و الأسود و يتصل به منزل آخر بنى فى نفس العصر هو منزل محارم و يمتاز بجمال مجموعة القاشانى الموجودة بجدران قاعته العلوية .

و فى العصر التركى اهتم العثمانيون بانشاء أحياء جديدة بالقاهرة منها حى الأزبكية . و قد خلدت الأزبكية إسم الأمير أزبك الذى كان قائدا للجيش فى عهد السلطان قايتباى (٨٧٣هـ ـ ٩٠١م) و قد قام هذا الأمير بتجميل منطقة الأزبكية بتنظيفها من تلال الأتربة التى كانت تغطيها و أعاد حفر بركتها و مدها بالمياه من الخليج الناصرى و بدأ فى أقامة المنشآت و الحدائق حولها و لهذا ارتبط اسم أزبك و المنطقة فصارت تعرف بالأزبكية . و من أهم منشآت الأمير أزبك قصره الفخم و مسجده الكبير الذى عرف باسمه و قد انشأه سنة ٨٨٢و كانت تتقدمه عقود مدببه على أعمدة رخامية كما ضم مئذنة لها شرفتان و بقمتها مخروط مدبب و ذلك بعد الأعمال التى أقيمت فى المسجد فى العصر التركى و قد ظل المسجد قائما يطل على ميدان الأوبرا حتى عام ١٨٦٩ .

ومن أهم المنشآت السكنية فى القرن التاسع عشر قصر عابدين الذى بنى عام ١٨٦٣ وأصبح مقرا رسميا سنة ١٨٧٤ – وقد انشىء فى عهد الخديوى اسماعيل فى وسط القاهرة بجانب منزل كان يمتلكه أحد الامراء الاتراك – وقد اشترى الخديوى اسماعيل هذا المنزل ومجموعة أخرى من المبانى المحيطه على مساحة تقدر بحوالى ٢٤ فدانا واستمرت عملية البناء لقصر عابدين حوالى عشر سنوات تحت اشراف المهندس الايطالى دكورفيل روسو ومجموعة كبيرة من المزخرفين ومصممى الديكور وتكلفت مبانى هذا القصر حوالى سبعمائة الف جنية بالاضافة الى تكلفة الاساسات التى بلغت حوالى مليونين من الجنيهات – وبالرغم من صغر مساحته لو قورنت بالقصور المعاصرة له الا انه يعتبر أهمها لاعتبارات كثيرة.

وقد شلمت غرف القصر بعض قاعات اتسمت بتصميمات معمارية اسلامية كقاعة العرش الا ان تصميماتها قد تأثرت بالطراز الاوربى المعاصر فى كل من فرنسا وايطاليا وذلك لإشراف المهندس الايطالى روسو على عملية بنائه فكانت بعض الزخارف والديكور متأثرة بالطرز الفرنسية والايطالية.. كما ازدانت حوائط القاعة الرئيسية وسقفها بالزخارف والطلاء بماء الذهب واستخدام الاعمدة الرخامية التصميم مبهرا وجميلا.

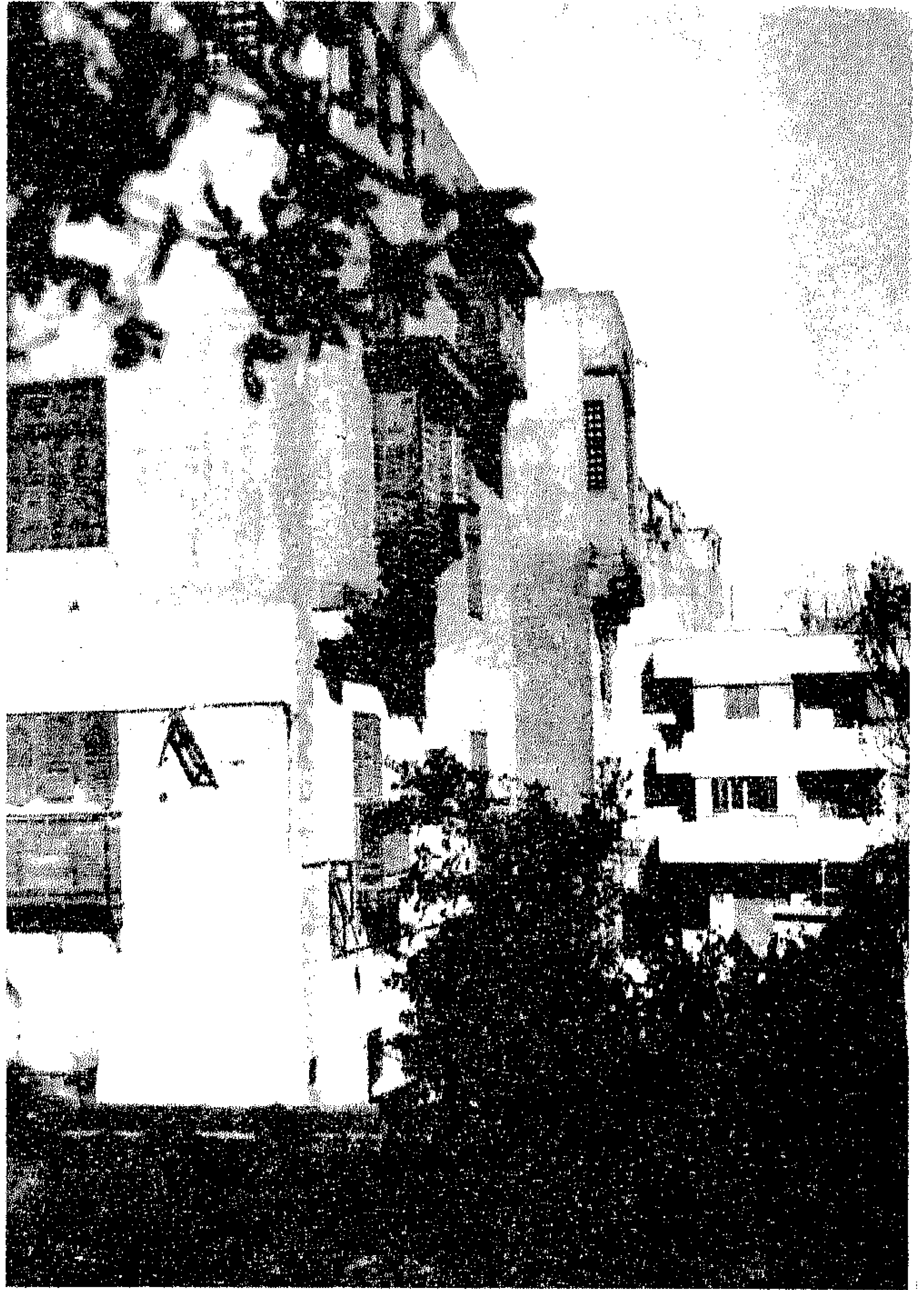
ويلاصق قصر عابدين مسجد الفتح وكان يعرف بجامع عابدين نسبة الى أمير اللواء عابدين بك الذى جدد هذا المسجد عام ١٦٣١م ولما انشأه الخديوى اسماعيل القصر ترك الجامع متداخلا فى حدود القصر.

وفى خلال القرن التاسع عشر اقيمت عدة قصور ملكية وبعضها للامراء المعاصرين مثل قصر الجوهرة بالقلعة وقصر محمد على بشبرا وقصر رأس التين وقصر المنتزة بالاسكندرية هذا بالاضافة الى قصر الامير محمد على بالمنيل وقصر الطاهرة وقصر القبة وقصر لطف الله بالزمالك الذى تحول الى فندق ماريوت حديثا.. وكلها تشمل قاعات وأجنحه على الطراز الاسلامى المعاصر لهذا القرن.

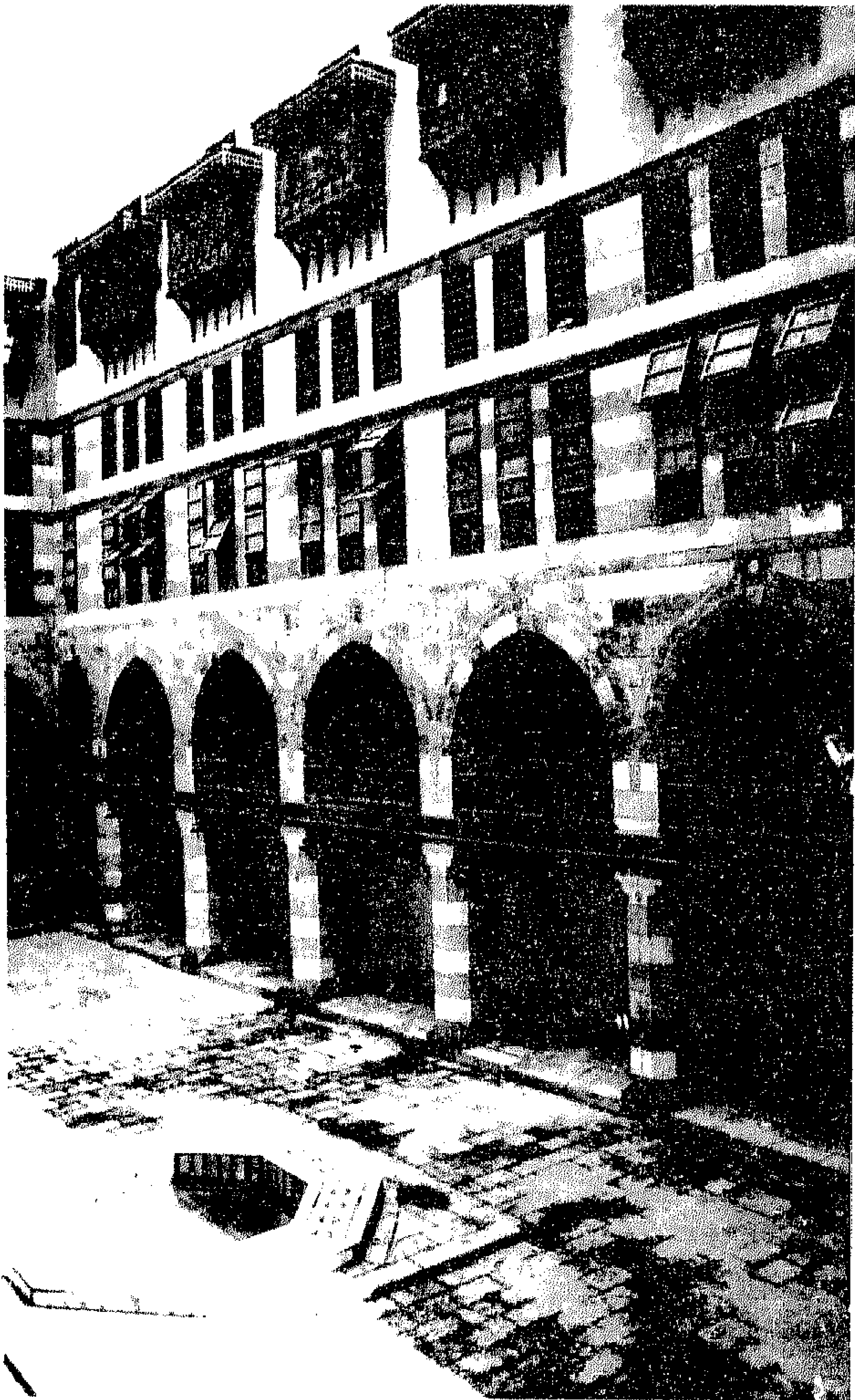
أما القاعات بداخله فتعتبر امثله رائدة لتنوع زخارفها أيضا..

ويلاحظ أن بعض المهندسين المعاصرين قد تأثروا بالتراث المعمارى الذى خلفته مجموعة من المعمارين المصريين من العصور الاسلامية المبكرة وجاء ناجحا الى حد كبير مثل عمارة المهندس الكبير حسن فتحى فى استمساكه بطراز العمارة الاسلامية فى منشآته المعاصرة فى قرية القرنة بالاقصر وبدار السلام وواحة باريس ومنشآته بالمكسيك بأمريكا وكانت للروح والطابع الاسلامى والبيئة الاسلامية ومواد البناء المستخدمة أثرها فى تصميماته التى جاءت مبتكرة وبسيطة وغير مكتظة بالزخارف والعناصر الزخرفية..

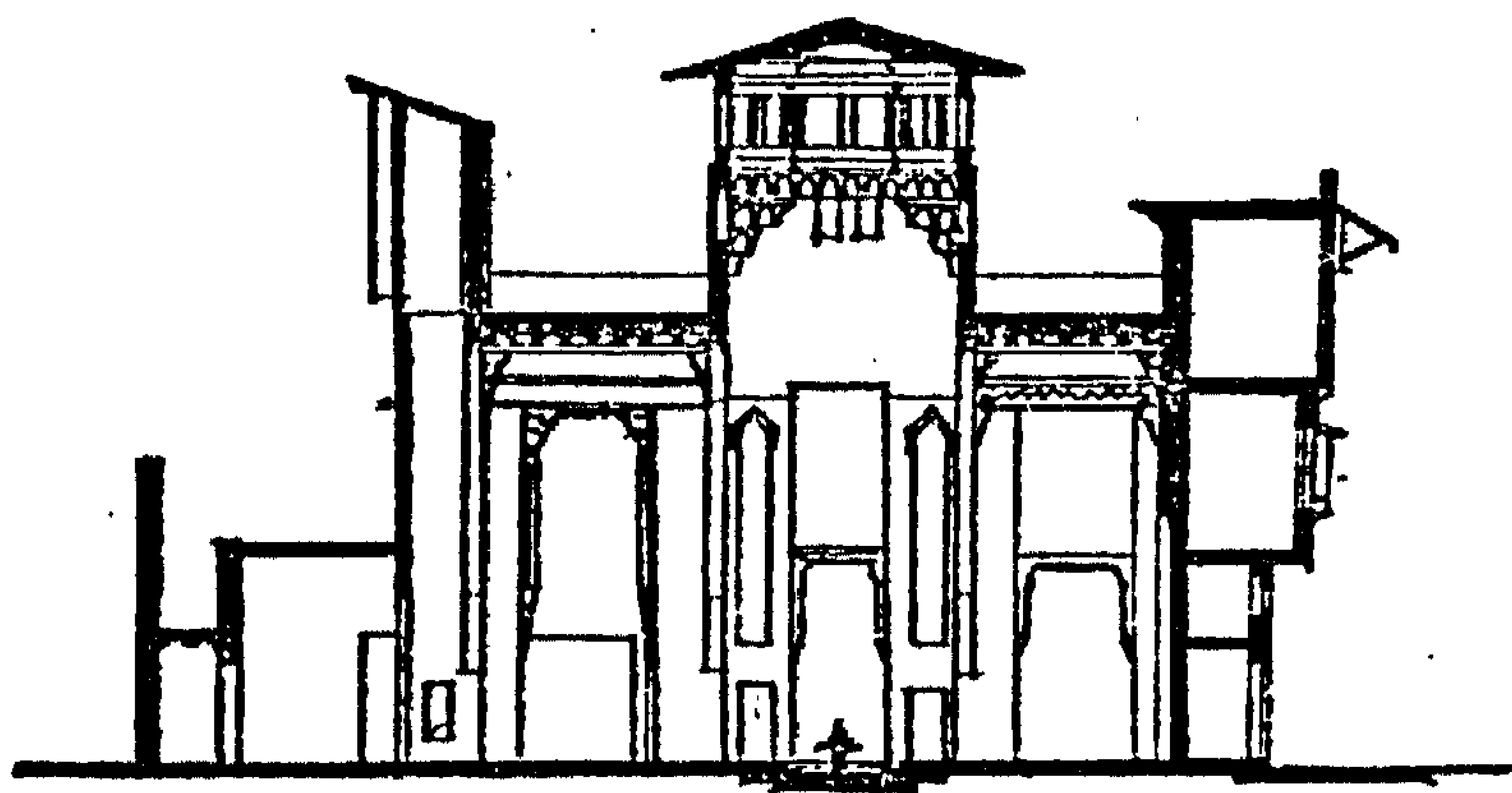
الى جانب ذلك فان مجموعة قصر الامير يوسف كمال بمنطقة نجع حمادى بصعيد مصر قد امتازت بمجموعة فريدة من تصميماته تعتبر تطور وتأثر من تراث العمارة الاسلامية بمصر الاسلامية.. فقد جمعت بين تصميمات سكنية ووحدات للسوق وعرض بعض السلع للبيع – فجاءت تصميمات جميلة ولو ان القائمين بتصميمها معماريون أجانب الجنسيه...



الكريدلية

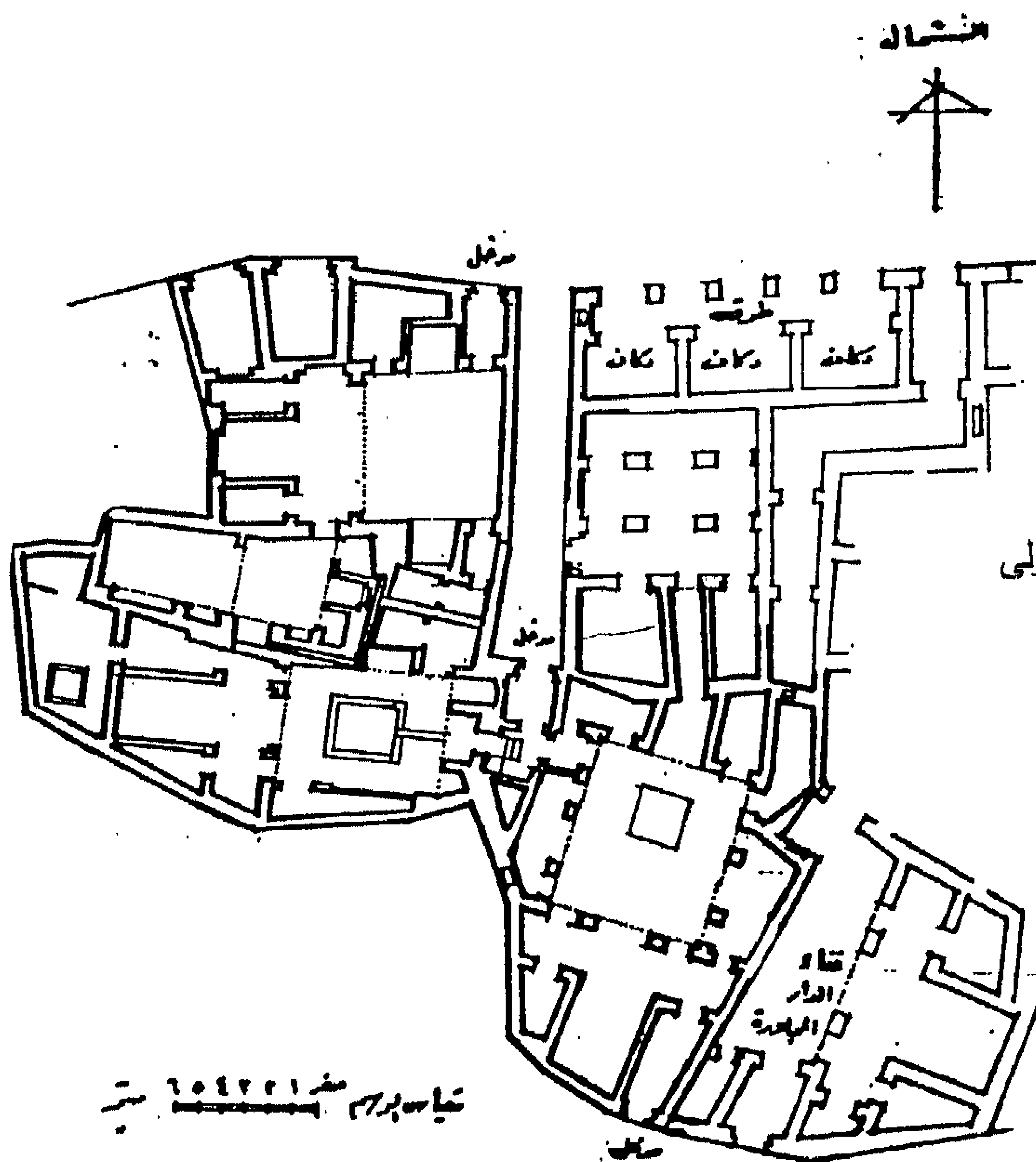


وكالة الغورى

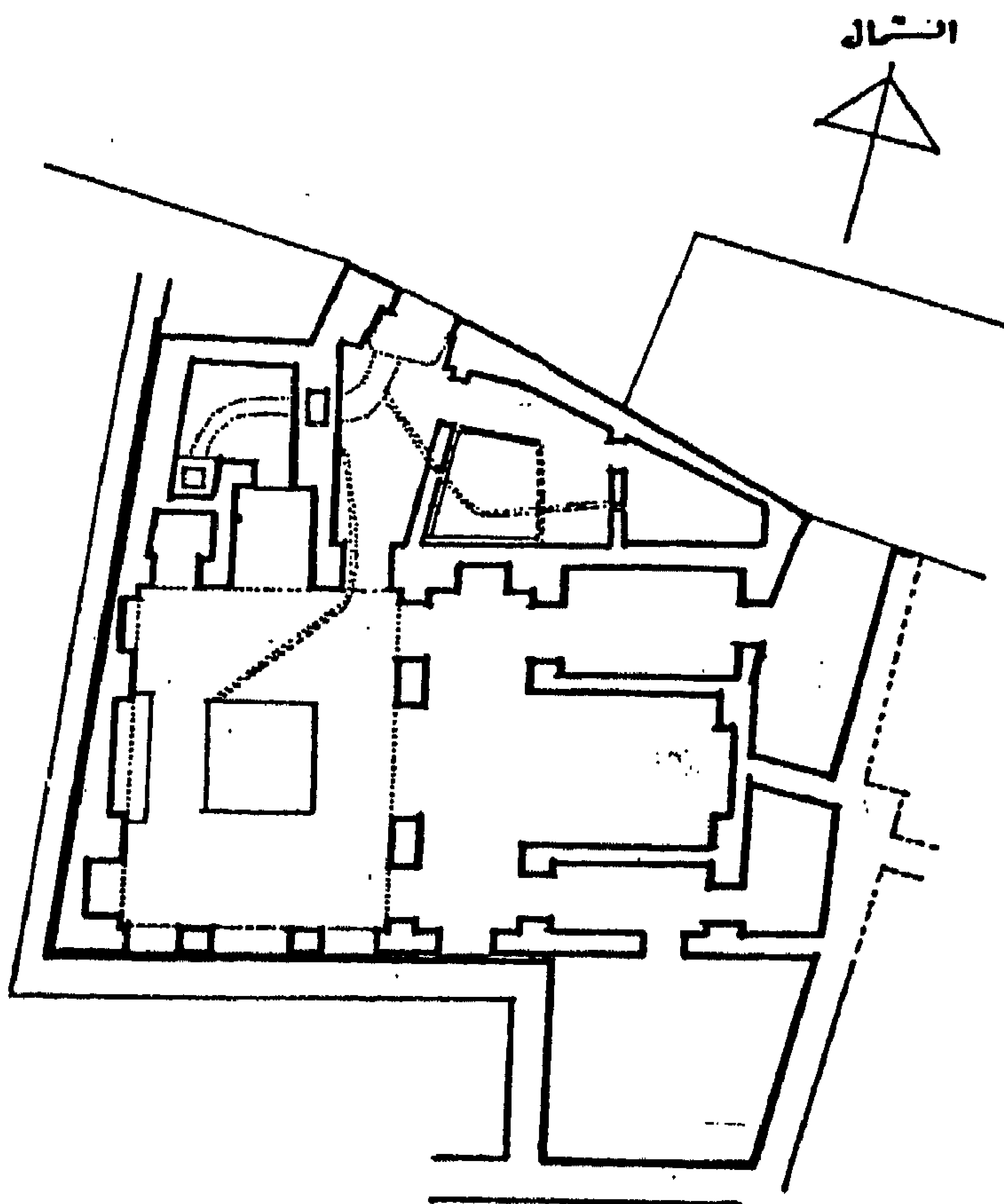


قطاع أ - أ
قاعة عثمان كتخدا
(عن د. كمال سامح)

مقياس الرسم صفر ٢ ٤ ٦ ٨ متر



المسقط الأفقى لمجموعة الدور الأولى
(حسب حالتها الأصلية)
(عن على بهجت)



المسقط الأفقى للدار الرابعة
(حسب حالتها الأصلية)
(عن على بهجت)

مقياس الرسم صفر ١ ٢ ٣ ٤ ٥ متر

اللوحة التأسيسية لسبيل المدرسة الطيبرسية
الملحقة بالجامع الأزهر ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م

أستاذ / مدحت المنباوى

تقع هذه المدرسه على يمين الداخل الى الجامع الأزهر، وقد أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار (١) نقيب الجيوش فى دولة الناصر محمد بن قلاوون زيادة فى الجامع الأزهر . وجعلها مقرا لدروس الفقهاء الشافعية وجعلها مسجداً لله تعالى، والحق بها ميضاه وحوض سبيل لشرب الدواب ، وأنتهت عمارتها فى سنه ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩م . ويذكر المؤرخ المقريزى أن الامير طيبرس عنى برخامها وتذهيب سقوفها بدرجة أن أحدا لا يمكنه محاكاة ما بها من صناعة الرخام الذى كان على شكل جميع أنواع المحاريب وقد الحق بها مكتبه .

محراب المدرسة :

وهو من الرخام الجزء الأسفل منه مكون من طاقات مقرنصة محمولة على اعمدة رخامية صغيرة ، لها تيجان رخامية أيضا ، وتواشيحها من رخام مدقوق به فروع زخرفية بارزة وباقى المحراب من رخام أبيض عليه أشكال زخرفية وحليت تواشيحه وأعلاه بفسيفساء مذهبة ، ولم يبق من زخرفته الا محراب قيم تزين جانبيه وزرتان رخاميتان ، كذلك بقيت للمدرسة شبابيكها النحاسية المفرغة بأشكال هندسية ، وتعتبر هذه الزخرفة ثانى نموذج من النحاس المصبوب ، اذ أن الاول نجده فى شبابيك قبة الصالح نجم الدين.

عمارة الامير عبد الرحمن كتخذا سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣م

وقد قام بتجديد واجهة المدرسة الطيبرسية وأبقى بها شبابيكها النحاسية ودائرة من القاشانى بها عبارة « الملك لله وحده» وأنشأ الباب الغربى الكبير بباب المزينين وهو محلى بكتابات وزخارف دقيقة من الحجر والرخام ، ويسترعى النظر فيها براعة الخطاط فى كتابة « الصلاة عماد الدين ، عجلوا بالصلاة قبل الفوات » بشكل زخرفى نادر ، وكان يعلوه كتاب وبهذا الباب ضمت المدرستان الطيبرسية والأقبغاوية الى الأزهر ، وقد زين هذا الباب ببعض الرخام المأخوذ من المدرسة الطيبرسية .

كشف اللوحة التأسيسية الرخامية لسبيل المدرسة الطيبرسية

أثناء قيام قطاع الاثار الاسلامية والقبطية بهيئة الاثار المصرية بأعمال ترميم واجهة باب المزينين بالجامع الأزهر عشر اثنان من الآثاريين (٢) وأثنان من المرممين (٣) فى يوم الأربعاء الموافق ١٩٨٣/١/٥ أثناء التنظيف الميكانيكى لواجهة باب المزينيين ودراسة الألوان الأصليه لها لأعادتها لأصلها ، وأثناء عملية الترميم الدقيق عثر على ظهر أحدى الحشوات أعلى باب المزينين وهذه الحشوة من الرخام المنياوى (أبيض مشبح بالأسود) ومقاساتها كما هو مبين شكل (١) .

السمك : يتراوح بين ٤سم ، ٣سم ، الطول : ٥٤سم (أقصى طول) ، العرض: ١٥سم

المحيط : ٤/١ الدائرة ٥٧ سم ومكان هذه الحشوة على وجه التحديد فى الربع الأيمن العلوى بعقد باب المزينين الأيمن ، والحشوة هى التوشيحة الرخامية اليمنى أعلى عقد الباب وهى أحدى العناصر الزخرفية الملونة) المكونة للزخارف أعلى باب المزينين وهو من اعمال الأمير عبد الرحمن كتخذا (١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م) ، وهكذا صار للتوشيحة وجه وظهر.

الوجه :

هذا الوجه هو الأحدث (عصر تركى) والمكمل لزخارف واجهة باب المزينين ، وهذه الحشوة الرخامية تمثل المساحة المحصورة بين الدائرة الداخلية ذات الدلاية الوسطى والمربع الخارجى الذى يحوى الحشوة ككل وتتخذ الحشوة السمة التركية الواضحة فى الزخرفة ، ويتضح ذلك فى وجود زهرة الكريزانتيم فى منتصف الحشوة ، وهى تتألف من أربع صفوف تلتف حول مركز الزهرة بحواف مفصصة تمثل البتلات مع ملاحظة أن الصف الأول من الداخل بتلاته ذات حواف مدببة وتخرج من هذه الزهرة ثلاثة أفرع نباتية رئيسية تلتوى فى انحناءات رشيقة لتملأ خلفية الزهرة بشكل يوحى بالأثراء السطحى متمثلا فى الأوراق العريضة التى تخرج من هذه الأفرع الرئيسية بعضها طويل والآخر قصير فى تناغم جميل موزع على أجزاء اللوحة كلها، ثم تتفرع بعد ذلك افرع أصغر وأصغر فى انحناءات للخارج والداخل فى ايقاع متنوع وتنتهى هذه الأخيرة بزهور أصغر من نفس النوع السابق وصفه ولكن نصف متفتحة ، كما نلحظ زهرة اللعل تخرج من نهاية أحد هذه الأفرع ، وتشغل أحد أركان اللوحة ، وكل هذه الزخرفة السابقة يحصرها اطار من زخرفة مثل حبات السبحة تحيط بها من الخارج مع ملاحظة أن كل الزخرفة محفورة حفراً بارزاً على الرخام ، ويظهر باللوحة كسر أعيد لصقه بطريقة خاطئة ، واللوحة مدهونة حديثا باللون الأخضر الزرعى . ويظهر تحته بقايا التذهيب (أعمال ترميم سابقة) .

الظهر :

وهو الأصلى (عصر مملوكى) والذى كان يلتصق بواجهة باب المزينين وغير ظاهر للعيان ويحوى خمسة أسطر بالخط النسخى الثلث المملوكى .

(١) السطر الأول :

بسم الله الرحمن الرحيم

وأعلى كلمة « الله» مفقود وأعلى كلمة « الرحمن الرحيم» مفقود وعلى جانبى البسملة محدد من الزاويتين ببقية اطار دائرى .

(٢) السطر الثانى :

أنشأ هذا السبيل المبارك (الـ ....) العبد ، ويلاحظ فى السطر الثانى أن حرف الألف من كلمة «أنشأ» وكذلك حرف الـ وهى المقصود بها « ... العبد » ، ومفقود من هذه الكلمة حرف « ع » و « الباء» وحرف « الدال» ، وهذا السطر محصوريين خطين مستقيمين بالحفر البارز وبسمك اسم .

(٣) السطر الثالث :

ويقرأ النص « الفقير الى الله تعالى (أأأ) » ، ويلاحظ على هذا السطر أن الكلمة التى بعد كلمة تعالى لا يظهر بها الا ثلاثة « ألفات» وبقية الكلمة مفقودة.

(٤) السطر الرابع :

« طيبرس رحمة الله » ويلاحظ ان نصف حرف (الطاء) مفقود وحرف « الراء » الخاص «برحمة » ، ويظهر بقايا تجويفه فى الرخام ، وهذا السطر محصور بين مستقيمين بالحفر البارز بسمك اسم ويمتد من اليمين الى اليسار .

(٥) السطر الخامس :

ويظهـر به رأس حـرف « الواو» وحـرف « الذال » و ويظهـر على هذا النص بقـايا خـفـيـفـة للون البرتقالى على زوايا الحروف ، ويظهر فى هذا النص صراحة أن هذه التوشيحة الرخامية ما هى الا نص انشاء السبيل الخاص بالأمير علاء الدين طيبرس الذى أنشأ المدرسة الملحقة بالجامع الأزهر .

وأعاد الأمير عبد الرحمن كتخذا استخدام هذه اللوحة الرخامية مرة أخرى فى تزيين واجهة بب المزينين ولما كان السبيل الذى أنشأه الأمير علاء الدين طيبرس سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ - ١٠ م) قد أندثر ، ولم يبقى منه شيئا غير هذه اللوحة الرخامية التذكارية ، والتى بها اسم المنشئ بذلك يتضح أهمية أكتشافها كأثر متبقى من مبنى معمارى أثرى زالت معالمه .

* * *

الهوامش

(١) الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري هو « طيبرس» بن عبد الله الوزيري كان في ملك الأمير بدر الدين يلبك مملوك الخازندار الظاهري نائب السلطنة ، ثم انتقل الى الأمير بدر الدين بيدرا ، وتنقل في خدمته حتى صار نائب الصبيبة ، ولما تولى السلطان المنصور لاجين سلطنه مصر ، ولاه نقابة الجيش بمصر سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨م واستمر فيها حتى توفى في سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م ودفن بمدرسته .

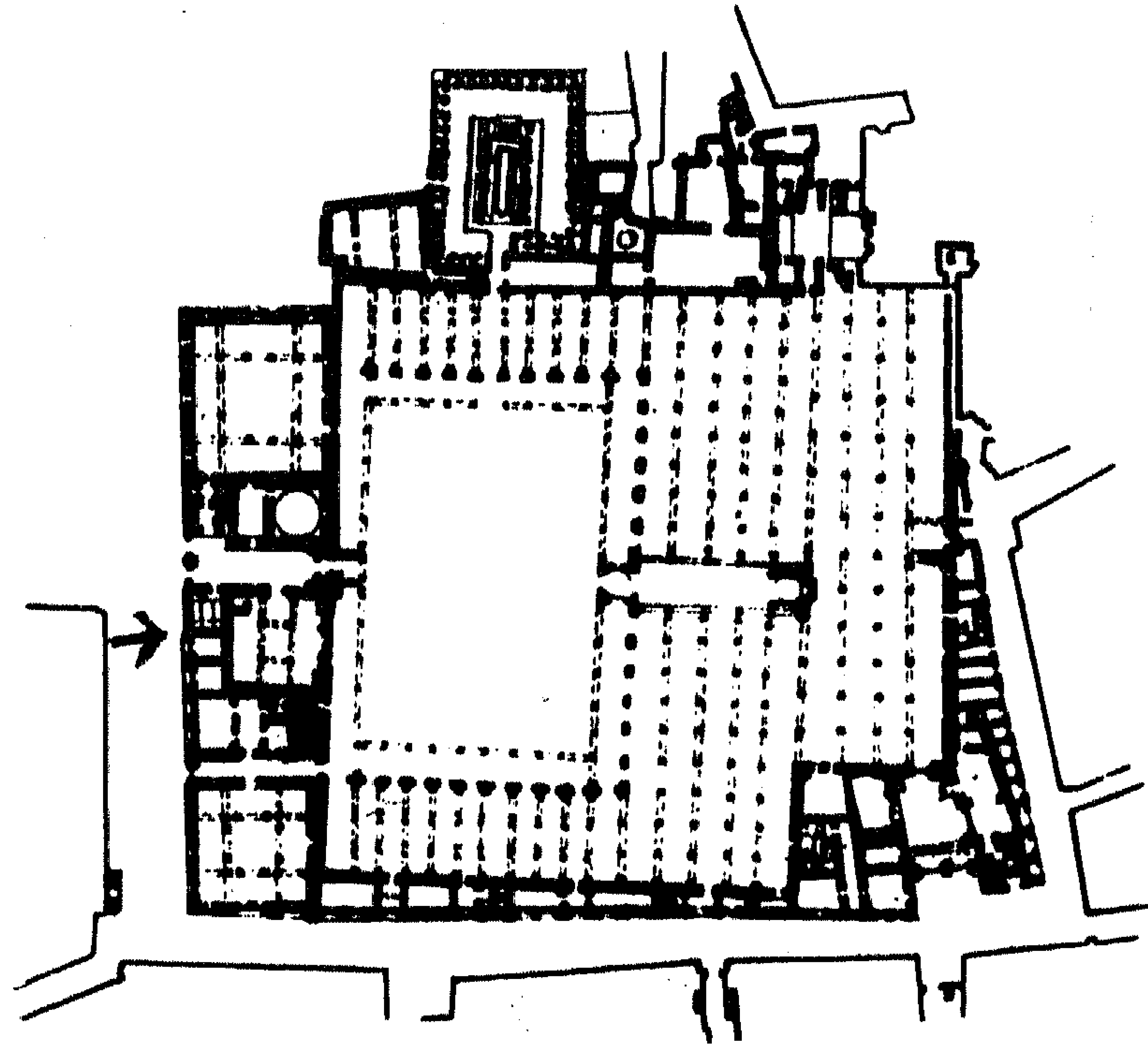
(٢) الاثاري السيد/ مدحت المنباوي بقطاع الاثار الأسلامية والقبطية

الاثارية السيدة / نشوى حسين ابراهيم بقطاع الاثار الأسلامية والقبطية

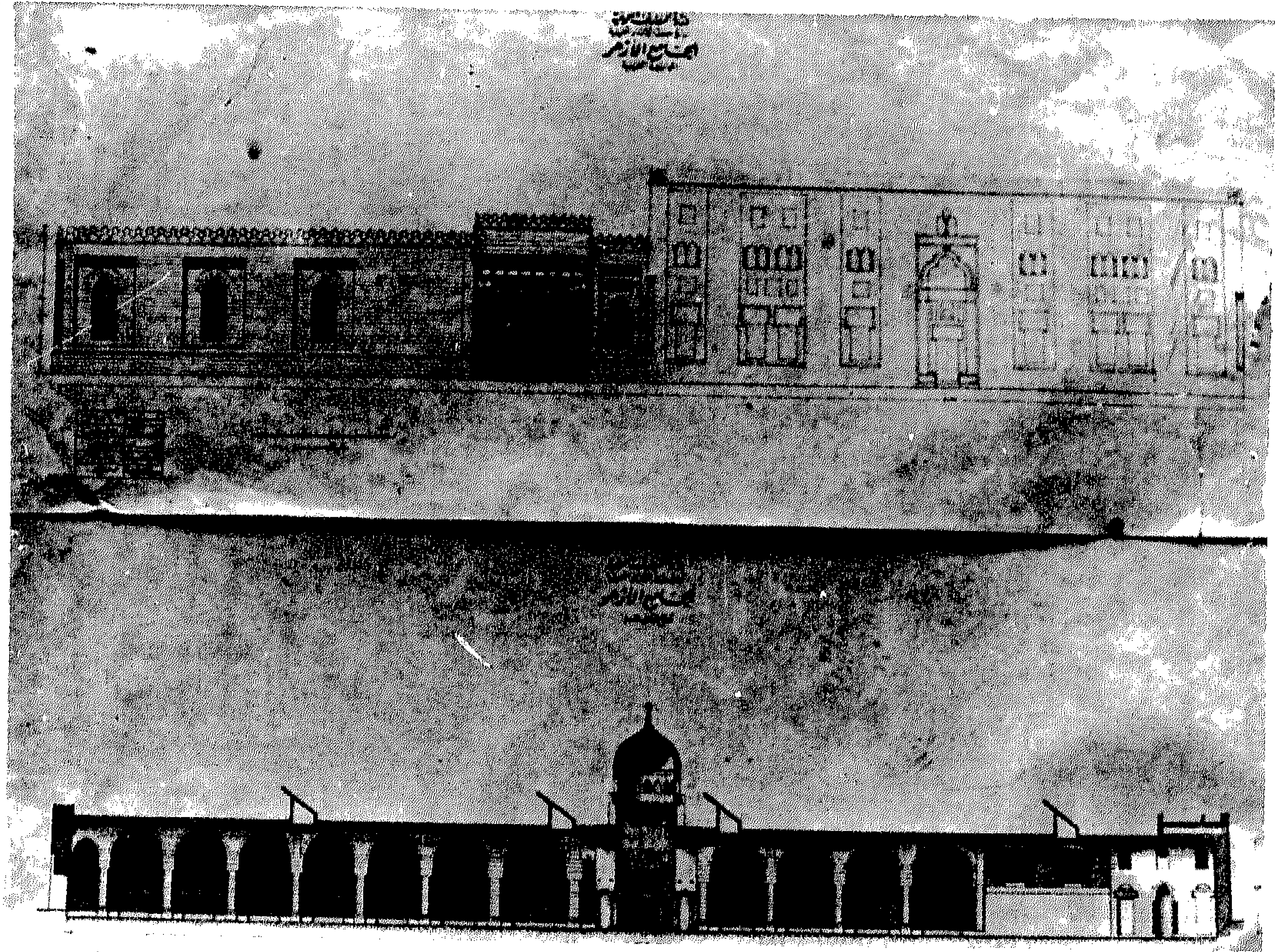
(٣) المرمم أحمد حميدة بقطاع الاثار الاسلامية والقبطية

المرمم عصام ناصف بقطاع الاثار الاسلامية والقبطية

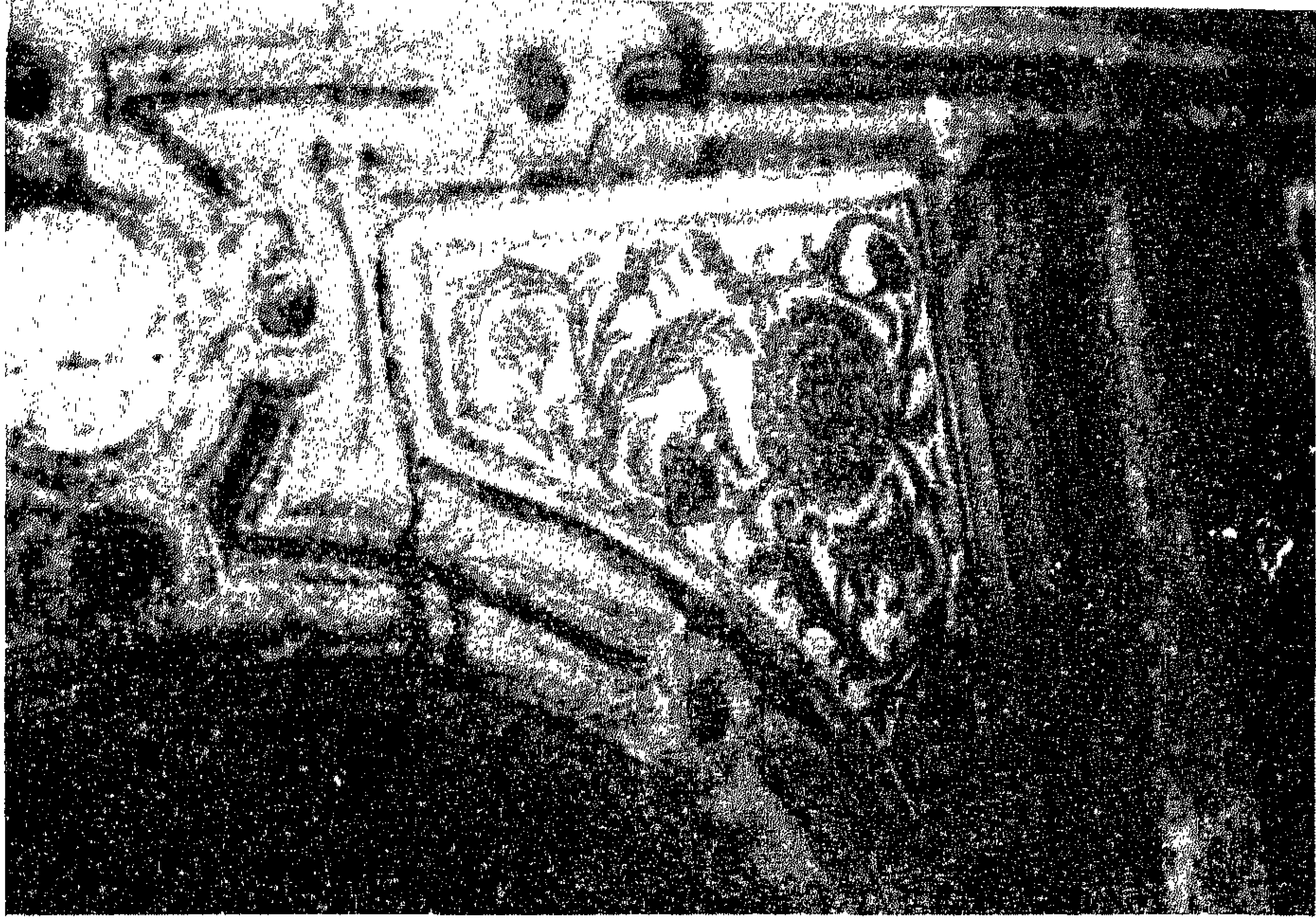
* * *



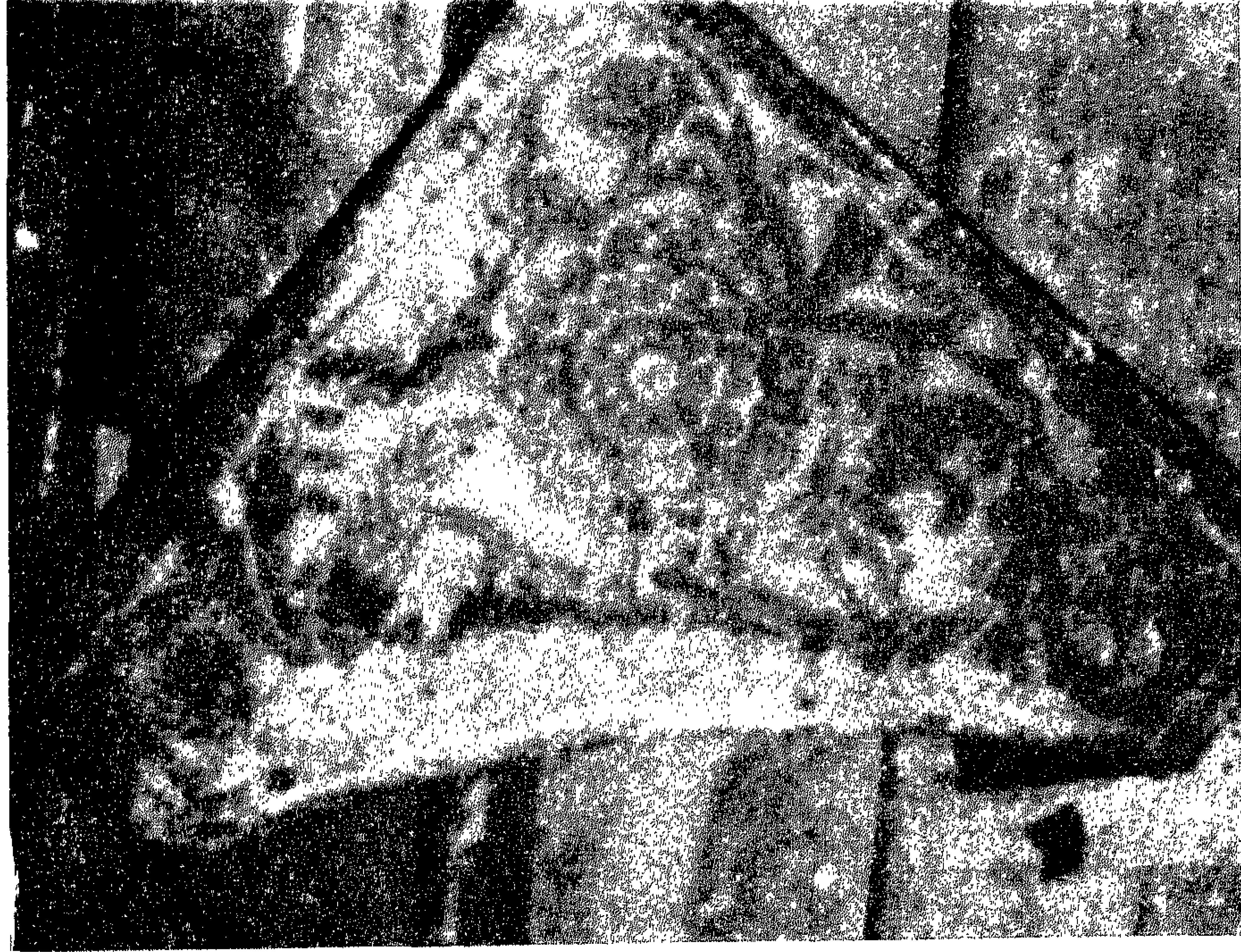
(١) مسقط للجامع الأزهر والسهم يشير لمكان المدرسة الطيبرسية



(٢) الواجهة الغربية للجامع الأزهر وبها باب المزينين وإلى يمينه الشباكين لواجهة المدرسة الطيبرسية



(٣) الحشوة الرخامية أعلى باب المزينين قبل اكتشافها



(٤) وجه الحشوة الرخامية أعمال الأمير عبد الرحمن كتخدا ١١٦٧هـ/١٧٥٣م



(٥) ظهر الحشوة الرخامية وعليها نص انشاء سبيل المدرسة الطيبرسية
أعمال الأمير علاء الدين طيبرس ٧٠٩هـ/١٣٠٩م



(٦) الحشوة الرخامية الجديدة بعد تركيبها بباب المزينين

مصلى المؤمنى بالقاهرة

محمد حمزة اسماعيل الحداد
المدرس المساعد بكلية الآثار جامعة القاهرة

مقدمـــة

لم تكن العمارة الاسلامية مجرد عمائر قائمة الاركان تشهد بهمة بنائيها وروعة بنيانها وعلو كعب مصمميها وربما كانت علاوة على ذلك دوحة عظيمة متنوعة الطرز والاهداف والمقاصد والغايات .

ويعتبر المصلى الجنائزى [١] فرعا من هذه الدوحة ، وقد نهض بدور جليل الشأن عظيم الأثر فى حياة المجتمعات الاسلامية فى العصور الوسطى . وينبغى قبل ان نستعرض هذا ان نشير بادئ ذى بدء إلى أنه تجوز الصلاة على الجنازة فى المسجد ولكن الأفضل الصلاة عليها خارج المسجد فى مكان معد لذلك كما كان الأمر على عهد النبى صلى الله عليه وسلم [٢] . ومما يدل على جواز الصلاة على الجنازة فى المسجد مارواه مسلم عن بعض الرواه من ان السيدة عائشة رضى الله عنها «أمرت ان يمر بجنازة سعد بن أبى وقاص فى المسجد فتصلى عليه فأنكر الناس ذلك عليها فقالت ما أسرع مانسى الناس ماصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سهيل بن البيضاء إلا فى المسجد»[٣] وفى رواية أخرى «إلا فى جوف المسجد» [٤] .

ويذكر الأزرقى إنه توجد ثلاثة ابواب يصلى فيها على الجنائز فى مكة المشرفة وهى «باب العباس بن عبد المطلب ويعرف بباب ، بنى هاشم فيه موضع قد هندم للجنائز لتوضع فيه ومنها باب بنى عبد شمس وهو باب بنى شيبة الكبير ومنها باب الصفا وفيه موضع قد هندم أيضا فوضع فيه الجنائز» [٥] .

وكان يوجد بدمشق مساجد للجنائز ومنها مسجد على الباب الشرقى على بابه بئر وليس له سقف بالاضافة إلى مسجد أخر على ضفة نهر المجدول [٦] .

أما جامع الجنائز ببغداد فقد بقيت منارته «بلصق تربة معروف الكرخى بالجانب الغربى» [٧] . وفى مصر كان يصلى على الجنائز فى عدة جوامع من أهمها الجامع العتيق «جامع عمرو بن العاص بالفسطاط» [٨] والجامع الأزهر بالقاهرة [٩] .

أما بالنسبة للصلاة على الجنازة خارج المسجد فى مكان معد لذلك فقد رويت فى هذا الصدد عدة أحاديث منها عن ابن عمر رضى الله عنهما «ان اليهود جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم برجل منهم وامرأة زنيا فأمر بهما فرجما قريبا من موضع الجنائز عند المسجد» . ومنها عن أبى هريرة رضى الله عنه «ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النجاشى فى اليوم الذى مات فيه فخرج إلى المصلى فصف بهم وكبر أربعا»وقال الحافظ فى الفتح «ان مصلى الجنائز كان لاصقا بمسجد النبى صلى الله عليه وسلم من ناحية جهة المشرق» وقال فى موضع آخر «والمصلى المكان الذى كان يصلى عنده العيد والجنائز وهو من ناحية بقيع الفرقد» [١٠] .

ويعرف هذا المصلى حاليا بمسجد المصلى أو مسجد الغمامة ويقع فى جنوب غرب المناخة وقد بنى مسجدا فى القرن ٢ هـ / ٨م وعمره بعد ذلك كل من السلطان حسن والأمير بردبك المعمار والسلطان عبد المجيد العثمانى والسلطان عبد الحميد الثانى ثم جدد بعد ذلك فى العهد السعودى ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤م [١١] .

ومن مصليات الجنائز فى الغرب الاسلامى المصلى الملحق بكل من مسجد الأندلس بفاس ومسجد القرويين بفاس أيضا (١٢).

أولا : مصليات الجنائز بالقاهرة :

نهضت مغاسل الموتى ومصليات الجنائز بدور جليل الشأن عظيم الأثر فى حياة المجتمع القاهرى ذلك أن الموتى كانوا يحملون إلى مثل هذه المغاسل ليغسلوا فيها حسب الشريعة الاسلامية ، ويجهزوا بها للدفن ، ثم يصلى عليهم صلاة الجنازة بالمصليات المعدة لذلك سواء أكانت ملحقة بالمغاسل أو مستقلة بذاتها وتوجد قريبة منها ثم ينقلون بعد ذلك إلى المقابر .

ومن الطبيعى أن مثل هذه المغاسل وتلك المصليات كانت تتضح أهميتها ويبرز دورها ويشتد الطلب على بنائها اثناء وبعد حدوث المجاعات والأوبئة وخاصة وباء الطاعون وما كان يصاحب ذلك من انتشار الأمراض وكثرة الوفيات بدرجة كبيرة(١٣) .

وتزخر المصادر التاريخية بأمثلة كثيرة تصور لنا ذلك تصويرا لايكاد يخلو فى بعض الأحيان من المبالغات الواضحة من ذلك أن الناس كانوا يتساقطون بالعشرات فى الطرقات وتصبح الأموات على الأرض لايوجد من يدفنها ، وأحيانا كانت تخلو الشوارع من المارة لكثرة من يموت منهم ، وأحيانا أخرى كان يعز وجود النعوش التى تحمل عليها الموتى ، فتحمل اكثر من جثة فى نعش واحد أو يحمل الموتى على مصاريع الحوانيت والواح الخشب والأقفاص وغير ذلك ، وكانت هذه النعوش ترى فى الشوارع وكأنها قطارات الجمال لكثرتها .

وكان الناس الذين يعجزون على دفن موتاهم يبيتون بهم فى المقابر والحفارون يحفرون طول ليلتهم فيعملون حفائر كثيرة تلقى فى الحفرة منها العدة الكثيرة من الأموات (١٤).

وكنتيجة لما سبق كان يشتد الطلب على قراء القرآن الكريم بصورة كبيرة لدرجة أن كثيرا من الناس ابطلوا صناعاتهم وانتدبوا للقراءة امام الجنائز ، (١٥) كما اشتغل افراد آخرون ببناء القبور بالطين وإصلاح المتهدم منها ، واحترف البعض الآخر تغسيل الموتى وتجهيزهم ، وآخرون لحملهم إلى المقابر ، كانت ترتفع أثمان الثياب التى تكفن بها الأموات لكثرة الطلب عليها (١٦) .

هذا وقد حرص كثير من السلاطين والامراء ومن نهج نهجهم من ذوى الجاه والنفوذ واهل اليسار على تخصيص الاوقاف المغلة من أجل تغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم أو بناء مغاسل ومصليات تؤدى غرض غسل الموتى وتجهيزهم والصلاة عليهم وتزخر المصادر التاريخية وحجج الوقف بأمثلة كثيرة توضح لنا ذلك أشد الوضوح ، ونكتفى هنا بإبراز بعض النماذج . من ذلك وقف الطرحاء الذى وقفه السلطان الظاهر بيبرس البند قدارى من أجل تغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم وهو من اكثر الاوقاف نفعا على حد قول المقريزى (١٧).

وتحدد لنا وثيقة السلطان حسام الدين لاجين الخاصة بعمارته للجامع الطولونى مقدار مايصرفه ناظر الوقف برسم «تجهيز من يموت من الفقراء والمساكين فى خط الجامع المذكور من المسلمين فى كل شهر من الشهور مقدار ثلثماية درهم نقرة يصرف من ذلك فى ثمن كفن للميت وما يحتاج اليه لتغسيله وتكفينه ... بالقبة المجاورة للفسقية التى فى زيادة الجامع البحرية ...» (١٨) .

وحدث عقب الوباء الأسود الذى اجتاح البلاد ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م أن قام الأمير شيخو والأمير مغلطاى امير آخور بتغسيل الناس وتكفينهم ودفنهم (١٩). ويذكر ابن داود الصيرفى أن الأمير يحيى زين الدين «عمر المغاسل والأكفان والأموات فى الفصول فصاروا يغسلون ويكفنون ويدفنون من وقفه» (٢٠) ويذكر فى موضع آخر أنه «عمل معروفا زائداً فى الفضل من مغسل واكفان ومواراة الميت برمسه من الحمالين والحفارين وغير ذلك» (٢١).

ومن أشهر المغاسل ذلك الذى أمر ببنائه الأمير يشبك من مهدى ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨م «لأجل الأموات الفقراء والغرباء بل وغيرهم كافة فحملوا له الخلق الأموات من كل فج وأقام به كتابا يضبطون الاموات وصار يغسلهم ويكفنهم ويحملهم من ماله ليدفنهم فى المقابر» (٢٢).

أما عن المصليات فقد انتشرت بمدينة القاهرة انتشارا كبير اسواء بالقرافة أو خارج اسوار القاهرة وبواباتها .

ونذكر من مصليات القرافة مصلى خولان ، ومصلى المعافر ، ومصلى بنى مسكين ، ومصلى الشريفة ، ومصلى الفتح ، ومصلى عقبة القرافة ومصلى الاطفيحى ، ومصلى الجرجانى ، ومصلى جهة العادل أبى الحسن بن السلاروزير مصر (٢٣) .

وكان يوجد خارج اسوار القاهرة وبواباتها عدة مصليات نذكر منها مصلى خارج باب النصر(٢٤) وبعض مصليات خارج باب زويلة ومنها مصلى فى مقابلة باب جامع قوصون بالسروجية حاليا - وقد بنى محله الأمير جانم البهلوان جامعا سنة ٨٨٣ هـ / ١٤٧٨م (٢٥)، ومنها مصلى البياطرة (٢٦)، ومصلى تجاه المدرسة المهمندارية (٢٧) ، ومنها أيضا مصلى باب الوزير (٢٨) ، ومصلى الجوينى (٢٩)، ومصلى المؤمنى موضوع البحث وغير ذلك .

وقد ذكر المؤرخون أن عدة مصليات الأموات بالقاهرة بلغت نحو سبعة عشر مصلى وفى قول آخر تسعة عشر مصلى (٣٠)، إلا أنه لسوء الحظ اندثرت جميع هذه المصليات ولم يعد منها سوى بقايا مصلى المؤمنى موضوع البحث ، وترجع هذه البقايا إلى عهد السلطان قانصوه الغورى وبالتحديد سنة ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م ، وقد أصبح هذا المصلى مجرد مسجد صغير تؤدى فيه الصلاة.

الدراسة التاريخية والاثرية لمصلى المؤمنى

الموقــع :

يقع هذا المصلى حاليا على يسار المار فى أول شارع السيدة عائشة رضى الله عنها بحى الخليفة بالقاهرة ، أما موضعه قديما فقد حددته الوثيقة (٣١) بأنه كان «بظاهر القاهرة المحروسة سفل قلعة الجبل المحروسة بظاهر الميدان السلطانى بالرميلة (٣٢) قريبا من باب (٣٣) السلسلة (٣٤).

المنشــئ :

أمر بإنشاء هذا المصلى والسبيل الذى كان مجاورا له الأمير بكتمر المؤمنى أمير آخور السلطان الملك الاشرف شعبان بن حسين ، كان قد ولى ولاية الاسكندرية ثم نيابة حلب ولم تطل مدته بها ،

وسجن عام ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م ، ثم اطلق ونفى الى اسوان ثم اعطى طبلخاناه بعد قتل اسندمر واستقر اميراخور ، ثم اعطى تقدمة وقد وصفه ابن حبيب بصعوبة الاخلاق والمهابة فى المباشرة ، وكانت وفاته فى المحرم سنة ٧٧١هـ / ١٣٦٩م (٣٥).

وعلى الرغم من أن يد التعمير والتجديد قد مست هذا المصلى أكثر من مرة خلال العصر المملوكى إلا أنه ظل يعرف وينسب لمنشئه الأول فكان يقال مصلى المؤمنى أو سبيل المؤمنى أو مصلى المؤمنين أو سبيل المؤمنين وذلك خلال العصر المملوكى وعرف كذلك فى العصر العثمانى (٣٦). أما على مبارك فقد ذكره باسم جامع المؤمنين أو جامع المتولى أو جامع الغورى (٣٧). وهذه التسمية الأخيرة هى التى لصقت بالمصلى وسجلت فى فهرست الاثار الاسلامية بالقاهرة ويرجع ذلك بطبيعة الحال ان البقايا الحالية ترجع إلى عهد السلطان الغورى كما اسلفنا القول.

المراحل التاريخية المختلفة للمصلى :

ظل مصلى المؤمنى منذ انشائه هو المصلى الرسمى للأموات خلال العصر المملوكى وكان يصلى فيه على الخلفاء العباسيين وقضاه القضاة والشيوخ والامراء والشهيرات من النساء ثم يتجه موكب الجنازة بعد الصلاة إلى (٣٨) المقابر أما صلاة الجنازة على السلاطين فكانت تتم بالقلعة .

وقد تعرض مصلى وسبيل المؤمنى منذ انشائه لما تتعرض له المنشآت عادة من تخريب أو تدمير او حريق لسبب قربه من القلعة مقر الحكم وكرسى السلطنة ومن ثم كان يعاد تعميره من جديد . ومن امثلة ذلك ما حدث فى شهر رجب ٨٥٩ هـ/١٤٥٤م عندما قام الخليفة العباسى حمزة فى سلطنة الأشرف اينال «قياما عظيما وخلع الملك المنصور من السلطنة قبل ان ينكسر وأمر بحرق سبيل المؤمنى حتى اخذوا الميدان» (٤٠).

وفى عام ٨٧٣هـ /١٤٦٨م تم تجديد المصلى على يد الأمير يشبك من مهدى (٤١). وفى واقعة آقبردى الدوادار سنة ٩٠٢هـ حدث أن «توجهت طائفة من المماليك الى سبيل المؤمنى فأحرقوه»(٤٢). وفى سنة ٩٠٣هـ عندما كثر الموت فى الناس رسم السلطان الناصر محمد بن قايتباى بعمارة سبيل المؤمنى وكان خرابا منذ حصار آقبردى للقلعة (٤٣) .

وفى صفر ٩٠٩هـ أمر السلطان الأشرف قانصوه الغورى بعمارته عمارة حافلة فجدد ايوان المصلى حيث عقد سقفه بالحجر النحيت وانشأ إلى جانبه حوضا وساقية ومغسلتين برسم الأموات من المسلمين أحدهما للرجال والآخر للنساء إلى جانب ميضأة وسبيل ذى شباكين وغير ذلك مما ينتفع به (٤٤) .

وفى سنة ١٣٥٥هـ قام أهالى وتجار شارع السيدة عائشة باكتتاب عام فيما بينهم جمعوا فيه مبلغا من المال مكنهم من إحداث دورة مياه صحية بالجانب القبلى من خارج المسجد (ويقصد ايوان القبلة) وتبليط فنائه إلى جانب احداث منبر قصير وكرسى وصندوق كما تم اصلاح واجهة المدخل الرئيسى للمسجد وعين له إماما خطيبا وخادما وتم فرشه بالحصر وإنارته بالغاز وقامت لجنة حفظ الاثار العربية بترميم عقود ايوان القبلة (٤٥) .

الوصف المعمارى للبقايا الحالية :

لم يتبق من هذا المصلى سوى إيوان القبلة والساحة المكشوفة التى تتقدمه وعلى يمينها ميضأة ومرحاضين مستحدثين وأخيرا المدخل الرئيسى الحالى للمصلى .

المدخل :

يقع هذا المدخل فى الواجهة الشمالية الغربية وهو فى دخلة قليلة العمق مشطوفة من أعلى ، ويتوسط الدخلة باب الدخول ويعلوه عتب مستقيم فنفيس فعقد عاتق من صنجات مزررة تزريرا مركبا ، ويحدد كل من العتب والنفيس والعقد العاتق جفت لاعب ذو ميمات مستديرة . (لوحة ١) .

ويلى المدخل ردهة صغيرة مكشوفة بها سلم يوصل الى ساحة مكشوفة تتقدم ايوان القبلة ويوجد على يمين الساحة ميضأة ومرحاضان سبق ذكرهما .

ايوان القبلة : (شكل ١ ، ٢)

يتكون هذا الايوان من مساحة مستطيلة ٢٠ر١١م × ٩٠ر٢٨ ، وقد قسمت هذه المساحة بواسطة بائكتين إلى رواقين موازيين لجدار القبلة وتتكون كل بائكة من ثلاثة عقود مدببة موازية لجدار القبلة ترتكز على دعامات مختلفة المسقط فى الوسط وفى الجانبين ، وتنطلق من قمم هذه الدعامات أيضا عقود عمودية على جدار القبلة مما نتج عنه وجود ثلاث مربعات بكل رواق من رواقى الايوان.

وقد اختلفت تغطية الرواقين إذ يغطى مربعات الرواق الأول مما يلى جدار القبلة ثلاث قباب ضحلة مقامة على مثلثات كروية [٤٦] (لوحه ٢ ،٣) . أما مربعات الرواق الثانى فيغطى المربع الأوسط منها المواجه للمحراب قبة ضحلة مقامة على مثلثات كروية أيضا ، بينما يغطى المربعين الجانبيين من هذا الرواق قبوان مروحيان [٤٧] (لوحة ٤ ,٥) بواقع قبو مروحى لكل مربع . يتوسط قبو المربع الأيمن منهما دائرة شغل داخلها بزخارف مشعه ، بينما يتوسط قبو المربع الأيسر شكل مثمن شغل داخله بزخارف مشعة أيضا .

هذا ويوجد بالركن الشمالى من الضلع الشمالى الشرقى دخلة معقودة بعقد مدبب (مسدودة حاليا)

المحراب : (لوحات ٦ ـ ٨) ـ (شكل ٢)

يتوسط صدر الايوان وهو عبارة عن حنية نصف دائرية تعلوها طاقية مدببة العقد تتقدمها دخلة معقودة بنفس العقد كانت ترتكز على عمودين حيث لايزال يوجد التجويف الخاص بهما ، وتوجد ميمة بأعلى قمة عقد الدخلة التى تتقدم عقد طاقية المحراب . هذا ويخلو المحراب من الزخارف إلا أنه توجد بأعلى المحراب عبارة (الله حق) ، وكان يشغل كوشتى المحراب رنكان بإسم السلطان الغورى [٤٨] ومثلهما على واجهة الايوان .

مادة البناء :

بنى هذا الايوان بالحجر الفص النحيت المشهر بالأبيض والأحمر ، بينما فرشت أرضيته بالبلاط الكدان [٤٩] .

الساحة المكشوفة :

يتقدم الايوان من الجهة الشمالية الغربية ساحة مكشوفة ذكرت الوثيقة أنها كانت «بسطة كبرى كشف سماوية مفروشة الأرض بالحجر النحيت الأبيض محوطة بالبناء تجاه البسطة المذكورة ايوان كبير بصدره محراب ، يشتمل على بايكتين بكل بايكه ثلاثة عقود مغالى» (٥٠).

ويستدل من ذلك على أن الايوان كان يشرف على الساحة المكشوفة ببائكة من ثلاثة عقود لم يتبق منها سوى عقدين مدببين يحدد صنجهما إطار حجرى بارز قليلا يأخذ نفس الهيئة المدببة للعقدين . (لوحة ٦) ، (شكل ٣)

هذا ولايزال يوجد بكوشة العقد الأيسر من الجانب الشمالى بقايا رنك كتابى يقرأ منه فى الشطب (لمولانا السلطان) وفى الجزء الاسفل (عزٌ نـ ...) ومن الطبيعى أن هذه البقايا تمثل رنك السلطان الغورى الذى كان موجودا على هذه الواجهة وفى كوشتى المحراب كما سبق القول ، وقد جرت العادة ان تكون صيغة هذا الرنك على النحو التالى :



وبالضلع الجنوبى الغربى للساحة المكشوفة توجد ميضأة ومرحاضان مستحدثان سبق ذكرهما ، أما الميضأة القديمة فسوف نذكرها ضمن ملحقات المصلى المندثرة .

ملحقات المصلى المندثرة :

لم يتبق من هذه الملحقات شئ يذكر ، الا أنه اعتماداً على الوثيقة يمكن تحديد هذه الملحقات وذلك على النحو التالى :

- «حوض مسبل برسم سقى الدواب وانتفاع الناس مسقف عقداً (٥١) » وكان يوجد على يمين المصلى من الجهة الغربية بالواجهة البحرية .
- «ميضأة بها فسقية مثمنة بمزاريب ضفية نحاساً علوها عقد حجر نحيت محمول على أربعة أعمدة صوانا وذات المراحيض الدايرة وعدتها ثلاثة عشر على كل منها فروة باب خشبا نقيا وذات المنافع والمرافق والحقوق» . وكانت هذه الميضأة توجد فى الضلع الجنوبى الغربى من البسطة الكشف السماوى ، وقد حل محلها الآن دورة مياه بسيطة سبق ذكرها .
- «رحاب سماوى به ايوانا مسقف كل منهما عقداً وبه ثلاثة أبواب أحدها حاصل والاثنان الباقيان مغسلان أحدهما برسم الرجال والآخر برسم النساء ومسقف كل من ذلك عقداً» . ولعل هذين المغسلين كانا يوجدان بالضلع الجنوبى الغربى من المصلى .

- «أربعة أروقة مسقف كل منها عقد مطل على الرميلة ذات المنافع والمرافق والحقوق» .

- سبيل ذو شباكين مجرى وشرقى ويوسطة خرزة رخاماً على صهريج مبنى فى تخوم الارض برسم جمع الماء فيه وبه باب يدخل منه إلى حاصل لطيف وهو مسقف عقداً مفروش بالبلاط (٥٢).

شروط الوقف :

- وقف السلطان الاشرف قانصوه الغورى هذه المنشأة لله سبحانه وتعالى وجعل الايوان الذى بصدره المحراب مسجداً لله تعالى وبيتا من بيوته تقام فيه الصلوات الخمس المفروضات ويعتكف فيه على لزوم الطاعات وينتفع به وبالبسطة التى امامه فى الصلاة على أموات المسلمين .

- وجعل الميضأة التى بجوار المصلى من الجهة الغربية معدة للانتفاع بها فى إزالة الخبث والحدث وتحصل الطهارة الشرعية على العادة فى مثل ذلك .

- جعل المغسلين معدين لتغسيل الرجال والنساء من أموات المسلمين ، وجعل الحاصل الذى بجوارهما معداً لحفظ مايحتاج اليه من الأكفان وآله التحميل على العادة فى مثل ذلك

- جعل الصهريج المبنى فى تخوم الأرض معداً لجمع الماء فيه فى زمن زيادة النيل المبارك لينتفع الناس بتسبيله عليهم فى بقية أيام العام على العادة فى ذلك ، وجعل السبيل الذى به الشباكين معداً لنقل الماء اليه من الصهريج وتسبيله فى الشباكين المذكورين على العادة فى مثل ذلك .

- جعل حوض سقى الدواب معداً لانتفاع الناس به فى سقى دوابهم والوضوء والاغتسال وغير ذلك مما جرت العادة به فى مثل ذلك .

- جعل الأروقة والحوش ومعالم الرواق الذى لم تكمل عمارته وفقا على من يكون سكنا لامام المسجد (٥٣) .

أرباب الوظائف وأوجه الصرف :

- الامام : ووظيفته أن يؤم الناس فى الصلوات الخمس وفى صلاة الجنازة عند حضورها إلى المصلى ، واشترط الواقف أن يكون رجلا من أهل الخير والديانة والعفة والأمانة عالماً بما لاتصح الصلاة الا به قراءة ، ويتقاضى مبلغ مائة درهم أو مايقوم مقامها من النقود عند الصرف .

- المؤذن : يتولى الآذان واقامة الصلوات وتبليغ التكبير خلف الأمام ، وأشترط الواقف أن يكون من أهل الخير والديانة حسن السيرة والصوت ، ويتقاضى ٤٥٠ درهماً أو ما يقوم مقامها من النقود عند الصرف .

- يصرف مبلغ الف درهم نصفها خمسمائة درهم أو ما يقوم مقامها من النقود عند الصرف لنفرين من أهل العفة والأمانة والنهضة والقوة يقررهما الناظر فى وظيفة الفراشة والوقادة والخدمة فى المسجد والمصلى والميضأة والحوض ، ويتعهدا بالكنس والتنظيف والفرش وتعمير المصابيح وأشعالها وطفيها .

- البواب : ويتولى غلق الابواب وفتحها وضبط الأماكن الملحقة بالمسجد والمصلى ومنع من يريد الأقامة فيها بغير حاجة ، واشترط الواقف أن يكون رجل ثقة أمين ويتقاضى خمسمائة درهم فى كل شهر من الشهور .

- وظيفة تسبيل الماء ويتولاها نفران عليهما تسبيل الماء بشباكى السبيل الشرقى والبحرى فى كل يوم ويصرف لهما تسعمائة درهم فى كل شهر من الشهور

- وظيفة تجهيز الاموات : ويتولاها رجل من أهل الخير والأمانة والقوة والنهضة على أن يقوم بشراء مايحتاج اليه من اكفان وقطن وكافور وسدر وحفظ ذلك واستحضار ما يحتاج اليه من الحمالين والمغسلين والآلات وغير ذلك ، ويصرف له ستمائة درهم فى كل شهر من الشهور

- سواق الساقية : يصرف فى كل شهر من الشهور ثلثمائة درهم لمن يكون سواقا بساقيه الميدان السلطانى الذى تجرى الماء منها إلى الحوض والميضأة والمغسلين زيادة عن جاكيته المقررة له من الديوان الشريف .

- السقا : يصرف فى كل شهر من الشهور ثلثمائة درهم لسقا يتولى وظيفة الكنس والرش فى كل يوم تجاه العمارة الشريفة .

- السباك : يصرف مائة واحد وخمسون درهمًا لسباك عارف بصنعة السبك وتخليص المجارى ويتعهد ما بالعمارة الشريفة من الاقصاب والمجارى والمزاريب.

- يصرف فى كل شهر من الشهور ثلثمائة درهم فى ثمن زيت من زيت الزيتون يستصبح به بالمسجد والميضأة ومنافع ذلك .

- يصرف الف درهم للجناب العالى القاضوى الكبرى الشمس محمد بن مزاحم عن وظيفة نيابة النظر على الوقف مدة حياته ومن بعده يصرف لمن يكون ناظراً على الاسطبلات السلطانية ويصرف له خمسمائة درهم

- يصرف خمسمائة درهم لنفرين من أهل الخير والديانة والعفة والأمانة يتوليان وظيفة الشهادة لكل منهما ٢٥٠ درهم .

- يصرف ٦٠٠ درهم لرجل من أهل النهضة والقوة والأمانة يتولى وظيفة الشاد بهذا الوقف .

- يصرف ٤٠٠ درهم لمن يقرره الناظر فى وظيفة الصرف بهذا الوقف ، ٣٠٠ درهم لمن يقرره الناظر عاملاً بهذا الوقف ، ويتولى كل منهما ماجرت به العادة فى مثل ذلك

- يصرف فى كل سنة ما يحتاج اليه ملء الصهريج من ماء النيل المبارك فى زمن الزيادة ، ومايحتاج اليه من الحصير والقناديل والسلاسل وآلة السبيل وزيت التوسعة فى شهر رمضان والأضحية فى عيد النحر لارباب الوظائف بحيث ما تدعو الحاجة اليه وعلى مايراه الناظر ومافضل بعد ذلك يصرف فى شراء أكفان وخيوط وأجرة مغسلين وحمالين وحفارين لتجهيز أموات المسلمين من الفقراء من الذكور والاناث والارقاء والأحرار (٥٤) .

* * *

هوامش البحث

١ ـ يقوم صاحب هذا البحث بإعداد دراسة تفصيلية موسعة عن هذا الموضوع تحت عنوان «مصليات الجنائز فى العمارة الإسلامية» .

٢ ـ محمد ناصر الدين الألبانى : احكام الجنائز دمشق ١٣٨٨هـ . ص ١٠٦ .

٣ ـ مسلم (الإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى الينسابورى) (ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م) : الجامع الصحيح المسمس صحيح مسلم . بيروت (بدون تاريخ) جـ ٣ ص ٦٢.، علم الحديث . مصر ١٣٣٠ هـ . ص ٩٢. ،

السمهودى (نور الدين على بن احمد المصرى) (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . جـ ٢ الطبقة الثالثة ١٩٨١م ص ٥٣٢ .

٤ ـ صحيح مسلم . جـ ٣ ص ٦٣ .

٥ ـ الازرقى (أبى الوليد محمد بن عبد الله بن محمد) (منتصف القرن ٣هـ /٩م) : اخبار مكة وما جاء فيها من الأثار . تحقيق رشدى الصالح . جـ ٢ الطبقة الثالثة بيروت ١٩٨٣ م ص ٩٧ . وانظر أيضا :

ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين . جـ ١ المطبعة الأولى ١٩٢٥م ص ٢٣٠ . ، فوزية حسين مطر : تاريخ عمارة الحرم المكى الشريف الى نهاية العصر العباس الأول الطبعة الأولى جدة ١٩٨٢م ص ١٥٦ .

٦ ـ النعيمى (عبد القادر محمد) (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠م) : الدارس فى تاريخ المدارس . نشر وتحقيق جعفر الحسنى . جـ ٢ دمشق ١٩٥١م ص ٣٤٢ .

٧ ـ مصطفى جواد ، احمد سوسة : دليل خارطة بغداد المفصل فى خطط بغداد قديما وحديثا . مطبوعات المجمع العلمى العراقى ١٩٥٨ . ص ٢٩٨ .

٨ ـ كان يصلى على الجنائز فى هذا الجامع وتخرج بعد الصلاة من باب فى جداره الشرقى يعرف بباب الجنائز .

ابن دقماق (أبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى) (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) : الانتصار لواسطة عقد الأمصار . جـ ٤ ص ٦٠ .

٩ ـ ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو المحاسن يوسف) (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . جـ ١٦ تحقيق الشيال شلتوت القاهرة ١٩٧٢م ص ١٤٤ ، ١٤٦ .

١٠ ـ محمد ناصر الدين الالبانى : المرجع السابق ص ١٠٦ ـ ١٠٧

١١ ـ عبد القدوس الانصارى : أثار المدينة المنورة ـ ط ٣ ١٩٧٢ ص ١٢٢ ـ ١٢٤ سيد عبد المجيد بكر : أشهر المساجد فى الاسلام جـ ١ البقاع المقدسة ـ جدة ١٤٠٠ هـ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤
سعاد ماهر : العمارة الاسلامية على مر العصور جـ ١ طبعة أول ـ جدة ١٩٨٥ ص ١٧٠ ـ ١٧٥ .

١٢ ـ محمد الكحلاوى : عمائر الموحدين الدينية فى المغرب (رسالة دكتوراه غير منشورة ـ جامعة القاهرة ١٩٨٧) ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧

١٣ ـ تعرضت مصر خلال العصر الاسلامى لعدد من الأزمات الاقتصادية صاحبها حدوث كثير من المجاعات والأوبئة مما كان له أثره الكبير فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية . عن اسباب هذه الأزمات ونتاجها : انظر حامد زيان غانم : الازمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ٥ ـ ١٢١

١٤ ـ المقريزى (تقى الدين احمدين على) ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م
السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٢ ظ ٣ ص ٧٨٢ ـ ٧٨٣ ، جـ ٤ ق ٢ ص ٨٢١ ـ ٨٢٨
ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٤ تحقيق محرز ، شلتوت ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠
ابن داود الصيرفى والخطيب الجوهرى على ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤م نزهة النفوس والايدان فى تواريخ أهل الزمان حـ ٣ تحقيق حسن حبشى ـ القاهرة ١٩٧٣ ص ١٨٦ ـ ١٩٠

١٥ ـ المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٣ ص ٧٨٢ ـ ٧٨٣

١٦ ـ المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٨٢١ ـ ٨٢٥
ابن تقرى بردى : النجوم جـ ١٤ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠

١٧ ـ المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٦٣٨

١٨ ـ وثيقة حسام الدين لاچين عن (عبد اللطيف ابراهيم) الوثائق فى خدمة الاثار بحث منشور فى كتاب دراسات فى الاثار الاسلامية ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣

١٩ ـ المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٣ ص ٧٨٣

٢٠ ـ ابن داود الصيرفى : أنباء الهصر بابناء العصر ـ تحقيق وتقديم حسن حبشى القاهرة ١٩٧٠ ص ١٤٤

٢١ ـ ابن داود الصيرفى : ابناء الهصر ص ١٧٣

٢٢ ـ ابن داود الصيرفى : ابناء الهصر ص ٥٩
ابن إياس (محمد بن أحمد) ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م
بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ٣ ص ٣٠ ، وعن تحديد موضع هذا المغسل
انظر : سامى عبد الحليم (الامير يشبك بن مهدى وأعماله المعمارية بالقاهرة) رسالة ماجستير غير منشورة جامعة القاهرة ١٩٦٩ ص ١٧٢ ـ ١٨٦

٢٣ ـ المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٥١ ، ٤٥٤ ـ ٤٥٥

٢٤ ـ المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٥١
ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٤ ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ ، جـ ١٥ ص ١٠٤ ، جـ ١٦ ص ١٤٤ ـ ١٤٦
ابن داود الصيرفى : ابناء الهصر ص ٥٥ ، ٥٧

٢٥ ـ السخاوى (ابى الحسن نور الدين)
تحفة الاحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات ، تحقيق محمود ربيع ، حسن قاسم طبعة أولى ١٩٣٧ ص ١٠٧ ـ ١٠٨

٢٦ ـ ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٦ ص ١٤٤ ـ ١٤٦
ابن داود الصيرفى : أبناء الهصر ص ٥٧ ـ ٥٨

٢٧ ـ المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٩٩

٢٨ ـ ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس جـ ٣ ص ١٥

٢٩ ـ ابن داود الصيرفى : ابناء الهصر ص ١٦

٣٠ ـ ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٦ ص ١٤٢
ابن داود الصيرفى : ابناء إلهصر ص ٥٤ ، نزهة النفوس جـ ٣ ص ٤١٧ ـ ٤١٨

٣١ ـ وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف رقم ٨٨٤
هذا وقد قام ا.د./ عبد اللطيف ابراهيم بنشر جزء من هذه الوثيقة وهو الجزء الخاص بالوصف المعمارى للمصلى وملحقاته التى لم يعد باقيا منها شئ . وذلك فى بحثة الخاص «الوثائق فى خدمة الآثار» وقد نشر هذا البحث مؤخراً فى كتاب المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم وهو المعروف باسم «دراسات فى الآثار الاسلامية . القاهرة ١٩٧٩م.»

٣٢ ـ هو ميدان صلاح الدين الحالى بحى الخليفة بالقاهرة

٣٣ ـ باب السلسلة هو باب الغرب الحالى الذى يطل ببرنتيه الضخمتين على ميدان صلاح الدين المشار اليه .

٣٤ ـ وثيقة سبيل المؤمنين ـ أوقاف رقم ٨٨٤

٣٥ ـ العسقلانى : الدر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة جـ ١ بيرت بدون تاريخ ص ٤٨٨

٣٦ ـ الجبرتى (عبد الرحمن)
عجائب الاثار فى التراجم والأخبار جـ ١ مصر ١٨٧٩م ٢٦ـ٢٧, ٦١ـ٦٢, ١٣٢ـ١٣٣, ٢٨٤

٣٧ ـ على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة جـ ٥ الطبقة الثانية القاهرة ١٩٨٦ ص ٢٨٢

٣٨ ـ محمد حمزة اسماعيل الحداد : قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك (رسالة ماجستير غير منشورة جامعة القاهرة ١٩٨٧) ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢

٣٩ ـ كانت صلاة الجنازة على السلاطين المماليك تتم فى القلعة أو عند باب القلة بها ، ثم ينزلون من سلم باب المدرج وتتوجه الجنازة الى المدفن المعد لكل سلطان منهم
محمد حمزة : المرجع السابق ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠

٤٠ ـ ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٢٧
صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ـ تحقيق محمد مصطفى ـ دار المعارف بمصر ١٩٥١م ص ٣٠

٤١ ـ عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الغورى (رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة القاهرة ١٩٥٦) ص ٨٨ .

٤٢ ـ ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٣٧١

٤٣ ـ ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٣٩١

٤٤ ـ ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٥٦
وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤

٤٥ ـ حسن قاسم : المزارات الاسلامية والاثار العربية فى مصر والقاهرة المعزية جـ ٥ القاهرة ١٩٤٢ ص ٢٧٧

٤٦ ـ تعد أمثلة القباب الضحلة المقامة على مثلثات كروية فى العمارة الاسلامية فى مصر قليلة ولاسيما فيما قبل العصر العثمانى ، ومن أمثلتها بعض نماذج من قباب أسوان وأبواب القاهرة الفاطمية ٤٨٠ـ٤٨٥هـ / ١٠٨٧ـ١٠٩٢م ، والجامع الأقمر ٥١٩هـ/ ١١٢٥م، وخانقاة فرج بن برقوق ٨٠١ ـ ٨١٣هـ / ١٣٩٩ـ١٤١١م ، ومدرسة قانبياى الرماح أمير آخور بالقلعة ٩٠٨هـ / ١٥٠٣م ، ومصلى المؤمنى موضوع البحث .
أنظر : محمد حمزة : المرجع السابق ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ وما بهما من مراجع عربية وأجنبية .

٤٧ ـ استخدمت الأقبية المروحية بنوعيها البسيط والمركب فى تغطية بعض الأجزاء من العمائر الاسلامية بمدينة القاهرة ، ومنها على سبيل المثال وليس الحصر دركاة مدخل كل من مدرسة خوندبركة ٧٧١هـ / ١٣٦٩م ،

ومدرسة الجاى اليوسفى ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م ، وخانقاة فرج بن برقوق ٨٠١ ـ ٨١٣هـ / ١٣٩٩ ـ ١٤١١م ، والمؤيد شيخ ٨١٨ ـ ٨٢٣هـ / ١٤١٥ ـ ١٤٢٠م ، واستخدمت فى تغطية أجزاء أخرى غير الدركاوات حيث نجدها فى بعض الدهاليز والدخلات والدورقاعات وما إلى ذلك ، ومنها مانراه فى كل من مدرسة برقوق بالنحاسين ٧٨٦ ـ ٧٨٨ هـ ، ١٣٨٤ ـ ١٣٨٦م فى الردهة التى توجد بنهاية الدهليز الذى يلى دركاة الدخول الرئيسية ومدرسة قايتباى بالصحراء فى ٨٧٧ ـ ٨٧٩ هـ فى الدهليز الذى يلى دركاة المدخل ولاسيما الجزء الاوسط منه الذى يقابل المزملة على يمين الداخل فى الدهليز ، وأيضا فى دخلة الشباك الأوسط من شبابيك الايوان الشمالى الغربى للمدرسة ، وكذلك مدرسة خايربك ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م وأخيراً دركاة كل من وكالة الغورى والمدرسة السليمانية بالسروجية . عن الدراسة التحليلية الموسعة لهذا العنصر وتطوره فى العمارة الاسلامية أنظر: يحثنا السابق الاشارة اليه وموضوعة مصليات الجنائز فى العمارة الاسلامية .

٤٨ ـ على مبارك : الخطط التوفيقية ـ جـ ٥ ـ ص ٢٨٢
حسن قاسم ، المزارات ص ٢٧٧

Greswell (K. A. C.) : - Abrief chronology of the Huhammadon Monuments of egypt to A.D 1517. (B. I. F. A. O) Tome Xvi - Le caire, 1919. p. 156.

٤٩ ـ وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤

٥٠ ـ وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤
والعقود المقالى يقصد بها القباب الضحلة المقامة على مثلثات كروية

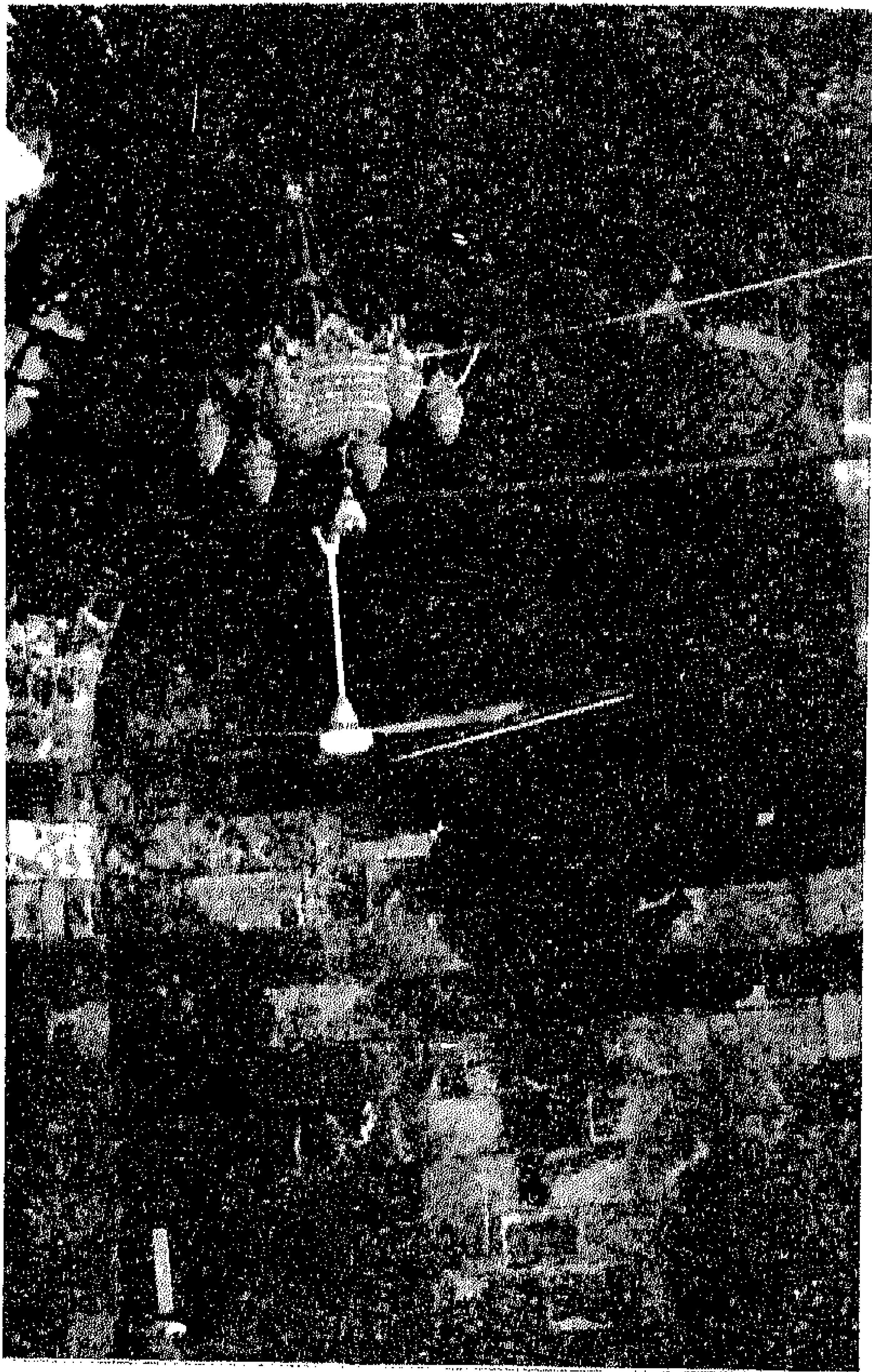
٥١ ـ مسقف عقداً تعنى أن المبنى مغطى إما بقبة ضحلة أو بقبو .

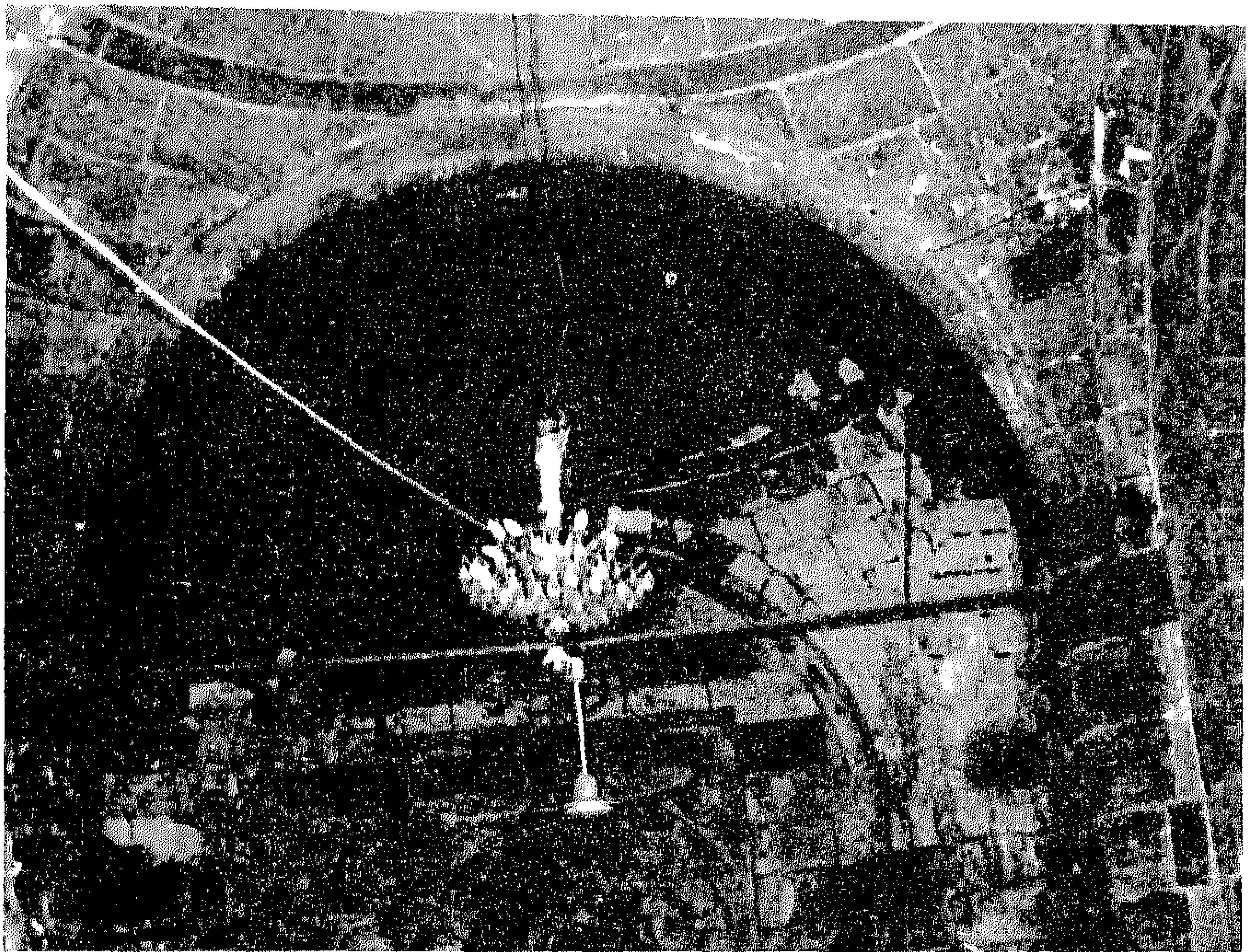
٥٢ ـ وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤

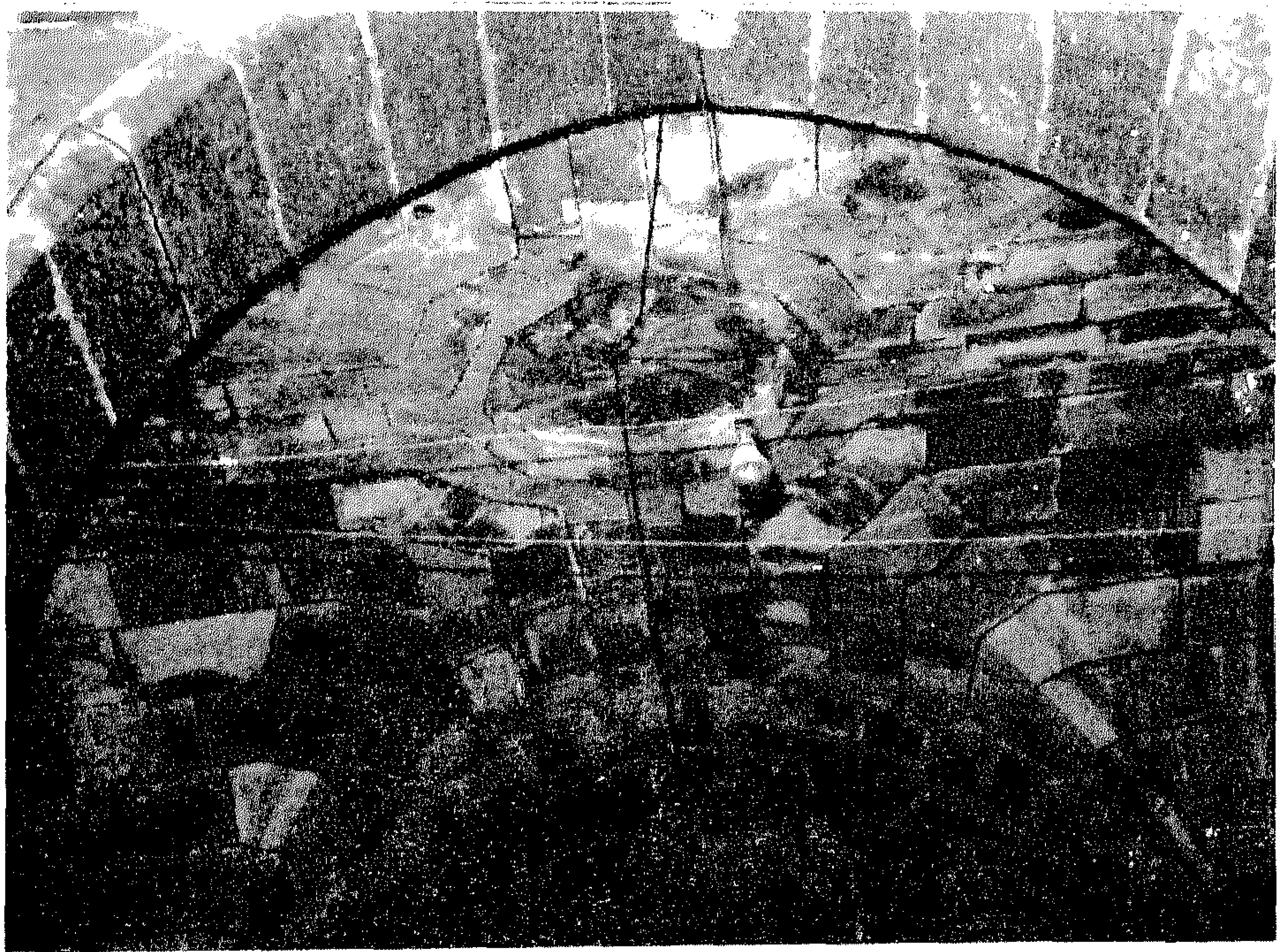
٥٣ ـ وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤

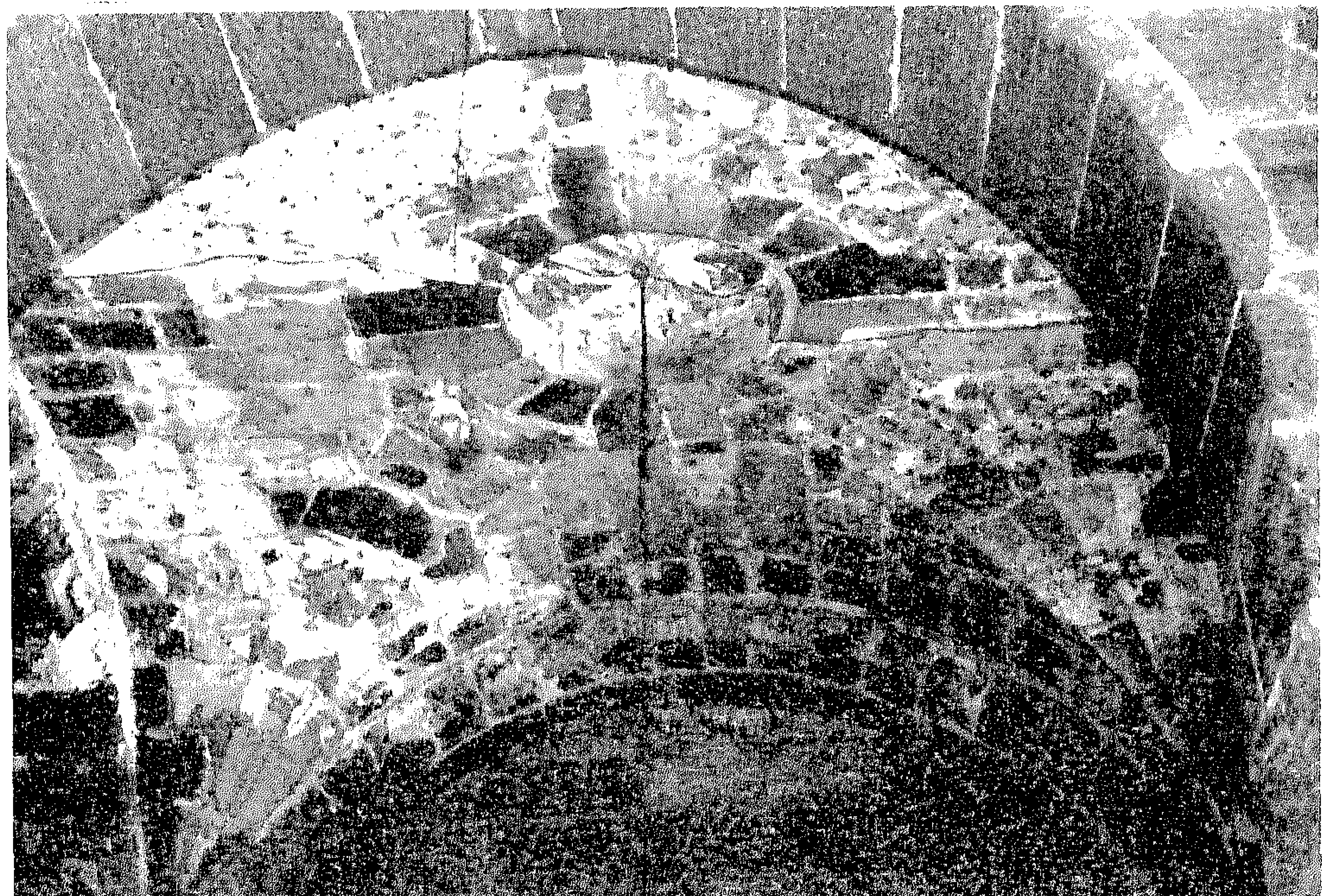
٥٤ ـ وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤

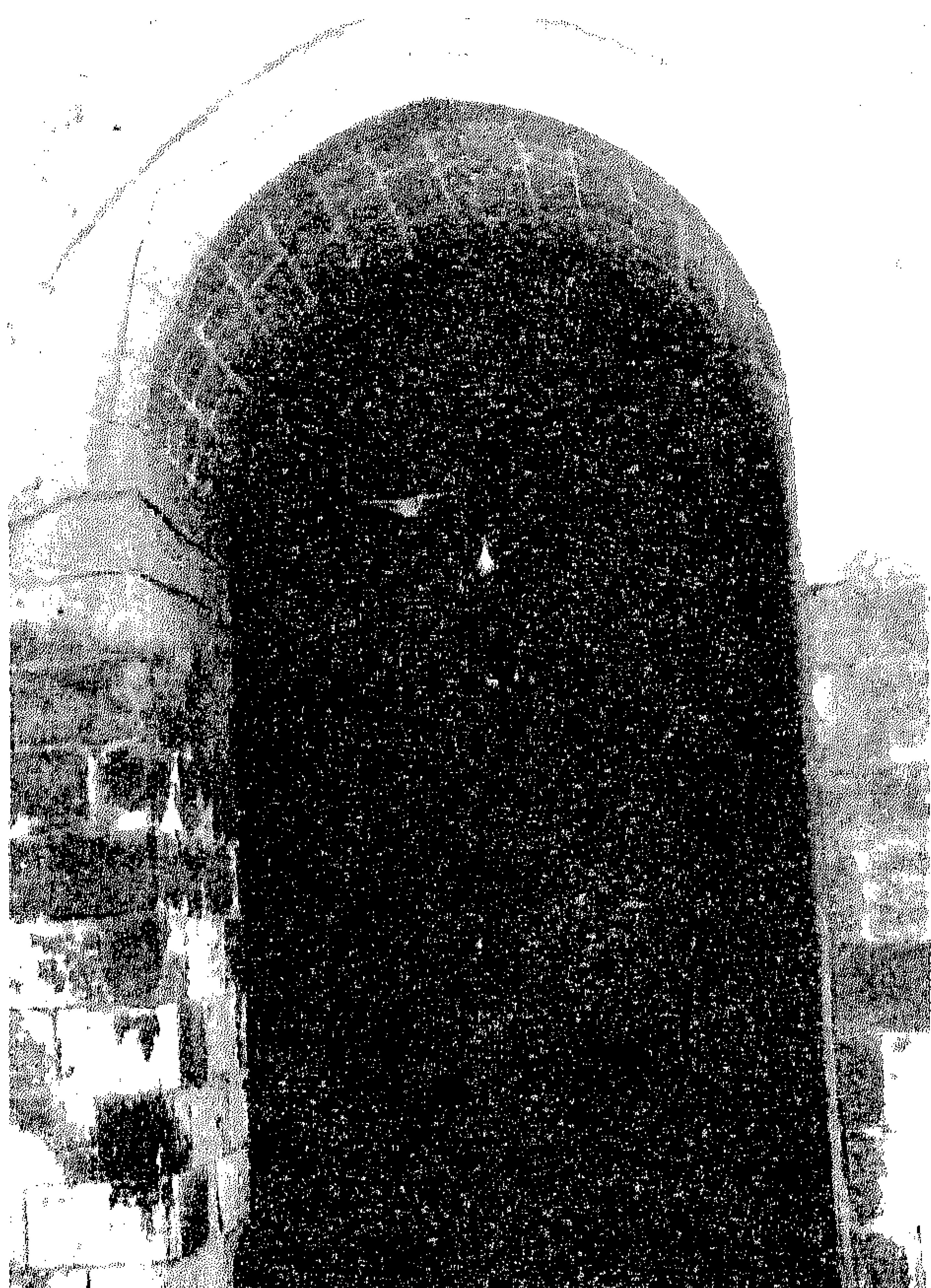




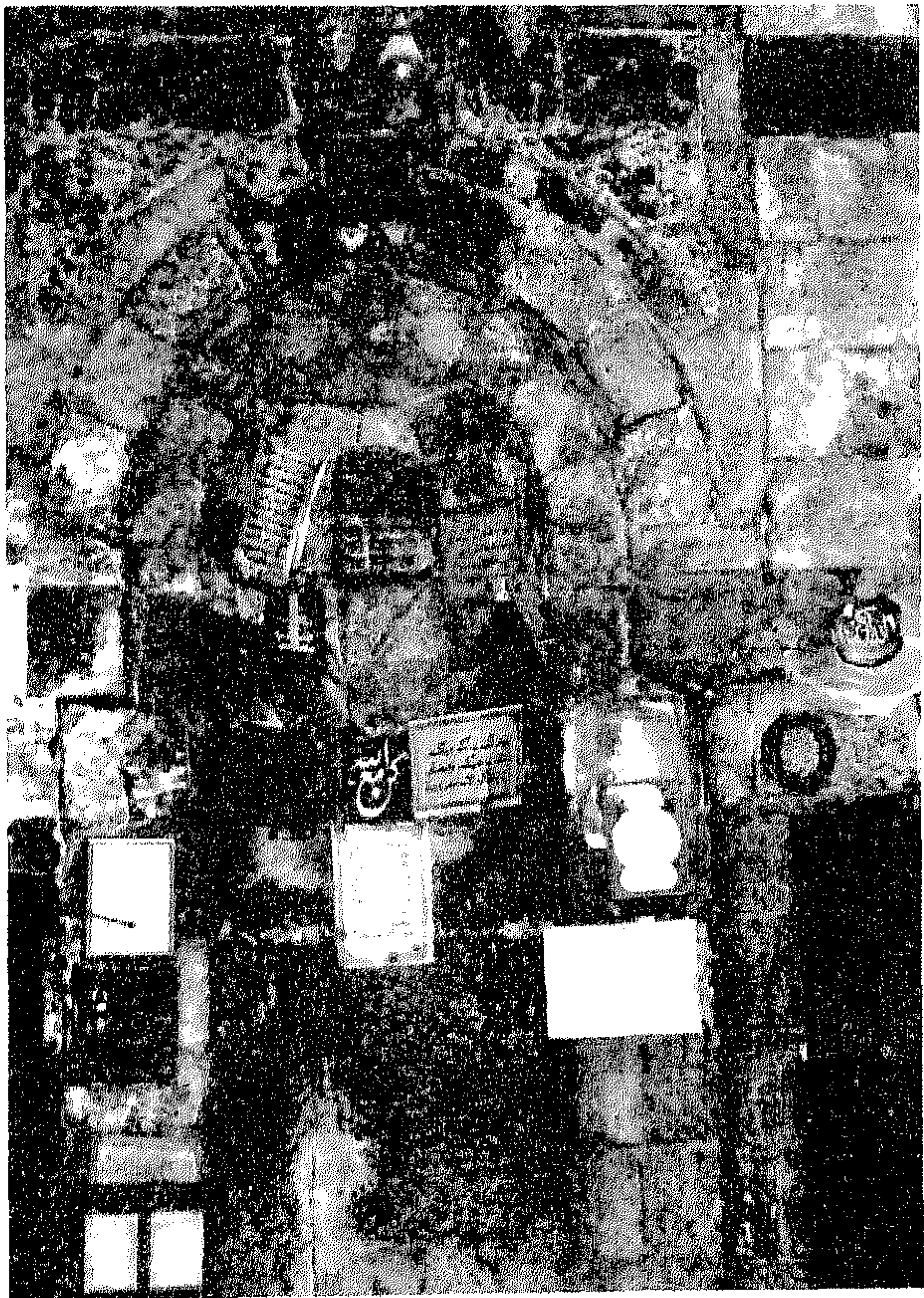




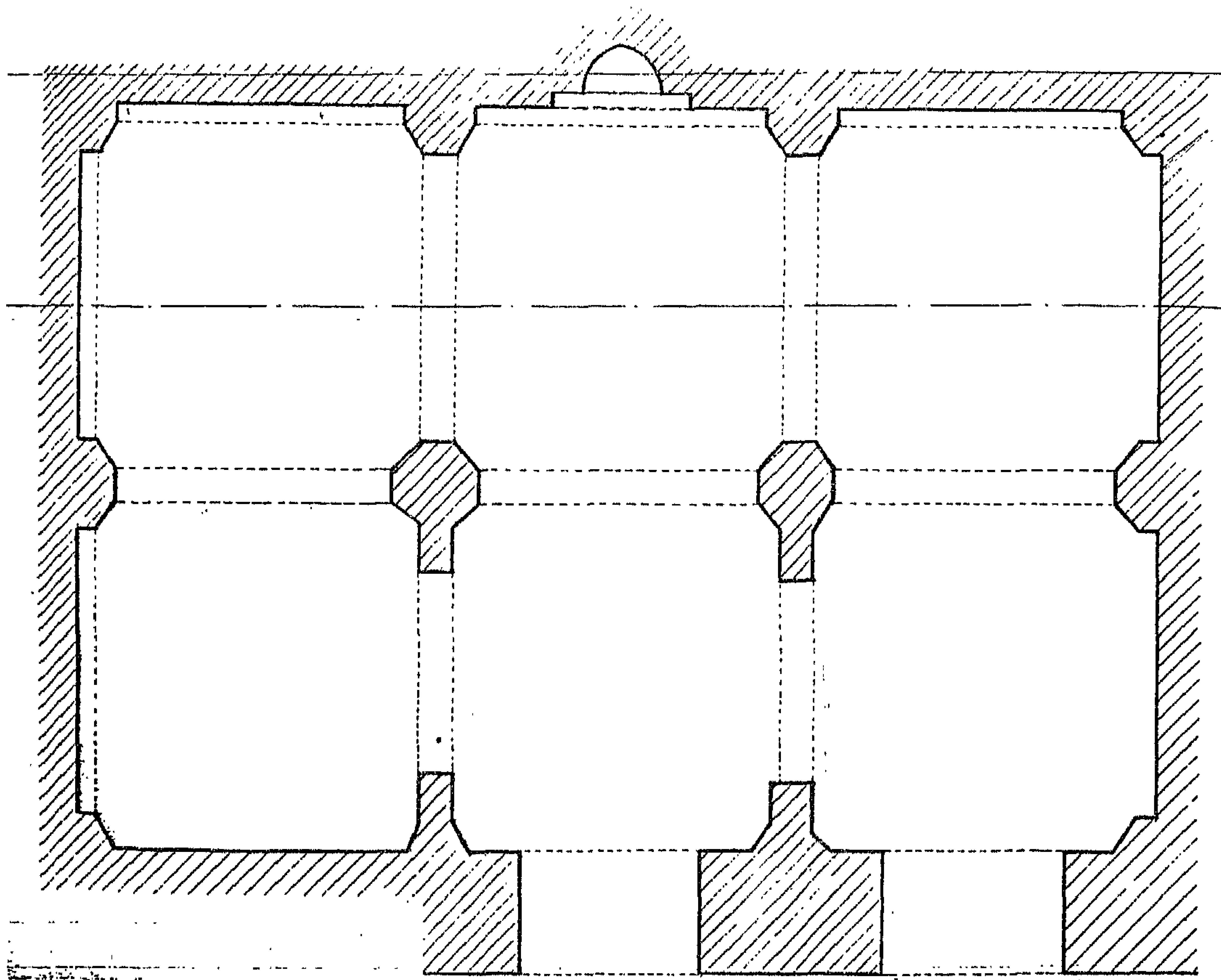




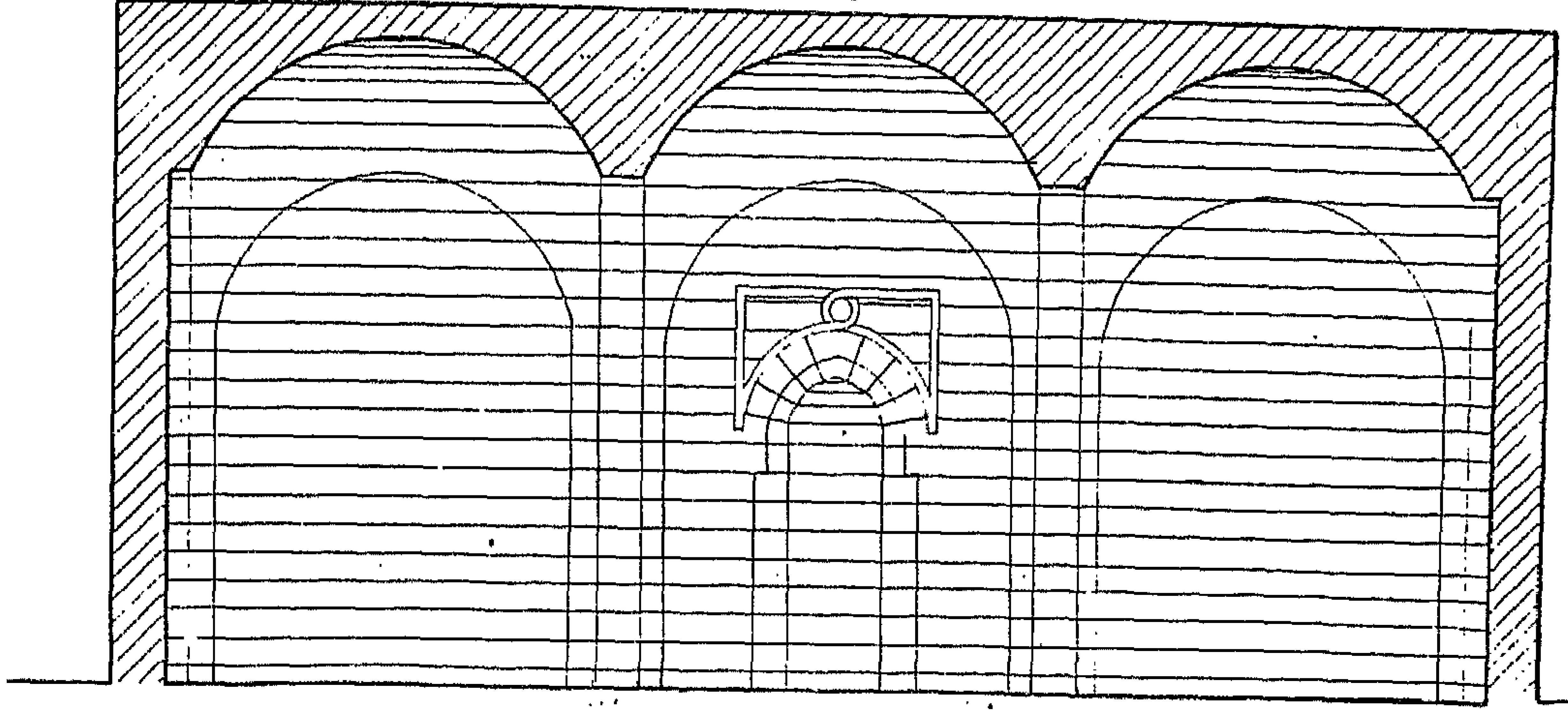




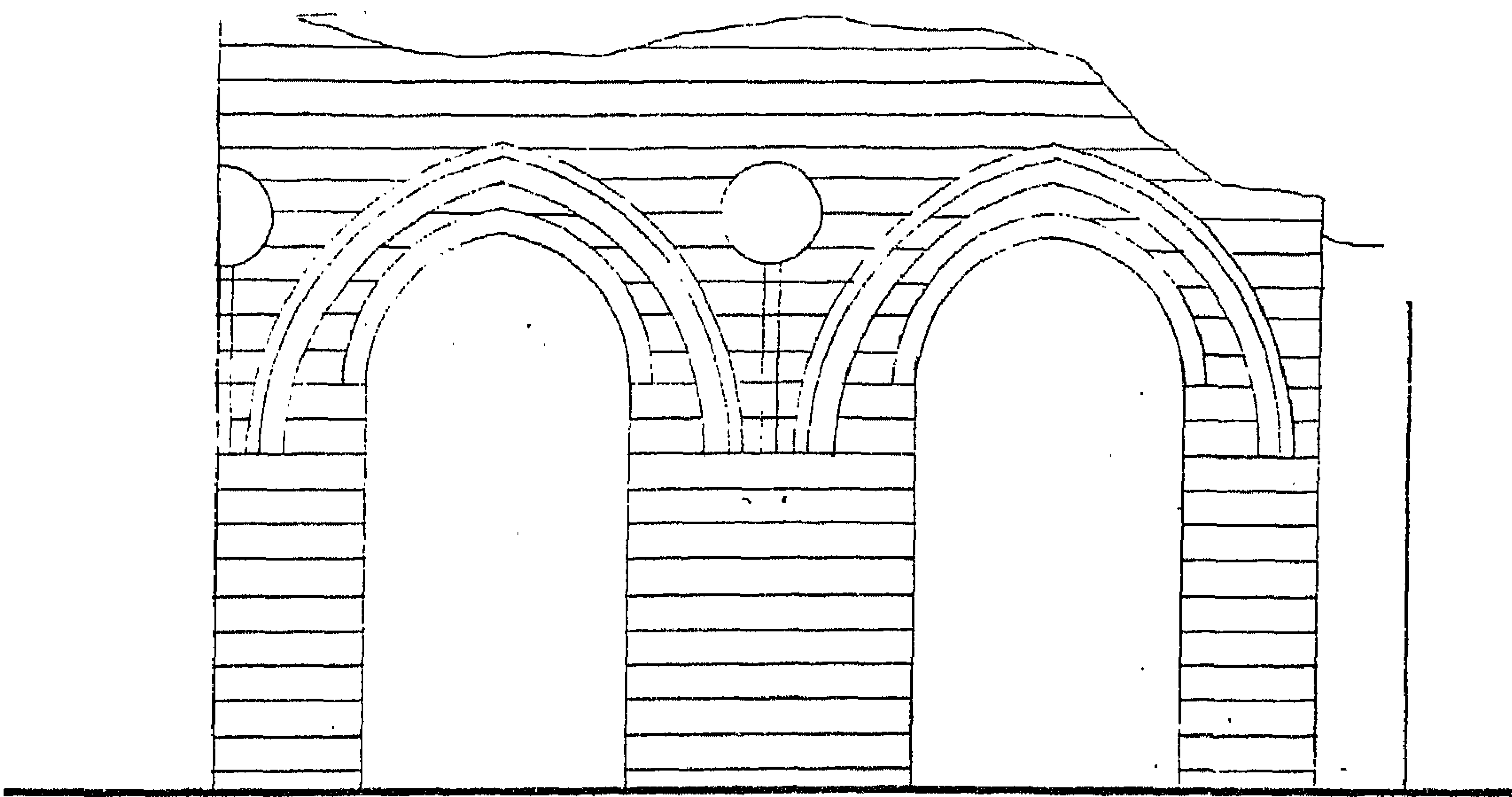
مصلى المؤمنين



(شكل ١) مسقط أفقى لإيوان القبلة (عن المجلس الأعلى للآثار) مقياس الرسم ١ : ٥٠



(شكل ٢) قطاع رأسى ا – ا (عن المجلس الأعلى للآثار) .



(شكل ٣) الواجهة (واجهة إيوان القبلة) عن المجلس الأعلى للآثار .

المنشآت المائية في قصر الحمراء
وجنة العريف بغرناطة

دكتور / محمد عواد

١٩٨٦

يعود تاريخ إنشاء الحمراء المعروف الى القرن الرابع الهجرى ، فهناك رواية اندلسية تشير الى قلعة كانت تسمى الحمراء شيدت على الهضبة المجاورة لنهر حدّرة احد روافد نهر شنيل ، ولعبت دورا فى الحروب بين العرب والبربر والمولدين فى غرناطة فى ذلك الوقت . وقد خضعت هذه القلعة فى بادىء الأمر للبربر الذين اقاموا سورا قويا حول الهضبة ضم الى جانب القلعة قصرا ومركزا للحكم وسميت بالقصبه الحمراء .

وحين استولى العرب بقيادة محمد بن الاحمر النصرى على غرناطة سنة ٦٣٥هـ اتخذ مركزه فى «القصبة» وانشأ داخل أسوارها قصره المحصن الذى أطلق عليه اسم الحمراء كالتسمية القديمة ، واتخذه قاعدة للملك وأنشأ حوله عدة أبراج منيعة منها البرج الكبير المسمى (برج الحراسة) ، وبنى حوله سورا ضخما إمتد حتى مستوى الهضبة .

ومن المستبعد أن يكون اطلاق اسم « الحمراء » عليها راجع الى اسم منشئها «ابن الأحمر » أو أنه يرجع الى لو ن الاجر الأحمر الذى بنيت به الأسوار الخارجية وذلك لأنه قد ثبت أن هذا اللون الأحمر الذى تبدو به الأسوار انما يرجع الى العصر الحديث .

وقد شهد القصر عدة تطورات واضافات ، فقد أنشأ السلطان الغالب بالله محمد بن الأحمر الحصن الجديد والقصر الملكى . بينما أنشأ ولده محمد المسجد ، ويرجع الفضل الى السلطان ابى الحجاج يوسف فى بناء معظم الاجنحة والقاعات الملكية وباب الشريعة . وتقع مدينة الحمراء فوق هضبة مرتفعة يبلغ طولها حوالى٧٣٦ مترا وعرضها نحو مائتى متر ويحيط بها سور ضخم بقى منه الى اليوم بعض الأجزاء ، وتخلل هذا السور عدة ابراج بقى أيضا معظمها .

ويمتاز قصر الحمراء فى تكوينه بانه يضم عدة عناصر متداخلة ومندمجة وهذه العناصر هى : الحدائق ، وجداول المياه ، والفوارات ، ومبانى القصر من غرف وقاعات وأسوار وبوابات .

وهناك جنة العريف التى هى عبارة عن حديقة ضخمة تضم قصرا اتخذه السلاطين مكانا للراحة بعيدا عن قصر الحكم فى الحمراء ، وهى فى اتصال مباشر مع حدائق الحمراء ويرجع تاريخ انشائها الى الفتره من ١٣١٥م – ١٣١٩م (١) زمن حكم السلطان ابى الوليد اسماعيل ، وكانت أراضيها فى الماضى تصل الى جبل شلير وجبل الثلج ، وكان السهل الذى يفصل بينهما مكانا للزراعة ، وتربية الماشية بجانب النزهة والصيد .

والملاحظ أن قصر الحمراء يقع على ربوه متدرجة وغير منبسطة ، وقد أمكن استغلال هذا التدرج الطبيعى فى تنسيق الحدائق وجعلها على عدة مستويات ، روعى فيها أن تكون قاعات القصر فى وسط الحدائق والفوارات ويمكن القول أن هناك من الحدائق ولفوارات مايقع بالمثل فى وسط القصر فلا تكاد تخلو قاعة من فوارة أو حديقة وقد زخرفت جدران القصر وقاعاته بالأدعية للسلاطين وبأبيات من الشعر الرقيق كتبت بالكوفى المضفر والمتفرغ فى تفريعات نباتية متداخلة ومتشعبة ،فهناك مثلا قصيدة لشاعر الحمراء « ابن زمرك » زخرفت بها دائرة صحن نافورة بهو السباع يقول فيها :

ألم تر أن الماء يجرى بصفحها ولكنها سدت عليه المجاريا (٢)

كمثل محب فاض بالدمع جفنه وعض بذاك الدمع ان خاف واشيا

والجالس فى بهو السباع ، سوف يرى أمامه غابة من الأعمدة الرقيقة التى تحاكى جذوع الأشجار ، تحمل عقودا زخارفها تماثل أغصان الأشجارتداخلا والتفافا أما فى وسط البهو فتلقى أربع جداول للمياه فى فوارة تحملها السباع ويحيط بها أحواض الزهور والرياحين .

وفى الحقيقة ان الماء لا يجرى فقط بصفحة هذه النافورة وانما فى كل انحاء وجنبات هذا القصر فى الفوارات والقنوات والحدائق التى تبدو كجنات تجرى من تحتها الأنهار .

واذا تناولنا الحديث عن المنشآت المائية فى قصر الحمراء فسوف نجد أنها تتكون من العناصر التالية :

*المصنع أو خزان المياه شكلي ٣,٢

*مقاسم المياه شكلي ٦,٥

* آبار التجميع والتوزيع شكل ٧

*سواقى الرفع المياه شكل ٤

*مجاري المياه ومنها المكشوف والمغطى شكل ٨

*الدرج المائي وهو مجرى مائي متدرج محفور فى وسط الدرج أو حافته شكلي ١٠,٩

*أنابيب المياه ومنها المكشوف والمغطى شكل ١١

*غرف الصيانة وهى للأصلاح وتغيير الاجزاء المتآكلة . شكل ١٤

*تماثيل المياه وهى مثل السباع التي تخرج من أفواهها المياه شكلى ١٣٣,١٢

* المغطس ويوجد بالحمامات وهو لغرض الاستحمام (٣)

* البرك اشكال ١٣,١١,٨ .

* الفوارات اشكال ١٢، ١٣، ١٤ .

نظام الري وطرق الحصول على المياه :

جاء فى كتاب كاييخا (٤) ذكر لمصنف فى المزراعة باسم ابن ليون وفيه بعض الاصول الواجب اتباعها فى تنسيق الحدائق ، منها اختيار هضبة حتى تسهل المراقبه بواسطة الحراس ، ويجب أن يكون اتجاه المبنى نحو الجنوب وهو اتجاه القبلة فى الأندلس ، وايضا يجب وضع البئر أو خزان المياه فى أعلى مكان ، ومن الأفضل حف مجرى مائي على امتداد خط الاشجار ، وأيضاً يجب أن تزرع نباتات دائمة الخضرة فيما يلي خزان المياه ، وذلك لتجميل مايحيط به ومنع تكون المياه الآسنة ، وترجع أهمية هذا المرجع الى أنه قد كتب فى مدينة المرية عام ٧٤٩ هـ وقد ورد ذكر ابن ليون على أنه الشاعر أبو عثمان سعد بن أحمد بن ليون (٥) ولم أتمكن من التحقيق ان كان هذا الشاعر هو نفسه واضع مصنف الزراعه السابق ذكره ، وايضا إن كان له علاقة بالرحالة المعروف ليون الافريقى . وفى وصف كاييجا لقصر الحمراء وجنة العريف اشارة إلى خزانات المياه ، فذكر أن المياه تتجمع فى (خزان الكتيبه) REGIMENT "S TANK ومنه الى (خزان العقائل) LADIES

TANK الذى بعد أن يروي حدائق جنة العريف ، يفيض متجها الى الحمراء ، وقد وصف الأخير بأنه خزان كبير . وذكر أيضاً أننا بعد أن نرى مستويات الحدائق المختلفه التى نسقت على غرار حدائق الشرق المعلقه . وأيضاً مستويات المساقط المائية التى تتجمع فى وسط الحدائق ، نلحظ أن المياه تأتى من الخزان الاعلى ومن خزان الكتيبة ، وقد وصف لنا أيضا فوارة الاعمدة PILLAR FOUNTAIN (FUENTEPIEDRA) بجنة العريف وحدد مكانها بأنه كان مكان المسرح المقام حاليا وقال انها كانت مسقوفه وقد رفع السقف على أعمدة ، وكانت لسقاية الدواب . ويذكر لنا أيضا أن كونت تنديا TENDILLA قد أقام خزانات للمياه فى عام ١٤٩٤م وهى خزانات تحت الارض فى المكان المعروف الان باسم ميدان الخزان . CISTERN SQUARE (PLAZA DE LOS ALJIBES) ويقول إنها مازالت تستخدم حتى اليوم للحصول على المياه ، ولم يحدد كيفية وصول المياه الى هذه الخزانات وهذا الكونت هو دون انييجو لوبيث دى مندوثا (٦) الذى عين حاكما عاما على الحمراء غداة استيلاء الاسبان عليها فى ٢ يناير ١٤٩٢م .

أما عن كيفية الحصول على المياه لاستخدامها فى القصر ، فقد إختلفت الروايات حولها اختلافا بينا :

فقد ذكر لنا الاستاذ محمد عبدالله عنان (٧) أن محمد ابن الاحمر النصري قد جلب المياه الى قصر الحمراء من نهر حدرة .

وأورد لنا أيضا وصفا لبعض المنازل الاسلامية الباقية فى مدينة رندة . RONDA وفيه بعض طرق الحصول على المياه منها على سبيل المثال :

* قصر الامير أبى مالك ويعرف أيضا باسم منزل خيجانتى CASA DEL GIGANTE حيث يوجد فى وسط فنائه حوض ماء قديم مربع الشكل وبه بئر يمده بالمياه .

* منزل الملك العربى ويسمى أيضا بمنزل مندراجون MONDRAGON وبيوجد خلفه سلم حجرى يتكون من ٥٦٣ درجة ، وينزل إلي النهر الواقع وراء المنزل لامداد المياه .

منزل المركيز سالبتيرا SALPITERRA ويقع بعد منزل الملك العربى بقليل على مقربه من النهر حيث يحصل منه على حاجته من المياه .

أما الاستاذ مورينو (٨) فقد تعرض بالوصف لطريقة الحصول على المياه لقصر الحمراء فقال إنه :

تجاه الحمام على الضفة المقابلة لنهر حدرة بأدنى الجبل الذى تتوجه الحمراء يقوم برج ضخم شبه سداسى مشيد بالملاط ، ويظهر منه منبت عقد ضخم متقن الزخرفة طبقا لاسلوب عصر الخلافة ويرجع القرن الحادى عشر الميلادى هو عقد حدرة .

والواقع ان هذا العقد وهو مزود بشق مزدوج (شكل ١٥) كان يؤلف مغلاق النطاق المسور للمدينة عبر النهر مع شبكة ترتفع فى حالة الفيضان ومنها اشتق اسم باب الشبكة PUERTA DE LA RED المفتوح فى الكتف المقابل للعقد ليدخل منه الداخل الي المدينة ، وكان يسمى بالعربية (باب الضفف) أو باب الحواجز اشارة الى تلك المغاليق وكان ينحدر الى النهر من مرتفعات القصبة القديمة .

ولعل قطر هذا العقد كان يبلغ حوالى ثمانية أمتار وهو مشيد بكتل من الحجر الرملى ، وكان علي شكل حدوة الفرس وتعلو سنجاته المتراجعة براعم وأشرطه معقودة وكمل ذلك خوصة مقعرة وأفريز والى أسفل المجارى حيث كانت تشتمل على الشباك ، باب ذو عتب مسنج ينزل اليه المرء بدرجين توأمين من أعلى البرج مما يوحى بأن الغرض منه كان استخراج المياة بالأيدى ، اذ لم تكن المياه تجري فى قصر الحمراء حتى القرن الثالث عشر الميلادي .

ولو ناقشنا الطريقة الفعلية لحصول القصر على المياه وادخالها وتخزينها فإن الاحتمالات تنحصر فى الحصول عليها من نهر حدرة نظرا لأنه مجاور للقصر أو أن القصر اختير له من البداية موقعا مجاورا للنهر ، وذلك قياسا على المنازل والقصور الباقية فى مدينة رندة حيث تجاور النهر ، ويوجد فى اغلبها درج يؤدى الى النهر حيث تجلب منه المياه بالأيدى . وقد يسهل جلب المياه بالأيدي للمنازل والقصور الصغيرة إلا أنه بالتأكيد لا يكون كذلك بالنسبة لقصر الحمراء وجنة العريف نظراً لضخامة كمية المياه المطلوب نقلها ولذلك فمن المرجح أن تكون هناك وسائل أخري لرفعها بدلا من الايدى ومن خلال زيارة قمت بها فى أكتوبر ١٩٨٥ لقصر الحمراد وجنة العريف بغرناطة لاحظت أن امداد الحدائق والقصر بالمياه يتم بطريقة دقيقة وان كان استخدام شبكات التوزيع واستغلال انحدار المياه من المستويات الأعلى مازالت كما كانت عليه فى الماضي بمعني ان الفوارات تعمل بقوة اندفاع المياه المتوفرة من التصميم الاصلي لشبكة المياه وكذلك نظام الري والصرف للحدائق يتم فى أغلبه فى الانابيب الاصلية .

ومن الملاحظ أيضا أ اقرب مكان فى القصر الى نهر حدره يبعدحوالى ثمانين مترا ويوجد فى هذا المكان برج مستدير (شكلي ٣،٢) اعتقد أنه كان يقوم بدور الخزان الرئيسى ، ويؤيد هذا الافتراض قرب هذا الخزان من ساحة أطلق عليها اسم ميدان الخزان حيث أقام كونت تنديا خزاناته (٩) وكانت تحت الارض ومن المحتمل آنها كانت متصله بالخزان الاصلي الذى افترضناه أو كانت مستقله عنه .

ومما يؤيد هذا ايضا ما أورده مرينو فى وصفه لعقد نهر حدره الملاصق لسور قصر الحمراء فى الجهة الغربية فقد وصف هذا العقد بأنه كان مزودا بشق مزدوج (شكل ١٥) لإغلاق النهر بشبكة ترفع اثناء الفيضان ومنه اشتق اسم باب الشبكة وهو فى الجهة المقابلة مفتوحا فى كتف العقد ثم عاد فذكر أن هذا الباب كان يسمى بالعربية (باب الضفف) أو باب الحواجز ، إشارة الى تلك المغاليق ولم يوضح الوظيفة ولم يوضح وظيفة لها إلاّ أنها ترفع وقت الفيضان ولو افترضنا أن التسمية العربية كانت أقرب إلى الوظيفة الفعلية فيكون من المحتمل قيام هذه المغاليق أو الضفف بتخزين المياه خلفها فى مجرى النهر حتى يرتفع مستواها الى منسوب يسهل معه رفعها الى القصر . وتجدر الإشارة هنا إلى قرب هذا العقد من البرج المستدير الذى نفترض قيامه بوظيفة تخزين المياه . ولما كان هذا البرج المستدير لايحمل اسما معينا مثل بعض الابراج فى سور الحقيقى ان وجد وان صح افتراضي بقيام هذا البرج بوظيفة تتعلق بامداد المياه فيكون ما أطلقته عليه من اسم الخزان هو أقرب مايكون الى الصحه .

ومما يؤيد افتراضى بقيام الابراج بوظيفة متعلقة بامداد المياه بجانب الوظائف الأخرى ، هو وجود برج فى الجهة الشرقية بقصر الحمراء اطلق عليه اسم برج المياه (شكل ١) TOWER OF

TOWER OF THE END OF وهو يقع بين برج نهـاية الممـر THE WATER (TORRE DEL AGUA) THE TRACK وبرج جان دارك TOWER OF JUAN DE ARC وهذه التسميات الخاصة بالابراج والقاعات والبوابات كما نعلم من صنع الاسبان ، وان كان لبعضها اصولاقديمه او تواترعلي مر السنين قد يشيرالي وظيفتها الفعلية .وقد لاحظت ايضا في نفس موقع الخزان السابق الإشاره اليه وجود بقايا لساقية كانت تستعمل بلا شك فى رفع المياه (شكل ٤) .وكذلك وجود بقايا ما يمكن اعتباره مقاسم للمياه (شكلى٥ ،٦) يتم بواسطتها التحكم فى المياه وبالطبع فإن هذه الافتراضات تحتاج الى المزيد من الدراسة .

وقد اشرت فيما سبق الى ان مورينو ذكر أن المياه كانت ترفع بالايدى بعد نزول درجين توأ مين من أعلى البرج الى أسفل مجرى النهر ، ولست أتفق معه فى هذا الرأى فالمسافة من أعلى البرج الى أسفل مجرى النهر لا عن حوالى عشرين مترا كما أن ضخامة هذه المنشأة تجعل من الصعب القبول بمقولة امدادها بالمياه بواسطة الرفع بالايدى ، كما أننى لا أميل الى تصديق رأيه بأن هذه المنشأة الكبيرة كانت لا تجرى فيها المياه حتى القرن الثالث عشر الميلادى .

وخلاصة القول أن هذه المنشأه الكبيرة كانت تحصل على المياه من نهر حدّره المجاور لسور القصر مع قيام عقد نهر حدّرة بوظيفة تتعلق بحجز مياه النهر خلف مغاليق حتى يسهل رفعها الى الخزان الكبير المستدير المجاور لهذا القصر وقد أسميته برج الخزان ويتم هذا الرفع فى أغلب الاحتمالات بواسطة ساقية تحركها الدواب ثم تخزن المياه فى خزانات تحت الارض فى منطقة ميدان الخزان ويفترض أيضا وجودمقاسم للمياه (شكلى ٦,٥) تقوم بدور التوزيع .

وهذه الافتراضات تحتاج لاثبات صحتها أو نفيها الى عمل بعض الحفريات والمجسمات فى تلك المنطقة والبحث فى مايمكن العثور عليه من وثائق ومراجع .

* * *

الهوامش

١) عنان . محمد عبدالله . الآثار الاندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال مؤسسة الخانجى ، الطبعة الثانية – القاهرة ١٩٦١ .
صـ : ١٨٩ – ١٩١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ – ٢٧٧ .

٢) مكى . الطاهر أحمد . دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة دار المعارف ، الطبعة الثانية – القاهرة ١٩٨٣ .
صـ : ١٠٤ ، ١٠٥ .

٣) مورينو . مانويل جوميث – الفن الاسلامى فى اسبانيا تعريب الدكتور / لطفى عبدالبديع والدكتور / السيد محمود عبدالعزيز سالم .
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . فرع مصر ١٩٦٨ .

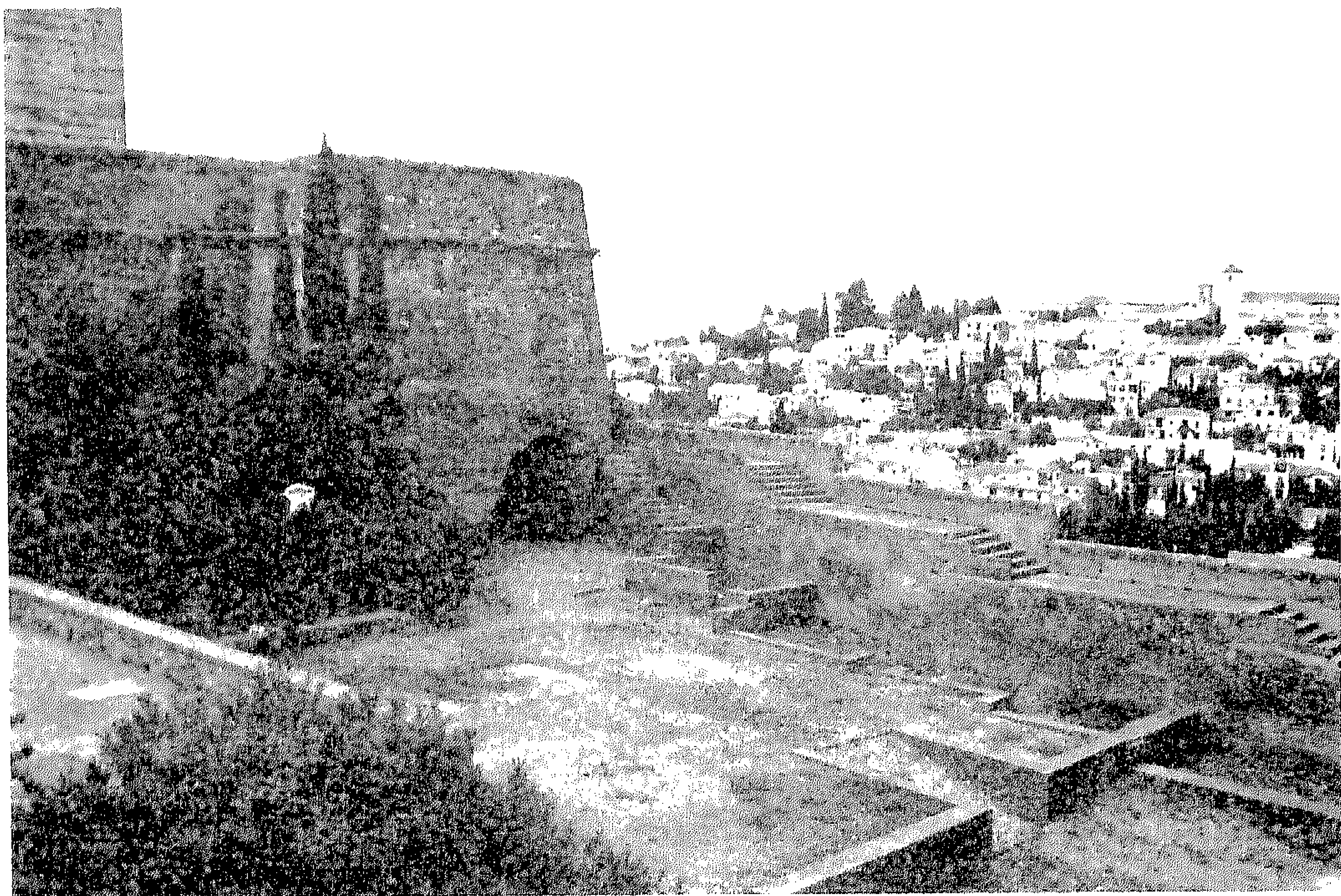
4) calleja , r.h.,
Discovering Granada
Translated \To English By :
pilar p. de vadelomar & e . Barreto
Aditor : Evergraficas , S.A . leon - Spain .
3 rd Edition, 1985 .
p .62,63,66,68,70 .

5) Sanchez , m .
the Alhambra and the Generalife .
Trans lated To Englih By :
Karen Otto de Garcia .
Editor : marque's de Mondejar, 44 Granndas Spain, 1985 .
P.7,41 .

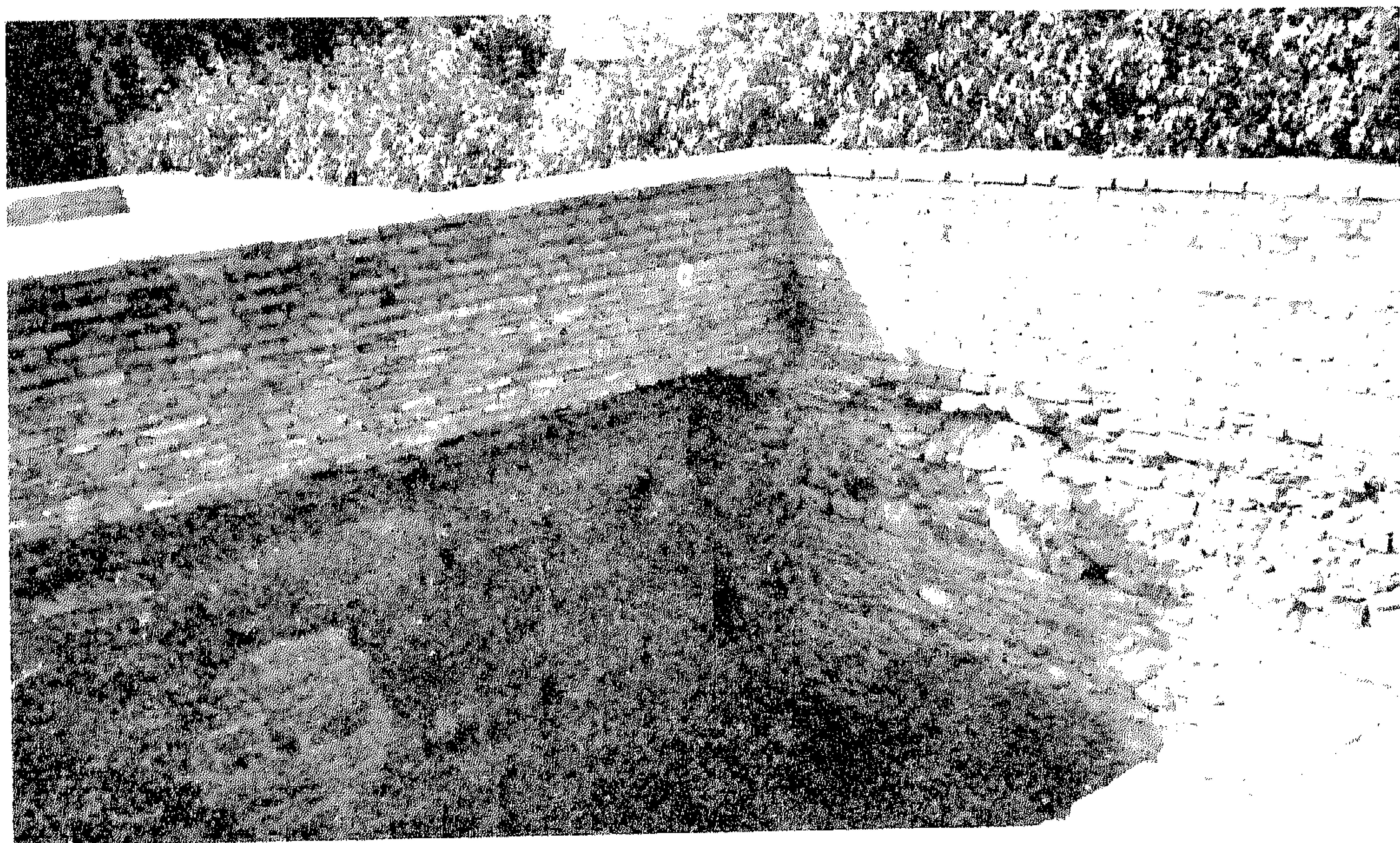
6) Calvert,
A . f .,
The Alhambra .
Puplished by:
George philip and son, LTD . 32 fleet st .
london - 1904
p.14

* * *

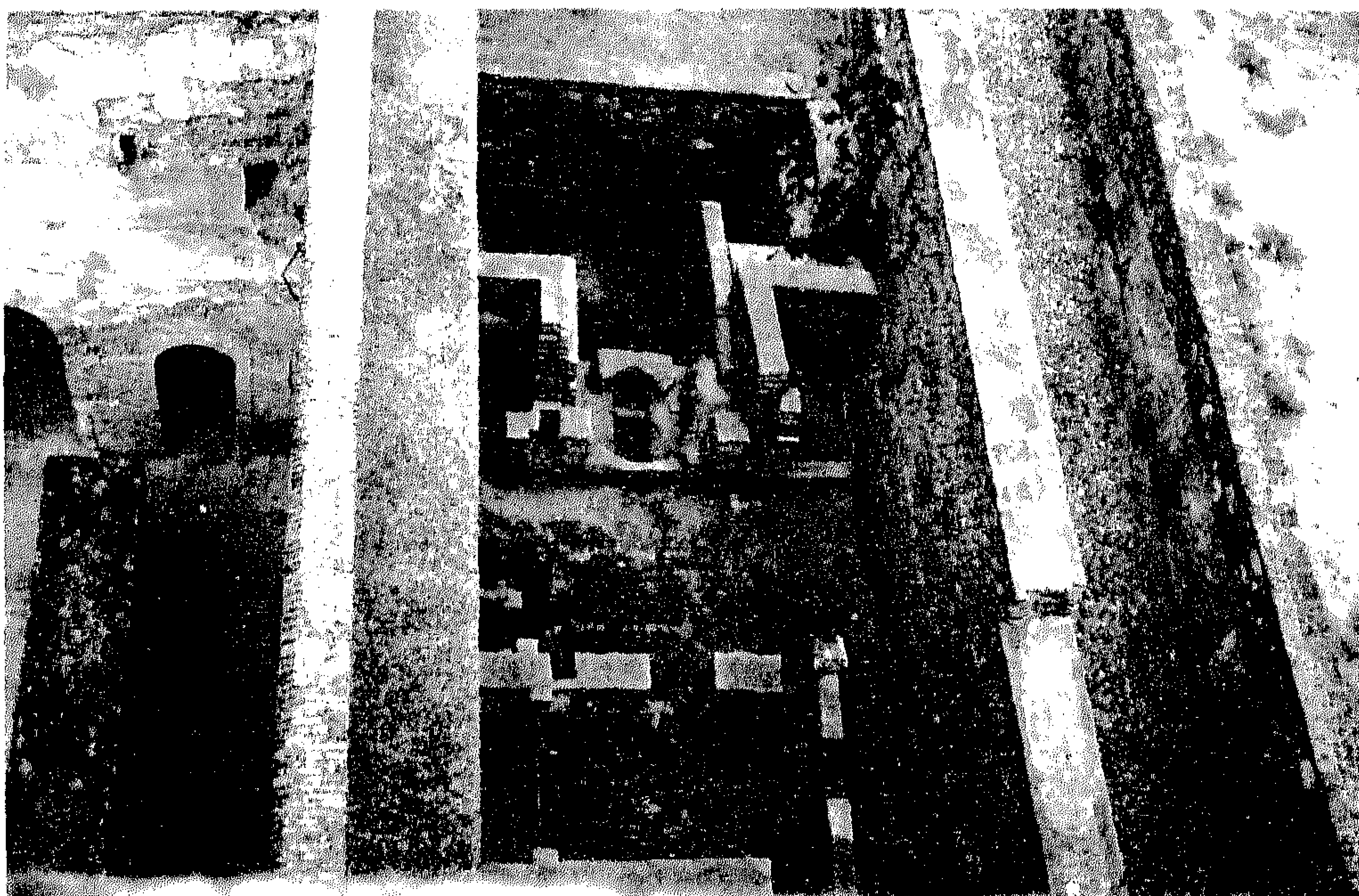
(شكل ١)قصر الحمراء وجنة العريف كروكى مأخوذا عن سانشيه [٥] .



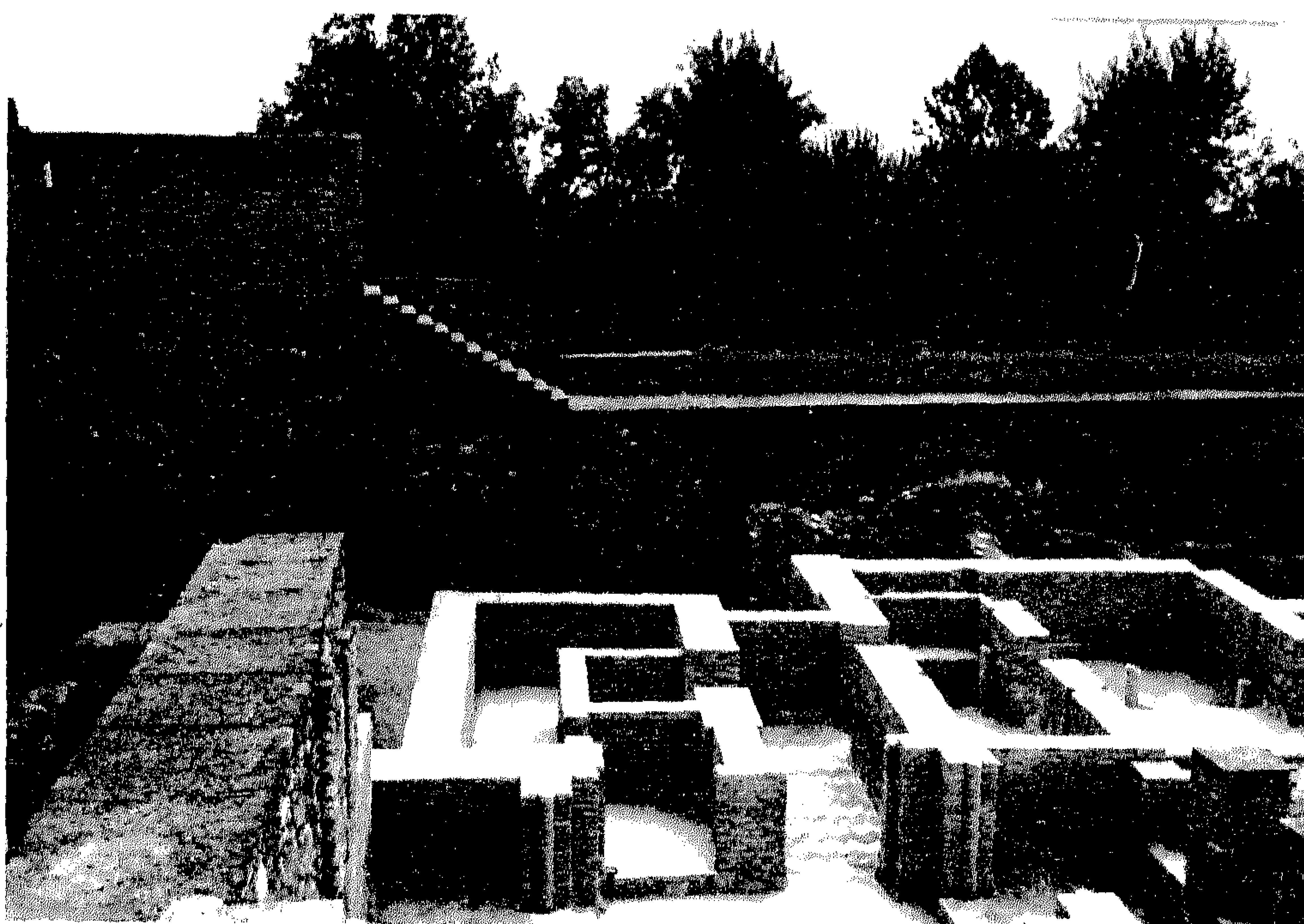
(شكل ٢) المصنع أو خزان المياه من الخارج بالجهة الغربية بأعلى القصبة بالحمراء .



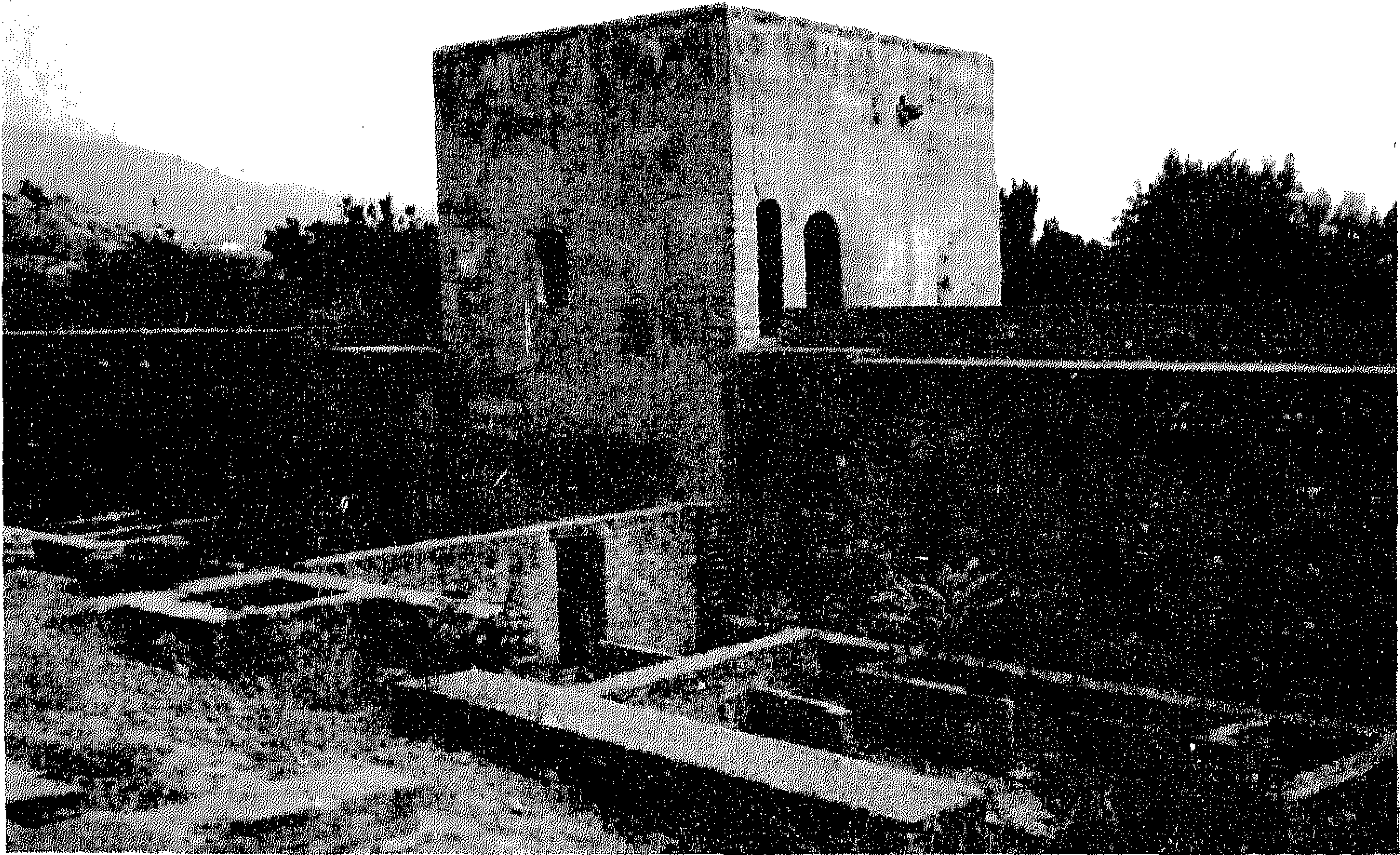
(شكل ٣) المصنع أو خزان المياه من الداخل بالجهة الغربية بأعلى القصبة بالحمراء.



(شكل ٤) بقايا بئر ساقية لرفع المياه بالجهة الغربية بأعلى القصبة بالحمراء.



(شكل ٥) بقايا مقاسم المياه بقصر الحمراء .



(شكل ٦) بقايا مقاسم المياه بجنة العريف



(شكل٧) بئر تجميع يتصل بمجرى مائى مكشوف بحدائق الحمراء

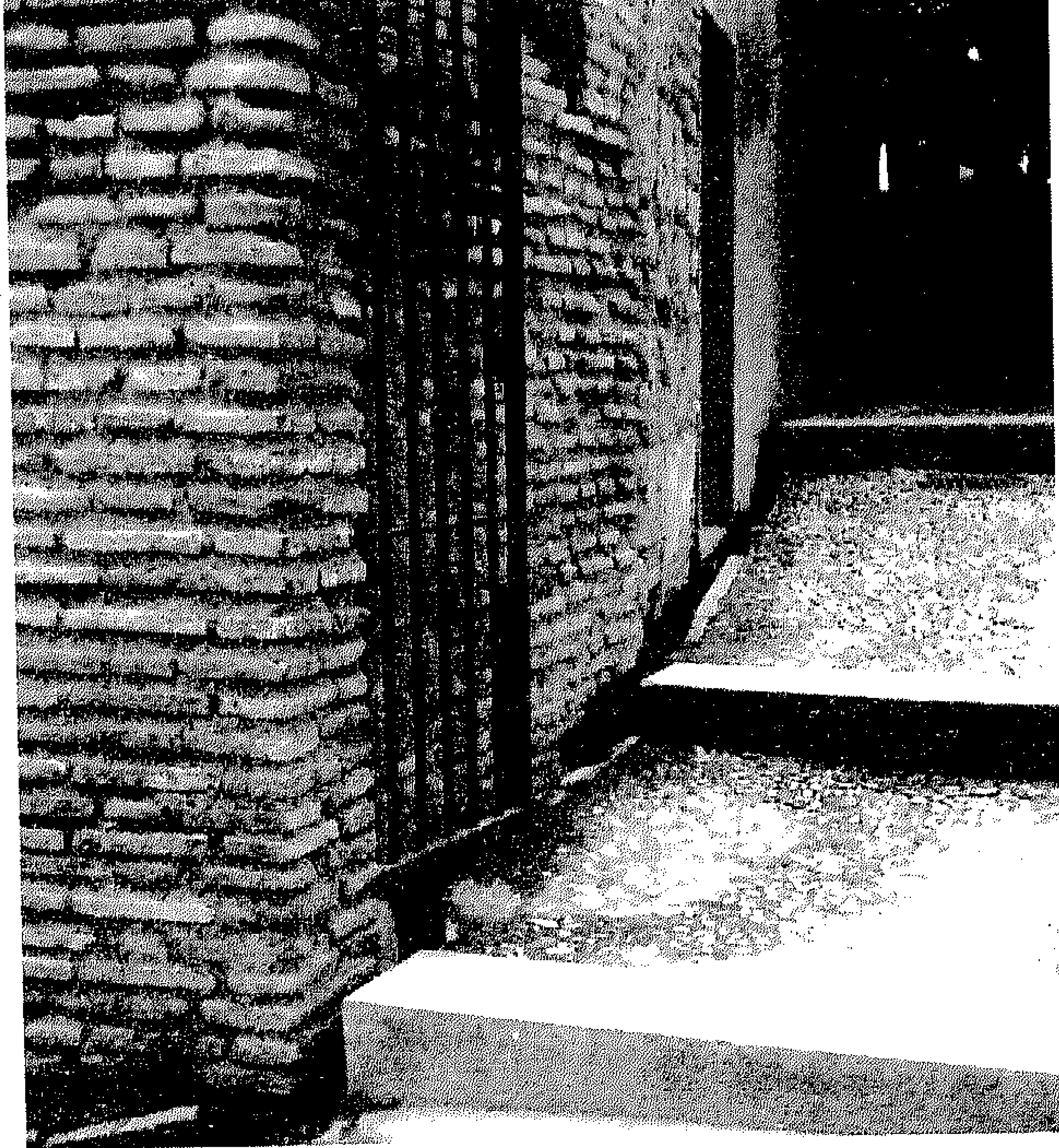


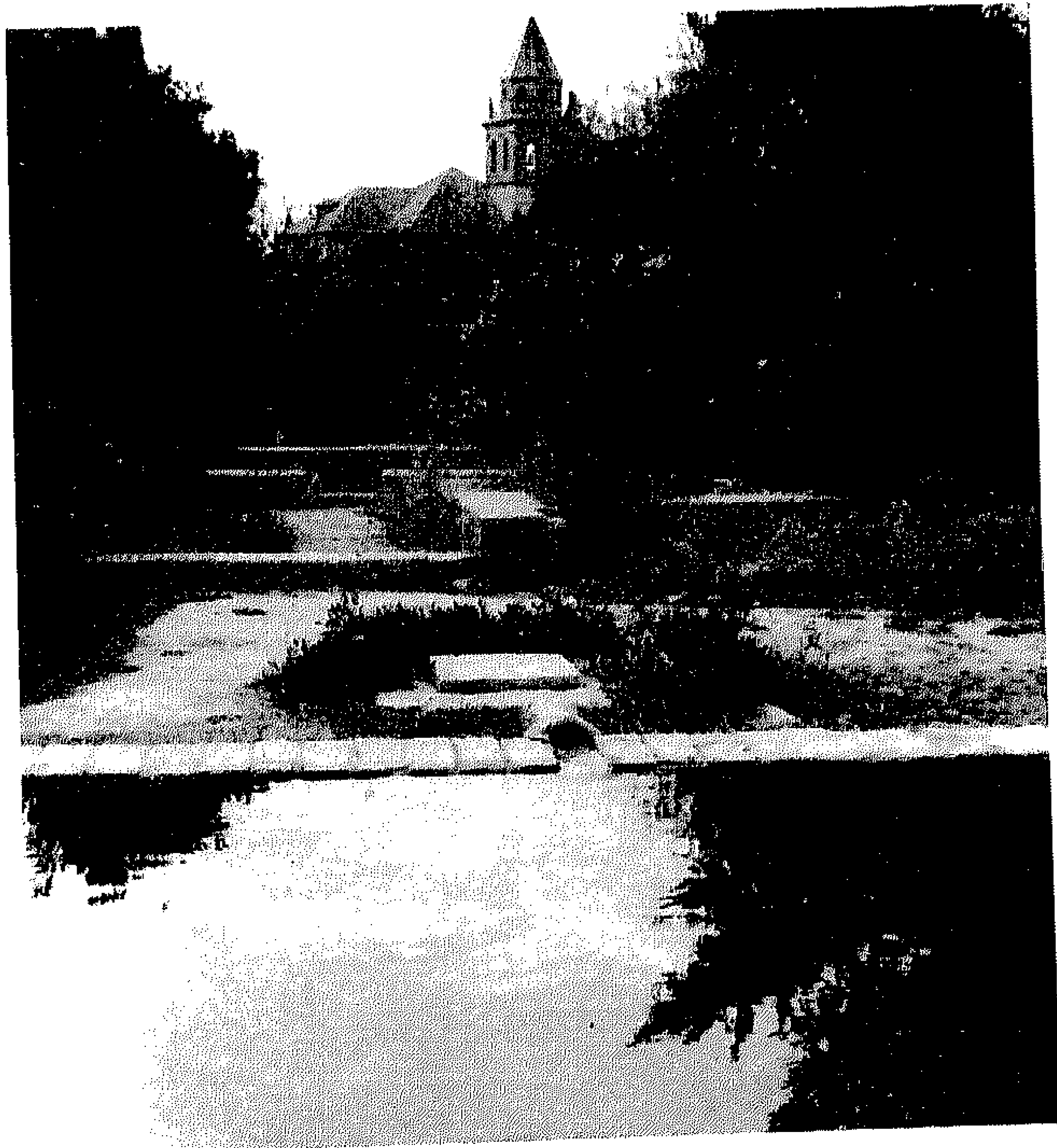
(شكل ٨) بركة قاعة الرياحين يحيط بها مجرى مائى مكشوف
ويتصل بها من تحت الأرض مجرى مائى مغطى



(شكل ٩) درج مائى يمر فى وسط الدرج
موصلا المياه إلى مجرى مائى مكشوف بحدائق الحمراء

(شكل ١٠)
درج مائي
يمر في أحد أطراف الدرج الهابط
من القصبة بالحمراء

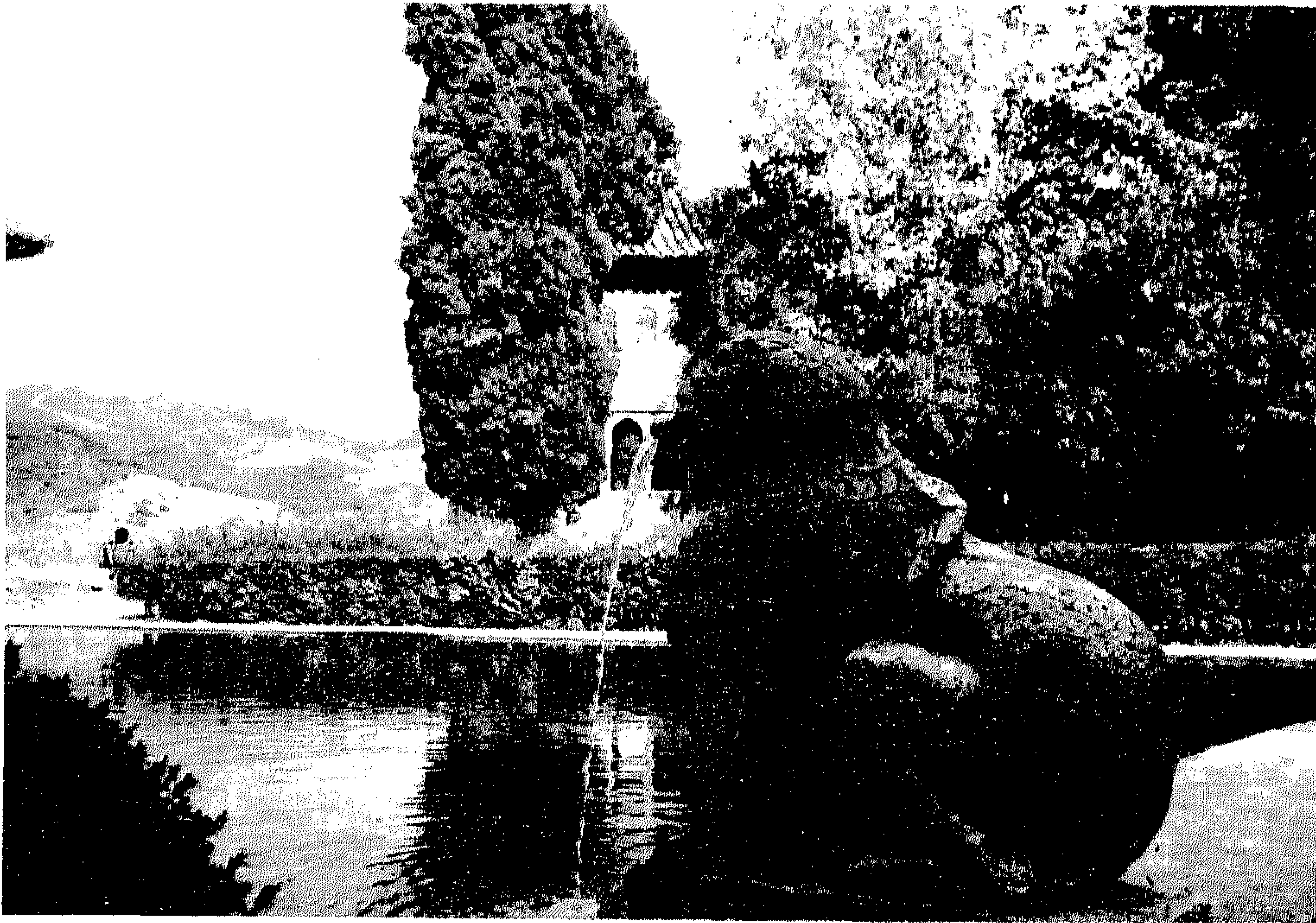




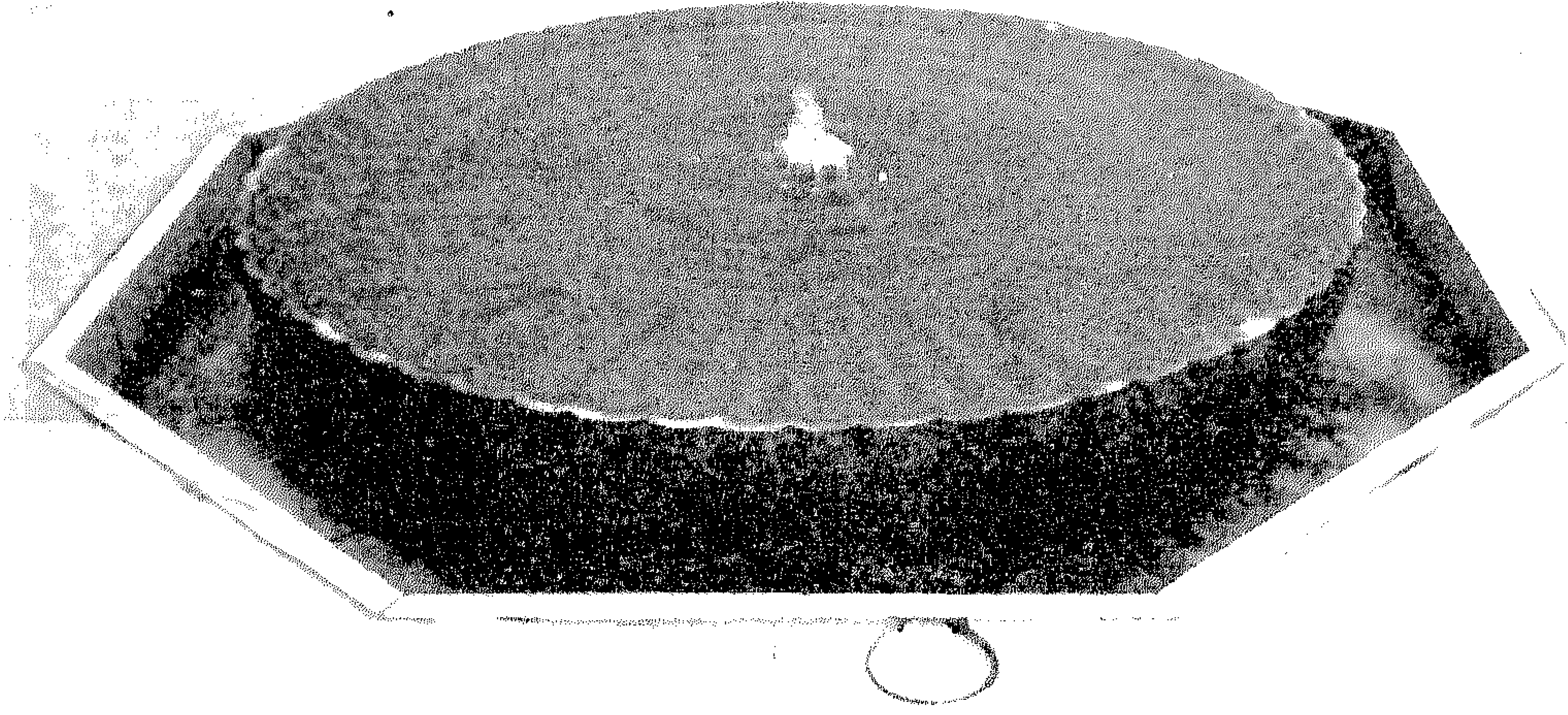
(شكل ١١) بركة في حدائق جنة العريف
تتصل مياهها ببئر تخزين
مغطى تحت الأرض بواسطة أنبوبة مكشوفة



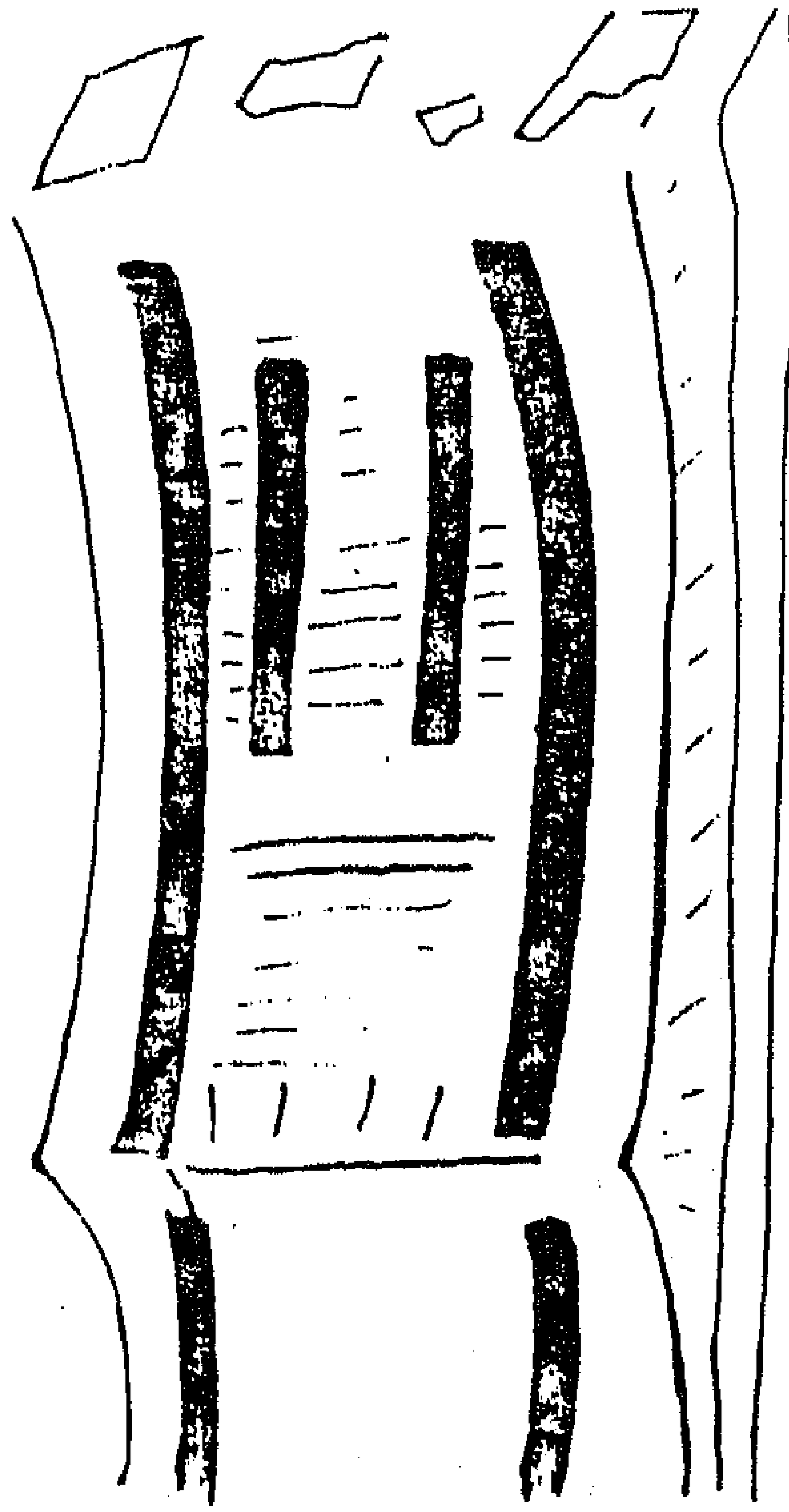
(شكل ١٢) تماثيل المياه وهى على هيئة سباع تخرج المياه من أفواهها
وتحمل فوارة بهو السباع



(شكل ١٣) تمثال لسبع تصب المياه منه فى بركة مكشوفة
بالحديقة الشرقية بقصر الحمراء



(شكل ١٤) تمثال لإحدى الفوارات العديدة بقصر الحمراء ويلاحظ وجود غطاء مستدير فى الأرضية لغرفة التفتيش والإصلاح متصلا بأحد أضلاع المثمن المحيط بالفوارة



(شكل ١٥) عقد نهر حدرة (رسم تخطيطى) نقلا عن مورينو (٣)

القصـــر الأبلـــق
قصر الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة

أستاذ / محمود الحديد

الموقــع :

يقع هذا القصر ومايليه من قصور متتابعة بالجزء الجنوبى الغربى من قلعة صلاح الدين وتعرف باسم القصور السلطانية ، وكان جميعها يطل على ميدان الرميلة وتمتد جنوبا لتطل على القرافة وموقع هذا المبنى توجد فى المكان الذى يعرف باسم ساحة العلم وقد أشار المؤرخون القدامى كما أكدت الخرائط والصور التى خلفها علماء الحملة الفرنسية الى هذا الموقع .ومن هنا كان اختيار الجزء الجنوبى من ساحة العلم لاجراء حفائر للكشف عن بقايا هذه القصور الهامة والتى كانت تمثل المقر الرئيسى للحكم لفترات طويلة من الزمن خلال العصر المملوكى . وهذه الساحة كانت داخلة فى نطاق منطقة السجن الحربى ونظرا لأن جميع المبانى من هذه القصور قد هدمت أجزاؤها العلوية فى العهد العثمانى وعهد محمد على الذى قام بردمها ليصل الى منسوب جديد من الأرض (المنسوب الحالى) حتى يمكنه اقامة منشآته الجديدة فوق بقايا هذه القصور وهو ماأكده الجبرتى . ولاشك أن هذا الموقع هو الموقع القديم الذى اقيمت عليه الدور السلطانية والتى حدثت بها تغيرات شاملة فى عصر المماليك البحرية وبخاصة فى عصر السلطان الملك الناصر بن قلاوون الذى اعاد انشاء القصر الأبلق واقام بجواره عدة قصور أخرى كما جدد الايوان (دار العدل) وهو مبنى عظيم يجلس فيه للنظر فى المظالم.

القصر الأبلق كما يصفه المؤرخون:

يصف المقريزى القصر بقوله : هذا القصر يشرف على الاسطبل انشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى شعبان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وانتهت عمارته فى سنة اربع عشرة وانشأ بجواره جنينه وكانت العادة ان يجلس السلطان فى هذا القصر كل يوم للخدمة ماعدا يومى الاثنين والخميس فانه يجلس للخدمة بدار العدل. ويمشى من باب القصر فى دهاليز مفروشة بالرخام وقد فرشت فوقه انواع البسط الى قصر عظيم البناء شاهق فى الهواء بايوانين اعظمهما الشمالى ويطل منه على الاسطبلات السلطانية ويمتد النظر الى سوق الخيل والقاهرة وظواهرها نحو النيل ومايليه من بلاد الجيزة وقراها . وفى الايوان الثانى القبلى باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه الى الايوان الكبير ايام الموكب .

ويجوار هذا القصر ثلاثة قصور وهذه القصور جميعها من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر مؤزرة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المسجرة بالصدف والمعجون وأنواع الملونات وسقوفها كلها مذهبة وقد موهت باللازورد وزينت جدرانها بطبقات من الزجاج القبرصى الملون كقطاع الجوهر المؤلفة فى العقود وجميع الأراضى قد فرشت بالرخام المنقول اليها من أقطار الأرض مما لايوجد مثله.

ويذكر ابن اياس ان السلطان سليم الأول أمر بفك رخام قاعات القلعة السلطانية ونقله الى استانبول وقد تخربت القصور منذ هذه الفترة واستخدم الايوان فى العصر العثمانى مكانا لصنع كسوة الكعبة .

كما ذكر ابن اياس : ولما أقام إبن عثمان (السلطان سليم) بالقلعة ربط الخيول من الحوش الى باب القله الى عند الإيوان الكبير وباب الجامع الذى بالقلعة ، وفك رخامها ونزل به فى مراكب توجهوا

بهـا الى اسطنبـول ومما هو جـدير بالذكـر أ أعمـال التـخريب التى تمت بالنسبـة للمنشآت الخاصـة بالعصور السابقة على العصر العثمانى فى القلعة بل تعدتها الى جهات أخرى كما يذكر ابن اياس :

(ثم صار يحيى بن نكار يركب ويأخذ معه جماعة من المرخمين فيهـاجمون قاعـات الناس ويأخذون ما فيها من الرخام السماقى والزرزورى والملون فخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين وبيوت الأمراء قاطبـة حتى القاعات التى فى بولاق وقـاعة الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص التى على بركة الرطلى وغير ذلك من قاعات المباشرين) .

وفى موضع آخر يقول ابن اياس : (نزل ابن عثمان بالرخام الذى فكه من القلعـة فوضعـه فى صناديق خشب ونزل به فى المراكب ليتوجهوا به الى اسطنبول ومن العجايب ان السلطان الغورى ظلم أولاد ناظر الخاص يوسف وأخذ رخام قاعاتهم التى تسمى بنصف الدنيا وجعل ذلك الرخام فى قاعة البيسارية فسلط الله تعالى عليه بعد موته من أخذه من البيسارية ولم ينتفع به أحد من بعد والمجازاة بجنس العمل) .

ومما تجدر الاشارة اليه أنه اثناء اعمال الكشف الأثرى عن القصر الأبلق تم العثور على أربعة أعمدة من الجرانيت الفخم مما سنشير اليها فيما بعد عند الحديث عن أعمال الكشف الأثرى ولكن المقصود بهذه الإشارة هو ما ذكره ابن اياس عن هذه الأعمدة وكيف أن بعضها نقل الى استانبول وهذه الأعمدة مما كانت تحمل سقف الايوان أمام القصر الأبلق والذى كان يطل مباشرة على جامع الناصر محمد بن قلاوون فيقول : (،كان قبل ذلك بمدة نزلوا بالعمودين السماقيين الذى قلعوها من الايوان الذى بالقلعة فارتجت لهما الصليبة لما نزلوا بهما من القلعة وقاست الناس فى سحبهما غاية المشقة وحصل لهم بهدله من الضرب والسك وخطف العمايم والشدود ثم فى عقيب ذلك نزلوا بالمكاحل من القلعة وصاروا يربطون الرجال بالحبال فى رقابهم ويسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم ولو أنهم من أعيان الناس فحصل بسبب ذلك للناس ما لا خير فيه ، وفى يوم السبت سادس عشر ربيع الآخر سنة تسعمائة ثمان وعشرين سقطت القبة العظيمة التى كانت على الايوان سقطت باكر النهار وهذه القبه من إنشاء الملك الناصر محمد بن قلاوون الملك المنصور فلما سقطت تفاءل الناس بزوال ملك الإمراء عن قريب . وهذه القبة لها نحو مائتى سنة من حين عمرت وكانت من خشب وفوقها رصاص وكانت مغلفة بقيشانى اخضر ولم يعمر فى مصر اكبر منها قط وكانت من نوادر الزمان) .

وصف للموقع قبل أعمال الكشف الأثرى :

يؤدى الى القصر الأبلق من باب (بوابة) مواجهة لجامع الناصر بن قلاوون ذى بدنتين نصف مستديرتين كان ملحقا به مبانى من القرن التاسع عشر الميلادى (هدمت أخيرا) ولعلها كانت غرف لمحلات خاصة بمنشأه حربية وكان ملحقا بها فى ظهر دورةمياه مسجد محمد على مخازن الطوبجية . وقد جدد باب هذا المكان والمعروف بباب ساحة العلم فى عهد الخديوى إسماعيل كذلك يمكن ترجيح تاريخ إنشاء المبنى الذى تم تطويره فيما بعد ليكون متحفا قوميا للشرطة (من عهد الخديوى اسماعيل ايضا) اما السجن الحربى والذى تحول منذ الخمسينات الى معتقل فيرجح ان

الأجزاء القديمة منه تعود الى عصر اسماعيل باشا . واما الزنزانات المبنية من الطوب فمن انشأ الفترة بين ١٨٨٢ الى ١٨٩٢م ويؤكد هذه المعلومات الاطلاع على الخرائط الآتية:

١- الخريطة العامة لمدينة القاهرة سنة ١٨٤٦م (مستر/ باور، لكولونيل شولتس)

٢- خريطة القاهرة وضواحيها سنة ١٨٥٨م .

٣- خريطة القاهرة وضواحيها سنة١٨٦٨م.

٤- خريطة جران بك سنة ١٨٧٤م.

٥-خريطة برواه بك سنة١٨٩٢م.

٦-خريطة الكولونيل/ جرين سنة١٨٩٦م.

اما المساحة الفضاء داخل باب العلم والمطلة على الميدان فكانت مستعملة فى اواخر القرن التاسع كبطارية اطلاق مدفعية علوية ومدفع الظهر . اما السجن الحربى فكان له مدخل فى الموضع المفتوح حاليا عقب الدخول مباشرة من بوابة العلم على يمين الداخل . وكان موضع هذه الأماكن جميعا فى الماضى تحوى مبانى قصور للأمراء الخواص وقصور ملحقة بالقصر الأبلق وكذا كان على الطرف الشمالى الغربى آخر سلسلة الاسوار المحصنة القادمة من باب سر القلعة ، وقد عثر أخيرا على أجزاء من برج ضخم مستدير أسفل المبنى المعد لمتحف الشرطة القومى وكذا عثر على مداميك حجرية من الخارج عليها نقش السباع منحوته نحتا بارزا أسفل سلم مبنى المتحف وهى من مميزات منشآت السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى الذى كانت مبانيه تزدان بهذا النقش الذى كان رنكة (شعاره) ومثال ذلك قناطر ابو المنجا قرب شبرا الخيمة وكذا منشآت أخرى اندثرت مثل قناطر السباع تحت ميدان السيدة زينب وغيرها من منشآت بمصر والشام كانت مزدانه بالسباع وهكذا يكون قد عثر على برج مؤرخ ذكره المؤرخون ضمن منشآت الظاهر بيبرس وهو اما أن يكون برج الزاوية بحكم موضعه كما عرف ايضا باسم برج السباع . وعموما فالموضع غنى بالمنشآت الهامة ويكتظ بالمنشآت ذات الاهمية الكبرى التى لاتزال تحت هذه المساحة الكبيرة التى اقيم على جزء كبير منها حديقة متحف الشرطة القومى وهى منشآت ذات طوابق معقودة لاتزال تحتها انتظارا للكشف عنها .

بدء اعمال الكشف :

بدأت اعمال الحفر بموقع القصر الأبلق بتاريخ ١٩٨٥/٧/٢١م باجراء مجسات تحولت الى حفائر كاملة بعد أن ظهرت آثار جدران ضخمة بعضها مبنى بأحجار الدستور والبعض مبنى بالطوب الأحمر ، وقد امتدت أعمال الحفر فى مساحة بلغت ٤٥ × ٣٠ متر ، وقد عثر على سلم فى الجهة الجنوبية من الموقع يؤدى إلى أسفل كما تم الكشف عن ممر مكشوف يمتد الى الجهة الشرقية ، وتم الكشف عن أحد أكتاف ايوان القصر الذى كان دليلا للكشف عن الكتف الأخرى المقابلة له على مسافة (١٠,٥م) وبتوالى أعمال الحفر كشف عن جدران الايوان الرئيسى للقصر التى ظهرت بأعلاها تجاويف رأسية كان مثبتا بها أخشاب تحمل ازارا عريضا علويا يوجد أسفله ازارا آخر من

الفسيفساء الزجاجية المذهبة والملونه يبلغ عرضها (٨٠,م) وهى تعد أول فسيفساء زجاجية يعثر عليها بأحد القصور فى العصر المملوكى بمصر . وباستمرار الحفر عثر اسفل ازار الفسيفساء على إزار آخر عبارة عن وزرة رخامية نزع رخامها ولم يتبق منها سوى طبقة الجص الحاملة لها وبعض البقايا الرخامية التى تدل على ما كانت عليه من عظمة وثراء فنى ، وقد عثر بأرضية الإيوان على عمق (١٠,٥م) من سطح الأرض الحالية وبامتداد العمل للكشف عن باقى الأجزاء تم الكشف عن الايوان الكبير الغربى (الشمالى الغربى) والد رقاعه تتوسطها فسقية مثمنة يقابلها الإيوان الشرقى (الجنوبى الشرقى) .

الوصف المعمارى لإيوان القصر :

يتكون الايوان من درقاعة مستطيلة تقريبا مساحتها ١٤,٢٥×١٢,٧٠ مترا (انظر رقم٢ بالرسم) تتوسطها فسقية مثمنة (رقم٥بالرسم) وفى كل من الجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية إيوانان صغيران يعلوان عن أرضية الدرقاعة (رقم ٤بالرسم) وفى كل من الركنين الشمالى الغربى والجنوبى الغربى من الدرقاعة يوجد باب (رقم٦بالرسم) الباب الشمالى الغربى يؤدى الى سلم اسطوانى صاعد الى أعلى به درج حجرى كما يؤدى الباب الى دهليز سفلى يؤدى الى جهة الشمال .

اما الباب الجنوبى الغربى المقابل للباب السابق ذكره فيؤدى الى سلم مكشوف (رقم٧بالرسم) ومن المحتمل ان هذا السلم والممر يؤديان الى الدهليز الموصل الى بقايا القصور الجوانية والواقعة أسفل قصر الجوهرة والساحة بينهما وفى الجهة الغربية من الدرقاعة يوجد الإيوان الكبير للقصر الأبلق (رقم١بالرسم) وتعلو أرضيته عن ارضية الدرقاعة بمقدار (٣٠,م) ويبلغ عرض فتحة هذا الإيوان (١٠,٥م) وأما عرضه فيما يلى فتحة الإيوان (١٦,٢٠م) اما عمقه فغير محدود بسبب الجدار الضخم الذى بناه محمد على فى صدر الايوان لتقوية الأسوار ولإقامة قواعد المدفعية (رقم٨بالرسم) وفى الجهة الشرقية من الدرقاعة يوجد الإيوان الشرقى) (رقم٣بالرسم) وهو أصغر من الايوان الغربى الكبير ويبلغ عرض فتحة الايوان (٩,٦٥م) .

أرضيات الجزء المكتشف من القصر الأبلق :

تنخفض أرضية الدرقاعة عن أرضية الإيوانات المتعامدة عليها بمقدار (٣٠,م) وكانت جميع أرضيات الدرقاعة والأيوانات والدهاليز مبلطة بالرخام الملون (يؤكد ذلك البقايا التى عثر عليها وخاصة بجوار الجدران وكذلك وصف المقريزى لأرضيات القصر) وقد نزعت هذه الأرضيات مع الوزرات الرخامية للجدران فى عهد السلطان سليم الأول .

العناصر الزخرفية بجدران القاعة :

كانت جدران القصر جميعها من الداخل من مستوى الأرضية وحتى السقف مكسوة بصنوف متنوعة من الزخارف وتؤكد مدى الثراء الفنى الذى كان عليه هذا القصر العظيم وتدل على البقايا التى عثر عليها بالجدران سواء من بقايا جص مثبت عليها الزخارف أو الزخارف نفسها . فالجزء الاسفل من الجدران وحتى ارتفاع حوالى خمسة امتار كان مكسوا بوزرة رخامية من قسمين تحتوى

على ترابيع وأشرطة والواح من الرخام الملون تغلب عليها الوان الابيض والاسود والاحمر والاصفر والتى لازالت بعض بقاياها موجودة .

ويعلو الوزرة الرخامية إزار من العقود المفصصة (على شكل محاريب متكررة)

من الرخام محمولة على اعمدة رخامية قصيرة ذات تيجان مذهبة تحصر بينها زخارف من الفسيفساء الرخامية والصدف تشكل فيما بينها زخارف هندسية دقيقة . ويعلو هذه العقود إزار آخر رخامى يحتوى على زخارف نباتية عبارة عن فروع واوراق نباتية بالحفر البارز يمتد أيضا حول جدران القاعة كلها .

وتجدر الاشارة إلى أن الفنان استخدم مسامير من النحاس على هيئة حرف T اللاتينى لتثبيت هذا الإزار بالجدران من جانبيه السفلى والعلوى بالتبادل بشكل غير ظاهر . وهذا اسلوب يدل على مدى الدقة والإتقان والعناية التى اشتهر بها الفنان المسلم فى تثبيت الزخارف على الجدران .

ويعلو هذا الإزار إزار آخر فى غاية من الروعة من الفسيفساء الزجاجية الملونة والمذهبة المثبتة على ارضية من الجص والتى تشكل فى مجموعها زخارف نباتية من أشجار ونباتات وأشكال على هيئة فازات للورود وأشكال مبانى على هيئة قصور. ويبلغ عرض هذا الإزار حوالى ٨٠ سم وقد استخدم الفنان الصدف فى إثراء الزخارف وزين بها الأشجار بحيث تبدو وكأنها من الدقة بحيث استخدم مسامير حديدية ذات رؤوس مستديرة لتثبيت الفسيفساء فى الجدران وغطى هذه الرؤوس الحديدية بقطع مستديرة من الصدف حتى لاتظهر بين الزخارف ، وقد عثر على هذه المسامير الحديدية بعد سقوط معظم الفسيفساء على طبقة الجص مثبته فى الجدران الطوب .وقد عثر فوق الجزء العلوى من الجدران فوق شريط الفسيفساء على مناطق رأسية غائرة داخل المبانى بطريقة منتظمة ومكررة ومن المرجح أن هذا الجزء من الجدران كان مثبتا به شريط عريض من الخشب يحتوى على كتابات قرآنية أو انشائية أو عناصر زخرفية .

الأعمدة المكتشفة شرق الموقع :

عثر فى الجهة الشرقية من القصر الأبلق على مستوى يتفاوت بين متر ، ١,٥ متر من سطح الأرض على اربعة اعمدة جرانيتية ضخمة لايقل قطر العمود عن متر ويتراوح أطوالها بين ٦,٥ متر ، ٨,٣ متر وتوجد كتابة نسخية أعلى الأعمدة على واحد منها تقرأ عبارة «عز لمولانا السلطان» والثانى «الأعظم الملك الأشرف» والثالث «السلطان الإسلام والمسلمين» والرابع «عز الله نصره» .

وهناك أعمدة أخرى مازالت تحت الرديم لم يسعف الوقت برفعها وهذه الأعمدة من بقايا أعمدة الإيوان الكبير الذى كان يعرف باسم «دارالعدل» الذى كان يجاور القصر الأبلق من الجهة الشرقية ويمتد اسفل دورة مياه محمد على وحتى الحديقة شرقى دورة المياه والتى سبق العثور بها على جزء من عمود جرانيتى وتاج عمود ومما هو جدير بالذكر أن هذه الأعمدة الجرانيتية جليت من معابد فرعونية من الأشمونين والتى استعمل بعضها أيضا فى جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة والذى كان هذا الإيوان يطل عليه مباشرة .وكما سبق ان ذكرنا فى اقوال المؤرخين (ابن اياس) من أن هذا الإيوان كانت تعلوه قبة عظيمة من انشاء الملك الناصر محمد بن قلاوون وأن هذه القبة لم

يعمر (يقام) فى مصر أكبر منها قط وكانت من نوادر الزمان ، وكانت من الخشب ومغلفة من خارجها بالرصاص وهذا الأخير مغلفا بالقيشانى الأخضر وأن هذه القبة سقطت فى يوم السبت السادس عشر من ربيع الآخر سنة تسعمائة وثمان وعشرين هجرية .

أهمية الكشف :-

أولا : يعتبر هذا الأثر من أقدم القصور الموجودة بمصر حيث أنه بنى فى عصر المماليك البحرية ٦٤٨ -٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ -١٣٨٢م وقد بنى فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون الذى تعتبر فترة حكمه اطول فترة فى تارخ دولة المماليك بمصر .

ثانيا : هذا الكشف أصبح دليلا ماديا يؤكد صحة ماذكره الذين عاصروا العصر المملوكى أو العصر العثمانى ، عن القصر الأبلق والقصورالسلطانية االمجاورة .

ثالثا : العثور على الأعمدة الجرانيتية الضخمة المنقولة من الأشمونين ووجودها فى هذا الموقع تؤكد تحديد موقع الإيوان الضخم الذى كان يواجه القصر الأبلق ويطل على جامع الناصر محمد مباشرة والذى عرف هذا الإيوان باسم «دار العدل» وهو الذى كان يجلس به السلطان للنظر فى المظالم .

رابعا: العثور على مساحة من جدران القاعة الخاصة بالقصر الأبلق ، وعليها الزجاج القبرصى الملون الذى يشكل اشكالا نباتية ومعمارية وكذلك وجود آثارالازارات التى بجدران القاعة وآثار ارضيتها الرخامية وقد عثر على اجزاءمنها متبقية رغم التخريب الذى حدث للمبنى فى العصر العثمانى ،نقل معظم رخامه الى استانبول «حسب قول ابن اياس» وهذا يؤكد صحة ما ذكره المؤرخون من وصفهم الخلاب لهذا القصر والقصور الثلاثة الأخرى المجاورة (يرجع الى ما سبق ذكره فى وصف المؤرخين) ، والذى بدون العثور على تلك الادلة المادية نتيجة اعمال الكشف ، لظل البعض يعتقد أن ما ذكره المؤرخون كان شطحه من شطحات الخيال .

خامسا: نظرا لما اسفر عنه الكشف عن تلك القاعة وظهور التخطيط المعمارى الشامل لها ، ونظرا لان هذا التاريخ لبناء القصر يعتبر فى نظرنا حاليا اقدم تخطيط معمارى لبناء القاعات فإنه بالتالى يصبح هذا التخطيط هو الرائد فى نظرنا حتى االيوم ، لنظام القاعات فى القصور والمنازل التى تلت ذلك التريخ حتى القرن الثامن عشر الميلادى .

والتخطيط المعمارى لهذه القاعات يعرف بالتخطيط المتعامد بالنسبة لأيوانات القاعة وهى فى العادة اربعة إيوانات متقابلة اكبرها إيوانان كبيران متقابلان وأصغرها الإيوانان الآخران متقابلان ومتعامدان عليهما عند منتصف القاعة . ويتوسط الإيوانات الأربعة درقاعة تنخفض عن أرضية الإيوانات بحوالى ٣٠سم وتتوسط الدرقاعة فى العادة فسقية اما مثمنة أو مسدسة أو مربعة الشكل .

وهكذا صار التخطيط العام هو التخطيط العام هو التخطيط السائد لنظام القاعات فى العصور التالية وهناك أمثلة عديدة لبعض القصور والمنازل التى سارت على هذا التخطيط فى التواريخ التالية القاعة مثل :-

١- قصر الأمير بشتاك (سيف الدين باش تك) بدرب قرمز بالجمالية ٧٣٥هـ - ١٣٣٤م .

٢- قصر الأمير طاز بالسيوفية ٧٥٣هـ - ١٣٥٢م .

٣- منزل آمنة بنت سالم (متحف أندرسون) ٩٤٧هـ - ١٥٤٠م .

٤- منزل السحيمى (بالدرب الأصفر) ١٠٥٨هـ - ١٦٤٨م.

٥- منزل زينب خاتون (بالأزهر) ١١٢٠هـ - ١٧١٣م.

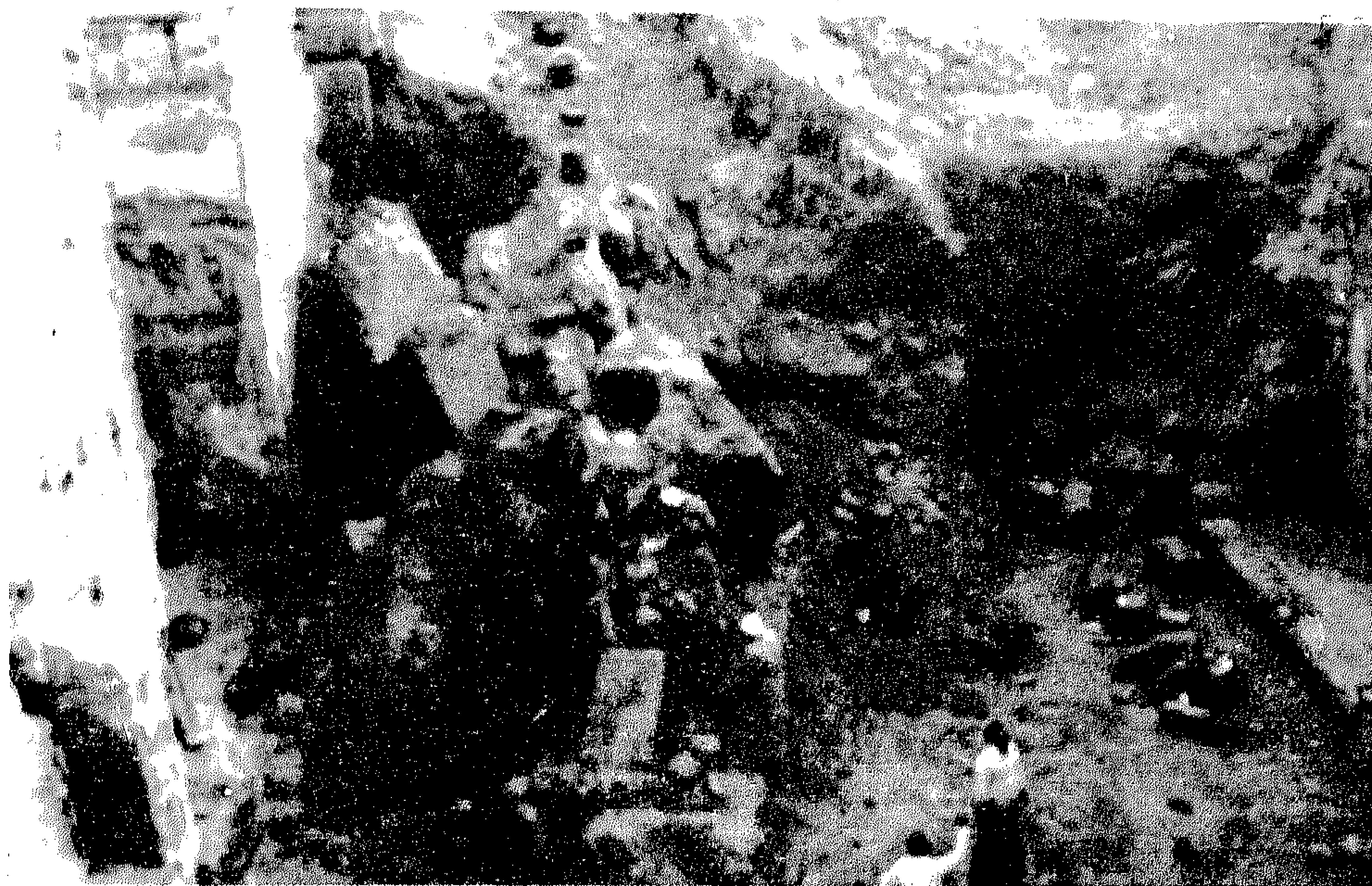
٦- منزل احمد كتخدا الرزاز ١١٩٢هـ -١٧٧٨م .

٧- سراى المسافر خانة ١١٩٣هـ - ١٧٧٩م .

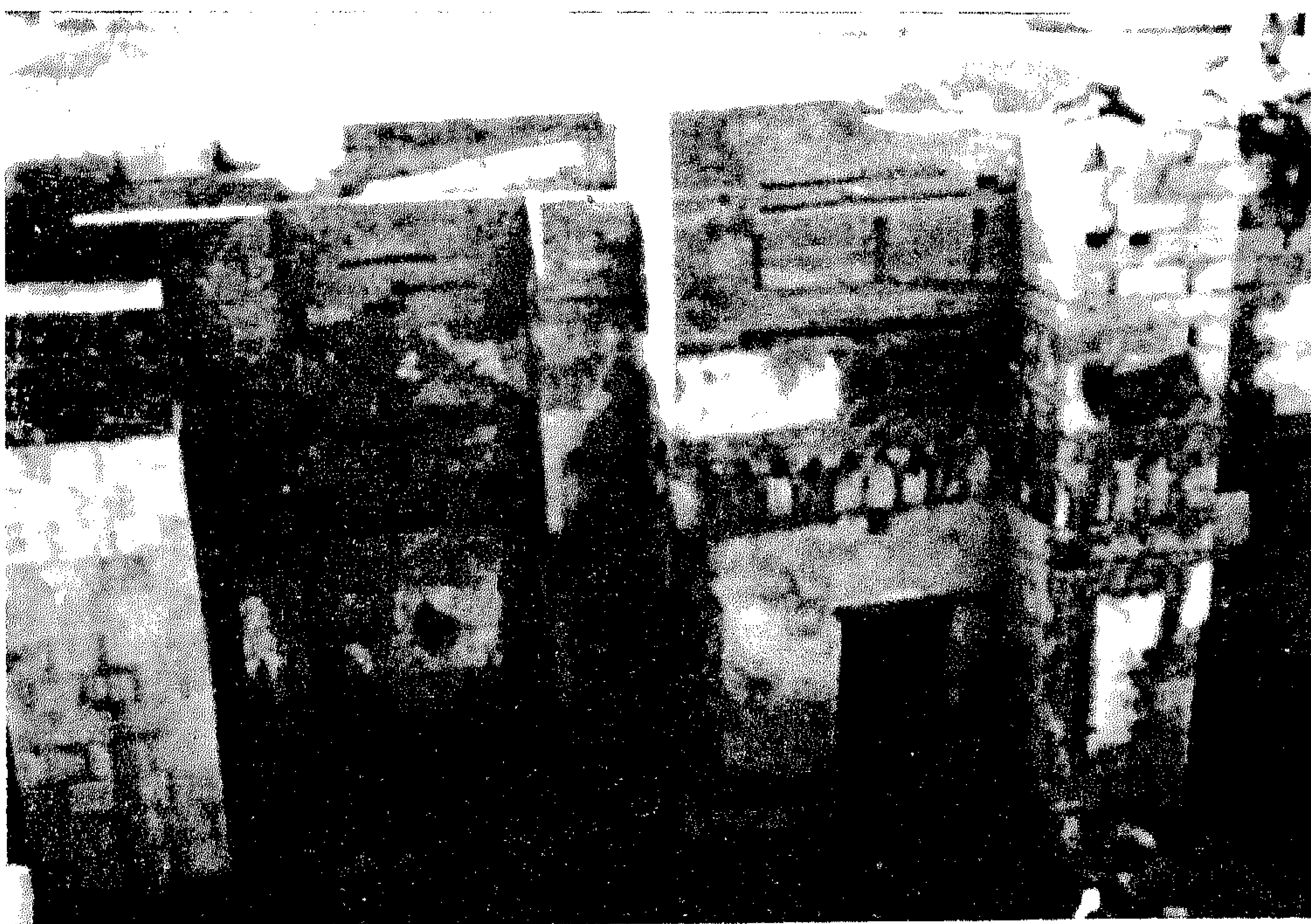
ومما لاشك فيه أن ماتم الكشف عنه يمثل جزءا كبيرا وهاما من القصر الأبلق وأنه مازال هناك الكثير فى الموقع لم يكشف عنه حتى الآن ، وكلّى أمل كبير فى أن تقوم الأجيال الحالية المهتمة بآثارنا الإسلامية ، فى الإستمرار فى الكشف عن باقى القصر وملحقاته خصوصا بالأرض الفضاء بساحة العلم واسفل دورة المياه الحادثة الملحقة بجامع محمد على .

والله ولى التوفيق

* * *



لوحة (١) منظر عام
حفائر القصر الأبلق أثناء العمل ويظهر فيها الأعمدة الجرانيتية الخاصة بإيوان الناصر محمد

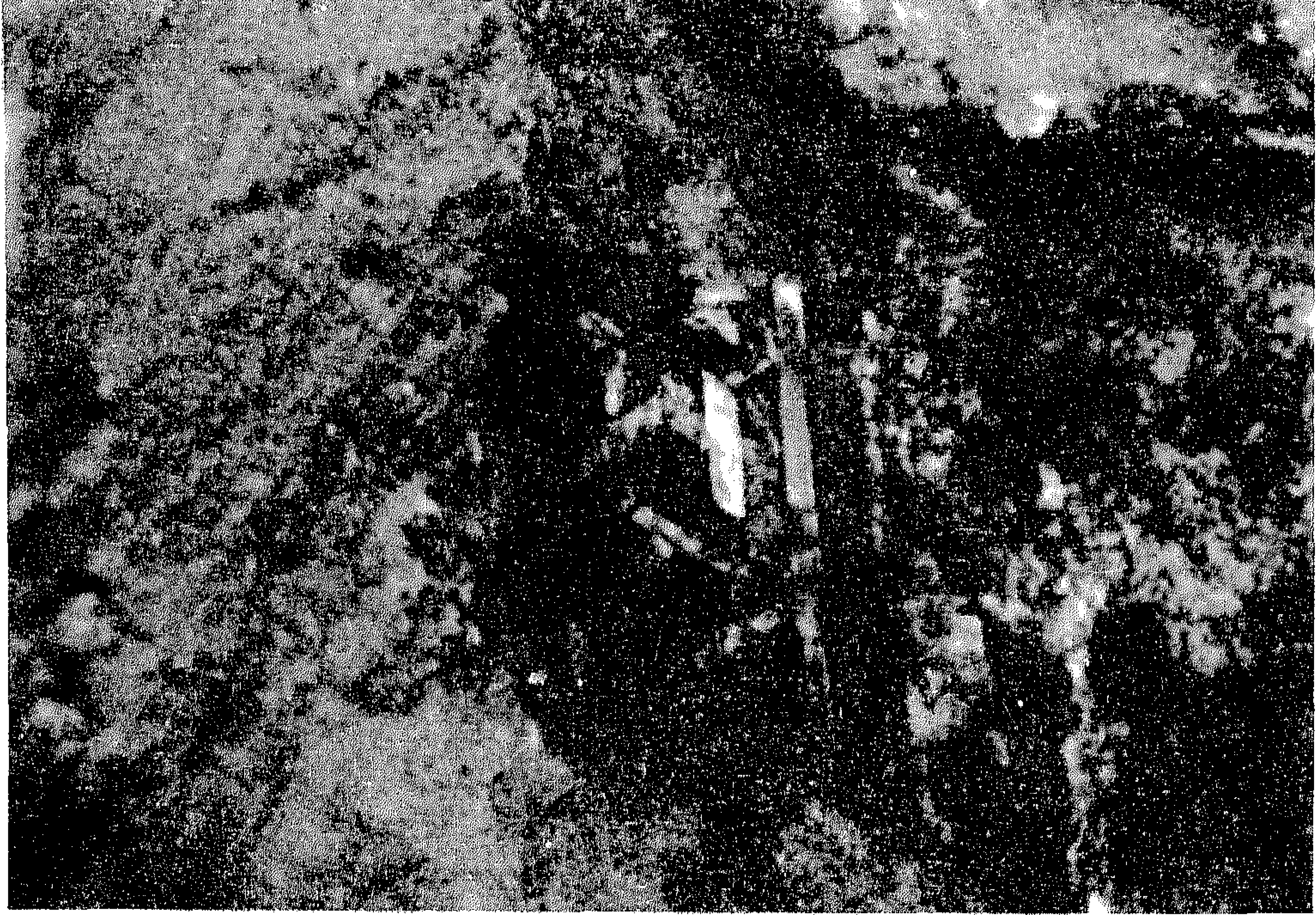


لوحه (٢) أحد جدران القاعة
الجدار الجنوبى الغربى للقصر من الداخل وبه الباب المؤدى للدرقاعة



لوحة (٣) تفصيل للجدار

جزء من الجدار الجنوبي للقصر ويظهر عليه الإزار الذى يشتمل على العقود المفصصة ويعلوه إزار آخر يشتمل على بقايا الفسيفساء الزجاجية

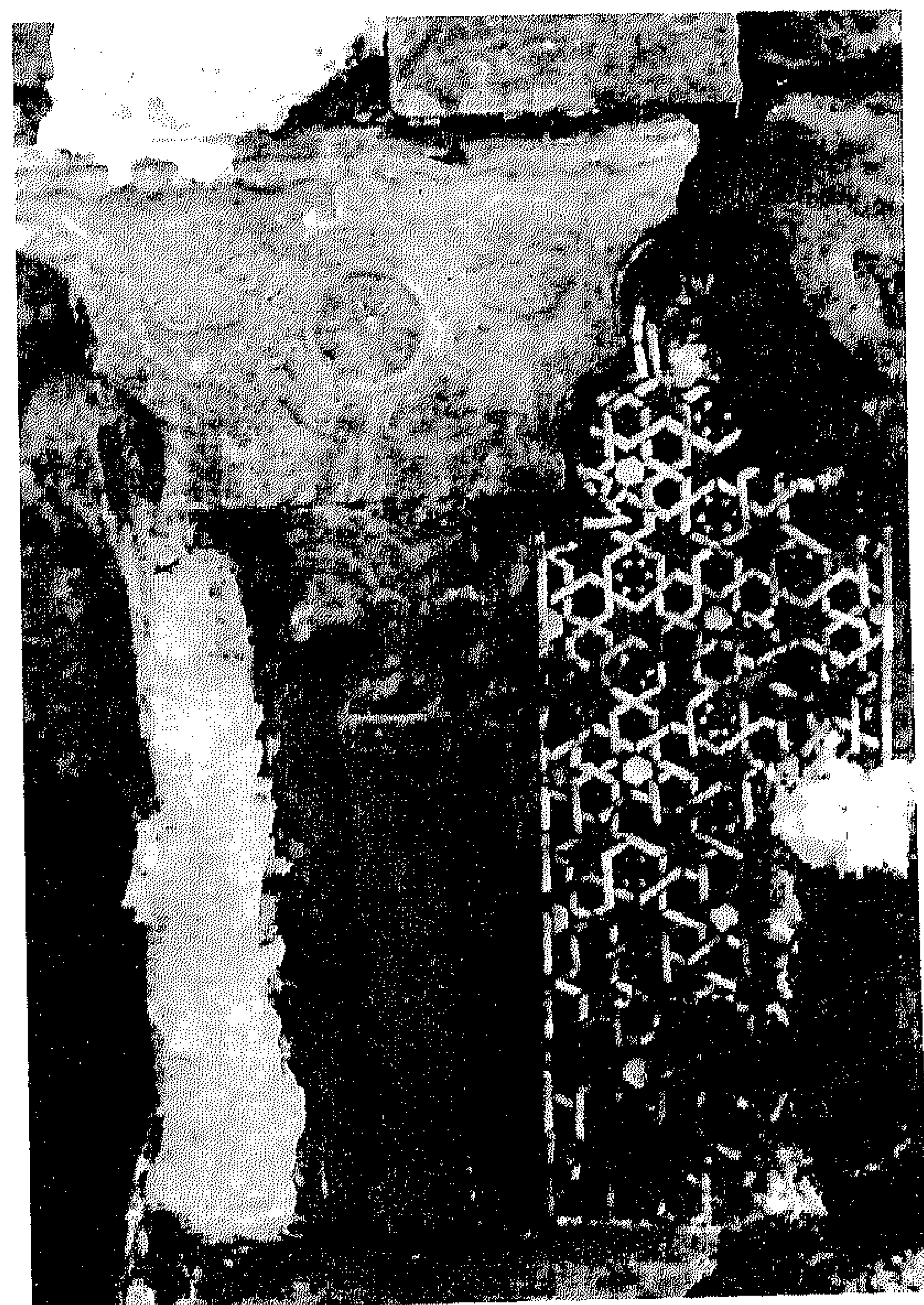


لوحة (٤) بداية ظهور الفسيفساء الرخامية

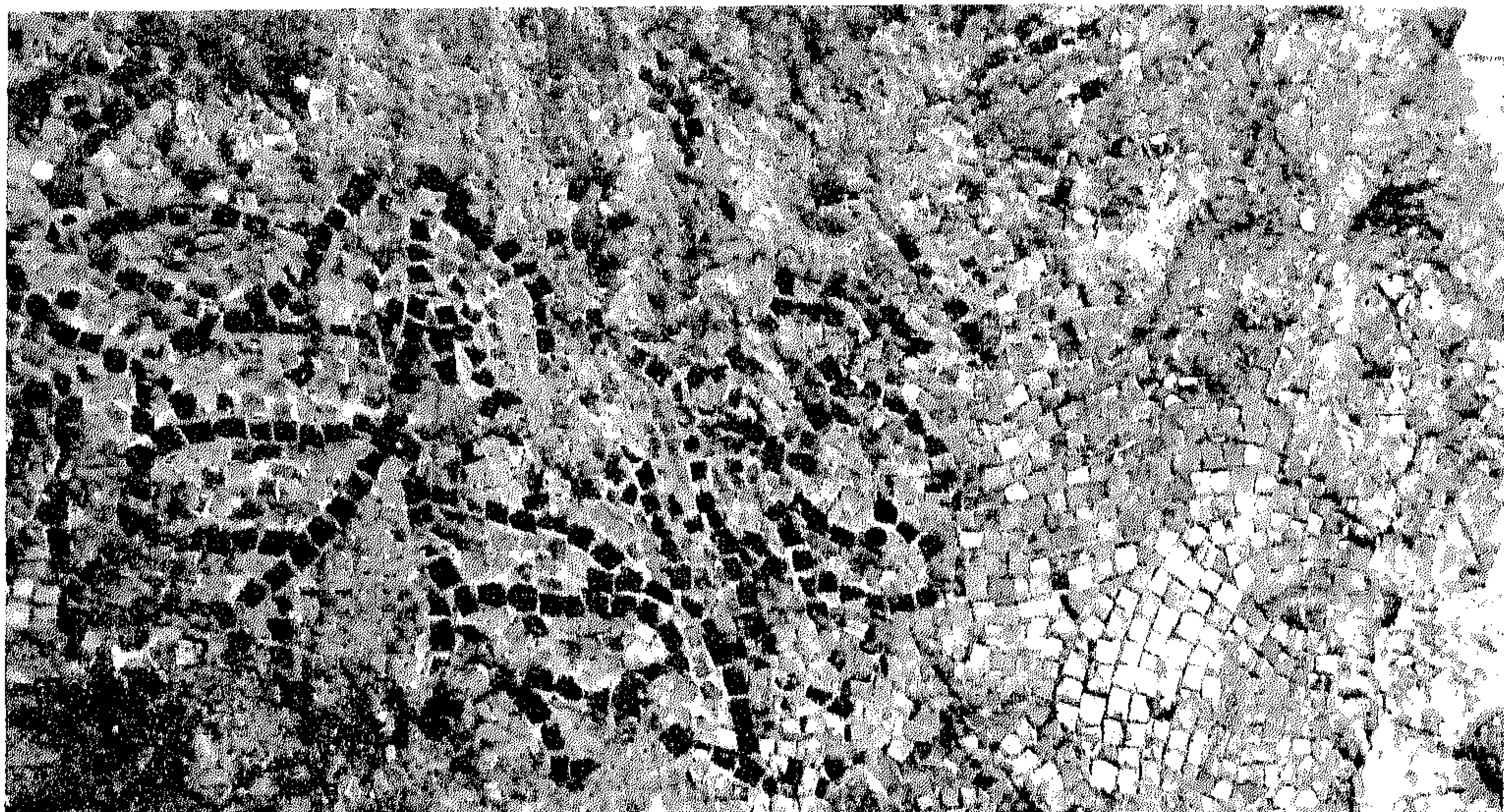
جزء من شرائط رخامية ملونة تكون فيما بينها زخارف هندسية .



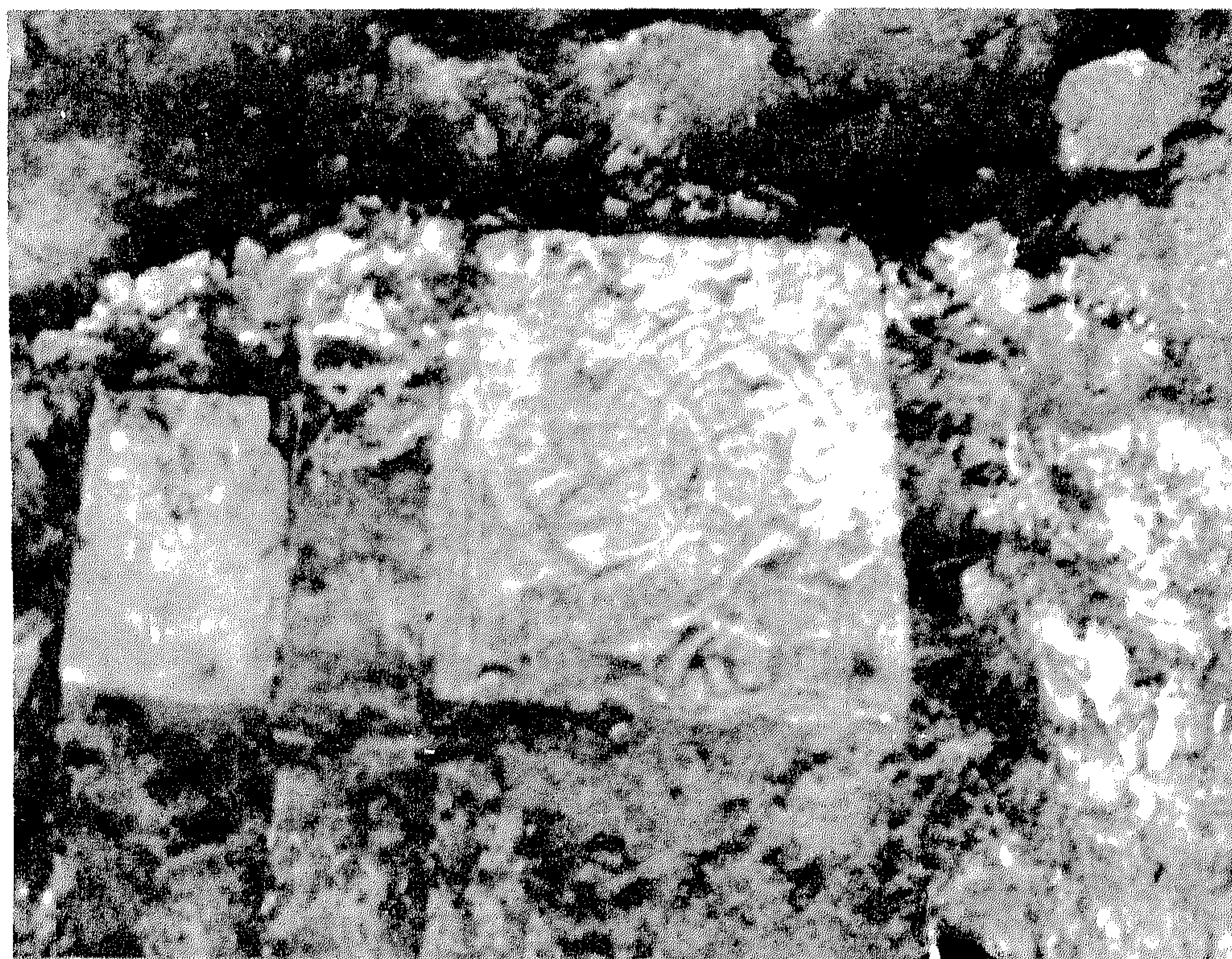
لوحة (٥) بداية ظهور العقد الزخرفى
جزء من العقد الرخامى المفصص



لوحة (٦) الزخارف بعد الكشف
جزء من ازار العقود المفصصة محمول على أعمدة
رخامية قصيرة وبها زخارف فسيفساء رخامية وصدف



لوحة (٧) الفسيفساء الرخامية
بقايا زخارف الفسيفساء الزجاجية على جدران القصر



لوحة (٨) زخارف رخامية
جزء من وزرة رخامية عليها زخارف بارزة بالحفر

القصر الأبلق

مسقط أفقى - بمقياس رسم ١:١٠٠



لوحة (٩) عبارة دعائية على أحد الأعمدة الرخامية

الكتابة النسخية على أحد أعمدة إيوان الناصر محمد المجاور للقصر الأبلق

على هامش المصحف الإمام والخط المصحفي

أستاذ / محمود حلمي محمد

كان مصحف الخليفة الاول «أبى بكر الصديق» رضى الله عنه أول مصحف كامل لسور القرآن الكريم يكتب فى الاسلام ، وذلك فى العام الثانى عشر من الهجرة النبوية الشريفة وكانت لكتابة هذا المصحف أسباب ودوافع ، تقول الراوية عنها نقلا عن الصحابى الجليل «زيد بن ثابت الأنصارى » كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه جاء الى أبى بكر فقال : أن القتل قد أسرع الى قراء القرآن فاكتبه ، فقال أبو بكر : فكيف نصنع بشىء لم يأمرنا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعهد الينا فيه عهدا فقال عمر : افعل فهو والله خير ، فلم يزل عمر بأبى بكر حتى أرى الله أبا بكر مثل ما رأى عمر . قال زيد : فدعانى أبو بكر فقال : انك رجل شاب قد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجمع القرآن واكتبه ، فقال زيد لأبى بكر كيف تصنعون بشىء لم يأمركم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ، ولم يعهد اليكم فيه عهدا، فقال فلم يزل بأبى بكر حتى أ رانى الله مثل الذى رأى أبو بكر وعمر فقال : والله لو كلفونى نقل الجبال لكان أيسر من الذى كلفونى فقال فجعلت أتتبع القرآن من صدور الرجال ومن الرقاع ومن الأضلاع (العضم) ومن العسب (جريد النخل) . قال : ففقدت آية كنت أسمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أجدها عند أحد فوجدتها عند رجل من الانصار (وهى) « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر» (الأحزاب:٢٣) وألحقتها فى سورتها وكانت تلك الصحف عند أبى بكر حتى مات ثم عند السيده حفصه [١] .

وحين ينقل لنا الأمام «عثمان سعيد الدانى »المتوفى سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٢ م هذه الرواية و يعين بالذات الآية رقم ٢٣ من سورة الأحزاب نجد أن الأمام «سهل بن محمد السجستانى» المتوفى (٢٣٠هـ/٨٥٤م) يذكر أن الذى افتقده ، «زيد بن ثابت الأنصارى »وجده عند «خزيمة بن ثابت الأنصارى » و هما الآيتان «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت و هو رب العرش العظيم» (التوبة ١٢٨ ـ ١٢٩) [٢] .

و لم يقتصر السجستانى على هذه الرواية بل تراه يأتى لنا برواية أخرى قال فيها ، «ان ابن ثابت قال : فقدت آية من سورة الاحزاب كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها وهى : «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا (الاحزاب : ٢٣) [٣] وهى ذات الرواية التى ذكرها « الدانى» من بعده وهذا التضارب فى الرواية قد عرف عند قدامى الكتاب .

واذا كانت رواية الامام «الدانى» قد أعطتنا لمحة مقتضبة عن ارهاصات المصحف الشريف الذى كتب للخليفة الأتقى «أبى بكرالصديق» رضى الله عنه ، فقصة المصحف الشريف الذى أمر بكتابته عثمان بن عفان «رضى الله عنه» وعرف باسم « المصحف الامام » أو «مصحف عثمان» له رواية أخرى حدثنا بها الامام « الدانى» قال : ابن شهاب : أخبرنى أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكانوا يقاتلون فى مرج أرمينيا ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين انى سمعت الناس اختلفوا فى القرآن اختلاف اليهود والنصارى حتى أن الرجل ليقول هذه قراءة فلان فقال : فأرسل عثمان الى السيدة حفصة أن أرسلى الينا الصحف فننشرها فى المصاحف ثم نردها

اليك ، قال : فأرسلت اليه بالمصحف ، قال : فأرسل عثمان الى زيد بن ثابت وإلى عبدالله بن عمرو بن العاص ، وإلى عبد الله بن الزبير ووإلى العباس ، وإلى عبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، فقال انسخوا هذا المصحف فى مصحف واحد [٤] وجعل : عثمان بن عفان رضى الله عنه عليهم «زيد بن ثابت الانصارى » وقال لهم اذا اختلفتم أنتم وزيد فى عربيةمن عربية القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإن القرآن أنزل بلسانهم ففعلوا ذلك » [٥] و كانت دوافع «عثمان بن عفان» رضى الله عنه فى جمع القرآن قد تأتت اليه من ضرورة ملحة وعاجلة سببها أنه حين « أتسعت رقعة العالم الاسلامى وتفرق العرب فى الأمصار المختلفة وتفرق معه الصحابه يفقهونهم فى أموردينهم وكان طبيعيا أن يأخذ كل إقليم بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة فأهل الكوفة –على سبيل المثال– كانوا يقرأون القرآ ن بقراءة عبد الله بن مسعود وأهل الشام كانوا يقرأون بقراءة أبىّ بن كعب ، وكان بين القراءتين الختلاف فى الأداء ، وفى وجوه القراءة ناشىء عن أن كلا منهما قد تلقى القرآن عن النبى صلى الله عليه وسلم باللهجة التى ينطق بها لسانه وقد استفحل أمر هذا الخلاف فى القراءة فى الحجاز فيما بينهم ، وتدارك عثمان الأمر قبل أن يستفحل الداء فجمع أعلام الصحابة وتدارس معهم هذه الفتنه واسبابهما ووسائل علاجها وأجمعوا أمرهم على ضرورة عمل نسخ من القرآن ترسل الى الامصار وتكون أصلا للقراءة والكتابة يرجع اليها كلما دعت الحاجة ، ويعتمد عليها ويأخذ عنها العرب جميعا على اختلاف لهجاتهم كما يأخذ عنها غير العرب من المسلمين [٦] . وحين أتم الكتبة الصحابة نسخ عدد من المصاحف أرسل «عثمان بن عفان» رضى الله عنه الى كل أفق مصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صفحة أو مصحف أن يحرق [٧] .

وكان لابد طالما أ ن الامر خاص بحرق صحائف من القرآن الكريم أن يستشير الخليفة كبار الصحابة قبل أن يقدم على مثل هذا العمل الذى تم لأول مرة فى تاريخ الاسلام فأجازوه على ذلك حتى أن «على بن أبى طالب رضى الله عنه حين حرق عثمان المصاحف ، قال لو لم يصنعه هو لصنعته ، وعن مصعب بن سعد قال : أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك وقال لم ينكرذلك منهم أحد [٨]» .

كتب «المصحف الإمام » أو «مصحف عثمان» سنة خمس وعشرين من الهجرة (٦٤٥م) وحتى الآن لم يتأتى لنا أن نحدد المصاحف التى أمر «عثمان بن عفان رضى الله عنه بنسخها ، اذ لم يقطع أحد برأى محدد فى هذا العدد ففى حين حدد بعض المؤرخين رقما معينا عين غيرهم رقما مختلفا ، ولكن الذى تواتر عليه كتاب التاريخ هو أن هذه المصاحف التى كتبت آنذاك بعث بها الخليفة السادس الى كل من البصره ، والكوفه ، والشام ، ومكة ، ومصحف جعله لأهل المدينة ومصحف – آخر اختص به نفسه . وهذه ستة مصاحف . ومن ذلك الحين عرفت هذه المصاحف باسم «المصاحف العثمانية» أو «المصحف الامام» ومن ذلك الحين أيضا أصبحت هذه المصاحف عند كافة االمسلمين هى وحدها النسخ المعتمدة الوحيدة من القرآن الكريم التى ينقل عنها .

اما هذه النسخه من المصحف الشريف التى كانت عند السيدة حفصه أم المؤمنين والتى لم يتمكن «عثمان بن عفان » رضى الله عنه أن يأخذها منها ليحرقها ، فقد حاول من بعده الخليفة الأموى الرابع «مروان بن الحكم» (٦٤-٦٥هـ/٦٨٣-٦٥٨م) أن يأخذها منها فأبت عليه ذلك ، فلما

ماتت أرسل بهاعبد الله بن عمر الى مروان . فشقها وحرقها مخافة أن يكون فى شىء من ذلك اختلاف لما نسخ عثمان رضى الله عنه (٩).

وعود على بدء نقول أن «الديوان النبوى» و المدينة المنورة كان زاخرا بالعديد من الكتبه الذين استعملوا فيما استعملوا فى كتابة الرسائل النبوية الخط المكى بجانب الخط المدنى لأنه كان من الطبيعى أن هؤلاء الذين قدموا من «مكة» وحلوا مهاجرين على المدينة كانوا يكتبون «بالخط المكى» وهو خط لين ،بينما أهل المدينة يكتبون بخط آخر مختلف عرفناه باسم «الخط المدنى» ومن هنا يمكننا أن نرجح أ ن تكون الرسائل النبوية التى أرسلت الى ملوك ورؤساء القبائل قد كتبت بكلا الخطين بيد أن هذه الصورة من الكتابة قد تغيرت عندما كتب «المصحف الامام» الذى لا شك أنه كتب بخط مميز امتزجت فيه الصورة «المكية» بالصورة «المدنية» فتشكل من ذلك خط جديد استقامت حروفه واعتدلت منتصبة وقائمة وقد أصبح لهذا الخط المصحفى – إذا جاز لنا أن نطلق عليه ذلك الإسم شأنا كبيرا حين انتقل الى مدينة «الكوفة» .ومن المحتمل أن هذه الصورة المحسنة من الخط المكى –المدنى هى وحدها التى استعملت فى كتابة المصحف الامام وأن هذا الخط المصحفى قد أخذ سبيله ليصبح فيما بعد تقليدا ملتزما كتبت به كل المصاحف فى كل مكان حل فيه الاسلام ، وقد استمر هذا الخط يكتب به قاصرا على المصاحف وحدها لأكثر من خمسة قرون فى المشرق ليستبدلوه بعد ذلك بالصورة اللينة(خط النسخ) . أما فى المغرب العربى الاسلامى فقد حافظوا على هذا الخط التقليدى ولم يغير وإن كانوا قد بدلوا بعض الشىء من صورته .

ولقد ظهر الخط المصحفى «فى أجمل صوره عند الكاتب المجود خالد بن الهياج » والذى عاش ابان عصر الخليفة الأموى السادس «الوليد بن عبد الملك» (٨٦–٩٦هـ/٧٠٥–٧١٥م) والذى كان من المعجبين بخط هذا الكاتب .

وحين نستعيد هنا قصة كتابة «المصاحف العثمانية» فلا بد أن يأتى الى ذهننا هذا السؤال الملح وهو ، هل بقيت نسخة واحدة أو أكثر من هذه المصاحف ؟ان الجواب على هذا السؤال دائما ما يأتى بالنفى ، والنفى هنا هو الصواب بعينه – أن عدم وجود نسخه مؤكدة من «المصحف الا مام » فى الوقت الحاضر دليل على أ ن نسخ هذا المصحف قد فقدت جميعها فى خضم الأحداث والكوارث التى مرت متلاحقة على دولة الاسلام . وأن أى ادعاء فى وقتنا الحاضر يذهب أن هناك فى أحد المتاحف أو المكتبات نسخه من «المصحف الامام» أنما هو ضرب من القول الذى لا يسانده الدليل الموضوعى .

ان عدم وجود نسخه واحدة من هذه المصاحف إنما يرجع إلى أسباب كثيرة والذى لا شك فيه أن هذا التراث المصحفى كان دائما موضع عناية المسلمين ، احتفظوا به وحرصوا عليه كأثر جليل مقدس تضمن التنزيل الحكيم . لأنه أثر تاريخى بالغ الأهمية كتبته أيدى صحابة صافحت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن كثرة الأيدى التى امسكت بهذه المصاحف قد نالت منها فذهب عنها حبر الكتابة الذى لم يصمد لتوالى الزمان وتناول الأيدى المتزاحمة عليه حتى أصبحت صفحات الورق خالية من الكتابة الا من معالم شاحبة لأشباه حروف ان قرىء بعضها فلا يقرأ أغلبها كما أن هناك من الأسباب ما يرجح أن ما تبقى من هذه المصاحف ربما يكون قد جمع أبان

الخلافة العباسية وأودع خزائن بغداد التى حل عليها العديد من الكوارث فأصابها بالضرر الجسيم الذى أكتمل بالكارثة الكبرى أثر العاصفة الدامية التى الحقت بها الخراب الشامل على يد أحد أعداء الانسانية السفاح المغولى «هولاكو» سنة (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) .

وحين نفترض أن الغارة المغولية قد دمرت الكثير من المخطوطات الاسلامية ومن ضمنها المصاحف العثمانية فعلينا أن نفترض أن هناك بعضا من هذه المصاحف لم تكن موجودة أصلا فى بغداد آنذاك ، وبذلك يبقى السؤال قائما «أين أصبحت المصاحف العثمانية الآن ؟ لن يظفر الباحث بجواب شاف على هذا السؤال . على أ ن بعض المستشرقين جمعوا الكثير من الروايات التاريخية التى تؤكد رؤية بعض العلماء القدامى للمصاحف أو لصور منها فى أمصار اسلامية معينة . وفى طليعة هؤلاء المستشرقين الأستاذ / كواترمير Quatremereكما أشار الى ذلك كل من برجشتراسر Ber-gestrasser,وبرتزل Pretzel فى دراستهما لتاريخ النص القرآنى [١٠] . وكان رأى «كوارترمير» موضع اهتمام الاستاذ «كازانوفا» ، فأعاد النظر فيها واستدرك عليه الكثير ومنها علمنا أن أحد المصاحف العثمانية كان فى مستهل القرن الرابع الهجرى (١٠م) معروفا فى بعض الاوساط العلمية وأن – الرحالة المشهور ابن بطوطه رأى بنفسه بعض تلك التى يظن أنها عثمانية أو بعض صحائف منها فقط فى قرطبه ومراكش والبصره . وبعض المدن الأخرى خلال رحلاته الكثيرة [١١]وقد علق الدكتور «صبحى الصالح» على رأى «بول كازانوفا» فقال : إن «كازانوفا » – بعد إيراده تلك المعلومات الدقيقة المفيدة – لا يلبث أن يصرح بارتيابه لقيمتها التاريخية واذا هو يأتى بأغرب رأى وأجرئه فى عالم الدراسات القرآنية فما جمع عثمان للمصحف – فى نظر ه إلا قصة وهمية أحكم نسجها فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان توطئة للمبالغة فى شأن التحسينات التى أدخلت على رسم المصاحف فى عهد الخليفة المذكور [١٢] ومهما كان من أمر، فرأى أى مستشرق ، مهما كانت مكانته العلمية ، لا يمكن أخذه على أنه من الحقائق الثابتة ، لأن موضوعية أفكاره اذا بدت مستقيمة الشكل واضحة الظاهر فمضمونها فى الغالب دائما ما يأتى مرتبطًا بما لا علاقة له بالمادة التى يتناولها . وإذا كانت غالبية أصحاب دراسات الاستشراق هكذا ، فالقليل منهم بذل حياته فى دراسات قيمة أفادت تراثنا والحق يقال عن ذلك .

وفى الدراسات الاسلامية القديمة نجد رواية تناولت أحد المصاحف العثمانية حدثنا عنها «اسماعيل بن عمر بن كثير» الحافظ الفقيه المؤرخ ، المتوفى سنة (٧٧٤هـ -١٣٧٢م) جاءت فى كتابه «فضائل القرآن» وقال فيها « أما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذى فى الشام بجامع دمشق عند الركن الشرقى للمقصورة المعمورة بذكر الله وقد كان قديما بمدينة طبرية ثم نقل منها الى دمشق فى حدود سنة ٥١٨هـ)١١٢٤م) ، وقد رأيته كتابا عزيزا جليلا ضخما حسناً مبيناً قوياً ، بحبر محكم فى ورق أظنه من جلود الإبل [١٣] .

ورواية ابن كثير حين تأتى على هذا النحو الذى جاءت عليه فهى لا تدل على أن هذا المصحف أحد المصاحف العثمانية لأن هذا المؤرخ يصف لنا هذه النسخة ، فيقول عنها أنها كتاب ضخم بحسن مبين قوى وبحبر محكم « وهذا القول منه يجعلنا نتردد فى قبول روايته لأن وصفه غير

مطابق للمصاحف العثمانية ولا خطه يتفق مع خط الكتبه الصحابه الذين كتبوا المصاحف العثمانية وذلك لأن خطهم مهما أرادوا له أن يظهر فى أحسن شكل فهو لا يمكن يرتفع الى هذا الوصف الذى حدثنا به «ابن كثير» .

كما أن هناك أكثر من مؤرخ تناول هذا المصحف العثمانى (الشامى) وتحدث عنه ، ومن هؤلاء «ابن الجرزى» (توفى سنة ٨٣٣هـ -١٤٢٩م) صاحب «النشر فى القراءات العشر» و«ابن فضل الله العمرى(توفى سنة ٧٤٩هـ -١٣٤٨م) » مسالك الابصار فى مسالك الأمصار قد رأى كلاهما هذا المصحف الشامى نفسه ، ويميل بعض الباحثين الى أن هذا المصحف أمسى زمنا ما فى حوزة قياصرة الروس فى دار الكتب فى لينتجراد ثم نقل الى انجلترا ، بينما يرى آخرون أن هذا المصحف بقى فى مسجد دمشق حتى احترق فيه سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م (١٤).

وكذلك حدثنا «ابن بطوطة» عن هذا المصحف فى كتابه « تحفة النظار فى غرائب وعجائب الأسفار» الذى فرغ من تأليفه سنة (٦٥٧هـ - ١٣٥٦م) وفيه ذكر أنه شاهد هذا المصحف فى الجامع الأموى . قال : وفى قبلة المسجد المقصورة العظمى التى يؤم فيها إمام الشافعية ، وفى الركن الشرقى منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذى وجهه أمير المؤمنين «عثمان ابن عفان» رضى الله عنه الى الشام وتفتح تلك الخزانه كل يوم جمعه بعد الصلاة (١٥) .

ومن هذه المصاحف المزعومة ما شاهدته بنفسى بدار الكتب المصرية بالمبنى القديم حيث كان هناك مصحف كبير معروض للمشاهدين كتبوا من تحته أنه أحد المصاحف العثمانية والمشاهد لهذا المصحف والمتأمل لحروفه وطريقة كتابتها يمكنه دون نظرة فاحصة أن يلاحظ أ ن حروفه على درجه من الاستواء والجودة التى لايمكن أن ينسبها الى عصر عثمان بن عفان رضى الله عنه وسبب آخر يجعلك ترفض أن هذا المصحف حقا من المصاحف العثمانية لأن خطه يبدو أمامك اكثر أحكاما ونسقا وأحسن شكلا من خطوط المصاحف الأخرى المعروضة فى نفس القاعة والتى ترجع الى القرن الثانى والثالث الهجريين (٨-٩)م كما هو مبين فيها ومن هنا يمكننا أن نقول واثقين أن هذا المصحف ليس من المصاحف العثمانية .

ويتداعى بنا هذا المصحف المزعوم الى أن نقول من المحتمل أن يكون هذا المصحف وهوغير مؤرخ هو ذات الصحف الذى حدثنا عنه مؤرخنا الكبير «تقى الدين المقريزى (٧٦٦ -٨٤٥هـ -١٤٤٢م) فى قوله : حضر الى مصر رجل من أهل العراق وأحضر معه مصحفا ذكر أنه مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه . وأنه كان بين يديه يوم الدار ، وكان فيه أثر الدم ، وذكر أنه استخرج من خزائن المقتدر (أبو الفضل جعفر المقتدر بالله العباسى ٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م)ودفع المصحف الى عبد الملك بن شعيب المعروف بابن بنت ولد القاضى . فأخذه أبو بكر الخازن وجعله فى جامع عمرو ، وشهره وجعل عليه خشبا منقوشا ، وكان الإمام يقرأفيه يوم وفى مصحف أسماء يوم وذلك إبان حكم العزيز بالله لخمس خلون من المحرم سنة ثمان وسبعين وثلثمائة (٩٧٨م) وقد أنكر قوم أن يكون مصحف عثمان رضى الله عنه لأن نقله لم يصح ولم يثبت برواية رجل واحد (١٦) .

كما أن هناك مصحف آخر من هذه المصاحف العثمانية (المزعومة) ، شاهدته منذ سنوات فى متحف « طوب قابو» بأستنبول وكان معروضا فى الحجرة المسماه «سنت أودسى» (حجرة الختان) ولعل هذا المصحف هو ذاته الذى كان فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط والذى حدثناعنه «المقريزى» ومن المحتمل أن يكون السلطان «سليم الأول» (٩١٨-٩٢٧هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) قد أخذه من مصر ضمن ما أخذ من تحف وذخائر وكنوز حضارية ، كما يمكننا أن نقول أيضا أن المصحف هو ذات المصحف الذى كان فى الجامع الأموى بدمشق والذى تحدث عنه ابن كثير وأخذه السلطان «سليم الأول» حين استولى على دمشق سنة (٩٢٢هـ-١٥١٩م) فاذا كان الأمر كذلك والإفتراض يصبح مرجحا فرواية احتراق المصحف الشامى فى حريق المسجد الأموى سنة (١٢١٠هـ-١٨٩٢م) تصبح وليست من التاريخ فى شىء .

اذا كان المصحف الذى يقتنيه «متحف طوبقابو والتى لا تزعم الآن إدارة المتحف أنه من المصاحف العثمانية بل تقول عنه ، « ويقال أن هذا القرآن الكريم هو الذى كان يتلو فيه «عثمان بن عفان يوم أن استشهد ، وأن بقع الدم مازالت باقية حتى الآن ملطخة صحفه كل هذه القرون (١٧) بيد أن حقيقة هذا المصحف كانت موضع اهتمام الاستاذ فهمى أدهم قراتاى مؤلف قوائم المخطوطات العربية بمكتبة متحف «طوب قابو» .فقال أن هذه النسخة من القرآن الكريم ترجع ترجيحيا الى القرن الثانى الهجرى وهناك أدلة موضوعية تأتينا بحتمية أن هذا المصحف ليس من المصاحف العثمانية . فعلى سبيل المثال نأخذ هذا الدليل الذى يكفى وحده ليحسم الامر وهو أن بعض حروف هذا المصحف عليها «رقش» وهو شىء لم يكن من مميزات «المصاحف العثمانية» وكذلك نجد أن حروف هذا المصحف تبدو مستقيمة الشكل وعلى درجة ملحوظة من الاستواء مما يدل على أن اليد التى كتبته انما هى يد متمرسة فى كتابة الخط «المكى - المدنى» الذى يسبق الخط الكوفى . والذى يؤكد أن هذا المصحف لاصلة له بالمصاحف العثمانية هو دم «عثمان» الذى لازال مسفوكا فوق الصحيفة المفتوحة أمامك وكأن خمسة عشر قرنا لم تتمكن من أن تغيب دما أريق على رق من طبيعته عدم الامتصاص .

وهذا المصحف على رق ورقمه ١٩٤ ، منقوط بالأحمر فى آخر الآيات أحيانا دائرة فيها خطوط هندسية وفى الورقة ١٨ سطرا وعدد ورقاته ٤١٣ ورقه وفى آخر الايات علامه هى دائرة فيها خطوط متقاطعة وأبعاده ٤٦سم ×٤١سم (١٨) وحقيقة هذا المصحف لم تغب عن فطنة العلامة المحقق «أحمد تيمور باشا» فقال عنه أن من ضمن الأمانات المبكرة التى احتفظ بها آل عثمان فى قصر «طوب قابو» مصحف يزعمون أنه بخط عثمان رضى الله عنه (١٩) .

والورقة رقم ٣٦٨ب من مصحف «طوب قابو» تتشكل من جزئين يفصل بينهما فاصل زخرفى مستطيل لم يمتد حتى آخر عرض الورقة وعلى يسار هذا المستطيل ثلاثة دوائر . والأجزاء الأولى من الورقة يحتوى على خمسة سطور بالخط الكوفى المميز الشكل متضمنا الآية رقم ١٤ من سورة الصف ، وشمل الجزء الثانى على البسملة ثم الخمس آيات الأولى من سورة الجمعة جاءت فى اثنى عشر سطرا .

واذا وضعنا هذه الورقة فى موضع الملاحظة لوجدنا أن الحرف الواحد متفاوت الشكل ومختلف الصورة ففى السطور الأربعة الأولى المشتملة على الجزء الأخيرمن الآية رقم ١٤ من سورة الصف

نشاهد تباين بين حرف «الحاء» فى كلمة «أصبحوا» «السطر الرابع» فالحاء الأولى لم تخرج عن شكلها المألوف أما الحاء الأخرى قد امتدت بين حرفى الياء والواو الى ما تحت الياء والصاد، وفى السطر الثانى نجد حرف «ى» فى كلمة بنى ممدودة الى اليمين بحيث شغل امتدادها مساحة ظاهرة لم نجد لها مثيلا فى كتابة المصاحف المبكرة التى فى دارالكتب المصرية بالقاهرة (انظر المصاحف المبكرة فى كتاب: B.MORITZ, AR ABIC PALAEOGRAPHY -وفى الجزء الثانى من الورقة الذى تحتوى على الخمسة آيات الاولى من سورة الجمعة نلقى فروقا بين حرف «الحاء» فى الكلمات : الرحيم – الرحمن – الحكمة ، حيث نجد «الحاء» قد أخذت شكلها الطبيعى بينما «الحاء» فى كلمة «تسبح» (السطر الأول) امتد بها الكاتب الى اليمين والى اليسار مما شوه الكلمة وجعلها غير موزونه . وفى كلمة «الذى» (السطر الرابع) نجد «الياء» لها سنة مرتفعة وامتدت لتملأ الفراغ الذى تحت الكلمه ، وهذا المد المبالغ فيه نجده فى معظم الحروف الأفقية وأن دل على شىءفإنما يدل على أن هذه الحروف لها الصفة الغالبة فى أسلوب كتابة كاتب هذه النسخة من القرآن الكريم وهذا الأسلوب المتحرر لم يكن لأحد من كتبة «المصحف الإمام».

وهناك أيضا فى مدينة استامبول فى متحف « الآثار الاسلامية التركية» «TURK UE ISLAM ESERLERI مصحف آخر منسوب إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه مكتوب على رق ورقمه فى المتحف ٥٨ وفى آخره شهاده تذكر بأن هذه الختمة الشريفة بخط سيدنا أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وقد سجل فى بطاقة المتحف على أنه من العصر الإموى (٢٠) .

كما نجد لمصر تاريخ حافل مع المصاحف العثمانية (المزعومة) فهناك مصحف له شهرته موجود بالمشهد الحسينى بالقاهرة ، مكتوب على رق وقد ذكره محمد عبد العظيم الزرقانى «صاحب منهل العرفان فى علوم القرآن» وقال عنه أكبر الظن أن هذا المصحف منقول من المصاحف العثمانية على رسم بعضه (٢١) . وعن هذا المصحف يحدثنا العلامه أحمد تيمور باشا نقلا عن على باشا مبارك فى خططه عن «النزهة السنية فى أخبار الخلفاء والملوك المصرية» لحسن بن حسين المعروف «بابن الطولونى» وأن السلطان الغورى (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠٠-١٥١٦م) بنى قبة ليحفظ بها الآثار النبوية والمصحف العثمانى ونص عبارته : – وقد جدد مولانا السلطان عز نصره للمتحف العثمانى الذى بمصر المحروسة بخط مشهد الحسين رضى الله عنه جلدا بعد أن آل جلده الواقى له الى التلف والعدم ، ولمكثه من زمن سيدنا عثمان الى يومنا هذا . قلت والمصحف المذكور المنسوب لذى النورين عثمان رضى الله عنه هو الذى كان بمدرسة الفاضل التى كانت بدرب ملوخية وكانت بها خزانة كتب عديمة النظير تجمع على ما قيل مائة ألف مجلد . ذكر «المقريزى» أنها تفرقت ولم يبق منها غير الذى يسميه الناس مصحف عثمان بن عفان » وقد استطرد العلامة القسطلانى فى «المناقب التى ألفها الامام الشاطبى ناظم الشاطبية بذكر هذا المصحف فى كلامه عن تولى هذا الامام الإفتاء بهذه المدرسة فنقل عبارة «المقريزى» فى وصفه ثم ذكر نقله إلى قبة الغورى مع الآثار النبوية بعد أن ذكر تشتت كتب هذه الخزانه ، فقال : ولم يبق منها إلا المصحف الكبير المكتوب بالخط الأول الكوفى المعروف بمصحف عثمان بن عفان ويقال أن القاضى الفاضل اشتراه بنيف وثلاثين ألف دينار ، على انه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وكان فى خزانة مفردة بجانب المحراب من غربه (٢٢) .

ومن هذه المصاحف النبوية المنسوبة الى «عثمان بن عفان رضى الله عنه نجد فيما نجد هذه النسخة التى تقتنيها الآن مكتبة الادارة الدينية فى مدينة «طشقند» وعن هذه النسخة ينقل لنا شمس الدين بابا خانوف «رئيس الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وكازاخستان» وقال : كان هذا المصحف قديما فى مدينة سمرقند فى صومعة خاصة به بمدرسة «ديوان بيكى» وكان ملكا لأحفاد «خوجا أحرار» حتى سنة ١٨٦٩ ؛ وليس لدينا معلومات أكيدة عن كيفية وصول هذه النسخة من مصحف عثمان بن عفان الى سمرقند ولكننا نستند فى حججنا الى ما هو متداول على ألسنة الناس والتقاليد والمصادر التاريخية وان كانت الحجج الواردة بشأن هذه النسخة من مصحف عثمان مختلفة ، ولكن مع ذلك فإنها تحوى شيئا من الحقيقة .

هذه النسخة من مصحف عثمان وصلت إلى هذه البلاد إبان حكم القبيلة الذهبية (٦٢١-٩٠٧هـ/١٢٢٤-٩٥٠٢م) هدية من سلطان مصر الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) الذى كانت تربطه علاقات وطيدة مع القبيلة الذهبية وهذا ما أخبرنا به النويرى واستطرد الاستاذ شمس الدين بابا خانوف بعد ذلك فقال: وهناك رأى آخر عن كيفية وصول هذه النسخة الى هذه البلاد حدثنا بها الشيخ «محمد مراد بن عبد الله الرمزه البلغارى» قال ان الكتاب الكريم الذى يشتهر باسم نسخة عثمان والذى نقل الى مدينة بطرسبورج وحفظ فى المكتبة الامبراطورية ، يمكن ولا يستبعد أن يكون ذلك المصحف هو نفسه الذى نقله تيمورلنك (٧٧١-٧٠٨هـ/١٣٧٠-١٠٤٥م) الى مدينة سمرقند ، وهذه القصة وإن كانت افتراضية فإنى أعتقد أنها مناسبة ولا داعى لدحضها لأن داحضيها يفتقرون إلى اثبات المخالفة وبعد ذلك يستطرد الأستاذ «شمس الدين» ليقول أن « اسماعيل مخدوم» النائب السابق لرئيس الإدارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وقازاخستان ، ذكر فى كتابه « نسخة عثمان من المصحف الشريف فى طشقند» آراء أخرى تتعلق بوصول هذه النسخة الى سمرقند استعاد فيها ما أورده ابن بطوطه فى كتابه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار أن تيمورلنك نقل هذا المصحف من مدينة البصرة إلى «مدينة سمرقند» وهكذا ، «فإن هذه المعلومات تعطى أساسا للإعتقاد أن نسخة طشقند هى من نسخ المصحف الشريف التى أستنسخها الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ومن ثم وبغية المزيد من الوضوح ينبغى التذكير بأن نسخ عثمان التى أرسلت إلى الأمصار لاتزال حية حتى أيامنا هذه وبينها نسخة طشقند وهى أن نسخة طشقند وهى مخطوطة بنفس الخط القديم البعيد تماما عن التجديدات والتعديلات التى شهدتها الكتابة الخطية العربية فى عصر «الوليد بن عبد الملك» (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) . ويعتبر ذلك حجة مهمة أخرى تؤيد فكرتنا وهى أن نسخة طشقند يمكن اعتبارها أحد نسخ المصحف الشريف الست التى أستنسخها الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه وينهى شعوب أوزبكستان حتى لو لم يكن أحدى النسخ الست التى نسخت فى عهد الخليفة عثمان بن عفان المرسلة إلى مختلف الأمصار ، إلا أنه مفخرة مسلمى «أوزبكستان» بل جميع مسلمى الاتحاد السوفيتى والعالم طرا . وهذا المصحف يستحق اهتماما واحتراما بالغين وسيجد العلماء الاختصاصيون أن الحاجة ماسة إلى دراسة المصحف دراسة دقيقة بغية تقديمه بكل مهابة وقدسية (٢٣) .

ومهما كان من أمر فهذا المخطوط من القرآن الكريم المحفوظ فى مكتبة الادارة الدينية فى مدينة «طشقند» خال من النقط وفى الصفحة ١٢ سطر كتب على رق وعدد ورقاته ٣٥٣ ورقة وقياسها ٦٨×٣سم والصنعة الفنية بادية عليه فى رسم الحروف مما يدل دلالة واضحة على أن الكتابة ليست من أيام عثمان بن عفان بل هى من القرن الثانى بل الثالث فى الخطوط المستقيمه فى بعض الحروف تبدو وكأنها رسمت بمسطرة كما أن تدويرات بعض الحروف كالواو والقاف والفاء يدل على الهندسية وشكل حروف هذا المصحف يشبه إلى حد بعيد شكل حروف المصحف الكوفى المكتوب على الرق الازرق الموجود اليوم فى القيروان . وهو من القرن الثالث (٢٤).

إن نموذج مصحف طشقند (شكل رقم ٢) الذى نشره الدكتور صلاح الدين المنجد يبدو أمامنا واضحا أنه كتب بحروف مستقيمة وعلى درجة ملحوظة من التجويد إذ هى كما يصفها بنفسه أنها وكأنها رسمت بمسطرة وهذا ما جعله يرفض نسبة هذه النسخة الى المصاحف العثمانية وذهب به القول عنه أنه يشبه المصحف الموجود فى القيروان الذى يرجع الى القرن الثالث .

بيد أ ن هذا النموذج (شكل رقم ٢) لم يكن هو وحده الذى نشر عن مصحف طشقند (المزعوم) فقد نشر السيد «محمد عبد الجواد الأصمعى» (٢٥). صفحة من هذا المصحف مصدرها النسخة المصورة التى تقتنيها دا ر الكتب المصريه بالقاهرة (رقم القيد ٢٠٤ مصاحف – صندوق٢) . وأنت حين تشاهد هذه الصفحة (شكل رقم ٣) فسوف يتبين لك فرقا واضحا فى شكل الحرف واختلافا ملحوظا فى النسق الخطى عن ماجاء فى النموذج الذى عرضه علينا الدكتور «صلاح الدين المنجد» (شكل رقم ٢) ومن هنا تكون صورة الخط الذى عرضه علينا السيد الاصمعى لمصحف «طشقند» والذى أتى انه من النسخة المصورة التى فى دار الكتب المصرية بالقاهرة هو أقرب ما يكون لصورة الكتابة التى بها المصحف الامام . وحتى نستعيد ما كتب عن المصاحف العثمانية وعلى الأخص المصحف الذى استشهد «عثمان ابن عفان»رضى الله عنه وهو يقرأ فيه أو غيره من المصاحف العثمانية فإننا نجد ان هذه ما لا يمكن إقامة الدليل عليه أو إثباته بموضوعية علمية ، ويمكننا أن نقول الآن الحقيقة التى لالبث فيها تؤكد أنه كان بدمشق والمدينة ومكة والبصرة واختفى الصحف الذى نسبه «العبدرى» إلى عثمان وكان فى مسجد القيروان وضاع المصحف القرطبى بالبحر وكذلك اختفى المصحف الحمصى وظهرت مصاحف أخرى تنسب إلى عثمان فى أماكن أخرى بأوصاف مختلفة ومقاييس متنوعة فما هى حقيقة هذه المصاحف الموجودة الان ؟ ليس من السهل أن نحكم على أى مصحف بأنه من المصاحف العثمانية أو لا إلا بعد تدقيق طويل . إن الميزان الذى يجب أن تقاس عليه هذه المصاحف هو :–

(١) أن عثمان لم يكتب بخطه أى مصحف من المصاحف الأئمة وكل مصحف كتب عليه أنه بخطه لا يصح .

(٢) أن المصاحف المنسوبة اليه والتى عليها دمه إن وجدت لا بد تكون قد كتبت بالخط المدنى البدائى الذى لا أثر للصنعة الفنية فيه ولا بد أن يكون بلا نقط والشكل ولاتحلية أو تزيين أو تعشير فالمصادر تؤكد أن المصاحف العثمانية كانت خالية من النقط والشكل وعلامات الفصل بين السوروذكر أعشار القرآن ، وغير ذلك لقد كانت مجردة تماما (٢٦) .

ومما لا شك فيه أن خط المصحف الامام لم يكتب بخط ساذج كما تصوره البعض ولا بذلك الخط «المدنى البدائى» انما كتب بخط متميز الصورة وأنه وإن كان لا يحمل من التجويد المتعارف عليه شيئًا فقد كان الى حد ما مستقيم الشكل متوازن الحروف وذلك لأن خط هذا المصحف ومهما كان شكله وصفاته فهذا الخط المصحفى الأول أضفى على الخط العربى الصورة التى التزم بها الكاتب المسلم بعد ذلك وتتبع شكلها ولم يغيرها انما عدل صورها لأن هذه الحروف وهذا االشكل المصحفى «قد أصبح عند كافة المسلمين مرتبط بالتنزيل الالهى الذى نزل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هنا ظهر الخط الاسلامى وله مميزات متباينة من أهمها على الإطلاق «التعبير الداخلى والنسق الخارجى» ومن هنا تكونت المكونات الأساسية لبنية الخط الاسلامى .

«والتعبيرالداخلى» جاء فى الحروف الموجودة محققا ذاته فى أبداع متفرد من طبيعته أن يأخذ سبيله الى عالم «النسق الخارجى» ليضفى على ظاهر الحروف إيقاعا متجانسا منغما بالتعبيرات التشكيلية ومن هنا يمكننا أن نقول إن القاعدة الأولى لتجويد الخط الاسلامى خرجت من المصحف الإمام لا فى حالة كونها تغييرا ما حدث فى شكل الحروف جاء على الطريق أو أنه يمثل مرحلة من مراحل الكتابة العربية المتطورة المختلفة الصياغة والمتغيرة الأداء بل هذا التغير فى الخط الاسلامى قد ظهر على هذا النحو لأنه كان فى ذاته «التوفيق الإلهى» الذى انساب الى الأداء الإنسانى فاكتسبت الحروف العربية به الجلال والجمال والنسق المحكم ، وهكذا أصبح الخط الذى تكتب به المصاحف قمه ارتفعت الى السمت وبلغ الاتقان فيها الى الذروة الفنيه من خلال طبقة بعد أخرى من الموجودين تميزوا بالعبقرية والإلهام حتى أصبح هذا الخط الإبداع الاول المثالى فى حياة الشعوب الاسلامية ومن هنا فإن الله جل جلاله قد أعطى المسلمين هذا الخط لكى يكتبوا به القرآن الكريم . وأصبح من طبيعة الأشياء أنه كلما امتد الزمان بالناس ازدادت عنايتهم بتيسير الرسم القرآنى ولقد اتخذ هذا التيسير أشكالا مختلفه فكان الخليل ابن أحمد الفراهيدى المتوفى سنة (١٧٥هـ ٧٧١م) أول من صنف النقط ورسمه فى الكتابة وذكر علله ، وأول من وضع الهمزه والتشديد والروم والإشمام ولا يكاد أبو حاتم السجستانى (المتوفى سنة٢٤٨هـ -٨٦٢م) يؤلف كتابه عن نقط القرآن وشكله حتى يكون رسم المصاحف قد قارب الكمال والحسن وأصبح الكتبة يتنافسون فى اختيار الخطوط الجميلة وابتكار العلامات المميزة (٢٧) .

ومن هنا نجد أن هناك إرادة الهية جعلت الحروف العربية تعتدل وتستقيم وترتفع منتصبة وتمتد قائمة وتنحنى فى كبرياء تنثنى فى وقار لتمثل اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم مما جعل من الخط الاسلامى العروة الوثقى التى تربط بين كافة المسلمين أين كانت مواطنهم ، كما وحد بين الأجناس المسلمة وألف بين قلوبهم وقرب بين ثقافتهم المتباينة وألسنتهم المتغيرة وألوانهم المتعددة ومن كافة هذه العناصر اصطفى الله جل جلاله بعضاً من النوابغ ليكتبوا ويبدعوا صورا من الحروف الاسلامية العربية فى تشكيلات غاية فى الروعة والانسجام الموضوعى لقد تأتى ذلك وما كان يتأتى إلا بعد أن نزلت كلمة الله بقدرته على يد الانسان فجعلته يبدع المثل الأعلى فى تجويد الخط فظهره فى صوره لم تتح لأى شعب من شعوب الأرض كلها ولا نظير لمثلها . وذلك لأن الله تعالى أراد لهذه الطاقة الإبداعية أن تتفجر بمشيئته لتنزل على يد الإنسان المسلم مناسبه ومتدفقه لتأخذ سبيلها الأمثل الى كل مكان فى العالم الاسلامى (٢٨) .

وتعاقبت الصور الخطية وأخذت اليد المتمكنة ترتبط بكتابة المصاحف وحدها وذلك من خلال خط جديد مبتكر عرف باسم «الخط المائل» وهو ذلك الخط الذى ذهب به بعض الاساتذه أنه تطور من الخط المكى لأنه يشبه من حيث نزعته إلى استلقاءحروفه وإضطجاعها ، ويرجحون أنه استعمل فى القرن الثانى الهجرى فى أثر الخط المكى ويدللون على قدمه بخلوه من النقط وحركات الإعراب (٢٩) .

وقد نشر الاستاذ «بيرنارد موريتس» نماذج عديدة من هذا الخط المائل فى كتابه «علم الخط العربى» (طبعة القاهرة) وليس من الافتراض فى شيء إذا قلنا إن الخط المائل هو صور محسنه من الخط الإسلامى المبكر الذى ظهر أول ماظهر فى كتابة المصاحف العثمانية ولابد أنه كان متميزا عن ذلك الخط المعاصر الذى عرف باسم الخط المشق السابق له والمشق فى اللغة يعنى السرعة فى الكتابه ولم يكن هذا الخط يقع فى موقع الاستحسان عند الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان يقول عنه ، شر القراءة الهدرمه وشر الكتابة المشق (٣٠) . وحين يقول عمر بن الخطاب رضى لله عنه هذا القول المأثور فهو بذلك يفاضل بين خط وآخر وهذا يعنى أن مصحف «أبو بكر» رضى الله عنه لم يكتب بخط «المشق» وهو ذلك الخط الذى من الأرجح أنه كان يستعمل فى المعاملات التجارية وقد ظل هذا الخط قائما حتى إبان الدولة العباسية على حد قول «ابن النديم» .

وإذا كنا مازلنا ندور حول الخط والكتابة فى ذلك العصر المبكر فالسؤال مازال قائما يفرض نفسه فرضا ، بأى خط كتب «المصحف الامام» ؟ يمكننا أن نرجح أنه كتب بصورة محسنة من الخط الذى كتب به مصحف أبى بكر رضى الله عنه ، وهو ذلك الخط الذى لم نعرف عنه شيئا بسبب أن هذا المصحف قد أحرق فى عصر الخليفة الاموى «مروان بن الحكم» ويمكنا أن نقول أ نه لا يوجد على وجه اليقين صورة من هذا الخط المبكر الا فى هذه الكتابة التى نقشت على «جبل سلع» بالقرب من المدينة بل وحتى هذه الكتابة إذا أعطتنا صورة من الخط المبكر فإننا نأخذها احتمالا وليس ترجيحيا لأنها لم تحقق علميا (شكل رقم ٥) .

وحين نسترجع مصادرنا التاريخية التى بقيت لدينا فإننا نجد أنه لا يوجد تحت أيدينا مصدراً تناول هذا الخط المصحفى بإسهاب وشمول . وأن «عبد الله بن جعفر بن درستويه» (٢٥٨-٣٤٧هـ/٨٧٢-٩٥٨م) قد يكون أول من طرق موضوع الخط والخطاطين فى كتابه كتاب الكتاب (٣١) ولكننا لا ندرى إن كان قد تناول فيه الخط المصحفى أم لا ومن ثم نجد هذاالنص المختصر الذى ذكره لنا ابن النديم فى كتابة الفهرست «المؤلف سنة (٣٧٧هـ/٩٨٧م) وجاء فيه عبارة مقتضبة ومبهمة جمع فيها كل الخطوط العربية التى كنت سائدة منذ قيام الإسلام وحتى عصره ، فقد حدثنا تحت باب خطوط المصاحف فقال إنها «المكى ، والمدينين والتئم والمثلث والمدور والكوفى والبصرى والمشق والتجاويد والسلوطى والمصنوع والمائل والراصف والأصفهانى والسحلى والقراموز (٣٢) » .

واذا كان «ابن النديم» قد ذكرلنا هذه الأسماء من الخطوط العربية التى ظهرت منذ قيام الإسلام وحتى عصره فهو قد عمم ولم يحدد وبذلك يكون قد حرمنا من معرفة اسم الخط الذى كتب به

«المصحف الامام» ومن بعده نجد أبا العباس القلقشندى (٧٥٦-٨١١هـ/١٣٥٥-١٤١٨م) ينقل لنا عمن سبقوه من المؤرخين فقال : إن المصاحف العثمانية كتبت بخط جليل «مبسوط» وفى العصر الحاضر يضيف الدكتور «ابراهيم جمعة» تصوره عن هذا الخط المبكر فقال : إنه «المقور» (المستدير) وهو الخط الذى كتب به كتاب النبى عليه الصلاة والسلام وبه كتبت المصاحف الأولى منها مصحف عثمان المعروف بالمصحف الامام (٣٣) وهذا الرأى لا يضيف أى جديد ولا يعطينا ما نتوق إليه من معرفة اسم الخط الذى كتب به المصحف الإمام ونوعه .

إن جميع الاراء التى تناولت المصحف الامام انما جاءت كلها من باب الرواية التى لا تستند الى أى دليل أثرى ومن هنا ستبقى حقيقة هذاالخط الذى كتب به «المصحف الامام» غير معروفة لدينا وسيبقى هكذا حتى تأتينا المكتشفات الأثرية برقوقٍ محققة ترجع على وجه التأكيد الى عصرعثمان بن عفان رضى الله عنه وتكون ثابتة الأصول ومتوفرة الدليل التاريخى والعلمى وحتى يتيسر لنا ذلك فإننا لا نجد من بد أن نقول ان الخط الذى كتب به «الصحف الامام» وهو ذاته الذى أصبح الخط المفضل الذى كتبت به المصاحف عامة فى كل مكان من العالم الاسلامى ، وعرف باسم «الخط الكوفى» وذلك بعد ما طوروا شكله وأضافوا عليه حركات الإعراب والنقاط ولدينا من هذا الخط المتطور نماذج كثيرة متباينة تقتنيها دار الكتب المصرية القاهرة .

وقد عرف « الخط الكوفى» بهذا الاسم الى مدينة الكوفة جريا على العادة المتبعة التى كانت سائدة آنذاك والتى كانت دائما ما تعطى الخط اسم المدينة التى تكتب به . والذى لا ريب فيه أ ن مدرسة الكوفة قد أخذت ذلك الخط المصحفى وأدخلت عليه تحسينات موضوعيه فصار علما وانتشر وهو يحمل اسمها .

ومدينة «الكوفة» تأسست سنة (١٧هـ -٦٣٨م) فى عصرالخليفة « عمربن الخطاب» رضى الله عنه ، وقد سميت بهذا الإسم لاستدارتها أولإجتماع الناس بها. (٣٤) وفى سنة (٣٥هـ -٦٥٠م) جعل منها الخليفة الرابع على بن ابى طالب رضى الله عنه عاصمة لخلافته . ومنذ ذلك الحين علت شهرتها وقطنها العديد من الصحابة العلماء ، وما أن جاء بعض الزمان عليها حتى أصبحت ذات شهرة عالية واسعة وأخذت مكانها فى العالم الاسلامى لتكون «المدينة المدرسة»وذلك لأن «على بن ابى طالب رضى الله عنه كان صاحب منهج دينى مثالى ملتزم فتجمع حوله العديد من الدارسين من أشهرهم :أبو الأسود الدؤلى كما كان على ابن ابى طالب رضى الله عنه أول من كتب الخط المجود فى مدرسة التجويد الاسلامية وهى هذه المدرسة التى وضعت أسس التجويد للخط الاسلامى العربى فكان بذلك أول الخطاطين حسب السند المصرى ، والسند التركى المتواتر وقد ذكرت مراجع الخط أن بعده جاء على نهجه الحسن البصرى ثم أعقبه اسحاق بن حماد ثم «ابراهيم الشجرى» ثم «الأحول المحرر» ومن بعده جاء «ابن مقله»(٢٧٢ -٣٢٨هـ/ ٨٨٥ -٩٣٩م) الذى وضع القانون وأقام القياس المنهجى للخط الاسلامى .

وما برح «الخط الكوفى» بحكم الممارسة المنهجية وتعلق الناس به فى كافة الأقطار الاسلامية حتى أصبحت له خاصية ذوقية مكتملة الصورة ومتميزة الإيقاع وصارهو وحده الخط المختار

المفضل فى كتابة المصاحف . كما كتبوا به اللوحات التذكارية فى المساجد وعلى المحاريب والمبانى وشواهد القبور وأخذت أشكال هذا الخط الكوفى تكتسب مع الزمن هذه الصور الجمالية المتباينة التشكيل وصلت إلى قمة الإبداع فى مصر المملوكية وفارس الاسلامية وفى غزنه فى أقصى الشرق وفى غرناطة فى الأندلس وفى تركيا المرابطة السلجوقية ولنراه فى عاصمتهم قونية مدينة مولانا جلال الدين الرومى . واستمرت الدوافع الإبداعية قائمة ومتجددة فى هذا الخط ومرغوبة ومفضلة حتى يومناهذا والسر فى ذلك يأتى بالضرورة ان هذا الخط أختص أول ما اختص بكتابة المصحف الشريف .

وكان عدد « المصحف الامام » موضع خلاف بين العلماء ؛ فالامام أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانى يذكر لنا فيما يذكر «أكثر العلماءعلى ان عثمان بن عفان رضى الله عنه لما كتب المصحف جعله على أربعة نسخ وبعث الى كل ناحية بواحدة منهن وجه الى الكوفه إحداهن والى البصرة أخرى والى الشام الثالثة وأمسك عند نفسه واحدة ،وقد قيل إنه جعله سبع نسخ ووجه من ذلك أيضا نسخة الى مكة ونسخة الى اليمن ونسخة الى البحرين والأول أصح وعليه الائمة (٣٥) .

وحين جمع الامام الدانى وهو أحد الثقاه فى مادته بين رواية وأخرى ويرجح واحده منهما فهناك أيضا من ذلك العديد من الروايات المتضاربة تناولت بحث عدد نسخ « المصحف الإمام» فحين يذكر «جلال الدين السيوطى» فى كتابه «الإتقان فى علوم القرآن (٦/١)» أنها خمسة يقول السجستانى فى كتابه «المصاحف» أنها سبعة ونفس العدد ذكره الامام محمد الزرقانى فى «مناهج العرفان» (٣٩٦/١) وهناك إجماع على أربعة مصاحف هى مصاحف المدينة والشام والكوفة والبصرة وخلاف على مصاحف اليمن والبحرين ومكة ومصر وهذه المصاحف التى أرسلت الى الآفاق التقت فى اشتمالهاعلى القرآن كله مائة وأربع عشرة سورة أولها الفاتحة وآخرها الناس (الزركشى : البرهان فى علوم القرآن (٢٥١/١) وكانت مكتوبة على رق (القلقشندى وصبح الاعشى (٤٧٥/٤) ، وكانت عارية من النقط والشكل والتحلية فقد كره الصحابه وبعض التابعين ذلك (السجستانى المصاحف ١٣٧) ولم تكن هذه المصاحف مذهبة لا توجد علامات على رأس الآى أى لا توجد فواصل بين الآيات ولم يكن فيها تعشير أو تصغير والأسماء للسور أقتدت بالمنهج الذى كتب به أبو بكر المصحف أول مره (٣٦)ومن الأهميه بمكان أن نأخذ أنفسنا أيضا ونحن ندرس المصاحف المبكرة التى تتبعت « المصحف الامام» أن نضع فى موضع الاعتبار ذلك المنهج الذى كانوا يتبعونه فى تكملة باقى الكلمة التى أتى فى نهاية السطر فى أول السطر الذى يليه وهذا ما وصفه القلقشندى « بأنه الفصل القبيح قال : قال صاحب منهاج الإصابه وانما وقع مثل ذلك فى المصاحف التى كتبت فى زمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه لأنها كتبت بقلم جليل مبسوط فربما وقع فى بعض الأماكن اللفظية فيقتطعها فى آخر السطر ويجعل باقيها فى السطر الثانى (٣٧) .

وثمة شىء آخر يجب أن يوضع فى موضع الاهتمام للتأكد من العصر الذى كتبت فيه المصاحف المبكرة وهو فحص الخامة التى كتب عليها فقد أجمع الصحابه رضى الله عنهم على كتابة القرآن على الرق لطول بقائه أو لأنه الموجود عندهم حينئذ وبقى الناس على ذلك الى أن ولى الرشيد الخلافة (١٧٠ – ١٩٣هـ/٧٨٦ – ٩٠٨م) وقد كثر الورق وفشى عمله بين الناس أن لا يكتب الناس إلاّ على الكاغد (الورق) (٣٨) والورق كما يصفه المبرد هو ما يرق من الجلد ليكتب عليه (٣٩)

وهذا الرق يجب أن يكون من جلود ماشية « المدينة» لأنها مختلفة عن أي رق آخر وهذا ما يجب ان يوضع في موضع الإعتبار عند فحص أحد هذه المصاحف.

المصحف الامام الذى نفتقد نموذجا من خطه هو ومهما كان شكل حروفه اللبنه الأولى البالغة الأهمية التى قامت عليها بنية الخط الاسلامى وإذا أردنا أن نلتمس لأنفسنا أقرب صورة حقيقة لهذا الخط المصحفى الذى كتب سنة (٢٥هـ/٦٤٥م) فلدينا هذه الكتابة الأثرية التى مازالت قائمة حتى الآن والتى كتبت بعد كتابة المصحف الإمام بحوالى سبعة وأربعين سنة وهى هذه الكتابة التى نجدها قائمة داخل قبة الصخرة فى «قدسنا الشريف» والتى كتبت بالفسيفساء الملونة إبان خلافة عبد الملك ابن مروان سنة ـ٧٣هـ/٦٩٢م) (شكل رقم ٨) .

ومن هنا علينا أ ن نأخذ هذه الكتابة الأموية وهى كما تبدو أمامنا بسيطة الشكل مستقيمة الأداء واضحة الصورة على أنها التشكيل المتقدم لهذا « الخط المصحفى» الذى كتب به «المصحف الامام» (شكل رقم ٩) .

إن العلاقة بين الخط المجّوّد والمصحف الشريف منذ أن كتب «المصحف الامام» مرتبطة بصلات تقليدية محكمة ، كما أن الآصرة التى بين القلب النقى وما تضمنه المصحف الشريف من الذكر الحكيم قد جعل منا نحن أصحاب ذلك الكتاب المؤلفة قلوبهم يعلمون عن يقين أن كل ما تضمنه هذا الكتاب إنما هو الحق الذى تضمن الباطن والظاهر الذى جاءمن خالق المجرة والذرة ومن هنا فنحن حين نستمع إلى ايات الرحمن تتلى علينا ننصت خاشعين تهتز قلوبنا وتدمع عيوننا كما أنه حين ننفرد بأنفسنا لنقرأه ننصرف عن كل شيء ونجلس فى خشوع متدبرين معانيه فتسكن جوارحنا وتنعطف إلى ذلك المقام النورانى الذى أصبحنا عليه وحينئذ نسمع أنفسنا تردد الرنين الشفاف المنبعث من ثنايا الحروف التى أمامنا . وهكذا ترتفع نفوسنا وتنطلق محلقة لتصل عالم الشهادة بعالم الغيب .

* * *

المراجـــع

(١) الامام أبو عمروعثمان سعيد الدانى : المقنع فى رسم مصاحف الأمصار . تحقيق محمد صادق القمحاوى ص ١٣ - ١٤ القاهرة ١٩٧٨ .

(٢) سهل بن محمد بن عثمان السجستانى :كتاب المصاحف نشره أرثر جيفرى ص ٦ - ٧ القاهرة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م .

(٣) نفس المصدر ص ٢٩ .

(٤) الدانى : نفس المصدر ص ١٤ .

(٥) السجستانى : نفس المصدر ص ٢٠ .

(٦) الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق : المصحف الشريف دراسة تاريخية وفنية ، مستل من المجلد العشرين من مجلة المجمع العلمى العراقى ص ١١ - ١٢ بغداد ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م .

(٧) الدكور صبحى الصالح ك مباحث فى علوم القرآن ص ٧٨ الطبعة الثانية بيروت ١٩٦٩م .

(٨) السجستانى : نفس المصدر ص ١٢ .

(٩) المصدر السابق ص ٢٠ .

(١٠) الدكتور صبحى الصالح : نفس المصدر ص ٨٧ .

(١١) نفس المصدر : ص ٨٧-٨٨ .

(١٢) نفس المصدر : ص ٨٨. (وقد أجمل كازانوفا رأيه وشطله فى كتابه :

MOHAMMIED ET LAFIN DU MONDE ? PARIS 1911

(١٣) نفس المصدر : ص ٨٨ .

(١٤) نفس المصدر : ص ٨٨ - ٨٩ .

(١٥) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، الجزء الأول ، ص ٥٤ (القاهرة ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م) .

(١٦) تقى الدين المقريزى : المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، الجزء الثانى ، ص ٢٥٥ (بغداد النسخة المصورة بدون تاريخ) .

(١٧) كتاب الأمانات المقدسة : MUKADDES EM ANETIER ANKARA1976 .

(١٨) الدكتور صلاح الدين المنجد : دراسات فى تاريخ الخط العربى ، بيروت ١٩٧٢ .

(١٩) أحمد تيمور باشا : الآثار النبوية الطبعة الثانية ، ص ٦٧ ، القاهرة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م .

(٢٠) الدكتور صلاح الدين المنجد : المصدر السابق ص ٥٥ .

(٢١) نفس المصدر ص ٥٣ .

(٢٢) أحمد تيمور باشا : المصدر السابق .

(٢٣) شمس الدين بابا خانوف : نسخة الخليفة عثمان من المصحف الشريف لها قصة ، مجلة العربى ، العدد ٣٢٢ ، ص ٣٨ -٤١ ، الكريت ذو الحجة ١٤٠٥ هـ - سبتمبر ١٩٨٥ .

(٢٤) الدكتور صلاح المنجد : المصدر السابق ، ص٥٠.

(٢٥) محمد عبد الجواد الأصمعى : تصوير وتجميل الكتب العربية فى الإسلام ، لوحة ٥٠ ، القاهرة ١٩٧٠ .

(٢٦) الدكتور صلاح المنجد : المصدر السابق ص٥٠ .

(٢٧) الدكتور صبحى الصالح ك المصدر السابق ص ٩٤ .

(٣٨) PHILLP BAMBOUCH ? THE TREPSURES OF ISLAM , G B 1976 P. 24

(٢٩) الدكتور ابراهيم جمعة :دراسات فى تطور الكتابة الكوفية على الأحجار فى مصر فى الخمسة قرون الأولى ص ٦٣ القاهرة ١٩٦٩ .

(٣٠) أبو حيان التوحيدى : رسالة فى علم الكتابة نشر وتحقيق فرانس ررزنتال (ميشجان ١٩٦٨) .

ARS ISLAMECA, FRANZ ROZENTHAL ABU HAYAN AL-TAWHIDI PENMANSHIP, VOL . XIII-XIV UNIVERSITY OF MICHIG AN 1968 .

(٣١) مخطوط كتابة الكتاب :توجد نسخة منه فى مكتبة BODLEIAN (أكسفوردوترجع الى القرن السابع الهجرى (١٣م) وقد تعرفنا على هذا المخطوط عن الاستاذ «آرثربوب» فى كتابه « موسوعة الفن الفارسى» .

ARTHER U. POPE, ASURVEY OF PERSIAN ART, CALLIGRAPHY AND EPIGRAPHY, CHAPTER 46,P.1716, LONDON 1939 .

(٣٢) ابن النديم : الفهرست ،ص٦ ، الطبعة المصورة عن : بيروت ١٩٦٤ .

(٣٣) الدكتور ابراهيم جمعة : المصدر السابق ، ص٢٧ - ٢٨ .

(٣٤) صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى : مراجع الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع . تحقيق على محمد لبجاوى ، الجزء الثانى ، ص ١١٨٧ ، القاهرة ١٣٧٤هـ /١٩٥٥م .

(٣٥) الامام الدانى : المصدر السابق ص١٩ .

(٣٦) الدكتور صلاح الدين المنجد ك المصدر السابق ٤٢ .

(٣٧) أبو العباس القلقشندى :صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، الجزء الثالث ص١٤٧ .

(٣٨) نفس المصدر ٤٨٧/٢ .

(٣٩) نفس المصدر ٤٨٤/٢ .

* * *

شكل رقم (١) الورقة ٣٦٨ ب من مصحف طوب قابو ، رقم السجل ١٩٤ (عن المنجد)

شكل رقم (٢) نموذج من كتابة مصحف طشقند ، الآيات ٨٧، ٨٩ من سورة الأعراف.عن : المنجد

شكل رقم (٣)

نموذج من الصورة الفوتوغرافية لمصحف طشقند

فى دار الكتب المصرية -

سورة "المؤمنون" ، الآيات ١٠٩-١١٨. (عن الأصمعى)

شكل رقم (٤)

الآيات ٥٤٥-٦٢ من سورة النساء

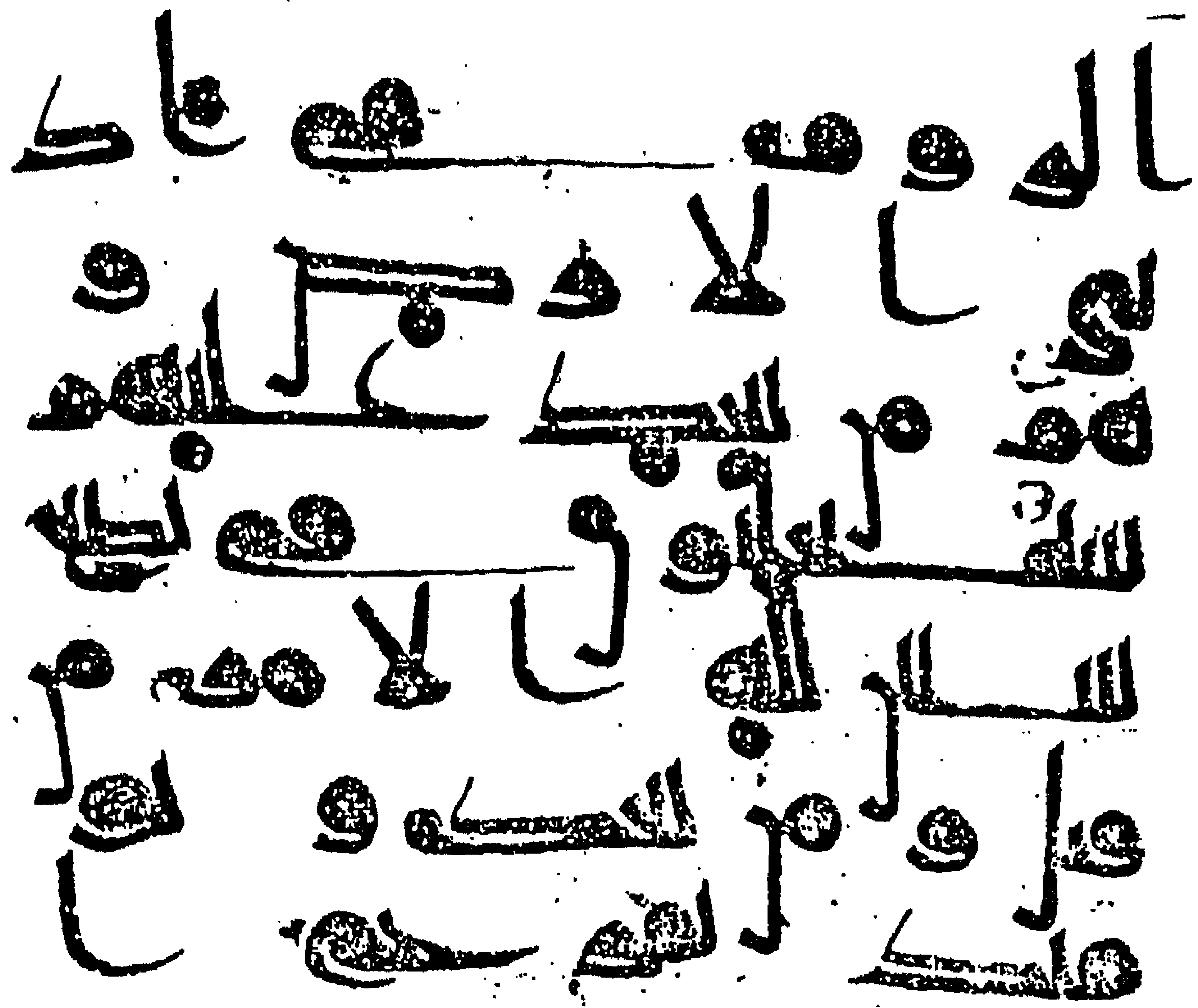
مكتوبة بالخط المائل.(عن :MORITZ)

شكل رقم (٥) كتابة عربية اسلامية مبكرة وجدت على جبل سلـع (عن : حميد الله)

شكل رقم (٦)

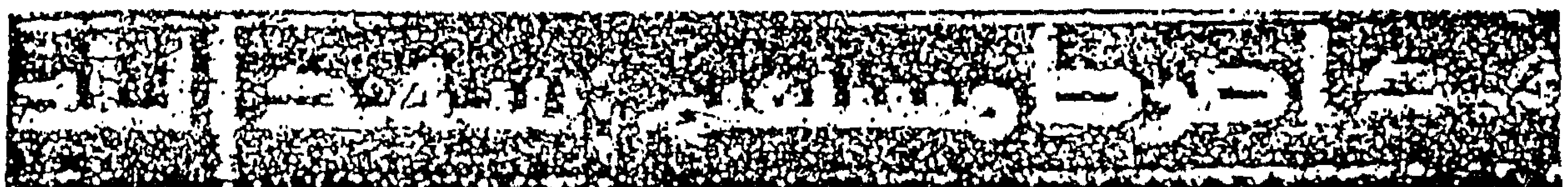
الجزء الأخير من الآية رقم ٢ من سورة المائدة بالخط الكوفى المبكر – القرن الثانى الهجرى

مقتنيات دار الكتب المصرية.(عن :MORITZ)



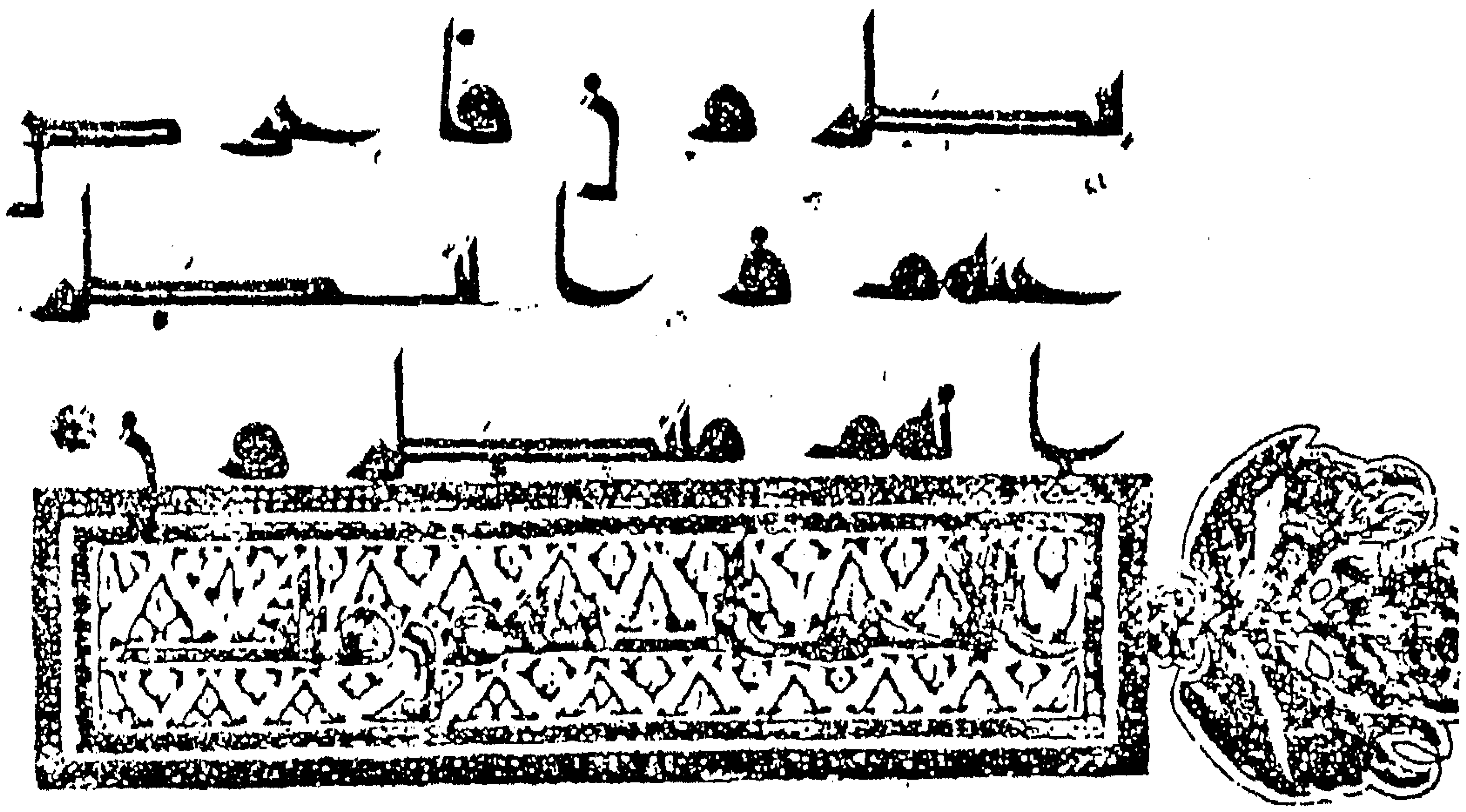
شكل رقم (٧)

الآيات ٤/١ من سورة الروم بالخط الكوفى المنقوط . القرن ٢هـ / ٨م. (عن : المصرف)



شكل رقم (٨)

كتابة بالفسيفساء على قبة الصخرة (الجانب الشرقى من العقد الأوسط) ٧٣هـ/٦٩٢م (عن :C.KRDDIER)



شكل رقم (٩)

سورة السجدة - جزء من الآية رقم ٣٠ كتبت بالخط الكوفى المشكل والمنقط مع وحدة زخرفية عباسية متكررة.
(مقتنيات متحف دالم - برلين الغربية) (عن مجلة فكر وفن) .

قلعة بني حماد بالجزائر

د. مصطفى كمال حمدي

موقع القلعة :

يبعد موقع القلعة عن الجزائر العاصمة حوالى (٢٨٠) كيلو متراً ، حيث يمتد من العاصمة طريق فى اتجاه الجنوب الشرقى ماراً بسهول جبال «الحضنة» الشمالية ، ثم يتفرع منه طريق آخر فى اتجاه الشمال يؤدى الى المنطقة الجبلية المسماه جبال «المعاضيد» ، والتى تقع بها قلعة بنى حماد ، على بعد عشرين كيلو مترا من هذا التقاطع ، و (٣٦) كيلو مترا من بلدة «المسيلة» .

وعلى حافة «وادى فرج) الغربية ، المدخل الوحيد لمنطقة القلعة ، وعلى سفوح وقمة جبل «تقربوست» ، تقع قلعة بنى حماد ، على ارتفاع أكثر من كيلو متر ، والقلعة محاطة بسور على شكل حافر الكبش ، بامتداد حوالى سبعة كيلو مترات .

تاريخ القلعة :

بنيت القلعة عام (٣٩٨) هـ - (١٠٠٧) م ، بناها «حماد بن بلقين ابن زيرى الصنهاجى» .

وكان المعز لدين الله الفاطمى قد رحل إلى مصر عام ٣٦٢ هـ . ، واختار «بلقين بن زيرى» وملكه على المغرب كله ما عدا طرابلس ، وبدأ عهد الدولة الزيرية ، التى تفرعت منها الدولة الحمادية التى تنسب إلى مؤسسها «حماد بن بلقين» . وقد تولى هذه المنطقة التى تقع شرق الجزائر سنة (٩٩٧) م . وأنشأ هذه القلعة فى جبل «المعاضيد» .

وفى عام (٤٤٣) هـ أرسل الفاطميون حملة للانتقام من الدولة الزيرية التى خرجت عليهم ، قوامها أربعمائة ألف فارس من بدو القبائل العربية المقيمة فى صعيد مصر ، انتهت بانكماش الدولة الزيرية داخل عاصمتها «المهدية» ، وتخلوا عن القلعة .

وقد عاشت الدولة الحمادية قوية حوالى ستين سنة ، ثم ضعفت تحت الضربات التى انهالت عليها من «الهلاليين» من الشرق والجنوب ، و «المرابطين» من الغرب ، ثم سقطت على يد «الموحدين» سنة (٥٤٧) هـ (١١٥٣) م .

ويبدو أن موقع القلعة كان مأهولاً فى عهد الرومان ، واما فى العهد الاسلامى الأول ، فكان الموقع يعرف بقلعة (كيانة) عام (٩٧٤) م .

وتذكر المصادر التاريخية أن بناء هذه القلعة قد تم عام (٤٠٠) هـ . وأن حماداً قد استقر بها بعد أن حصنها بالأسوار وأنشأ بها المساجد والفنادق ، وازدهرت الحياة بالقلعة ، وتزايد سكانها ، وحفلت بالعمال وطلبة العلم .

وتوفى حماد فى القلعة عام (١٠٢٨) ميلادية ، وخلفه ابنه «القايد» ، وأصبحت قلعة بنى حماد ، بعد سقوط القيروان عام (١٠٥٧) م ، العاصمة ، عندما قام الخليفة المعز لدين الله بإرسال جيش كبير من قبائل بنى هلال لغزو شمال أفريقيا واخضعوا طرابلس وتونس لحكمهم . وظهر الهلاليون فى سهول «الحضنة» ولكن حاكمها المنصور بن الناصر هزمهم فى مواقع عديدة .

وفى عام (١٠٩٠) م ، نقل مقر الحكم من القلعة ، بعدما خرّبها الهلاليون . وكان المسيحيون قد أقاموا كنيسة فى القلعة . وفى عام (١١٤٨) م تم نقل كل ما هو ثمين من القلعة ، حتى الأعمدة وتيجانها ودرجات السلالم ، فلم يكد يظهر أثر لها بعد عمل الحفريات فى القلعة .

ويبدو أنه حتى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، كان بعض السكان لايزالون بالقلعة ، بعد ان تحولت القلعة الى أنقاض ، وهدمها «الموحدون» عام (١١٥٢) م .

واختفت القلعة تماماً كمدينة فى العصر الحاضر ، وتحولت الى مجرد موقع أثرى ، واقيمت الى جوارها فى الجهة الغربية قرية صغيرة تسمى (سيدى الفضل) ، كما يوجد فى جنوب الموقع وداخله بعض المبانى الحديثة والمساكن .

وصف القلعة :

السور كانت القلعة كما ذكرنا ، محاطة بسور على شكل حافر الكبش ، بطول سبعة كيلو مترات، قاعدته العريضة بالجنوب على ارتفاع حوالى الكيلو متر ، ويستمر صاعدا من الجانبين الى قمة جبل «تقربوست» ومعناها سرج الفرس باللغة البربرية ، الى ارتفاع حوالى كيلو متر ونصف ويلف حول القمة من الجهة الشمالية . ومازالت بقايا لهذا السور وأساساته قائمة فى بعض أماكنه ، وله بوابتان بالقاعدة الجنوبية ؛ باب «جراوة» شرقا ، وباب «الجنان» فى الغرب ، وبوابة ثالثة فى الشمال الشرقى للسور تعرف بباب «الأقواس» .

ويبلغ عرض هذا السور مابين (٢٠ر١) و(٦٠ر١) مترا . وقد بنى بالحجارة ، وتوجد اثار بعض دعامات مربعة فى أماكن بالجهة الغربية له ، كما انه لم يبق من أبوابه سوى بعض جدران وأساسات من باب (الاقواس) بالجهة الشمالية للسور.

مصادر المياه :

كانت المياه بالمدينة تستمد من أعالى قمم الجبال ، حيث تحفظ بخزانات لايزال آثار بعضها قائماً حتى اليوم ، ثم توزع على انحائها عبر أنابيب لاتزال آثارها باقية كذلك فى بعض الاماكن . ويقع أحد خزانات المياه هذه بجوار الجامع ، والثانى عند القرين ، ويسمى نافورة السلطان .

مبانى القلعة :

مواد البناء بدراسة الوضع الحالى لهذه المبانى على الطبيعة ، بصفة عامة ، يتضح انها مبنية بالاحجار المحلية التى نحتت بطريقة بدائية ، وبنيت بالمونة المكونة من الجير والرمل فى معظم أجزائها ، وإن كانت هناك اجزاء أخرى بنيت بالمونة الترابية ، بل اقيمت بعض الحوائط بالطين ، مع بياضها من الخارج والجوانب بمونة جيرية . وكذلك فهناك بعض آثار لعقود مبنية بالطوب الآجر ، وآثار للبياض الداخلى لحجرات القصور والمبانى المختلفة ، وأما ما بقى من اسقف هذه المبانى ، فهو جميعه مبنى بطريقة القبوات بالاحجار الرملية الخفيفة .

وتنوعت تكسية الأرضيات ، من قطع الرخام الابيض ، والبلاطات الحجرية أو البلاط الخزفى بالوان مختلفة يغلب عليها الاخضر الفيروزى ، أو الطوبى ، فى اشكال هندسية مربعة ومثلثة .

كما وجدت اعمدة رخامية القاعدة والبدن ، وتيجان رخامية وحجرية مختلفة لهذه الأعمدة ، وقطع من الرخام لتكسية أسفل جدران بعض الحجرات بالقصور وكلها تفككت أو سقطت ، ونقل معظمها الى المتاحف الأثرية ، مع ما وجد بالقلعة من مخلفات الاحجار المنقوشة والمزخرفة ، والمواد والتحف المعدنية وغيرها .

آثار القلعة ومبانيها :

من المبانى والآثار التى مازالت أطلالها أو بقاياها قائمة بالبناء للحوائط الجزئية والأساسات ، الجامع ، بالجزء الجنوبى الاوسط وصومعته أو مئذنته أو منارته ، وبرج للحراسة يسمى برج «المنار» بالجزء الشرقى من السور ، وقصر «البحر» وقصر «السلام» ، وأما باقى المبانى والمساكن داخل القلعة فقد درست تماما ولم يبق اى أثر لها .. وكذلك قصر رابع كان يسمى قصر «الكوكب» .

كما يوجد خزانان للمياه بجوار قصر المنار ، فى حالة لابأس بها . وكانت هناك قنطرة «سيدى عيسى» ولا تزال بعض دعاماتها قائمة على وادى فرج جنوب شرقى القلعة ، وخارج أسوارها . وقد اندثرت القنطرة نفسها ولم يبق منها ما يستحق الوصف . ولم يكشف عن المقابر بعد ، وتقع فى الجهة الجنوبية ، حيث توجد تلال مغطاة بالعديد من قطع الفخار والاحجار .

والنظرة العامة الى العمارة الحمادية ؛ تظهر أنها أحد فروع الفن الاسلامى فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وهى مستمدة الى حد ما من الفن الفارسى والعراقى ، ومن جهة اخرى من الفن البيزنطى المحلى ، وليس لها طابع خاص متميز عن ذلك العهد ، ويعتبر ما وجد بالقلعة ، من زخارف ومن مجموعات خزفية واوانى ومقرنصات ، نوعًا من الأطوار الأولى لزخارف قصر الحمراء بالاندلس .

(١) مسجد القلعة :

يتكون المسجد اساسًا من منارة مازال معظمها قائما ، ومن أطلال مبنى مستطيل مقاسة (٦٦×٤٥) متراً ، له دعامات خارجية ، لم يبق منه سوى حوائط الاساسات للجدران ، وللمبنى مداخل متعددة من جوانبه ، حيث يوجد صحن مكشوف بالجهة الشمالية منه ، به خزان للمياه .

وكان يحيط بالصحن إيوان مسقوف ، من جوانبه الاربعة ، محمول على اعمدة مستديرة من الرخام الابيض ، وكان هناك حائط يفصل بين الصحن والجامع المسقوف بالاخشاب ، عندما كان السقف موجوداً .

وتشكل بعض الحوائط داخل الجامع مايشبه المقصورة حول القبلة . وأما المنارة فقد بنيت بالاحجار ، وقاعدتها مربعة ضلعها (٦ر٥٠) متر ، وارتفاعها الحالى حوالى (٢٥) متراً ، حيث اندثر الجزء العلوى منها بما فى ذلك القبة التى كانت تعلوه . وللمنارة سلم من الحجر ، يدور صاعداً حول نواة مربعة . وتعلو الدرجات قبوات تتقاطع فى الاركان .

ولاتوجد زخارف ببدن المنارة سوى التى تواجه الجامع ، فوق باب مدخل المنارة ، حيث تعلوه فتحات وزخارف ونوافذ ، باشكال مختلفة من الجص والآجر.

(٢) برج المنار :

وهو مبنى مربع ، ضلعه (٢٢) مترا ، كان يستخدم كبرج للحراسة ولارسال وتلقى الاشارات ، التى تستخدم لها المرايا العاكسة نهاراً ، وأضواء النيران ليلاً ، وكانت هذه الإشارات ترسل من وإلى المراكز المتقدمة بسهل الحضنة ، الذى تدخل منه عادة جيوش الغزاة الى منطقة القلعة .

ويقع هذا البرج على حافة جرف يستحيل تسلقه من الجهة الشرقية ، مطلا على وادى الفرج ، وهو مبنى من الاحجار المنحوتة نحتا بدائيا ، وتتشكل واجهاته من حنايا (صفف) نصف دائرية على شكل نصف اسطوانة ، وكانت تنتهى فى اعلا كل منها بربع كرة على شكل صدفة من أوراق الشجر ، وتشبه مثيلات لها فى اركان جامع الأقمر بالقاهرة ، المبنى عام (١١٢٥) م .

ويتكون البرج من طابقين ، السفلى منها تتوسطه حجرة مربعة مسقوفة بقبوين متقاطعين ، ولها باب من الواجهة الشرقية ، وقد يكون استخدامها فى الماضى كسجن أو مخزن ، كما أن هناك بابا بالواجهة الغربية كان يؤدى الى منحدر يدور حول قاعتىّ الطابقين من الخارج ، بين جدران القاعتين والجدران الخارجية للبرج ، حتى يصعد الى اعلا سطح البرج ، ويستخدم ممراً للحراس . وهذا الممر مغطى بقبوات مستمرة تتقاطع فى الأركان .

وأما الطابق العلوى فله مدخل آخر يتوسط الواجهة الغربية للمبنى ، يؤدى الى منحدر خارجى . وبه قاعة مربعة لها أربع حنيات (صفف) تعطى شكلاً صليبيا لمسقط هذه الحجرة ، وكانت القاعة مسقوفة بقبة وحناياها بعقود نصف دائرية .

(٣) قصر المنار :

ويشتمل على خمسة اجنحة متلاصقة ، منها ثلاثة بالجزء الجنوبى للقصر ، واثنتان فى الجزء الشمالى . ويقع المدخل الرئيسى للقصر على بعد حوالى ثلاثين مترا شمال غرب برج المنار . وتبلغ طول واجهة هذا المدخل (٦٠ر٢٩) متراً . ويبرز عن الحائط الجنوبى للقصر ، ويؤدى الى حجرات مسقوفة . وفى الركن الغربى منه سلم يصعد لسطح القصر . وتفتح الحجرات على فناء مربع مكشوف كان يحيط به رواق محاط بحجرات مستطيلة مختلفة .

والى الغرب من هذا الجناح يقع الجناح الغربى الذى يتكون ايضاً من فناء مربع مكشوف يحيط به رواق محمول على دعامات مربعة من الحجر ، ستة فى كل جانب من جوانب الفناء ، وقاعات مستطيلة فى جوانبه الثلاثة تتميز منها القاعة الوسطى بالجهة الشمالية . وقد كان الفناء مبلطا بالرخام الابيض ويتوسطه حوض من الحجر المنحوت بشكل أربعة أسود فى الاركان ، وكانت ترمى الماء فى النافورة . وفى الركن الجنوبى الشرقى للرواق يوجد مسجد صغير طوله (٨٠ر١) مترا ، وعرضه (٧٠ر١) متراً ، تابع للقصر ، وله قبلة من الزخارف الجصية والكتابات الكوفية

وأما الجناح الايمن للقصر ، أعلى حافة وادى فرج ، فهو جزء من قاعة مقاسها (٦٥ر٨×٠٩ر٨) مترا . وقد تسبب انجراف حافة الجبل المطلة على الوادى فى اندثار الجزء الشرقى لهذه القاعة .

ويبقى بعد ذلك الجزء الشمالى للقصر ، وهو عبارة عن جناحين متجاورين كل منهما عبارة عن فناء مكشوف تحيط به حجرات من كل جانب . وارضيتهما فى اعلى الجدران الشمالية للجزء الاوسط لجنوب القصر ، ويصعد اليها بسلم فى الركن الشمالى الغربى . كما توجد بالركن المقابل فتحة تؤدى الى سرداب ارضى ، لم يتم استكشافه بعد ، ولا المكان المؤدى اليه هذا السرداب .

ويبدو الجناحان الشماليان للقصر بصفة عامة غير معتنى ببنائهما ، فبهما الكثير من الحوائط المبنية بالطين ، أو بالاحجار ومونة الطين ، وليس بها دقة واهتمام البناء بالجزء الجنوبى .

(٤) قصر البحر : (الأمراء)

ويتكون هذا المبنى من مجموعة من ثلاثة أقسام متباينة ، كان يفصل بين كل منها والآخر مبانى وحدائق وخزانات مياه .

ويسمى اكبر هذه الأقسام قصر «البحر» أو قصر «الحكومة» ، وكان يستخدم للأعمال الرسمية ، ويقع عند قاعدة مثلث تشغل وسطه قصور الأمراء . أما الجزء الثالث وخزانات المياه فكانت بين هذين القصرين . ويبلغ طول الحوائط الخارجية المحيطة بهذه القصور حوالى (٨٥٠) مترًا .

دار البحر كان طولها (١٥٩) متراً وعرضها (٦٧) مترا وارتفاع مبانيها حوالى عشرة أمتار . وتشمل مبانيها من الجهة الشرقية مبانى مخصصة للحراس ، ومكاتب حكومية ، توصل الى الرواق الذى يحيط بالحوض الكبير ، والذى تذكر المصادر التاريخية أن هذه البحيرة الكبيرة الصناعية ، كان ينقل إليها الماء وتملأ به ، وتقام فيه الالعاب المائية المختلفة ، وتلعب فيه الزوارق .

وأما قصور الامراء وملحقاتها فكانت موجودة بالجهة الشمالية ممتدة على ارتفاعات متتالية ، بطول حوالى (٢٠٠) متر ، وتتكون من ثلاثة مجموعات أولها قصر وخزانات للمياه . والثانية قصر الأمير والحريم ، والثالثة الملحقات الخاصة بالخدمات وبعض المساكن التى تكون جزءاً من الحريم .

وكان السور المحيط بهذه المجموعات بسمك (٥٠ر٢) متراً ، مبنيا من حائط مزدوج من جانبيه. ولم يكن هناك اتصال بين دار البحر وقصور الأمراء . وينتهى هذا السور من الجهة الشمالية ببرج مربع ، يشرف على المدينة بأكملها ، ويرتفع عن مستوى دار البحر بحوالى (٣٥) متراً . ولم يبق من آثار هذا القصر سوى الجزء الشرقى من دار البحر ، وبعض الاحجار التى تشكل اركاناً من مبانيه .

(٥) قصر السلام :

ويقع هذا القصر الصغير بجوار باب «الجنان» ، على تل صغير مجاور للطريق الرئيسى داخل القلعة ، الذى يصل بين بابى «الجنان» و «الاقواس» ولايظهر من القصر حاليا اى بقايا ، سوى آثار لبعض أساسات الحوائط .

وقد اندثرت ايضاً آثار المساكن بهذا الحى ، حى «جراوة» بالجهة الشرقية للقلعة ، حيث ان هذه المساكن مبنية بمواد ضعيفة ، لاتتحمل عوامل الزمن .

(٦) قصر الكوكب :

لم يكتشف بعد . ويقع بين قصرى السلام والبحر . وقد ورد ذكره فى المراجع التاريخية الاسلامية . وليس هناك شك فى وجوده ، حيث أن هناك اربعة تلال فى سفح جبل تقربوست ، وانه معلوم أنه كانت هناك أربعة قصور .

(٧) المقابـر :

كانت مقبرة القلعة خارج اسوارها ، فى الجهة الجنوبية منها ، حيث توجد تلال مغطاة بالعديد من قطع الفخار والاحجار ، لم يكشف عنها بعد ، وان كانت قد وجدت بعض قطع من شواهد قبور مكتوبة ، وأحجار منحوتة ومزخرفة ، ولكن لم يوضح عليها تواريخ معينة ، لتحديد زمنها . وقد نقل احد عشر شاهداً منها الى متحف «قسنطينه» .

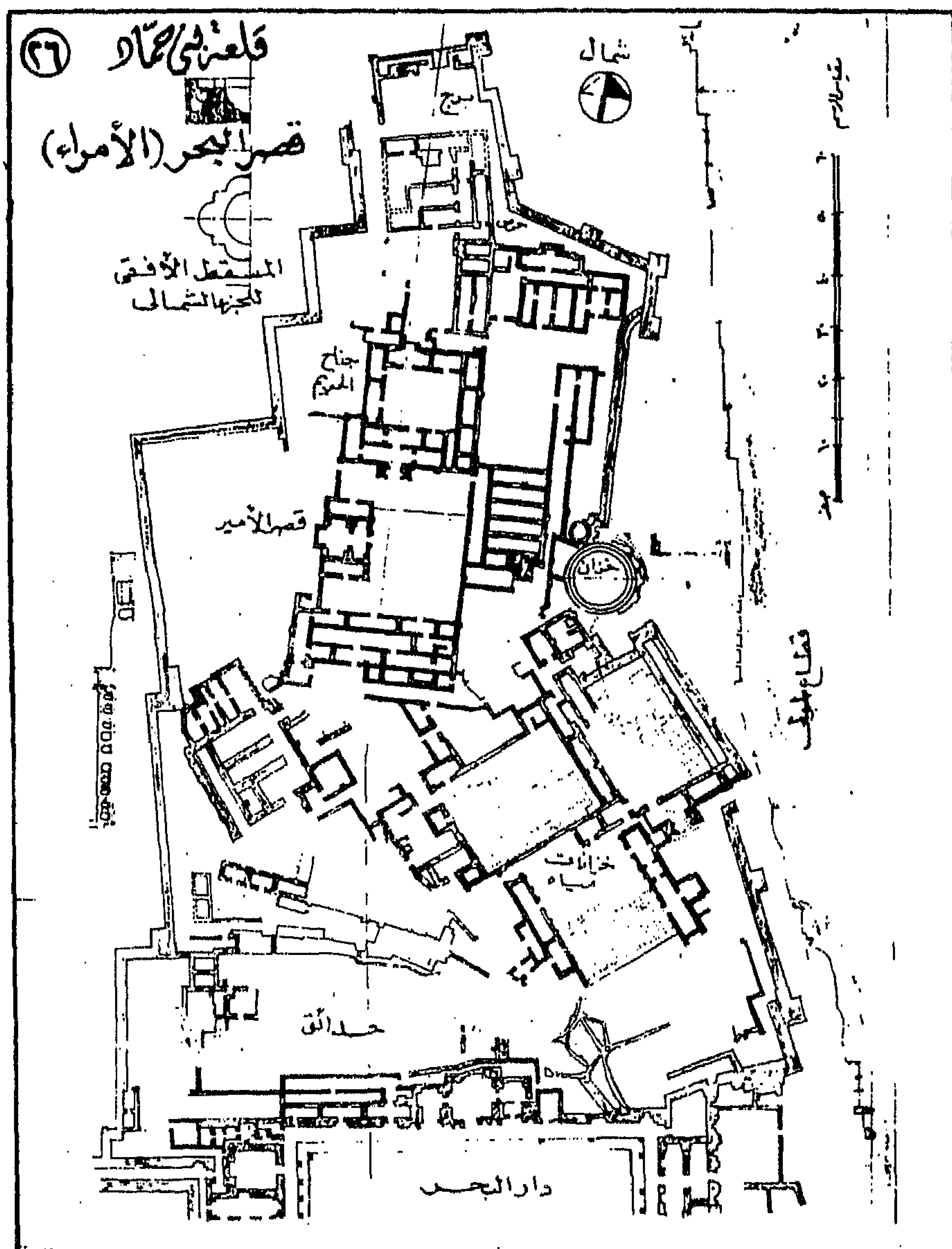
(٨) القناطـر :

وتوجد بقايا أحد القناطر المسماه جسر «سيدى عيسى» فى موقع خارجى جنوب شرقى القلعة .

ومثل قلعة بنى حماد المبنية بالحجارة الغشيمة التى يتراوح إرتفاع جدرانها الباقية بين مترين وخمسة امتار ، والتى تربط بين احجارها المونة أو الطين ، قد يمكن الاحتفاظ بأطلالها كمبانٍ تاريخية ذات شأن ، بالنظر لقدمها البالغ (حوالى عشرة قرون) إذا ماجرت صيانتها لتقوى على مقاومة الظواهر الجوية وخاصة مياه الامطار ، التى تزيل مونتها الضعيفة وتسقط احجارها ، وتجد مجالاً للتسرب فوق اعلى جدرانها وخاصة إذا كانت مستوية ، وكذا قد تتسرب الى اساسات البناء فتضعفها . وتحدث مياه الامطار تفاعلات على الاحجار ، حيث تتبلور املاحها ، ثم تتقشر الحجارة وتتفتت اسطحها عند الجفاف . وكذا يسبب الماء أحيانا نشوء طبقة بكتيرية تغطى سطح الحجارة ، وخاصة فى اجزاء البناء المحرومة من الشمس ، ونمو النباتات الطفيلية والاعشاب بين زوايا البناء ، وفى الشقوق والفواصل ، مما يسبب خلع الاحجار ضعف البنيان والجدران وانهيارها .

كما أن الاحجار فى المناطق القارية والصحراوية ، تتأثر من تفاوت الحرارة بين الليل والنهار ، وبين المواسم الباردة والحارة ، بسبب تجمد المياه فى شقوق الحجر وثقوبه ، ثم ز يادة حجم الجليد ، وضغطه الذى تتكسر منه الطبقة السطحية .

* * *


قلعة بني حماد
٢٦
قصر البحر (الأمراء)
المسقط الأفقي
للجزء الشمالي
شمال
برج
جناح
الحريم
قصر الأمير
خزان
خزانات
مياه
حدائق
دار البحر

٢

قلعة بني حماد
الموقع العام

تقربوست
١٤١٨

حدود السور القديم

شمال

باب الأقواس

قصر المنار

برج المنار

قصر البحر
(الأمراء)
١٠١٥

قصر
السلام
٩٩٠

الجرين

باب
الجنان

الجامع
٩٦٥

مباني حديثة

قرية سيدي الفضل

ضريح سيدي الفضل

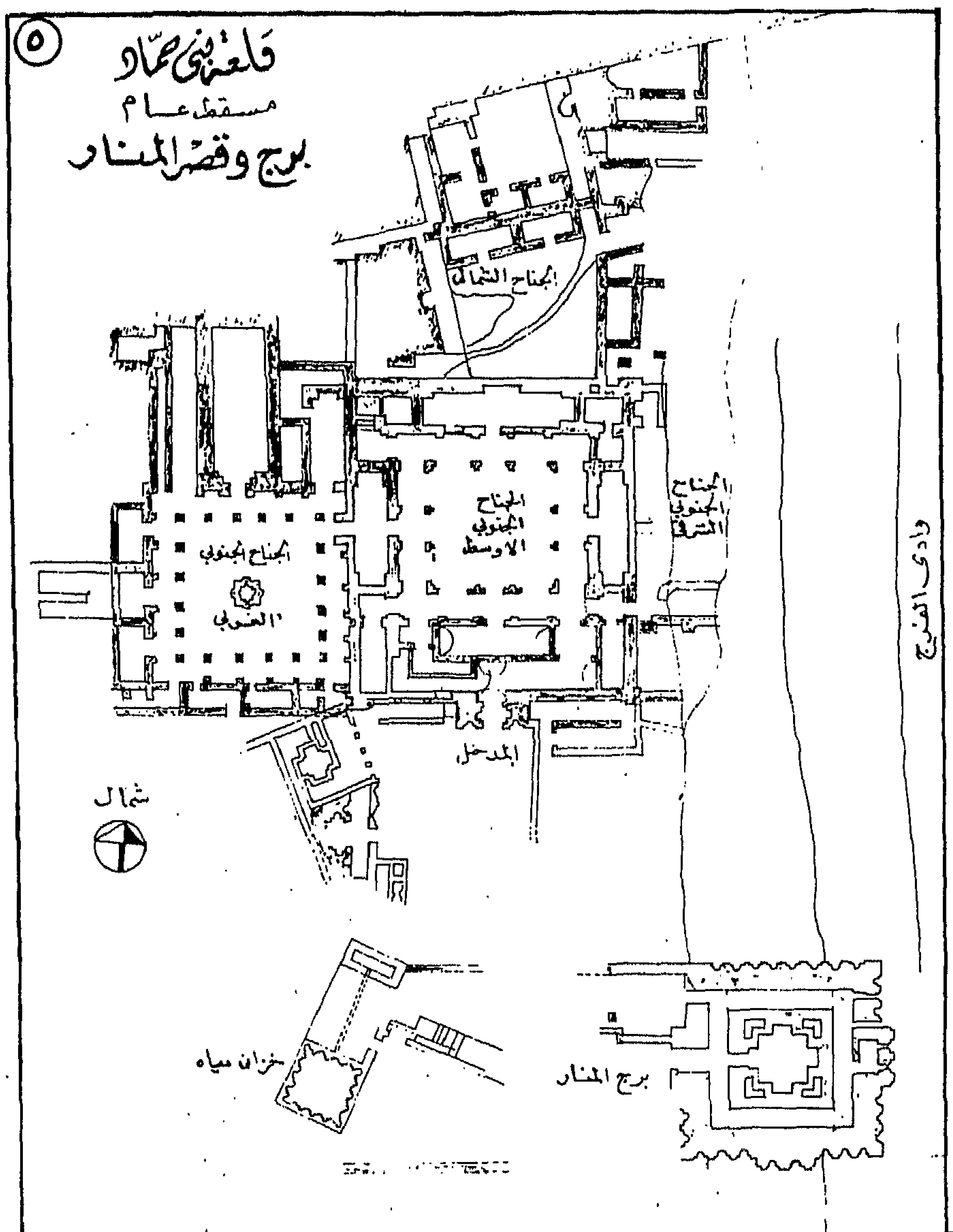
وادي الفضل

وادي الفرج

باب
جراوة

المقابر القديمة

مقياس الرسم
٥٠٠ صفر ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠


٥
قلعة بني حماد
مسقط عام
برج وقصر المنار
الجناح الشمالي
الجناح الجنوبي الأوسط
الجناح الجنوبي الشرقي
الجناح الجنوبي الغربي
المدخل
شمال
وادي الفرج
خزان مياه
برج المنار

شباك القبلة الاسلامى

دكتور / نبيل محمد درويش

تركزت الدراسة فى إناء حفظ المياه وماله من شيوع فى البلاد والمناطق التى لازالت بعيدة عن اساليب الحياة الحديثة ، أو التى لايستطيع أهلها ممارسة الحياة على مستوي تلك الاساليب . خاصة وإن المناطق الريفية تبذل كل إهتماماتها في الزراعة ، فيقضى رجل الريف معظم أوقاته فى الحقل إلى جوار قريته . وقد تأكد أن إناء المياه أمر حيوى فى حياتنا سواء فى الريف أو المدن ويشارك حياةالناس فى كل مكان وفى كل آن ، فهو تحت ناظرهم على الدوام ، وجدير بأن يكون موضع إهتمامنا حتى نوفره لهم صالحا للأستخدام مع اللمسة الفنية التى يمكن لأهل تلك الحرفة إضافتها دون عوائق فى إنتاجهم الكمى مع مراعاة الجوانب الإقتصادية . فتوافر اللمسة الفنية يؤدى الي رفع مستوى الإنتاج ومستوى حياة أصحاب الحرفة أنفسهم حين تلقى منتجاتهم تسويقاً أفضل دون إرهاق للمشترين ، ودفعا للمنتجين للتنافس لإخراج منتجات تتميز بلمسات فنية متباينة تسعد الناس جميعاً وتنعكس على حياتهم ، وتحرك مشاعرهم نحو جعل أدوات الاستعمال المنزلية علي درجة عالية من الذوق واللمسة الفنية .

وإذا كنا نهتم بالإناء الفخارى الخاص بحفظ المياه فى بلادنا فاننا لاننفرد بهذا . فالعالم كله يهتم بهذا الإناء رغم تطور الحياة فى كثير من الدول وماقدمته المصانع من أدوات اخري غير فخارية .

يؤكد ذلك ان سكان وادى النيل ومعظم البلاد العربية فى حاجة ماسة الى إناء حفظ المياه . مما يدعو الى إنتاج تلك الملايين من جرار وقلل المياه لتستهلك علي الدوام مع استمرار الإنتاج . فهي حرفة عاشت قرونا عديدة ولازالت تعيش وتضاعف كلما تتضاعف عدد السكان .

ولم تؤثر المدنية والتطور العلمى فى كم هذا الانتاج فهو يتضاعف عاما بعدعام مما يوضح أن هذه القطعه الفخارية تزامل الانسان فى حياته ولا استغناء عنها ، يؤكد أيضاً أنها جديرة بكل اهتمام وجديرة بأن تكون محببة لنفوس المستهكلين ولا يتحقق ذلك الا بأن تكون صنعتها مصحوبة بلمسة فنية .

لقد وضعنا نصب أعيننا أثناء بحثنا أن يصبح مايستجد على القلة فى إمكان أهل الحرفة أنفسهم تنفيذه بخطوات تيسر لهم الإضافة وتحقق اللمسة الفنية .

شباك القلة الاسلامى

لقد لفت نظرنا – بصفه خاصة عند دراستنا للإنتاج القديم أن مجموعة شبابيك القلل التى تخلفت عن العصر الاسلامى وحفظت بمتحف الآثار الاسلاميه كانت موضع درس وفحص من حيث أسلوب إخراجها وكيفية صنعها ونوع طيناتها ، ثم أدوات تنفيذها ، وتعاقب خطوات تنفيذ التصميمات والرسوم بهذه الدقة والرقة . رأينا ان يكون الشباك هو موضوعنا الرئيسى فى البحث مما يقتضى شرح كل مايتعلق به قديما إذ أن دراسة القديم كانت مفتاحا لوضع خطة إخراجه حديثا للأغراض التى سبق ان أوضحناها .

حين إتجهنا الى تخير لمسة فنية لإضافتها الي فخارنا المحلى إستلفت نظرنا عملية شائعة فى التراث الاسلامى القديم ، وهى عملية التفريغ . ويعتبر ماصنعه المسلمون القدماء إعجازا فى فن التفريغ فى الخامات المختلفه ومن المميز ات البارزه فى فنونهم ، ومما حفزنا على جعله نقطة إرتكاز لإضافة جديده فى فخارنا المحلى المعاصر.

وبفحص القطع الفخارية ذات الشباك ، الموجودة بمتحف الآثار الاسلامية تبين أن الطينة التى كانت مستخدمة تحقق أغراض صنع جرار مياه الشرب فهى راشحة تؤدى غرضها فى قيظ الصيف فى تبريد المياه ، ويؤدى بعضه الاخر غرضه فى فصل الشتاء وهو النوع الذى غطى بالطلاء الزجاجى حيث تحتفظ المياه بدرجه طبيعية من الدفء ولا تتعرض للبرودة . إلا أن هناك غرضا عمليا مشتركا فى الاثنين وهو حماية مايوضع من مياه فى أى منهما من سقوط أو دخول أية مواد غريبة إلي داخل القلة . وهناك غرض أخر اكتسبه كلا من النوعين وهو توفر لمسه جمالية فنية .

وبفحص الطينات التى صنعت منها القلل فى ذات الوقت عرف أنها طينات جيرية سيليكية . إستدلالا من بعض التحاليل التى قام بها اكثر من خبير . ومن بين تلك التحاليل ماقام به الخزاف الانجليزى وليم دين مورجان .

إن مقارنه هذه الطينات التى أستخدمت قديما والطينات المحلية المستخدمة حالياً فى صناعة الفخار بجهات عديده بمصر من اهمها منطقة مصر القديمة تكشف عن تشابه كبير بين نوعى الطينات . ومما يدلنا علي أن أساليب التنفيذ الحالية بإستخدام الطينات المحلية كانت مستخدمة قديما .

وبفحص رقاب بعض القلل ذات الشباك الموجودة بالمتحف تبين أنها تختلف وتتباين فى إرتفاعها وأقطارها . مما يوحى بأنها كانت تختلف فى أحجام البدن كما كانت المقابض تضاف إلي بعض تلك القلل.

أما من حيث موقع الشباك بداخل الرقبة فكان يختلف من موقع إلى آخر تبعا لطول أو قصر أو أتساع الرقبة ومايناسبها . فنرى بعض الشبابيك قرب فوهة الرقبة ، وبعضها الآخر قرب البدن أو على سطحه مباشرة اخذ شكلا مقعراً أو محدبا لانستطيع أن نؤكد تواجد قاعدة واحدة ، لوضع الشباك لأنه كان يتغير من آن لآخر . لكننا نلحظ أن تشكيل الرقبة كان على شىء من ضآلة السمك والرقة الواضحة رغم أن الطينة التى كانت مستخدمة جيرية رملية . اما الطرق المختلفة التى ظهر بها الشباك بالقلة ، فقد لوحظ فى المجموعة الموجودة بدار الآثار كما يلى بيانها الموضح فى هذا البحث بالرسم التفصيلى .

الطريقة الأولى :

يُعَد بدن القلة مغلقا من أعلى بدون تواجد رقبه عالية ويكون سطح البدن من أعلى محدبا ، ثم ينفذ على السطح المحدب لتصميم القابل للتفريغ ، على نحو ماهو مشاهد بالقطع القديمة وتشكل الرقبة على الدولاب بعد ذلك وتلصق فى موضعها حول الجزء الذى تم تفرغه .

الطريقة الثانية :

إعداد رقبة ذات قاع وعلى شكل كوب ثم اجراء التفريغ فى الكوب من الداخل ثم تركيبه على البدن ولصقه .

الطريقة الثالثة :

عمل قطعة مستديرة مقعرة بعض الشىء والتفريغ فيها ثم اسقاطها بداخل الرقبة اثناء تشكيلها على الدولاب .

اما عملية التفريغ نفسها فهناك طريقتان اتبعنا لتنفيذها :-

الأولى :

إجراء عملية التفريغ على سطح البدن المغلق أعلاه ثم تشكيل رقبه على الدولاب وتركيبها على البدن محيطة بجزء التفريغ .

الثانية :

التفريغ فى القطعة المستديرة بعض الشيء ثم اسقاطها بداخل الرقبة وتثبيتها فيها ، مع ملاحظة أن يتم التفريغ فى السطح المذكور مع وضعه على سطح من الجص حتى لاينهار الشكل أثناء عملية التفريغ نظراً لرقه سمك السطح والدقة المتناهية للتصميمات .

الزخارف المستخدمه على شباك القلة :

تنوعت التصميمات ولكنها فى معظمها اعتمدت بصفه رئيسيه على التقاسيم الهندسية ثم اشكال الحيوان والطير والاحياء المائية والرسوم الآدمية والكتابات والعبارات اللطيفة . والتصميمات البنائية وما الي ذلك من كل العناصر كما لوحظ أن التصميمات تحتوى الى جانب التفريغ على بعض تخاطيط سطحية العمق بعضها نافذ الى الوجه الاخر .

وبإستعراض مجموعات الشبابيك الموجودة فى المتحف الاسلامى بالقاهرة نجدها وقد امتلأت سطوحها بالرسوم التى خرمت بمهارة فائقة وانطلاق فى التكوين بالرغم من أنها نفذت على أجسام فقيرة القيمة من جهة الشكل والكتلة والتخطيط الخارجى ونوع وطبيعة طينتها الرخيصة التى لم يعن بتجهيزها على نحو سليم .

كما نفذت الشبابيك بمهارة وبأساليب عملية متنوعة وعناصر زخرفية مكونة ومشكلة بأساليب رائعة ومأخوذة من البيئة والعناصر الطبيعية والهندسية حتى أصبحت ذات طابع فنى انسانى لعل ذلك يرجع الى أن الشبابيك كانت تصنع يدويا مع الاستعانة بمعدات يدوية تختلف عن الآليه والميكانيكية الحديثة .

هذا الى جانب ماكان يتميز به المصممون والمبتكرون من شخصية ومالديهم من تقدير وفهم للعناصر الطبيعية مع القدرة على الاخذ عنها وتحويرها الي اشكال زخرفية وما كانت تتسم به رسومهم من مرح وبهجة وجدية فى آن واحد . لعل قدرتهم على فهم خصائص الطينة التى صنعت منها القلة ومعالجتها بما تتفق مع خصائصها كان من اهم عوامل نجاح هذه الشبابيك التي خرمت ونسقت بأسلوب يتناسب مع هدف إستعمالها .

كما تضمنت العناصر فى كثير من الحالات كتابات ذات خطوط فنية ووعى الإختيار المناسب فيما كتب على الشبابيك لأنها متداولة بين الناس ذلك الاختيار الذى يحقق الجمال والتوجيه والارشاد للناس وفى الوقت نفسه يتضح من بعض ماكتب على الشبابيك الاسلامية أن الصناع والفنانين كانوا على رباط روحى بالناس ، يرعون أحاسيسهم ويقدمون لهم مايسعدهم بحق من معانى الارشاد والتوجيه فى هيئة أمثال أو اقوال مأثورة ، فيها تربية وخلق مثل ((عف تعافا)) و ((من صبر ظفر)) و ((لاغالب الا الله)) .

كما نجد صورة على جانب كبير من السعادة والمرح والبهجة تبدو واضحة بينة فيما سجل على الشبابيك من رسوم الطير الرشيق والازهار والورود ونباتات منسقه تنسيقا زخرفيا بديعا .وكذلك فيما سجل على الشبابيك من رسوم الاشخاص والكؤوس فى ايديهم.

اختلفت اقطار هذه الشبابيك المفرغة فى مقاساتها التى تبدأ من حوالى ٢سم حتى ١٢سم تقريبا .

والثقوب الموجودة فى الشباك تختلف فى اشكالها فهى إما هندسية ويكثر هذا النوع بالمتحف الاسلامى، واما غير هندسية تحتوى على عناصر، حيوان أو طير أو إنسان. ويوجد نوع اخر وهو التفريغ الخط الخارجى لنفس العنصر ، ولوحظ فى عملية التنفيذ مراعاة ان يكون مجموع الفراغات الناتجة عن التفريغ كافية لصب المياه سواء كانت الفراغات متسعة أو ضيقة. والقلل الموجود بداخلها شبابيك متنوعه فى اشكال البدن. كرويه الشكل اوقريبه من ذلك لكى تستوعب كميه من المياه. كذلك روعى جمال الشكل بحيث يناسب الاجزاء مثل البدن والمقابض والمثاقب والكعوب . كما وجدت زخارف بارزة ومرسومة بالأكسيد ومحزوزة على سطوح جرار المياه ذات الشباك كذلك الزخرفة بالألوان المعدنية على سطوحها .

وتفاوت التصميمات فى قيمتها الفنية ، ليس بسبب العصر الذى نفذت فيه القطعة بل لتفاوت قدرة الصناع فى التنفيذ .

إمتازت التصميمات بجمال توزيع الوحدات وتناسق أحجامها وحركاتها . كما يستدل من مجموعه المتحف أن تلك القطع المفرغة كانت تتم بشىء من السرعة مما يدل على أن الفنان المسلم اتصف بالمهارة الفائقة والتمكن من العمل فى تلك المنتجات .

ولاننسى أن قله المياه التى طليت بالطلاء الزجاجى وهى ذات شباك مفرغ أيضا . إلا أن التفريغ فى هذه القله يكون على إتساع أكبر يقل فى دقته عن الشباك الفخارى الخالي من الطلاء .

ومما لاشك فيه ان صناع هذا النوع المطلى كانوا على حذر فى التفريغ حتى لايؤدى الطلاء الى إنسداده مما يفقد القله صلاحيتها للصب او الشرب منها .

ملاحظات اخرى عن الشبابيك القديمة :

بفحص بعض الشبابيك القديمة لوحظ أن :

تنفيذ التفريغ أو الثقوب كان بطريقة وضع قطعة على شكل السلطانية الصغيرة على شكل آخر مقعر من مادة غير صلبة قد تكون من طين رطب . ومن المؤكد إنه كان يوضع بين السلطانية والقطعة المقعرة الاخرى مادة عازلة قد تكون مادة دهنية أو قطعة من القماش الخفيف . ثم يجري تنفيذ التفريغ والثقوب فى السلطانية من الداخل وهى موضوعة بداخل الشكل المقعر . كما لوحظ اختلاف أنواع الأدوات التي استخدمت فى الحز أو القطع ، فمنها المدبب ومنها الحاد كالسكاكين يستخدم للقطع . وأغلب الشبابيك القديمة نفذت بهذه الطريقة .

لوحظ أيضاً فى الشبابيك التي نفذت فوق بدن القلة أن لكل شباك فى وسطه جزء بارز مستدير كالزرار ، أحيانا يكون به ثقب فى وسطه وأحيانا اخرى نراه مغلقا تماماً ، وعلى ضوء مانعرفه عن

بعض التقاليد المصرية التى لازالت متبعه حتى الآن فإن هذا الزر توضع فوقه ليمونة . أما إذا كان مثقوبا وضع فيه عود الريحان ، إتماما للمظهر الجمالي حيث تفوح منه رائحة زكية .

كما كان يصنع للقلة قاعدة خاصة لترتفع عليها بعد ملئها بالماء . وأحيانا كان بصنع لهذه القاعدة سطح على شكل شباك مفرغ حيث تمر منه المياه عند رشحها من القة فيكون الترشيح منها الى هذه القاعدة حيث تحتفظ بفائض المياه الذى يرشح من القلة .

الخطة الجديدة لشباك القلة

بعد ماذكرنا من منابع بحثنا فى الفخار المحلي القديم والحديث بغرض الوصول الى اضافة لمسة جمالية ، أصبح الطريق واضحا لما نستطيعه بالنسبة لإضافة تلك اللمسة على إننا نضع فى الاعتبار الأول أننا بهذا البحث لننتهى منه الى اضافة جديدة فى الفخار المحلى يتمكن من ممارستها بيسر ودون عوائق لأهل حرفة الفخار انفسهم ليكون لذلك النتائج التي سبق ذكرها وأهمها رفع مستوى الأنتاج ورفع مستوى المعيشة لأهل تلك الحرفة .

وتبعا لما نوهنا به فيما ذكر من أهمية الجزء الذى بشباك القلة إذ انه يكون حتما موضع الرؤية لمجرد تناول القلة للشرب منها مباشرة أو لسكب الماء منها فى كوب للشرب . فإن اهتمامنا تركز فى هذا الجزء وجعلناه موضع بحثنا . والحق انه من الميسور بطريقة أو بأخري تهيئة شباك واحد أو اثنين ولكن اخراجه اخراجا كميا هو ما اتجهت اليه اهتماماتنا . واقتضى هذا عددا من التجارب والمحاولات العمليه بصرف النظر عن التصميمات وتنوعها – أما من جهة طيناته فهى مقيدة بنوع طينة القلة نفسها حيث تختلف من منطقة تمارس فيها الحرفة عن غيرها . ومقيدة بطريقة صنعها ووسيلة حرقها وما الى ذلك .

ولقد تبين لنا أن الشبابيك الاسلامية القديمة اتبع تنفيذها ثلاث طرق سبق شرحها . وقد قمنا بدراسة تلك الاساليب عمليا للوثوق من صحة مشاهدتنا للقطع القديمة وتحققنا من صحة ثلاثتها – وقد اقتضي البحث ايضاً اعداد عدد من القطع التى تصلح لاستعمالها فى تأدية عملية الثقوب والتفريغ فى مسطح القطعة المستديرة الشكل التي تعد لتكون الشباك وقد اجريت عدة تجارب علي مايصلح من الخامات لصنع اداوات التفريغ فجربت المسامير المختلفة السمك وذات الأطراف المختلفة الاشكال ، فمنها مدبب ومنها المثلث ، ومنها شكل النجمة ، ومنها نصف الدائرة أوعلى شكل الهلال ، ثم جربت قطعًا أعدت بالطين وحرقت الى فخار وتنوعت أشكال أطرافها على نحو ما ذكرنا .

وحين جاء دور صنع القطعة التى سيجري فيها التفريغ ليتم تثبيتها فى مكانها بعد ذلك ، أجريت عدة تجارب لاعدادها فتارة جربت بعضها على الدولاب ، وتارة بصنعها فى قالب جص ، وتارة بصبها فى قالب وكانت التجربة تأخذ مجراها الي النهاية فكان موضوع التفريغ يتم بالأساليب والأدوات المختلفة على تنويعات إخراج القطعة الرئيسية بتنويعات إخراجها سعيا وراء التعرف الى الصلاحية كاملة .

كما كانت التجارب تأخذ طريقها فى عملية تركيب وتثبيت القطعة فى رقبة القلة وجملة القول كانت التجربة تجرى كاملة كما كانت التجارب تجرى فى قطع اسطوانية واسعة القطر ، وفى اخرى صغيرة القطر كى يستطاع التعرف على كل مايحتمل من عقبات .

ولقد تضمن الشباك القديم حركات مختلفة فى التصميمات فكانت معظم أجزائه تفرغ فعلاً وهذا امر ضرورى بطبيعة الحال لتيسير استخدام الشباك فى سكب المياه وصبها منه إلا بعض اجزائه كان تخطيطا فقط غير نافذ الى ظهر الشباك وكان هذا بطبيعة الحال تحقيقا للتصميم وتوضيحا له ، وكانت بعض التخاطيط المذكورة على شكل خط متعرج محيط بالوحدات الهندسية او غيرها او كان بعضها نافذا حتى الوجه الآخر .

ومع انه خط مستمر إلا أن الشباك لم يسقط ولم ينفصل عن الدائرة . وقد ثبت بالتجربة إن عدم سقوط القطعة المستديرة التي احيطت بهذا الخط المتعرج يرجع الى درجة رطوبة الطينة عند اداء هذه العملية ، أى انها تكون فى حالة تشبعها بالماء وذلك بأن يتم تخطيط الفكرة العامة فوق سطح القرص المستدير بإستخدام ابرة رفيعة .

وبصفه خاصة عند الرغبة فى وضع العناصر لإحاطتها بثقوب ذات الاشكال الهندسية .

وقد تضمنت الشبابيك القديمة بعضا من الرسوم لعناصر اختلفت تبعا لرغبة المصمم ، وقد سجلت هذه الرسوم بطريقة التخطيط فقط دون النفاذ الى الخلف مع احاطتها برسوم مفرغة تماماً .

كل هذه الحركات كانت موضع بحث وفحص وتجربة عملية ليتسنى الإفاده من أساليب التنفيذ وكى تتيسر معرفة متكاملة لاخراج الجديد من الشبابيك تحقيقا للأغراض المنوه عنها فيما ذكر .

وقد استخلصنا من الفحص الذى اجريناه فى الشبابيك الاسلامية القديمة ومن التجارب والبحوث العملية العديدة وهى ما نحتفظ بنتائجها كلها المرفق منها وغير المرفق .

استخلصنا وسيلة عملية يتحقق باتباعها اخراج الشباك سواء للقلة أو الابريق أو ما شابه من الانتاج الفخارى العادى أو غير ذلك من القطع الفخارية التى ينتجها الفنانون المتخصصون حين يتجهون الى استغلال عملية التفريغ فى أوانيهم وتبعا لأفكارهم وتصميماتهم وقد كان سعينا فى البحث والتجربة يهدف الى نتائج يتوفر فيها القيم الفنيه المبتكرة التى يتضمنها الشباك الاسلامى القديم وكان هدفنا فى البحث التوصل الى نتائج متكاملة والتعرف الى حيل العمل لكل دقائق الشباك وفيما يلى شرحا للأسلوب الذى استخلصناه .

إن الخطوة الأولى لإعداد الشباك هى إعداد القطعة الطينية التى ينفذ فيها التصميم المفرغ وقد ثبت بالتجربة أن اعدادها بطريقة تحويل الطينة الى سائل وصبها بداخل قالب جص هى افضل الطرق واسلمها علما بأنه من المستطاع اخراجها بتخانات مختلفة تبعا لمدة بقاء السائل بالقالب ، ومن المفضل أن لايزيد ارتفاع جدار القالب على ٣سم وبعد التخلص من زائد السائل يقلب القالب منعكسا ، وتظل الطبقة الطينية التى تكونت بداخله ولا تفصل عنه ، وتبدأ عملية التفريغ فيها وهى رطبة. وقبل أن تبدأ فى الانكماش والأنفصال ، والواقع أنها عملية غرس عدة صلبة فى الطينة وليست عملية تفريغ . وتأخذ عملية الغرس طريقها بإستخدام مسامير ليست مدببة وذات اطراف مشكلة بأشكال هندسية أو زخرفية مختلفة .

وتستخدم المسامير المذكورة بالضغط بها بطريقة غرسها فى سطح الطينة الناتجة عن السائل الى ان يحس المشتغل بوصول المسمار الى سطح القالب وقد تلتصق قطعة بالمسمار ويلتقطها معه عند رفعه ، وقد يؤدى أحياناً غرس العقدة (المسمار) الى اطراف الفراغ الناتج عن الغرس فى الوجـــه الملاصق للجـص (انظر الرسم) .

ويتم تسجيل التصميم على النحو المذكور حيث يترك الطين فى القالب لبرهة قصيرة ثم يرفع من القالب لإتمام العملية .

ولا ننسى قبل أن ننتقل الى المرحلة الثانية أن ننوه بأن الخطوط الرفيعة جدا المتعرجة كأفاريز أو كرسوم لبعض الوحدات وهى مايكون بعضها واصلا الى سطح الجص ، وبعضها مجرد رسم سطحى تتم بأستخدام ابره رفيعة السن للغاية ولابد وأن تنفذ هذه الخطوط مجرد تفريغ السائل الزائد من القالب إذ أن حالة الرطوبة المذكورة هى الضمانات لعدم تفتت القطعة وتفككها كلها الى اجزاء اذا ما كانت الخطوط ذات الاستمرار واصلة حتى سطح الجص .

أما الأشكال غير الهندسية المفرغة فيستخدم فيها سلاح رقيق للقطع فى الطينة اثناء وجودها والتصاقها فى القالب .

كما ننوه ايضاً أنه لايشترط أن يكون القالب الجص من قطعة واحدة وانما يمكن صنعه على اجزاء بداخل جص عام يعرف بأسم (الشرية) .

يلي ذلك تلبيس قطعة الشباك فى رقبة القلة والابريق الذي يكون معدا قبل ذاك من احتفاظه بدرجة من الرطوبة والليونة ليتيسر ادماج الشباك فيه بوضعه على الدولاب ودورانه وضغط الاثنين بعضهما برقة ودون مساس بما تم من زخرف مفرغ أو مرسوم ثم يترك الشكل للجفاف حيث يصبح معدا للتسوية فى الفرن .

تجارب الطينة الصالحة للقلة

بالنظر الي الطينة التي استخدمت فى صنع القلة حاليا ، نجدها لا تختلف كثيرا عن الطينات التي استخدمت فى شباك القلة الاسلامى .

وتركيبة الطينة المستخدمة حاليا فى مصر .

٦٥ تبين ٣٠ طمي ٥ طينة سيل

ولكن هذه الطينة لما فيها من شوائب كثيرة فهى غير صالحة للطلاء الزجاجى مما جعلنا نجري تجارب طينات اخرى وتكون قابلة للحريق فى درجة حرارة ١٠٠٠ سنتجراد وفى نفس الوقت راشحة للماء وقابلة للطلاء الزجاجى .

والغرض من الطلاء الزجاجى هو الزخرفة فيضيف لمسة جمالية للقلة . والغرض الثانى هو الناحية الصحية وذلك بدهانها على فوهتها وعلى شباكها بالطلاء الزجاجى باعتبارها تحفة للزينة وعلى اعتبار استخدامها للشرب .

ولهذا اعدت طينات خاصة قابلة للطلاء اي جانب كونها راشحة عند حرقها حيث أن الرشح له الأهمية الأولى لأنه يسبب برودة الماء وهو يحدث من وجود مسام فى الطينة . وثانيا وجود مواد خشنه مثل Grite جرت أو مواد مضافة الى الطينة قابلة للاحتراق فتترك مسام تساعد على عمليه الرشح ولهذا اجريت عدة تجارب بإستخدام الجرت ونشارة الخشب الناعمة والحمرة والتبن والردة وكلها اصبحت صالحة لترك مسام بعد حرقها وبالتالي تساعد على عملية الرشح .

وتجربة الطينة الصالحة للطلاء والرشح وتحرق فى درجة ۱۰۰۰ سنتجراد التى استعملت فى القلل التي قمنا بتنفيذها وتتركب من .

اسوانلى	بول كلى	حمرة	ردة
٣٥	٣٥	٢٠	١٠

وتحرق فى درجة ۱۰۰۰ سنتجراد وقابلة للطلاء الزجاجى واذا كانت الاحجام كبيرة فى حجم الزير يستخدم التبن أو نشارة الخشب الناعمة مع الطينة بنسبه ١٠ ٪ ايضاً .

استخدامات اخرى للشباك

لاشك أن تلك الرقائق المفرغة الشبابيك تضيف جمالا الى القطع الفخارية وتبعا لذلك يستطاع اعتبارها اسلوبا زخرفيا يستخدم لاضافة نواحى جمالية الى قطع اخرى فخارية خلافا لجرار المياه على تنوعها سواء توضع فى فوهتها أو فى مواقع اخرى منها وقد حققنا ذلك فى عدد من الأوانى والنماذج .

وكذلك يمكن استخدام فكرة التفريغ فى :-

١- التماثيل الشعبية ٢- الأوانى الخزفية .

٣- قطع الاضاءة ٤- بعض قطع الزينة للسيدات .

٥- استخدامه فى بعض القطع المعمارية كالنوافذ والقواطع الداخلية (وجميع ماذكر يستطاع انتاجه فخارا فقط أوفخارا مزججاً . وقد حققنا ذلك فى عدد من الاوانى والنماذج) .

* * *

المراجع

١- الخامات المصرية - لوكس .

٢- الخزفيات الفنان نورتن وترجمة سعيد الصدر .

٣- شبابيك القلل تأليف م بيير المر سنه ١٩٣٢ .

٤- مقتنيات المتحف الاسلامى .

٥- رسالة الماجيستير د . نبيل درويش .

٦- بحوث شخصية فى مواقع الفخار .

* * *



مجموعة من الأوانى بها شبابيك القلل من إنتاج الباحث



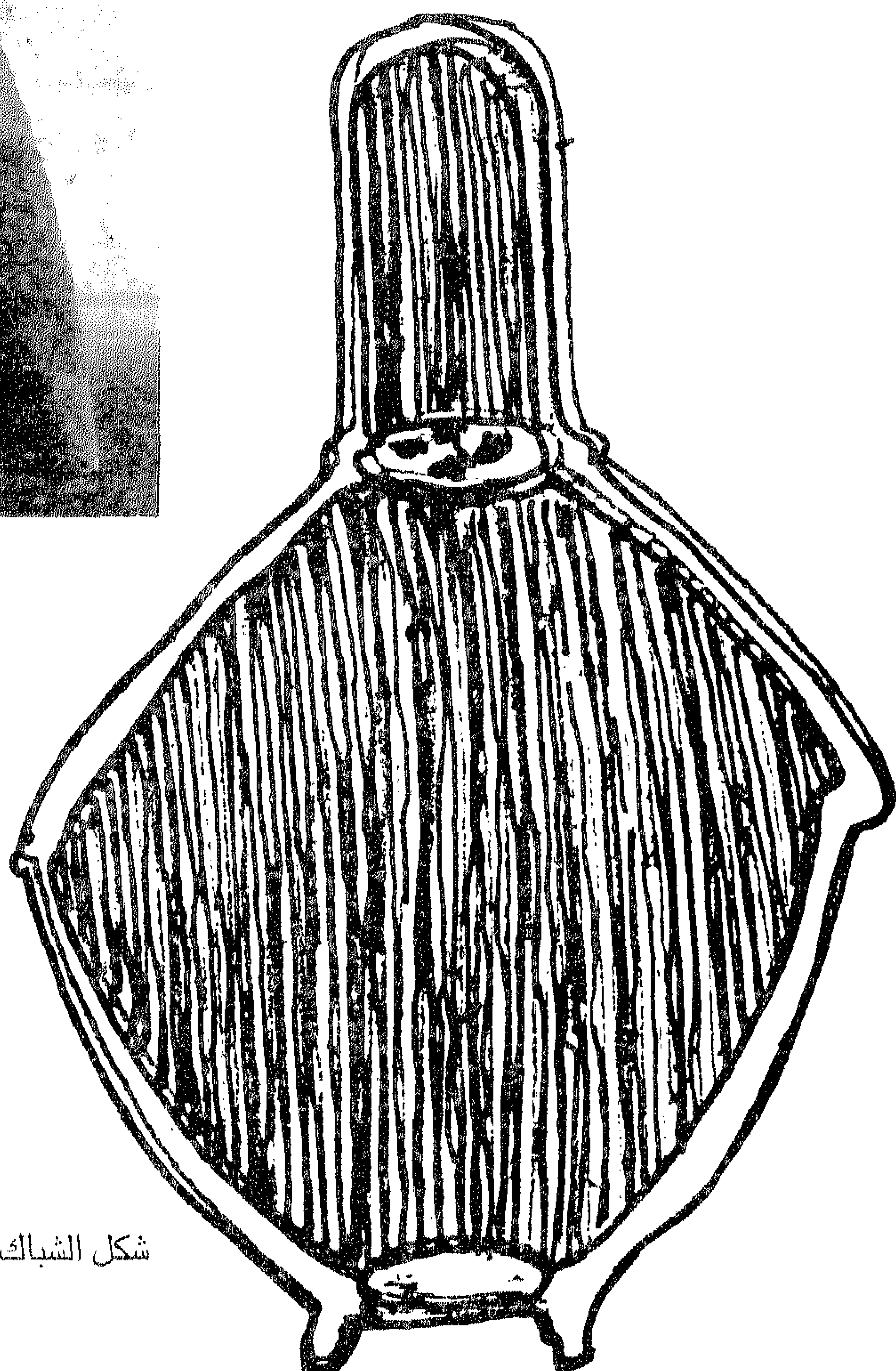
– مجموعة شبابيك القلل من إنتاج الباحث



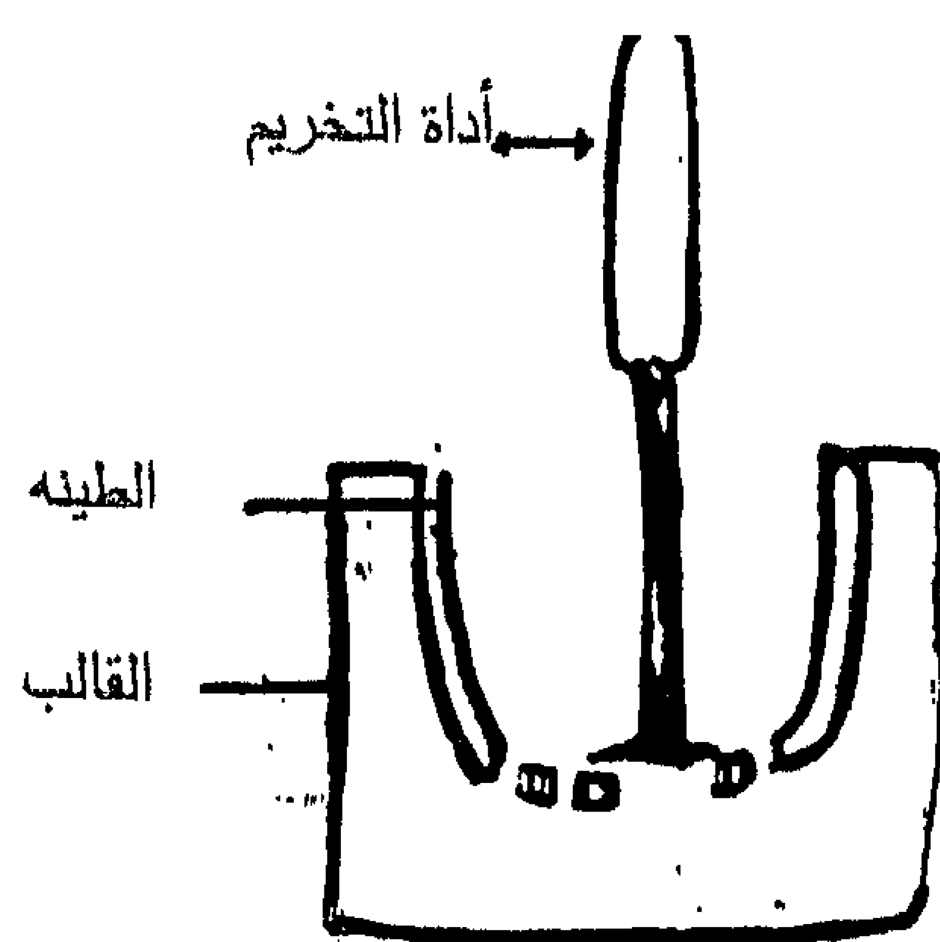
- شكل الشباك قديما



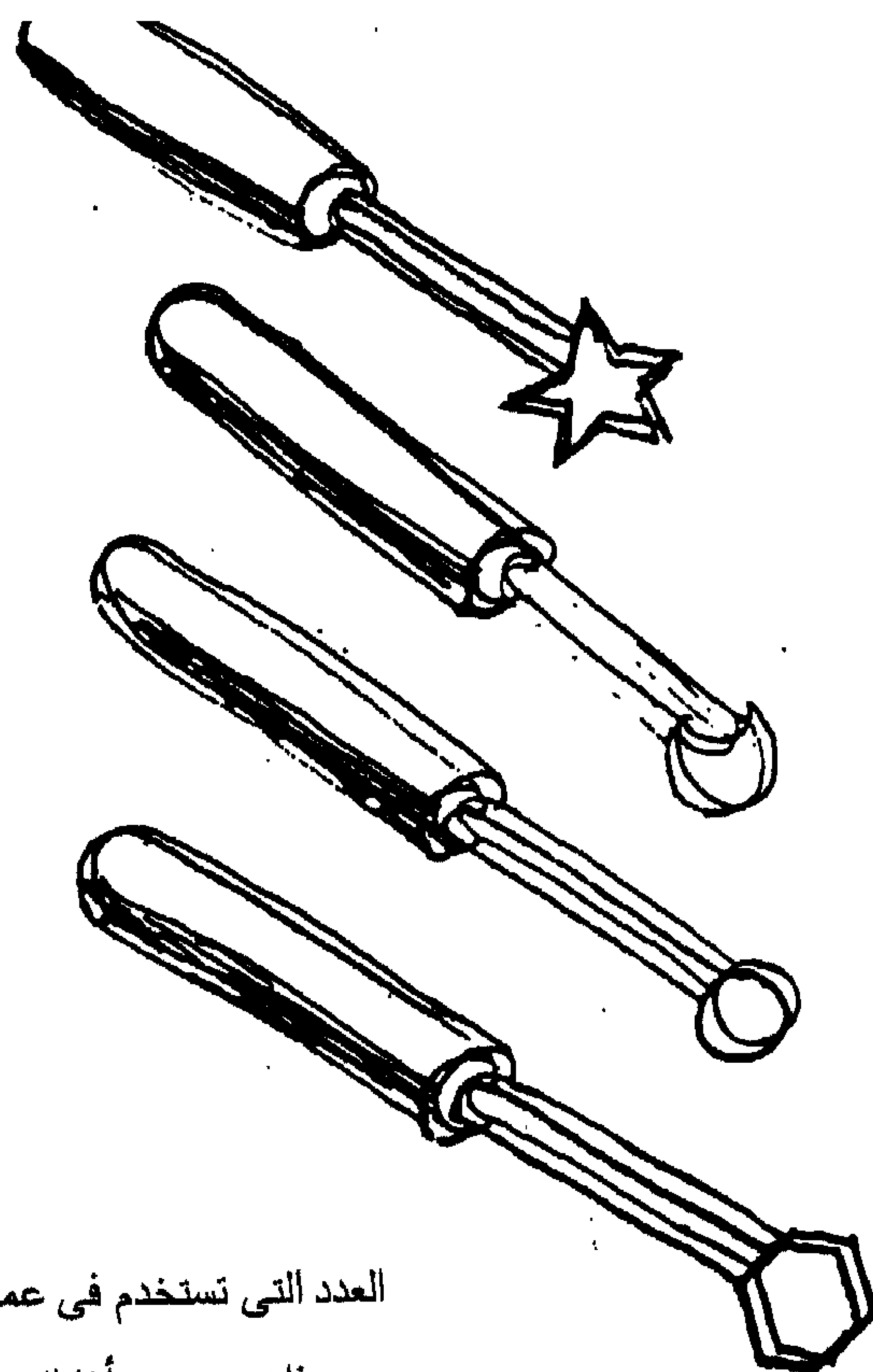
تمثال من الفخار من إنتاج الباحث



شكل الشباك حاليا بالفواخير



عملية التخريم



العدد التى تستخدم فى عملية التخريم

وهى ذات رؤوس بأشكال مختلفة «النجمة ، الهلال ، الدائرة ، المسدس»

الجراحة في فجر الاسلام

دكتور / هنري أمين عوض

اقتبس العرب من طب مصر واليونان وفارس وأضافوا إليه ما اكتسبوه من تجاربهم السابقة فى عهودهم الأولى فظفروا فى هذا المضمار بعلم وفير ولم يكن نقلهم عن الامم السابقة تقليدا اعمى وانما كان عن بينة وبصيرة . واعتمدوا على الاسلوب العلمى التجريبى فما اثبتوا صحتة قبلوه وما لم يقع دليل على صحته تركوه ويقول الرازى (ولانحل شيئا من ذلك عندنا محل الثقة الابعد الامتحان والتجربة) ونجد ان الجراحة العربية قد عكست ضوء الشمس الغاربة للجراحة المصرية واليونانية لأن الرومان لم يحسنوا القيام على هذا التراث الذى تركه السابقون ولكن تسلمة العرب فاحسنوه واتقنوه .

والعرب فى الجاهلية لهم طب تجريبى حذقوه ومارسوه وكانوا اول الامم التى بنت المستشفيات او ما يطلق عليها (البيمارستانات) والبيمارستان كلمة فارسية مشتقة من كلمتين (بيمار) بمعنى المرض و(استان) بمعنى مكان وأمدوا المستشفيات بالمعدات اللازمه للعلاج من ادوات علاجيه وطبيه وجراحية وتروى لنا اشعار الجاهلية عن كثير من الأمراض والجراحات وطرق العلاج والعمليات ومثال ذلك ماجاء فى رثاء الخنساء لاخيها صخر الذى غزا بنى اسد وغنم منهم ولكن اصابته طعنة دخل بها حلق من الدرع فى جسمه وعولج ولكن اندمل الجرح على الحلق ثم ظهر مكانه نتوء احمر واستدعى الطبيب الجراح الذى قام بالجراحةلازالة هذا الحلق كما برعوا فى علاج الكسور وخلع المفاصل واستخدموا الحجامة فى امتصاص الدم الزائد عن الجسم والذى يكون زيادته سببا فى التعرض لخطر جسيم وقد امتدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذه الطريقة فقال (خير الدواء العلق والحجامة) صدق رسول الله وكانوا يعالجون الباسوربدهنه بزيت الزيتون وقد امتدح الرسول الكريم هذا العلاج وعرفوا الاسنان واللثة وشدوا الاسنان بالذهب وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يشد اسنانه بالذهب وظل كذالك حتى اسلم وبرع العرب فى الجاهليه فى الجراحة عن تجربة وعن اخذهم من غيرهم من ابناء الامم الاخرى وذلك خلافا للراى السائد عن تأخر الجراحة عند العرب واعتبارها من الصناعات الممتهنة التى ينبغى للطبيب أن يتسامى عن ممارستها ولكن العرب قد مارسوا هذا الفن الجليل منذ الجاهلية وفجر الاسلام وابلغ مثال على ذلك وجود مجموعه كبيره من الاسوات او الاواس يقمن على تضميد الجراح وجبر العظام والوقاية من النزيف وغير ذلك من الاسعافات الجراحية ومن اشهرهن (رفيدة الاسلميه) وكانت متميزة بالجراحة امرها الرسول الكريم باقامةخيمة فى اثناء غزوة الخندق لتقوم بمداواة الجرحى واعتبر المؤرخون هذه الخيمة نواه لاول مستشفى فى الاسلام وكانت ايضا(اميمة بنت قيس العفارية) التى ساعدت فى علاج الجرحى فى غزوة خيبر ولحسن بلائها قلدها الرسول قلادة (وسام) ولما ماتت دفنت معها القلادة عملا بوصيتها وهناك (ام سليم)و (ام ايمن) و(ام عطية الانصارية) و(الربيع بنت معوذ) وكلهن اشتهرن بالجراحه و(ونسيبة بنت كعب) التى كانت تداوى الجرحى فى غزوة بدر .. وهناك اطباء وجراحون مهرة برعوا فى الجاهلية وصدر الاسلام مثل (الحارث بن كلدة) الذى كان مشهورا حتى انه سمى بطبيب العرب واصله من ثقيف ونشأ فى الطائف وكان معاصرا للنعمان بن المنذروامتد به العمر حتى مات فى خلافة معاوية بن أبى سفيان واسلم ولكن لم يحسن اسلامه ورغم ذلك كان الرسول الكريم يشير على صحابته اذا اشتد بهم المرض أن يعرضوا انفسهم عليه ثم جاء من بعده ابنه (النصر بن الحارث بن كلدة) اخذ الطب عن ابيه وسافر الى فارس وانضم اول ظهور الاسلام الى سفيان بن حرب وكان من اشد الناس حسدا للنبى مع انه ابن خالته وكان يظن إن مابرع فيه من الطب والجراحه والحكمه

يجعله اولى بالبنوة من محمد عليه السلام وايضا (ابن رميثة التميمى) وكان طبيبا فى عهد الرسول الكريم متخصصا فى الجراحة بارعا فيها .

وكان لابد لممارسة الجراحة أن يكون الجراح عالما بالتشريح وقداستقى العرب معلوماتهم فى التشريح عمن سبوقهم من اليونان أو الفرس أو عن طرق تشريح الحيوانات كالقردة وكانت مدرسة الاسكندرية مشهورة بذلك ويروى أن جالينوس حضر الى الاسكندرية ليتعلم التشريح فى مدرستها ثم ظل الأمر قائماً حتى دخول العرب إلى مصر و استمر بعد ذلك و كذلك كانوا يشاهدون العظام و تراكيبها فى المقابر و لكن لابد أنهم مارسوا التشريح و لو بصورة سرية و محدودة مثل تشريح القلب و العين و الكبد و الأمعاء و يدل على ذلك شرحهم الدقيق و الصحيح و مخالفتهم لكثير من اراء اسابقين من أطباء اليونان وقد شرح ابن النفيس فى كتاب (شرح تشريح القانون) تشريح القلب والرئة والعظام والعروق وكثير من مكونات الجسم مما يدل على ممارستة للتشريح ووصف الدورة الدموية الصغرى (الدورة الرئوية) بطريقة سليمةلاول مرة ويقول ابن القرطبى من اشتغل بالتشريح زيد ايمانا بالله ثم نجد الاطباء العرب يدرسون التشريح فى قاعات مخصصة لذلك فى جامعة (صقلية) فى القرن العاشر ونرى أن (موفق الدين البغدادى) فى كتابة (الافادة والاعتبار) أول من أشار الى موضع الخطأ فى كثير مما وصفه جالينوس وذكر الاخير أن عظم الفك يتكون من قطعتين ولكن الرازى أثبت أنه قطعة واحدة. وقد اكد الزهراوى امير الجراحة فى الاندلس العربية فى كتاب (التصريف لمن عجز عن التاليف) ضرورة تشريح الاجسام بعد الموت لمعرفة سبب الوفاة وذلك للانتفاع من هذه النتائج فى الاحوال المماثلةوكان العرب يحرصون حرصا شديدا على تنظيف الجلد قبل اجراء العمليات الجراحية فنجد أن ابن سينا ومن قبله قد وصفوا الخمر لهذا الغرض وذلك لاحتوائةعلى الكحول وكانوا عند عدم وجود الخمر يستعملون الغسل والماء لهذا الغرض وقد افردالزهراوى فى كتابة التصريف كثيرا من الآراء المبتكرة ذات الشان فى الجراحة وتعقيم الجروح وكذلك وصف وضع المريض اثناء العمليات الجراحية فى النصف الاسفل للانسان فقد اوصى بضرورة رفع الجوف والارجل قبل العملية الجراحية وهذا الوضع يشار اليه فى الطب الحديث باسم وضع(ترند لندبرج) كما إنه تنبه إلى استعداد بعض الناس للنزيف و هو ما يسمى بمرض (هيموفليا)و قد عالج النزف بالكى .

وعرف العرب طرق التخدير المختلفة فاستعملوا الأفيون والسكران وست الحسن واستعملوا الماءالبارد والثلج فى التخدير الموضعى كما عرفوا التخدير عن طريف الإستنشاق بواسطة الاسفنج المخدر وهو عباره عن اسفنج يوضع فى عصير الحشيش والافيون والزوران وست الحسن ثم يجفف بالشمس وقبل استعمالة ثانية يرطب على انف المريض المطلوب تخديره فتمتص الانسجة المخاطية المواد المخدرة ويذهب المريض فى نوم عميق يحرره من اوجاع العملية الجراحية .

ونجد فى الدولة الاموية ظهور عباقرة فى هذا الفن فى العهد العباسى عرفوا التخصص فى الجراحة فكان منهم الكحالون (اطباء العيون)والفاصدون والحجامون والمتخصصون فى علاج الكسور وجبرالعظام وفى أمراض النساء .

ومن أشهر جراحى الدولة الاموية (عبد الملك بن ابجر الكنانى) وكان نصرانيا ثم اسلم على يد عمر بن عبد العزيز وتولى التدريس بمدرسة الاسكندرية وكذلك (الحكم بن ابى الحكم الدمشقى)الذى

برع فى تركيب الادوية والجراحة ومارس الطب والجراحة وعاش نحو مائة عام وكان بارعا فى وقف النزيف ولم تكن الجراحة وقفا على الرجال ولكن زاولتها النساء فنجد (زينب طبيبة بنى اوْد)عالمة بطب وجراحة العيون وكذلك اخت الحفيد ابن زهر وابنتها وكانتا عالمتين وبارعتين بطب وجراحة أمراض النساء وجاء على بن العباسى المجوسى وكتب فصلا عن الجراحة فى كتابه الملكى (كامل الصناعة) وتكلم عن مختلف الجراحات ثم جاء ابن سينا بقانونه الذى اعتبر دستورا للطب وورد فيه ذكر كثير من العمليات الجراحية شرحها بعمق ودراية تدل على الممارسة ثم حدثت ثورة علمية فى الجراحة فى الاندلس وكان رائدها ابو القاسم خلف بن العباسى الزهراوى الذى الف كتابه (التصريف لمن عجز عن التاليف) وهوأول من جعل اساس الجراحة قائما على دروس التشريح واشار الى الكى الذى كان معروفا فى العصر الجاهلى وتوسع فيه وكان العرب أول من استعمل المجسات لتوسيع مجرى البول واخترعوا القساطر التى تستعمل لكيس التبول وكذلك اللالات الخاصة بتفتيت الحصاء واستخراجها وقد ذكرها الرازى والمجوسى ووصفوا الحقن المعدنية لادخال المحاليل المختلفة الى المثانة وكذلك استعملوا الحقن الشرجية وكان للعرب سبق استعمال المواد الكاوية فى الجراحة كما انهم اول من استعمل الخيوط الجراحية استعملها الرازى مصنوعة من امعاء الحيونات مثل القطط وغيرها ثم جاء الزهراوى فوصف خياطة الجروح والانسجة وكان اول من استعمل خيوط الحرير وعلم تلاميذه كيفية خياطة الجروح بغرز داخلية مسحورة حتى لايترك شيئا مرئيا منها كما وصف كيفية التخييط بابرتين مثبت فيها خيط واحد وكان الزهراوى اول من استعمل السنانير المختلفة لاستئصال الزوائد اللحمية من الانف وكذلك ذكر خافض اللسان أثناء اجراء عملية ازالة اللوزتين والعرب اول من فتح القصبة الهوائية شرحها ابن ماسوية ونقل الرازى وصفه فى كتاب الحاوى وقد مارسها الزهراوى على احد المرضى بنجاح ومن بعده ابن زهر كما استعملوا كثيرا من الآلات لفتح السدد فى الاذ ن وقطع اللحم الزائد كما أن الرازى اول من استعمل الفتائل الجراحية والانابيب التى يمر بها الصديد والقيح والافرازات المختلفة كما بزلوا البطن فى حالة الاستسقاء.

وبرعوا ايضاً فى جراحة العظام وعالجوا خلع الكتف وكان المجوسى أول من وصف كسر الفك وعلاجه وذكر الرازى كثيرا من الجبائر المستعملة فى علاج الكسور الكبيرة ولم يهمل الكسور الصغيرة مثل كسر الانف ونجد ايضا وصفا متقنا لعلاج كسر الانف فى كتاب العمدة فى الجراحة لابن القف وذكر الزهراوى فى رسالته اراء ودراسات هامة فى الكسور والخلوع ووصف كثيرا من العمليات الجراحية وكذلك كثيرا من الجبائر والاربطة المستعملة فى كسور الجمجمة والكتف والذراع والاصابع ومن ملاحظاته الهامة كيفية المحافظة على الانسجة الرخوة الملامسة لحافة الجبائر واشار الى وصف شئ من الصوف او القطن فى حافة الجبيرة كما ذكر حدوث الشلل نتيجة كسر الفقرات وكذلك وصف التهاب المفاصل وشلل المفاصل وخصوصا الذى يصيب فقرات الظهر .

ويعتبر العرب اول من تناول جراحة التجميل ويحدثنا الرازى عن تعديل التشوهات فى الشفة والأذن والانف وجاء بعده الزهراوى الذى ذكر كثيرا من هذه التشوهات فى الفم والفك وطريقة معالجتها وقد فرق اطباء العرب (قبل الرازى وابن سينا والزهراوى) بين الاورام الحميدة والاورام الخبيثة ووصف الرازى الاورام السرطانية بانها صلبة ساخنة المجس اما ابن سينا فقال بأن الورم الخبيث لونه غامق ينمو بسرعة وشكله غير منتظم ويصاحبه الم شديد وكان العرب على دراية

ومهارة فى اجراء الجراحات على الاوعية الدموية فذكر على بن عباس المجوسى فى كتابه كامل الصناعة الدوالى وإنتفاخ جدار الاوعية الدموية واستطاع الرازى أن يفرق بين النزف الشريانى والنزف الوريدى واستعمل الضغط بالاصابع والرباط لوقف النزف وكان الزهراوى اول من قام بربط الشرايين عند اصابتها بجروح .

وكان لقدماء المصريين حضارة رائعة ووصفوا كثيرا من العمليات الجراحية والالات المستعملة فيها وتعتبر بردية (ادوين سميث) اقدم بردية جراحية ١٦٠٠ ق.م و(بردية كلهون) اقدم بردية فى امراض النساء وجراحاتها . ومن البرديات الهامة ايضا برديتا ابيرز وهرست .

ثم جاء اليونان واخذوا الطب والجراحة عن قدماء المصريين ولكنهم صهروها فى بوتقة المعرفة وخلصوا الطب من الكهانة والسحر وجعلوه طبا تجريبيا منطقيا. وفى عهد البطالمة اذدهرت مدرسة الاسكندرية ونجد ان الطبيب الذائع الصيت (جالينوس) يحضر اليها لتعليم التشريح وتوجد من العصر البطلمى بمعبد كوم امبو بصعيد مصر رسوم الالات الجراحية المختلفة تشبه الالات التى عثر عليها فى مدينة الفسطاط وظلت مدرسة الاسكندرية عامرة بالاطباء والجراحين حتى الفتح العربى لمصر على يدى عمرو بن العاص وبدأت حركة الترجمة والتطور السريع والجراحة .

وبعد الفتح العربى لمصر سنة ٢١ هـ ايام الخليفة عمر بن الخطاب على يد القائد عمرو بن العاص التقت حضارة العرب القادمين من شبه الجزيرة بحضارة الفراعنة التى تسلمها ابناء وادى النيل وكان لهذا الالتقاء الحضارى نتيجة مباشرة فى دفع عجلة التقدم فى شتى ميادين العلوم والمعرفة والصناعات والنظم الادارية وخاصة العلوم الطبيعية والجراحة .

وكان جامع عمرو بن العاص الذى اسسه عند فتح مصر سنة ٢١ هـ (٦٤١ ميلادية) أول جامعة اسلامية فى افريقيا وظل نورعلمه يسطع على الأمة الاسلامية ثلاثة قرون متتالية وكان يجاوره أربعة مستشفيات وهى القناديل والمعافر والأسفل والأعلى . وكان بالجامع الطولونى الذى أنشأه احمد بن طولون فى القرن الثالث الهجرى مدرسة طبية ومن درسوا الطب فيه محمد بن عبدالله المصرى وعمر بن منصور البهادرى .

ثم فى الجامع الازهر الذى انشاه المعز لدين الله الفاطمى ، كانت تدرس علوم الطب ومن اشهر اطبائه عبد اللطيف البغدادى .

ويعتبر ابو القاسم ابن عباس الزهراوى (قرن ١٠م) من ابرع من مارس الجراحة وكان عالما باصول التشريح ومن الجائز ان يكون قد مارسه سرا وكان ينص على أن يكون الجراح دارسا للتشريح والاكانت النتيجة هلاك المريض وتعتبر رسالته «التعريف لمن عجز عن التاليف » من اهم الرسالات وقد اشار الى انواع كثيرة من الكى ووصف مجموعة كبيرة من المكواه ، كل نوع لمرض معين ، ونص على ان تكون المكواه من الحديد وليست من الذهب وقال بأن الكى احسن فى الربيع ، وكان يحدد المكان المراد كيه على هيئة ورقة الاس . وقد ذكر فى كتابة الابر والخيط للعمليات الجراحية ووصف أدوات كثيرة لعلاج امراض الاذن مثل ملقاط لازالة الاشياء الغريبة من الاذن وقطارة معدنية لتقطير المواد الكيمائية بالاذن ، وتكلم عن علاج الاسنان وخلع الضرس ووصف عمل كبرى من الذهب لتقوية الاسنان المخلخلة واشار الى عمل ضروس صناعية من عظم البقرة وتكلم عن

الاورام الخبيثة وقال إن استئصالها يفيد فى الحلات الاولى وبان الجراحة لاتنفع فى الاورام المتأخرة وتكلم عن تفتيت الجنين الميت فى بطن الحامل وقد بين الزهراوى فى كتابه كثيرا من الادوات الجراحية بالوصف والرسم ويعتبر هذا عملاً فريداً لم يسبقه احد فيه ... ولكن للاسف لم يصلنا اى من الادوات الطبية والجراحية التى استعملها الزهراوى ووصفها فى كتابه .

وقد اجريت حفريات فى مدينة الفسطاط الاولى لمصر الاسلامية والتى اسسها عمرو بن العاص سنة ٢١هجرية فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب وكشفت هذه الحفريات عن كثير من الالات الجراحية والمعدنية وتعتبر أقدم وأول ماعرف من نوعها ورغم أن تاريخ صنع هذه الالات لم يحدد ولكن المعتقد أنها من عصر سابق للعصر الفاطمى واذا قارنا بين هذه الالات وبين التى وصفها الزهراوى فى كتابه التصريف يتضح لنا الخطوات التى خطتها الالات الجراحية منذ العصور الاسلامية الأولى حتى عصر الزهراوى وهذه الالات التى عثر عليها كانت لاشك مستعملة فى الجراحات العسكرية ويشابه بعضها الالات التى استعملها قدماء المصرين والتى وجدت فى مقابرهم على لوحاتهم .

وهذه الادوات تشتمل على مجموعة كبيرة من المكاوى التى تستعمل فى الكى وهى انواع واشكال عدة تستعمل فى مختلف العمليات الجراحية مثل نواصير العين والاست وفى أستئصال الاورام الحميدة والخبيثة والبواسير والزوائد اللحمية وعرق النساء والقيلة المائية والفتق والشفة المشقوقة ولوقف النزيف الشريانى وكذلك وجدت كثير من المجسات المعدنية ويعتبر العرب اول من استعمل المجسات وكذلك مجموعة من خافض اللسان والملاقط والجفوت المختلفة الاشكال والاحجام لوضع المواد الكاوية على البواسير وللهاة الملتهبة . ومن الالات الجراحية التى وجدت فى حفائر الفسطاط والموجودة فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة والمتحف القبطى بمصر القديمة ومجموعتى الخاصة وهى :-

١ - مكواة زيتونية يكوى بها الفالج والصادع وخلع الورك .

٢ - مكواة ذات السفودين يكوى بها المفصل فى الخلع والشلل

٣ - مكواة اسية طرفها يشبه ورق الاس يكوى بها الشعر الزائد فى العيون .

٤ - مكواة مساوية يكوى بها فى حالة وجع الظهر فى ثلاثة صفوف فى ثلاث كيات .

٥ - مكواة مجوفة طرفها انبوبى دقيق الجدار والطرف الاخر مصمت كالمرود

٦ - مكواة دائرية يكوى بها فوق الحدبة البارزة .

٧ - مبضع حاد الطرفين لشق الجلد فوق الشرايين لربطها .

٨ - مبضع نشيل .

٩ - مبضع يشبة الحربة .

١٠- مبضع اللوزة معقوف الطرف وهوحاد من جهة غير الجهة الاخرى .

١١- مبضع قصير ، نصله مستدير لشق الاورام والتجمعات الصديدية والخراريج .

١٢- مبضع معقوف الطرف احد اطرافة حاد والطرف الاخر غير حاد يشق به على البواسير .

١٣- سكين عريض .

١٤- مبضع مثلث الشكل لطيف يستعمل فى جراحات العين .

١٥- مبضع لطيف حاد من جهة يستعمل فى جراحات العين .

١٦- جفت لاخراج المواد الغربية الساقطة فى الاذن .

١٧- منقاش وهو جفت ذو اسنان لازالة الثأليل .

١٨- جفت وله حابس لوقف النزيف .

١٩- جفت ينتهى طرفة بد ائرتين يستعمل لازالة بقايا العظام من الكسور .

٢٠- جفت لطيف لازالة الشعر الزائد من العين .

٢١- جفت لطيف ومعة مرود لازالة المواد الغريبة الساقطة فى العين .

٢٢- انبوبة النمله وهى من الحديد جزؤها الاعلى مصمت توضع على النملة وتشد عليها حتى تقطعها من جذورها .

٢٣- قصبتان يشد بهما على الجلد الزائدفى حالة استرخاء الجفن فيسقط بعد ايام .

٢٤- ملاعق مختلافة الاشكال والاحجام لوضع المواد الكاوية على اللهاة والنواسير

٢٥- مدس وهو الة كالمرود ينتهى بملعقة حادة تدخل فى الاورام لمعرفة انواعها .

٢٦- نوع من المقصات يسمى المقراض .

٢٧- سنارة ذات ثلاث شعب لتشمير الجلد فى العمليات الجرحية .

٢٨- مجارد من الحديد طرفها كالمبرد لجرد العظام.

٢٩- خافض اللسان لكبسه فى عمليات استئصال اللوزتين.

٣٠- الة لحفظ الصفاق من حديد تشبه الملعقة احد الطرفين عريض والاخرضيق توضع لحفظ الانسجة اثناء العمليات الجراحية حتى لا يغوص فيها المشرط .

٣١- عتلات مختلافة الاحجام لازالة وقلع بقايا الضروس المكسورة .

٣٢- موسعات لتوسيع مجرى البول وللنواسير .

٣٣- بريد وهو كالمرود لجس النواسير وسبر غورها .

٣٤- سنارة لقلع بقايا الاسنان .

٣٥- الة كالمرود وطرفها معقوف كالسنارة لازالة الاجسام الغريبة من الحلق كالعظام أو قطع اللحم .

٣٦- ملعقة كحت لطيفة تستعمل فى عمليات العين .

٣٧- مثقب يصلح لثقب العظام .

٣٨- الة لكحت جفن العين من الداخل فى حالات الرمد الحبيبى .

٣٩- انبوبة مجوفة طرفها مبرى على هيئة القلم لبزل الماء من البطن .

٤٠- انبوبة نحاسية لاخراج الديدان والصديد من الأذن اسفلها ضيق واعلاها واسع يدخل الطرف الضيق فى الاذن ثم يمص مصا ليخرج مافيها .

٤١- ابرة مستقيمة لخياطة الجروح .

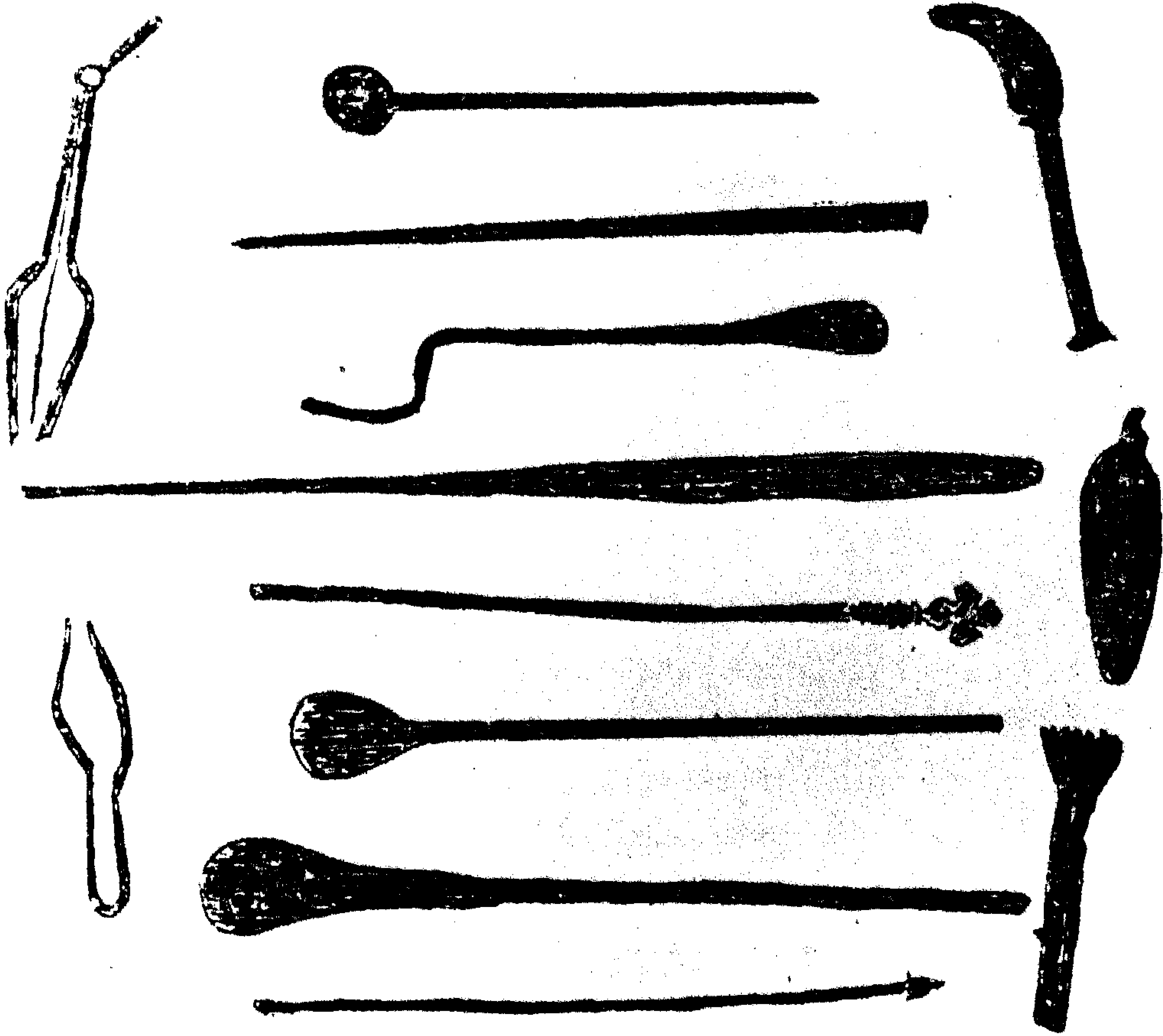
٤٢- ابرة مستديرة لخياطة الجروح .

٤٣- مقطع لطيف يقطع به العظم المكسور .

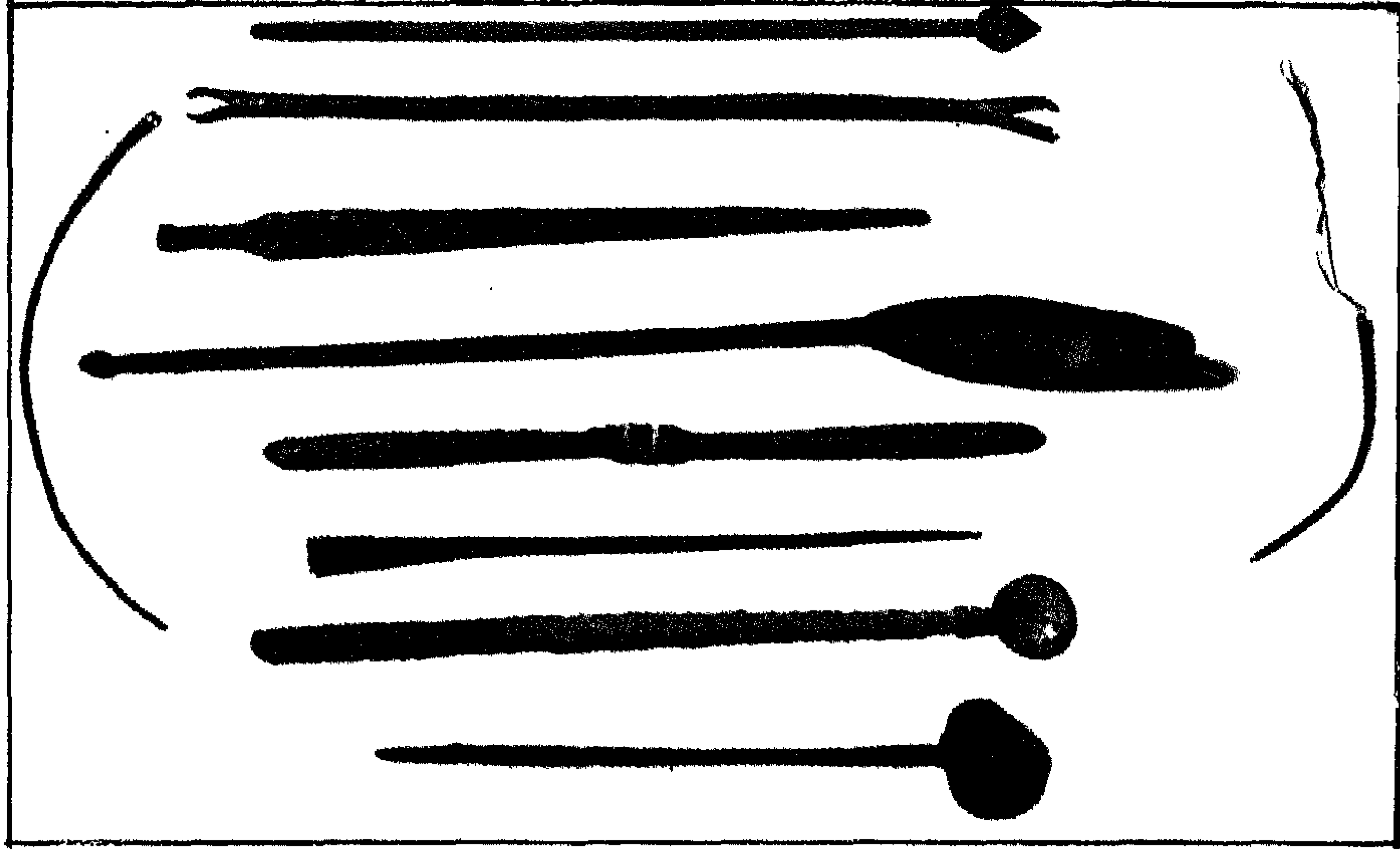
٤٤- مقطع عريض يقطع به العظم .

٤٥- مقطع اخر لقطع العظم نهايته على شكل طائر .

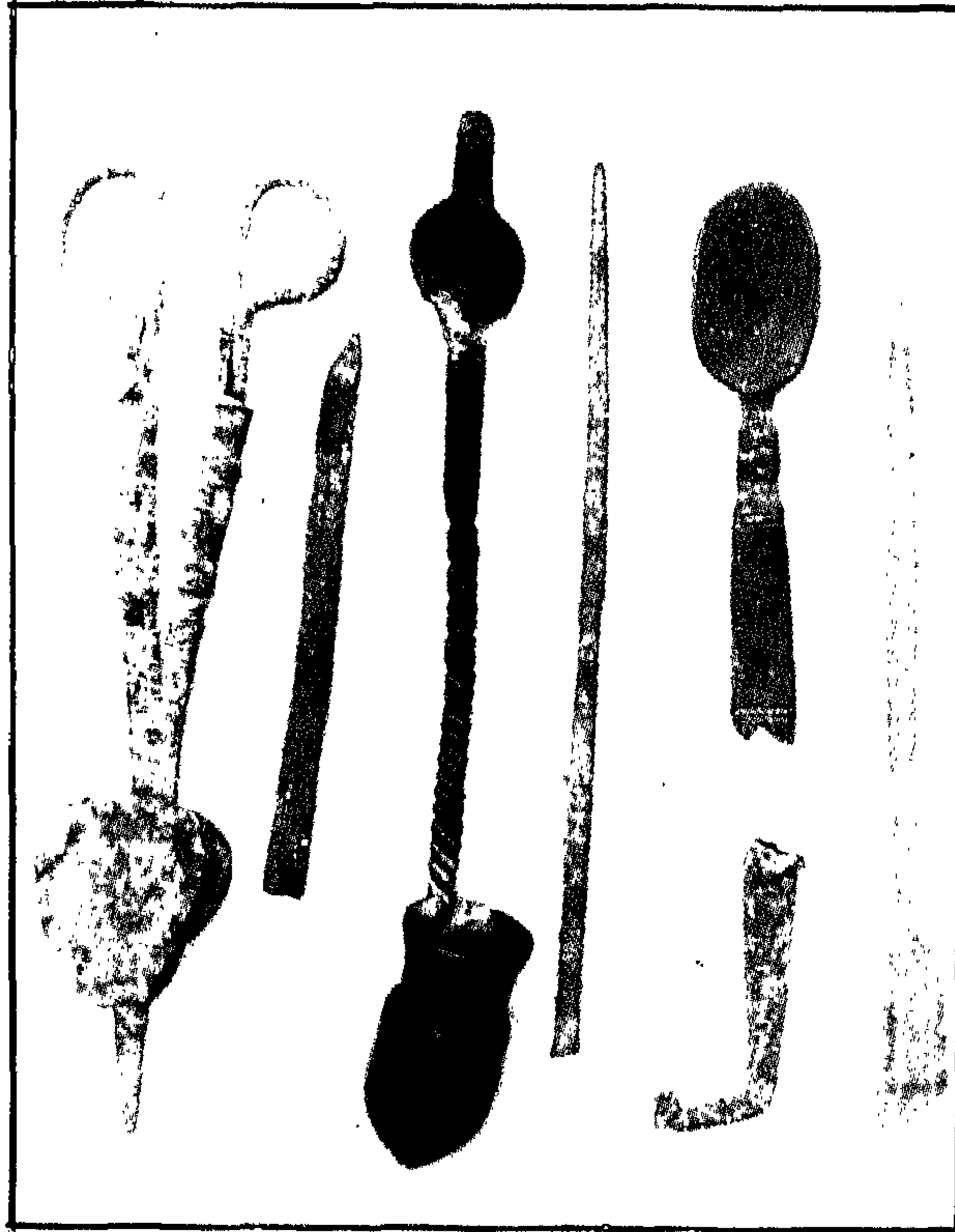
* * *



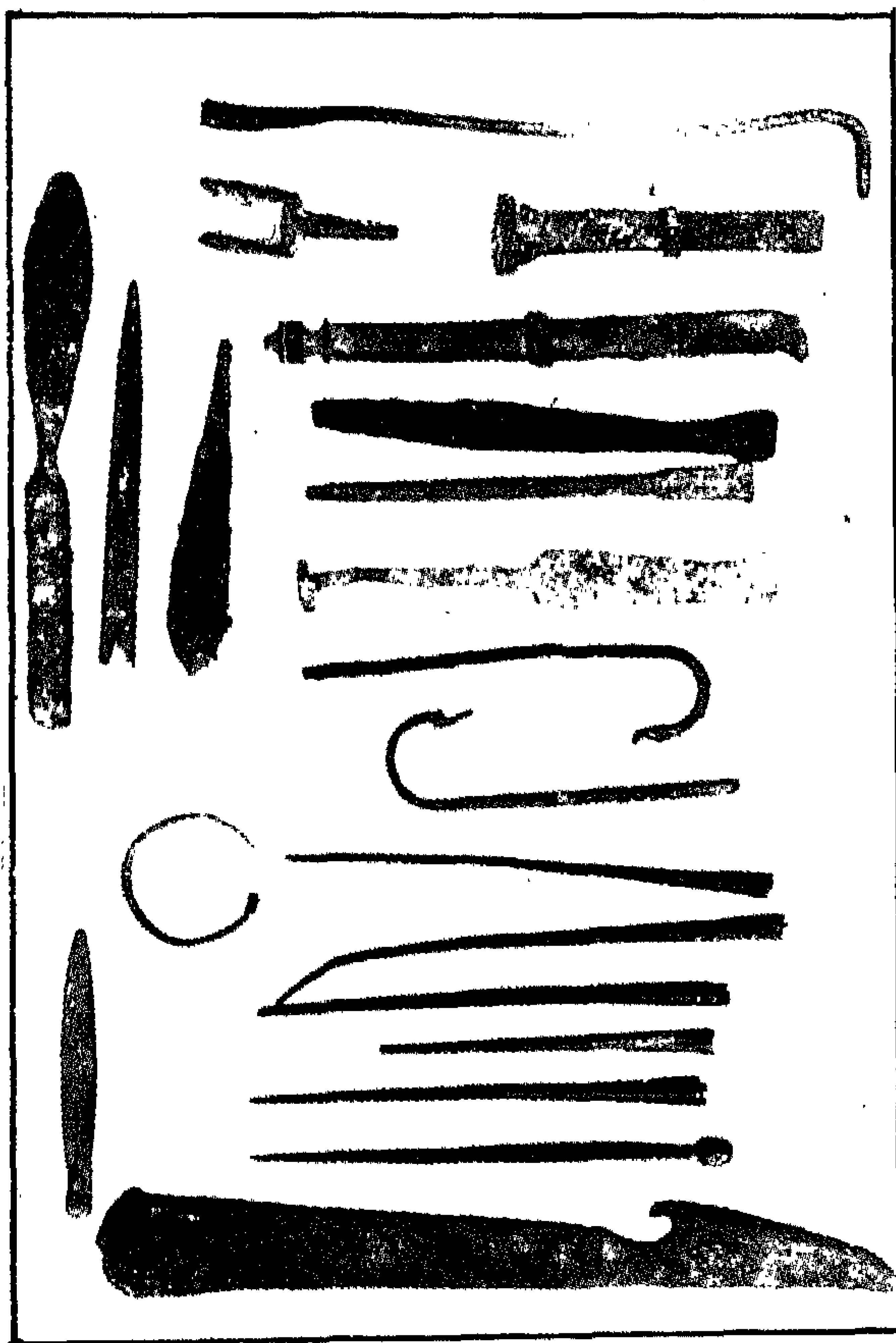
مجموعة آلات الجراحة الموجودة بمتحف الفن الاسلامى
ومن بينها مكاوى مختلفة الاشكال ، ومسابر ، وملاقط ، ومبضع اللوزة



ملاعق لوضع المواد الكاوية على اللهاة والنواسير ، مبضع نشيل ومكاوى زيتونية وذات السفودين



مقص وأنبوب لبزل الماء وكيال ومسبار وأنبوب للاذن



مجموعة مشارط وعتلات وسنانير ومسابر وملاقط وابرة لخياطة الجلد

رقم الإيداع ٩٨٦١/٢٠٠٠
I.S.B.N.
977-305-229-X
مطبعة المجلس الأعلى للآثار